أدب الرحلات

سامي كليب

الرحّالة

هكذا رأيت العالم

نوفل

سامي كليب

الرحّالة

هكذا رأيت العالم

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2018 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2018

المكلّس، بناية أنطوان

ص. ب. 11-0656، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان

info@hachette-antoine.com

www.hachette-antoine.com

facebook.com/HachetteAntoine

instagram.com/HachetteAntoine

twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: **كارين الذهبي**

تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**

تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-174-8

ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-175-5

مدخل

في صِغَري، كنتُ أحلُم بأنّي أطير. ما إن أغرَقُ في نومي حتّى أراني محلِّقا فوق المدن والجبال. أقتربُ من النجوم، أهبط بين البيوت والحدائق والغابات، أرافق الطيور في تحليقها، أقطف من الأشجار أفضل ثمارها وأينعها، أستريح فوق غيمة يتيمة في سماء صيفيّة، ثمّ أنزل لأشارك الناس أفراحَهم وأحزانهم. كنت أنتظر مجيء الليل لأنام بغية التحليق مجدَّدا في السماء، كلَّ ليلة. كانت أحلامي تحمل إليَّ الكثير من الفرح والغبطة. لعلها كانت تُبعِدني أيضاً عن ويلات السنوات الأولى للحرب، في بلدي لبنان. كان كلّ حلم بمثابة نافذة على مساحة من الفرح. أُغمِض عينيَّ، أُزيحُ ستائر النوافذ، وأسافر صوب سماء بلا حدود ولا قيود.

يقال في عِلم الأحلام، إنّ بعضها امتدادٌ لرغباتنا، وبعضها أمنياتٌ، وبعضها الثالث تعبيرٌ عن نقص. لعلّ الأسباب جميعاً اجتمعت في أحلامي. تحققت رغبتي عبر مهنتي. لم تمضِ سنواتٌ على دخولي عالم الصحافة، حتّى أغراني الحِلُّ والترحال. كنت أتقدّم إلى كلّ مهمّة تُناطُ بي، سواء كانت على خطوط النار، أو في الفنادق ذات النجوم الخمس؛ في جبال كندا، عند سكّانها الهنود الأصليّين، فوق الثلوج، وفي صقيع الأربعين درجة تحت الصفر، أو في خيام الصحارى وقَيْظ الخمسين درجة فوق الصفر.

سرعان ما لقَّبني رفاق المهنة وأصدقاء الدرب بـ«ابن بطوطة الحديث». بعضهم سمّاني «البدويّ الأنيق» لأنّي أحببت الصحارى، وتعلقت بحياة الخيام البسيطة فوق رمالها الذهبيّة ولياليها الهانئة المكللة بالشِعر، تمتعت بصباحاتها الحاملة إليّ روعة الشروق وحليب النوق وألذّ التمور ووجوهاً باسمةً مرحبة. فضّلتها على القمم السياسية العقيمة، وعلى مؤتمرات الكلام الدولية، التي لم تُطعِم فقيراً ولا أوقفت حرباً. أمّا صفة «الأنيق» فلأنّي أخذت من حياتي الباريسية شيئاً من أناقة اللباس الغربي.

أغرتني قصص ابن بطوطة منذ صغري. كنت ألاحقها بعيداً عن أعين الراهبات اللواتي كنَّ يُرِدْنَ لنا فقط أن نقرأ بالفرنسية. ذهبت أبحث عن تاريخ هذا الرحّالة في المملكة المغربية. قيل لي إنّ ضريحه في طنجة. سأسرد في هذا الكتاب قصّتي الغريبة معه، كما سأروي كثيراً من القصص التي عشتها، والمفاجآت التي تعرَّضت لها، وعجائب المجتمعات التي رأيتها. لكنّي أدركت أنّ السفر وحده لا يكفي، وأنّ علَيّ، كلّما سافرت أكثر، أن أقرأ أكثر. أدركتُ أيضاً أنّه مهما أغراني السفر وأغوَتْني حياة الترحال، يجب أن أعود إلى وطني وجذوري وأهلي. لكن قبل أن أعود، قرّرت أن أذهب إلى حيث يأخذني الخيال في عالم الواقع. بينما كنتُ أبحث في المملكة المغربية عن ضريح ابن بطوطة، تذكّرت الشاعرَ التونسي، وهو بعدُ فتىً، يصرخ، غير بعيد من هنا:

إذا ما طمحتُ إلى غايةٍ / ركِبتُ المنى وخلعتُ الحذر

ولم أتجنّبْ وعورَ الشعاب / ولا كُبَّةَ اللهَبِ المستعِر

ومن يتهيَّبْ صعودَ الجبال / يعِش أبدَ الدهر بين الحفر

فعجّت بقلبي دماءُ الشباب / وضجَّت بصدري رياحٌ أُخَر

رفضتُ لقبَ «ابن بطوطة الحديث» لأسباب سآتي على ذكرها لاحقاً. لكنّ أقداري أخذتني إلى حيثما وصل، ثمّ توسَّعت رحلاتي فوصلتُ إلى أبعد مما وصَل. سافرتُ إلى معظم دول العالم. عشتُ ظروفاً قاسيةً في العراء. رأيت الفقرَ يقضي على أجساد في الصومال، اكتشفتُ الدعارة المقنَّعة في تايلاند، استمعت إلى «أحلام» الانفصال عند بعض الأمازيغ، أدركتُ أهمّية الثقافة لخلق مدينة ساحرة كنيويورك، مشيت في أزقّة الأحياء الفقيرة (فافيلاز) في البرازيل، رأيت الجراد يلتهم ما بقي من شجر

في الصحراء. سامرت الرمالَ وضوءَ القمر، وركبتُ الجمال والحمير والأحصنة. تمتّعتُ بأفخم الفنادق في الغرب. مشيتُ في المدن الرائعة، وطُفْتُ في الأرياف والقرى المنسيّة، توغّلت في الأدغال والغابات، أبحث عن قبائل وشعوب لا تزال حيَّة في التاريخ. رحتُ أقطَعُ جغرافيا هذا العالم ناشداً التاريخ وحضارات أهله، وقصَصَهم ومآلات حياتهم. عرفت القيظ وجمال الشعر وطيبة الناس في موريتانيا، وتمتعت بالشلّالات الهائلة في فوزديغواسو البرازيلية. عايشت حضارات وثقافات ولغات متعدّدة، تآلف قليلها وتنافر كثيرها. مررت بين خطوط النار والموت، ولامست خطوط السعادة والفرح. شاهدت بأمّ العين أطفالاً يتضوّرون جوعاً، ثمّ يموتون في بلاد عربيّة، وعرفت موائد يموت أهلها من التخمة في بلاد عربيّة أيضاً. نمت على الشواطئ التي لم تطأها قدم في جزر القمر، وخزّنت القات مع أهله في اليمن، ورقصت بالعصا كما يفعل الرجال في موروني.

كانت رحلتي الأولى إلى الجزائر. البلد الذي دغدغت ثورته المجيدة مخيّلتنا. توجّهت إلى عنّابة، المدينة الساحلية الرائعة. كان ذاك اتّصالي الأول مع المغرب الذي عشقته لاحقاً. اكتشفت أنّنا في المشرق نهمل، جهلاً أو تجاهلاً، ذاك النصف الآخر من جسدنا العربي والأمازيغي الحاضن حضارات وثقافات هائلة، والحامل للمشرق حبًّا وتضامناً قلَّ نظيرهما. كان سبب الرحلة المشاركة في مؤتمر لشبيبة المتوسّط. رأيت آلاف الشبّان من مختلف الدول يقفون كرجل واحد ينشدون أغاني مارسيل خليفة «مناضلون». كانت أحلامنا كبيرة قبل أن تقتلها موجات الفتن والتكفير والإرهاب. ففي عنّابة الجميلة نفسها اغتيل لاحقاً الرئيس الجزائري وأحد أبطال الثورة والرجل الطيّب محمّد بوضياف.

أمّا رحلتي الثانية فكانت إلى فرنسا للدراسة، ولكن ربّما أيضاً للنأي عن لبنان الغارق بالحروب. قصدتها بعد فترة قصيرة على استشهاد والدي، خلال الاجتياح الإسرائيلي، تاركاً خلفي والدة ظلت مضمّدة بجراح الاجتياح حتّى غادرتنا. كم كنت أحبّ لو أنّهما على قيد الحياة الآن ليستمتعا معكم بقصص رحلاتي. بعد الجزائر وفرنسا حملتني مهنة الصحافة الجميلة والمتعبة في آن واحد، إلى أبعد ممّا رسمه خيالي. حين يرسم الخيال مجالاً رحباً، تصبح مراقصة الموت في دول الحرب مثيرة كمراقصة حسناء إسبانية في أحد نوادي برشلونة. بين الموت والحياة، في رحلة الإعلام، يكمن سرّ المهنة وبهاؤها.

علّمني السفر والترحال الانفتاح على الإنسان، أينما كان. تعلمت التسامح وفهم الآخر. أدركتُ أنّ في قلوبنا من الحبّ ما يصنع من هذا الكون كتلة من جمال ومحبّة. تقبّلت عادات الشعوب، مهما كانت غريبة علَيّ. آمنت بضرورة مدِّ جسور تواصل بين بني البشر. فهمت أنّ المال لا يصنع السعادة، وإنّما يصنعها التواضع والقناعة والأشياء البسيطة. ما عدت أعرف معنًى للحقد، ولا عدت أبرّر الجشع واللهاث خلف المال والمجد والمادّة، لأنّها جميعاً، لا تساوي أُمسِيةً واحدة من الشعر والفنّ والغناء والأدب، تحت خيمة موريتانية.

في هذا الكتاب، سأروي أبرز تلك الرحلات، لعلّها تُنسيكم كما كانت تنسيني هموم أوطانٍ حملتها في قلبي حيثما رحلت، وأينما حلَلْتُ، وحملت إليها بعضَ قصص ترحالي. سأتوقف عند بعض الشخصيّات التي زرتها، وكان لها أثرٌ في نفسي، وربما في تاريخ أمّتنا وتاريخ الإنسانية. لكنّني سأتجنّب الحديث عن دول الحروب والاجتياحات والدماء والدموع، لأنّني أريد لهذا الكتاب أن يكون لحظة أمل وفرح، حتى وإن تحدَّثت فيه عن إحدى كوارث القرن الإنسانية، في الصومال.

وما رغبتُ قَطّ في أن تكون لغة القصّ والتوصيف جافَّة في هذا الكتاب، ولا متقعِّرة في صوغ عباراتها، لأنّني أنفر أصلاً من هذا التقعّر، ولأنّه يكبّل انسياب العبارة وسلاسة التعبير، ويكبح عفويّة التوصيف؛ ولا رغبتُ كذلك في خلق أوهام خيالٍ تغالي في سرد رحلاتي، فآثرْتُ أن أروي ما عشته فيها وما رأته عيناي واختزنه قلبي، بلغة بسيطة قريبة من الناس والأرض والشجر. لم أضع تواريخ محدّدة لرحلاتي، إلّا في ما ندر، فقد أردتها صالحة لكلّ مكان وزمان. وربّما كنتم تدركون تواريخ بعضها، غير أنّه لا أهمّية لذلك، فالأهمّ هو أنّني سعيت إلى نقل مشاعري كما هي، وكما كانت في تلك

الأزمنة والأمكنة. تعلمت في سفري أن يتّسع عقلي لكلّ الحضارات، وأن يتقبّل الآخر كما هو، وأن أحاوره وأحبه؛ وتعلَّمت أيضاً أن يتَّسع قلبي للقرآن والإنجيل والتوراة وبوذا، ولجميع الذين لم يعرفوا الأديان بعدُ، كما في مجاهل أفريقيا وغاباتها، ولكل من آمن بأنّ في الحبّ خيرَ البشر.

رجائي من هذا الكتاب أن ينقل إلى القارئ بعض الفرح الذي عشته في رحلاتي، ليجعل ليله أقلّ حِلكةً، وقلبه أكثر حبًّا، وكلّي أملٌ في ألّا يخيب هذا الرجاء.

أين أنتَ يا ابن بطوطة؟

منذ بدأت القراءة عن السفر والرحلات، سكنني ابن بطوطة. رحت أتخيّله وأنا في مطلع ربيع عمري، ممتَطِياً فرَساً، أو معتلياً ظهر جمل، يجوب البراري والصحارى، ويسامر القمر والنجوم، بحثاً عن مغامرة جديدة في بلد جديد. تخيّلته مُتجلبِباً بعباءة زرقاء (لا أدري لماذا تخيُّلتها زرقاء اللون. ربّما لأنّه لوني المفضّل)، معتمِراً ما يشبه العمّة البيضاء، لا تفارق الابتسامة وجهه. رحت أرسم له صورة بهيّة في مخيّلتي. تارة أراه ساحر النساء، وأخرى شاعراً مُلهَماً، وسيماً، فارع الطول. لم أشأ أن أشوّه صورته بأيّ علامة سوداء. كلّ شيء فيه كان جميلاً... هكذا كان في مخيّلتي. فكيف كان في الواقع؟

كنت في بحثي عن ابن بطوطة، كمستمع متيّم بمغنٍّ، أخشى الخذلان إن اقتربت منه. مع ذلك كنت متلهِّفا للتعرّف إليه، وأمنّي النفس بأن تكون صورته مطابقة لتلك التي في مخيّلتي.

ابن بطوطة ليس لقباً ولا هو الاسم الحقيقي للرحّالة المغربي الشهير. ثمّة روايتان حوله. تقول الأولى إنّ اسمه هو تحريف لاسم والدته فطومة؛ وتؤكّد الثانية أنّه من مشتقّات اسم عائلته. لكنّ اللافت أنّ أحداً من تلك العائلة لم يحمل هذا الاسم، فاسمه المعروف هو محمد بن عبد الله بن محمّد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله. وُلد في طنجة عام 1304، وكان والده فقيهاً تعلّم عليه الكثير. خرج منها وهو في الثانية والعشرين من العمر، ليطوف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين وجاوة وبلاد التتر وأواسط أفريقيا... اتّصل بالكثير من الملوك والأمراء، وكان ينظم الشعر، فمدحهم أو هجاهم وذمّهم، واستعان على أسفاره بالكثير من هباتهم.

الطريق بين الرباط عاصمة المملكة المغربية وطنجة المجاورة للمحيط الأطلسي طويلة، ولكن جميلة وبهجة للنظر. على مدى أكثر من ساعات خمس متواصلة تقدّم لك الطبيعة المغربية صنوفاً شتّى من السهول المتنوّعة الألوان، المتعدّدة الأشجار، والمنبسطة على مسافات واسعة توحي لزائرها بنتاجها الزراعي الوفير... في ذاك النهار، كانت حرارة الشمس معتدلة، والسماء صافية إلّا من بضع غيوم، ولا يعكّر صفونا سوى زحمة الطريق.

تغتسل العين بجمال الطبيعة. ترتاح النفس لتعدّد الألوان التي منحها الله لهذه المنطقة وأهلها. لا شيء يوحي بتاريخ عربي، في ملبس المزارعين الذين كنّا نلوّح لهم ويلوّحون لنا على جانبي الطريق. لباسهم أكثر شبهاً بلباس أهل المكسيك: قبّعات كبيرة مصنوعة من القشّ تحاكي قبّعات مغنّي الماريياتشي في مكسيكو، وأثواب مزركشة بكلّ الألوان، في انسجام لافت مع ألوان الأرض والشجر والمحاصيل ولون الشمس والقمر، يغلب عليها اللون الأحمر.

يركض الصبية صوبَنا على جوانب الطرقات. يومئون لنا كي نتوقف. تعلو الابتسامات وجوههم المخبوزة بحرارة الشمس. ثيابهم الرثّة تُظهر من أجسادهم أكثر ممّا تُخفي. نتوقف، فيتهافتون على سيّارتنا يعرضون بعض نتاجهم من الثمار المنسّقة، أو غير المنسّقة، في علب صغيرة جاهزة للبيع.

وصلتُ إلى طنجة في ساعة مسائية متأخرة قليلاً. لم يكن لقائي الأول معها مريحاً. شعرت كمن تواعد مع فتاة تخيّلها جميلة، فخاب بعضُ ظنّه حين التقاها. وجدت مدينة مزدحمة بأهلها حتى الاختناق. الناس على عجلة من أمرهم، سريعو الغضب. على السائق أن يطلق أبواق سيّارته مراراً كي يُفسِح المارّة أمامه الطريق. معظم النساء محجّبات في مدينة يُفترَض أنّها ساحلية وتسامر المحيط والمياه ورونق الطبيعة. هنا الحجاب لا يتواءم مع حرّية اللباس النسائي في الدار البيضاء، ولا في الرباط، أو مراكش أو أغادير وغيرها من مدن المغرب. أمّا الرجال، فتغيب عن وجوههم الابتسامات هنا، وتُحِلّ محلّها قسوةُ الحياة خطوطاً ترسمها على الجباه والخدود، فيبدو الرجل كمن ينتظر عراكاً في أيّ لحظة، أو كمن وُلد يائساً من الحياة، فينتقم من يومه ومن كلّ من يصادفه في طريقه.

كنت قد حجزت غرفةً لي في فندق عبر الهاتف والإنترنت. بحثتُ عنه طويلاً، ووجدته أخيراً في أحد زواريب المدينة القديمة. يقتضي الوصولُ إليه صعودَ بضع درجات فوق الطريق، ثمّ ولوج طرق ضيّقة متعرّجة ومقلقة، ثمّ صعود درجات أخرى، بحيث ينقطع نفس الواصل إليه، قبل أن تستقرّ فيه إقامته، وترتاح قدماه، فكدتُ ألعن ابن بطوطة ومخيّلتي التي قادتني إليه.

لم يكن الفندق كما بدا في الصورة الإعلانية، لا بل بدا مناقضاً تماماً لما رأيته في الصورة. اعتذرت من صاحبه ورحتُ أبحث عن فندق آخر في مكان أكثر رحابة وأقلّ إثارةً للقلق. وقعت على فندق بدا لي، من اللحظة الأولى، مريحاً ومشرفاً على المدينة، تأكدتُ من ذلك حين دخلتُه، فهو يُطِلّ على المدينة بأكملها، كأنّه يراقب كلّ تفصيل فيها. غرفه واسعة، حسنةُ الإضاءة. بدت شرفة غرفتي المطلة على المرفأ كأنّها جولييت واقفة على شرفتها تناجي روميو وتبادله عشقاً بعشق. استقبلتني أصوات البواخر بألوانها وأحجامها وجنسياتها المختلفة. اختلطت أصواتها بزقزقات العصافير تنساب إلى مسمعي من أشجار الصنوبر المحيطة بالمكان فتطربني. سبحان الله! تَغيَّر مزاجي فجأة. ارتاحت روحي، انفرجت أساريري، استلقيتُ على الكنبة الطويلة على الشرفة، أستمتع بأولى سمفونيّات المساء

في طنجة... تذكرت حكمة تقول: لا تحكم على ظواهر الأمور، فلعلّ في بواطنها جمالاً يناقض القشور.

منذ سنوات تشهد طنجة طفرةً عمرانية لافتة. يقصدها السيّاح من كلّ حدب وصوب. يشتري فيها الأجانب بيوتاً لمعرفتهم المسبقة بأنّ أسعار الشقق هنا ستتضاعف مع المشاريع السياحية والخطط التنموية المقبلة. صارت المدينة موقعاً سياحياً مهمًّا ومركزاً تجارياً يجتذب الكثير من الاستثمارات.. لا يفصلها عن إسبانيا سوى كيلومترات قليلة...

حين وصلت إليها كان يزورها وفدٌ دولي كبير، وكانت تُقام فيها احتفالات عدّة، فقد كانت مرشحة لاستضافة المعرض الدولي التجاري لعام 2012. كانت المنافسة على أشدِّها مع مدنٍ أخرى، لكنّ أهل طنجة بدوا لي واثقين من الفوز.

نمت ليلتي الأولى مترنِّحا بين أصوات البواخر وزقزقات العصافير. استيقظت باكراً على أصوات الكشّافة يجوبون المدينة ترحيباً بالوفد الدولي. بسرعة استثنائية تناولت فطوري الصباحي اللذيذ كمعظم الأطباق والمأكولات المغربية. لا أُطيق الانتظار. أريد اليوم قبل الغد أن أتعرّف إلى المكان الذي دُفن فيه «جدّي» ابن بطوطة. ظننت أنّني بمجرّد أن أسال أوّل عابر سبيل عن الضريح، سيبتسم ويأخذ بيدي ويقودني على الفور وبفخرٍ، إلى المكان... هكذا ظننت.

أوقفت أول تاكسي حمراء اللون. قلت بكثير من الثقة بالنفس بعد التحيّة: «خذني، من فضلك، إلى ضريح ابن بطوطة». سارع إلى سؤالي بكثير من التعجّب المقرون بالاستهجان: «ابن مَن يا سيدي؟». كرّرت الاسم فقال لي: «هل أنت متأكد ممّا تقول؟ فأنا سائق تاكسي منذ عشرين عاماً، ولم أسمع بهذا الاسم». قلت متعجِّباً: «كيف لم تسمع به يا سيدي، ومطار مدينة طنجة مقتبس من اسمه؟» قال: «سامحني، لا أعرف، دعني أسأل سائقاً آخر لعلّه يعرف». سأل، فكان الجواب تعجُّبا مقروناً بضحكة، كمن سمع للتوّ أجمل نكتة. أخيراً، وقعنا على صبيٍّ يبيع الحلوى في الطريق، فقال: «أظنّ أنّ ثمّة ضريحاً بهذا الاسم في المدينة القديمة، لأنّ سيَّاحا كُثُراً يذهبون إلى هناك لزيارته».

ذهبنا إلى المدينة القديمة. ترجّلت من سيّارة التاكسي وشكرت السائق، لكنّه سارع إلى القول: «يا أخي لا تذهب وحدك، سآتي معك». ركن سيّارته إلى جانب الطريق قرب الممرّ الضيّق المتعرّج والمعتم قليلاً. ترجَّل وسار أمامي. رحنا نصعد درجاً وننزل آخر، نتصبّب عرقاً ونمسح وجوهنا بما تيسَّر من المناديل الورقيّة. نسأل ونُخذَل، ثمّ نسأل فنتوه، ثمّ نسأل فنجد أخيراً من عرف المكان. أرشدنا بيديه الاثنتين. قال كمن لا يصدِّق أنّنا نبذل كلّ هذا الجهد، ونتصبّب عرقاً، من أجل ضريح: «لا أدري إن كان الله سيعوّض عليكم تعبكم، لكنّ الضريح الصغير هناك، عند مفرق متعرّج، فوق، قرب السينما». في تلك اللحظة فقط ارتحت قليلاً، وضحكت. تخيّلت ابن بطوطة يتأبّط ذراع حبيبته ويدخلان لحضور فيلم سينمائي لروبرت دونيرو. هه. سألت منقذنا الذي أرشدنا أخيراً إلى الضريح: «لماذا الناس هنا لا يعرفون مكان الضريح»، ضحك وقال: «ألم تسمع يا سيّدي بالمثل القائل إنّ الجزّار يتعشّى اللفت؟».

قبل أن أصل إلى طنجة، كنتُ قد عرّجت على إحدى المكتبات العريقة في الرباط. صاحبها هو محمّد العلمي (قيل لي أخيراً إنّه تُوفّي. رحمة الله عليه). تخاله مجرّد بائع في مكتبة، لكن سرعان ما تكتشف أنّه موسوعة معرفية. ما إن تسأله عن موضوع حتى يسرد لك عشرات الكتب المتعلقة به. حديثه لبقٌ، باقةُ ورود المعرفة يجمعها من حقول التاريخ والسياسة والفلسفة، فتكاد تنسى ما جئت من أجله، وتسترسل في الإنصات إليه. كان هناك، كعادته المعهودة، جالساً على كرسيّ صغير بين كتبه التي تحتلّ الحيّز بأكمله، فلا يكاد يُرى وهو من خلْفِها. يرفع نظّارته عن عينيه، ويهبّ واقفاً، كلّما زرته. يرحّب بكلّ محبّة ببساطة ومحبّة المثقف الراغب في أن يُدلي لزائره بكلّ ما قرأه. أفصحتُ له عن مقصدي، فنصحني بكتابٍ يحمل العنوان التالي: «رحلة ابن بطوطة المسمّاة تحفة النُظّار في غرائب

الأمصار وعجائب الأسفار». اعتنى بالكتاب وراجعه الدكتور درويش الجويدي، وقدّم له الدبلوماسي والمؤرّخ المغربي العريق الدكتور عبد الهادي التازي.

يقول الدكتور الجويدي في مؤلفه الجميل والأنيق المظهر، والدقيق المضمون، إنّ ابن بطوطة «لم يكتب رحلاته بنفسه، وإنّما أملى أخباره على محمّد بن جوزي الكلبي بمدينة فاس، وسمّاها تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وهي تُرجِمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنكليزية ونشرت بها، وتُرجِمت فصولٌ منها إلى الألمانية». ويقول أيضاً إنّ ابن بطوطة «كان يُحْسِن التركية والفارسية»، وإنّ رحلته «استغرقت سبعاً وعشرين سنة»، وإنّه «مات في مراكش عام ألف وثلاثمئة وسبعة وسبعين».

يشرح الدكتور درويش الجويدي أيضاً: «إنّ جامعة كامبيردج تُلقِّب ابن بطوطة بأمير الرحالين المسلمين، وإنّ في نابلس بفلسطين أسرةً لا تزال حتى الآن تُدعى ببيت بطوطة، وتُعرف ببيت المغربي، وبيت كمال، وتقول إنّها من نسل ابن بطوطة».

يمتاز ابن بطوطة بأنّه راوٍ من طرازٍ رفيع، تتوالى أحداث رحلاته برشاقة عجيبة حيث يخترقها القَصص المسلّي بنهر دافقٍ من قوة الخَيال ودقة الواقع. تراه يرسم لنا التقاليد والعادات والديانات ويصف لنا الألبسة بألوانها وأشكالها وحيويّتها ودلالتها، ولا ينسى الأطعمة وأنواعها وطريقة صناعتها. حتى لتكاد تشعر، وأنت تقرأ، بأنّ لعابك يسيل وأنّك تتوق لتذوّق تلك المأكولات الشهيّة التي يزيدها لذَّة جمالُ وصفها. كذلك، يصف ابن بطوطة المدن في أواخر القرون الوسطى بعين مصوِّرٍ بارع حاذق الريشة والكلمة.

هذا ما يقوله الدكتور درويش الجويدي عن ابن بطوطة، فماذا يقول ابن بطوطة عن نفسه؟

كانت أولى رحلات ابن بطوطة إلى الإسكندرية. يقول في ما نُقل عنه: «كان خروجي من طنجة، مسقط رأسي، في يوم الخميس، الثاني من شهر الله رجب الفرد، عام خمسة وعشرين وسبعمئة، ومعتمداً حجّ بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول، فحزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، وكان والداي بقيد الحياة فتحمّلت لبعدهما وَصَباً، ولقيت كما لقيا من الفراق نَصَباً وسنّي يومئذ اثنتان وعشرون سنة».

الملاحظة الأولى في رواية ابن بطوطة هي إذاً، أنّه حين سافر كان في الثانية والعشرين من العمر لا في الحادية والعشرين كما نجد في بعض الكتابات الخاطئة. وتلك أولى نقاط الالتقاء بيني وبينه، فأنا أيضاً بدأت الترحال وكان لي من العمر اثنتان وعشرون سنة. وبعد أن يصف المدن المغاربية التي مرّ بها للوصول إلى الإسكندرية بحراً، يقول: «ثمّ وصلنا في أول جمادى الأولى إلى مدينة الإسكندرية حرسها الله وهي الثغر المحروس (والثغر هنا تعني البلد المواجه لبلاد الأعداء)، بها ما شئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين كَرُمت مغانيها ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها، فهي الفريدة في تجلّي سناها والغريدة تجلى في جلاها الزاهية بجمالها المغرب والجامعة لمفترق المحاسن لتوسّطها بين المشرق والمغرب...».

يضيف ابن بطوطة واصفاً الاسكندرية: «ولمدينة الإسكندرية أربعة أبواب: باب السدرة وإليه يشرع طريق المغرب، وباب رشيد وباب البحر والباب الأخضر وليس يفتح إلّا يوم الجمعة، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور. ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها، المسمّى عندهم بعمود السواري... وكان أمير الإسكندرية في عهد وصولي إليها يسمّى بصلاح الدين، وكان فيها أيضاً في ذلك العهد سلطان أفريقية المخلوع وهو زكريّا أبو يحيى بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني».

الملاحظة الثانية في رواية ابن بطوطة عن الإسكندرية في عصره، أي قبل أكثر من 700 عام، هي

كلامه عن الصراع بين المسلمين والمسيحيين، كأنّما التاريخ لا يزال يكرّر نفسه بأشكال مختلفة وللأسباب نفسها، أي التخلُّف. يقول: «وممّا جرى بمدينة الإسكندرية سنة سبع وعشرين وبلغنا خبر ذلك بمكّة شرَّفها الله، أنّه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة، وكان والي الإسكندرية يُعرَف بالكركي، فذهب إلى حماية الروم، وأمر المسلمين، فحضروا بين فصيلي باب المدينة، وأغلق دونهم الأبواب نِكالاً بهم، فأنكر الناس ذلك وأعظموه، وكسروا الباب، وثاروا إلى منزل الوالي».

أمّا في وصف القاهرة، فيقول ابن بطوطة «ثمّ وصلت إلى مدينة مصر (أي القاهرة) وهي أمّ البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد... وإنّ بمصر من السائقين على الجِمال اثني عشر ألفاً، وإنّ بها ثلاثين ألف مُكارٍ، وإنّ بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعيّة، وإنّ أهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو».

ضريح الوهم

لنعد الآن، بعدما عرضتُ لبعض ما كتب ابن بطوطة، إلى مغامرة البحث عن ضريحه في طنجة المغربية: في طنجة مقهى يُعرف باسم مقهى الحافة، وله مدرّجات تشبه الجلول في الحدائق، والطاولات موزعة على كلّ مدرّج أو جلّ. وهي جميعاً منتصبةٌ قبالةَ البحر الفاصل بين طنجة وإسبانيا، لوحة رائعة في المساء، وخاصّة حين تبدأ الشمس بالاستعداد للمغيب، وترسل أشعّتها الأخيرة لتنام خلف البحر تاركةً سُمّار المساء والليل جالسين حول الطاولات يرتشفون القهوة أو الشاي، ويتجاذبون أطراف الحديث أو يحلمون باجتياز البحر صوب أوروبا، ولكن لأسباب غير تلك التي دفعت ابن بطوطة للترحال، بل بحثاً عن حياة أفضل.

أخذتُ الكتب والوثائق المتعلقة بابن بطوطة، وذهبت إلى هناك للقراءة ومعرفة المزيد عن ذاك الرحّالة الفريد. جاورت شباناً في عمر العشرين وجالستهم. سألتهم جميعاً إن كانوا يعرفون شيئاً عن ابن بطوطة، فأجابوا جميعاً بالنفي. اقترح عليَّ بعضُهم وهو يضحك، شيئاً من حشيشة الكيف للتمتّع بالبحر بدلاً من الغرق في التاريخ.. قال أحدهم: «أنت حلمك البحث عن جدّك ابن لا أدري ماذا، وأنا حلمي أن أجتاز هذا البحر وأنسى أهلي وأجدادي، وأبحث عن حياة أخرى في الغرب».

الدكتور عبد الهادي التازي عضو الأكاديمية الملكية المغربية، يُعدّ من أفضل الذين حققوا رحلات ابن بطوطة، وهو من أبرز المختصّين بتاريخ الرحّالة. شرح لي أنّ ابن بطوطة تعرّف إلى كاتب رحلاته أي عبد الله محمّد بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي في بستان الفقيه أبي القاسم محمّد بن عاصم حيث انتظمت نزهة جمعت عدداً من وجوه العاصمة الأندلسية. كان ابن جزي يُعرِب عن ارتياحه واستمتاعه كشاب بالأخبار التي كان يرويها الرحّالة الشيخ ابن بطوطة. لم يتردّد في الاعتراف بأنّه قيّد عن ابن بطوطة في ذلك البستان أسماء بعض الأعلام الذين لقيهم الرحّالة أثناء سفره، وبأنّه استفاد منه فوائد عجيبة. وقد كان ابن جزي، على ما ذكَرَ مترجموه، أديباً رائعاً. ولِذا، فقد كان خير من يُختار لمهمّة مثل هذه.

قصدتُ الدكتور التازي في الرباط. كان يقطن فيلا توحي برفاهية الحياة. تحيطها حديقةٌ غنّاء يتمتع فيها هو وعائلته، موحياً بهناء العيش في خريف العمر، حيث بات يشارف على الثمانين حَوْلاً. كان ككلّ دبلوماسيّي المملكة، أنيقَ الملبَس والكلام، باسماً، يسرد القصص بلغة ممتازة وبكثير من الإحساس. قال: «نحن نعلم أنّ التأليف، أيّ تاليف، إذا اشترك فيه اثنان أصبح تأليفاً يحتاج إلى الحيطة. ومن هنا كان توالي بعض الانتقادات على ما رُوِيَ عن الرحّالة. وقد ابتدأت هذه الانتقادات في عصره بالذات. فمثلاً، سعى ابن خلدون، على جلالة قدره، إلى الوزير ابن أودرار لينقل إليه تناجي الناس بأكاذيب ابن بطوطة، آملاً إتلاف الرحلة».

كانت هذه أول صدمة لي. هل يُعقل أن يكون ابن بطوطة الذي كنت أحلم به، يكذب في ما روى؟

وهل يُعقل أنّ جدَّنا ابن خلدون سعى لإحراق رواياته، ومحو تاريخه، وإتلاف أثره؟ أليس معيباً أن يقول باحث ألماني إنّ ما قدّمه ابن بطوطة من وصْفٍ للصين يُعدّ الأكثر دقّةً في التاريخ، بينما العرب يعتبرون الرجل ضرباً من الفولكلور؟

تصارعت في رأسي تلك الأفكار السوداء. ثار نزاعٌ بين قلبي وعقلي. كدت أختار قلبي وحبّي لابن بطوطة على عقلي الباحث عن سرّ الحقيقة. تابع الدكتور التازي: «كان لابن بطوطة زوجة في دمشق أنجبت منه ولداً كان يبعث له بمساعدات مالية من الهند. وكانت له أنشطة كثيرة في دمشق حيث درس على الشيوخ والشيخات وحصل على الإجازات المكتوبة».

فهمتُ من محدِّثي المغربي الأنيق، أنّ ابن بطوطة كان مُحِبًّا للنساء، مقبلاً عليهنّ. تزوّج كثيراتٍ منهنّ وحصل على الكثير منهنّ بصيغة هدايا من الملوك والرؤساء والأمراء. وهو يصف في رحلاته الكثير ممّا كان يراه مثلاً من عري النساء في السودان، أو من عادات بعض القبائل والملوك والأمراء الذين زارهم والذين كانوا يحتفون بقُدومه، فيقدّمون له امرأةً هديّة.

تسلَّحت بكلّ هذه المعلومات والكتب، لكنّني قلت في نفسي: لن يقدّم لي أحدٌ معلوماتٍ عن ابن بطوطة أكثر ممّا سيقدّمه لي ضريحُ ابن بطوطة. لعلّ ابن خلدون كان يغار منه، أو لعلّ ابن بطوطة هجا أحد المقرّبين من ابن خلدون، أو ربّما ما يصِلنا من التاريخ لا يمتّ للتاريخ بصلة. قرّرت أن أدافع عن ابن بطوطة، مهما كان السبب.

ذهبت إلى المدينة القديمة في طنجة. كنت كلّما اقتربت من المكان تتلاقى في مسمَعي أصوات الأذان والأغاني الشعبية وأعمال الترميم الجارية في بعض الأحياء القديمة. رحْتُ أسيرُ في الزواريب والحارات العتيقة حيث يختلط الباعة بالناس العابرين، فتيانٌ في مقتبل العمر يلاحقون السيّاح محاولين بيعهم بعض الأساور والحُلِيّ والمصنوعات الجلدية.

كلّما دنَوْتُ من الضريح، ازدادت معرفة الناس بالمدفون هنا. لكنّ الخرافات تغلب على الحقائق. الناس مطبوعون عادةً على حبّ الخرافة إن كانت أجمل من الحقيقة. لعلّ في الأمر احتيالاً ما لاجتذاب السيّاح. هذا يقول لي إنّ ابن بطوطة سار على وجه الماء؛ ذاك يؤكد جازماً، أنّ ابن بطوطة اكتشف أميركا؛ آخرون يُجمعون وهم يحتسون الشاي أمام أحد الحوانيت المجاورة، على أنّه كان رجلاً ورعاً وداعيةً أو فقيهاً...

صارت المدينة هنا أجمل ممّا رأيتها يوم وصولي إليها. بدت أكثر بهاءً ورونقاً. تألّقت بالتاريخ والحضارة والعمران. تغنّجت كعروس مستتِرة وراء برقع، تنزع ثيابها شيئاً فشيئاً ليلة الزفاف فتكشف عن أسرار جمالها وروعة خفاياها. صارت خطواتي في المدينة القديمة أكثر تسارعاً؛ شعرتُ برائحة التاريخ وأريج الحاضر، أحسستُ بأنّ رئتيّ قد تضاعف حجمهما، رغم ضيق الأمكنة. وها أنا أخيراً عثرتُ على الضريح. لكنّه، ويا لسوء طالعي، مقفلٌ. وكيف لي أن أحتمل أن يكون مقفلاً بعد كلّ ما تكبّدته من عناء؟ كدت أيأس. لكن يأسي لم يطل. فهذا أحد الفتية المتحلقين حولي ينظر إليّ كمن اكتشف رجلاً جاء من كوكب آخر، ويقول لي: «لا تقلق يا سيّدي. هنا يسكن شخصان لديهما مفاتيح الضريح».

جاءني رجل متقدّم في السن. رسم الدهر على جبينه خطوط العمر وقسوة الزمن، ورسم قلبه الأبيض على محيّاه ابتسامة فرح صوفي. يبدو أنّ مهمّته الوحيدة هي فتح باب الضريح أمام الزوّار والسيّاح. لفتني أنّه هو نفسه لا يعرف الكثير عن الرحّالة الذي يقال إنه مدفون هنا. فتح لي الباب تاركاً للفتى الذي رافقني أن يقرأ لي الوثيقة المكتوبة على الجدار.

أنا الآن في حجرة صغيرة، مغلقة بباب خشبي فيه ثقب بحجم العين. يمكن للزائر أن ينظر إلى الداخل، إن لم يجد من يفتح له الباب. الضريح مغطّى بشرشف أخضر قديم، تعتليه صورة للقدس والمسجد الأقصى. هنا مسبحة طويلة جداً، وإلى جانبها مسابح صغيرة عدّة. وبالقرب منها علبة خشبيّة

معلقة على الحائط تحتضن بعض نسخ القرآن. ثمّة زاوية صغيرة للصلاة، وبين هذه وتلك، سجّادة عتيقة وبعض الوسائد.

جلستُ على الأرض. خلعتُ حذائي. تناولتُ سبحةً. قرأت الفاتحة مرّتين. استلقيتُ على ظهري. هبّت عليّ نسمةٌ من النافذة الصغيرة. استعدتُ كلّ تاريخ الرحّالة المدفون هنا، وتأمّلت في مغامراته. قلت في سرّي كمن يخاطبه في العلن: «يا جدّي ابن بطوطة، سأسير على خطاك وأكمل ما بدأته، بوحيٍ منك، وبفضلك، تعلَّمت حبّ السفر، وعشقت المغامرة والترحال. ارقد قرير العين يا ملهمي، رحمة الله عليك».

كان فرحي بهذا الاكتشاف لا يوصَف. بدت لي المدينة أكثر جمالاً. كأنّني نفضتُ الغبار عن تحفة تشبه الجوهرة، فتلألأت نوافذ المدينة وأشجارها وبيوتها والبحر. كلّ شيء صار أكثر رونقاً في نظري.

اتّصلت هاتفياً بالدبلوماسي الدكتور التازي. قلت له: «يا سيّدي، فرحتي لا توصف، إنّي خارج لتوّي من ضريح ابن بطوطة في طنجة، وددت أن أشكرك على كلّ ما قدّمته لي من معلومات». ضحك طويلاً حتى قهقه. تقطعت قهقهته ببعض سعال. اعتذر، وقال وهو ما زال يضحك: «نسيت أن أقول لك يا أخي سامي، لا أحد يعرف أين دُفن ابن بطوطة، وما زرته أنت اليوم إنّما هو محض خيال». قلت والخذلان يأكل قلبي وعقلي: «ولكن يا سعادة الدكتور، الضريح يحمل اسمه، والمطار سُمّي باسمه، والمدارس في طنجة معروفة باسمه، وثمّة جمعيات ومراكز تجارية هنا تحمل اسمه». شعر الدكتور التازي بحزني وخذلاني. توقف عن الضحك. اعتذر مجدًّدا، واستعاد صوته الرخيم ولغته الأنيقة، وقال: «يا بنيّ، إنّ آخر ما نعرفه عن ابن بطوطة أنّه تزوّج في دمشق وربّما مات فيها. وكلّ ما يُقال خِلافاً لذلك هو محض خيال. لم يُدفَن ابن بطوطة في طنجة، لكن لا ضَيْرَ في أن يكون الناس مقتنعين بذلك تشجيعاً للسياحة. وهم يحبّونه في طنجة، ويسمّون الأماكن باسمه لأنّه وُلد فيها لا لأنّه مات ودُفِن بين ربوعها».

في البداية حزنت. أيُعقل أن ألتقي سراباً بعدما قطعت كلّ هذه المسافة، تحدوني فرحةُ اللقاء. لكن سرعان ما بدَّلتُ حزني بالفرح، وحدَّثت نفسي قائلاً: ربّما كان ذلك أفضل، فابن بطوطة أعظم من أن نعرف أين دُفن وكيف مات. ما يهمّنا هو حياته الزاخرة بالمغامرات والرحلات والاكتشافات والحضارات والحبّ. الشيء الوحيد الذي لم أحبّه في تاريخه هو أنّه كان يبتزّ بعض كبار القوم والملوك والأمراء والرؤساء الذين لم يكرموه.

ها أنذا أُكمل ما بدأه ابن بطوطة، وأسير على خطاه صوب آفاق جديدة. لا أدري إلى أين ستقودني هذه الخُطى، لكنّها بالتأكيد، ستحمل إليَّ الكثير من الفرح، وتحقّق الكثير من أحلامي.

الجزائر قسوة الجمال

لم تكن الجزائر على رأس أولويات رحلاتي إلى الخارج، لكنّي كنت، كما معظم أبناء جيلي، مسحوراً بثورتها، شغوفاً بالتعرّف عن قرب إلى ما بقي من أثرها. كنّا كذلك نقدّر عالياً مواقفها حيال القضايا العربية واحتضانها الثورة الفلسطينية وتوسّطها في الكثير من النزاعات العربية في مرحلة جرت فيها عمليات كبيرة كخطف الطائرات واحتجاز وزراء الأوبك... لكن أن تكون الجزائر أولى وجهات سفري، فهذا آخر ما كنت أتوقعه.

المصادفة وحدها كانت أحياناً تقرّر الكثير من مسالك حياتي صوب أماكن معيّنة. لكني كنت وما زلت مقتنعاً بأنّنا نحن الذين نجتذب المصادفة، وليس العكس. كانت الجزائر أولى المصادفات في حياتي؛ جاءتني وأنا في مقتبل العمر دعوة إلى مؤتمر الشبيبة المتوسّطية في عنّابة. تنازعني شعوران: تلبية الدعوة إلى بلدٍ له في مخيّلتي وقلبي مكان كبير، أو البقاء في لبنان للمشاركة في حفل تخرجي من الجامعة. لسبب ما زلت حتى اليوم أجهله، اخترت الأول. حرمني هذا الخيار من أن أكون في الصورة التذكارية للتخرّج بين رفاق دراستي وسني عمري القاسية. كانت قاسية بسبب الحرب وجميلة لارتباطها بكثرة أحلامنا. لكن ما حُرمت منه في لبنان، عوّضت كثيره في عنّابة، جوهرة الشرق الجزائري، وثانية مدن الجزائر الكبيرة.

ما عدت أذكر تماماً كيف وصلنا إلى تلك المدينة. اليوم، عنّابة في مخيّلتي اختصار لتاريخ عريق من النوميديين والبونيقيين والفينيقيين والرومان والبيزنطيين والإغريق، واختزال لحضارات وغزوات وممالك غربية وعربية وإسلامية وعثمانية. عنّابة في مخيّلتي أيضاً عينان واسعتان جميلتان لتلك الفتاة الجزائرية الساحرة التي كُلِّفت بأن تكون دليلنا السياحي ومرافقتنا طيلة رحلتنا. لا تزال كلمتها «يخزرني» تُرجِّع صداها في أذني. كانت تقولها كلما كنّا نلتقي خلال جولاتنا بأحد شبّان المدينة. وكلمة «يخزرني» تعني ينظر إليّ بتركيز وبريبة وشك. كدت أخال أنّ أبناء عنّابة الذين يربو عددهم على مليونين ونصف مليون شخص، يعرف بعضهم بعضاً، ويرصدون كلّ غريب رغم السياحة الكثيرة.

التقينا في عنّابة... مئات الشبان القادمين من الدول المشاطئة للبحر الأبيض المتوسّط. عشنا أيَّاما من الفرح والموسيقى والنقاش السياسي والرقص والثقافة. كنّا في ما يشبه الاحتفال. كان هذا المشهد يناقض تماماً ما تركته خلفي في بيروت التي كانت آنذاك قد اشتعلت بحروب الرفاق والحلفاء، وذرفت دمعاً ونزفت دماً غزيراً بحروب الطوائف والمذاهب والعقائد المتناحرة، التي تصبّ في نهاية المطاف في مصلحة الزعامات التقليدية ومافيات الحروب والفساد وبائعي الأوهام والأحلام.

في نهاية كلّ يوم شبابي، كانت دليلتنا الجزائرية تقترب منّي بعيداً عن أعين الحاسدين والمتطفلين، وتقول لي «نمشو ً نشطح». في المرّة الأولى عجبت لهذه المفردة. فهي تعني في لبنان الوقوع على الأرض. أمّا في الجزائر والجوار المغاربي فهي تعني الرقص. نشأت بيني وبين تلك الحسناء العنّابية قصّة تشبه الحبّ لكنّها بقيت قاصرة عنه لقصر إقامتنا.

كادت تلك الذكرى تبقى في مخيّلتي وقلبي مرتبطة باسم عنّابة. لكنّ القدر شاء أن أعود إلى المدينة نفسها في صيف عام 1992 لتغطية مراسم تشييع الرئيس الجزائري والثائر السابق محمد بوضياف الذي اغتيل وهو يُلقي خطاباً في دار الثقافة على يد أحد حرّاسه، الضابط مبارك بومعرافي. هكذا قالت التحقيقات الرسميّة، لكنّ لغز الاغتيال وسببه لا يزالان غامضين حتى يومنا هذا، أو أريد لهما أن يبقيا كذلك، في بلد قام على ثنائية الثورة والجيش منذ الاستقلال، ولم يعكّر سيره سوى ظهور الحركة الإسلامية النشطة واكتساحها للانتخابات التشريعية، مطلع تسعينيّات القرن الماضي.

بين قصّة الحبّ التي لم تكتمل لقصر الإقامة، وقصّة الحكم الذي لم يكتمل في أعقاب اغتيال الرئيس «الطيّب» (هكذا كان لقبه) لتناقض المصالح، بقيت عنّابة في ذاكرتي جوهرة رحلاتي، فمنها انطلقتُ صوب العالم، أجوبه من أقصاه إلى أقصاه. صارت هي نافذتي الجميلة على الجزائر التي زرتها لاحقاً عشرات المرّات فتمتعت بجمالها، ورافقت مراحلها السياسية والأمنية الصعبة، وتعرّفت إلى أهلها الأباة الذين جعلتهم الثورة والحياة أكثر كرامة وأشدّ قسوة وحرصاً على حماية الكرامة.

في عنّابة عرفت أول أنظف الشواطئ وأجملها. مياه البحر زرقاء صافية. الشاطئ الرملي مستلقٍ عند أقدام الجبل وتحت الأشجار الغنّاء. المناخ متوسّطي دافئ، حتى في الشتاء. من تلك الشواطئ الخلاّبة كان المستعمرون الفرنسيون ينهبون ويصدِّرون ثروات المدينة المعدنية والمنجمية والزراعية. إذا نظرتَ شمالاً، ترى الجبال التي يرتفع بعضها إلى أكثر من ألف متر عن سطح البحر، وإذا نظرتَ جنوباً تبهر عينيك ألوانُ السهول، وإذا أنعمتَ النظر بين الجبال الخضراء والسهول الخصبة المتعدّدة الألوان والاشكال الهندسية، ترى الوادي أو مجموعة من القرى والمدن الصغيرة.

عنّابة حيث للحبّ إله

سُميّت Bône وHippone في التاريخ القديم. بحثتُ في قواميس المعاني عن أصل كلمة عنّابة. أردت أن أبهر دليلتنا السياحية بمعلومات عن مدينتها، رغم أنّي لم أكن أعرف شيئاً عنها. فقلتُ لها إنّ الاسم قد يكون مشتقاً من شجر العنّاب، أو من العنب؛ وقد يعني الجبل الطويل المستدير كجبال المدينة. عرفت لاحقاً أنّه ذاك المشتق من شجر العناب الذي يبدو أنّه كان من بين الأشجار المعروفة فيها.

ضحكت ناديا ونحن نسير على الرمال الذهبية بعدما دلفنا إليها من المدينة القديمة. قالت بالفرنسية بلكنة جزائرية: «Tu te moques de moi»[1]، فهي دليلتنا السياحية وتعرف عن مدينتها كلّ ما نريد معرفته. قالت لنا ونحن نستقلّ الباص، عابرين من أمام الآثار الرومانية وما بقي من مدرجاتٍ ومسرح وقبور وأضرحة وتماثيل، إنّ عنّابة التي أخذت اسمها هذا بعد الفتح الإسلامي، قد تأسّست على أيدي الفينيقيين. لا أذكر إن كنّا فرحنا بالخبر، نحن القادمين من لبنان، أو لم نعلق عليه، فالعودة إلى الفينيقيّة عندنا كانت تعني، في فترة الحرب الأهلية، الابتعاد عن العروبة، والانكفاء والانعزال صوب اليمين الذي نحاربه. لكنّي انتبهت في ما بعد، إلى التشابه الكبير بين المدن المتوسّطية من بيروت إلى عنّابة ووهران في الجزائر، وإلى نيس وكان في فرنسا...

رمز الثورة الجزائرية جميله بو حيرد.

قالت أيضاً إنّ المستعمرين جاؤوا إلى المدينة التي كانت تُعرف باسم هيبو من صور اللبنانية، وإنّ المدينة تحالفت مع قرطاجة، ثمّ صارت أحد أكبر مقارّ الملوك النوميديين، ومنحت استقلالها بعد الحروب البونيقية (من هنا اسمها القديم: بونة) وأطلق عليها الرومان اسم ريجيوس أي الملكي. قالت أيضاً إنّ في المدينة تمثالاً لإلهة الحبّ أفروديت. قلت لها: «الآن فهمت لماذا أحبّك». ضحكت. أكملنا الطريق وأكملت الشرح: قالت إنّ في المدينة آثاراً كنسيَّة كثيرة، يعود بعضها إلى القدّيس أوغسطين، أحد أعظم رجال الدين والمبشّرين بتعاليم السيد المسيح. عرفَتْ عنّابة ما لا يقلّ عن سبعة قدّيسين بنوا فيها الأديرة والكنائس، وعقدوا مؤتمرات ومجامع كنسيّة عدّة. دُمِّر معظم ذاك التراث المسيحي في أعقاب حرب الوندال، ولم ينجُ سوى الكاتدرائية ومكتبة القدّيس أوغسطين. ثمّ دخلها البيزنطيون، وتعاقبت عليها الغزوات والحضارات حتى وصلها العرب والمسلمون فاتحين في عام 697 للميلاد، وبنوا فيها مساجد، بعضها من حجارة الرومان والبيزنطيين والإغريق وغيرهم. وكان آخرَ غزاتها بعد العثمانيين، الفرنسيّون، ابتداءً من عام 1830.

لَعلّي لم ألتقط من كلّ ما قالته ناديا آنذاك سوى اسم أفروديت وحضارة قرطاج. كرّرت لها ممازحاً: «الآن عرفت أنّ الحبّ مرصود لهذه المدينة، وأدركت سبب اقترابي منك ومنها، فنحن وإيّاكم من أصول فينيقية واحدة». قالت وهي تنظر إليّ بعينيها الجميلتين: «تعرف يا سامي أنّي أحبّ لهجتك اللبنانية، ولكنّي أرى حزن مدينتك في عينيك، نحن في الجزائر ترعرعنا على روايات أهلنا عن حرب التحرير وعن الثورة، لكن صدّقني، إننا كل يوم نتابع ما يحصل في بيروت ونحزن، لأنّ بيروت هي عندنا عروس الشرق، ونكاد نحفظ كلَّ ما يأتي منها، وخاصّة الأغاني الوطنية وأغاني الحبّ». صمتنا وأكملنا السير تحت الأشجار الوارفة التي تتوسّط البولفار الفسيح.

«النيف» زينة الرجال

بعد انتهاء مؤتمر شبيبة المتوسّط، عدنا إلى الجزائر. كان موسم البطيخ في أوجه. هناك عرفت اسماً آخر للبطّيخ هو «الدلّاع». هناك عرفت أيضاً عبارة «النيف» وتعني الأنفة، وهي بمثابة شعار يومي عند الجزائريين بمناسبة أو غير مناسبة. هم شعب مفطورٌ على العنفوان: طيِّب إن أشعرته بكرامته، وشرِسٌ إن حاولت المسّ بها. قد يغضب من أيّ شيء ومن اللاشيء. الغضب زينة الرجال عندهم منذ أيّام الثورة. لا بأس إن لم يأتِ السيّاح. لا بأس إن استاء الأجنبي. الجزائر هي الأساس.

قد يغضب الجزائري من أيّ شيء. هاكم مثالاً على ذلك: في اليوم الأول لنزولنا في فندق العاصمة بعد العودة من مؤتمر عنّابة، قصدت في الصباح مكتب الاستقبال. ألقيت عليهم التحيّة بالفرنسية فأجابوني بشيء من الاستياء. كان عليَّ أنا العربي أن ألقي السلام بلغة الضاد ولغة القرآن. لا بأس إن مزجوا هم بين العربية والفرنسية، أمّا أنا العربي، فأنا مسلم لكوني عربيًّا في نظرهم، وما ينطبق عليّ لا ينطبق على الفرنسي الذي كان يجاورني في ذاك الصباح.

ابتسمت، أو لنقل اصطنعت الابتسام. وقلت لهم إنّي من لبنان، وإنّي سعيد أن أكون في الجزائر. انفرجت أساريرهم. كادوا يقفزون من خلف الطاولة لمصافحتي. كلّ لبناني كان في نظرهم يعني في تلك الفترة مقاوماً لإسرائيل. أعربوا عن إعجابهم بالشباب اللبناني الذي قاتل إسرائيل في بيروت، ولم يرفع الأعلام البيضاء. قالوا إنّهم تمنّوا لو كانوا إلى جانبنا. فرحتُ. بادلتهم المديح بأكثر منه حيال ثورتهم التي استلهمناها. تمنّيت على أحدهم أن يذهب ويشتري لي الصحف الجزائرية. قال نعم بشيء من الاستياء. ذهب ثمّ عاد ببعض الصحف. أعطيته ثمنها ثمّ أضفتُ شيئاً من البقشيش. ردّها إليّ وقال بشيء من الغضب: «يا أخي لا تفعل هذا مع جزائري، هذه إهانة». عجبت لأمره. اعتذرت منه، وقلت: «لكن يا أخي هذه عادة طبيعية في الفنادق والأماكن السياحية»، ابتسم بعد عبوس، وقال: «حسناً أنت جديدٌ على بلدك الثاني الجزائر. هنا الناس عندها النيف يا أخي، لا يقبلون الصدقات». أذكر أنّي

فرحت كثيراَ، لا بل فرحت أكثر ممّا توقعت أن أفرح. شعرت بأنّ الجزائر هي أجمل ممّا كنت أعرف وأكثر كرامة وعنفواناً ممّا اعتقدت. افتخرت بأنّي عربي وبأنّي أحببت البلد وثورته.

بهرني اللون الأبيض للعاصمة. رحت أسير تحت القناطر الفرنسية عند الرصيف. ثمّ ولجت شارع ديدوش مراد، وتوجّهت صعوداً. كنت ورفاق الرحلة نبحث عن زواريب وأحياء وبيوت «القصبة»، نريد أن نقبّل الأرض التي أنجبت الثوّار. صعدنا بين البيوت المتّكِئ بعضها على بعض. واجتزنا الممرّات الضيقة. شاهدنا بفرح الغسيل المنشور على النوافذ وفوق السطوح. انساب إلى أنوفنا أريجُ المطابخ وروائح النفايات، لكنّنا لم نشمّ إلّا رائحة الكرامة والمجد. راح خيالنا إلى ما قبل منتصف القرن الماضي. خُيِّل إلينا أنّنا نشاهد ثوَّارا في عمر الورود، أو جميلة بوحيرد والجميلات الأخريات، يمتشقن السلاح الأبيض، أو القنابل البدائية الصنع، أو بعض البنادق المتواضعة، لمواجهة الاستعمار وركله خارج البلاد.

عروبتي أنقذتني من السجن

لم أحسَب يوماً بعدما عدت إلى الجزائر في مطلع تسعينيات القرن الماضي، أنّ أهل البلد نفسه الذي طرد المحتلّ وضحّى في سبيل استقلاله بمليون ونصف مليون شهيد من خيرة شبابه، هم أنفسهم سيغرقون في الاقتتال، ويُبتلون بما سُمّي العشرية السوداء أو الحمراء، فيعيش البلد برمّته كابوساً على مدى عشر سنوات من الحرب بين الجيش والجماعات الإسلامية المسلّحة...

أوفدتني الإذاعة الفرنسية التي كنت أعمل مذيعاً ومراسلاً وصحافياً فيها (إذاعة فرنسا الدولية RFI) إلى الجزائر لتغطية وقائع الانتخابات، مطلع تسعينيات القرن الماضي، ثمّ أوفدتني مراراً لتغطية كوارث الحرب والمجازر. ذهبت في إحدى المرّات مع مجموعة من الصحافيين الفرنسيين. كانت معنا مديرة مكتب صحيفة «الحياة» في باريس، الزميلة والصديقة التي آخيتها رندة تقي الدين. هي صحافية راقية بكلّ ما للكلمة من معنى. جاءت من عائلة أرستقراطية من أعالي منطقة الشوف الجبلية اللبنانية. نسجت علاقات فرنسية ودولية وعربية عالية. فتحت منزلها لكبار السياسيين الذين كانوا يلتقون حول مائدتها. فقدت شقيقها الوحيد بحادث سير، ولعلّ ذلك هو ما قرّبنا أكثر، كنت أشعر، بحقّ، بأنّها أختي التي لم تنجبها أمّي.

حين وصلنا إلى الجزائر، كان الاحتقان في أوجه بين الحركة الإسلامية والجيش. كانت خطابات الشيخ علي بلحاج الذي أسّس الجبهة الإسلامية للإنقاذ مع الشيخ عباسي مدني، تلهب مشاعر الإسلاميين في المساجد. كان يدعو مباشرة أو مداورة إلى قلب النظام. أنا من جيل أحبَّ الجيش الجزائري، واحترم تضحياته الجسام لتحرير البلاد. كان الجيش الجزائري سبباً لفخرنا واعتزازنا. احترمته وأحببته أكثر حين جاء إلى الشرق الأوسط يقاتل إلى جانب العرب ضد إسرائيل. لكني في الوقت نفسه كنت أرى أنّ الإسلاميين يتقدّمون إلى السلطة برغبة الكثير من الناس الذين انتخبوهم. فحاولت أن أعرف عن قرب ماذا يجري.

كنّا، الصديقة رندة تقي الدين وأنا، في بهو الفندق نفكّر من أين نبدأ تحقيقاتنا. كنت أعمل آنذاك أيضاً مراسلاً حربياً وسياسياً لصحيفة «السفير». اقترحت عليها أن ننزل إلى منطقة باب الواد. من مسجد تلك المنطقة كان الشيخ علي بلحاج يلقي خطبه. تردّدت رندة قليلاً. قالت إنّ الوضع حسّاس جدًّا يقارب الخطر. قلت لها: «لن نعرف حقيقة ما يجري إلّا إذا نزلنا إلى الشارع». غالباً ما كانت رندة تفضّل محاورة كبار السياسيين، لا النزول إلى ميدان المشاكل. ربّما اقتنعَتْ بما قلته لها، أو لعلها صدّقتني ووثقت بي أكثر ممّا يجب. نزلنا إلى المنطقة المحتقنة. رأينا وجوه الإسلاميين مقابل وجوه الجيش توحي باحتمال الانفجار في أيّ لحظة. رحنا نسأل الناس عمّا يجري. حاورنا بعض الإسلاميين الذين كانوا ينظرون إلينا بحذر ويتعاملون معنا ببعض التشنّج. لعلّ مظهر رندة القريب من النساء الغربيات

أوحى لهم بأنّها صحافية أجنبية. ما إن أمضينا ربع ساعة، حتى انقضّ علينا ضابط من الجيش. كان الغضب يقطر من عينيه. أمطرنا بمجموعة من الأسئلة: «ماذا تفعلون هنا، من أعطاكم الإذن، كيف وصلتم إلى هنا؟» لم يترك لنا فرصة كي نجيبه. ثمّ قال: «اصعدوا إلى العربة العسكرية، سنأخذكم إلى مقرّ الشرطة..» نظرتُ إلى رندة، فبدت قلقة أكثر ممّا توقعت. قالت له: «يا أخي والله نحن هنا لكي نخدم الجزائر، ونحن مجرّد إعلاميين». كادت تقول له: «هذا ليس ذنبي بل ذنب زميلي». لم يأبه بما قالته. كنّا، هي وأنا، نعرف تماماً طبائع الجزائريين. من الصعب تحدّيهم أو مخالفة رأيهم حين يغضبون، لكنّهم سريعو التعاطف إن طلبتَ منهم بلطف شيئاً ما، أو إن كنتَ عربياً. ثمّ إنّي كنت قد تدرّبت تماماً في خلال عملي الصحافي في فرنسا على التعامل مع حالات كهذه بكثير من برودة الأعصاب والهدوء. همست بأذن الزميلة والصديقة المحترفة: «يا رندة دعينا نذهب معهم لعند الشرطة، حينها تصبح القصّة التي سنكتبها أفضل وأشمل وأعمق بحيث نعرف ماذا يجري هناك أيضاً». نظرت إليّ باستغراب وقالت: «هل أنت مجنون، سأتّصل بسيد أحمد كي ينقذنا».

كان سيد أحمد غزالي آنذاك رئيس الوزراء وكانت تربطنا به علاقة جيدة. حين يئست من إقناعها، سألتُ الضابط الذي استمرّ في تأنيبنا: «يا أخي هلّا تفضّلت بإعطائي اسمك، فنحن صحافيان لبنانيان، وأنا أعمل في صحيفة «السفير» التي تضع الجزائر دوماً على صفحتها الاولى». هدأ قليلاً. نظر إلى رندة، وحملق فيها متفحّصا، ثمّ استدار صوبي وسألني: «وهذه عربية أيضاً؟». أجبتُه: «نعم، ولدينا تصريح بالنزول إلى هنا وإجراء تحقيق». اعتذر منّا بلطف شديد، ربَّتَ كتفي، وقال: «سامحني يا أخي ظننت أنّها غورية (أي أجنبية)، أرجوكم غادروا هذا المكان لأنّ الوضع قد ينفجر في أيّ لحظة، وانقلوا سلامي إلى لبنان واللبنانيين». وما كاد يُكمل كلامه حتّى سحبتني رندة من يدي وقالت: «أعِدني إلى الفندق. لا أريد أن أعرف شيئاً عن الشارع». كنت أضحك وهي تزداد غضباً. أظنّ أنّها أخبرت كلّ القصّة لاحقاً لسيد أحمد غزالي ولكثير من الناس والأصدقاء.

في ما بعد، زرنا الجزائر مراراً. عشنا مع الجزائريين كلّ مأساة حربهم. شاركنا في مأتم رئيسهم الطيب محمد بوضياف. رافقناهم في كلّ مراحل الحرب والانتخابات حتى قانون الوئام. لم نفرّق يوماً بين الجزائر ولبنان. كنّا في كلّ مرّة نغادرهم، نصلّي كي تنتهي حربهم المشؤومة، فهم يستحقون حياة أفضل. وكنّا نشعر بأنّ للاقتصاد دوراً كبيراً، وكذلك للتدخلات والمؤامرات الخارجية. ففي الجزائر عرفت معنى كلمة «حيطيست» أي أولئك الشبّان الذين يسندون ظهورهم طوال النهار إلى الحائط لأنّهم بلا عمل ولا أمل.

من حسن حظ الجزائر وحظ محبّيها، أنّ الحرب توقفت. اختار أهل بلد الثوّار قانون الوئام المدني وتوافقوا على نظام جديد بقي فيه الجيش، كما حاله منذ الاستقلال، صاحب الكلمة العليا. لكن الرئيس والدبلوماسي العريق والعتيق عبد العزيز بوتفليقة عرف كيف يخفف من الحضور العسكري المباشر في السياسة، وأعاد للبلاد كثيراً ممّا كادت تفقده خلال الحرب.

وأنا أكتب هذه الكلمات الآن، كان الرئيس بوتفليقة قد وصل إلى خريف العمر والسياسة. اشتدّ المرض على الرجل المفعَم بالحياة والحيوية، وهو ذو التاريخ العريق الزاخر بالعمل الدبلوماسي مذ رافق الرئيس الراحل هواري بومدين. تدهورت حالته الصحّية حتى أقعدت جسده، لكنّه لا يزال يستخدم عقله الصاحي تماماً. ربّما حان الوقت ليرتاح... أسأل نفسي الآن، وأنا أتذكّر كلّ تفاصيل رحلاتي الجميلة والصعبة والقاسية إلى الجزائر: كيف سيكون مستقبل الجزائر بعد بوتفليقة الذي أدعو له بطول العمر. هل تتّجه البلاد أكثر نحو الخيارات السياسية التوافقية، أم يستعيد الجيش دوره كصاحب الكلمة الفصل؛ ففي الجزائر للجيش شرعية كبيرة منذ الاستقلال، وهو من المقدّسات التي لم تُخترق فعلياً إلا حين اكتسحت الجبهة الإسلامية للإنقاذ الدورة الأولى للانتخابات التشريعية، وكادت تقلب كلّ الموازين، قبل أن يقلبها الجيش ويعيد هندسة البلاد كما يشاء. والجزائريون اكتووا بنار الإرهاب، ويستحقون مستقبلاً أفضل.

تتسلل أشعّة الشمس الأولى عبر ستائر نافذة فندق «الأوراسي» الذي كان الزعيم المصري جمال عبد الناصر قد أهداه للجزائر بعد الاستقلال. تبدو البيوت البيضاء كعروس تستعدّ ليوم زفافها. تتهيّأ بعض المراكب الراسية في المرفأ المقابل، للرحيل صوب الشمال الأوروبي. توحي الجزائر هذا الصباح بفرح الحياة. يبدو أنّ شبح الاقتتال ابتعد كثيراً، وكذلك شبح الإرهاب والموجات الإسلامية. لكنّ أسئلة ما بعد بوتفليقة تبقى مقلقة. آمل أن يحلَّ الأمل مكان القلق.

باب الواد من الثورة إلى الغرق

لم تكن الرحلة إلى حيّ باب الواد الجزائري سهلة مع الرئيس الفرنسي جاك شيراك في أواخر عام 2001. الرجل معروف بحبّه للحشود ويهوى مصافحة الجماهير، بينما الحيّ معروف بأنّه كان أحد أهم معاقل الإسلاميين المتشدّدين.

هكذا شاءت القُرعة؛ فقد درجت العادة أنّه حين يرافق وفد من الصحافيين المعتمَدين في الرئاسة الفرنسية سيَّد الإليزيه، إلى دولة أجنبية، يتم اختيار بعضهم عن طريق القرعة، لكي يستقلوا طائرته الخاصّة ويرافقوه في كلّ تنقلاته، ثمّ ينقلوا مشاهداتهم إلى الآخرين. وهذا ما يسمّيه الصحافيون الغربيون عادة «Pool». هذه المرّة وقع الاختيار عليّ. كان ذلك لحسن حظي ووافر سعادتي. فباب الواد الممتدّ غربيّ منطقة القصبة الشهيرة كان معقلاً للثوّار هو الآخر. فيه نُصبت الكمائن للمستعمر، وعلى أطرافه وبين حناياه التي تضمّ اليوم آلاف الشبّان المرحّبين بشيراك، لا تزال قصص شهداء التحرير حاضرة تستعيد ذاك التاريخ المجيد. لكنّ الحاضر الصعب غالباً ما يقتل التاريخ، فننسى مجد الماضي ونغرق بدماء الحاضر وهمومه.

كنت هنا قبل حوالى عشر سنوات. كانت عيون الإسلاميين من أصحاب اللحى المنذرة بمستقبل قاتم

من الصراع تقدح شرراً وهي تنظر إلى عيون عناصر الجيش المتأهّب للقتال. قبل عشر سنوات كان أصحاب اللحى والقمصان الإسلامية البيضاء الطويلة هم أسياد المكان بلا منازع.

بين التاريخ والحاضر، فاقت شهرة الحيّ بأشواط «حارة» نجيب محفوظ في مصر. وإن كان هذا الحيّ اتّسم بعنف الصراع بين الإسلاميين والجيش، ففي التاريخ قصص أكثر أهمِّية وعمقاً وخطراً ممّا حمله الحاضر. إلى هنا، إلى هذه الأزقة التي نسير فيها اليوم خلف الرئيس الفرنسي، جاء آلاف الأوروبيين، ولا سيّما من متواضعي الحال الإسبان، أو من صقلية الإيطالية، ابتداءً من عام 1830.

على غرار كلّ الأحياء الشعبية الجزائرية، وكل الحارات والأزقّة والزواريب والممرّات الصعبة، أوحى باب الواد بداية بترحيب مصطنع بالغازي والمستعمر والأجنبي، ثمّ لفظهم الواحد تلو الآخر، قبل أن يستلقي مجدَّدا كهارون الرشيد بين خليلاته، مادًّا رجليه في الشمال الشرقي صوب البحر، وغرباً صوب بعض الكثبان التي تكاد تشبه الجبال، وملقياً رأسه شرقاً على عنفوان زواريب القصبة.

قبل سنوات عشر كنت هنا، حين قدّم باب الواد نفسه قرباناً على مذبح الصراع بين الإسلاميين والجيش. وقعت فيه صدامات. جرت اعتقالات. اختبأ فيه إسلاميون أو متطرّفون أو إرهابيون. تارة تتقدّم سكاكين الإسلاميين صوب مناطق السلطة، وتارة أخرى تتقدّم هراوات الجيش، قبل أن يحتدم الصدام والقتال ويتحوّل الحيّ إلى منطقة الخطوط الحمراء.

الآن نزوره مع رئيس فرنسا، بعدما ابتعد عنه خطر التاريخ واقتتال الحاضر، ليحلّ محلّهما غضب الطبيعة. جبال من الوحول، وحبال من الأمطار أغرقت الحيّ وساكنيه بواحدة من كوارث العصر. غرق قسم من التاريخ تحت الأنقاض، وأُعيق انسياب المياه في المجارير المقفلة لمنع الإسلاميين من استخدامها معابر ضد السلطة. غرق الحيّ، قُتِل أو فُقِد فيه أكثر من 1000 جزائري.

ما إن اقتربنا من حيّ باب الواد، حتى استقبلتنا أمواج الغبار بعدوانية لافتة، اجتاحت أنوفنا وكأنّها تريد صدَّ روائح الموت عن الزائرين. آلاف الجزائريين ينتشرون على جانبي الطريق يهتفون بأعلى أصواتهم مرحّبين بالزائر ومضيفه. يرتسم على وجوههم خليط من السعادة والهزء والنقمة، فلا تعرف أكانوا فعلاً سعداء بلقاء سيّد الإليزيه الذي كان في طليعة من ساعدهم في رفع كارثة الطبيعة عن كاهلهم، أم هم جاؤوا إلى هنا فقط لمجرّد التسلية، أم أيضاً لأنّه ليس لديهم شيء يفعلونه قبل الإفطار.

شبّان لا تزيد أعمار معظمهم عن 25 عاماً وجوههم تشبه علامات الاستفهام. يهتف المئات منهم «فيزا، فيزا». لم أصدّق، أنا الذي عشت طفولتي وشبابي فخوراً بالجزائر وثورتها، أنَّ حلم كلّ هؤلاء الشباب هو الرحيل إلى الدولة التي استعمرت أرض أجدادهم وأهلهم أكثر من 130 عاماً.

يصرّ شيراك على مصافحة الجماهير. يطوّقه رجال الأمن مع نظيره عبد العزيز بوتفليقة. يزداد عدد هؤلاء كلما اقترب شيراك أكثر من الجماهير. يمدّ يده، فيلتقط الشبّان يديه الاثنتين، يصفقون له، تزغرد النساء، يبتعد قليلاً، ثمّ تغريه الجماهير، فيعيد الكرّة ويتأبّط ذراع بوتفليقة وكأنّه يشجّعه على السير إلى جانبه، يأخذ فتاة شقراء يقبّلها، ينحني صوب امرأة عجوز يحادثها، ينظر إلى الشرفات الكثيرة فوقه، يردُّ التحيّة إلى مئات الجزائريين من أهل حيّ باب الواد الحاملين العلمين الفرنسي والجزائري. يدخل شيراك مستشفى الحيّ، يخرج واعداً بمساعدة المستشفى وإعادة تأهيل شبكات المياه. عينه على هؤلاء المساكين طبعاً، ولكنّ عينه الأخرى تبقى على الجالية الجزائرية في فرنسا، فهو يريدها أن تبقى هادئة، وألّا تتحرّك إلّا بعد أشهر، وصوب صناديق الاقتراع لتصوّت له.

بعض الإسلاميين من أصحاب اللحى ينتشرون في المكان. يشعر الزائر بأنّهم دخلاء على الحيّ، ينظرون شزراً إلى الوفد. يمتنعون عن الإجابة عن أسئلة الصحافيين، يسارع رجال الأمن لدفع رجال الإعلام إلى السيّارات المخصّصة لهم. ينظر أحد الإسلاميين بطرف عينه وفيها شيء من الحقد على الجميع، وكأنّما هو لا يريد شهوداً على هزيمة التطرّف في الشارع العريق.

أحبّ الجزائر فغرسوا الكاميرا في رأسه

لم أقابل في حياتي رجلاً أجنبياً تفانى لأجل قضيّة عربية وإنسانية كما تفانى المخرج السينمائي الفرنسي رونيه فوتييه لأجل الجزائر. كان فوتييه في الحادية والعشرين من العمر حين قصد الجزائر. التقى ببعض مواطنيه عند حدود المستعمرة السابقة. هم كانوا يحملون بنادقهم للإبقاء على الجزائر فرنسية بالحديد والنار، وهو حمل كاميرته يصوّر بطولات المقاومة الجزائرية أو فظاعات الاستعمار. تناقضت مطامع الغازي مع رغبات الفنّان فعرفت أفلامه شهرة عالمية لكنّها قُمعت في فرنسا التي كان فرانسوا ميتران (الرئيس الراحل)، وزير داخليتها آنذاك. ثمّ سجنه رجال جبهة التحرير الجزائرية اعتقاداً منهم بأنّه جاسوس سوفياتي.

لعله كان شيوعيًّا بالفعل، أو لعله ببساطة سعى لاعتناق أيّ إيديولوجية تقدّم نفسها آنذاك على أنّها حامية الفقراء ومدافعة عن المحرومين. لكنّ الثابت أنّ الحافز الذي دفع فوتييه إلى الجزائر، ومن قبلها إلى أفريقيا، لم يكن حافزاً محض سياسي، بل كان تعبيراً عن شعور إنساني بامتياز. شعور لا يزال حتى اليوم يُدمِع عينيه إن حدّثته عن التاريخ. وأيّ تاريخ؟

التقيت رونيه فوتييه بعد أكثر من 32 عاماً على استقلال الجزائر. ها هو نفسه بابتسامته الطفولية وعينيه المحبّتين يروي بقلبه ما عاشه. لم يتغيّر من حبّه للجزائر أيّ شيء. لم يتغيّر سوى لون شعره الذي كلله العمر ببياض الثلج. ها هو يحكي عن الجزائر وكأنّها جزء منه، تماماً كقطعة الكاميرا التي استقرّت في رأسه حين تفجّرت كاميرته وكاد يُقتل عند الحدود التونسية الجزائرية، أثناء تبادل الأسرى والمعتقلين واللاجئين بين ثوّار الجزائر والجيش الفرنسي. يقول فوتييه: «كنّا نصوّر ذلك المشهد، ولما لمحني الجنود الفرنسيون من الجهة الثانية قرّروا قتلي، وفق ما اعتقدنا آنذاك. أعطيت الكاميرا إلى أحمد راشدي (السينمائي الجزائري الذي تعلّم على فوتييه) وأخذتُ منه الكاميرا الأخرى، طالباً منه أن يصوّرني وأنا أجتاز الحدود مع اللاجئين، ولكن في تلك اللحظة الحاسمة، صرخ راشدي بي قائلاً إنّه لم تعد لديه أفلام. وكان الفرنسيون ينظرون إليّ ويشتمونني على أنّني خائن، فصرخت به، تابع التصوير، تابع التصوير، ذلك لأنّي كنت على اقتناع بأنّهم لن يقتلوني أمام الكاميرا، وهذا ما حصل ونجوت واجتزت الحدود».

أسّس فوتييه أول معهد للسينما في الجزائر. لا يزال حتى يومنا هذا يحتفظ بأولى صور تفجير القطارات الفرنسية وعمليات المقاومة. كان في عداد أعضاء الوفد الأول الذي رافق رئيس للجزائر أحمد بن بلا في زيارته لموسكو. قبل الجزائر، بدأ تجربته النضالية ضدّ الاحتلال الألماني لبلاده وحصل على وسام الحرب. وفي أفريقيا صوّر ويلات الاستعمار وعذاب الأفارقة. في أفريقيا كاد المستعمرون يقتلونه فخبّأه الأفارقة في كفن على أنّه ميت. بعد ذلك ذهب إلى الجزائر ووهَبَها حبّه وقلبه وعقله وكاميرته وتجربته.

يمسح فوتييه بعض انفعاله الذي يتحوّل دمعة في عينيه الطيبتين، ويقول: «إن أول ما بدأت بفضحه في الجزائر هو الوثائق الوطنية التي تحدّثت عن فظاعات الضبّاط وكيفية استخدام غرف الغاز ضدّ المقاومين. تخيّل أنّه حين كان المقاومون من أعضاء القبائل يختبئون في المغارات هرباً من الجيش الفرنسي كان يجري إشعال النار أمام المغارات، ويختنق من فيها بفعل الدخان وسموم الغازات، وهذا كله موثّق في المكتبة الوطنية الفرنسية، وأنا صوّرته».

يتوقف عن الكلام، يفتح صندوقاً قديماً، ويُخرج منه فيلماً عتيقاً. يعتذر منّي، ويذهب إلى المطبخ لإعداد القهوة الفرنسية التي يقدّمها مع حلوى مغاربية، ثمّ يكمل الحديث من المطبخ: «كان صعباً عليَّ كفرنسي أن أتحدّث عن حرب من دون أن أثبِت بالصور وقائعها، فقرّرت الذهاب إلى هناك لتصوير مشاهد من الحرب. لم يكن الأمر سهلاً، لا هنا ولا هناك، رغم أنّي تعرّفت في تونس إلى العديد من

مناضلي جبهة التحرير الذين أصبحوا لاحقا قادةً ومسؤولين كباراَ».

ينبعث من جهاز الفيديو نشيد جزائري كان أحد أهازيج الثوار ويقول: «حيَّ على السلاح، حيَّ على السلاح، بالنار والبارودِ إيدنا ترد الأجنبي، وتطهّر الأرض التي في ظلّها نام أبي». يرندح فوتييه مع النشيد من المطبخ، هو الذي لا يزال يحتفظ بالكثير من اللهجة الجزائرية التي تكتسب نغمة جميلة وإنسانية وطريفة عبر خلطها بلكنته الفرنسية الخاصّة. ثمّ يضحك ويسألني: «أتعرف من الذي كان يعلق على أفلامي بالعربية؟»، أجبته بالنفي، فقال: «إنّه أحمد طالب الإبراهيمي الذي أصبح في ما بعد وزيراً للخارجية. لقد ساعدني الصديق أحمد طالب كثيراً في ترجمة الوثائق الفرنسية وتقديمها بصوته. ولاحقاً حين أنهيت تصوير فيلم **كفاح الجزائر** قرّرت عرض النسخة العربية على عبّان رمضان، وكان أحد أبرز قادة التحرير في الخارج، وكنت قد التقيته في تونس لكنّي لم أجده. قيل لي إنّ القيادة مجتمعة في مصر برعاية الزعيم جمال عبد الناصر، فذهبت إلى هناك». يضحك ثمّ يتابع: «في القاهرة جرى احتجازي حيث ظنّ المصريون أنّني جاسوس فرنسي قادم لقتل مناضلي التحرير، وبعد التحقق من هويتي، التقيت بهؤلاء القادة وعرضت عليهم الفيلم ولم أكن أعلم أنّ عبان رمضان قد قُتل على أيدي رفاقه. أعجبهم الفيلم لكنّهم طلبوا منّي أن يكون باللغة الفرنسية ليؤثر على الفرنسيين والغرب، وطلبوا كذلك أن أحذف مقطعاً نرى فيه مقاوماً يبكي رفاقه الذين استُشهدوا، لأنّ المقاوم لا يبكي. سعيت لإقناعهم بأنّ في ذلك بعداً إنسانياً مهمًّا، لكنّهم أصرّوا على القطع. عندئذٍ قلت لهم إنّي أوافق على قطع المشهد، شريطة أن يُجيبوني عن سؤال طرحته عليهم؛ فقد قلت لهم: هل الرجل الذي طلب منّي قطع المشهد كان في عداد المقاتلين؟ نظر بعضهم إلى بعض، وأجابوا: لا؛ فقلت لهم: هذا هو بالضبط سبب إصراره على قطع المشهد، فهو لم يرَ في حياته كيف يمكن للإنسان أن يقاتل ويبقى إنساناً. ضحك الجميع وقالوا لي، لقد ربحت الرهان. وهكذا حافظت على المشهد».

يروي فوتييه بكثير من الحبّ والشهامة والإخلاص علاقته بالجزائر. يمرّ على محطة سوداء حين اعتُقل مع بعض رفاق النضال. تتدحرج دمعتان من عينيه. يحاول مسحهما. تليهما دمعتان أخريان، يعتذر ويقول: «أنا أسّست السينما في الجزائر، وأوصلت أول فيلم إلى مهرجان كان، وحصلت على أوسمة كثيرة، ولكنّ الوسام الأعز لديّ، كان ميدالية قدّمها لي أبناء الشهداء في الجزائر. في ذلك اليوم، بكيت تماماً كما أبكي الآن. لا أدري، ثمّة أشياء نحاول أن نتعالى عليها فتعيدنا إلى واقعنا، إلى الإنسان الذي فينا، وكلّ ما أتمنّاه اليوم هو ألّا ينسى الجزائريون أنّ استقلالهم تعمّد بالدم، وأنّ ثمّة أناساً مثلي جاؤوا من بعيد ليشدّوا على أياديهم لأجل الإنسان الحرّ في العالم، أينما كان هذا الإنسان، وثمّة قوس قزح في السماء لا بدّ من النظر إليه حين يغزونا اليأس».

---

1 أتسخر منّي؟

جزيرة دوغوريه السنغالية
وصمة عار صارت متحفاً

ما إن اقتربتُ من ذلك الشاطئ الجميل، حتى تناهت إلى مسمَعي أهازيج أفريقية مقرونة بالموسيقى المحليّة، تشبه أهازيج المناسبات، أو أغاني السير في الأدغال والطرقات الطويلة. فيها شيء من الحزن، وشيء من الفرح، وفيها كثير من الإيقاعات الرتيبة التي توحي بأنّ منشديها إنّما يريدون أن يمضي الوقت بأقلّ عناء ممكن. هكذا خُيّل إليّ، أو هكذا كانت فعلاً؛ لكنّها في الحالتين كانت أناشيد وأهازيج جميلة يغنّيها رجال كلما اقتربنا منهم بدت أجسادهم أكثر طولاً وابتساماتهم أكثر ترحيباً. كان بعضهم يغنّي وقوفاً، والبعض الآخر جالساً القرفصاء على الأرض يعزف على آلة تشبه الكرة الصغيرة مربوطة بخيط وفيها بعض حبيبات الفول أو الحمّص. تتراقص الكرة في يد العازف والمنشد. ترتفع وتهبط. تحفّ بكفّ اليد. تتطاير ثمّ تلتقطها الأيادي السوداء التي حفرت عليها مهنةُ صيد السمك خطوطاً واضحة.

ها قد وصلت إلى الجزيرة السنغالية التي لها باب يطلّ على البحر، وتاريخ يُطلّ على الجحيم. من هذا الباب كانت أفواج العبيد تُرسل مغلولةَ اليدين والعنق، إلى بلاد الغرب البعيدة، مكبَّلة بالسلاسل. هناك يشقون ويعملون ويكدحون ويُضرَبون بالسياط، أو تُقطّع أطرافهم بالسيف، مقابل لقمة عيش مجبولة بالدم والعرق. هناك كانوا يرسمون قصّة أسوأ استغلال للإنسان على يد إنسان يُفترَض أن يكون أخاً له. ها قد وصلت إلى جزيرة دوغوريه (Ile de gorée) السنغالية التي صارت اليوم أحد أهمّ عوامل الجذب السياحي في السنغال.

الوصول إلى جزيرة دوغوري يتم بالقوارب السريعة. ركبت أحدَها وإلى جانبي رجل وإمرأة أجنبيّان، وقصدت ذلك المكان الذي يجمع بين الجزيرة والجبل بحيث يرتفع صعوداً، ولا يتمدّد أُفقياً، خلافاً لباقي الجزر. طول هذه الجزيرة تسعة كيلومترات وعرضها ثلاثة كيلومترات. والفرنسيّون هم، تاريخياً، أوّل من عرّف بالجزيرة. ربّما أجداد هذين الشخصين إلى جانبي، هم الذين نشروا سيرتَها عبر العالم في القرن التاسع عشر. لكن قبل الفرنسيين، كان المستعمرون يقصدونها للتمتّع بجمال طبيعتها أو لشراء الفتيات الأفريقيّات والخلاسيّات والتمتّع بهنّ حين كان الضمير الأبيض ميتاً تماماً حيال شعوب يجيز لنفسه أن يستغلها ويستعبدها ويسحقها ويغتصبها ويشرب دمها ويأكل من عرق جبينها.

لا أدري لماذا شعرت بالغضب أكثر من تمتعي بجمال الجزيرة الخلّابة، حين وصلت إليها. تخيَّلت رجلاً ضخم الجثة، قميء المظهر، منتفخ البطن، وسخ الأسنان، مغروراً ومتعالياً، يلامس ويداعب فتاة أفريقية قاصراً وساحرة الجمال، تذرف الدمع ولا تقوى على المقاومة خشية قتل أحد أهلها أو بتر أحد أعضائها.

عرفَتْ دوغوريه، التي لم تكن تضمّ أكثر من بضع مئات من الأشخاص، في فترة الاستعمار الفرنسي، شهرةً كبيرة، حيث كانت قاعدةً لانطلاق الحملات الاستعمارية الكبيرة. ثمّ اكتسبت سمعتها السيئة من تجارة الرقيق فيها وعبرها.

لا أدري كيف يمكن للإنسان أن يحوّل جزيرة جميلة وخلّابة ووادعة كهذه الجزيرة، إلى مسرح لأكبر جرائم العصر. وما هذه الجزيرة إلّا بيوت جميلة هانئة تفيء تحت أشجار باسقة وارفة، تلامس خدّيها نسيمات محمولة على موجات البحر المجاور.

اللوحة هي من رسّامي جزيرة دوغوريه السنغالية.

ما إن وطئت قدماي شاطئ الجزيرة، حتّى سارع شابّ أفريقي ثلاثيني العمر لالتقاط يدي كي لا أنزلق بين المركب والماء. شكرته، فقال: «أنا سيرين، سأكون مرافقك، وهذه السيّارة بتصرّفك لو شئت، أهلاً بك في جزيرتنا، أتمنّى أن تمضي معنا أوقاتاً سعيدة». كان يرحّب بي، وأنا أفكّر بأنّ هذا الشابّ ربّما فقد أجداده، ربّما لا يعرف شيئاً عنهم، ربّما يحتفظ بذكريات منهم، ربّما لم ينسَ، ربّما هو حاقد، ربّما سامح وفتح صفحة جديدة، كما تفعل كلّ أفريقيا مع التاريخ الاستعماري، ولو أنّها لا تنسى.

يُقيم حالياً على الجزيرة التي اكتشفها برتغالي، نحو 1200 شخص (400 مسيحي و800 مسلم) يعيشون بانسجام تامّ، ويتقاسمون هدوء الحياة التي لا يحرّكها سوى السيّاح. أسير مع صديقي السنغالي سيرين بين البيوت وتحت الأشجار وفي الزواريب الضيّقة أو الشارع الواسع الذي ينتشر على جوانبه عدد كبير من الرسّامين والنحّاتين والباعة. نمُرُّ قرب منزل قرميدي قديم. كان هذا أول بيوت العبيد. يسكنه الآن رهبان مسيحيون كاثوليك. ممنوع دخوله لعامّة الناس ولا للسيّاح.

استمرّ عصر العبودية هنا نحو 300 عام، بقيت مخيّمات الاعتقال قائمة أكثر من 12 سنة. الجميع تورّطوا في هذه الجريمة المشينة، جريمة بيع العبيد. حين زار بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني جزيرة دوغوريه في عام 1992، طلب الغفران من أفريقيا، ذلك أنّ رهباناً كاثوليكيّين كانوا أيضاً قد تورّطوا في تجارة الرقيق.

جزيرة نموذجيّة.. للرقيق

لم يكن اختيار جزيرة دوغوريه من قبل المستعمرين الذين توالوا عليها من قبيل الصدفة. فبعدما اكتشفها البرتغاليون وغزاها الهولنديون ثمّ البريطانيون فالفرنسيون، أيقن الجميع أنّ للجزيرة أهمّية خاصة لكونها تقع عند الشاطئ الوحيد القادر على إرسال العبيد مباشرة من أفريقيا إلى الولايات المتحدة الأميركية. لم يكن يؤتى بالعبيد المقيّدين بالسلاسل والأغلال، والذين يُرسَلون إلى أميركا، من

السنغال وحدها، بل كان يؤتى بهم أيضاً من معظم دول الجوار الأفريقي، ولا سيّما من مالي وطوغو وبينان وغانا وغيرها.

تشبه ألوان بيوت دوغوريه إلى حدّ بعيد ألوان الملبوس الأفريقي. تتنوّع بين الألوان الزهري والأصفر والأزرق والأحمر والبنّي. وغالباً ما يميل الأفارقة إلى الألوان المزركشة والمضيئة، ويبتعدون عن كلّ ما هو قاتم. ولعلّهم بذلك يناقضون اللونين الأسود أو الخلاسي اللذين يميّزان أهل القارّة. هذه الألوان تضفي على الجزيرة رونقاً خاصًّا زاخراً بالحيويّة والفرح والجمال، كأنّما يُراد لها أن تطوي نهائيًّا تلك الصفحات القاتمة والكئيبة والحزينة التي عرفها أجداد من يسعون اليوم لنثر الفرح.

كنّا نسير بين البيوت الزاهية، فتزيدها زهواً ابتسامات نساء أفريقيات يطحنَّ القمحَ والحبوب بطريقة بدائيّة وهنّ يفترشْنَ الأرض. بينهنّ أطفالٌ عيونهم رائعة الجمال، يضحكون ويلعبون بالكرة. يتعاركون. يتعانقون ثمّ يختفون بين الأشجار والبيوت، فتبقى أصواتهم وضحكاتهم لتطوي دموع وصرخات أولئك الذين كانوا يساقون قسراً إلى أتون القهر والموت خلف البحر. إذا اختفى صوت الأطفال، ظهر ثغاء نعجة أو عنزة. فهنا لا يزال معظم أبناء الجزيرة يعيشون عادات أهلهم، وإن غيّرت السياحة الكثير من عاداتهم.

قالت لي مادلين، السيدة السنغالية الجميلة الوجه والقوام الجالسة على كرسيّ صغير ترسم وجوه العابرين مقابل بعض الدولارات: «نعم، لقد سامحنا لأنّ الحياة يجب أن تستمرّ، ولكنّنا لم ننسَ ولن ننسى. نحن نعلّم أبناءنا ماذا حصل لأجدادهم، لا كي يحقدوا وينتقموا، بل كي لا تتكرّر تلك المأساة البشعة والجريمة التي لا تُغتفر والتي ارتُكِبتْ بحقّ الإنسانيّة. أتعلم يا سيّدي أنّ الطفل هنا كان يباع مقابل مرآة، والبنت العذراء مقابل برميل صغير من الزيتون، والرجل السليم البنية الذي يزن 100 كيلوغرام مقابل بندقيّة أو حصان أو بغل؟ نعم، لقد كنّا أرخص من الحيوانات في عصر الرقيق، فكيف ننسى؟».

كلما كنت أسمع تلك الروايات القاسية، كانت نسبة الغضب ترتفع في دمي. أيُعقل أنّ فتاة عذراء تُسلخ عن أمّها وأهلها وإخوتها أمام أعين الجميع مقابل برميل صغير من الزيتون؟ أيُعقل أن يساق والدها أمام عائلته كالنعجة صوب جحيم القهر والموت؟ هل فعلاً يستطيع الأحفاد أن يسامحوا ويغفروا ويستمرّوا في الحياة كأنّ شيئاً لم يكن؟

نظرتُ إلى مرافقي وصديقي السنغالي. شعرت بأنّه فهم غضبي. وضع يده على كتفي، وقال: «أتعلَم يا صديقي، أنّ مأساتنا في أفريقيا هي أنّنا حتى لو كرهنا من استعمرَنا، لا نستطيع العيش من دونه، تخيّل لو كنّا اليوم، نحن السنغاليين، منغلقين على أنفسنا، لا نسمح مثلاً للبرتغالي أو للإنكليزي أو الفرنسي أو الهولندي أو الأميركي بالمجيء إلى بلادنا، فكيف نعيش؟ لقد نهبوا أرزاقنا واستعبدونا قسراً عبر التاريخ، واليوم ما زلنا مستعبدين طَوْعاً، بسبب مصالحنا معهم».

كنّا بين الحين والآخر نتوقف أمام إحدى اللوحات الطبيعية. هذه لوحة كبيرة (بطول مترين وعرض مترين) تمثّل وجه امرأة أفريقية تقليدية، تطوّق عنقها الطويل مجموعة من العقود والسلاسل. أمامها إناء يسيل منه الحليب. أذناها مثقوبتان ثقوباً عدّة، تتدلى منهما أنواع مختلفة من الأقراط. ليس في اللوحة عبقرية في مزج الألوان ولا فلسفة وجودية، بل هي مجرّد وجه امرأة أفريقية تنظر إلى الناظر إليها، لكنْ في نظرتها مزيج من العتب والإغراء. سألت الفنّان الذي رسمها عمّا تعنيه هذه اللوحة، فضحك على الطريقة الأفريقية اللطيفة، وقال: «لا تعني شيئاً، ولكنّ الناظر إليها قد يفهم ما يريد، المهمّ أن تحبّها لتمنحك سعادةً ما». هذه أيضاً واحدة من حِكَم الأفارقة، هم يضحكون على الحياة ومعها، مهما تكالبت عليهم النوائب والفقر والقهر. ألم يخترع العبيد أنفسهم آلات موسيقية تساعدهم على نسيان طول الطريق والعذاب؟

اشتريت اللوحة بثمن بخس، وأكملنا الطريق. طالعنا منزل زهري اللون من طابقين، يُطِلّ على الطريق الترابي الممتدّ أمامه، ويتسلّل عبره صوت هدير البحر، ويحفّ به من الجانبين صفّان من الأشجار والورود. هممت بالدخول إليه. قال مرافقي السنغالي ربّما صار الوقت متأخّرا. لكني ألَحَحْتُ وعرضتُ أن ندفع بدلاً ماليًّا للمُشرِف على المكان، مقابل السماح لنا بالدخول، فقد لا تُتاح لنا الفرصة لنعود إليه ثانية. تبادل الرجلان جملاً سريعة بلغة «الولوف» الأفريقية. نزل رجل قويّ البنية من الطابق الأعلى، رحَّب بنا وأخذ ما عرضنا عليه وفتح لنا الباب.

أنا الآن في منزل العار الإنساني بامتياز: «هنا كان يباع الأفارقة كالحيوانيات في سوق النخاسة»، هكذا قال لي سيرين. بنى الهولنديون هذا المنزل، ورمّمته السيدة دانيال ميتران أرملة الرئيس الراحل فرانسوا ميتران كي لا تنسى ذاكرة البشر أنّ أناساً معذبين وفقراء سيقوا من هنا باتّجاه الغرب الأميركي ليعملوا في المزارع والمصانع بأسوأ الشروط. أمامي لوحة تصوّر الغوادلوب: عبيدٌ يكسرون القيود. إنّها اللوحة التي تؤرّخ لنهاية عصر العبوديّة.

من هذا الباب المطلّ على البحر، سيق خمسة عشر مليون أفريقي في رحلة العذاب صوب أميركا. كان الشرط الأساس لقبول الأفريقي عبداً للشراء، أن يزيد وزنه على ستين كيلوغراماً. ومن كان يزنُ أقلّ من ذلك، كان يوضع في زنازين صغيرة جداً تتكدّس فيها أجساد الشبّان، ويُعلفون كالحيوانات حتى تزداد أوزانهم فيصلحوا للبيع. كان كلّ 15 رجلاً يُحشرون في غرفة لا يزيد طولها عن مترين وعرضها عن المتر الواحد. هنا كان أطفال العبيد يُحشَرون ويُكدّسون بعضهم فوق بعض، ويُكوَون بآلة حديديّة حامية لوشمهم كي لا يضيعوا. أمّا الصبايا فكُنَّ يوضعْنَ في الغرف المجاورة، ويُكشف عن صدورهنّ وعذريتهنّ، فتُختار الأجمل لممارسة الجنس، وإذا ما حبلت، تُعتق من العبوديّة لتربّي الولد.

كانت رحلة العذاب عبر الأطلسي تستمرّ ما بين ستّة أسابيع واثني عشر أسبوعاً، تبعاً لقوّة الرياح وأمواج البحر وأحوال الطقس. إذا مرض أحد العبيد وساء وضعه، يُرمى به في البحر فتأكله أسماك القرش. لا علاج للمرضى. أمّا الطعام، فهو عبارة عن بعض الحبوب فقط، لإبقاء العبيد على قيد الحياة قبل الوصول إلى حياة السخرة.

يقول بابكر وهو دليل سياحي للجزيرة، إنّ «المناضل الأفريقي نلسون مانديلا جاء إلى هنا عام 1992، وطلب الصفح والمغفرة من أفريقيا لأنّ بلده، جنوب أفريقيا، كان يعاني هو الآخر من التمييز العنصري، وفيه أيضاً زنازين للعبيد كهذه الموجودة في جزيرة دوغوريه»، وإنّ «بيل كلينتون وفرانسوا ميتران ونيكولا ساركوزي وغيرهم زاروا المكان ولاقوا ترحيباً من السكّان، باستثناء جورج بوش الابن الذي لم يلقَ أيّ ترحيب، لأنّه أعاد العبوديّة إلى العالم بأشكال جديدة».

وقفت طويلاً على تلك الشرفة المطلّة على البحر. كانت نسمات المساء تدغدغ وجهي، ورذاذ الموج يرطّب وجنتَيّ. كنت أفكّر في حال شابّ أفريقي، وبماذا شعر، في لحظة كهذه، وهو يُدير ظهره قسراً لأفريقيا ويعرف أنّه لن يعود إليها أبداً؟ كيف عاش تلك اللحظات الرهيبة؟ هل بكى؟ هل عضّ بكبرياء على الجرح؟ هل انهار؟ هل حاول أن يرمي بنفسه في البحر؟ لم تطل لحظات تأمّلي حتّى تناهى إلى مسمعي صوت الأذان. سألت مرافقي عن الأمر، فقال إنّ على أعلى قمّة الجزيرة مسجداً يؤمُّه المسلمون. قصدناه فوجدنا عشرات السنغاليين يؤدّون الصلاة. شرحوا لي أنّ المسجد بُني في عام وأنّ معظم مسلمي الجزيرة يأتون كلّ جمعة فيملأون المكان حتّى الساحة الخارجيّة. لبِثتُ فيه قليلاً، ثمّ نزلت مع سيرين وبابكر صوب الشارع الطويل الذي تحوّل إلى ساحة للفنّ والرسم والموسيقى والغناء. تسرّبت إلى أنوفنا روائح الأطباق السنغالية الشهيرة بالسمك. اشتريت كما يشتري الصينيون واليابانيون وعدد لا بأس به من السيّاح، وفق ما قيل لي، لوحةً تصوّر منزل العار. كان القمر قد بدأ يعلو صوب السماء ويلقي بوشاح ضوئه على الجزيرة التي تحوّلت من جسر العبوديّة إلى جسر التواصل الإنساني من خلال السياحة العالميّة فيها. انتهت عهود الاستعمار والعبودية، ولا يزال الأحفاد هنا يحفظون الأرض والذكرى. يغفرون ولا ينسون. سأفعل مثلهم، لأنّي شعرت بأنّي واحد منهم، ولأنّي تركت على هذه الجزيرة شيئاً من قلبي وغضبي وكثيراً من حبّي واحترامي.

مريم نياس الصوفية التيجانية
صانعة الرؤساء والفرح

زرت مرّة أحد زعماء القبائل الأفريقية التي لا يزال أفرادها يعيشون في الأدغال، وليست لديهم تلفزة ولا إذاعات، ولا يعرفون شيئاً عن هذا العالم، ولا حتّى الأديان السماوية، باستثناء زعيمهم الذي سافر إلى بعض الدول وندم. كنت آنذاك أبحث عن أثر داعية إسلامي كويتي نذر نفسه لعمل الخير في أفريقيا اسمه عبد الرحمن السميط رحمه الله. لفتني أنّ زعيم القبيلة وكلّ من حوله يبدون أصغر من أعمارهم وأنّ وجوههم البشوشة تنمّ عن رَغَد العيش. لم يكن لديهم ما يشير إلى الرفاهية أو الرغد سوى أشجار الأدغال وحيوانات أليفة ومطاحن يدويّة للحبوب وأدوات صيد بدائيّة. يسترون أجسادهم بما خفّ وقلّ. سألته وأنا جالس إلى جانبه نشرب الشاي الأخضر: «سافرتَ إلى عدد من المؤتمرات حول السكّان الأصليّين في العالم، فلماذا لم تعتنق أيّ دين؟ ألا تؤمن بالله؟»، رشف رشفة من كوب الشاي، ثمّ مسح فمه، وداعب حبّات السُّبحة الكبيرة الملوّنة في يده، وقال: «يا بنيّ، أنا ككلّ أبناء قبيلتي، لا نحب السفر إلّا بحثاً عن المراعي أو الأمان الأفضل، أو هرباً من قيظ الحرّ أو صقيع القرّ. حين قبلت بعض دعوات السفر، اكتشفتُ أنّ الناس يقولون إنّ الله أنزل عليهم كتاباً، وأنا صدّقتهم، لكنّي رأيتهم يتقاتلون على الكتاب وينسون الله، ففرحت أنّنا نعيش بعيداً عن المجتمع الحديث».

بقيت عبارة ذاك الحكيم القبلي راسخة في عقلي وقلبي، أستخدمُها كلّما ذهبت إلى بلد غارق في الفِتن، وكلّما رأيتُ طرفاً يصرخ انتصاراً على الطرف الآخر، وهما في الأصل يعبدان الخالق نفسه ويقرآن في الكتاب عينه. لكنّ ما قاله دفعني إلى البحث عن عبادات أخرى ومجتمعات لم يشوّهها بعدُ التفسير الخاطئ للكتب السماويّة، ولا دفعها جشع السلطة إلى الاقتتال فوق الكتب وباسم الكتب.

قيل لي إنّ في أفريقيا أناساً يسيرون على دروب الطرق الصوفيّة ويعيشون صفاء الحياة. هم مسلمون، لكنّ عاداتهم وتقاليدهم تختلف كثيراً عمّا يمارسه مسلمون آخرون في دول عربيّة أو إسلاميّة، فلا يعرفون تشدُّدا، ولا يغالون في لباسهم وعباداتهم، ويحبّون الموسيقى والفنّ والشعر والأدب. حين تعمّقت بالقراءة عن هؤلاء، لفتني اسم سيّدة أفريقيّة متقدّمة في السنّ، لكنّ تأثيرها على الناس والساسة بالغٌ جداً، حتّى إنّ بعض المرشّحين للرئاسة يقصدونها طلباً للدعم والدعاء، وإن غضبَتْ على أحدهم فإنّ سقوطه في الانتخابات يصبح مرجَّحا.

إنّها السيدة مريم إبراهيم نياس. تعيش في السنغال. تتبع الطريقة الصوفيّة التيجانيّة التي ورثتها عن والدها العلّامة الصوفي التيجاني إبراهيم نياس. كان لوالدها أتباع ومريدون منتشرون في معظم الدول الأفريقيّة وبعض الدول العربيّة، حتّى صار ضريحه مزاراً للمريدين والمؤمنين، من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر مروراً بشيوخ جامع الأزهر وصولاً إلى الخليج. كان لوالد الشيخة مريم نياس علاقة قويّة بقادة العرب والمسلمين. قد لا يوجد أفريقي واحد أو حتّى مغاربي لم يسمع باسم إبراهيم نياس. ثمّ إنّ الشيخ إبراهيم كان أحد الأعضاء السبعة في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وكان الرجل الأسود الوحيد الذي أقام الصلاة في جامع الأزهر في القاهرة.

لا بدّ إذاً من الذهاب إلى السنغال، والبحث عن هذه الصوفيّة المسلمة التي قرأت أنّها أخذت اسمها من السيّدة مريم التي ذكرها القرآن وكرَّمها، والتي هي أيضاً سيّدة نساء العالَمين عند المسيحيين.

استعنْتُ بصديق موريتاني يعرف السنغال عن ظهر قلب، وعاش فيها طويلاً، وعرف قادتها وصادقهم، لينصحني بفندق جيّد، فدلّني على فندق بالقرب من المطار. وصلتُ إليه ليلاً وكانت الحرارة معتدلة مع بعض الارتفاع. التقيتُ في بهو الفندق فتيات سنغاليات يتمتعن بطول القامة وجمال الوجه والعيون، ويلبَسْنَ ثياباً تشي بأنّهن لسن من زبائن الفندق أو السيّاح، وإنّما ينتظرن سهرة أو حفل زفاف.

كنَّ من أولئك الفتيات السوداوات البشرة، لكنّ لونهن لامعٌ على نحو لافت، وقاماتهن تبدو منحوتة نحتاً كاملاً مكتملاً، يستحيل وجود خطأ فيها.

إجراءات الفندق عادة بسيطة في أفريقيا، وغالباً ما تقترن بابتسامة وترحيب موظفة أو موظف الاستقبال، وهذه من الصفات الرائعة عند الشعوب الأفريقية. لم يؤثر شظف العيش ولا الفقر على طباعهم المرحة وضحكتهم المستمرّة. أعتقد أنّي في كلّ رحلاتي إلى أفريقيا، لم ألْقَ وجهاً واحداً متجهِّما، خلافاً لما هي الحال في الكثير من الدول الأوروبيّة. في كلّ رحلاتي كنت ألوم العرب على تجاهلهم لأفريقيا الرائعة التي وقفت إلى جانب قضاياهم كما لم تفعل قارّة في العالم، وخاصّة في عهد الرئيس جمال عبد الناصر. أمّا الآن فقد اخترقت إسرائيل جملة الدول الأفريقية، بفضل التعاون العسكري والزراعي والأمني.

شرحت لي موظفة الاستقبال شروط الإقامة ووسائل الرفاهية في الفندق، من مسبح يتوسّط مرجاً أخضر، وغرفة سونا، إلى نادٍ للرياضة وقسم للماساج، وغير ذلك. ثمّ أعطتني مفتاح غرفتي وهو عبارة عن كارت إلكتروني. قبل أن أهمّ بشكرها ومغادرتها، قالت: «نسيت أن أقول لك يا سيدي، إنّ في جانب الفندق كازينو يفتح ليلَ نهار، إذا شئتَ الترفيه عن نفسك». حين قالت ذلك، رأيتُ إحدى الفتيات الساحرات في بهو الفندق تبتسم لي بإغراء. فهمت الآن سرَّ تعلّق صديقي الموريتاني بهذا الفندق. ضحكتُ وأكملتُ طريقي صوب الغرفة لأرتاح قليلاً قبل تناول العشاء واكتشاف ما في الفندق وحوله.

في صباح اليوم التالي، كان مرافقي السنغالي ينتظرني في بهو الفندق. هبَّ واقفاً حين رآني. رحَّب بي متمنِّيا لي إقامة سعيدة في السنغال، وسألني إن كنت أرغب في الذهاب مباشرة إلى السيدة مريم. كان قد أجرى كلّ الاتصالات اللازمة قبل يومين لترتيب اللقاء معها، ذلك أنّها كانت غالباً ما تسافر، أو تُدعى إلى مؤتمرات ودول، فمعظم القادة الأفارقة يتباركون بوجودها.

في طريقنا إلى منزل السيدة مريم نياس، كان موكب من السيّارات الفارهة البيضاء الرباعية الدفع، يعبر سريعاً في الشارع، تتقدّمها وتُحيط بها سيّارات رجال الأمن ودرّاجاتهم. شرح لي مرافقي السنغالي أنّ هذا موكب أمير منطقة كانو النيجيرية يأتي زائراً لضريح أسياد التيجانية هنا، وأنّه سيزور حتماً الشيخة مريم التي تتمتّع بسمعة طيّبة وواسعة، وسطوة دينيّة وصوفيّة في معظم أفريقيا، بما فيها المغرب العربي.

مريم أُمّ الجميع

ما إن اقتربنا من منزلها، حتى رأيت عدداً لافتاً من الأطفال التلامذة يدخلون إلى الطابق السفلي. هنا أقامت السيدة مريم مدرسة لتعليم القرآن الكريم ولتهيئة الأطفال للدخول إلى عالم الدراسة الدينية والمدنية. كلّ ما تقوم به مجّاني يأتي من التبرعات.

صعدنا إلى الطابق الأول. كنت أثناء صعودي مع مرافقي السنغال، نلتقي في الدرج الضيّق بنساء سنغاليات مختلفات الأحجام والأوزان والأعمار، لكنّ معظمهنّ من صاحبات الأوزان الثقيلة، أي على النقيض تماماً من أولئك اللواتي رأيتهنّ في بهو الفندق.

السيدة مريم إبراهيم نياس.

هذه هي السيدة مريم جالسة في وسط غرفتها الواسعة، ومن حولها النساء. تبدو سبعينية العمر. صحّتها جيدة. وجهها باسم. يزيد وزنها حتماً عن مئة كيلوغرام. ارتفعت يدها ترحيباً بنا بمجرّد ولوجنا الغرفة. قالت لي باللغة الفرنسية: «اعذرني يا بنيّ لا أستطيع الوقوف بسهولة، وأنت قيمتك كبيرة عندنا، وأنا أشاهد برامجك». شكرتها وتقدَّمتُ صوبَها، فمدّت يدها للمصافحة. قبَّلتُ يدَها التي رسم الدهر عليها معالم العمر. كان جلد يدها قاسياً قليلاً، وأصابعها غليظة قليلاً، تماماً كأيادي فلّاحات قريتي اللبنانية. لعلّ ذلك قرَّبني منها أكثر.

دعتني للجلوس بقربها. وضعت يدها على يدي، وقالت: «بارك الله فيك، وشكراً لتجشّمك عناء السفر والمجيء لملاقاتي، فقد لا أستحق هذا الاهتمام». قلت لها: «شكراً لاستقبالي يا شاغلة الناس ومالئة أفريقيا، ولو أنّك لا تستحقين المجيء لما جئت». ضحكت فأضحكت السيدات من حولها، ونشأ بيننا على الفور شيء من تلك العلاقة اللطيفة التي تشبه علاقة الأم بابنها. لقد أشعرتني بذلك.

سكتنا قليلاً أثناء تقديم الشاي لنا، فبادرتْ إلى ذكر آيات من القرآن الكريم، وهي تداعب حبّات السبحة في يدها، وتدعو: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ»، «الصلاة والسلام على خير خلق الله سيّدنا محمّد عليه الصلاة والسلام»، «هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ». كانت تتلو كلّ ذلك بلغة عربية جيدة وعن ظهر قلب.

بدأتْ بالحديث عن والدها، فقالت إنّه «تربّى في بيت علم وشرف وكرم وجاه. ووالده، أي جدّي، ناهض الاستعمار الفرنسي وجاهد ضدّه، فنفاه المستعمرون إلى غامبيا، لكنّه رجع بعد ذلك واشتغل بتدريس العلوم الشرعيّة والفقه والتصوّف. الحمد لله أنّه نجح في نشر الطريقة الصوفيّة التيجانيّة، من أفريقيا إلى الصين وبنغلادش وكلّ مكان استطاع إليه سبيلاً». ثمّ أخبرتني كيف كانت وهي في مقتبل

العمر، تذهب مع والدها إلى مكّة المكرّمة، لأداء فريضة الحج؛ وكيف أنّ الشيخ إبراهيم ارتبط مع العائلة المالكة السعودية بعلاقة وثيقة وكان مستشاراً لأبرز قادتها بمن فيهم الملوك. وهي ما زالت حتى اليوم تذهب إلى مكّة بدعوة من الحكومة أو من رابطة العالم الإسلامي.

حفظت الشيخة مريم القرآن الكريم وهي في سنّ الخامسة عشرة. وهي لا تحفظه ببّغائيًّا، كما هي الحال مع بعض الذين لا يتقنون العربيّة، بل تفهمه جيداً، وتعرف تفاسيره، وتعمّقت في علوم الإسلام، وها هي اليوم تنقل معارفها إلى أطفال أفريقيا وتخصّص لكلّ واحد منهم 7 سنوات من العلم حتى يتقن القرآن حفظاً وفهماً. قالت لي إنّها تعلّمت على بعض الأساتذة المهمّين، وإنّها قرأت عشرات الكتب العربيّة العريقة. ذكرت منها كتب «الأخضري» و«الأجرومية» و«ابن عاشر» و«الرسالة» وغيرها، قبل أن تستقرّ في داكار عام 1951 وتبدأ بالتدريس ونشر الإسلام وتحفيظ القرآن لأطفال كنت أراهم يدخلون عليها ونحن نتبادل هذه الأحاديث، ويجلسون بقربها، أو في حضنها، فتمسح وجه هذا وتضع يدها على رأس ذاك، وتُطعم آخر، وكأنّها أمّ حقيقيّة بين أطفالها الحقيقيّين. حقاً نجحت الشيخة مريم في تحفيظ القرآن الكريم للأطفال الذين كانوا يتناوبون على تلاوة آياته أمامي، وبعضهم يشرح لي ما فهم ويحدّثني باللغة العربية. حين ذهبت الشيخة مريم ببعض هؤلاء الأطفال إلى الخليج، والتقت بالشيخة فاطمة، وجالت على مدارس أبو ظبي، لاقى الأطفال استحساناً كبيراً وهم يشرحون لرفاقهم معاني القرآن التي حملوها معهم على ألواح خشبيّة قديمة.

من خلال الأرشيف الذي قرأته عن السيدة مريم، عرفت أنّ قادة عرباً ساعدوها لإنشاء هذه المدارس وتعليم القرآن ونشر الإسلام، منهم ملوك السعودية وأمراؤها، وخاصة الأميران سلطان ونايف، والرئيس الجزائري السابق الشاذلي بن جديد، ورئيس الإمارات الراحل الشيخ زايد، وزوجته الشيخة فاطمة، علاوةً على عددٍ من القادة الأفارقة الذي يؤمنون بأهمّية ما تفعله تلك السيّدة. حين حدّثتها عن ذلك، شكرت من ساعدها، وخاصّة الأميرين سلطان ونايف اللذين تبرّع كلٌّ منهما بمبلغ 200 ألف دولار، وكذلك قادة الإمارات، وفي مقدّمهم الشيخ زايد. ضحكت وقالت: «ولكن ما أكثر الذين وعدوا ولم يُرسلوا شيئاً». أمّا الرئيس السنغالي السابق عبدو ضيوف، فقد ساعدها في تأسيس إحدى أكبر مدارسها الحاليّة.

التيجانيّة من المغرب إلى أفريقيا

لدى الشيخة مريم إبراهيم نياس ما لدى عائلتها الصوفيّة التيجانيّة من أسرار العبادة، لا يبوحون بها لأحد، مكتفين بالقول إنّهم ملتزمون بتعاليم القرآن الكريم وآياته.

والطريقة التيجانيّة التي تنشرها الشيخة مريم نياس تأسّست على يد أبي العباس أحمد بن محمّد بن المختار بن سالم التيجاني المولود في الجزائر في عام 1737. راح ينشرها في الدول العربيّة من تونس إلى المملكة المغربيّة إلى مصر وفلسطين وسوريا فمكّة والمدينة المنوّرة وصولاً إلى القاهرة وغيرها. ثمّ عرّفت انتشاراً واسعاً في القارّة السمراء، وصار لها شأنٌ لا في الدين فقط، بل في السياسة أيضاً، حيث ينتمي إليها عدد من قادة أفريقيا ينتمون إليها ويحصلون على دعم الشيخة مريم.

كان لمدينة فاس المغربية دور كبير في ترسيخ الطريقة التيجانية وتعميقها وتعزيزها. ففي تلك المدينة أقام الشيخ بن سالم التيجاني فترة غير قصيرة، وحاور علماءها وفقهاءها. تعمّق بالبحث الديني والروحي. أسّس زاوية صوفيّة باسمه، ووضع أسس كتاب مهمّ حول طريقته، جمعه من بعدِه تلميذه المغربي علي حرازم برادة، تحت عنوان: «جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العبّاس التيجاني».

بعض نقّاد الطريقة التيجانيّة عابوا عليها أنّها لم تنضوِ تحت قيادة الثائر الجزائري الكبير الشيخ عبد القادر، ولم تدعُ علانية لمناهضة الاستعمار الفرنسي. لكنّ أربابها يدافعون عنها. يقولون إنّهم كانوا

يناهضون الاستعمار على طريقتهم، وإنّهم حاولوا مراراً تجنّب الدماء والحروب، لأنّها تخالف تعاليم الخالق. فالصوفيّون هم روحانيّون متسامحون يذكرون النبيّ آناء الليل وأطراف النهار (أو ما يُسمّى بالأوراد) ويميلون نحو السلام الروحي والإنساني.

للتيجانيّة حضور كبير في أفريقيا من شمالها إلى ساحلها، ولها تأثير قويّ في السودان حيث يقال إنّ أيّ رئيس سوداني أو سنغالي أو في دول أفريقيّة كثيرة أخرى، لا يستطيع الوصول إلى منصبه إن كان مناهضاً للتيجانيّة، باستثناء الرئيس السنغالي سنغور الذي كان مسيحيًّا ومدعوماً من الغرب.

سألتُ الشيخة مريم عن بعض أسس وأسرار طريقتها الصوفيّة. تجنّبت الكلام أمام الحاضرين. فتحت لي يدي دون أن يراها أحد، وكتبت عليها سرًّا من تلك الأسرار طلبت منّي أن أحفظه، وأن لا أبوح به إلى أحد. قالت إنّ عدم البوح يحميني في حياتي ويفتح لي طريق الخير. فعذراً منك عزيزي القارئ إن لم أبُحْ بهذا السرّ، ليس بسبب الإيمان فقط، بل حرصاً على من أمّنتني عليه.

لفتني ونحن نجول في مدارس الشيخة مريم وطريقتها الصوفيّة التجيانيّة أنّها سمّت أحد أطفالها أحمد ياسين. ظننتُ أنّ الأمر مجرّد مصادفة، وأن لا علاقة له بمؤسّس حركة حماس الإسلاميّة في فلسطين، لكنّها سارعت إلى التأكيد أنّها بالفعل سمّته على اسم الشيخ أحمد، ذلك أنّ آل نياس وأهل الطريقة هنا يؤمنون بحق الشعب الفلسطيني بدولته ويدعمونه ويناهضون إسرائيل.

الشيخة مريم والسياسة

بفضل تاريخها وتاريخ عائلتها الطويل الصوفي والدعوي الإسلامي، نجحت الشيخة مريم نياس في القيام بأدوار وساطة سياسيّة بين السنغال وعدد من الدول، بما فيها دولة إيران. حصل ذلك حين كان الرئيس السنغالي السابق عبدو ضيوف قد حمّلها رسائل إلى مسؤولي دول عربيّة وأفريقيّة، فاستدعاها السفير الإيراني في الجزائر أثناء التوتّر الكبير بين السنغال وإيران، وسألها: «ألم يُعطِكِ عبده ضيوف رسالة لنا؟» قالت لا، فاقترح السفير الإيراني أن يوجّه لها دعوة لزيارة طهران. استجابت للدعوة، لكنّها قبل ذلك زارت السعوديّة، فاتّصل بها سفير السنغال، وأخبرها بأنّ السفير الإيراني في المملكة يسأل عن عنوانها، ونصحها بأن لا تستقبله، وأن لا تذهب إلى طهران، لأنّ علاقة إيران بالمملكة وبالسنغال متوتّرة الآن. أجابته: «إذا أتَوا فسأستقبلهم، لأنّ الله يقول {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ..}، إذا جاؤوني لا أطردهم، بل سأستقبلهم إن شاء الله». آنذاك استشارت الرئيس ضيوف، فطلب منها الانتظار حتّى عودته من المؤتمر الإسلامي، كي لا يُحرَج، ثمّ ذهبت إلى إيران.

تزامنت زيارة الشيخة مريم إبراهيم نياس مع اندلاع الحرب الإيرانيّة العراقيّة. كانت إيران تسعى للحصول على تأييد أكبر عدد من الدول العربيّة والإسلاميّة. نجحت زيارتها في إعادة ربط العلاقة بين طهران وداكار. لكنّ اللافت في الأمر أنّ ابنها كان آنذاك في العراق موظفاً في برنامج الأمم المتّحدة للنفط مقابل الغذاء. راح المسؤولون العراقيّون يطلبون منه أن يتوسّط لدى أهله وقادة الطريقة التيجانيّة، للدعاء لهم بالنصر والتأييد. لم يستطع إيصال الرسالة، ذلك أنّ الفندق الذي يُقيم فيه كان قد تعرّض للقصف.

حين كنت أزور الشيخة مريم إبراهيم نياس كانت موريتانيا تعيش معركة انتخاباتها. اقتربَتْ منّي وهمسَتْ لي، كي لا يسمعها الحاضرون: «تعرف يا بنيّ أنّ أبرز المرشّحين الموريتانيّين جاؤوني طالبين المساعدة». عرفت منها أنّ الرئيس الموريتاني المخلوع سيدي ولد الشيخ عبد الله ينتمي إلى الطريقة التيجانيّة، وكان أبوه مقدَّما كبيراً للشيخ الراشدي، وأنّ أحد أبرز المرشّحين الحاليّين مدعوم منها.

قصّة غريبة مع الشيخة

شارفت الساعة على الثانية بعد الظهر. كان حديث الشيخة مريم نياس ينتقل من القرآن الكريم إلى الصوفيّة، ثمّ إلى السياسة وإلى مشاكل العالم حاليًّا. سألتني عن لبنان وعن أحوال الدول العربية. قالت إنّ العرب والمسلمين والأفارقة بحاجة إلى العودة إلى مبادئ الحب والتسامح والعدل، وإنّ ابتعادهم عن الجوهر الحقيقي للإسلام والقرآن الكريم، هو الذي يرميهم في أتون الصراعات والحروب والفتن والجهل. قالت: «علينا قبل كلّ شيء تعليم أطفالنا لأنّهم جيل المستقبل. يجب أن نُدخل إلى عقولهم وقلوبهم أنّ الإسلام دين تسامح وحبّ، وليس دين صراعات وحروب وفتن وإرهاب». أكدت غير مرّة أنّ نهضة المجتمعات تبدأ بالعمل والوعي وأنّ مسلماً متعلّما افضل من مسلم جاهل».

أُحضرت أطباق الغداء إلى مجلس الشيخة مريم. وُضع الطعام والشراب على حصير على الأرض. تنوّعت الأطباق بين اللحوم والأسماك والأرز والخضروات. دعتنا الشيخة بكثير من تعابير الترحيب والكرم والضيافة للأكل معها. لم ينفع اعتذارنا. قالت: «إنّ مغادرتكم دون تناول الطعام معي هي إهانة لي». جلسنا نشاركها الطعام الذي كانت رائحته الزكيّة تنعش أنوفنا وتحرّك معدتنا. امتلأت الغرفة برائحة البهارات الزكيّة.

أمّا القصّة الغريبة والمحرجة جداً فقد وقعت أثناء تناولنا الغداء. كنت آكل كما تفعل الشيخة مريم بيدها، من دون استخدام أيّ وسائل أخرى، أي من دون شوكة أو ملعقة أو سكّين. أمسكَتْ بالأرز، حرّكَتْهُ في يدها حتّى استدار مثل كُرةٍ صغيرة. ثمّ قدّمته لي مباشرة إلى فمي. أخذته شاكراً. هذه عادة كنت قد تعلّمتها في الكثير من الدول ولم أرفضها يوماً، ولا سيّما أنّ صاحب الدعوة والوليمة غالباً ما يغسل يديه، قبل الأكل، بماء الورد؛ فمن غير اللائق رفضُ ذلك. لكنّ ما لم يكن في حسباني أبداً، هو أن تضع الشيخة مريم الأكل في فمها، ثمّ تأخذ منه قليلاً لتطعمني إيّاه. استغربت الأمر، وربّما لم تكن لديّ الشجاعة الكافية لقبول ذلك، ولا لرفضه. فقلت لها: «سأقبله، ولكن اشرحي لي ما سبب ذلك». قالت إنّ هذا بالضبط ما يعني مشاركة الروح وتقاسم المصير، وإنّ دعاءها سيدخل مباشرة إلى قلبي حين نتشارك لقمة الطعام. صدّقوني، لم أعرف كيف ابتلعت تلك الحبيبات من الأرز، ولو كان بوسعي أن لا أفعل ذلك، لما فعلته. لكنّ الإحراج كان كبيراً، وكبيراً جداً

بعد الغداء والقليل من الراحة، استأذنت الشيخة مريم مودًّعا. ودّعتها وفي قلبي الكثير من الامتنان الإنساني لما تفعل، وكثير من الحبّ والتقدير. ولكن الكثير أيضاً من الغرابة بشأن طريقة المشاركة في الطعام. ابتعدنا عن المنزل، وكانت أصوات الأطفال وأغانيهم وأناشيدهم ترافقنا، كأنّما تريد أن نغادر وفي قلوبنا فرح الأطفال. هكذا غادرت فعلاً على أمل العودة مرة ثانية إلى السنغال الجميل.

الصومال حيث دمعة
طفل جائع غيّرت حياتي

أكاد لا أصدّق وأنا أكتب هذه السطور في عام 2017، أنّ الصومال الذي زرته في أوج مجاعته وحربه قبل 25 عاماً لا يزال يتضوّر جوعاً، ويكتوي بنار الاقتتال، ويتفتّت بغياب الضمير العالمي ليشكّل وصمة عار على جبين الإنسانية جمعاء. ما زلت الآن، وأنا أخط هذه الكلمات، أرى أمامي تلك الطفلة وشقيقها ينظران إلينا، بعيونهما التائهة وبطنيهما الغائرين من الجوع، ونحن نهمّ بأكل ما تيسّر من المعكرونة المسلوقة وبعض لحم الجمال. أراهما كأنّهما الآن يهرعان صوبي حين ناديتهما لأعطيهما الطبَقَ الذي اشتريته، فالتهماه بسرعة البرق، وكأنّهما لم يأكلا طوال عمريهما الصغيرين. أكاد الآن أصبُّ جام غضبي على العرب الذين ألحقوا الصومال بجامعتهم، ثمّ تركوه على قارعة الطريق؛ وأصبُّ غضباً مضاعفاً على أمم متّحدة تعجز منذ أكثر من ربع قرن، عن سدّ رمق طفل جائع، أو كفكفة دموع ثكلى، أو تخفيف ألم مريض.

كنت، أنا الذي عشت ويلات حربنا اللبنانية ومآسيها، أتعاطف مع كلّ دولة تعاني من ويلات الحرب. ظننت حين اقترحت الذهاب إلى الصومال في عام 1992، أنّي ذاهب لتغطية وقائع حرب تشبه تلك التي عشناها في بيروت. قرأت قبل ذهابي إلى الصومال كثيراً من الدراسات والكتب والوثائق حين صارت المجاعة تطرق أبواب العالم طرقاً. كان العالم يتبارى آنذاك في الذهاب إلى تلك الدولة الأفريقية الشاسعة (238 ألف كيلومتر ونحو 14 مليون نسمة) ليس لإيجاد حلول وإطعام الجياع، بل للتنافس والمبارزة أمام وسائل الإعلام، وتقديم صورة كاذبة عن دول تتعاطف مع الفقر والجوع والمرض وضحايا الحروب. لكن، صدّقني عزيزي القارئ، كلّ ما قرأته هوى كما تهوي ورقة صفراء في فصل الخريف. كلّ ما قرأته لا يساوي شيئاً أمام هول ما رأيت.

قيل لنا في فرنسا إنّ على الصحافيّين الراغبين في الذهاب إلى الصومال إعدادَ أنفسهم جيِّدا. والإعداد يعني، هنا، شراء كلّ ما يلزم من ملبس ومأكل، والتزوّد بكلّ اللقاحات الضرورية قبل الرحلة وخلالها، تفادياً للأمراض السارية والملاريا، واصطحاب علبة الإسعافات الأوليّة والأدوية المطهّرة للمياه والطعام والمبيدات الطاردة للحشرات والزواحف. الإعداد الجيد للرحلة يعني أيضاً إيجاد طريقة لأخذ أكبر قدْر ممكن من الدولارات شرط تخبئتها جيداً في ثيابنا، لإخفائها عن أعين الميليشيات التي قد تستولي عليها فور وصولنا. رُتّبت رحلتنا أولاً إلى اليمن، ثمّ جيبوتي. وهناك كان علينا الانتظار يوماً أو يومين، لتأمين مقعد على طائرة عسكرية فرنسية باتّجاه الصومال.

كانت جيبوتي في تلك الفترة زاخرة بالمقاهي والمطاعم وعلب الليل. وكنت العربي الوحيد بين وفد كبيرٍ من الإعلاميين الفرنسيين والأميركيين والغربيين. خرجنا ليلاً نتمتّع بانخفاض درجة الحرارة قليلاً. تناولنا العشاء في مطعم لبناني مديرته سيدة جميلة لكن مبتورة اليد (لا أدري كيف يصل اللبنانيون إلى كلّ تلك الأمكنة، ولم أشأ معرفة سبب بتر يدها، ربّما بسبب حربنا) ثمّ عرّجنا على إحدى علب الليل بدافع الحشريّة. كانت عشرات الفتيات الإثيوبيّات بأجسادهنّ المثيرة ولباسهنّ الذي يكشف أكثر ممّا يحجب، يرقصن أو يراقصن الجنود الفرنسيّين العاملين في القاعدة العسكرية أو كبار الموظفين أو الإعلاميين وموظفي المنظمات الإنسانية. حينئذٍ فقط اكتشفت أنّ الجمال الأنثوي الأفريقي استثنائي، وأنّ الافارقة هم أكثر الشعوب عشقاً للحياة والمرح. كانت سهرة لطيفة تعرّفنا فيها إلى الكثير من الأغاني الأفريقية، وأعتقد أنّ بعض زملائي الفرنسيّين الذين لم يُعيروا أهمّية للشروط الصحّية، لم يُمضوا الليلة منفردين.

كان الجيش الفرنسي قد وضع اسمي على لائحة الإعلاميين المغادرين إلى الصومال بعد يومين. لكن

ما إن بزغ صباح اليوم التالي بعد سهرتنا الطويلة، حتى رنّ هاتف غرفتي. جاءني صوت إحدى مسؤولات الإذاعة الفرنسية التي كنت أعمل فيها يقول: «عزيزي سامي، للضرورة القصوى، عليك السفر اليوم إلى الصومال لا بعد غد. نحن رتّبنا لك كلّ شيء مع قسم الإعلام التابع للجيش الفرنسي كي تستطيع ركوب الطائرة. خذ معك كلّ ما تستطيع من مال، وإن لم يكن معك ما يكفي فسنتّصل بإدارة الفندق كي توفر لك ما تريد ونحن نجري التحويل من هنا فوراً، وحاول أن تشتري بعض الثياب للزميل كريستوف». فهمتُ من خلال الاتّصال السريع أنّ إحدى الميليشيات الصومالية كانت قد استولت على آلة تسجيل كريستوف، واستولت على ماله وعلى قسم من ثيابه وما يحمله. كان كريستوف خبيراً في تغطية الحروب، ومراسلاً حربياً من طراز رفيعٍ، وصاحب حسّ إنساني بالغ. وضعْتُ السمّاعة، وقلت: «إن كان كريستوف الخبير في الحروب والميليشيات لم ينجح في النجاة من هذه الميليشيا، فإنّ الأمر قد يكون معقداً وخطراً، لكن لا بأس فلمثل هذه الأسباب سُمّيت الصحافة مهنة المتاعب». فكّرت بأمّي وبأنّها لن تقوى على التحمّل إن أصابني مكروه، فهي مذ قُتل أبي في الحرب غدتْ بالغة الحساسيّة والخوف. صورة أمّي وحدها كانت تحضرني، في كلّ مرّة كنت أذهب فيها لتغطية حرب في الصومال أو الخليج أو يوغسلافيا أو رواندا أو تشاد أو غيرها...

اتّكلتُ على الله، وطلبت منه أن يحميني، وأن يساعد أمّي على الصبر وعلى أن تسامحني إن أصابني مكروه. لكنّ شيئاً في تلك اللحظات لم يكن قادراً على تغيير اقتناعي بضرورة أن أنقل عذابات شعب جائع ومقهور ومعذّب ومنسيّ، وعربيّ فوق كلّ ذلك.

هذه أول مرّة أركب فيها طائرة عسكرية مخصّصة أصلاً لنقل العتاد العسكري. جلسنا على مقاعدها الموزعة على جانبي الطائرة، لا في وسطها. ربطنا أجسادنا بأحزمة النجاة التي تختلف تماماً عن أحزمة الطائرات العادية. كان في وسط الطائرة أنواع عدّة من العتاد والمساعدات، وفي مؤخرتها سيّارات عسكريّة. وضعنا على آذاننا مخفّف الصوت الخارجي، ليقينا شيئاً من هدير الطائرة الذي كان عالياً أكثر ممّا حسبت. حلّقتْ بنا، تهدر بصوتها العالي، تترنّح، تعلو وتهبط، ثمّ تعرّضت لإطلاق رصاص فوق الصومال فترنّحت أكثر فأكثر. ذُعر الكثير من الزملاء غير المعتادين على اقتراب الموت. تجمّع بعضهم على بعض. ورسم بعضهم إشارة الصليب على وجوههم. فكّرت بأمّي. تراءت لي عيناها الخضراوان الجميلتان ترجوانني أن أعود. لكنّنا وصلنا بخير.

ما إن وطئتْ أقدامُنا أرضَ المطار، وسط ظروف صعبة، حتى وجدت أمامي كريستوف منتظراً يحاول ملاقاتي بابتسامةٍ لم تُخفِ القلق البادي على وجهه. أخبرني بكلّ ما حصل له، ثمّ قال: «عزيزي سامي، هنا يجب أن نأخذ معنا مجموعة من الحرّاس، هذا إلزامي، وعلينا أن ندفع لهم ألف دولار كلّ يوم». سارعتُ إلى القول: «هل جُننِتَ؟ هذا غير معقول، فنحن قد نبقى شهراً هنا، فهل سندفع لهم ثلاثين ألفاً؟ نحن بحاجة إلى سائق ومرافق واحد، وهذا كافٍ». فأجابني: «لا خيار لنا في ذلك. هذا مفروض علينا».

كان حرّاسنا عشرينيّي السنّ. عيون بعضهم حمراء تلتمع فوق أسنانهم البيضاء وألوانهم السوداء الفاتحة أو الدكناء. كانوا عند وصولي يُظهرون مشاعر العداء أكثر ممّا يُبدون رغبات الودّ. حاولت الحديث معهم، فلم أجد بينهم إلّا واحداً يتحدّث العربيةَ على نحوٍ مفهوم. أمّا الباقون فيتحدّثون لغتهم المحليّة فقط. انطلقنا في رحلة طويلة داخل الصومال وكان لا بدّ من التحادث مع مرافقينا. بدأت أسأل المرافق الذي يتحدّث لغتنا عمّا إن كان جميع من معنا يُصلّون. انفرجت أساريره وقال: «نعم». كانت هذه من الأساليب التي تعلمتها كمراسل حربي للذهاب في اتّجاه الميليشيات وعدم التناقض مع عاداتهم ورغباتهم. سألته إن كانوا محترفي إطلاق رصاص إذا تعرّضت سيّارتنا لمكروه. قال: «نعم لا تقلق فنحن معتادون على ذلك». قلت: «نحن إذاً في أمانٍ معكم». هذه أيضاً من شروط إقامة رابط ودّي مع الميليشيات في بلاد الحروب. ثمّ راح هو يطرح عليّ الأسئلة، من أين أنا، وهل أنا مسلم، وهل عرفنا حروباً مثل التي نراها اليوم، وماذا جئنا نفعل؟ ربّما هي اللغة، أو الشعور الديني، أو نعمة من الله، إذ

تحوّل فجأة هذا المرافق من شخص عدائي إلى شابّ ودود يريد معرفة كيفيّة السفر إلى فرنسا لمتابعة الدراسة. وما إن بلغنا منتصف الطريق صوب مقصدنا، حتى قال لي: «بما أنّك عربي ومسلم مثلنا، فسوف أقلّص تكلفة حمايتكم إلى النصف». وما إن وصلنا إلى مبتغانا حتّى خفضها إلى الربع. لم يصدّق كريستوف حين أخبرته بذلك، لكنّي شعرت بأنّ هؤلاء الشبّان لا يعرفون كثيراً قيمة الدولار، وأنّ كلّ ما يفعلونه جديد عليهم تماماً. ربّما الحرب صارت بالنسبة إليهم وسيلة للتسلية وتمضية الوقت، ليس إلّا.

في الطريق إلى بيدوا التي قصدناها، كانت المناظر أفريقية بامتياز. أشجار لا تصلح سوى للحيوانات وللاختباء تحتها من قيظ النهار. حوانيت فقيرة منتشرة على طول الطريق. قطعان من الجمال أو الماعز. شبّان مسلّحون ينظرون إلينا شزراً ثمّ يلوّحون بالسلاح والسلام لمرافقينا. لكنّ المستغرَب هو تلك الحوانيت الصغيرة التي كنّا نجد أمامها نساءً صوماليات بثيابهن الطويلة المفتوحة من الأعلى ومن جانب واحد بحيث يتدلى ثديٌ واحد خارج الثوب، وقد كُتِبَت على الحوانيت كلمة عربيّة فجّة تشير إلى أنّ المكان هو لممارسة الدعارة. عجِبتُ للأمر، لكنّ مرافقي لم يَعجَبْ، وقال إنّ هذا شيء طبيعي وإنّ العابرين يتوقفون لتناول الأكل أو الشراب فلمَ ليس لممارسة الجنس أيضاً؟ ضحك وضحكنا... بدأتُ أشعرُ بكثير من العطف على مرافقنا الذي شرح لي، كطفل عائد لتوّه من المدرسة يتلو على أهله كلّ ما حصل له في يومه يخبر أهله بكلّ شيء، في دقائق معدودات... اتّفقنا على أن يعلّمني اللغة المحليّة وأعلّمه شيئاً من الفرنسية أو الإنكليزية. تصادقنا كثيراً أثناء الرحلة، وعملتُ لاحقاً مع بعض الزملاء على إنقاذه من أتون الحرب، بعد تأمين منحة له، للدراسة في فرنسا. كان بين فترة وأخرى يخبرنا عن تقدّمه، ونال شهادات عالية، وحصل على عمل، وأظنّ أنّه تزوج ولا يزال يعيش هناك.

لقطات من أفريقيا.

بين أمس متسامح وحاضر فقير

بدت لنا العاصمة مقديشو التي تقاوم حالياً الفقر، مدينة ذات تاريخ هادئ وسط بيوتها البيضاء. كانت كما كلّ المناطق والمدن الصومالية الأخرى مثالاً يُحتذى في الجوار الأفريقي لجهة التسامح ووحدة الأعراق. استعمرها الأجانب مراراً، وكانت تتقبّل الاستعمار ثمّ تنتفض عليه، حين يتعدّى حدودَ المنطق. لا يزال الصوماليّون يذكُرون بكثير من الاعتزاز محمد عبد الله حسين الطارودي (من قبيلة طارود الشهيرة) الذي قاتل المستعمر الإنكليزي 20 عاماً وأرعب الإيطاليين والإثيوبيين، فلقبته بريطانيا بـ«الملا المجنون». كان مناضلاً بطلاً وشاعراً يحلو له نظم القصائد فوق جثث أعدائه المستعمرين؛ فهو يقول مثلاً، حين هزم فوجاً بريطانياً وقتل قائده الكولونيل كورفيلد: «أنت ميتٌ يا كورفيلد، أنت الراحل صوب الجحيم، كُتِبَت عليك رحلتك المشؤومة هذه كقدر». حينما يئست الإمبراطورية البريطانية من القبض عليه أو قتله، أرسل رئيس وزرائها الشهير ونستون تشرشل مقاتلات عسكرية لتقصف مكان وجود جيفارا الصومال. لكنّه نجا بأعجوبة وراح يضحك على المستعمر، ويقول: «إنّ من ينتمي إلى فرقة الدراويش لن يقتله مستعمر لأنّ الله حاضر في قلبه».

ربّما لو كان محمد عبد الله حسين على قيد الحياة الآن، لما فهم كيف تخلّى المسلمون والعرب والأفارقة عن بلاده، وكيف صار الصومالي بحاجة لعودة المستعمرين السابقين يرمون إليه ببعض أكياس الأرز وعلب الدواء.

وصلنا إلى بيدوا في جنوب الصومال. غزَتْ رائحة الموت أنوفنا. ها أنا أمام هيكلين عظميين، فتح أحدهما عينيه حينما اقتربت منه، ثمّ أغمضهما. بدت لنا المدينة كمقبرة كبيرة، لكنّ موتاها يتحرّكون بعيون غائرة وبطون منتفخة بسبب تخطّي الجوع كلّ حدّ. كانت أطراف تلك الأجساد النحيلة أشبه بالعيدان الدقيقة أو بأغصان الشجر الهشّة، وكان الجوع مُعلَناً على كلّ الوجوه كوصمة عار على جبين الإنسانية والعالم.

لا شيء في هذه المدينة قائم. تبدو كأنّ إعصاراً أتى عليها برمّتها، أو برابرة العصر حطموا كبرياءها. انهارت فيها البيوت والبنى التحتية. توقفت كلّ المؤسسات. يسير فيها الناس كهياكل عظمية تحرّكها آلات غير مرئيّة.

وسط المدينة التي ينتمي إليها الرئيس السابق سياد بري، بقايا مدفع، وشيء يشبه الفندق. وسيّارات الميليشيات تجوب الشوارع فتزرع القلق والخوف. بين مشاهد الدمار والموت كاميرات وصحون لاقطة للإعلام الأجنبي تملأ المكان في الخارج، فوق ما بقي من السطوح والمباني. دخلتُ وكريستوف نطلب غرفة للمبيت. قال لي موظف الاستقبال: «لم تعد لدينا أمكنة شاغرة». والأمكنة المقصودة هي فقط ما يتّسع لفراش إسفنجي في بهو الفندق، ذلك أنّ كلّ الغرف محطمة. شرحتُ له أن ليس لدينا مكان آخر نأوي إليه، وأنّنا لا نستطيع أن ننام في العراء. نظر إليّ من فوق إلى تحت، ثمّ قال: «أنت مسلمٌ، نقبلك، أمّا هو فأجنبي، ولا نقبله»، قلت له: «ولكن لديكم الكثير من الأجانب هنا». أصرّ بعناد وعدائية على موقفه. في لحظات كهذه، يتحرّك الدماغ سريعاً فيجد حلولاً. قلت له: «لا بأس فهو أصلاً يحبّ المسلمين ولن يضيره في شيء إن قام وصلّى معنا». ارتسمَتْ على وجهه بعض ملامح الارتياح، وقال: «إذا أسلم ونطق بالشهادتين نقبله». شعرت بإحراج شديد حيال زميلي الفرنسي. سألني كريستوف عمّا يريده موظف الاستقبال. أخبرته، فقال لي: «أنا موافق، ما الضير في أن تكون لي تجربة من هذا النوع، تعرف أنّني لست متعلقاً بالأديان». وهذا ما حصل فعلاً. قُبِلنا في ما بقي من فندق. افترشنا الأرض إلى جانب الإعلاميين الآخرين، وطلبنا شيئاً من الطعام، فعرضوا علينا معكرونة مسلوقة ولحم الجمل. قلنا لا بأس. جلسنا مع عددٍ كبير من الإعلاميين أمام الفندق، وما إن بدأنا بأكل ما تيسّر أكلُه، حتّى رأينا الفتاة وشقيقها اللذين أخبرتكم عنهما سابقاً.

بدأت إحدى أشدّ رحلاتي إلى العالم قسوةً، وأكثرها تأثيراً على حياتي. فمن يرَ الموت والجوع وتحوُّل البشر إلى هياكل عظميّة، يصبح أمام احتمالين: إمّا أن يكره الحياة ويقرّر البقاء هنا لمساعدة الناس، وإمّا أن يزداد تعلّقًا بمهنة الإعلام، ويتولّى شرح مآسي الفقراء والمحرومين والمعذبين والمقهورين على وجه هذه الأرض، لعلّه بذلك يوقظ بعض الضمائر البليدة. تصبح الحياة شيئاً وهمياً عابراً، ويصبح لكلّ شيء نفعله فيها معنىً أعمق.

تبدو الحياة في بيدوا غير ذات قيمة. مَن بقي مِن الناس، إنّما يصارعون من أجل البقاء. لا أدري أصلاً لماذا يريدون البقاء لولا إيمانهم بأنّ معجزة ما قد تحصل فتنقذهم من جَوْر ما هُم فيه. كانت النساء يمررن أمامنا حاملات أكوام الحطب على رؤوسهنّ. لا أدري من أين جئن بتلك القوّة لحمل كلّ هذا الحطب. تسير النساء بين رجال مدجّجين بالسلاح، يفاخرون به، لسبب لا يعرفه غير حامله. أمّا الأطفال والكهول فيتحاملون على هياكلهم العظمية ويمدّون إلى عابري السبيل، أياديهم الطريّة، أو التي حفر فيها الزمان خطوطه القاسية.

الطفل كومة عظام

هذه هي المرّة الأولى في حياتي التي لا أعرف فيها من أين أبدأ. ندخل إلى مخيّم للأطفال الذين يعالجهم الصليب الأحمر من سوء التغذية. ينظر إلينا الأطفال بعيونهم الغائرة وأجسادهم العظمية. يبتسم بعضهم رغم الجوع والمرض. يمدّ البعض أيديهم لمصافحتنا. شعرُ بعضهم مالَ إلى اللون الرمادي أو الأزرق. يقول لنا الطبيب: «إنّ هؤلاء ما عادوا قادرين على الشفاء، لقد تخطّوا مرحلة سوء التغذية إلى ما هو أقسى منها، فتهشّمت أعضاء كثيرة عندهم وقد لا نستطيع إنقاذهم». حملتُ أحد الأطفال. إنّه يبتسم. قبّلته على جبينه. ثمّة رائحة لا أعرف كيف أصفها، هي بين رائحة الجثث ورائحة مياه آسنة مخفوقة بجبنة عفنة. إنّها لا شكّ رائحة الموت في أجساد واهنة تغالب الموت. ضممته إلى صدري، ونظرت صوب الله، وارتسمت على وجهي علامة استفهام كبيرة. لم أستطع هنا التمييز بين الأعمار، يبدو الشاب الذي قاربت سنُّه سبعة عشر عاماً مثلاً، كمن عمره أقلّ من عشرة أعوام؛ وأوزان بعضهم لا تزيد على عشرين كيلوغراماً. أرى موظفي الصليب الأحمر أو الجمعيات والمنظمات الأجنبية للإغاثة يحملون الأطفال لوزنهم على ميزان خاصّ. يصرخ الطفل من ألم احتكاك العظم، ثمّ بعد أن يوزن يتجمّع على بعضه ككومة حطب.

هذه سيدة تبدو في العشرين من عمرها. هي الوحيدة الموحية بشيء من القدرة على الكلام. اسمها أمينة. قالت إنّها هربت من بارديرا، بعدما قتل ملسحون زوجها، وسرقوا إبِله. سارت تسعة أيّام متواصلة مع أطفالها الخمسة. أطعمتهم أوراق الشجر. ذنبهم أنّهم ينتمون إلى قبيلة «غلجعل» المتفرّعة من قبيلة «الهويلى»؛ إذ لا تزال القبيلة سيّدة الانتماء في هذه البلاد الأفريقية. كنّا ونحن نجول في المدن أو الأرياف الصومالية، نرى قطعاناً كثيرة من الإبل والحيوانات الأليفة الأخرى تمرّ بين جثث الموتى أو قرب أطفال جِياع، لكنّ الرعاة لا يبدون أيّ تعاطف، ولا يقدّمون شيئاً من الحليب أو الطعام إلى أيّ جائع؛ فهُم لا يهتمّون للآخرين ما داموا لا ينتمون إلى قبيلتهم. هنا فقط شعرت بقدرة التقوقع داخل القبائل والعشائر على أن يكون قاتلاً للآخرين، في ظلّ مفاهيم غريبة تسمح بالتفرّج على إنسان يجوع ويموت، من دون أن تتحرّك في المتفرّج أيُّ عاطفة إنسانية.

قالت لي أمينة إنّها هربت إلى هنا، لأنّها سمعت بأنّ «رجالاً بيض البشرة جاؤوا من البعيد محمّلين بالأكل والدواء لإنقاذ الناس».

تفوح رائحة الموت والمياه النتنة من بيوت القشّ التي بنتها المنظمات الدولية. يفترش البيوت عشرات الأطفال والرجال الذين سلبهم الجوع القدرة على الوقوف في طوابير الانتظار. تنقضّ أسراب الذباب على بعض جراحهم التي لم تندمل. يبدون غير آبهين بها، أو لعلّهم فقدوا الإحساس بوجودها. شرحَتْ

لي عامرة الشيخ محمّد مسؤولة المركز الصحّي التابع لمنظمة «كونسرن» أنّ صحّة الأطفال هنا آخذةٌ في التحسّن. لم يمت منهم أحد منذ أسبوع، بينما كان عدد الموتى يصل إلى أكثر من ثلاثين طفلاً شهريًّا قبل أسبوعين. أشارت بيدها إلى طفل يسنده طفلان آخران، قالت إنّه معرَّضٌ للموت في أيّ لحظة «لأنّنا فقدنا القدرة على شفائه». نظر إلينا وابتسم. لا أدري سرّ تلك الابتسامة فوق الجسد المحطّم. ابتسمتُ له، لكنّي لم أنجح في مغالبة دمعة انزلقت على خدّي. كانت قرب الأطفال امرأةٌ مستلقية إلى جانب طفلها. ربّما لا تقوى على الوقوف. ربّما هي الأخرى آيلة إلى الموت، لكنّ إرادة الحياة تدفعها لإخراج ثديها على أمل أن يكون فيه رمق حليب لطفلها.

أُمراء الحرب والقبيلة

كلما كنت أتوغل في الصومال، كنت أزداد اقتناعاً بأنّ ما يصيب بلادنا هو في معظم الأوقات من صنع أيدينا. كلّ شيء في هذه البلاد الشاسعة مرتبط بالقبيلة. السياسة قبائلية. السلاح من مال القبائل. سلب المساعدات الإنسانية تحميه القبائل. كلّ مرافقينا في الرحلة هم من قبيلة واحدة. حتّى اختيار الضحيّة من الحيّ المجاور أو إحراق القرية أو السير فوق جائع، يقرّره الانتماء إلى القبيلة.

هذا فتىً صومالي بعمر الورود يخبرني أنّه سار على قدميه عشرة أيّام هرَباً من منطقة تسمايو الواقعة في أقصى الجنوب. اضطرّ لحمل السلاح كي يَعول من بقي من عائلته. القبيلة المنافسة أحرقت بيوتهم وأملاكهم وشرّدتهم. قال لي «نور» إنّه كان يعيش مع أهله حياة هانئة: «كنّا نفلح الأرض ونرعى الإبل، ونأكل ونلعب، لكنّ حياتنا انقلبت رأساً على عقب حين هرب الرئيس محمد سياد بري إلى منطقتنا، فقرَّرت الهرب حين اتُّهِم أهلي بالخيانة، لأنّهم رفضوا القتال إلى جانب أيّ طرف». قال أيضاً بلغته العربية الفصحى التي أتقنها على يدي معلّم مصري، وصقلها بإشراف والده الشيخ المُجيد قراءة القرآن الكريم: «كنّا أربعة أشخاص حين هربنا. ننام نهاراً ونسير في الليل تفادياً لقطّاع الطرق واللصوص. لكنّ ثيابنا الممزقة وفقرنا لم يمنعا المسلحين من قتل اثنين منّا. لم يكن معنا سوى قليل من الماء والذرة. ربّما هم كانوا يتسلّون فقط بقتلنا وقتل من يعبر أمامهم، من غير قبيلتهم. أنقذت نفسي مع رفيق لي بأنّنا كنا نعدو بسرعة فائقة». يمسح الغبار عن بندقيّة كلاشنيكوف أكلها الصدأ: «اضطررت إلى حمل السلاح لأنّ والدي مقعد ولي أربع أخوات. قيل لنا إنّ الذي يقاتل في الحرب سيحصل في نهايتها على عشرين ألف دولار وسيّارة ومنزل... حتى الآن لم نحصل إلّا على ما يسدّ رمقنا». في ساعات الليل الأولى رأيت نور جالساً وحده يلتهم صحن الأرزّ، بينما رفاقه المسلّحون يجلسون بعيداً عنه. سألته لماذا لا تشاركهم العشاء وعشاؤهم اللحم. ضحك وقال: «أنا لست من قبيلتهم وهم يحتقرون قبيلتنا، لكنّهم لا يقتلوننا لأنّ بيننا صلات قربى».

شرح لي بول أبرومان مسؤول الصليب الأحمر الدولي في بيدوا: «إنّ نجاحنا في توفير وضع أمني شبه مستقرّ لعمل منظماتنا الإنسانية هنا، استند إلى معرفتنا الدقيقة بطبائع القبائل، لأنّ أيّ خطأ في طريقة التعامل معهم، أو أيّ جهلٍ بعاداتهم قد يؤدّي إلى القتال فوراً، أو إلى عمليّة غزو. وهذا ما تعرّضت له بالفعل بعض المنظمات، على الرغم من أنّ كلّ عملها كان إطعام الجياع ومداواة المرضى. لذلك ستجد أنّ معظم المنظمات الإنسانية هنا على اتّصال بجميع القبائل، وصرنا نوظّف معنا علماء اجتماع يشرحون لنا كيف علينا التعامل معهم».

لم يمنع الدين الإسلامي هنا انقسام الناس بين القبائل. قال لي الشيخ محمّد معلم آدم، وهو أحد أئمّة مساجد بيدوا: «إنّ شيوخ الدين ورجال الفقه كانوا بدورهم منقسمين على أنفسهم، وحين يذرّ الخلاف قرنه بين القبائل، يتقاتل حتى الأئمّة في ما بينهم. وبعض هؤلاء منافقون وظّفوا القرآن الكريم لأهداف قبلية أو سياسية، لذلك نحاول دفع المساجد إلى التزام شيء من الحياد في الحرب».

ثمّة طبقية لافتة في توزيع القبائل في الصومال. فبينها من يتولى مناصب مهمّة ويسيطر على كثير

من مقدَّرات البلاد، وبعضها منبوذ أو مهمَّش أو محتقَر، بحيث لا يمكن التزاوج بين هذه القبائل وتلك القبائل. مع اشتداد أوزار الحرب صارت القبائل الكبرى تتوزّع مقاعد البرلمان، يدعمها في ذلك، السلاحُ المنتشر عند الميليشيات المساندة لها. كما أنّ للقبائل مناطقها المرسومة بدقة، بحيث قد لا تتردّد أبداً في قتل من يدخل إليها حتى عن طريق الخطأ. هذه مقديشو العاصمة مثلاً تخضع كليًّا لقبيلة «الهويّة». لنا أن نتخيّل أنّ رجلاً من القبائل الأخرى يسعى مثلاً لفرض رأيه على سكّان العاصمة، من خلال وظيفته في الحكومة أو في البرلمان، فهو حتماً سيصبح خارج التاريخ والجغرافيا لأنّ القبيلة هي التي تحدّد الآن التاريخ والجغرافيا حتى لو قتلت المستقبل.

بالمقابل، فإنّ القبيلة حمت أبناءها عند انهيار الدولة، أمّنت لهم الطعام والشراب، أسّست الميليشيات، تفاوضت مع المنظمات الإنسانية للحصول على الدواء والعلاج، حمت مناطقها، وصارت تقرّر كيفيّة المشاركة في السلطات اللاحقة. بعض تلك القبائل مثل «الهوية» أو العشائر المتفرّعة عنها على غرار «الهبرجدر» هي التي أقامت المحاكم الإسلامية الشهيرة.

حين وصلنا إلى الصومال كانت القبائل تعود إلى الظهور بقوّة، وتفرض قوانينها على الجميع. فقد استعادت ما كانت قد بدأت تفقده في سبعينيّات القرن الماضي، حيث وصل الأمر بالرئيس محمد سياد بري إلى حدّ إصدار قرار رسمي بتحريم القبيلة، لكنّه هو نفسه لم يتردّد في إيلاء مناصب كثيرة لأبناء قبيلته (قبيلة الطارود التي منها أيضاً الرئيس عبداللاهي يوسف) وفق ما يشرح لنا صوماليون يعملون مع منظمات إنسانية. كذلك كانت قبيلة «الراحانوين» تحالف عضوياً قبيلة «صعب» المسيطرة على الجنوب الغربي للصومال، وتضم خصوصاً مزارعين منتشرين على ضفّتي نهر جوبا.

أمّا في الشمال الذي لم نستطع الوصول إليه بسبب تحذيرات القوّات الدولية، ونصحها لنا بعدم الذهاب إليه، فقد بقيت المجاعة محدودة. برز فيها عبد الرحمن أحمد علي تور، بوصفه قائداً للانفصال؛ فقد أعلن قيام جمهورية أرض الصومال في 18 أيّار 1991 بدعم من قبيلة إسحق المتفرّعة إلى أربع عشائر وبطون. كانت هذه القبيلة تستند أيضاً إلى علاقاتها القويّة مع قبائل العيسى التي يمتدّ نفوذها إلى المناطق المجاورة، ولا سيّما في دولتَيْ جيبوتي وإريتريا.

كان يلفتني وأنا أزور مقارَّ الأحزاب الصومالية الخالية من أيّ كتاب أو وثيقة أو مجرّد ورقة، والزاخرة بالرجال والشبّان المدجّجين بالسلاح، أنّ معظم هذه الأحزاب ارتبطت هي الأخرى بالقبيلة، فمثلاً الفروع الثلاثة لقبيلة الطارود، أي «ماجارتين» و«أوغادين» و«مريحان» أسّست ثلاثة أحزاب هي «الجبهة الديمقراطية لإنقاذ الصومال» و«الحركة القومية الصومالية» و«الجبهة الوطنية الصومالية»؛ بينما أسّست قبيلة الراحانوين «الحركة الديمقراطية الصومالية» وقبيلة العيسي «التحالف الديمقراطي الصومالي» وقبيلة إسحق «الحركة الوطنية الصومالية». لم يكن أيّ من هذه الأحزاب يطرح مشروعاً سياسيًّا أو أفكاراً واضحة، وإنما بدا لي الأمر كأنّه رافعة لشعار الديمقراطية وهو بعيد عنها البعدَ كلّه.

شرح لي نائب الأمين العالم لـ«الحركة الديمقراطية الصومالية» محمد عثمان حيدر، وهو مهندس طيران درس في الصومال والغرب: «إنّ معظم هذه الأحزاب، إن لم يكن جميعها، رأى النور حديثاً، فهي بالتالي تبحث عن هويّة ومشروع، ولم تُكوِّن بعدُ رؤيتها الشاملة للحلّ في البلاد. ثمّ إنّ القبائل قد تشكّل عامل حلٍّ، تماماً كما كانت عامل تفجير، فهي تلتقي جميعاً حين يتعدّى الأمر المصالح الصغيرة ليطال المصالح الكبرى للبلاد».

لا يفاجأ زائرُ الصومال بأنّ معظم الصوماليين يحفظون أصل وبطون وتفرّعات قبائلهم. عددٌ كبيرٌ من الذين التقيناهم يفاخرون بأنسابهم. قسم كبير من تلك الأنساب عربي. بعض المؤرّخين يؤكّدون أنّ معظم أصول الصوماليين عربية، على الرغم من أنّ البعض الآخر يشكُّ في ذلك. بعض القبائل مثل «الإسحاق» تعود إلى بني هاشم، أو إلى آل البيت، مثل «بنو الحسن» أو «رير حسن» كما يُسمَّوْن هنا.

بعضها الآخر من المهاجرين، وبعضها الثالث من الأقليّات.

الكاتب الفرنسي هيرفيه بورج يؤكّد بالمقابل أنّ «الشعب الصومالي لم يعرف تاريخياً إقطاعيين أو أسياداً، ولا عرف حتى زعماء قبائل وقرى. بل على العكس تماماً، فإنّ المساواة بين الرجال كانت القاعدة التي استندت إليها ديمقراطية القبائل، حين كان لكلّ راشد الحق في الكلام، ما عدا النساء والرقيق العاملين في صناعة الجلود والحديد» (بعض أسماء القبائل جاء من مثل هذه المهن). يقول بورج أيضاً: «إنّ لقب سلطان الذي كان يُمنح من وقت لآخر لزعيم صومالي كان يُتناقل بالوراثة، وقد اقتُبس أصلاً من العرب».

ما يقوله الكاتب الفرنسي لمسناه على أرض الواقع، حيث إنّ أبناء القبيلة الواحدة راحوا يتقاتلون طمعاً بالسلطة أو بالمال، أو للسيطرة على المناطق. كان القتال قد اشتدّ بين الرئيس المؤقت علي مهدي محمّد ومنافسه الجنرال محمد فرح عيديد المنتميين معاً إلى قبيلة «الهولي» وإلى الحزب نفسه: «مؤتمر الصومال الموحّد» الذي أسقط الرئيس السابق محمد سياد بري في 27 كانون الثاني 1991. تحوّل الثوّار على العهد القديم إلى زعماء ميليشيات وزواريب شطرَت العاصمة شطرين: شماليًّا بقيادة مهدي، وجنوبيًّا بزعامة عيديد. يبدو أنّ بطون القبائل لها تأثير على التقارب أو التنافس، ذلك أنّ مهدي محمد ينتمي إلى بطن «إبقال» وعيديد إلى «هبرغدير». أمّا قبيلة «طارود» التي ينتمي إليها يوسف الذي كان ينافس بشراسة عيديد ومهدي أثناء وجودي في مقديشو، فتضمّ نحو نصف سكّان الصومال، وتنقسم إلى 3 فروع هي: «الميجورتين» التي سيطرت على الحياة السياسية في الصومال خلال السنوات الأولى للاستقلال (1960-1969) و«المريحان» التي رسّخت نفوذها مع الجنرال محمّد سياد بري بين 1969 و1990، و«الأوغادين» التي كانت أحد أسباب الحرب مع إثيوبيا.

إنّ هذا الانتماء إلى القبيلة أسهم كثيراً في رفع مستوى الاقتتال والقتل والجوع. أمّا الوجود العربي فلم أرَ منه شيئاً خلال رحلتي إلى الصومال. كان هناك وفد من الإمارات العربية جاء بطائرة خاصّة يقدّم مساعدات إنسانية وطبّية، وكان عدد من مسؤولي الجيش الأميركي الذين صُدموا بتعرّض أحد ضبّاطهم للسحل في مقديشو، في فترة وجودنا هناك، يقولون لنا إنّ السعوديّين «غيّروا كثيراً أساليب تعاملهم معنا، فخلال الحرب ضدّ صدّام حسين في الكويت، كانوا يقدّمون لنا كلّ ما نشاء، أمّا الآن فإنّهم يتعاملون معنا بحذر شديد حتى حين نقول لهم إنّنا ذاهبون إلى الصومال».

وأنا أكتب السطور الأخيرة لهذا النصّ في عام 2017، كانت صور الرئيس التركي رجب طيب أردوغان تحتلّ عناوين بارزة في إعلام الصومال والدول العربية. ذهب أردوغان يساعد الصومال ويلتقط صوراً ويُجري مقابلات أمام الكاميرات، بينما العرب غارقون بالفتن والاقتتال. وصار تعبير «الصوملة» عنواناً للكثير من مناطقهم المقبلة على التقسيم؛ فهل نسأل لماذا تعرّضنا للغزو عبر التاريخ؟ ولماذا لم نحسِن بعدُ الخروج من القبيلة إلى الدولة؟

بعد رحلتي إلى الصومال، تغيّرت أشياء كثرة في حياتي. ازداد تعلّقي بمهنة الإعلام. ازداد حبّي للحياة وصرت أسخّف المشاكل، أو أجد لها حلولاً على نحو أفضل؛ ربّما لأنّي رأيت كيف يتحوّل الإنسان في لحظة إلى مجرّد هيكل عظمي يموت رويداً رويداً أمام أنظار ما تسمّي نفسها زوراً «الأسرة الدولية». قرّرت أن أبحث عن شعوب مقهورة، لعلّي إن أنا نقلت مآسيها، أُسهِم ولو قليلاً في تعريف الناس بها، وربّما مساعدتها.

في رحاب موريتانيا

نواكشوط عروس الرمال... والرئيس بائع بن

لم أكن، وأنا في مقتبل العمر، كغيري من أبناء الشرق الأوسط، أعرف الكثير عن بلاد المغرب. قرأت بعض ما كتبه شكيب أرسلان أمير البيان، عن المنطقة في أوج النضال العروبي. قرأت كذلك بعض الروايات التي كتبها مغاربة باللغة الفرنسية. تابعت بشيء من الاهتمام قصّة مناضلين مثل المهدي بن بركة وصالح بن يوسف، ودغدغت صبانا قصص الثورة الجزائرية وأحمد بن بلا وجميلة بوحيرد، تماماً كما دغدغتها علاقة الزعيم العربي جمال عبد الناصر بأولئك المناضلين. في قرارة نفسي، كنتُ توَّاقا دائماً إلى التعرّف إلى ذلك الجزء من وطننا، والاقتراب منه والتفاعل مع أهله. شيء ما كان يقول لي دائماً، إنّ عروبتنا تبقى ناقصة من دون المغرب، وعمقنا الحضاري والثقافي يبقى مبتوراً من دون نصفنا الآخر.

عَرَفتُ الجزائر والمملكة المغربية قبل غيرهما من الدول المغاربية. ثمّ شاءت المصادفات الصحافية أن أكون في عداد الفريق الإعلامي الذي رافق الرئيس الفرنسي جاك شيراك إلى نواكشوط في عام 1. كنت آنذاك أعمل في إذاعة فرنسا الدولية (RFI) ومراسلاً لتلفزة LBC اللبنانية وصحيفة «السفير» العريقة. راقني أن أقدّم أول تقرير تلفزيوني عن ظهر جمل. ضحك الوفد الفرنسي وكلّ الزملاء، لكنّي شعرت فعلاً بفخر الانتماء إلى هذه الأمّة. أحسست وأنا فوق هودج الجمل، أنّي أنتمي إلى جيل لا يزال يحلم بأن تُزال الحدود بين دول تنطق باللغة نفسها، وتشترك في الكثير من الحضارات والثقافات والأحلام.

قبيل إقلاعنا في الطائرة التي تقلّ الوفد الصحافي المرافق للرئيس شيراك إلى موريتانيا، وزّع المكتب الصحافي لقصر الإليزيه بياناً يعلن فيه أنّ إدارة فندق «مونوتيل» في نواكشوط ترجوكم أن تقبلوا اعتذارها لنقص المياه الذي يمكن أن يواجهكم خلال إقامتكم بسبب الاستعمال غير المنظم للحمّام». شعرت بشيء من الحزن، وبأنّ في مثل هذا التحذير شيئاً من فوقية الغرب. لكنّي سرعان ما فهمت لاحقاً أنّ المياه فعلاً أمر صعب المنال في موريتانيا.

ما إن وطئتْ أقدامنا أرضَ مطار نواكشوط، حتى لفحتنا الحرارة المرتفعة من الصحراء المجاورة. ما كان شيء يشبهها سوى انقسام البلد بين الرئيس معاوية ولد الطايع والمعارضة. الأول يريد لزيارة شيراك أن تحسّن ظروفه الداخلية، والثانية تلوم باريس على هذا الاحتضان غير المبرّر لرئيس تتهمه بأنّه يمارس المنع والقمع والفساد.

كان المشهد السياسي لافتاً، أحزاب المعارضة تفرّخ كالطحالب. البيانات تنتشر في كلّ مكان. معارضون يوقفوننا في الطريق، يسحبون من تحت الجلباب رزمة من البيانات المعارضة يوزّعونها علينا. يوزّعونها أينما استطاعوا، في الشارع وفي بهو الفندق وتحت أبواب الغرف. المضحك أنّ معظم تلك البيانات كان يتحدّث عن منع المعارضة وعن لجمها وعن غياب الديمقراطية. كنت أفكّر لو أنّ مثل هذه المشاهد حصلت في بلد عربي آخر لربّما كان كلّ هؤلاء المعارضين في السجن أو اختفوا تماماً.

في الأصل ناقة

أخذت نواكشوط اسمها من «نوق الشط»، فموريتانيا لا تزال تتّسع لأكثر من مليون جمل ونحو 8 ملايين رأس ماشية. كان الرئيس الإماراتي الشيخ زايد يطلب أفضل النوق ورعاتها من موريتانيا، تماماً كما كانت معظم دول الخليج تستورد القضاة الموريتانيين لسعة معارفهم بالقوانين الإسلامية والوضعية، ولحسن تدبيرهم وصدق وعدل أحكامهم. ثمّة من أراد العودة بأصل الاسم إلى لغة الأمازيغ البربر، قال هؤلاء إن نواكشوط تعني المكان الذي تسفعه الريح. لكنّ منتقدي هذا الاسم يقولون إنّ فيه نزعة استعمارية، وإنّ بني حسّان هم الأصل. ليس التاريخ مهمًّا، ولا التسميات، أمام روعة الصحراء هنا، التي مهما امتدّت البيوت القليلة المبنيّة عليها، تبقى سيدة المكان وعروسه.

توقف موكب سيّاراتنا قليلاً في الطريق من المطار إلى الفندق، فثمَّة بعيرٌ يجتاز طريق الإسفلت. يبدو أنّه كبني البشر تماماً هنا، لم يعتَدْ بعدُ على الحضارة الدخيلة. قال لنا مرافقنا الموريتاني، يجب أن ننتظر، لا حاجة لإغضاب الجمال التي يحبّها الموريتانيّون ويتعلقون بها ككلّ شيء نفيس عندهم. عَبَرَ الجَملُ، ثمّ التفت صوبنا كأنّه يضحك علينا. هكذا ظننتُ. وربّما كان الأمر كذلك حقاً.

وصلنا إلى موريتانيا في موسم الأمطار. الحرارة مرتفعة لكنّ المطر ينهمر. وفي مواسم الأمطار ينتقل الموريتانيون من بيوتهم الإسمنتية التي تبدو دخيلة على المشهد الصحراوي، إلى الخيم التي تنتشر فوق الرمال ليحلو السهر ويطيب العيش وينظم الشعر ويصدح الغناء والموسيقى والنقاشات التي لا توفّر شيئاً ولا تخشى شيئاً.

للصحراء هنا ثلاثة أُمراء: الرمل والمدى والجمل. يقترب منها قمر السماء ليلاً فتصبح النجوم في متناول اليد. يغسل البحر أقدامها في النهار، ويهدهدها ثغاء النوق. يهجر الموريتانيون بيوت الإسمنت المتواضعة لينصبوا خيمهم على الرمال في موسم المطر. يحوّلون ليالي الصحراء إلى مرابع سمر وغناء وموسيقى وسهرات ألف ليلة وليلة.

الموريتاني صحراوي الطباع. تبدو الحضارة دخيلة ثقيلة على ملبسه وطباعه. يحب الشعر، يحفظه، ينظمه، يقرضه ويقوله فتستحق موريتانيا اللقب الذي يُطلَق عليها: «بلد المليون شاعر». والموريتاني أيضاً مطبوع على الكرم والضيافة التي غالباً ما تتعالى على الفقر، وتفرش أطباق التمر والسمك

واللحوم. وهو أيضاً سلس الحديث، لا يستخدم عبارات نابية أو ذمًّا أو انتقاداً لغائب، لكنّه صريح وعفوي وهادئ الصوت. من المعيب عند الموريتاني أن يقول نكتة أو يدخّن إن كان في المجلس من يكبره سناً ولو بقليل.

سرعان ما اكتشفنا بعيد وصولنا إلى نواكشوط، أنّ الحضارة الغربية هي حقاً دخيلةٌ على طباع الموريتاني وحياته. وجدناه في المدن الآخذة في الاتساع، كالسمكة خارج الماء. ما إن تطأ قدماه الصحراء المحاذية للبيوت، حتى يتنفّس ملء رئتيه، وتتفتح عبقريته لقول الشعر، والتندّر بروايات الأدب، وترداد الأغاني الشعبية ترافق أقداح الشاي والنعناع. الموريتاني يحِبُّ الحوار كحبّه للشعر، يضمّن أقواله بين الوقت والآخر أبياتاً من قصيدة سمعها أو نظمها بنفسه. الحوار مفتوح على كلّ شيء كمدى الصحراء، لا يحدُّه حدٌّ، ولا يعترضه حسيبٌ ولا رقيب. توحي البلاد كأنّها تعرّفت للتوّ إلى الديمقراطية الحزبية الغربية، فإذا بها تفسح في المجال لأكثر من ستين حزباً.

بنت الميداح.

تتقدّم بيوت الإسمنت فوق الرمال. تحاول مغالبة الرياح كي لا تطمرها الرمال مجدَّدا. يطوّق الموريتانيون بيوتهم بشجيرات أو بأغصان الشجر، فيقيمون سدوداً من الأغصان والأسلاك في الصحراء القريبة من البيوت، منعاً لاجتياح الرمال. وحين يهربون من هذا الواقع إلى غير الصحراء، فإلى التلفزات التي صارت إحدى خليلاتهم منذ انتشرت الفضائيات. ترتفع الصحون اللاقطة (والمصنَّعة محليًّا بوسائل يدويّة) فوق المنازل المنخفضة، والتي تشرئبُّ سطوحها بعناد من بين الكثبان الرملية.

استقبلنا الموريتانيون، بثيابهم الصحراوية الجميلة، بكثير من الترحاب والابتسام وعبارات التأهيل، وبسلال التمر وحليب النوق. أفصحوا لي عن حبّهم للبنان وقضايا العرب. يذكرون بكثير من الامتنان أنّ تاجراً لبنانياً كان يعيش بين السنغال المجاورة وموريتانيا، وكان في طليعة من عرّفوا أهل الشرق ببلادهم عبر كتاب نشره لهذه الغاية...

المرأة استثناء

اختار البروتوكول الموريتاني أن يقيم للرئيس الفرنسي والوفد المرافق سهرة فنّية في قلب الصحراء. أقيمت لنا خيم مزركشة الألوان باهية زاهية. تناوبت فرق غنائية وموسيقية على إحياء الحفل الليلي الجميل. كان بين المغنين، فنانة مبدعة ذائعة الشهرة، اسمها عليّة. كتبَت ولحَّنتْ أغنية خاصة لشيراك أنشدتها بالعربية والفرنسية. بعد انتهاء الحفل الذي امتدّ حتى منتصف الليل دعتنا الفنانة ذات الصوت الشجيّ الصادح إلى منزلها. جمعَت حولها مغنّيات وعازفات جميلات يرفلن بأوزانهنّ من دون أدنى اهتمام بالقوام. هنا الوزن دليل الرفاه والصحّة والجاه وكرم الأهل. راحَت النسوة ينشدن أجمل ما يُشنّف الآذان. افترشنا الأرض حولهنّ، ودارَت أكواب الشاي وصحون التمر وبعض الفواكه النادرة. كان كلامهنّ العربي الفصيح يختلط باللهجة الحسّانية، فيقدّم طبَقاً من الإبداع الموريتاني اللافت والغنيّ والقريب للقلوب. كنت العربي الوحيد في السهرة إضافة إلى المضيفين. كلّ صحبي كانوا من الإعلاميين أو السياسيين الفرنسيين. لا عقد اجتماعية هنا ولا قلق ولا خوف. المجتمع منفتح لكّنه مضبوط بحدود الأخلاق. النساء محترمات وذواتُ قدْرٍ جليل. إن أهان رجلٌ امراةً فإنّما يُهين قبيلتَه جميعاً. وإن طلّقها فإنّه يحفظ رعاية أولادها، وقد يساعدُها في زواجها الثاني. إن تطلّقت المرأة زادت حظوظها بالزواج يقيناً بأنّ خبرتها في الحياة الزوجية تضاعفت. دخل علينا أهل المغنّية وإخوتها. ألْقوا علينا السلام، وصافحونا بحرارة، ثمّ أكملوا الطريق صوب غرفهم. لا تحتاج المرأة الموريتانية إلى حسيب أو رقيب، هي تعرف ماذا تفعل وتحترم عاداتها وتقاليدها وتحافظ على تراث انفتاحي كان متَّبعاً قبل أن تغزو الإسلام أفكارٌ ضالّةٌ تشوّهه وتشوّه المسلمين.

كنت أحاول في فترات الراحة الغنائية طرْحَ أسئلة غريب وجدَ نفسه وسط أُناس اكتشفهم للتوّ وأحبَّهم. كنتُ أتولّى ترجمة أسئلة الرفاق الفرنسيين الذين كانوا مدهوشين بما يرون.

في إحدى الرحلات إلى موريتانيا.

سألتُ عن التقاليد الإسلامية وعلاقتها بالفنّ. وضعَتْ جارتي في الجلسة آلتها الموسيقية جانباً. سوّت

جلستها. أزاحت غطاء الرأس من فوق كتفها شبه العارية. ابتسمت وقالت: «هل تعتقد أنّ شعباً مثلنا ولِد في الشعر وترعرع في الغناء وتهدهد على الموسيقى ونسيم الصحراء، وعرف الإسلام الصحيح، ويصلّي ويصوم، ويغنّي ويفرح، يمكن أن ينزلق إلى أفكار إسلامية متطرفة. يا أخي هذا هو الإسلام الصحيح، أمّا عندكم فأعتقد أنّ ما شوَّه الإسلام هو ما أُضيف إليه».

يقول التاريخ الموريتاني في وقائعه الدقيقة، ونجد معظم هذا التاريخ في المكتبات الفرنسية، إنّ موريتانيا كانت المصدر الأساسي لأسلمة أفريقيا، فمنها انطلقت الحركات الفكرية الإسلامية صوب الجوار. منها انطلق المرابطون يدافعون عن الأندلس، وفيها ترعرعت اللغة العربية، لغة القرآن. ولأنّ الموريتاني كان يعتمد في عيشه على المواشي فهو كان كثير الترحال، وغير قادرٍ، تالياً، على الاحتفاظ بكتب الفقه والشعر، فكان بدلاً من ذلك يحفظها عن ظهر قلب. لا تزال المساجد والمآذن وأضرحة الأئمة شاهدةً حتى اليوم على العمق الإسلامي للدولة الموريتانية التي لم تعرف الاستقلال إلّا عام 1960، بعدما كانت حتى ذلك التاريخ، تتّخذ من منطقة سان لوي السنغالية عاصمة لها.

أمّا الإسلام السياسي الحديث فقد رأى النور على يد مختار ولد داده، أول رئيس للجمهورية بعد الاستقلال. أدرك هذا المدّرس ذو السمعة الطيّبة، مباشرة بعد الاستقلال، أنّ الاسلام هو الوسيلة الوحيدة القادرة على جمع التناقضات الاجتماعية والطبقية بين الشمال والجنوب. تبنّى الإسلامَ عنواناً للدولة الواحدة، فيما كانت فترة الستينيات والسبعينيات تضجُّ في الدول العربية والأفريقية أفكاراً أخرى تنحو صوب الاتجاهات القومية والناصرية والبعثية والتحرّرية.

كنت آخر صحافي التقى المختار ولد داده قبل رحيله عن هذه الدنيا. ربطتني به علاقة ودٍّ ومحبّة واحترام. تعرّفت إلى عائلته، فتقاربت مع أولاده، وأَعتزُّ بصداقتهم. كان الرجل في أيّامه الأخيرة خفيض الصوت مبهم الكلام، لكن متّقد الذهن لطيف الوجه، حتى لتكاد تشعر بأنّه واحد من أهلك. تكاد قصّته تكون نادرة بين قصص الرؤساء في العالم.

وُلد هذا الرجل العصامي الشريف، تحت خيمة في موريتانيا. باع البنّ في فرنسا من أجل تحصيل نفقات دراسته. لا يعرف عمره بالضبط. التقيته في باريس وكان عمر منفاه قد شارف على ربع قرن. كان البعض يعتبره رجل الجنرال شارل دوغول، وكثيرون من أبناء بلده يرون فيه أبا الجمهورية الموريتانية. أتقن اللغة العربية وإعجازها في القرآن الكريم، واللغة الحسّانية القبلية في البادية، والفرنسية التي كانت لغة التحصيل العلمي ومخاطبة العصر، وصار ولد داده أول رئيس للجمهورية الإسلامية الموريتانية.

لكنّ الإسلام السياسي لم يستمر طويلاً، وإنْ ظلّ الإسلام كممارسة وإيمان راسخاً في وجدان كلّ موريتاني، وفي قلبه وفي عقله. الضبّاط الموريتانيون الذين انقلبوا على ولد داده عام 1978، بعدما تضاءلت شعبيته، كانوا ذوي اتجاه عروبي وناصري وبعثي. بدأوا قيادة بلادهم نحو التعريب والتخلّص من إرث الاستعمار، مخفّفين بذلك من «تهمة» الانتماء الأفريقي لبلادهم، ومنضوين أكثر فأكثر في البوتقة العربية. كان طبيعياً والحال هذه، أن تنطفئ جذوة الإسلام السياسي، وأن يُصار إلى البحث عن وسائل توحيدية غير إسلامية.

لم يَطُلْ أمَدُ هذا الاتجاه، على الرغم من نجاحه في جذب قطاعات واسعة من مثقفي موريتانيا ونُخَبِها. كبير الضباط الانقلابيين الذي نصَّب نفسه رئيساً على البلاد، العقيد محمد خونا ولد هيداله الذي قاد مسيرة تعريب البرامج التعليمية، سرعان ما تأثر بانتصار ثورة الإمام الخميني في إيران. بدأ بتطبيق مفاهيم الشريعة الإسلامية لمعاقبة المجرمين، فقطع يد السارق، ورجم المرأة بتهمة ارتكاب الفحشاء، وجلَدَ رجالاً لممارستهم الجنس على نحو غير شرعي. انتهى ولد هيداله كما بدأ، راعياً للإبل. لا عيب في ذلك في بلد يحفظ للإبِل فضلَها على الناس، ولا يُعير المناصبَ السياسية أهمِّية، إلّا بقدر ما يقدّم السياسي لشعبه وناسه.

ثمّة طَرَفٌ ونوادرُ كثيرة لا يزال الموريتانيون يتناقلونها حول تلك الفترة من «تطبيق الشريعة». كانت المسألة جديدة عليهم. وجد المشرّع نفسه أمامَ أزمات عدّة كلما كان يحاول تنفيذ أحكامه. لم يقبل أيّ موريتاني تنفيذ حكم قطع اليد بأخيه الموريتاني، أو حكم رجم امرأة، أو جلد رجل. كان يُستعان بأطبّاء أو خبراء مصريّين للقيام بالمهمّة. نظم الموريتانيون قصائد كثيرة يقولون فيها إنّ الجلد والرجم أهون عليهم من قطع الوصال مع الحبيب.

اعتاد الضباط الموريتانيون على الانقلابات واستساغوها؛ فما إن سافر الرئيس ولد هيداله عام 1984 إلى بوجومبورا للمشاركة في القمّة الفرنسية الأفريقية، حتى انقلبوا عليه ونصَّبوا مكانه معاوية ولد طايع الذي سرعان ما وضع حدًّا للممارسات الإسلامية الغريبة عن المجتمع الموريتاني، ومهّد لسياسة الانفتاح. وحين تكاثرت ضدّه تهم خرق حقوق الإنسان وعدم مكافحة العبودية، وغير ذلك من التّهم، انفتح على إسرائيل، فسكتت الأصواتُ الغربية ضدّه، وخرست منظمات حقوق الإنسان. لكنّ تقرّبه من إسرائيل وفتح علاقات دبلوماسية معها لم يضمنا حمايته؛ فقد انقلب عليه الضبّاط حين كان في السعودية يشارك في تشييع الملك.

تتغيّر السياسة في موريتانيا، لكنّ العادات تبقى راسخة لتمنح هذه الدولة الأفريقية سمات الانفتاح والثقافة والشعر والتضامن مع قضايا العرب كافة. لا ترتدي المرأة الموريتانية النقاب ولا الحجاب، لها زيّها التقليدي المعروف بـ«الملحفة» والذي يُبقي الكثير من جمالها ظاهراً للعيان. ألوان لباسها الزاهية تحيل الصحراء وكثبان الرمل لوحة قائمة بذاتها، تتّخذ ألوانها تارةً من العمق الأفريقي وتارة أخرى من المؤثرات الثقافية والحضارية التي عرفتها موريتانيا.

من طرائف رحلتي الأولى إلى موريتانيا، أنّني كنتُ خلال السهرة الفنّية في منزل الفنانة المبدعة عليّة، أتحدّث بكثير من الحبّ والإعجاب عن موريتانيا وناسها ونسائها. يبدو أن إحدى السيّدات التي كانت بجواري، فهمت أنّ كلامي يشبه غزل ابن أبي ربيعة بنسائه. وما إن انتهت السهرة حتى طلبت منّا أن نُقلّها معنا إلى منزلها المجاور. كنت مع أحد مستشاري الرئيس شيراك وإحدى الزميلات. جلست السيدة الموريتانية ذات المئة كيلوغرام تقريباً إلى جانبي في السيّارة. وما إن وصلنا إلى أمام منزلها حتى قالت لي: «أريد أن أراكَ غداً، يبدو أنّ قصّة حبّ بدأت بيننا». ضحكتُ وشكرتها. قالت بلهجةٍ أشدّ حزماً: «أنا جادّة في ما أقول، فعاداتنا في موريتانيا لا تسمح لرجل بأن يغازل امرأة ثمّ يتخلّى عنها». أيقنت لاحقاً أنّ للنساء مكان الصدارة في هذا البلد، وأنّهنّ مدلّلات مرفّهات محترمات أكثر من أيّ امرأة عربية أخرى.

بعد سنوات تعرّفت إلى فنّانة مبدعة رائعة اسمها المعلومة بنت الميداح. كانت ولا تزال إحدى أهم المبدعات الموريتانيات والأفريقيات. نشأت في عائلة فنّية. تزوّجت في سنّ الحادية عشرة. جاهدت وناضلت كثيراً حتى دخلت صفوف المعارضة، ثمّ ما لبثت هذه المغنّية أن أصبحت عضو مجلس الشيوخ. كان ذلك غريباً على مجتمع ينقسم إلى ثلاث طبقات: أهل العلم والقلم والزوايا، أهل السيف، وأهل الفنّ. كانت طبقة الفنّ هي الثالثة بالترتيب، لكنّ الجميع كانوا يخشون الفنّان لأنّه قادر على مدح أو هجاء من يشاء، مع ما في ذلك من تأثير كبير يُحْدِثه في الناس.

لم تدم رحلتي الأولى إلى موريتانيا، سوى يومين. لكنّهما كانا كافيين لجذبي مراراً إليها لاحقاً. لم أدَّخِر فرصة للتعريف بهذا البلد العريق والمحِبّ والمضياف إلّاواغتنمتُها، وفي ذهني رغبة تعريف الناس بما كنت أجهل. ربطتني بموريتانيا علاقة حبّ وإخلاص وصار لي فيها شيء كثير منّي.

شنقيط: الكتاب زينة الرجال

أخيراً، وصلنا... ابتسمَتْ لنا مدينة شنقيط الموريتانية. هرول عليٌّ بجلبابه الأزرق (الدراعة وفق الاسم المحلي) نحونا ضاحكاً، رافعاً يديه بالتحيّة، مرحِّبا. لفظت السيّارة نفسها الأخير قبل أن تستلقي، منهكة، إلى جانب الطريق. ترجَّلتُ مع صحبي قرب مكتبة «آل حبوت». باب خشبي عتيق يختزل الزمن. عانقنا عليّ وصحبه طويلاً فوق رمال ساخنة، كانت حرارتها قد بدأت تهبط مع بداية هذا المساء الجميل. هنا المكتبات كالأبناء أو أعزّ منهم. هنا الكتاب رفيق أجيال، أو أنيس ليالٍ، أو خليل القمر والنجوم. هنا الحياة بسيطة هانئة توحي بأنّها خارجة للتوّ من تاريخ نهضتنا، قبل أن تصبح النهضة من التاريخ وتستمرّ فيه.

لم تكن الرحلة سهلة. ساعات ثلاث بالطائرة من باريس إلى الدار البيضاء في المملكة المغربية. ثمّ ساعات من الانتظار. ثمّ رحلة ثانية من الدار البيضاء إلى نواكشوط استغرقتْ ثلاث ساعات. لا شيء تغيّر في المطار الموريتاني الصغير. الفوضى نفسها والتسابق عينه والأسئلة ذاتها والمحبّة كبيرة والترحيب أكبر. تدور الحقائب على السكّة دورتين قبل أن تصل الحقيبة. يكاد شكل الحقيبة ولونها يضيعان بفعل الرمال وتساقط الحقائب بعضها على بعض. يوحي المطار بأنّه خارج للتوّ من جور الزمن. لا بأس، فهنا الابتسامات تنسيك متاعب الرحلة، وكلمات الترحاب تلطّف الجوّ الحارّ ليلاً.

الموريتانيون المحبّون أصلاً لكل عربي قادم إليهم، يضاعفون الترحيب إن كان القادم مذيعاً تلفزيونياً معروفاً عندهم. ولعلّهم من أكثر الشعوب محبَّة للتلفزات. لعلّ التلفزات احتلت مكان الثقافة الشفهية الهائلة عندهم. فهنا، إذا بلَغَ الصبيُّ ولم يحفظ المعلقات الشعرية، يُصبح مدعاةً لخجل أهله.

ها نحن إذاً في مطار نواكشوط. يتهامس بعض المسافرين وهم ينظرون إلى الزائر. يحيّيه آخرون. تسترق بعض النساء النظرات من تحت حجابهنّ الأفريقي المزركش، عيونهنّ تختزل تاريخاً من الذكاء والانفتاح الاجتماعي الراقي. يتّصل الحجاب باللباس النسائي الزاهي الألوان، والمعروف هنا

بـ«الملحفة». يوحي هذا اللباس من خلال شكله وقماشه وألوانه بأنّه مريح ومنعش. يقترب آخرون للمصافحة. يعرض البعض منهم المساعدة في حمل الحقيبة. هكذا دفعة واحدة تفتح موريتانيا مطارها وقلوب أبنائها الطيّبين للزائر العربي. ليت العرب عرفوا يوماً كيف يفتحون لها قلوبهم ليبادلوها حبًّا بحبّ.

في نواكشوط يمضي الليل سريعاً. يقطعه من وقت إلى آخر صوت موج البحر أو رغاء جمل. يبزغ الفجر مؤاخياً ترجيع الأذان. يسارع السائق محمّد لإلقاء التحيّة بلكنته الأفريقية المحبّبة. هو من دولة مالي المجاورة. كان يعمل في تهريب الدخان عبر الحدود. ما عاد يعمل مُذْ علا دخان المعارك ضد الإرهاب في بلاده. كيف لمَنْ يسمع صوت القرآن الكريم فجراً أن يصبح باسم القرآن والإسلام إرهابيًّا؟ كيف للذي يبسمل ويحمدل فوق سجّادة الصلاة واتّجاهه صوب الكعبة الشريفة، أن يبسمل ويحمدل ويذبح من يبسمل ويحمدل؟ لا شكّ في أنّ هذه الأمة تعيش أسوأ انفصام في تاريخها.

استقرّ محمّد في نواكشوط للعمل سائقاً عبر الصحارى. تعرَّفت إليه قبل خمس سنوات. لا يزال كمعظم أهل الصحراء يمارس إسلامه السمح المنفتح. إنّها الخامسة صباحاً. الضوء يملأ المكان قبل طلوع الشمس. تصحو البيوت المفترشة الرمال. تتثاقل في استيقاظها. هنا لا يزال الوقت في خدمة الإنسان وليس العكس.

خذ ابني، لا كتابي

الرحلة طويلة وشاقة رغم سحر الصحراء. تعبر بنا السيّارة طرقاً ملتوية وكثباناً. تلتفُّ حول شجيرات إبريّة الورق. تركض قطعان الجمال وبعض الماعز خوفاً أمامنا. لم تعتَدْ الحيوانات على الغرباء بقوافلهم الحديدية.

يتفنّن محمّد بمراقصة السيّارة فوق الرمال. الخط المستقيم لا ينفع لسير السيّارات الرباعية الدفع على الرمال. لا بدّ للسيّارة من أن تتلوّى كالأفعوان بين الكثبان، كي لا تغرق عجلاتها في الرمال. يرتفع الغبار صوبنا. تعلو السيّارة وتهبط. تميل يميناً ويساراً. يكاد الغبار يحجب الرؤية. ينقر محمّد على مرشة الماء. ثمّ ينقر على سيجارته ويسحب نفساً وينظر صوبي مطمئناً واثقاً ممّا يفعل. أنا أيضاً بدأت أثق بقدرته الهائلة على القيادة.

آخ... ارتفعت السيّارة وهبطت فجأة. ارتفعت أكثر من اللازم، وارتطمت بالأرض. لم ينتبه لحدب صغير. كدت أسحب تقتي منه. ضحكنا، وأكملنا الطريق. لا يتوقف محمّد عن الكلام إلّا حين يشفط نفَساً من سيجارته. إذا توقّف يتولّى المهمَّة مرافقُنا الجالس خلفنا. المرافق الثاني يُطرِبنا بشخيره طَوالَ الطريق. يعلو الشخير ويهبط متناغماً مع حركة السيّارة. يصرخ به محمّد فيهبُّ مذعوراً. نضحك. لكنّه يعود إلى النوم والشخير. نرفع صوت المسجلة. صوت الفنانة الرائعة والسياسية القديرة المعلومة بنت الميداح يضفي على الرحلة جمالاً استثنائيًّا.

يرش محمّد الماء على زجاج السيّارة الأمامي فتنقشع الرؤية بمساحة نصف دائرية فقط. لا بأس، إنّه معتادٌ على جَوْر الطبيعة ونحن نكتشف جمال قسوتها. قسوة الجمال في بعض المناسبات تبدو أكثر جذباً من رقّته. يتبع محمد بدقة خط سير السيّارات التي سبقتنا. أيُّ انحراف عن الطريق المرسوم بالعجلات قد يعطّل سَيْرَنا. اعتاد الشابّ المالي النحيل الرحلات الصحراوية الشاقة. يقود لمسافات طويلة بيد واحدة، بينما يده الأخرى تبحث في «دراعته» الزرقاء (وعلى الأصحّ، كانت زرقاء قبل الغبار) عن علبة السجائر. يقترح أن نتوقف قليلاً. نترجّل قرب حانوت صغير. يرحّب بنا مَن فيه. يفترشون الرمال أمام موقدة من حجارة وجمر. يغلي فوقها إبريق الشاي (أو الأتاي، كما يُسمّى هنا) يرتفع الإبريق عالياً لينسكب شايٌ أشقر اللون في القدح الصغير. ثمّ يرتدّ الشايُ إلى الإبريق، ثمّ يعود ثانية وثالثة إلى القدح. تتكرّر الحركة الضاربة جذورها في التاريخ الصحراوي، حتى تتكوّن فوق

الشاي رغوة بيضاء. يقال إنّ في الحركة أيضاً ما يجعل الأتاي أكثر لذة لأنّ الأوكسيجين يداخله وهو في طريقه نزولاً من الإبريق إلى القدح. للشاي هنا طقوس في الضيافة ودلالات اجتماعية مهمّة، لا بدّ للزائر من أن يعرفها ليفهمها.

يأخذ محمّد ومرافقانا مزيداً من الوقت لشرب الأتاي؛ فهذه اللحظات فيها من المتعة بقدر ما تختزل تاريخاً من العادات الاجتماعية الجميلة. ولا بأس إن انقضى الوقت فالشاي أكثر أهمِّية منه. يرفض صاحب الحانوت تقاضي ثمَن الشاي. يَعيب علينا أنّنا عرضنا دفع الثمن. هنا، الفقر والكرامة صنوان. هنا، الضيافة أهمّ من الفقر. هنا، العادات أكثر رسوخاً وأكثر قيمة من المال. هنا، الإنسان لا يزال يستحق اسمه، لأنّه لا يزال أكثر أهمّية وأرفع قيمةً من المال. لم يخرّبه المجتمع.

يقترح محمّد أن أشاركه متعة التدخين. أقمعه. يضحك الصبية بملابسهم الممزقة وأقدامهم الحافية. تبرز الأسنان خلف الابتسامات أكثر نصوعاً. يستخدم أهالي الصحراء قطعة صغيرة من أغصان أشجار الأراك لتنظيف أسنانهم. اسمها «المسواك». لعلها أكثر فعالية من المعجون الذي نستخدمه يومياً. أو لعل السمرة الزائدة لأبناء الصحراء تجعل الأسنان أكثر بياضاً. نشكر صاحب الحانوت وأهله، ونتابع طريقنا صوب شنقيط. يستمرّ محمّد في التدخين وأستمرّ في رَدْعه. لا يأبه. يعرف أنّني لن أمنعه من هذه المتعة القاتلة. ليته يرتدع.

وأخيراً وصلنا. عبرْنا الطرقات الرملية القاسية واجتزنا طرقات إسفلتية محفورة في الصخر. تكاد الجبال المحيطة بالطريق وذات الطبقات الصخرية المتعدّدة الألوان تنذر باحتمال سقوطها في أيّ لحظة. من حسن الحظ أنّها لا تسقط. فقط بعض الانهيارات على جوانب الطرقات تتم معالجتها.

وأخيراً، هذه شنقيط. تُطلّ أحياؤها الأولى بخجل من خلف الرمال. تذكّرني بخجل عيون الموريتانيات تحت الحجاب في المطار. تبدو البيوت كأنّها تسترق النظر إلى زوار المساء. يركض الصبية نحونا. يقف الشبّان وأحد مسؤولي المنطقة إلى جانب عليّ.

يلوّحون لنا مرحّبين. نترجّل. نعانق الجميع. الموريتاني يضع الوجه على الوجه ولا يقبّل على الوجنتين. أو يُدني رأسه صوب كتف الزائر. نسير جميعاً صوب الخيمة. تشمخ أشجار النخيل فوق الرمال التي تعاركها منذ قرون وتنتصر. تتقدّم الرمال الحمراء صوب البيوت فتكاد تغرقها. تغرق البيوت ثمّ تقوم. لا بدّ من أن تقوم.

شنقيط ليست مدينة عابرة. هي ابنة الإسلام والعروبة والتراث العريق. تحتضن فوق رمالها أشهر المخطوطات الإسلامية والعربية العريقة. تحفظ شنقيط بأهداب العيون أعرق الكتب وأقدمها وأغناها. تغالب جور الزمن وقسوة الطبيعة لتحافظ على حبر لا يزال مخطوطاً بأيادي علماء عبروا وبقيت علومهم صامدة شامخة. لم يحفظ تراثها سوى أهلها. إذا طلبت من شنقيطي أن يبيعك كتاباً، تكون كأنّك وجَّهت إليه إهانة. وإذا طلبت منه أن يعطيك بيته أو خيمته، فإنّه يفعل ذلك، ولكنّه لا يفعل ذلك إذا طلبتَ منه كتاباً. هنا، تفاخر العائلات بمكتباتها. هنا، الكتب زينة الرجال. هنا، جزء كبير من تاريخ العرب والإسلام راسخ كالزمن. كتب مكدّسة على رفوف خشبية عتيقة مترنّحة. أبواب صغيرة لمكتبات عريقة. ينحني الزائر لدخولها فيفهم أنّ الأمر مقصود لأنّ في المكتبات ما يستحق الانحناء احتراماً. لم يأتِ من العرب إلى هنا لإنقاذ الكتب سوى العقيد الليبي الراحل معمّر القذافي، ورجل الأعمال الإماراتي الشهير جمعة الماجد الذي صار له باع طويل في إنقاذ الكتب العربية أينما وُجِدت. وقد أسّس الماجد مكتبة ضخمة في الإمارات متَّبِعاً في تنظيمها أحدث طُرُز تنظيم المكتبات العالمية.

تفترش شنقيط الرمال وتلتحف السماء والنجوم وضوء القمر. تحتضن بين حنايا كثبانها بحنوٍّ كبير، جزءاً من تاريخنا العربي الإسلامي وأشعّة من نور الثقافة والعلم. في شنقيط يمضي الوقت بطيئاً فلا يتنبّه أهلها للزمن. يغزو النمل وبعضُ الحشرات والرطوبة بعضَ الكتب فتنهش لحمها وحِبرَها. يُضيء أهل شنقيط مصابيح الزيت فتزهو ملاحف النساء المزركشة ودرّاعات الرجال الزرقاء والبيضاء. يعلو

صوت الغناء والعزف على آلة تيدنيت التي تشبه العود بأوتارها الأربعة، فتزهر الرمال. يضفي ضوء القمر سحراً على المكان. تلمع النجوم قريبة كأنّها تريد ملامسة الساهرين. توقد النارُ أمام الخيمة. تتعدّد أباريق الشاي. تدور علينا أطباق التمر ولحم الضأن وما تيسّر من المآكل. تفرح المدينة بزوّارها. ويفرح الزائر بهذا المشهد الخيالي.

تنتهي السهرة قبيل الفجر. أعود إلى خيمتي وفي قلبي فرح وحزن. ألا يُنقِذ ثمن دبابة واحدة تصدأ في مستودعاتنا تاريخاً إسلامياً وعربياً هائلاً من موت محتم، بدلاً من أن يذهب هذا الثمن لإنعاش الاقتصاد الغربي ومصانع السلاح والقتل؟ هل ثمّة في زمن الجهل واقتتال المذاهب والقبائل والطوائف على مزابل الحاضر، مَن لا يزال يهتمّ بكتاب يُحتضر هنا أو مخطوطة تئنّ هناك؟ قتلْنا تاريخَنا فلماذا نُلام إن شرَّعْنا حاضرَنا على المجهول؟ يرتفع صوت الأذان...

الصوفي أحمدن الفرنسي عشيق المحضرة

كلما همَّت الشمس بوداع القرية الموريتانية الوادعة، افترش أهلها الرمال في باحة المسجد العتيق. شيوخ تزيّن وجوههم اللحى البيضاء. شبّان يلبسون كما شيوخهم العباءة الصحراوية (الدرّاعة) البيضاء أو الزرقاء. بعضهم يحمل مصحفاً صغير الحجم. بعضهم الآخر يكتفي بالسُّبحة الطويلة البنّية اللون. تتزلق حبّات السبحة واحدةً بعد أخرى بين أصابع حاملها، ومع كلّ حبّة يتمتم عبارة عشق للنبي. يتّبِع الشيوخ والشبّان إحدى الطرق الصوفية المعروفة كالتيجانية أو الشاذلية أو القادرية أو الخضرية وغيرها... كلّ تلك الطرق أسهمت في نشر الوعي الإسلامي المتسامح، وفي رسوخ اللغة العربية. صدَّرت اللغة والدين الحنيف إلى أفريقيا. صار تأثير الطرق الصوفية في القارّة السمراء كبيراً. وصلت إلى حدّ إيصال الشخص الذي تختاره إلى سدّة الرئاسة في دول كبيرة وعريقة كالسنغال.

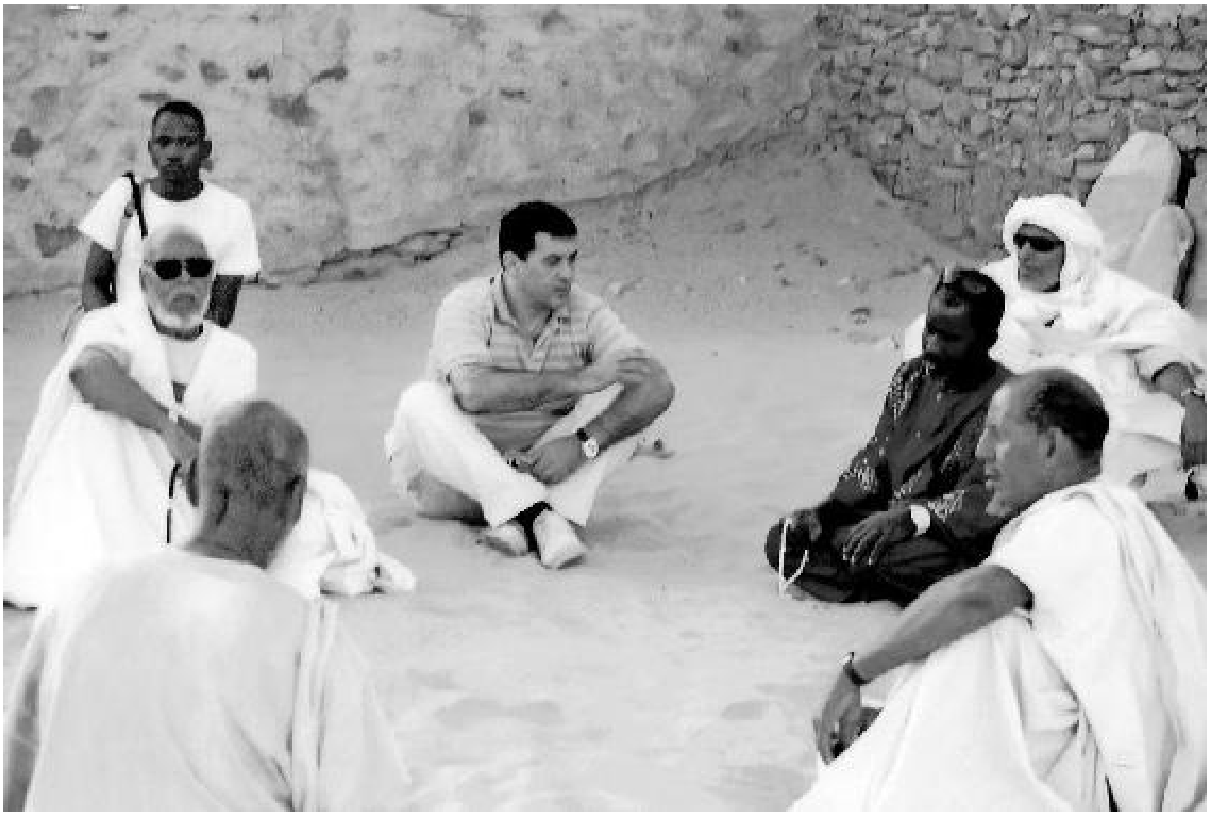

في باحة مسجد.

لم يُعرف عن الصوفيين أساليب قتل ونهب وذبح وغزوات، فهم ورِعون، هادئون في عالمهم المتنقّل بين القرآن الكريم والتعليم ونشر الوعي والتسامح وحبّ النبيّ والإيمان العميق. فتحوا أبواب مدارسهم المتواضعة المنتشرة فوق رمال الصحراء لكلّ راغبٍ في النهل من ينابيع العلم والفقة والسيرة النبوية الشريفة. لا تفرقةَ هنا بين جنس ولون وعرق. يتخرّج الطالب من عندهم ملِمًّا بالفقه والأدب والشعر والرياضيات والعلوم وغيرها.

من الطلاب، شابٌ فرنسيٌّ ذهب إلى أفريقيا حاملاً غيتاره، منشداً أغاني بلاده، ناشداً التمتّع بحياة الليل ومجونه ونسائه في أفريقيا. حطّ رحاله في قرية النبّاغية الموريتانية. وقع في سحر الصحراء والناس البسطاء الطيّبين. أغراه انفتاح الصوفية على العلم والمعرفة العميقين. جذبه القرآن وعلوم الفقه. فتح له أهل القرية الطيّبة مكتباتهم وبيوتهم والقلوب. درس، تعمّق، زهد في الحياة، انقطع عن بلاده، غرق في الكتب القديمة والعريقة، لبس الثياب الرثة، شرب حليب النوق واكتفى بالتمر وبعض

لحم الضأن، أرخى لحيته الشقراء المزيّنة ببعض البياض. صار مثل أهل القرية. «يا إلهي، أيّها القاهر القهّار، يا أيّها الساهر على عبادك، يا حكيماً يا خبيراً، يا ذا الذي أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، يا أيّها السميع البصير، خفِّف عنّي حرقتي، وسدِّد خطاي، ووجّهني نحو الطريق القويم». كانت عبارات الرجاء هذه تصل إلى مسامعي عند الفجر حين زرت النباغية. تختلط بين وقت وآخر بثغاء نعجة أو رغاء ناقة. يتسلل الضوء من خلف اللاشيء ليضيء الرمال شيئاً فشيئاً. كان الرمق الأخير في الليل المقمر يسحب ذيولَه خلفه، ويرحل في الخفاء كمن سامر بدوية طَوالَ الليل قرب خيمة أهلها، وهَمَّ بالعودة قبل طلوع الفجر وانكشاف السرّ. تتثاءب حبيبات الرمل قليلاً وتصحو لتضيء ما حولها.

تتململ المواشي في استيقاظها موحية بمتعة من اطمأنّت نفسه لهدوء سرّه. وحده الصوفي الفرنسي في المدرسة الإسلامية العريقة، «المحضرة» يخالف رتابة الحياة. كان يبعث نجواه صوتاً جميلاً موحياً بإيمان الواقف على مشارف سرّ الكون. يسمّونه «أحمدن الفرنسي». ويُقال إنّ النون أُضيفت إلى معظم الأسماء هنا بتأثيرٍ من الأمازيغ. لكن هنا لا يزال بنو حسّان والمرابطون الذين بفضلهم صمدت الأندلس قروناً، وبفضلهم بقيت اللغة العربية حامية للقرآن الكريم ولنفسها، لا يزالون حُماةَ هذه اللغة كما يحمي المقاتل معقله خلف قلعة حصينة، لا بل كما تحمي الأم رضيعها من هجمة حيوان مفترس.

يسير الصِّبْيَةُ خلْفَ الصوفي الفرنسي. ينادونه «يحمدن» تختفي الألف وتضاف النون إلى أحمد، الأولى لضرورة اللهجة المحلية والثانية لاختلاط اللغة الحسّانية العربية بالتاريخ البربري الأمازيغي. يضحك لهم. يبادلونه ضحكته الوديعة بأخرى خبيثة. لكنّ الضحكات جميعاً تسبح في بحر من المحبّة التي لا تشبه إلّا أهل الصحراء.

لم يعد «أحمدن الفرنسي» يعرف عن العالم شيئاً. لا يبتغي من العالَم سوى الاستزادة من علوم الأقدمين وفقههم. يبدو هانئاً مطمئناً، تلمع عيناه الزرقاوان فوق لحيته المشذّبة بشيء من الفوضى. تكشِف عباءته البيضاء الطويلة عن شعر صدره الكثيف الحامل بين ثناياه شيئاً من الرمال. يشرب من البئر. يمسح فمه بكُمِّ درّاعته. ينظر إلى الأعلى حامداً الله.

رُحْتُ ألاحق حركاته من شق باب خيمتي. أُتابع حركة جسده النحيل وقدميه شبه العاريتين. ألاحق أصابع يديه وهما تحتضنان بحنان غريب وعاء الحليب. يتساقط بعض القطرات البيضاء على لحيته، يمسحها شاكراً نعمة الله حامداً فضله. أسدلتُ بابَ الخيمة تاركاً بعض الضوء يتسرّب من ثقوبه. سوَّيْتُ الشرشفَ فوق فراش الإسنفج. استلقَيْتُ مجَدَّدا. تثاقلتُ في الوقوف. أغرتني فكرة أن أنام ساعة إضافية، دغدغتني فكرة أخرى بأن أسير ساعات طويلة في ذلك الفجر البرتقالي على الرمال المنعشة، قبل أن تغزوها الشمس. أغمضتُ عينيّ هانئاً. هاجمتني صور أولئك الذين يدمِّرون أضرحة الصوفية في العالم، ويذبحون أهلها، أو يكفِّرونهم. أدركتُ أنّ الجزء الأهمّ من تاريخنا الإسلامي العربي العريق في طريقه إلى الموت. هاجمتني صوَرُ طوابير المسيحيّين يغادرون الموصل ليهيموا في أصقاع الأرض، كما هام قبلهم أبناء فلسطين ولبنان وسوريا بانتظار أن تحتضنهم دولة غربية.

حين نفقد أولئك الذين رسّخوا الإسلام الوادع المتسامح واللغة العربية، ونودّع أولئك الذين نثروا من حبّ المسيح في أوطاننا روح المحبّة، ودافعوا عن العروبة، ووضعوا أجمل مؤلفات السياسة والأدب والشعر، أدرِكُ أنّ أوطاننا عائدة إلى عصور ما قبل الجاهلية.

بقيت في فراشي. أغلقتُ باب خيمتي. نمتُ على صوت موريتاني عذب يؤذن لصلاة الفجر. قرَّرت أن أستمتع بهذه اللحظات. نمت هانئاً. استيقظت مذعوراً. تزايدت دقات قلبي. ربّما هو خيال أو كابوس. لكنّي رأيت في ما يرى النائم، أنّي عدت بعد سنوات، فرأيت شيخاً عجوزاً وحيداً قرب المسجد العريق وقد تهدّم وصار أنقاضاً. سمعته يقول: «قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ...». أَننتصِر على الإرهاب في نفوسنا، أم ينتصر الإرهابُ علينا؟

المارتينيك الخلاسية اللون،
صافية الحبّ والانتماء

في الأيّام الأخيرة من عام 2003، كانت درجة الصقيع في باريس تحت الصفر، على النقيض من حرارة السياسة والأمن في العالم بعد أشهر قليلة على اجتياح العراق. كنتُ من أولئك الصحافيين الذين سهروا ليالي طوالاً ممزوجة بالحماسة والغضب والألم لتغطية الغزو الأميركي البريطاني للبلد العربي الكبير والعريق. كنت كذلك مِن بين أولئك المؤمنين، وهم في أوج المعركة وأمام خطوط النار والدمار، بأنّ في الأمر كذبة دوليّة كبيرة تريد جعل العراق كبش محرقة لجورج دبليو بوش وأفكاره التبشيرية الغربية المستندة إلى المحافظين الجدد بغية الهيمنة على الطاقة والقرار الدوليين.

المطر جميلٌ في باريس. ولِلَّيل الباريسي الشتوي نكهةٌ خاصّة وسط كلّ تلك الأضواء والأحلام. تنهمر حبيبات المطر على زجاج السيّارة، فتبدو كأنّها انهمرت على القلب. تغسل شجونه لتزرع مكانه الفرح. لكنّ تلك الأيّام الأخيرة من عام غزو العراق، كانت شديدة الصقيع. انهمر بعض ثلج على العاصمة. شعرتُ برغبةٍ في السفر إلى حيث الشمس. كانت تلك واحدة من عاداتي الجميلة والسيّئة. قرار السفر في آخر لحظة إلى جهة أجهلها لمجرّد تغيير المكان هو السيّئ في الأمر. لكنّ مغامرة اللحظات الأخيرة هي الجميلة. لم أعرف الاستقرار في مكان واحد أسبوعين متتالِيَيْن. أحببتُ حياةَ الفنادق وصالات المطارات. ما عرفت طعماً أطيبَ من الحرّية. وكلّ ما عداها سرابٌ وأوهام.

قصدتُ إحدى آخر وكالات السفر التي كانت لا تزال تعمل قبيل أعياد رأس السنة. كانت مجاورة لمقهى (Café de la paix) الكائن في قلب باريس بمحاذاة مبنى الأوبرا العريق. سألت موظفة السفر نصيحةً للسفر إلى بلد ينعم بالشمس في تلك الأيّام الباردة. ابتسمَتْ على غير عادة الباريسيّين، لا بل على غير عادة الموظفين، قبيل الأعياد. قالت: «أعتقد أنّك متأخرٌ في الحجز يا سيدي». سارعتُ إلى القول: «نعم، دائماً أصِلُ متأخّرا في كلّ شيء إلّا في عملي، فاعذريني، ولكنّي فعلاً لا أريد البقاء تحت المطر وفي الصقيع، وأحلم بشاطئ جميل». قالت: «أنصحك بدبَيْ؟»، قلت لها: «أعرفها جيّدا وأعرف كلّ شواطئها وفنادقها وأحبُّها، ولكنّني أريد التغيير، أليس لديكِ مكان آخر؟». سوّت نظّارتها فوق عينيها الزرقاوين الجميلتين وابتسامتها الساحرة، وانحنت قليلاً صوب شاشة الكمبيوتر. نقرت قليلاً بأصابعها المناسبة تماماً لعزف البيانو، ومسحت بيدها الأخرى على جبينها موحية بأنّها تفكّر في أمر جَلَلٍ، ثمّ رفعت رأسها، فاتّسعتْ الابتسامةُ، وقالت: «حظّك مَليحٌ يا سيّدي. عندنا رحلة غداً ليلاً إلى المارتينيك، لكن يجب أن أقول لك ثلاثة أمور: أولاً إنّ الرحلة تستغرق نحو ثماني ساعات متواصلة، وثانياً إنّ فارق الوقت بين هنا وهناك ست ساعات، أمّا الباقي فهو ساحر في كلّ شيء وسوف تفرح بالرحلة». سارعت إلى اغتنام الفرصة، وقلت: «موافق، عظيم، شكراً لك، ولكن هل أزعجك إذا طلبتُ منكِ حجزَ غرفةٍ في فندق؟». ضمّت كفّيها الواحدة على الأخرى، كمن يستعدُّ لصلاة مسيحية. نظرت إليّ موحيةً بشيءٍ من الندم أو الشفقة والتعاطف، وقالت: «هذا الأمر الثالث الذي كنت أودّ أن أقوله لك، لا تتوفر أبداً غرف فارغة في الفنادق، عليك أن تغامر بالذهاب إلى هناك، وحين تصل تسأل».

أدركت أنّها فعلت أقصى ما تستطيع. توقعت كذلك أنّ في الأمر عذاباً، ولكنّه كما في معظم تجارب سفري، قد يتحوّل إلى متعة حقيقية مقرونة بكثير من المغامرة. وقلت في نفسي: «إنْ لم أجد فندقاً، فسوف أنام على رمال الشواطئ، أو أكتري سيَّارة وأنام فيها. المهم أن أذهبَ إلى المطار».

لا أدري كيف مرّ الوقت. عملتُ قليلاً في الطائرة، تحدّثت قليلاً إلى جارتي وكانت سيّدة طاعنةً في السنّ، ونمتُ كثيراً. أعرفُ فقط أنّني وصلت في 31 كانون الأول/ديسمبر 2003، قبيل هبوط الليل

بقليل. من حسن حظي أنّي وجدتُ آخر سيّارة للأجرة بانتظاري. رميت حقائبي في صندوقها الصغير وخرجت من المطار. اجتاحتني فوراً المناظر الخلابة في الجزيرة. كحَّلتُ عينيَّ بألوان الطبيعة والبحر والشاطئ والشجر. فوجئت بأنّ الجبال الخضراء تجاور البحر، أو لعلَّها توحي بأنّها تحتضنه كأم خائفة على ولدِها. ممتاز. كلّ شيء يوحي بالفرح... سأنام على الشاطئ إن لم أجد فندقاً.

انسابت الموسيقى من الراديو. الأغاني هنا تشبه الناس، فيها من الفرح والحزن ما يجعلها تخاطب كلّ الأحاسيس، لكنّها تدفع إلى الحماسة وترفعُ مستوى الأدرينالين. هكذا يخترعون الفرح لقهر الفقر أو الملل في القارة السمراء. نزعتُ عنّي كلّ لباسي الثقيل، وارتديتُ قميصاً رقيقاً وبنطالاً قصيراً (شورت) ورحتُ أبحث عن فندق. لم يطُلْ بي البحث كثيراً. ما إن وصلتُ إلى الفندق الثاني، وكان عبارةً عن بيوت من الطين والقشّ (بانغالوز) موزعة على الشاطئ، حتى قالت لي الموظفة: «حظك نادر يا سيدي، منذ 5 دقائق فقط ألغى شخصان حجزهما». وددتُ أن أقفز من خلف طاولة الاستقبال لتقبيلها. داهمتني فكرة أنّ اللذين ألغيا حجزهما في آخر لحظة هُما إمّا زوجان اختلفا في آخر لحظة، كما يحصل عادة في معظم البيوت، وإمّا حبيبان اكتشف أحدهما خيانة الآخر، قُبيل ركوب الطائرة، وإمّا في أحسن الأحوال، أن يكون أحدهما قد ألمّ به مرض منعه من السفر. تمنَّيت له الشفاء، وتمنّيت لنفسي مزيداً من التمتع بكلّ هذا الجمال من حولي.

ها أنا في المارتينيك. كانت الساعة قد بلغت السابعة مساءً. رميتُ أمتعتي رمياً في البنغالو. لبست ما يليق بالبحر الجميل (أي تقريباً لا شيء) وارتميت في الماء فوراً، ومن دون بحثٍ عن مكان أجمل. كان حلمي أن أسبح للانتقام من صقيع باريس. غازلت المياه وغازلتني نصف ساعة. ثمّ جلست إلى أقرب طاولة مطعم على الرمل، وطلبتُ عصيراً طازجاً من الفواكه الاستوائية الزكيّة والغنيّة والموجودة بكثرة هنا. نظرتُ إلى هاتفي لأعرف فارق الوقت بين الجزيرة وبيروت. يا للمفاجأة الرائعة! الآن بالضبط ينتصف الليل في بيروت. بعد لحظات يدخل لبنان والشرق الأوسط والعراق في العام 2004. عساه يكون أفضل من العام الذي ولّى بويلاته. حان وقتُ التمنّيات بحلول العام الجديد. أمّا هنا، في المارتينيك، فما زلت أتمتّع ببحر العام الماضي.. ههه.. تمنَّيت لأمّي – حبيبتي – عمراً مديداً وصحّة جيّدة وفرحاً دائماً (هي التي حُرِمت من الكثير من الفرح والصحة لأجلنا، بعد استشهاد والدي في الاجتياح الإسرائيلي). تضاحكتُ معها ومع إخوتي وأقفلتُ الهاتف قائلاً: «انتهى وقت العمل، لتبدأ متعة البحر.. أنا لا شك على شاطئ يشبه شواطئ الجنّة. ومن يدري؟ ربّما تكون الجنّة هنا». أكلتُ وشربت وأمضيت أجمل ليالي العمر، تحت ضوء القمر، وفي المياه الدافئة الساحرة، وعلى الرمال والشواطئ الفاتنة، ونمتُ كطفل تمتّع بلعبته وغفا.

صباح المارتينيك

صباح الخير أيّها السيّدات والسادة. كلّ عام وأنتم بألف خير. عاماً سعيداً عليكم وعلى الجزيرة وسيّاحها وأهلها ورملها وشمسها وبحرها وفواكهها وشوارعها وجِبالها وجَمالها... هكذا درَجتْ الكلماتُ من تلقائها، على لساني، لمن حولي. كنت أتمتّع بفطوري الصباحي في مطعم الفندق البحري. جاءتني إجاباتٌ بأحسن ممّا قلت. كلّها تتمنّى لي إجازة جميلة. كيف لا تكون جميلة وأمامي كلّ هذا السحر والجمال؟

غضبَتْ صاحبةُ المطعم، حين سألتْها سائحةٌ شقراء، بلغة فرنسيةٍ مطعّمة بلَكْنةٍ إنكليزية، عن مكان يقدّم سهرة تقليدية لأهل الجزيرة. غضبت وقالت: «نحن فرنسيون مثلكم، فلماذا تسألوننا عن شيء تقليدي وكأنّنا قبيلة في طور الانقراض». ضحكَتْ السائحة وقالت: «أنا لستُ فرنسية يا سيّدتي، إنّي كندية». ضحك الجميع وأنا منهم.

ليس غريباً في المارتينيك أن يعود هذا النوع من ردّ الفعل كاللازمة الموسيقية. هنا لا مطالبَ حقيقيةً

بالاستقلال عن فرنسا، بل على العكس تماماً، تَوْقٌ إلى التماثل والتشابه بالبلد الذي كان مستعمِراً، فبات مديراً للجزيرة برضى أهلها، لكنّ ثمّة شيئاً يُشبه الغضب الكامل على عهود الاستعمار.

هم فرنسيّون، لكنّهم في العاصمة «فور دو فرانس» أكثر ابتساماً من فرنسيّي باريس. ربّما هي الشمس، تجعل الوجوه السوداء أكثر إشراقاً، أو هو البحر يُلقي بزرقته وهدوئه على النفوس فتصبح أكثر فرحاً.

تستلقي المارتينيك على سواحل البحر الكاريبي الخلّاب. تاريخيًّا، أُريدَ لها أن يكون كريستوف كولومبوس هو مكتشفَها. وربّما كان الأمر صحيحاً أو غيرَ صحيح، لكنَّ الثابتَ أنّ الكثير من المتطفّلين الذين وصلوا إليها تحوّلوا إلى أكوام من العظام بعدما كان السكّان الأصليّون للجزيرة يتلذذون بأكل لحومهم؛ ففي المارتينيك كان لحم البشر أشهى من كلّ أنواع السمك. لم يبقَ من كريستوف كولومبوس سوى جزء من اسمه في أحد أكثر الأطباق شهيّة «كولومبو».

تكاد مساحة الجزيرة تتعدّى ألف كليومتر مربّع، ولا يزيد عدد سكانها عن 400 ألف نسمة، وهم مزيج من الأفارقة والهنود. جيء بقسم منهم خلال عهود العبودية والاستعمار لزراعة قصب السكّر ثمّ الموز وجوز الهند والمانغا والجوافة وغيرها من الفواكه التي تحتاج إلى طقس حارّ. تناوَبَ على الجزيرة مستعمِرون كُثُر، كان آخرَهم البريطانيّون والفرنسيّون. يقول المؤرّخون إنّ جمال أهل الجزيرة ناجم عن أنّ العبيدَ الذين كانوا يساقون إلى هنا، كان يجري اختيارُهم من أفضل أنواع العبيد وأشدّهم قوّة. ولعلّ ذلك ترك بصماتِه على لون البشرة الذي يتراوح بين اللونين الخلاسي والأسْود، بينما يغلب الأخضر في لون العيون، فوق الأسنان الناصعة البياض.

على الرغم من أنّ الثورة الفرنسية في عام 1789 أرَّخت لأول قرار بتحرير العبيد، لم يحصل الناس هنا على حرّيتهم إلّا في وقت متأخر. تلك العبودية جعلت أبناء الجزيرة بالغي الحساسية؛ فالزائر يُفاجَأ بأنّ نادل المطعم، أو موظف الاستقبال في الفندق، يجيبُه بشيء من الاستياء، إذا طلب منه الزائر شيئاً، من دون أن يكون الطلبُ مشفوعاً ببعض المبالغة في عبارات التهذيب. وأيُّ طلب عاديٍّ تطلبه من أهل المارتينيك، قد يفسّرونه بأنّه أمرٌ، إذْ يُثير فيهم ذكرياتٍ أليمةً تعود إلى أوامر المستعمر الأبيض الجائرة.

كرم استثنائي

كنت أتابع بكثير من الشغف، الحوارَ الدائرَ بين صاحبة المطعم والسائحة الكندية. هما أشركتاني به من دون رغبة مني. سألتني السائحة الكندية عن أصلي. قلت من لبنان. فردّت بسرعة: «عندكم حرب». ابتسمتُ ولم أُجِب. قالت: «لا بدّ من أنّ كثيرين غيري يطرحون عليك هذا السؤال، اعذرني». قلت لها: «إنّي أجيب عن هذا السؤال منذ خمسة عشر عاماً، لا بأس بسؤال إضافي». ضحكنا.

سألت بدوري صاحبة المطعم: «أين يمكنني أن أجد على جزيرتكم الرائعة الطعام التقليدي عندكم، غير الذي أجده في باريس؟». قبل أن تُجيبَني، جاءني الجواب من رجل خلاسيّ اللون، طويل القامة، رياضي الجسم، في السبعين من عمره، أخضر العينين. يختصر بلونه وجسده وتقاسيمه كلّ المزيج الاستعماري المحلي. قال باسماً: «تفضّل عندنا يا سيّدي، وسوف تأكل ما تريد». شكرته كثيراً، واعتقدت أنّه، كما في الكثير من دول العالم، يدعو السيّاح لعنده، يأكلون، ويمضون نهارهم، ثمّ يدفعون ثمن ما أكلوا، بدلاً من المطاعم. شكرته مرَّة ثانية حين سألني عمّا إن كنتُ أرغب في أكْلِ اللحم أم أفضّل السمك، فقلت: «كلا الاثنين، إن لم يكن لديكم مانع». رحّب بالفكرة، وأعطاني عنوان بيته، وقال لي: «يمكنك المجيء مع مَن تريد». سارعَتْ السائحة الكندية إلى الاقتراح عليّ بأن ترافقني، وأن تصطحبَ معها صديقةً لها. وجدتُ الفكرةَ جميلة، بل رائعة، لا بل نعمة من الله تهبط عليّ من حيث لا أنتظر. حدَّثت نفسي بذلك، وابتسمتُ وحدي.

كان روبير المارتينيكي يقطن في فيلا فخمة. بيضاء اللون، شامخة، مؤلفة من طابقين مع شرفات زجاجية، وحديقة حافلة بكلّ صنوف الفاكهة. فكرتُ أنّه ربّما حصل على كلّ هذا المال ممّا يجنيه من السيّاح. رحّب بنا مع زوجته الخلاسية مثله، تبدو في الستين من عمرها، ممتلئة الجسد، خفيفة الروح، سريعة البديهة والضحكة. أكلنا وشربنا ما طاب لنا. وختمنا نهارنا السحري بتناول الفاكهة، نقطفها مباشرة من الشجر، فكان روبير يضرب جوزة الهند بسيفه، فيُسقِطها أرضاً، ثمّ يشقها، ويقدّمها لنا لنشرب عصيرها الاستثنائي.

أمّا المفاجأة الكبرى وخجلي الأكبر فكانا حين أخذت من جيبي ما تيسّر من العملة الأوروبية، وقدّمتها له شاكراً. أعاد يدي إلى جيبي، ضحك وقال: «يا بنيّ، أنا وزوجتي نعيش هنا وحدنا، منذ أن سافر أبناؤنا للدراسة والعمل في باريس. ابني الكبير طبيب جرّاح، وابنتي مديرة مصرف، وأنا وزوجتي نشعر بالملل ونحب السيّاح، فاخترنا أن ندعو مَن نستلطف منهم، فنتعرّف إلى أناس جدد وحضارات وثقافات ووجوه لطيفة مثلكم، لنمضي معاً يوماً جميلاً كهذا اليوم».

لم أعرف بماذا أُجيب، سوى الشكر العميق، والقول إنّني فوجئت فعلاً، وإنّني في باريس لم أعرف مثيلاً قطّ لهذا الكرم، مع أنّ المارتينيك فرنسية كباريس. ابتسمَتْ زوجةُ روبير، السيدة ماري جوزيه التي كانت تعمل قابلةً قانونية، وموظفة حكومية، قبل التقاعد. قالت: «نحن فرنسيون، ونُحِبّ فرنسا، لكنْ ثمّة فروق اجتماعية وثقافية وإنسانية كثيرة بيننا؛ نحن ندين لها بإنقاذ جزيرتنا، فهي لو لم تكن هنا لكُنّا فقراء، بل في فقر مُدقِع وتخلّف، كهاييتي. نعرف أنّنا نعيش تحت الاستعمار، لكنّه استعمار صار لمصلحتنا، من ناحية رفاهيّة الحياة والإدارة والتقدّم». أكمل زوجها الشرح قائلاً: «إنّ الشعور القومي عندنا قويٌّ جدًّا، فأنا مثلاً، أعتبر نفسي مارتينيكياً وأحمل الجنسية الفرنسية، لكنني أحبّ الاثنين».

واقع الأمر أنّ زائر المكان سرعانَ ما يكتشف أنّ الفرنسيين «البيض» يديرون الفنادق والمطاعم والمرافق السياحية، ويسيطرون عملياً على الأمن وولاية الشرطة، وعلى عددٍ من الإدارات. لكنّ البلد أنيق ومنظم وخالٍ من المشاكل (باستثناء بعض تجارة المخدّرات والبطالة التي يعاني منها 30 في المئة من أبناء الجزيرة، وفق ما شرح لنا مارتينيكي آخر). بمعنى آخر، إنّ الإدارة الفرنسية ناجحة جداً في كَوْنِها لا تدَع المارتينيكيّين يشعرون بأنّهم غرباء في بلدهم.

في آخر ساعات لي على الجزيرة الخلّابة، وضعتُ أجملَ ما يمكن من موسيقى تعلّمتها وأحببْتُها في المارتينيك، ورحتُ أجوبُ بالسيّارة شوارع الجزيرة، أُراقب وجوه الناس ووجه البحر وزرقة السماء وشموخ الجبال، وأنظر إلى الله سائلاً إيّاه: «حين خلقتَ هذا الجَمال كلَّه، لماذا لم تجعلْنا نحاكيه بجَمال الخُلُق؟».

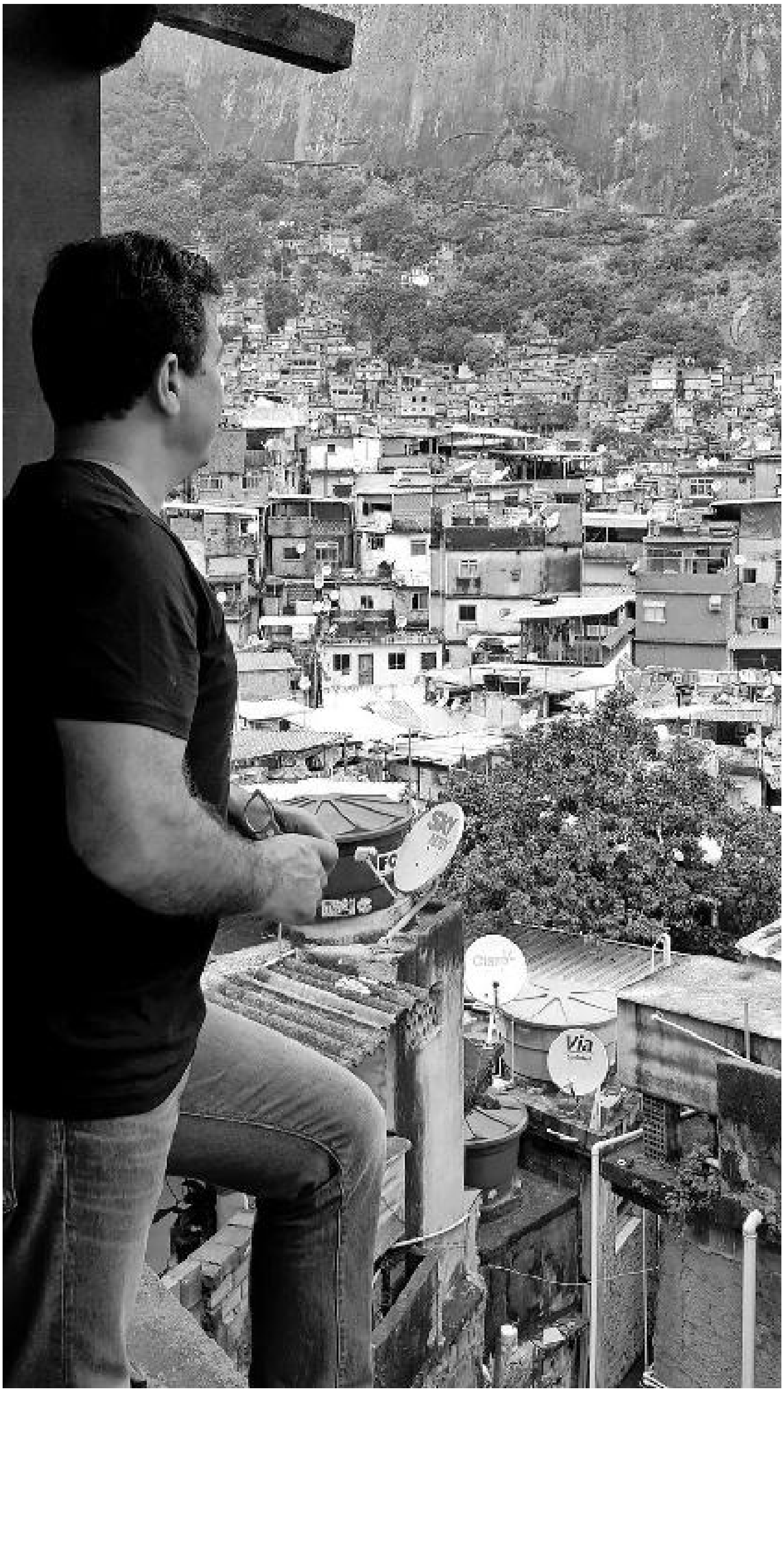
Claro
Via

في رحاب البرازيل

شيءٌ ما يشبه الحب

تأخرتُ كثيراً على زيارة البرازيل. قادتني أقداري وعملي الصحافي إلى أن أزور معظم دول العالم، إلّا البرازيل. كلما نويتُ زيارتَها تراجعتُ. لم أعرفْ يوماً سببَ تقصيري. لم أدرك يوماً سببَ تردّدي. الآن عرفتُ. ما إن نزلت إلى شاطئ ريو ديجينيرو فجراً، حتى شعرتُ بأنّ في الأمر قصةَ حبٍّ تجمعُني بأميركا اللاتينية. ربّما تأخَّر تحققها لكي تُستكمَل كافةُ تفاصيل القصّة.

الرحلةُ من بيروت إلى ريو عبر باريس متعبة. تستغرق أكثر من عشرين ساعة، إحدى عشرة ساعة منها، بين باريس وهذه المدينة البرازيلية المستلقية كأميرة عند البحر. قرأت في الطائرة كثيراً. نمتُ قليلاً. كتبت كثيراً. ما إن وصلتُ إلى المطار البرازيلي حتى اكتشفت أنّي أضعتُ كلَّ ما كتبتُه. سقط منّي مفتاح ذاكرة الكمبيوتر الذي جمعتُ عليه ما كتبت. حزنتُ كثيراً حين أبلغوني أنّهم لم يجدوه. سرعان ما جاءت ابتسامات البرازيليين في المطار وعند الجمارك وفي السيّارة التي أقلَّتْني إلى الفندق لتمسح عنّي كلّ الحزن.

وصل أعمامي قبلي إلى البرازيل بنحو مئة عام. ذهب قبلهم بعض أجدادي إلى كوبا. كانت هذه الأرض الأميركية اللاتينية الطيّبة ملجأهم حين هجر كثير من اللبنانيين بلادهم بحثاً عن لقمة عيش وكرامة. كانت ويلات الحرب العالمية وجَوْر السلطنة العثمانية قد أفقرتْ الشرق الأوسط. هل يذكّركم هذا الأمر بشيء؟ ربّما. لكن تعالوا معي نحاول أن ننسى، ولو قليلاً، قسوةَ أحوالنا وننشد بعض الأمل.

ها أنا، بعد أكثر من قرن كامل، أسيرُ على درب أجدادي وأعمامي، لا بحثاً عن لقمة عيش (أحمد الله أنّه وفَّرها لي في أماكن أخرى)، لكن بحثاً عن سبب بقاء معظم رجال عائلتي هنا. بعضهم صار جزءاً من تراب البرازيل، وبعضهم الآخر دُفِن تحت تراب كوبا. وحدها عمّتي عادت إلى لبنان، قبل سنوات، للتزوّج بابن عمّها الذي كان مهاجراً في أميركا. تُوفيت قبل نحو شهرين، رحمها الله. كانت تلاعب شعر رأسي وتدغدغ أحلام طفولتي برواياتها عن البرازيل. تحدّثني عن جمال الطبيعة الخضراء، عن الأنهار والبحيرات، وعن الناس الطيّبين. حين كان القصّ يعجز عن الوصف، كانت تُخرِج لي صور أعمامي. أقلِّب تلك الصور وأجد بينها صور أجدادي في مزارع قصب السكّر في كوبا قبلَ الثورة. يبدو أنّهم كانوا من الأغنياء. كنت أقول في سرّي: «حسناً فعل فيدل كاسترو، حين أمّم الأراضي، فأجدادي كانوا، بلا شك، يستغلون الناس لكي يحصدوا ثروة». ربّما لم يكونوا كذلك، ولكنّي هكذا فكرت. لم أجاهر يوماً بما كنت أفكر به، لأنّ عمّتي وأمّي، رحمها الله، كانتا تحبّان أقاربهما في المهجر. أنا كنت أُحِبّ فيدل كاسترو وتشي غيفارا، وأتمنّى لو أنّني قاتلت في صفوفهما لتحرير كوبا.

صدّقت روايات عمّتي. ها أنا أرى بأُمّ العين غابات شاسعة في البرازيل. تبدو البيوت دخيلة على تلك الغابات. أو لعلّها تبدو هانئة بينها، على الرغم من فقر أحوال بعض ناسها. لكنّها لم تخبرني قطّ عن البحر وعمّا حوله. ربّما لأنّها لم تزر ريو ديجينيرو.

وصلت فجراً إلى ريو. سألت نفسي في الطائرة من أين أبدأ رحلتي في بلد تبلغ مساحته 16 مرّة مساحة فرنسا، و286 مرّة مساحة بلجيكا. يمتدّ على 8512000 كلم2. ضحكتُ. تذكّرت لبنان. مساحته 10452 كلم2، بعدما أضيفت إلى أرضه مزبلة النورماندي! لكن، «بلادي وإن جارت عليَّ عزيزة»...

كان الفجر يُرسِل أشعّة الضوء الأولى. بعض رذاذ المطر منثور على الشوارع. نحن في فصل الشتاء. الفندق مجاور للبحر. الوجوه المبتسمة منذ الفجر تلاقيك عند الاستقبال. «بونجيا يا سيدي» («بونجيا» تعني باللغة البرتغالية البرازيلية «صباحك سعيد»). بعض كلمات هذه اللغة أتت من

العربية. ثَكر مثلاً تعني السكّر. بطاطا تعني بطاطا. ثيتون تعني زيتون. فكّرت بأعمامي حين وصلوا إلى هنا قبل أكثر من قرن. لعلّهم حين سمعوا هذه الكلمات ظنّوا أنّهم يستطيعون التحدّث بلغتهم الأم. ابتسمتُ. كلّ الذين التقيتُهم في الطريق بين الفندق والشاطئ، بادلوني ابتساماً بابتسام.

لعلّ كلّ مهاجر إلى البرازيل نقل إليها شيئاً من بلده. صارت هذه الدولة الشاسعة مزيجاً من الأعراق والألوان والأجناس. تجد فيها الأسمر الأدكن، الأبيض، الأشقر، والخلاسي، تسمع فيها كثيراً من موسيقات العالم، وتأكل على أرضها كلّ صنوف الطعام. كأنّ البرازيل اختزلت فوق ترابها جُلَّ ثقافات العالم. إذا ذهبتَ مثلاً إلى منطقة الأمازون، فستَجِد 40 ألف نوع من الخضروات و2200 نوع من الأسماك و1300 نوع من العصافير و427 نوعاً من الثدييّات، و25 مليون نوع من الحشرات.

كان الفجر يُرسِل خيوطَ نوره الأولى، فيتثاءب الرمل الأبيض. تمشي حمائم بيضاء على الرمال، تنقد ما تركه بعض المشاة. تبدأ المقاهي عند حافة الطريق فوق الشاطئ بتوزيع الكراسي حول الطاولات. تصل حبّات جوز الهند الخضراء الطازجة مبشّرة بعصير طبيعي ينعش نهارنا الحافل. يلملم شابّ فقير حوائجه من خلف برميل النفايات حيث بات ليلتَه بطولها. يلملِمُها لا ليذهب إلى مكان آخر، بل ربّما لينتقل إلى مكان أكثر دفئاً. يركض إلى جانبه عشرات الشبّان في رياضتهم الصباحية الموحية بتعلق البرازيليين بالرياضة. يجلس عاشقان على الرمال يشاهدان تراقص الموج الذي لا يكاد يلامس أقدامهما حتى يتراجع، وكأنّه لا يريد تعكير صَفْو العشق في بلاد العشق. لعلهما يرميان سرّ عشقهما في اليمّ الرحب يأخذه الموج إلى حيث يشاء.

على شاطئ بحر ريو مجسّم لمدينة صغيرة نحتها شابّ فقير ونام قربها طيلة الليل. ينحتها نهاراً ويجرفها البحر ليلاً، ثمّ ينحتها كلّ يوم لكي يكسب رزقه. غير بعيدٍ عنها تنتشر تماثيل رملية صغيرة لنساء شبه عاريات مستلقيات عند البحر. الجمال النسائي جزءٌ من تراث البرازيل، أو هو جزء من الأساطير المنسوجة حول البرازيل، التي يُنعشها كلّ عام الكرنفال السنوي ذو الألوان المزركشة والموسيقى المتنوّعة والأعراق المنسجمة في مشهد رائع.

أجلس على الرمل. يلفحني شيء من الدفء بالرغم من فصل الشتاء. يبشّر الدفء بأنّ النهار سيكون مشمساً. أنظر إلى اليسار. تفاجئني الجبال الخضراء الشامخة، تبدو كأنّها هي الأخرى تغسل أقدامها بمياه البحر. أحاول أن أُرسِل ناظري إلى المدى الرحب. يدهشني جبل مخروطي الشكل. إنّه جبل «خبز السكّر» (أو Pão de Açúcar) وفق اللغة البرتغالية البرازيلية. قدماه في البحر. رأسه مرفوع صوب السماء الصافية في هذا الصباح. طوله 396 متراً. يقال إنّه اكتُشِف في القرن السادس عشر. أطلقوا عليه هذه التسمية لأنّه يشبه قوالب السكّر المكرّر التي كانت تُنقل بقوالب من الفخّار عبر المراكب، خلال ازدهار تجارة قصب السكّر. لا يمكن الوصول إلى قمّة الجبل سوى عبر التيليفريك الذي أُسِّس عام 1912 فكان الأول في البلاد، والثالث على الصعيد العالمي. صارت وسيلة النقل السياحية تلك واحداً من مصادر الدخل القومي لمدينة ريو. قلما جرى تمثيل فيلم سينمائي في البرازيل من دون تصوير مشاهد لهذا الجبل الخلّاب.

أحاول أن أرسم على رمل الشاطئ شكل الجبل. أحرّك أصابعي لأُقلّد الكابلات الكهربائية التي تربط جبل خبز السكّر بجبال أخرى. أصوّب كاميرتي صوب المشاهد التي يحارُ المرءُ في ماذا يلتقط من روعتها. تقترب منّي حمامة بيضاء. أصوّرها، ثمّ أرمي لها قليلاً من فتات خبز يابس وجدته قربي. تقترب أكثر. تبدو الحمامة، ككلّ أهل البرازيل، مرحّبة بالزائر والسائح والمهاجر. تبدأ الشمس بإرسال أشعّة الصباح. أسمع بعض الأغاني من هاتف العاشقَيْن قربي. يستلقي الشاب على الرمل. يضع رأسه على فخذ حبيبته. تداعب شعره. ينظران تارة إلى السماء، وطَوْراً صوب الموج، وتارةً أخرى في اتّجاه جبل عالٍ آخر. على قمّة ذاك الجبل واحدة من تحف ريو ديجينيرو. تمثال هائل للسيّد المسيح، اسمه Christo Redentor Corcovado، سأزوره اليوم.

كلّ شيء في هذا الصباح يبشّر برحلة رائعة إلى حيث سبقني أعمامي وأجدادي، قبل أكثر من قرن. لعلّي بدأت، منذ اليوم الأول، أفهم لماذا أحبّوا هذه الأرضِ وعاشوا فيها وماتوا تحت ترابها. آنذاك، كان في شرقنا مؤامراتٌ دولية وإقليمية تشبه إلى حدّ ما شيئاً ممّا تركتُه خلفي، وأنا قادمٌ إلى هنا. التاريخ يكرّر المآسي نفسها وعلى نحوٍ أفظع، والطبيعة الجميلة تبقى شاهدة على جَوْر البشر، وكأنّها تقول: لا تقتلوا بدائع الله بادّعائكم معرفةً الله وما يُبدِعه.

بين السيد المسيح والسامبا... انسجام التناقضات

يتثاءب الصباح عند شاطئ ريو ديجينيرو. أقترب من أحد المقاهي بين الطريق العام والشاطئ الرملي. يبتسم النادل ويسبقني إلى التحيّة الصباحية. أسأله فنجان قهوة، يعتذر بلباقة نادرة وأسفٍ واضح. هكذا هم البرازيليون، طيّبون إلى أقصى حدّ، إن لم تجد عند باعتهم ما تريد يغمروك بلطف الاعتذار. أفكّر بتلك السمعة السيّئة لهذه المدن الساحرة. لماذا يُقال إنّ الجرائم فيها كثيرة، وإنّ المخدِّرات متفشّية فيها؟ هل هي حقاً كذلك بسبب الفقر والتهميش والكحول؟ أم يغالي الإعلام العالمي في الوصف لسببٍ ما؟ أقرأ في آخر الإحصائيات أنّ في العالم نحو نصف مليون قتيل كل عام بسبب الإجرام، وأنّ جريمةً من أصل كلّ عشر جرائم تُرتكَب في البرازيل.

هذا هو يومي السابع في هذه البلاد الجميلة الخضراء النديّة الوارفة الشجر والمزنّرة بالجبال الجميلة والبحر الخلّاب. لم أرَ ما يثير القلق في وجوه الناس. لم أصادف إلّا الابتسام واللطف. لا يزال أمامي متَّسعٌ من الوقت، لأعرف أكثر وأكتشف أكثر حقيقة ما يُقال. أمّا الآن فلنتابع الرحلة.

كيفما حوَّلتُ ناظريَّ أجد التمثال الهائل للسيّد المسيح أمامي. لا بدّ إذاً من الذهاب إليه، أو بالأحرى الصعود إليه، فهو منتصب هناك فوق جبلٍ فاتحاً ذراعيه للناس، وكأنّه يحمي ريو وناسها وجوارها.

إنّه «المسيح المخلِّص» وفق الترجمة العربية لاسمه البرتغالي البرازيلي (Christo Redentor)، صار مَعْلَماً دينياً وسياحياً بالغَ الأهمّية في ريو ديجينيرو، ولدى أهلها وسيّاحها. تضافرَتْ لنحتِه أيادٍ من البرازيل وفرنسا ورومانيا. يزوره كلّ عام نحو 800 ألف سائح. يرتفع عن سطح البحر نحو 710 أمتار. يبلغ طوله (من دون احتساب قاعدة التمثال) أكثر من 38 متراً. يزن ما يقارب 1145 طنًّا. بالنظر إلى مقاساته الدقيقة، فقد صُنّف على أنّه أحد أكبر التماثيل في العالم. وتحت التمثال كنيسة تشهد، على الدوام، حفلات الزفاف واحتفالات العمادة المسيحية.

ركبتُ القطار الكهربائي في اتّجاه السيد المسيح، ولعلّي كنت العربي الوحيد في القطار، بل هذا ما ظننتُ. لم أسمع سوى البرتغالية والإنكليزية والإسبانية. كان في جواري ألوان وأشكال مختلفة. لم نتبادل الكثير من النظرات والبسمات. سحرتنا جميعاً الأشجار الوارفة والغابات الخضراء عند جوانب سكّة القطار. لم تستطِع عيوننا أن تلتقط كلّ هذا الجمال وإنّما عبرته عبوراً. لكنّ ما التقطته عدسات عيوننا، أو عدسات كاميراتنا، كان كافياً للعودة في الزمن قروناً وقروناً إلى الوراء، حيث كانت الغابات الشاسعة والزهور المزركشة وكلّ أنواع الطيور والعصافير والحيوانات، لا تزال تنعم بما خلق الله، قبل أن تمحَقَ أيادي البشر الجزء الأكبر منها. هنا، لا يزال شيء كثير من تلك الغابات كما أبدعتها يد الخالق.

راح القطار يخترق المسافات الخضراء الشاسعة. كاد يلامس الأغصان المتدلّية من فوق كحبالٍ الْتَفَّ بعضها على بعض. داعبته الأوراق الخضراء ذات الأشكال والمقاسات والألوان المختلفة. انسابت إلى مقاعدنا رائحة الورود التي لم تمسسها يد إنسان. مدَدْنا أيادينا نقطف بعضها. تراقصت فوق أيادينا على الأغصان العليا بعض القردة الصغيرة. بدت كأنّها تتسلّى بنا أكثر ممّا نتسلى برؤيتها. ضحكنا لها وضحكت علينا، تماماً كما نضحك لساستنا ويضحكون علينا ويقفزون كالقرود فوق أشلاءأشلاءأ ضحاياهم.

دعك من السياسة يا رجل. تمتّع بما صنع الخالق من حولك. لست هنا لتبكي على رسم درس، وإنما لتفرح بما بقي من بدائع الله، وما حسّنته يد البشر لا ما شوّهته. هكذا قلت في سرّي. مددت يدي صوب الأغصان التي تداعب جسد القطار. داعب النسيم يدي ولامستها وريقات الشجر. بعض النسيم وصل إلى وجهي فتنشقت ملء رئتيّ.

يقال إنّ فكرة تمثال السيد المسيح، تعود إلى عام 1859، وقد أطلقها الأب بيدرو ماريا بوس حين وصل إلى ريو. آنذاك، سحره كما يسحرنا الآن جمال ذاك الجبل الرائع المطِلّ على جبال لا تقلّ روعةً، وعلى بحر وحدائق وتلال كلّها خضراء غنّاء متناسقة. حينها طلب الراهب من أميرة البرازيل إيزابيل، مساعدته مادّيًا لتشييد التمثال. لم يتحقق حلم الأب بيدرو بسبب قيام الجمهورية مكان النظام الملكي، وفُصلت الكنيسة عن الدولة. انتظرَتْ البرازيل حتى عام 1923 لتُقيم هذا التمثال الضخم على جبل كوردوفا.

لا أدرى لماذا تحضرني المقارنة في كلّ رحلة. فهنا اندثرت الملكيات والإمارات، وقامت الجمهوريات العلمانية، وبقيت التماثيل الدينية. وعندنا تندثر الجمهوريات وتموت الجماهير ويصبح الدين ذريعة لقتل التماثيل التي تمجّد الدين.

لماذا المقارنة يا رجل؟! أكمل الرحلة. لا داعي لنكء الجراح. هكذا قلت في سرّي أيضاً. لِنَعُد إذاً إلى قصّة تمثال السيد المسيح: انتصب التمثال فاتحاً ذراعيه ليحمي المدينة البرازيلية الجميلة. اختير التمثال (من مئة مليون شخص صوّتوا عبر الإنترنت) ليكون إحدى عجائب الدنيا السبع الجديدة. تعرَّض قبل أعوام قليلة لتشويه وشعارات كتبتها عليه عصابات. صار بالنسبة إلى البعض منصّة للقفز بالمظلّات. أصابته الصواعق أكثر من مرّة، فكسرت جزءاً من يده اليمنى عام 2014. قيل آنذاك إنّ 40 ألف قطعة صغيرة سقطت من يده على أهالي ريو. ذهب البعض إلى حدّ القول إنّ السيد المسيح غاضب، وإنّ يده تعاقب المجرمين والفاسقين والفاسدين. ليت جزءاً من تلك القطع ضرب رؤوس ساستنا.

البرازيليون، كما معظم شعوب أميركا اللاتينية، مؤمنون على طريقتهم الخاصّة التي غالباً ما تربط الإيمان بالفرح. لم تؤثر على إيمانهم أحزاب اليسار والشيوعية ولا أفكار الليبرالية والتحرّر. 89 في المئة من الشعب البرازيلي مسيحيون، بينهم 64 في المئة كاثوليك و22 في المئة بروتستانت. لكنّ البرازيل، منذ عام 1891، تبنّت الدستور العلماني. تعدّدت مصادر الأديان في البلد الشاسع عبر التاريخ. عزّزتها موجات هجرة الأفارقة والعبيد الذين كانوا يقاومون المستعمر والمستبدّ بالدين. أمّا حالياً، فإنّ نسبة المؤمنين أو الملتزمين دينيًّا، تسجّل تراجعاً. تنبتُ هنا وهناك حركات دينية أخرى بعضها يُثير الاستغراب. نجد مثلاً ما يقارب 800 ألف شخص ينتمون إلى شهود يهوا، وإلى جانبهم ينتشر الإنجيليون الجُدُد، أو الروحانيون، أو غير المتديّنين. يُحكى عن تغلغل يهودي إسرائيلي عبر بعض الأديان. أمّا المسلمون فهم يشكّلون ما نسبته 0,5 في المئة من الشعب البرازيلي. ويُقال إنّ عددهم يراوح بين مليون ومليون ومئتي ألف مسلم.

حملتُ الكاميرا، التقطتُ عند قدمَيْ المسيح أجمل الصور لمدينة ريو من فوق. لا داعي للتركيز، كيفما وجَّهتَ الكاميرا ستلتقط لوحة خلّابة؛ فإن لم تصوّر تلّة صغيرة خضراء، فستصوّر الغابات المنتشرة بين البيوت وحولها، وفوق التلال، وعلى الجبال، وحول البحر، أو بين البحيرات الصغيرة.

في تلك المسافة الرائعة بين تمثال السيد المسيح والطبيعة الساحرة، جلستُ على مقعد حديدي أشرب العصير من جوزة هند خضراء. سافرَ خيالي فوق الجبال. اجتاز مسافات طويلة من البحر. ذهبَ إلى هناك حيث وُلد السيد المسيح. هناك إسرائيلي ظالم لم يُبقِ على الأرض التي وُلد عليها رسول السلام والمحبّة، إلّا واحداً في المئة فقط من أبناء الكنيسة؛ وهناك ظلاميّون جُدُدٌ يطردون المسيحيّين، ويبيعون بناتهم في أسواق النخاسة الجديدة؛ وهناك يتآمر العربي على العربي ويقتل المسلم المسلم. بينما هنا يرتفع السيّد المسيح تمثالاً فوق التلال يحمي مدينة تعرف كيف تصلّي حين تشاء وترقص حين تريد وتقفز فوق الفقر بابتسامة. لكن بين هنا وهناك يبقى الفقر سبب الكثير من المآسي التي لا يعرفها إلّا من يتوغّل في عمق البلاد.

هل يُعقل أن يزور المرء البرازيل من دون التمتّع بالتراث الشعبي الراقص وفي مقدّمه السامبا. ربّما سأفعل غداً.

عجائب الشلّالات والسدود

فتحتُ ستائر غرفة الفندق هذا الصباح، من دون خطة فعلية لمسار يومي. وددْتُ لو أنّ طبيعةَ البرازيل تقول لي إلى أين أذهب، لا أن أُنفّذ برنامجاً معدًّا سلفاً. كان رذاذ المطر ينزلق على الزجاج راسماً خطوطاً مستقيمة أو متعرّجة. يرمي الفجر وشاحَ الضوء على الغابة المجاورة، فتبدو الأشجار كأنّها تستحمّ فَرِحةً بماء المطر. على يمين الغابة وفي وسطها بيوت قرميدية زادها المطر رونقاً فأشرقت ألوانها، وعلى يسارها مبانٍ عاليةٌ وأبراجٌ تبدو دخيلةً على انسجام الطبيعة.

نهضتُ من سريري بحيوية استثنائية. اقتربتُ من النافذة حتى لاصق وجهي زجاجها. غطَّتْ أنفاسي جزءاً من الزجاج، فمسحته بيدي كي لا يعكّر عليَّ متعة هذه اللوحة الخلابة.

مجنون إذاً مَن يفكّر اليوم، في هذا الجوّ الماطر، بالذهاب إلى شلّالات إيغواسو في مدينة فوز البرازيلية. لا شكّ في أنّ الشلّالات الشهيرة تكون متوتّرة وهائجة، وأنّ الرحلة إليها محفوفة بالخطر. ولكن، لا بأس! فإنّ مَن يأتي إلى البرازيل ولا يغريه بعض الجنون يكون قد أفسد رحلته. لنذهب إذاً إلى ذاك المكان الذي أُدرِج أخيراً بين العجائب السبع الجديدة في العالم.

يحضر بعض الأصدقاء من أبناء الجالية اللبنانية، إلى أمام الفندق النائم وسط الغابة. هم كمعظم أهل البرازيل يعبّون أوكسيجين الفرح منذ الصباح. لعلها الطبيعة الهادئة في ولاية «بارانا»، أو هي انعكاس روح الأرض والشجر والعصافير والحيوانات على أرواح البشر، فتجعل الناس هنا أكثر سعادة من الشعوب الأخرى.

أمام شلّالات البرازيل.

دقائق قليلة ونصل إلى إدارة الشلّالات المعروفة هنا باسم Cataratas del Iguazú وهي تعني بالعربية «شلّالات إيغواسو». ترحيب وبطاقات مجّانية لأنّنا صحافيون، أو ربّما لأننا بصحبة شخصية معروفة هنا، هي السيدة أنيسة غزاوي المحامية الشهيرة والمرأة العربية والمسلمة الوحيدة في أميركا اللاتينية، التي استطاعت الوصول إلى عضوية البلدية في مدينة فوز. وهي المرأة الوحيدة التي صارت رئيسةً لحزب العمّال هنا، على الرغم من كونها ابنة مهاجر من البقاع الغربي، جاء وعمل

«بيّاع شنطة» (حقيبة) في غابات المنطقة. وعضو البلدية في هذه الولايات هو بمنزلة وزير، لا بل أكثر أهمَّية من وزير. لا يوازي قيمتها الاجتماعية والسياسية سوى لطفها وحضورها المحبَّب وحُسْنِ استقبالها مع عائلتها لنا.

إجراءات بسيطة، ثمّ نركب حافلة خاصّة بالسيّاح، مكشوفة الجانبين بالرغم من المطر. ها قد بدأت رحلة العجائب والسحر. تعبُرُ بنا الحافلة وسط الغابة الخضراء. نقلّب أنظارنا بين كلّ صنوف الشجر واللوحات التي ما استطاع الإنسان منذ آلاف السنين أن يعكس روحها، حتى وإن نجح في رسم مشهدها. نترجّل من الباص، نلِجُ ممرّات ومسالكَ، ننزل أدراجاً ونصعد سلالم، تقترب منّا حيواناتٌ صغيرة تشبه السنجاب اسمها «كواتشي»، حتّى نصل إلى ما يخطف الأنفاس.

تخيّلي يا عزيزتي القارئة، أو يا عزيزي القارئ، 275 شلّالاً دفعة واحدة أمام ناظريك. تخيَّلْ شلّالات تفوق ثلاث مرّات نظيراتها في نياغارا. تنزل من الأعالي لتكوّن بحيرات ودوائر، وترفد نهري ريو وبارانا. ترسم في هبوطها حبّات من نور يصل رذاذُها إلى وجوهنا، فتنعشها تحت المطر. تَحارُ إلى أيِّ شلّال تنظر، إلى هذا الصغير هنا إلى اليمين، أم إلى ذاك الهائل إلى أقصى اليسار؟ إلى شلّال بارتفاع ثلاثين متراً، أم إلى ذاك المُسمّى «فم الشيطان»، في إحدى الأساطير القديمة لهذا البلد الزاخر بالأساطير. يهدر هذا الشلّال ويصبُّ الماء في واحدة من روائع الخالق. يبدو المشهد كأنّه سمفونية من ماء، هنا شلّال يهدر وهناك شلّال ينساب. هنا يصبّ ماءه بغضب، وهناك يسكبه بحنان.

تمتدّ الشلّالات العجائبية على أكثر من ثلاثة آلاف متر. يصل ارتفاع بعضها إلى تسعين متراً، تصبّ ستة ملايين ليتر من المياه في الثانية الواحدة. نعم، ستة ملايين ليتر في الثانية. أفكّر بناطور بنايتنا في بيروت، ذاك السوداني الطيّب الذي يتّصل بي أثناء هطل الأمطار حتى الطوفان في لبنان ليقول: «يا أستاذ انتبهوا للمياه ستنقطع اليوم وغداً». قطعَ اللهُ رقابَ الفاسدين في بلاد تغرق بالمياه في الخارج، وتحرم أهلها من مياه الشرب والكهرباء في الداخل.

لا تفكّر ببلادك الآن يا رجل، تمتّع بهذه الشلّالات الخارجة عن إطار الوصف، أردّد في سرّي وابتسم.

ثمانون في المئة من مياه هذه الشلّالات تابعة للأرجنتين وعشرون في المئة للبرازيل. تماماً كذلك السدّ العجائبي الهائل الذي شيَّدته البرازيل مع جارتها الثانية الباراغواي والمسمّى Itaipu، وهي كلمة تعود إلى السكّان الأصليّين في هذه البلاد الرائعة، وتعني «غناء الصخور». هذا السدّ هو أكبر السدود في العالم، يمتدُّ من أعلاه إلى أدناه إلى نحو 200 متر. صار أهمّ مصادر الكهرباء والطاقة والزراعة والتجارب العملية. وعلى الرغم من تكاليفه الباهظة (نحو 25 مليار دولار) التي لن تستطيع البرازيل والباراغواي إيفاءها قبل عام 2025، تحوّل إلى مركز لاجتذاب السيّاح من كلّ أنحاء العالم، وقامت من حوله الحدائق، وقريباً ستُقام قربه إحدى أهمّ الجامعات لطلّاب أميركا اللاتينية.

في هذا اليوم المائي بامتياز في البرازيل، روى لي أحد مرافقينا قصّة شابّ لبناني قرّر أن يسبح في أعالي الشلّالات فغرق هناك. لم تنقذه قدراته في السباحة فغرق في فم الشيطان. لعل مثل هذه القصّة المأساوية هي التي جعلت الناس تسمّي الشلّال بهذه التسمية. أمّا أنا، فقد كنت أتخيّل أنّ مثل هذا الشلّال قد يُشبِه بعضَ ما في الجنّة.

قلت لرفاق الرحلة ما أفكّر به، فضحك أحدهم وقال: «إذاً هذه الليلة سترى أيضاً نساءً ربّما يشبهْنَ بعض حور العين، لأنّنا سنأخذك لحضور حفل سامبا». قلت له: «أنت صائم يا رجل»، فقال: «هنا في البرازيل إسلامنا متسامح، فنحن نصلّي ونصوم، لكنّ هذا لا يمنعنا من الفرح، ولا شكّ في أنّنا أكثر صدقاً من أولئك الذين يجاهرون بالصلاة والصيام، بينما في قلوبهم شياطين أكثر سوءاً من فم الشيطان هذا».

بينما كنّا عائدين من رحلتنا الرائعة، مررنا من أمام مسجد كبير في مدينة «فوز» اسمه «مسجد عمر بن الخطاب»، وهو أحد أهمّ المساجد وأكبرها مساحةً في أميركا اللاتينية. ثمّ مررنا من أمام حسينيّة اسمها «حسينيّة الإمام الخميني». دعوت الله ألّا تكون فرقة المسلمين قد وصلت إلى هنا، كيلا يخرّبوا هذا الجمال؛ فالإسلام الذي وصل إلى البرازيل مع العبيد الأفارقة، وانتعش مع موجات الهجرة، اللبنانية والسورية خاصَّة، لا يزال، على الأقلّ حتى الآن، بعيداً عن البِدع والتأويلات التي تقتل إبداع الخالق.

لنا عودة إلى الإسلام والمسلمين في البرازيل في مقال لاحق، أمّا الآن فلا بدّ من سهرة مع موسيقى ورقص السامبا. ورقصة السامبا هذه باتت من تراث البرازيل، ومن أبرز معالمها الفنّية، ويقال إنّ أصل الكلمة يعني «السرّة». وهذا صحيح، على الأرجح؛ فما يظهر من أجساد الراقصات والراقصين أكثر ممّا يَخفي. ولو ارتدت الأجساد المنحوتة نحتاً شيئاً من القماش المزركش والألوان الزاهية، فإنّما لتعكس تاريخاً من الحضارات والثقافات الأفريقية التي جاءت هي الأخرى، كما الإسلام، إلى البرازيل مع العبيد. لذلك قد تجد في تعابير وجوه الراقصات والراقصين تناقض الفرح والحزن، والألم والسعادة، والقهر والعنفوان، والخضوع والتمرّد.

ربّما أُخبركم بالمزيد، بعد أن أحضر الحفلة الليلة، وأتمنّى عليكم أن تقرأوا بفرح لا بحسد... ههه. أنا مجرّد ناقل لما أرى، وكما سأنقل روعة السامبا الليلة، سأذهب غداً لأمضي ليلة القدر في مساجد المدينة. الإيمان الحقيقي هو في القلوب الفرحة المحبّة السعيدة، لا في القلوب الحاقدة السوداء التي تدَّعي الدين فتقتل الدين.

مسلمو البرازيل: أبو بكر يستشهد بعليّ

يحلُّ الليل على مدينة فوز البرازيلية. يغفو النهر ملقياً رأسه عليها من جهة، وعلى الباراغوي من جهة ثانية. تظهر في السماء نجمتان تَعِدان بغدٍ أفضل من هذا اليوم الماطر. لا يزعج المطر البرازيليين، ذلك أنّ الارتفاع الشديد للحرارة في الصيف يبدو الأكثر قسوة. ولولا المطر لما كانت البرازيل المنتج الأول للسكّر والبن في العالم منذ أواسط القرن التاسع عشر (نحو 2,7 مليون طن في العام) والمنتج العالمي الأول للصويا (نحو 90 مليون طن سنوياً) والأول أيضاً لعصير البرتقال وثالث منتج عالمي للذرة والثاني للتبغ والثاني أيضاً للحوم (200 مليون رأس ماشية).

المطر بهذا المعنى له نعمتان، الأولى أنّه يثري الزراعة ويزيد عدد المواشي، والثاني أنّه أفضل من قيظ الصيف. لكن في المطر والحرّ، تبدو البرازيل متكيّفة مع كلّ الفصول، وكأنّها لوحة متكاملة من جمال الطبيعة وروعة الخلق.

أنزل في مصعد الفندق العريق. يغسل المطر حافاته وزجاجه، ينسحب ضوء النهار تاركاً مكانه لأضواء المدينة. وفرة المياه هنا تؤمّن الكهرباء في كلّ مكان، فتطلّ مصابيح الطرق برأسها بين الأشجار كأنّها عيون الغابة تحرس سكّان المدينة من عتمة الليل. كأنّما في النجمات صوت السيدة فيروز يقول لنا في هذا الليل البرازيلي «سهار بعد سهار».

يدعونا بعض الأصدقاء إلى مطعم ياباني. سرعان ما يحضر العصير البرازيلي إلى الطاولات. معظم المطاعم في مدينة فوز تفتح أبوابها في هذا الشهر الفضيل باكراً تماشياً مع إفطار رمضان. الجالية العربية وخصوصاً اللبنانية لها تأثير واضح على المؤسّسات والمطاعم والمرافق الحيوية لأنّها الأكبر والأغنى والأكثر حيويّة. تنتشر على الطاولات وجوه الحسناوات البرازيليات. قلّما يجتمع تحت سقف واحد، وفي مكان واحد، كلّ هذا الجمال. لا بأس هنا إن جالَس شابٌ لبناني ملتحٍ فتاة برازيلية فارعة القامة شقراء الشعر ممشوقة الجيد كقصبة سكّر مكشوفة البطن قليلاً. لا بأس إنْ اصطحبها إلى إفطارٍ رمضاني، فهنا الإيمان لا يلغي الحبّ. وهل يستوي الإيمان بلا حبّ؟ أوَليس الإيمان نفسه هو الحبّ الخالص. لا بأس كذلك إن كان جزء من الإفطار في مطعم ياباني، ففي البرازيل تختلط الثقافات والعادات والأعراق، كما تمتزج النغمات في أوركسترا عالمية لتنثر سحرها على مسامع الحاضرين.

بين أصدقائنا العرب في البرازيل، أتعرّف الليلة إلى محمّد، وهو خمسيني السنّ، سَمْحُ المحيّا، ذو لحيةٍ مشذّبة بإتقان، وعيناه توحيان بالثقة والمحبّة. جاء إلى البرازيل عام 1982. عمل في التجارة. مالَ قلبُه وعقله إلى الشعر. يتحرّك وجدانه سريعاً حين تذكُر له لبنان أو البقاع الذي جاء منه. يفيض الشوق في وصفه لشجر التين والزيتون والتفاح والعنب وعريشة الدار. يحدّثنا عن عائلته. ثلاثة شباب، بكر وعمر وعليّ. أسماء صار مجرّد جمعها في بيت واحد إنجازاً في زمن الفتن الغبيّة التي دفعت المسلم إلى قتل المسلم.

يتحدّث أبو بكر عن الوعي والصداقة والمعرفة فيستشهد بالإمام عليّ. يروي كيف أنّه يقرأ نهج البلاغة منذ عشرين عاماً. يشيد بخصال الإمام ونهجه وعمق فكره.

يروي لنا محمّد عن استقباله أمس رجل دين سنّياً كان قادماً من كندا إلى مدينة فوز البرازيلية، وكيف ذهبا معاً إلى حسينية المدينة للمشاركة في اليوم العالمي للقدس. لا تزال القدس هنا حاضرة بأكثر من حضورها حتى بين أهلها في فلسطين.

يتلو علينا قصائد كثيرة حفظها عن ظهر قلب وبينها القصيدة – المعلقة عن القدس للشاعر الفلسطيني الفذّ تميم البرغوثي. تلتمع عيناه وكأنّهما ستدمعان. يسوّي الكوفية الفلسطينية حول عنقه، يتناول جرعة من عصير كايبيرينا البرازيلي، ويُكمِل رواية عشقه لفلسطين، ورواية قلبه الذي لا يفرِّق بين سنّي

وشيعي، ولا بين مسلم ومسيحي.

ليس أبو بكر حالة فريدة في مدينة فوز البرازيلية، فأمثاله من ناشدي الوحدة الإسلامية كُثُرٌ. هنا، تبدو الطبيعة الخلّابة وهناء العيش أقصر الطُرق وأصدقها إلى حبِّ الله وسبيل الوصول إليه. لم يعبّد ذلك الطريق بالبدع والتأويلات إلا مَن يدّعون الدين وهم له قاتلون، ولم يحمِ طريق الله إلا من حملوا الله والإيمان في قلوبهم.

في مدينة فوز حسينيّة تحمل اسم الإمام الخميني، يشرف عليها إمام شيعي راقٍ وواعٍ ومنفتح اسمه الشيخ محمد خليل. عرف هذا الشيخ الخمسيني وإخوته وأخواته من الأساتذة المؤمنين، كيف يرسِّخون الحبّ والدين الحنيف في عقول الجالية العربية، وعرفوا كيف يقرّبون دين الله من قلوب البرازيليين فاعتنق بعضهم الإسلام.

وفي مدينة فوز جامع رائع يحمل اسم عمر بن الخطّاب أُسِّس عام 1982، لا يوازي جمال النقش على جدرانه، سوى نقش الثقافة والتسامح في عقل إمامه عبد الناصر الخطيب. شيخ منفتح ومثقف ومولود في البرازيل. لا أدري إن كان اسمه اختيرَ له تيمُّناً بالزعيم العربي الراحل. كنت أودّ أن أسأله عن الأمر لكنّي نسيت حين سمعته يتحدّث عن تقارب القلوب مع الطائفة الشيعية هنا، وعن علاقة الودّ التي تربطه بالشيخ محمّد خليل، تماماً كما سمعت من الشيخ خليل المديح نفسه بالجامع وإمامه.

كنت، وأنا أقطع المسافة بين الحسينية التي تضمّ مدرستها أيضاً طلّاباً من السنّة والدروز والبرازيليين، والجامع الذي تضمّ مدرسته أيضاً طلّاباً من الشيعة والدروز والبرازيليين، كنتُ أفكّر بذلك الجهل العربي والجهل الإسلامي عند أولئك الذين رموا هذه الأمّة وأديانَها وطوائفَها في أتون الظلامية، وانزلقوا إلى فخاخ إقليمية ودوليةٍ يعرفون قبل غيرهم، أنّهم آخر المستفيدين منها، وأنّ إسرائيل أكثر الفرحين بكلّ نقطة دم إسلامية أو عربية تُراق بسكّين إسلامي أو عربي.

رحت أسير في شوارع هذه المدينة البرازيلية، وبعض رذاذ المطر يرتطم بوجهي، أو يخترق بعض ثيابي. تحضرني في سَيْري صور فتيات أزيديات ومسيحيات ومسلمات يجري بيعهنّ في أسواق النخاسة، وسط هذه الغابة من الفتن التي ابتُلينا بها. كم تشبه هذه المشاهد، صوراً أخرى لملايين العبيد الذين كانت تسوقهم أوروبا إلى أسواق النخاسة الدولية، وترسلهم إلى البرازيل وغيرها بالقوارب. اثنا عشر مليون أفريقي بيعوا في القرن السادس عشر، الكثير منهم حملوا قهرهم وذلّهم وأجسادهم المنهكة إلى البرازيل. بعضهم مات في عرض البحر، وبعضهم قتلته سياط وسيوف بائعيهم، والبعض الآخر جاء إلى هنا حاملاً معه آيات القرآن الكريم.

مارست أوروبا الرقَّ والعبودية أربعمئة سنة. أسّست لمآسٍ وحشيّة لم يحاسبها أحدٌ عليها، سبقت داعش بقرون. ثلاثون في المئة من القوّة العاملة في البرازيل أثناء الاستعمار البرتغالي كانوا من العبيد.

تلك كانت البذرة الأولى لوصول الإسلام والمسلمين إلى البرازيل. جاؤوا عبيداً من أفريقيا. تعرّضوا للقهر والسحق والقتل والسخرة. انتفضوا مراراً وأُبيدوا مراراً. لا تزال دماء ثورتهم عام 1835 حاضرة في القلوب والروايات والصور. لم يُثنِهم القتل والقهر عن تأسيس المدارس والمساجد. برزت منهم وجوه ثورية إسلامية مشرقة. الشيخ دندارا الذي ما إن أُعتِق من عبوديته وصار ثريًّا حتى وظّف ثروته لخدمة الإسلام؛ ومالام بوبكر أهونا، القائد الكاريزمي لثورة العبيد، الذي يصفه البعض بـ«مالكوم إكس» البرازيل؛ والشيخ الحكيم سنين الذي أسّس أولى المدارس الإسلامية.

كلّ محاولات القتل والقهر وطمس الهويّة والانتماء، عبْر محاولات التنصير، لم تنجح. بعضهم اضطُرّ لاعتناق المسيحية، ومعظمهم بقي على إسلامه. وصل عددهم في القرون السابقة إلى نحو مئة ألف مسلم. واليوم، تتفاوت الأرقام، يتحدّث البعض عن بضع مئات من الآلاف، ويقول آخرون إنّ العدد

فاق المليون، ويؤكّد البعض الثالث أنّ عدد المسلمين ربّما وصل إلى ثلاثة ملايين مسلم.

تتفاوت أيضاً التوقعات. ثمّة من يخشى على المسلمين من الاندثار في مجتمع علماني عرف كيف يستوعب المهاجرين ويحميهم ويُحِبّهم، لكنّ ثمّة من يقول إنّ الإسلام بخير هنا، وإنّ برازيليّين كُثُراً يعتنقون الدين الحنيف، فبعض المؤرّخين يتحدّثون مثلاً عن خمسمئة عائلة اعتنقت الإسلام في ريو ديجينيرو في السنوات القليلة الماضية.

مع ذلك، يبقى الإسلام ضئيلاً في بلد يضم مئتي مليون نسمة. معظم الهجرات المشرقية إلى البرازيل كانت من المسيحيّين. لكنْ، ثمّة قلقٌ مزدوجٌ يشعر به زائر هذه البلاد المتعدّدة الأعراق. فمن جهة هناك خشية من تمدّد الموجات الأصولية عبر تدخلات خارجية، يبدو أنّها تُطِلّ برأسها البشع منذ فترة، ومن جهة ثانية فإنّ الحضور الأميركي القويّ في الباراغوي المجاورة وتعيين إسرائيل سفيراً للمرة الأولى هنا، وهو برتبة جنرال، يكثّف احتمالات اختراع طابور خامس لإضعاف الجاليات العربية واتّهامها بالتطرّف والإرهاب.

يروي أحد أبناء الجالية كيف فبركَتْ تلفزة أميركية صورةً لأسامة بن لادن عند الشلّالات الشهيرة في فوز. يروي آخر عن الضغوط التي بدأ التجّار اللبنانيون في الباراغواي يشعرون بها، والتي يُراد تصويرهم عبْرها على أنّهم يدعمون حزب الله. ويؤكّد ثالث أنّ الجنرال الإسرائيلي الذي عُيِّن سفيراً لإسرائيل في البرازيل، يضع خططاً لجعل حرّاس الرئيس من الموساد. إن حصل هذا فعلاً، فلا شكّ في أنّ كبار التجّار والمستثمرين من أبناء الجنوب اللبناني سيشعرون بالقلق.

كان الليل يُرخي وشاحَ الحرير والمطر على تلك المدينة البرازيلية الواقعة عند حدود الباراغواي والأرجنتين. كانت نجمة شبه وحيدة تعتلي السماء كأنّها حسناء برازيلية بين حشد من المعجبين. لم نجد في ليلة القدر، في هذا الشهر الفضيل، سوى الدعاء لكي يجنّبنا الله المزيد من الفتن، ولكي يُبقي مسلمي البرازيل، سنّةً وشيعة، على المحبّة نفسها، بعيداً عن أيّ تدخّلات خارجيّة، لأنّ وحدتهم جعلتهم أفضل وأقوى الجاليات الأجنبية في الدولة التي عرفت هي الأخرى كيف تحبّهم وتحتضنهم. ربّما لم نعد نسمع إلّا في البرازيل أبا بكر يستشهد بعليّ، وإمام مسجد الإمام الخميني يصلّي في مسجد عمر.

Favelas البرازيل: أحياء البؤس وإرادة الحياة

لو أنّي صدَّقت ما قرأته عن أحزمة وأحياء البؤس في البرازيل، لما زرتها. معظم الكتب السياحية والاجتماعية الغربية تصوِّر تلك الأحياء بأنّها مسارح للجريمة والمخدِّرات والاغتصاب والقتل والنهب. لكنّي، لحسن الحظ، ما صدَّقت ذلك، وقرّرت أن أذهب هذا الصباح إلى قلب تلك الأحياء، لأرى ناسها وأجول بين زواريبها، وأصعد أدراجها، وأصافح الفقراء فيها، لأنّ الفقراء وحدهم يحتفظون بحقيقة الحياة، أمّا الأثرياء فيخترعون أوهام سعادة، ويصدّقون أنّهم سعداء. قد يشتري المال قصراً، أو جزيرةً، أو أطيب المآكل وأجمل الملابس، لكنّه يبقى عاجزاً عن شراء حفنة سعادة وفرح، من ذاك الفرح الذي ينساب من بيوت الفقراء.

قالت السيدة البرازيلية بنبرة صوتٍ يَشي بأنّها في منتصف العمر: «صباح الخير يا سيّدي، سنمرّ لنأخذكم من الفندق إلى Favels». ضَحِكتْ حين سألتُها عن إمكانية أن آخذ معي كاميرا وبعض النقود. لا شك في أنّها أدركَت تأثّري بالدعاية الغربية، وبجهلي لتلك الأماكن التي تحتضن ملايين الناس. قالت بلهجة الواثق من نفسه: «خذ ما شئت يا سيّدي، لن تتعرّض لأيّ أذى». صدّقتها. الأذن أيضاً قد تصدّق قبل العين أحياناً.

في أحياء الفقراء في البرازيل.

انحنيت قليلاً عن حافة السرير، لأوثق شريط حذائي الرياضي. تحسّست جيبي الخلفي للتأكّد من أنّي وضعت بعض المال فيه. شربت ما يكفي من الماء. سوّيت سترتي الواقية من المطر. سحبت بطاقة مفتاح الغرفة من علبته على الجدار، من دون أن أنظر خلفي. أشفقت قليلاً على عاملة التنظيفات، لأنّها لا شكّ سترى الكثير من الأوراق وقصاصات الورق وبعض الأكياس البلاستيكية، وكثيراً من ثيابي فوق السرير والكنبة والطاولة، وفوق الحقيبة وتحتها. لم يتسَنَّ لي الوقت لتوضيبها، لأنّي لا أريد أن أضيّع دقيقة واحدة من هذه الرحلة المحفوفة بالمغامرة والقلق وحبّ الاطّلاع على أوضاع الفقراء عن قرب.

تصل السيّدة البرازيلية بسيّارتها الواسعة. هي تماماً كما تخيّلتها، أكبر بقليل من منتصف العمر، شعرها أشقر غير مصفف، وجهها شاهد على مرور العمر، وربّما على تعب العمل الاجتماعي والإنساني. رسم العمر على وجهها خيوط حكمة يسمّونها جهلاً تجاعيد. لا شيء يناقض قسوة السنين والعمل سوى ابتسامتها الودودة وأسنانها الناصعة البياض. فكّرت بالسيّدات عندنا، اللواتي يأتي بعضهنّ إلى البرازيل بشفاه رفيعة وصدور معقولة، ثمّ يعُدْنَ وكلّ شيء فيهنّ قد انتفخ سوى العقل والثقافة.

ترحّب السيّدة الخمسينية باسمةً، كما يفعل كلّ أبناء البرازيل. تواصل النظر أمامها وتمدُّ يدَها إلى أسفل الواجهة الأمامية لتأخذ هاتفها المُلقى هناك، من دون اهتمام واضح. تتّصل لتخبر شخصاً بأنّنا أوشكنا على الوصول إليه. همَمْتُ بسؤالها عن الشخص الذي تتّصل به، ثمّ أحجمتُ لمعرفتي بأنّها تعرف تماماً ماذا تفعل.

ها نحن أخيراً على الجسر القائم عند أقدام أحد أكبر أحياء البؤس في ريو ديجينيرو. بيوتٌ متراكبةٌ بعضها على بعض. قليلها يوحي بالثبات، وكثيرها ينذر بالسقوط عند أول عاصفة مطر، أو غضبة نهر. على الجسر تنتظرنا شابّة من أبناء ذاك الحيّ. مربوعة القامة، سمراء المحيّا، قويّة البنية، تبدو ذات تاريخ اجتماعي صعب، أو أنّها عاشت التشرّد وقسوة الحياة. على وجهها أثرٌ لطعنة سكين. تبتسم وتسألنا عن اللغة التي نفضّل أن تحدّثنا بها. نميل صوب الإنكليزية، لأنّ بعضنا لا يعرف الإسبانية ولا البرتغالية. فتقول لنا: «لا بأس. فليكُن». وننطلق في رحلتنا.

يا عزيزي القارئ، لماذا لم تسألني ماذا تعني كلمة Favelas؟ عذراً منك، لقد فاتني أن أشرح. هذا اسمٌ برتغالي لشجيرة خضراء أوراقها واسعة. ينبُت منها الكثير عند سفوح الجبال، ويتسلّق بعضها حتى منتصف الجبل. قامت بيوت الفقراء بينها، فاستعارت منها اسمها.

في عام 1964 كان كلّ برازيلي من أصل 14 برازيلياً يعيش في هذه الأحياء. واليوم، تشير التقديرات إلى 3 ملايين شخص يعيشون في Favelas ريو ديجينيرو وحدها. (أي عشرون في المئة من مجموع سكّان المدينة). وفي ريو وحدها توجد 1020 Favelas، وفي ساو باولو أكثر من 1200.

توحي دليلتنا السياحية بأنّها هي الأخرى من الفقراء. وسرعان ما تأكّدنا من ذلك. تخبرنا عن والدها الذي مات بسرطان البروستات. انتظر عشر سنوات حتى استطاع تأمين فحص طبيّ لحالته، ثمّ انتظر عامين لإجراء العملية. مات. قتله الفقر.

لم تخبرنا دليلتنا بذلك لتحنّن قلوبنا، أو لتستعطفنا رغبةً بالمال. على العكس تماماً، بدت شامخة عزيزة النفس معطّرة بالكرامة كما كلّ الفقراء. هي تريدنا فقط أن نشرح للعالم أنّ في هذه الأحياء الفقيرة، أناساً طيّبين يغالبون الحياة بما تيسّر، لا يؤذون أحداً، ولكنّهم يريدون شيئاً من كرامة. نلِجُ معاً زقاقاً ضيّقًا يشبه زواريب مخيّمات البؤس والذلّ الفلسطينية في لبنان. يمرُّ بجانبنا شابٌّ ما زال وجهه يحمل أثر جرح قديم. تتقاطع أنظارنا مع سيّدة تحمل على رأسها أنواعاً من الفاكهة وأشياء أخرى. تنساب إلى مسامعنا ضحكات الصِّبْية في الزواريب المجاورة. نسمع كاملَ المكالمة الهاتفية التي

تُجريها السيّدة المنحنية قليلاً على شرفتها تنظر إلينا وتتابع الكلام. تبدو حافة الشرفة سنداً مفيداً لصدرها العارم. تبتسم لنا حين تلتقي نظراتنا وعيناها. لعلها فهمت سوء نيّتنا. تلتمع عيناها الخضراوان فوق مئات الكابلات الكهربائية. يُخشى من الصحن التلفزيوني اللاقط، المُثبَّت في الجهة العليا من فوقها، أن يسقط على رأسها. لا أحد غير الله يعرف كيف تعمل كلّ هذه الأشرطة والكابلات المتداخلة بفوضى هائلة. لكنّها تعمل.

نمرّ قرب نهر يخترق أحياء البؤس. تقول دليلتنا إنّ المصيبة التي يعاني منها السكّان هنا، هي الأمراض المنبعثة من هذا النهر المكشوف الذي تصبُّ فيه كلّ المجارير. تبتسم وهي تشرح لنا كيف أنّ كلّ المرشحين للانتخابات يزورون هذه الأحياء في أوقات الانتخابات، ويعِدون بإلغاء هذا النهر، ووضع حدّ نهائي له. لكنّهم «إذا فازوا في الانتخابات، لا يعودون إلى تلك الأحياء أبداً، وإذا سقطوا لا تعود الأحياء تقصدهم في شيء». تقهقه بضحكتها الخبيثة والمحبَّبة والذكيّة. هل أحدّثها عن كذب ساستنا ووعودهم الخاوية كرؤوسهم؟ لا، لا يا رَجُل، ما لك ولبلادك الآن. تابع الرحلة.

ننتقل من زاروب إلى آخر يتعرّج صعوداً بين البيوت الفقيرة. بنايات يتراكب بعضها فوق بعض. لا يدري غير الله كيف أنّها لم تهوِ بعدُ. تنساب موسيقى السامبا وموسيقات أخرى من الطوابق العليا. تشرح دليلتنا أنّ الجيران هنا يسمعون الجيران. إن تخاصم شخص مع زوجته يسمعه الحيُّ كله. وإن أُصيب أحدٌ بمرض، سمع أنينَه أهلُ الحيّ جميعاً وسارعوا إلى إنقاذه. وإذا مارس رجل الحبّ مع زوجته أو حبيبته أو خليلته، أنصَتَ كلّ الحيّ إلى أصواتهما... تضحك مجدَّداً. تحضرني روايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدّوس وغيرهما... أتخيّل المشهد. أبتسم.

يبعث النهر بأمراضه المعدية إلى سكّان هذه الأحياء الفقيرة التي ليس فيها سوى عيادتين خاصّتين يقصدهما من كان في حوزته بعض المال. أمّا المستشفيان القائمان هناك فهما للديكور فحسب.. والسبب؟ ببساطة، لا أطبّاء يعملون فيهما. تضحك. منذ فترة بدأ بعض الأطبّاء يأتون إلى هنا من كوبا. نضحك جميعاً. في هذا الحيّ-المدينة مدرستان لكن هما أيضاً بلا معلّمين.

CALÇADOS E ACESSÓRIOS

يخال المرء أنّ الناس يموتون هنا من الفقر والجوع والمرض. كلا. إنّهم متضامنون، متكاتفون، متعاضدون. يتبادلون ما تيسّر لهم من قوت يوميّ. يصنعون لحياتهم أسباب السعادة. يصل بعضهم إلى قمّة النجومية، وخاصّة في كرة القدم. من هنا انطلق لاعبون عالميون منهم زيكو. وفي هذه الأحياء الفقيرة ثلاث إذاعات محليّة وصحيفتان ومجلة. ومن هنا كان تلفزيون غير شرعي يبثّ برامجه. تغيّرت بعض الأحوال مذ وصلت الشرطة إلى داخل الأحياء قبل ثلاث سنوات. تمدَّد الحيُّ قليلاً، دخله بعض التنظيم، أُضيف إليه حيٌّ آخر أكثر أناقة وحداثة. كانت فترة انتخابات.

لماذا هذا الإهمال؟ سألتُ دليلتنا التي كلما أكثرنا من الحديث معها، فاضت علينا بمرَحِها المناقض تماماً لبؤس الحال. تنقر بإصبعها على رأسها. ترفع الإصبع صوب السماء. تلتفتُ نحوي برأسها المستدير، فتهتزُّ وجنتاها المنتفختان قليلاً. تبتسم وتقول: «لا يريدون مساعدتنا لأنّهم يرغبون في القضاء على هذه الأحياء. هل ترى هذا الجبل فوقنا؟ حاول أن تصعد إلى قمّته وأن تنظر منه إلى الجهة المقابلة، لترى هناك مدنَ الثراء وأحياء الأغنياء والشواطئ الغنيّة. لكنّنا متمسّكون بأحيائنا وفقرنا، وسنواصل النضال. هم يريدون لنا أن نيأس، وأن نفكّر بالانتقال إلى مكان آخر، لكنّنا لن نفعل ذلك».

سألتُها: «ألا تفكّرين بمغادرة هذه الأحياء؟» قهقهَتْ وأرجعَتْ رأسها إلى الخلف، تنظر صوب البيوت العالية، ثمّ تخفض ناظريها وتوجّههما نحوي. ترفع سبَّابتها كمن يريد التحذير، وتقول: «لو أعطيتني مال العالم لما غادرتُ هذه الأحياء؛ الناس هنا يحبّ بعضهم بعضاً، ويفضّلون العيش هنا على العيش في أيّ مكان آخر في البرازيل أو في العالم. وُلِدْت هنا وسأموت هنا، لكن أتمنّى ألّا أموت من أمراض النهر». وتقهقه مجدَّدا.

لم أجد ما أقوله لها، سوى أنّني ضمَمْتُها إليّ، وقبَّلتُها على جبينها، وتمنَّيت لها ولأهلها حياة تليق بقلوبهم الكبيرة الصافية. هنا يتأكّد المرء من أنّه على الرغم من الفقر والقهر والجريمة والمعارك مع الشرطة وسقوط قتلى بين وقت وآخر، فلا علاقة للكرامة والسعادة بالفقر. كم من أثرياء هذا العالم يعيشون مسحوقي الكرامة، محرومين من هناء العيش، غارقين في الفساد.

ركبت السيّارة، ولوّحت لها بيدي حتى غابت عن ناظري. أغمضتُ عينيَّ قليلاً، وكانت رائحة السوق والخضار والأسماك والنهر تلاحقني، كأنّها تقول: «الفقر لا جنسية له ولا لون، وما يسمّى هنا الأحياء الفقيرة (Favelas)، يسمّى هناك مخيّم صبرا، وقد يكون حيًّا في مقديشو، أو ضاحية في صنعاء، أو في مدغشقر».

ساو باولو، معقل الرهبان
واللبنانيين والسوريين، تناطح السحاب

تسلّل أول شعاع شمس إلى غرفتي هذا الصباح. خِلتُه يريد إيقاظي من النوم العميق. لا تستغرق الرحلة بالطائرة بين مدينة فوز البرازيلية الساحرة بشلّالاتها وطيورها وأهلها وغاباتها، وبين ساو باولو العاصمة الاقتصادية للبرازيل، أكثر من ساعتين. لكن المطبّات الجويّة لم تسمح لعينيّ بأن تغفوا قليلاً. إن حاولت النوم، فإنّ الرجل الضخم الجاثم قربي وعلى كتفه زوجته النحيلة سيتكفّل بإيقاظي، بشخيره الأقوى من هدير محرّك الطائرة. كان بعض شحم بطنه يتمدّد صوب مقعدي فأحاول حشر جسدي وعصره قليلاً صوب اليسار. الغريب أنّ زوجته الملقية رأسها على كتفه كانت تنظر إليه بحنان الأم وكأنّ شخيره المزعج سمفونية نادرة. رحم الله أبا العلاء المعرّي القائل:

إذا شئت أن تلقى المحاسنَ كلَّها / ففي وجهِ من تهوى جميعُ المحاسنِ

أمّا أنا فردُّدت قولَ قيس لبنى:

وإنّي لأهوى النومَ في غيرِ حينِهِ / لعلَّ لِقاءً في المنام يكونُ

اللقاء المنشود اليوم هو مع ساو باولو. وصلت إليها مع الأخبار المفرحة عن الاتفاق الإيراني-الغربي. قلتُ، ما دامت إسرائيل منزعجةً حانقةً إلى هذا الحدّ، فلا بدّ من أن العالم سيكون أفضل. نجحت استراتيجية «مرونة المصارع» التي رفعتها إيران شعاراً لاتفاقها. التهنئة (برافو) لدبلوماسيتها العريقة المستندة إلى القوّة لا إلى الضعف، خلافاً لما كان شأننا منذ كامب دايفيد، مروراً بمدريد وأوسلو وغيرها. والتهنئة للرئيس باراك أوباما الذي قفز فوق كلّ الضغوط الصهيونية في إسرائيل، وفي كونغرسه، ومضى في الاتفاق. وبورِكَ للإمارات أولى دول الخليج التي بادرت إلى التهنئة. لا بدّ من فتح صفحة جديدة بين إيران وجوارها العربي. كفانا دماءً وفتناً، بينما العالم يتطوّر ويتقدّم. فكّرت أن أُغيِّر مسار مقالاتي، فأكتب عن الاتفاق بدلاً من البرازيل. قرأت كثيراً ممّا كُتِب، وقلتُ لا شكّ في أنّ الناس في تخمة من السياسة والتحليلات. لِنُكمل إذاً هذه الرحلة الممتعة. فبعد ريو ديجينيرو وفوز دي غواسو، وصلنا إلى مدينة الأبراج وناطحات السحاب وتاريخ الهجرات وإلى ديارٍ قصدها أجدادنا اللبنانيون والسوريون قبلنا بأكثر من مئة عام.

أيقظني شعاع الشمس. فرحتُ بهذه الحرارة الصباحية التي تسللت إلى مسامّ جسدي. مَدَدْتُ يدي إلى الطاولة الصغيرة قرب السرير، أبحث عن هاتفي. وقع أرضاً. تركتُه مُلْقىً على الموكيت. لا حاجة للهواتف اليوم. إغراء الخروج للتمتّع بهذه المدينة البرازيلية يجبُّ كلّ ما قبله.

BOSS

تحار يا قارئي العزيز ماذا تسمّي هذه المدينة وكيف تصفها. إن عدتَ إلى التاريخ، فستجدها معقلَ القدّيسين الزاهدين الورعين. وإن جئتَ إلى الحاضر، فستراها عاصمة المال والأعمال والتجارة والمتاحف والمهرجانات والدعارة والمتحوّلين جنسياً. لا أدري لماذا كلّما فكّرت بالمتحوّلين جنسياً، تحضرني صور بعض رفاقنا القدامى في اليسار الذين تحوّلوا إلى غلاة الإسلاميين. لا نجحوا في اليسار ولا أبدعوا عند الإسلاميين، فلا هم زادوا في الإسلام خردلةً، ولا اليسار بكى فقداً لهم. فسقطوا مرّتين. تحضرني أيضاً صور بعض جهابذة ساسَتِنا الذين انتقلوا من مهرجانات الفقراء والبروليتاريا والخطب العصماء دفاعاً عنهم، إلى نهب الفقراء والرقص فوق أجسادهم. هنا الدعارة جسدية، وهناك الدعارة أخلاقية وسياسية ودينية. نعم، من يدَّع الدين وهو قاتل له لا يختلف في دعارته عن بنت هوى واقفة هنا على قارعة الشارع. ومن يدَّع العفّةَ السياسية وهو يسلب الفقراء رزقهم ويزرع في الأرض فساداً، لا يختلف عن بنت هوى تبيع جسَدها لكلّ عابر سبيل، أو «عابر سرير»، بحسب رواية الأديبة الجزائرية أحلام مستغانمي.

عذراً عزيزي القارئ. ابتعدنا قليلاً عن الموضوع. لِنَعُد إلى البرازيل.

أخذت ساو باولو التي ترتفع عن البحر 750 متراً، اسمها من الآباء اليسوعيين. جاؤوها عام 1554 ليبنوا على تلالها أديرتهم. كانت مهمّتهم آنذاك تسمّى «القديس بولس»، وبولس تُلفَظ باللاتينية «باولو» (Paulo) لكن كما كان النفط نقمة على العرب، حيث تبدّد ماله في المصارف الأميركية، وجلَبَ لنا كلّ الحروب والويلات، وموّل انقساماتنا، وأنعش مصانع السلاح الأطلسية، فإن اكتشاف الذهب في ميناس جيراس، قَتَل بذرة الدين المسيحي، وزرَعَ مكانها بذورَ الجشع والطمع، لدى كلّ الطامعين في جمع الثروات من الذهب. وكما ابتُلينا نحن العرب بنهب ثرواتنا من دولٍ تقتلنا بثرواتنا، فإنّ ثروة الذهب البرازيلية نهبتها البرتغال الدولة المستعمرة آنذاك. ما إن حلَّ القرن التاسع عشر حتى اكتشف العالم أهمّية الذهب البرازيلي الآخر، وهو البن. حوَّلَتْ تجارة البن ساو باولو من مدينة صغيرة إلى أكثر مدن أميركا اللاتينية نهضةً وحداثة واقتصاداً وصناعة وتجارة. وحدَنا لا نزال نسمّي القهوة العربية «قهوة تركية». كأنّما إسطنبول أو أنقرة هي مزارع البن! لا بأس، التاريخ لا يكتبه إلّا المنتصرون. آنذاك كانت الدولة العثمانية تنتصر على جثثنا.

خرجتُ من الفندق أسير في شوارع ساو باولو. الحرارة متوسّطة الارتفاع هذا الصباح. نسمات الهواء تزيد في لطافتها. أقِفُ عند مفترق طرق. أتساءل أيّ الاتجاهات أسلك؟ يقف بجاني شابّ ياباني الوجه. أفكّر بأنّه ربما مثلي وصل حديثاً لاكتشاف المدينة. يرنّ هاتفه ونحن بانتظار إشارة السير. تذهلني طلاقته باللغة البرتغالية البرازيلية. هو إذاً برازيلي. أسأله عن أفضل الاتّجاهات، يرشدني إلى وسط المدينة. أشكره بكلمة «Obrigado» البرازيلية، يبادلني الشكر بكلمة «تشاو» رافعاً يده، وعابراً الشارع بسرعة.

ليس غريباً أن نجد يابانياً يتحدّث بطلاقة لغة هذه البلاد. منذ عام 1908 بدأت الهجرة اليابانية إلى البرازيل. تضمّ ساو باولو وحدها أكبر عدد من المهاجرين اليابانيين في العالم. الجيلان الثاني والثالث منهم باتوا يسمَّون «Nissei». كلمة تعني مزيج الدم الياباني والبرازيلي.

أسير في الشوارع، بين ناطحات السحاب. بعضها أنيق الهندسة شاهق الارتفاع. بعضها الآخر يشبه جسد جارتنا في بيروت، متنوّع التضاريس غير المتناسقة. تحت الناطحات وعند المفترقات أجد شبَّانا من «الهنود» الأصليّين يبيعون مصنوعات يدوية من ريش الطيور. لعلّ أجدادهم كانوا هنا في غابر العصور، تحت خيمة وحول معمودية نار. لعلهم لم يألفوا بعد هذا الإسمنت المسلح يغزو سماءهم وأرضهم بالرغم من مرور الأجيال والسنين. شيء ما في وجوههم يوحي بالحزن والتعب. أكاد أقول لهم لا بأس، فالسياسة الأميركية استبدلت منذ عقود «الهنود» الحمر بـ«الهنود السمر»، وراحت تصول وتجول على جثثنا. ليس ذنبها، إنّه أبداً ودائماً ذنبنا. كلّ الدول تسعى لتحقيق مصالحها، إلّا نحن

نسعى لتحقيق مصالح الجميع، ونبيع بلادنا في أسواق النخاسة.

بين الناطحات وتحت السماء الصافية تنتشر في معظم الشوارع مطاعم البيتزا الإيطالية. ستسألني لا شكّ، يا عزيزي القارئ، ما علاقة البيتزا بالبرازيل. سؤالك في محلّه، والإجابة عنه: هي كعلاقة الهندي والباكستاني والأفغاني بدول الخليج. هاجر العمّال الطليان إلى البرازيل بحثاً عن الذهب وتجارة البن والعمل، تماماً كما يهاجر أبناء آسيا إلى الخليج بحثاً عن لقمة العيش. تقول الإحصاءات إنّ في ساو باولو أكثر من 3 ملايين شخص إيطالي، أو من أصل إيطالي. إن شككت في هذا الرقم، فما عليك سوى أن تنظر إلى مئات المطاعم الإيطالية.

تمازجت الحضارات والأعراق والأجناس والألوان في ساو باولو منذ بداية القرن التاسع عشر. ترافق عتق العبيد مع وصول المهاجرين من كلّ حدب وصوب. أمّا مِن خَلفِ حَدبِنا العربي، فكان اللبنانيون والسوريون في طليعة المهاجرين. بينهم أعمامي الذين عاشوا هنا وماتوا هنا، وأنا حالياً أبحث عن ذُرِّيتِهم.

لا يكاد يخلو قطاع أو برلمان أو نقابة أو مؤسّسة من وجود لبناني أو سوري. ربّما فاق عدد هؤلاء سبعة ملايين شخص. بينهم من وصل إلى أن يرشّح نفسه ليكون رئيساً للبلاد، ومنهم مَن تبوّأ منصب نائب رئيس أو حاكم ولاية، وكثيرون منهم صاروا نوَّابا ووزراء. ساعدهم في ذلك غلبة المسيحيين بينهم، فاندمجوا سريعاً في هذا المجتمع المختلط. ولو سألت اليوم عن أشهر مستشفى، لا في البرازيل وحدها، بل في أميركا اللاتينية قاطبةً، لَقيلَ لك: المستشفى السوري اللبناني (Hospital Sirio Libanes). لماذا نبدع حين نهاجر، ونسهِم في بناء أوطان غيرنا، أمّا أوطاننا فنُبدِع في تدميرها، وندفع أبناءها للهجرة؟

ربّما لأن مجتمعات كالبرازيل تجعل الدولة أهمّ من العصبيات، فيذوب فيها الجميع، أمّا عندنا فأصغر العصبيات والمذاهب والعائلات والعشيرة والقبيلة أهم من الدولة والوطن. لن تقوم لنا أوطان ما دمنا مستمرّين في انتخاب زعيم القبيلة.

أغنياء ساو باولو في السماء، وللفقراء عربات الموز

منذ ساعات الصباح الأولى، تَمخر الطائرات ومروحيات الهليكوبتر عباب السماء فوق ساو باولو. لو أنعمتَ النظرَ قليلاً، فلا تعجبٍ إن رأيتَ مروحية تهبط على سطح بناية شاهقة من ناطحات السحاب. اخترعت المدينة لأغنيائها متنفَّسا يَقيهم زحمة السير، فقرَّرتْ نقلَهم إلى السماء: تسير في شرايين ساو باولو 5 ملايين سيّارة يومياً. 20 في المئة منها ممنوعة قانوناً من السير، لكنّها تسير. يغرق سكان العاصمة الاقتصادية للبرازيل بزحمة خانقة. (لو جاؤوا إلى بيروت أو القاهرة لاعتبروا الزحمة عندهم مزحة). تضخّم عدد السكان على نحو لافت، في العقود التي تلت اكتشاف الذهب وتجارة البن وهجرة الناس صوب المركز الاقتصادي الأول. كان عدد السكان في عام 1950 لا يتعدّى 2,2 مليوني نسمة في ساو باولو، صار اليوم يفوق 19 مليوناً في النهار، وفي الليل، يغادر ساو باولو جزءٌ منهم، لينام في الضواحي أو في المناطق الأبعد.

وإن أردتم تفصيلاً أكثر دقةً، فإن 10 في المئة من البرازيليين يعيشون في ساو باولو ليشكّلوا واحدة من أكثر النسب الديمغرافية كثافة في البلاد، ذلك أنّهم يقطنون على 1 في الألف من مساحة البرازيل.

أعرف عزيزي القارئ أنّ الأرقام والنسب ليست مرغوبة في أدب الرحلات وقصصه. فلندع إذاً الأرقام جانباً، ولْنرَ كيف حلَّتْ هذه المدينة مشكلةَ السير لأثريائها: ببساطة، نقلتهم إلى السير في السماء. أنشأت لهم 450 مهبطاً لمروحيّات الهليكوبتر على سطوح ناطحات السحاب. تقدّمت ساو باولو بذلك على نيويورك. هكذا، بكلّ بساطة، إن كنت تملك المال، وترى أنّ مسافة قصيرة قد تأخذ منك ساعة ونصف الساعة بالسيّارة، فما عليك سوى الاتصال بإحدى شركات المروحيات. تركب واحدة منها وتصل بخمس دقائق إلى حيث تريد. يمكنك التمتّع بذلك أيضاً إن كنتَ سائحاً، فتطير فوق العاصمة الاقتصادية، وتتمايل بالهليكوبتر بين البنايات الشاهقة وفوق الحدائق والأسواق.

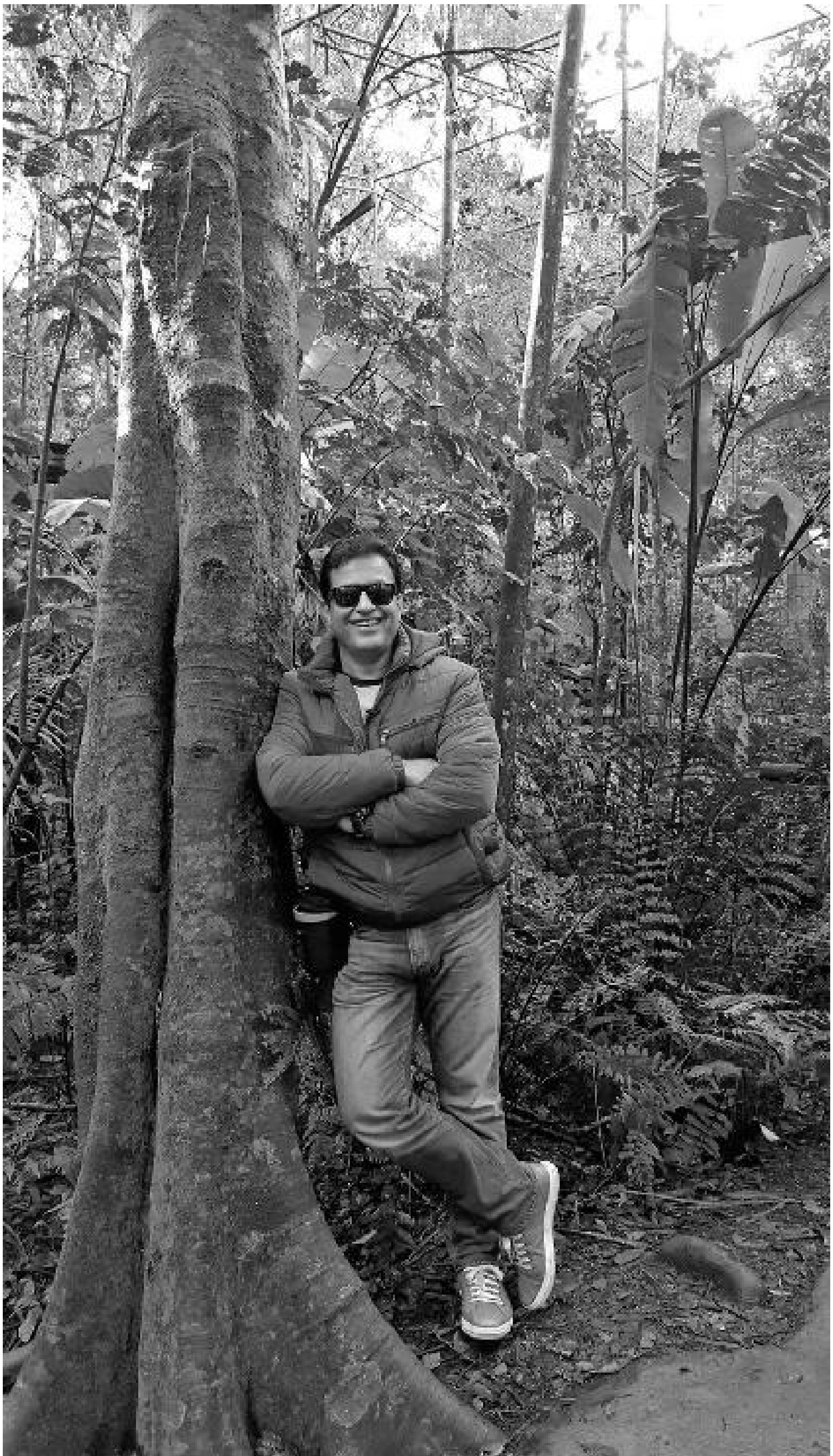

أمّا إن كنتَ تريد مثلي، جسّ نبض الناس البسطاء، والاطّلاع على أحوال الفقراء، فما عليك سوى الذهاب إلى بعض الضواحي. والوسيلة الفضلى للذهاب إلى هناك تتم بقطار الأنفاق أو «المترو».

ثمّة من ينصحك قبل ركوب وسيلة النقل هذه بالانتباه إلى أغراضك الشخصية، وإخفاء هاتفك النقال، ودَسِّ نقودِك عميقاً في جيبك الأمامي. عزَّز الفقرُ جنوح بعض الشبّان للسرقة، بين زحمات البشر في القطارات، وعند المفارق، وتحت الجسور، وعلى الطرقات. تراجع الأمر كثيراً في السنوات القليلة الماضية، بفضل السياسات الأمنية الناجحة، لكنّه لا يزال حاضراً في المدن الاقتصادية الكبيرة، وفي مقدَّمها ساو باولو.

نسأل عامل الاستقبال في الفندق عن جدوى الذهاب إلى الضواحي بالمترو، فيبدو أقلّ ريبة من الآخرين. يشجّعنا على ذلك. ينصح فقط ببعض الانتباه؛ فالمترو هنا كما هو في كلّ العالم، خلايا نمل بشري، تروح وتجيء، تصعد وتنزل، تدخل وتخرج. جميعهم مُسرِعو الخطى، إلّا أنا، ومَن رافقني اليوم. كلّما أخذنا اتَّجاها أخطأناه. لم نعتَدْ كثيراً على الاتّجاهات بعدُ. نمرُّ بين المحالّ التجارية الكثيرة، وبين الوجوه التي تنعكس عليها كلّ أحوال البشر وطباعهم: هذا يبدو سعيداً وممسِكاً بيد حبيبته؛ وذاك يسير محدودب الظهر يجرُّ قدميه جرًّا، تاركاً أكثرَ عمره خلفه، متسائلاً عن جدوى ما بقي من العمر؛ وتلك ترفل بلحمها وشحمها الكثيفين تحت بنطال قصير وقميص أقصر غير آبهة بآراءِ الناس؛ ورابع يضرب الأرض بقدميه ويتأفف، لا بدّ من أنّه خارج لتوّه من مشكلة مع زوجته، أو أنّه طُرِد من العمل؛ وخامس يقف خلف الصندوق المصرفي ليسحب نقوداً، فيلعن الصندوق والمصارف في بلَد سهّل للناس الاقتراض فزادهم مشكلاتٍ على مشكلات. لا يتغيّر البشر، ولا يختلف بعضهم عن بعض. تتغيّر الجغرافيا وهم يبقون على حالهم، يكدحون كأنّهم سيخلدون على هذه الأرض، يخالون أنّهم يسابقون الزمن، فيسبقهم ويعودون تراباً تحت هذه الأرض. لا أحد يتوقف. قلّة يتأمّلون، وكثيرون يأتون ويمضون فوق جسر الحياة، ولا يكلّفون النفس حتى عناء السؤال: إلى أين؟

قد تجد يا عزيزي القارئ، أنّي أفلسف الأمور أكثر ممّا ينبغي، لكنّ مثل هذه التأمّلات رافقتني وأنا متوجِّه إلى منطقة «براس» حيث أقيم متحفٌ لـ«ذاكرة المهاجرين». يضمّ المتحف آلاف الرسائل وبطاقات الهويّة وآلات تصوير وطباعة ومعدّات طبّية وغيرها. كلها باقية من زمن كان فيه الناس يصلون إلى البرازيل بحثاً عن لقمة العيش، أو في مراكب العبيد الذين بيعوا في أسواق النخاسة الأوروبية. فتّشت طويلاً عن بطاقات أعمامي أو رسائلهم، فلم أجد شيئاً، لعلّها ذابت في هذه البلاد كما هم ذابوا.

نترجّل من «المترو» صوب المتحف. على طول الطريق، نشاهد الرسوم التي يصوّرها الشبُّان الفقراء على الجدران، والمعروفة عالمياً باسم «غرافيتي». بات هذا النوع من الفنون، متنفَّسا للتعبير عن الفرح والحزن، عن الحب والغضب، عن القهر والتمرّد، عن النقمة والثورة. هناك شبّان مستندون إلى الجدران يرصدون كلّ غريب. تشعر بأنّ كلّ أجسادهم تحوّلت إلى مجرّد عيون تراقب كلّ شيء. معظمهم من ذوي البشرة الدكناء. تذكَّرت أولئك الشبّان الجزائريين أو المغاربة الذين يُطلق عليهم لقب «حيطيست» لأنّهم يقضون نهارهم مستندين إلى الحيطان، ولا عمل لديهم ليعملوه. في الوطن العربي عشرون مليون شاب عاطلون من العمل، لأنّ فيه أيضاً عشرين مليون سياسي عاطلين من الأخلاق.

نكمل السير بحذر ونتبادل الابتسامات مع الشبّان. يبادلوننا التحيَّة بمثلها. يخفُّ الحذرُ. لا شيء أفضل من الحوار لقتل الحذر والفتن بين الناس. قبل الشبّان وبعدهم، تنتشر بعض عربات الحلويات والخضار والمشروبات الغازية. توحي جميعها بالأحوال البائسة.

توقفتُ وصحبي عند بائع موز وبرتقال وليمون «يوسف أفندي». فقيرٌ، بطبيعة الحال. لكنّه، على فقره، بشوشٌ باسم المحيّا. مُعدَمٌ، لكنّه جالس مع حبيبته تحت شجرة ينتظران الرزق. ناقمٌ، لكنّه يوحي بأنّه يُغالب النقمة بتدبير الحال، ريثما تتغيّر في البرازيل الأحوال. مسحوقٌ، لكنّه بادرنا بضحكة حين

سألناه عن ثمن 4 موزات اشتريناها لنأكلها في الطريق. أراد أن يقدّمها لنا هديّة. غالباً ما تكون نفوس الفقراء أكثرَ غنىً من نفوس الأغنياء. كهذا الشاب الذي يبيع الموز بانتظار غد أفضل.

والغد سيكون حتماً أفضل، لأنّ البرازيل باتت في مصافّ الدول الكبيرة، تتقدّم سريعاً على المستوى الاقتصادي والتنموي وتتخطّى عدداً من الدول الغربية. هي والصين والهند في طليعة الدول النامية التي شهدت نهضة اقتصادية عالمية في السنوات الماضية. وهي سادس دولة اقتصادياً على المستوى العالمي بدخل قومي خام فاق 2,492 مليار دولار. احتلّت مكان بريطانيا على سلّم الاقتصاد العالمي، ولئن تراجعت قليلاً في العامين الماضيين، فإنّ بلداً أهلُه بهذه الطيبة، ومجتمعاً بهذا التسامح، واقتصاداً بهذه الخيرات والنهضة والمساحة الشاسعة والغنى الطبيعي والزراعي والحيواني والمنجمي، لا محالةَ سيبلغ أرقى المستويات ويحقق الغد الأفضل.

اليوم تنتهي رحلتي إلى البرازيل الساحرة. أمضيتُ فيها أسبوعين هما من أروع أيّام حياتي. تعرُّفت إلى بلد غنيّ بكلّ شيء، وإلى شعب طيّب بالرغم من كلّ شيء. سأعود إليها إن شاء الله، كلّما سنحت لي الفرصة، لأنّ مَن يزور البرازيل مرّة سيعود إليها مراراً. أهمُّ بمغادرتها كمن يغادر حبيبته مكرهاً. لم نجد لختام هذه الرحلة أفضل من السهر في مطعم برازيلي، والاستماع إلى فرقة برازيلية رائعة الصوت والعزف والأداء، كانت تغنّي للحبّ، في بلد لا يوحي إلّا بالحبّ.

تايلاند حيث المسلمون
عائمون على الماء

خلال تقديمي برنامج «زيارة خاصّة» عبر فضائية الجزيرة. كنت أذهب كلّ شهرين إلى مدينة الإعلام في دبي لتركيب الحلقات وتوليفها للبثّ. كان المكتب جميلاً، والمنطقة هادئة يمرّ فيها نهر اصطناعي. أبدع المهندسون في جعل المكان يشبه حديقةً أو غابة خضراء يفيء تحتها العشب الأخضر، وتطير بينها عصافير وطيور صغيرة. نجحتْ قيادةُ إمارة دبي في تحويل الرمال إلى مناطق جذب سياحي واستثمارات، وصارت المكاتب تتخطى مثيلاتها في أرقى دول العالم.

نزلتُ في فترة الظهيرة حيث الحرارة وصلت في ذاك النهار القائظ إلى خمسين درجة، أبحث عمّا آكله وأرتاح قليلاً من عناء المونتاج التلفزيوني، ومن كتابة السكريبت وتركيب الصور. كانت المدينة الإعلامية زاخرة بالمطاعم والمقاهي التي تقدّم كلّ صنوف الأكل. وجدت في المطعم الإيطالي كُتيِّبا صغيراً يُعرِّف بأبرز المناطق السياحية في العالم. رحت أتصفحه وأنا أتمتّع بعصير المانغا الطازج، بانتظار طبق السباغيتي بولونييزي المفضّل عندي في المطاعم الإيطالية. توقفتُ عند تايلاند. كنت أنتظر كالمعتاد أن يكون الوصف متعلقاً بالجزر والبحر والسهرات والمعابد البوذية والماساج والجبال وغيرها. معرفتي بتايلاند في معظمها سمعية من خلال روايات صديقات وأصدقاء زاروها. معظمهم يحكي عن جوانبها الإباحية وجمال طبيعتها، أكثر من أيّ شيء آخر. لم يكن في تلك الروايات ما يجذبني فعلاً. لكن هذه المرة، قرأتُ في الكتيّب شيئاً جديداً: إنّها قرية عائمة على المياه، سكّانها مسلمون. عاداتها إسلامية. فيها مسجد وسوق شعبي، ويرتادها السيّاح الراغبون في معرفة شيء خارج عن المألوف.

أعجبتني فكرة القرية لهدفين اثنين: المتعة والعمل. كان العالم آنذاك لا يزال يهتز على وقع الاعتداءات الإرهابية الشهيرة على برجي التجارة في نيويورك، وكان كلّ ما يتعلق بالمسلمين والإسلام مثيراً للشكوك. قرّرت الذهاب لاكتشاف القرية ونقل ما فيها لأوسع جمهور ممكن، سواء عبر التلفزة والإذاعة أو عبْرَ الصحافة المكتوبة، ذلك أنّي كنت أعمل في المجالات الثلاثة في الوقت عينه.

اتُّصلت بمكتب سفريات أتعامل معه منذ سنوات طويلة في دبي. قالت لي الموظفة بعد ترحيبها المعتاد وضحكتها المحبّبة: «حظك رائعٌ يا أستاذ سامي، لدينا رحلة خيالية بسعر ممتاز في هذه الفترة، سأحجز لك في أجمل منتجع في بوكيت بحيث تستطيع التمتّع بالبحر والراحة والكتابة والعمل». شكرتها، لكنّي قلت لها: «أريد أيضاً لو سمحتِ، سيَّارة مع سائق، وأريد أن أحجز ليلة في قرية عائمة على المياه». استغربت طلبي، فطرحت أسئلة كثيرة عن مكان القرية وكيفية الوصول إليها. لم أكن أعرف، ولا هي تعرف، شيئاً عن ذلك. اعتذرَتْ منّي، وقالت: «أعطني ربع ساعة وسأجد لك وسيلة للوصول إلى هناك وربما الإقامة أيضاً». بعد نصف ساعة اتَّصلتْ بي ثانيةً، واكتفَتْ بالقول: «آسفة يا سيّدي، لا يمكن الحجز من هنا، لكن حين تصل إلى بوكيت، يُرشِدك سائق السيّارة الذي حجزته لك إلى كافة التفاصيل، وإنْ شئتَ فإنّه يذهب معك أيضاً. أعتقد أنّ الرحلة ستكون عبر البحر أو النهر». أسعدني اعتقادُها. تخيَّلت نفسي من الآن في أحد القوارب التايلاندية الصغيرة المزدانة بالورود نعبر النهر بحثاً عن شيء جديد. لا بدّ من أنّها مغامرة ممتعة بكلّ المقاييس.

بعد يومين فقط، كنت على متن الخطوط الجويّة الإماراتية صوب تايلاند. الرحلة عموماً أكثر من مريحة، ذلك أنّ الإمارات عرفت كيف توفّر لركّاب طائراتها كلّ وسائل الراحة والرفاهية في مثل هذه الرحلات. أظنّ أنّي نمْتُ طَوال الرحلة بعدما قرأت في الإمارات كلَّ ما أريد لجمع معلومات أوليّة عن مقصدي. فتحت مقعدي ليصبح سريراً. طلبتُ من المضيفة ألّا توقظني، ولم أصْحُ إلّا ونحن نهبط في

المطار.

كلّ شيء في بوكيت التايلاندية يوحي بالراحة والرفاهية والمتعة. البحر الأزرق النظيف الممتدّ على مدى النظر. الأشجار الوارفة. الطرق النظيفة. المنتجعات والفنادق الفخمة والراقية تنتشر في كلّ زاوية أو على كلّ هضبة جميلة. الناس في غاية اللطافة والذوق والهدوء.

هذا الجمال الذي استقبلنا منذ نزولي في المطار حتى وصولي إلى الفندق، تضاعف مرّات عدّة حين وصلت إلى مكاتب الاستقبال. سرعان ما يأتيك النادل بصحن من الماء والورد، وقطعة قماش مبلّلة بالماء الدافئ ورائحة العطر، وبعض الشوكولا وما تشاء من مشروب. ابتسامات كثيرة ترتسم على وجوه الموظفين. قمّة اللطافة والهدوء أثناء تسجيل الدخول.

صدقَتْ فعلاً موظفة مكتب السفريات في الإمارات. الفندق – المنتجع الذي أنزلتني فيه يصلح لقصّة عشق أميرية من ألف ليلة وليلة. المدخل كبير تنتشر في أرجائه معظم صنوف الورد. الغرفة عبارة عن جناح كبير فسيح أكثر ممّا تخيّلْت. السرير يرتفع قليلاً عن مستوى أرض الغرفة. حوله وعليه بعض الورود وأواني البخور. في الغرفة غرفة أخرى للسونا حتى ليكاد الحمّام يوحي بأنّه مسبح. خارج الغرفة، الأرضُ خضراء تحت أشجار وارفة، وبين الأشجار مسبح خاصّ تنتشر حوله كلّ صنوف الشامبو والعطور والزيوت ذات الرائحة التي تُضفي على المكان رونق السحر.

أسعدني كلّ ذلك، لكنّني قلتُ: «لا بدّ من أن يكون المرء مخبولاً إذا جاء إلى مثل هذا المكان وحيداً». وضعتُ حقيبتي على الطاولة المخصّصة لها خلف الباب. لم أكن متعباً بفضل النوم في الطائرة. كنتُ، خلافاً لذلك، راغباً بشدّة في الخروج سريعاً للتمتّع بهذا المنتجع العائم على بحر من جمال.

المطعم المضاء من كلّ جوانبه بالشموع، يعكس على طاولاته ضوءَ القمر ويستلقي على حافة النهر حيث بعض العاشقين كانوا يسبحون ليلاً.. نوَيْتُ أن أعود ذات يوم، وأبقى هنا أسبوعاً فقط للكتابة والتمتّع بمباهج هذه الحياة، ففي رحلتي هذه جئت من أجل أمر آخر تماماً. لعلّي نِمتُ كما لم أنمْ في حياتي. لم أسمع إلّا صوت الماء وبعض حفيف الشجر، وكانت رائحة البخور وأريج الورد تعبق في المكان حتى خِلتُ نفسي أسبح على غيمة.

بعدما استيقظتُ على زقزقة العصافير وأريج العطر والورود، وتناولتُ فطوراً صباحياً فيه كلّ ما لذّ وطاب، خرجتُ إلى بهو الفندق لأجد السائق بانتظاري. كان يتحدّث الإنكليزية على نحو مفهوم جداً، وكان يعرف بعض العربية. ما إن صرتُ في سيّارته، حتى لفتني تمثالٌ لبوذا على مقدّمة السيّارة، وقرآن كريم قرب المقعد. شرح لي أنّه مسلم وأنّه سعيد بأن يكون برفقة مسلم أيضاً في تايلاند. غالباً ما أكون حذراً في حالاتٍ كهذه، وأكاد أشكّ في أنّه إن نقل أجنبياً في سيّارته فربّما وضع إنجيلاً أو صورة السيّدة مريم. لكن هنا، شيء في الوجوه يبعث على الثقة. تبدو الوجوه صفحة بيضاء، كلُّ تعبير فيها يعكس ما يخالج القلب والعقل. هكذا أحسست، من دون أن أسند إحساسي إلى أيّ شيء واقعي أو منطقي. هنا، الابتسامات تتغلب على المنطق.

طلبتُ من مرافقي وسائقي أن نجول قليلاً في بوكيت. مدينة تحوّلت إلى منتجع كبير تجذب ملايين السيّاح سنوياً. لكنّ كلّ هذا الجمال الذي أراه أمامي الآن، لم يقدّم لي شيئاً خارج المألوف. ولعلّ السبب في ذلك أنّي عرفتُ جُزُراً كثيرة في العالم من بورا بورا والباهاماس إلى المالديف وكنكون (في المكسيك) وما عاد شيء من هذه المناظر يسحرني إلّا إن كان خارقاً للمألوف. سألته إن كان يحفظ القرآن الكريم، فسارع إلى قراءة الفاتحة، ثمّ قال إنّه يحفظ الكثير من الآيات والسور. وقال أيضاً إنّ الكثير من العمّال والموظفين في هذه المنتجعات هم من المسلمين. لكنّه فجأة استدار صوبي وسألني، من دون سابق إنذار أو تمهيد نفسي: «هل تريد يا سيّدي مقابلة فتيات جميلات؟»، استغربتُ سؤاله الذي أعقب مباشرة تلاوته بعض الآيات القرآنية. قلت له: «يا أخي كيف تكون مسلماً وتصلّي وتصوم وتتلو أمامي كلّ هذه الآيات، ثمّ تعرض عليّ فتيات؟». لا أدري إن كان خجِل أو شعر بالحَرَج، لكنّه

بدلاً من الاعتذار أكمل اقتراحه على نحوٍ ظنَّ أنّه أكثر لباقةً: «أريدك أن تتعرّف إلى الفتيات الجميلات والمسلمات هنا، وتكوّن فكرة عن الحياة الاجتماعية. وإنْ شئت أن تُمضي ليلتك مع إحداهنّ فلا بأس، هذا يعود لها ولك». فضّلت عدم المُضِيّ في هذا الحديث، ففهم أنّ عليه تغيير وجهة الكلام. أخبرته عن مقصدي الفعلي، فكان كمن أصابه الذهول: «أقسم بالله يا أخي، إنّك أول سائح مسلم يسألني عن تلك القرية، فالسيّاح العرب والمسلمون الذين يأتون إلى هنا يسألون عن التدليك وعن الفتيات وعن علب الليل، لا بل إنّ بعضهم يسألني أيضاً عن الصبيان المتحوّلين جنسياً». ضحكتُ، وسألته: «ولكن كيف عرفت أنّي مسلم، لعلّي مسيحي أو يهودي أو بوذي؟» تأمّلني قليلاً ثمّ قال: «لا بأس، فكلّنا أبناء الإنسانية، وأنا لا أفرّق بين الأديان. اعذرني، ظننتُ أنّك مسلم». لم أُجِبْ، وتعمَّدتُ أن أتركه في شكوكه.

أمضيتُ يوميَ الأولَ في بوكيت، بين التمتّع بالمناظر الجميلة والسباحة قليلاً، وجلسة تدليك على البحر، وطعام لذيذ وبعض القراءة قبل النوم. وفي اليوم التالي ذهبت إلى باتونغ. وصلتُها عند المساء. كان الفندق جميلاً، لكن لا شيء استثنائياً فيه. نزلتُ أسير في الشوارع، فهالني أن أسمع في معظم المطاعم أغاني عربية هابطة، أو بعض الأغاني الخليجية، ورأيتُ على الطاولات كثيراً من العرب بين الكثير من الأجانب.

في أحد أحياء باتونغ، تجمُّعٌ كبير للمطاعم، وفيه أيضاً صالات لرياضة الملاكمة منتشرة على نحو لافت، ربّما لا نظير له في العالم. دخلتُ إلى إحداها، فكانت مكتظّة حتى باب المدخل. عرض عليَّ السائق أن نجلس في مكان مريح، مقابل بضعة دولارات. وهذا ما حصل. لكنّ المفاجأة الثانية، هي أنّ الملاكمين لا تتجاوز سنّ الواحد منهم العشرين من العمر، وربّما دون هذه السنّ. يتصارعون بلا رحمة، ويستخدمون القبضات والأرجل وكلّ ما تيسّر لهم، حتّى يُدمي أحدهما الآخر، أو يطرحه أرضاً مغمىً عليه، والناس يصفّقون ويتضاحكون ويرمون الأموال على الحلبة. شعرت بالتقزُّز، وبشيءٍ من القرف، والكثير من الشفقة على هؤلاء المراهقين المضطرّين لتشويه أجسادهم الغضّة، مقابل حفنة من المال يرميها لهم أحد رجال المافيات الذين يشغّلونهم.

في شارع آخر مئات الفتيات واقفات على جنبات الطرقات والزواريب وأمام الحانات وعلب الليل والبارات. كلهنّ بثياب مثيرة، لكنّ نسبة الجمال بينهنّ عالية، وجميعهنّ في مقتبل العمر. رجال الشرطة يسيرون بينهنّ كأنّ شيئاً لم يكن، وزبائن الليل يتوقفون يناقشون الفتيات قليلاً، فإمّا أن تذهب مع أحدهم، وإمّا أن يكمل طريقه صوب أخرى. بدا المشهد عادياً، كأنّني في سوق للخضار، والناس يبتاعون منه في يوم عادي. سألتُ السائق مرافقي عن القوانين التي تسمح بذلك، فضحك وقال: «أهذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها إلى هنا؟» أجبتُ: «نعم، ألا يبدو عليّ ذلك؟»، قال: «بلى، إذاً دعني أبُحْ لك بسرّ: كلُّ هؤلاء الفتيات الجميلات هنا، هنّ رجالٌ متحوّلون جنسياً، وهو ما نسمّيه هنا بالليدي بوي». لم أصدّق بادئ الأمر. لا شيء في ما أرى يوحي بأيّ ذكورية، لا حالية ولا سابقة. قال لي: «اسمعْ أصواتهنّ، تعرفْ». حقاً كانت أصوات رجال بأجساد نساء.

لم أقل شيئاً. لكن، من دون سابق تمهيد أيضاً (يبدو أنّه رجلٌ مفاجآتي... ههه)، اقترح عليّ أن نزور خيّاط المدينة ونرى ما لديه من أقمشة، إن كنتُ بحاجة إلى ثياب من ماركات عالمية وبأسعار متواضعة. وجدتُ نفسي في أحد المحالّ الأنيقة في منتصف الليل، وعلى الطاولة دفاتر مصوّرة لأبرز البزّات العالمية، وأغلى الماركات ثمناً. رحّب بنا الخيّاط التايلاندي المربوع القامة والمنتفخ البطن قليلاً، وقال: «اختر يا سيدي البزّة التي تريد، والقماش الذي يُعجبك، وغداً ظهراً تكون البزات عندك»، راقتني الفكرة. هذا أول انتقام لي من أصحاب الماركات العالمية الذين نجحوا في الكذب علينا، حتى صدّقنا وصرنا نشتري أشياءَ قد لا نحتاج إليها، بأسعار خيالية. في اليوم التالي كانت ثلاث بزات أنيقة من ماركات عالمية في حقيبتي، بلغَ ثمنُها جميعاً أقلّ من ثمن قميصين في فرنسا.

القرية الإسلامية العائمة

ها نحن في هذا الصباح الجميل، السائق وأنا، ننتظر وصول القارب. شكله كالهلال، أو كقشرة موز طويلة، أو كخشبة مجوّفة البطن ذات رأسين مدبَّبيْن دقيقين، وفي داخلها مقعدان خشبيان وبعض المشروبات الغازية. أمّا قبطان المركب فهو شابّ تايلاندي وسيم المحيّا، متوسّط القامة، لوّحت الشمس وجهه ولونه، لطيف الكلام، وبحّار محترف. ما إن ابتعدنا قليلاً عن بوكيت حتّى صفا الماء على نحو مذهل، فصرنا نرى الأسماك تجمع بألوانها قوس قزح، والأعشاب في قعر الماء تبدو نظيفة كمن اغتسل لتوّه بماء الورد. تنعكس أشعّة الشمس على الماء فتلامس عيوننا بلطف. وما إن تمسح الشمس عن عيوننا بعض الكسل الصباحي، حتى تسري إلينا الرياح المنعشة من التلال المحيطة بنا الغنيّة بالأشجار المتعدّدة الأشكال والألوان، حتى لو كان اللون الأخضر هو الغالب. يضيق النهر أو يتسع، ونعبر بين تلك المناظر الخلابة التي كنت أعتقد أن لا مثيل لها إلّا في الجنّة الموعودة، أو في كتب الخيال.

بقينا على هذه الحال، نشاهد روائع الطبيعة وبدائع الخالق، نحو ساعة تقريباً. تراءت لنا من البعيد مربّعات سوداء أو حمراء أو صفراء في وسط الماء. وكلما زاد اقترابنا، كَبُرَت المربّعات. نقترب أكثر، فنراها فوق أعمدة. إلى جانب الأعمدة والمربّعات، ترتفع جبال صخرية تسلّقت الغابات الخضراء من الأسفل وصوب القمم، كأنّما تغطيها لتحميها من تقلّبات المناخ. وفوق الجميع سماء صافية إلّا من غيمتين تبدوان كشامتين على خدّ الزمن.

«هذه هي قرية Koh Panyee يا سيدي، انظر كم هي جميلة»، قالها مرافقي السائق، ورافقت كلمات السائق هذه إشارة من يد قبطان المركب. وصلنا الآن إذاً إلى هذه القرية التي يلفظ اسمها السكّان المحليّون «بانيي» (Panyi). كان الطقس جميلاً منعشاً في ساعات الصباح الأولى بعدما كحّلنا عيوننا بجمال خليج فانغ نغا (Phang Nga). قال المرافق: «إنْ كنتَ رأيتَ هذه القرية قبل اليوم، فلا شكّ في أنّك شاهدتها في أفلام جيمس بوند». لم أُجِبْ بشيء. كنت أتأمّل بصمت وبهجة تلك القرية العائمة على سطح الماء والرابضة فوق أعمدة خشبية كتاج ملكي ملوّن.

ها نحن نقترب من الجزيرة، تبدو البيوت حين اقتربنا منها كأنّها من خشب وكأنّ سطوحها من قرميد. وما إن صرنا على مشارفها حتى تبيَّن لنا أنّ بعضها من الخشب أو القرميد أو الصفيح. بينها الأخضر والأحمر والأصفر والبنّي والرمادي. نزلنا من المركب وصعدنا إلى الساحة الخشبية. هنا سوق القرية. ما إن ولجنا مدخله حتى بادرنا أحد مستقبلينا بفنجان من ماء زمزم. قال بالعربية: «السلام عليكم»، رَدَدتُ عليه السلام بمثله، مقروناً بابتسامة إعجاب. سألته من أين لكم ماء زمزم؟ تعجّب من سؤالي فبادرني بسؤال مشحونٍ بالملامة: «ألستَ مسلماً يا أخي؟ ألا تعرف من أين ماء زمزم؟»، ضحكت، وضحك، وقلت له: «أعرف تماماً، لكن اعذرني فأنا جديدٌ هنا، وظننت أنّ لديكم ماءً يشبه ما عندنا وتسمّونه بهذا الاسم». ضحك مرّة ثانية، وقال: «لا يوجد إلّا زمزم واحد، ولا رسول إلّا محمد صلى الله عليه وسلم».

في السوق الشعبي، ملابس تقليدية، وحرف يدوية وأقمشة متنوّعة الألوان وهدايا كثيرة. فيه أيضاً بهارات وعطور وألعاب وتحف. لكنّ المرور عبره صوب البيوت الهانئة فوق الماء بدا لي عسيراً في تلك الفترة من السنة. السيّاح يملأون المكان حتى يكاد يختنق. معظمهم بثياب البحر، يخرقون عادات السكّان هنا وتقاليدهم. لكنّ السياحة مفيدة للسكّان الذين استطاعوا بفضلها تحسين ظروف عيشهم، وإقامة ملعب لكرة القدم، حتى صار فريقهم منذ عام 2011 من أشهر الفرق التايلاندية.

يعيش في القرية نحو 1500 شخص ينحدر معظمهم من ثلاث عائلات جاءت على الأرجح من أندونيسيا، في القرن الثامن عشر. جميعهم مسلمون. يقوم مسجدهم فوق التلة الصخرية كحارس على

الناس والمدينة. يمارسون طقوس العبادة الإسلامية وكلّ الفروض. لبوسُهم محتشم ومعظم النساء محجّبات. قصدتُ المسجد فوجدتُ رجلاً تايلاندياً متقدِّما في العمر، يعتمر قبّعة إسلامية، على الطريقة الأندونيسية، جالساً على الأرض، وأمامه القرآن الكريم. شرح لي أنّ تايلاند عُرِفت بالتسامح، وأنّ الدين الإسلامي دخلها منذ قرون عدّة، وأنّهم هنا يمارسون كلّ شعائرهم بحرّية كبيرة، وأنّ العديد منهم يذهبون إلى السعودية وبعض دول الخليج، وأنّهم يُحبّون المسلمين والعرب، لكنّهم يشفقون علينا بسبب كثرة الحروب والمشاكل. سألته عن عدد الذين يصلّون في المسجد، كان جوابه قاطعاً: «جميع أهل القرية يأتون إلى هنا، علاوةً على إخواننا من السيّاح المسلمين العرب وغير العرب. ومَن أراد البقاء في قريتنا نتمنّى عليه دائماً مشاركتنا طقوسنا، واحترامَ عاداتنا. لكن، كما تعرف، السياحة تخرّب كلّ شيء. ولذلك نحاول تجنيب أولادنا الغرق في التجارة والسياحة والأعمال السيّئة، والبقاء على الصراط المستقيم». قال ذلك كلّه بلغةٍ إنكليزية ركيكة، لكنّ «الصراط المستقيم» نطقها بلغة قرآنية سليمة.

تقول الوثائق والدراسات، إنّ معظم مسلمي تايلاند يعيشون في ما يُسمّى إقليم الجنوب الكبير المحاذي لماليزيا. لكنّنا نجد أيضاً مسلمين في المدن الكبرى، وخاصّة في بانكوك وبوكيت وغيرهما. يُعدّ المسلمون أولى الأقليات الدينية وأكبرَها في البلاد ذات الغالبية البوذية؛ فهُم يشكّلون ما بين ستة وثمانية في المئة، وينتمون إلى المذهب السنّي. بَيْد أنّ لهم طقوساً قريبة من أهل البلاد، وقد تبتعد، من حين إلى آخر، عن الطقوس الإسلامية في الدول العربية، ولا سيّما في ما يتعلق منها مثلاً بالسحر وطرد الأرواح الشريرة والتقاليد الآسيوية وما إلى ذلك. تايلاند، العضو في منظمة التعاون الإسلامي، منذ عام 1998، تضمّ نحو أربعة آلاف مسجد، كلها على المذهب السنّي، إلّا ما نسبته واحد في المئة منها للشيعة، ومعظمها في الجنوب. اللافت أنّ مسلمي تايلاند لا يتشابهون كثيراً؛ ومرَدُّ ذلك إلى اختلاف أصولهم، فمنهم من صار مسلماً بالزواج، ومنهم مَن جاؤوا من أندونيسيا وماليزيا والصين وكمبوديا وبنغلادش وباكستان وغيرها؛ فلا عجب إذاً إن اختلفت عاداتهم وتنوّعتْ. غير أنّ العدد الأكبر منهم جاؤوا من ماليزيا. وتقول الدراسات التاريخية الموثوقة إنّ أول اعتراف تايلاندي رسمي بالمسلمين حصل أثناء اتفاقية الملك التايلاندي سونغتام مع رجل أعمال ثري من بلاد فارس، اسمه الشيخ أحمد. وقد استقرّ الشيخ أحمد هذا في البلاد منذ القرن السابع عشر.

في القرية العائمة فوق الماء، مدرسة إسلامية مختلطة للإناث والذكور. دخلتُ إليها فصفّق لي التلاميذ بأمر من معلمتهم، وقرأوا الفاتحة بصوت عالٍ، ثمّ راحوا يتبارون أمامي في تلاوة بعض الآيات القرآنية. لكن حين طرحتُ سؤالاً بالعربية، صمتَ الجميع. هم كالكثير من المسلمين عبْرَ العالم، يحفظون القرآن عن ظهر قلب، لكنّهم لا يتقنون العربية. الجميل واللافت هو تعدّد ألوان حجاب الفتيات الصغيرات السنّ، بينما الصِّبية يلبسون ما يريدون. يتلون القرآن ثمّ ينظرون صوبي ويضحكون. هم ورثوا عن أهلهم هذا الدين، لكنّهم قد لا يكونون ورثوا عنهم كلّ التسامح.

في تايلاند يبسمل ويذبح

اليومَ، وأنا أستعيد قصاصات الورق التي كتبت عليها مشاهداتي في تايلاند، قبل أكثر من أربعة عشر عاماً، أقرأ أخباراً لا توحي بأنّ التسامح مستمرّ. بات جنوب تايلاند مسرحاً لهجمات ذات طابع إسلامي متطرّف، وخاصَّة في المقاطعات الثلاث (باتاني، وناراتيوات ويالا). كانت هذه المقاطعات في مطلع القرن العشرين جزءاً من سلطنة ماليزيا، قبل أن تنضمّ إلى تايلاند في إطار الاتفاقية التايلاندية البريطانية في عام 1909. واليوم، بعدما بدأ تمرُّد المسلمين على السلطة المحلية، منذ عام 2004، أخذوا يهاجمون المقارّ الحكومية ومخازن الأسلحة، حيث قتلوا عدداً من الجنود. ويُحكى عن اعتداءات على الرهبان البوذيين. تتناقل وسائل الإعلام أرقاماً مقلقة عن سقوط آلاف القتلى في تلك المناطق التي كانت، حتى الأمس القريب، عنواناً للتعايش والوئام.

تفاقم قلق السلطات التايلاندية في السنوات القليلة الماضية بعد اكتشاف خلايا متفرّعة من تنظيم

القاعدة، ولا سيّما في أعقاب إجهاض عملية إرهابية ضدّ القنصلية الأميركية، شمال البلاد. أظهرت التحقيقات أنّ متطرّفين إسلاميين جاؤوا من أفغانستان والجزائر وسوريا واليمن وإريتريا وإثيوبيا والأردن وفلسطين والصومال والسودان ينشدون إقامة خلافة في البلاد المسالمة، «بلاد الابتسام والضحك».

بعد ليلة زاخرة بالمفاجآت ومشاعر المحبّة التي استقبلني بها أبناء القرية، عدت إلى بانكوك استعداداً للسفر في اليوم التالي. اقترح عليَّ مرافقي أن نقصد أحد الشوارع التي لا تنام. كانت تلك الفترة قد شهدت حملة دولية كبيرة لمنع الاتجار بالبشر عبر العالم، وكانت تايلاند من أكثر الدول استهدافاً بتلك الحملة، حيث كان يُحكى عن اتجار بالقاصرات.

غالباً ما كنّا نستخدم في عملنا الصحافي، أجهزةَ تسجيل صغيرة، يمكن إخفاؤها، إذا اضطررنا لذلك، إمّا للمرور عبر مطارات دول مستبدّة، وإمّا لإجراء تحقيق إنساني في مناطق يُحظر على الصحافيين الدخول إليها. أدرتُ آلة التسجيل الصغيرة، ورحتُ مع مرافقي ندخل بعض علب الليل، بحثاً عمّا إن كانت تلك الأسواق منعت فعلاً الاتجار بالبشر. كان يكفي أن نزور أكثر من عشرة أماكن، حتى نستنتج أنّ كلّ شيء مُباحٌ مقابل المال. سجّلتُ كلّ شيء، وخرجتُ إلى الشارع فوجدت رجلَين من رجال الشرطة. اقتربت منهما متظاهراً بالبحث عن طريق للخروج من الشارع. وفيما كان أحدهما يُرشدني إلى الطريق، سألته: «هل استطعتم حقاً منْعَ الاتجار بالبشر، وخاصَّة حيال القاصرين والقاصرات؟»، فكان جوابه قاطعاً: «نعم». لا يناقضه إلّا العروض التي استمعت إليها قبل ربع ساعة فقط، والتي لا تستثني فتيات تقلُّ أعمارهنّ عن أربعة عشر عاماً.

كان يكفي أن أبتعد عن ذاك الشارع عشرات الأمتار، حتى أرى تايلانديين يقدّمون الفواكه والورود لتمثال بوذيّ!

أحببتُ تايلاند، وعزمت على العودة إليها حين تسنح لي الفرصة. لكنّي غادرتها وفي قلبي هاجس من أن يصيب المسلمين هنا ما أصابهم في عدد من مناطق العالم؛ ذلك لأنّي حين كنت أجول في القرية المسلمة العائمة على المياه، وبتُّ ليلتي هناك، تعرَّفت إلى شابٍّ في الخامسة والعشرين من العمر، كان يحدّثني عن أسامة بن لادن، بكثير من الإعجاب، وأخبرني أنّه عاد لتوِّهِ من رحلة قادتْهُ إلى أفغانستان وباكستان ودولتين عربيتين... قلقْتُ على ابتسامة تايلاند وعلى تاريخها المتسامح الذي حافظ على البوذيين والمسلمين، وعلى كلّ المذاهب والطوائف والأعراق.

بحثت عن لينين
فوجدت سانت بطرسبورغ

تقودنا أقدارنا إلى حيث نتمنّى لا إلى حيث هي تريد. بهذا اقتنعتُ في حياتي الحافلة بالرحلات والسفر والاكتشافات والحضارات والتعرُّفِ إلى الشعوب المختلفة والمتنوّعة. ما تمنَّيت رحلةً عبْر العالم، إلّا قادتني إليها الأقدار، ولكن بإرادتي، لا من دون أن أخطّط. حصل لي هذا مثلاً حين رنّ هاتفي، في مطلع تسعينيات القرن الماضي، لأسمعَ مدير تحرير صحيفة كنت أكتب فيها دورياً يقول: «ما رأيك لو تذهب إلى روسيا لإجراء تحقيق حول ما بقي من الاتحاد السوفياتي، وأين هو موقع روسيا اليوم؟». راقَتْني الفكرة تماماً. كنت قبلَ ذلك قد سمعت من وزير الخارجية الفرنسي السابق رولان دوما، روايتَه الغريبة عن أول قمّة عُقدت بين الرئيس الأميركي رونالد ريغان (الذي جاء من عالم التمثيل والسينما إلى الرئاسة) والرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران المحنّك والمثقف والثعلب السياسي الاشتراكي. عُقدت قمّة الرئيسين في أوج تحرُّك غورباتشوف، لتفكيك الاتحاد السوفياتي وانهيار كلّ المنظومة التاريخية التي ارتبطت به، وشعور أميركا بأنّها باتت سيّدة العالم الوحيدة، التي لا ينازعها منازع. وفق رواية دوما التي قالها لنا في حفل عشاء أقامته إحدى الزميلات العزيزات في منزلها الباريسي، فإنّ ريغان، بدلاً من النقاش العميق والاستراتيجي المنتظر مع ميتران، أمضى السهرة وهو يُلقي النكات، ما أثار انزعاج ميتران كثيراً حيث كان متلهِّفًا لمعرفة ما دار بين ريغان وغورباتشوف صاحب نظريّتي البيريسترويكا والغلاسنوست، ولا سيّما أنّ الزعيمين السوفياتي والأميركي كانا منذ منتصف الثمانينيات قد أثارا ضجّة عالمية عبْر لقائهما الأول، للحدّ من التسلح.

لينينغراد التي لم أرها في المرة الأولى

كانت أولى الهدايا التي وصلتني من أحد رفاق الطفولة حين ذهب للدراسة في الاتحاد السوفياتي، مجسَّما لرأس وجذع لينين، منظّر الثورة البلشفية وقائدها. أرفق الهديّة برسالة تفصيلية يشرح فيها الكثير من الصور الجميلة لمدينة «لينينغراد» التي استعارتْ اسمها من لينين. ثمّ إنّي في مطلع شبابي أحببتُ تعلّم اللغة الروسية، ربّما لأنّ بيروت الغربية كانت آنذاك حافلة بوعود القيادات اليسارية المنضوية تحت لواء الحركة الوطنية، بتوفير منح تعليم مجّاني لنا، في مجالات الطبّ والهندسة والطيران وغيرها، في الاتحاد السوفياتي. كانت اللغة صعبة وبعيدة كلّ البعد عن اللغة الفرنسية التي أتقنتها منذ طفولتي بفضل تعلّمي في مدارس الراهبات. لكنّ صعوبة اللغة الروسية كانت تتراجع قليلاً أمامَ حماسة أستاذتنا الروسية التي تُعلمنا لغة بلادها، فلا ندري ما إن كُنّا أحببنا اللغة أم المعلمة، لكنّنا في الحالتين لم نحصل على شيء، فلا أتقنت اللغة، ولا سافرت للدراسة في الاتحاد السوفياتي، ولا استطعت إغواء المدرّسة التي كانت تكبرنا بسنوات كثيرة. تعلّمنا فقط صلابة سكّان لينينغراد وصبرهم ومقاومتهم للحصار الذي فُرِضَ على مدينتهم الصامدة الذي استمرّ نحو تسعمئة يوم، على الرغم من جَوْر الحرب والدمار وقسوة النازيين في الحرب العالمية.

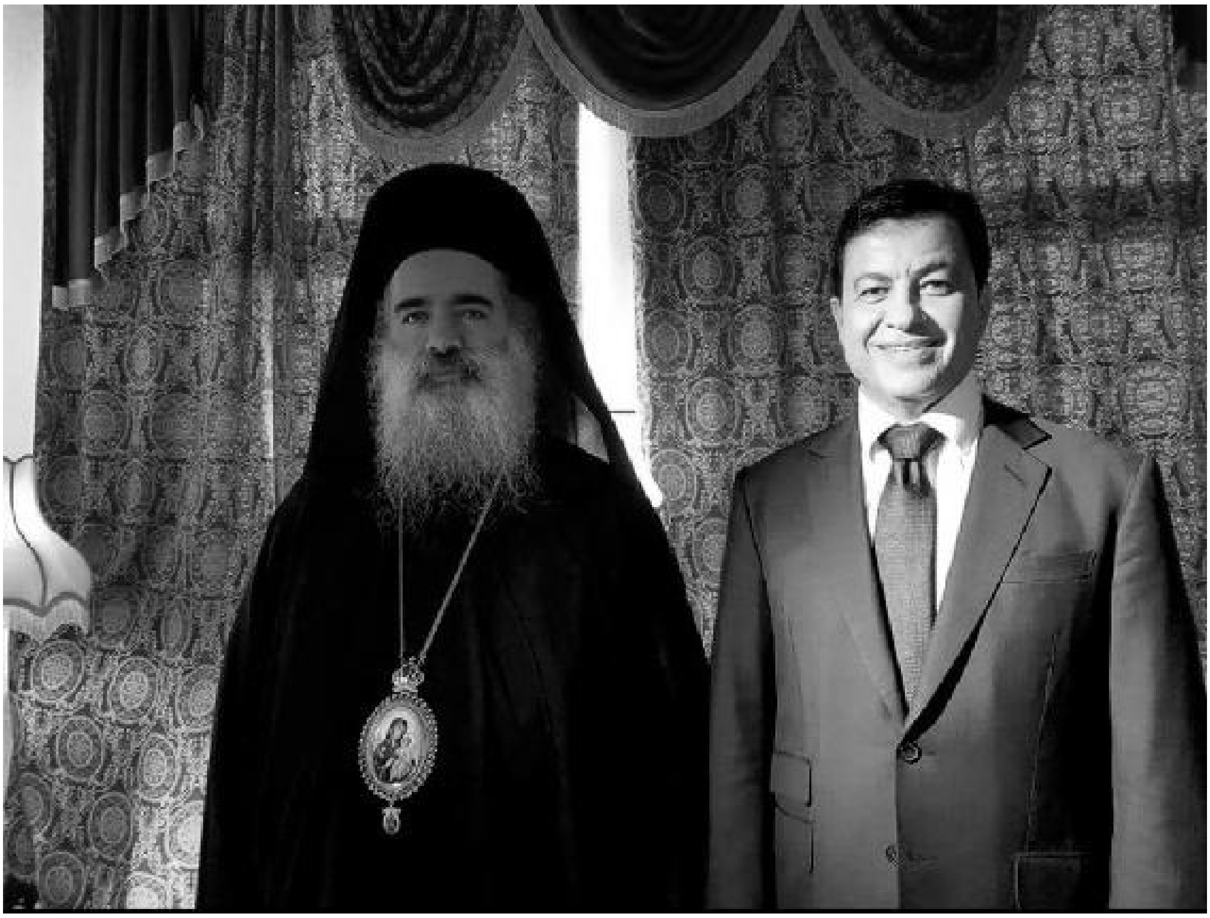

مع المطران عطاالله حنّا في سانت بطرسبورغ.

عادت إليّ كل تلك الذكريات، حين قرأت يوميّات الكاتبة والروائية والشاعرة الروسية المبدعة فيرا ميخايلوفنا إنبر (Vera Mikhaïlovna Inber). هي وصفت بدقة متناهية ولغة أدبية بسيطة ولافتة، يوميّات الناس أثناء صمودهم الأسطوري في وجه الحصار، في كتاب بعنوان: «Leningrad Diary».

لعلّي تأثّرت نوعاً ما بأسلوب إنبر المولودة في أوديسا في صيف عام 1890، والمتوفّاة في موسكو عام 1972، حين كان الاتحاد السوفياتي لا يزال في أوجه. أو لعلّي أقمتُ جسر تواصل في ذاكرتي بين صور لينينغراد في الحرب وصور بيروت بعد الاجتياح الإسرائيلي. أعتقد أنّها نشرت كتابها الجميل والقاسي في منتصف القرن الماضي، أي بعد فترة قصيرة جداً على انتهاء الحرب التي عاشت تفاصيلها السوداء القاسية إلى جانب زوجها الطبيب. كنتُ غالباً ما أتساءل هل سينجح روائي أو شاعر أو كاتب لبناني أو فلسطيني أو عربي أو أجنبي، من الذين عاشوا حصار بيروت وحربها، في نقل واقع الناس بلغة أدبية راقية تصف بدقة مشاعرهم الحقيقية، لا ظروف حياتهم في تلك اللحظات الدموية فحسب؟ لم يختلف الإسرائيليون كثيراً في حصار بيروت الغربية عن النازيّين حين حاصروا لينينغراد. الغازيان دمّرا المباني والمستودعات والمستشفيات والمدارس والملاجئ والجسور وكلّ شيء. لكنّ الكارثة الإنسانية في لينينغراد كانت أسوأ بكثير وأقسى وأعمق، حيث مات نحو مليون شخص، لا بسبب القصف والدمار والقتال فقط، بل بسبب الجوع والمرض والتشرّد والبرد.

تأثرتُ بيوميّات فيرا إنبر التي دوَّنتها يوماً فيوماً أثناء الحصار. لم يكن تأثّري متعلقاً بحياة الناس الاستثنائية في مقاومة الحصار والبرد والجوع فقط، ولا بمحاولات أهل المدينة ومثقفيها وأساتذتها وأطبّائها الإبقاء على شيء من الحياة فقط، بل كان متعلقاً قبل كلّ شيء، بأنّي كنت تماماً كهذه الشاعرة الروسية الفذّة، أحتفظ في أعماق قلبي بأملٍ كبير بأنّ الغد سيكون أفضل، حتّى عندما انهارت الدنيا كلها

فوق رأسي، حين فقدت والدي جراء قذيفة، ورأيتُ أمّي تنوء تحت جراح القصف وقذائف المدافع.

تلك كانت صورة لينينغراد في ذاكرتي وقلبي. كنت أفكر دائماً بالذهاب إليها، لكنَّ شيئاً ما في داخلي كان يمنعني، ربّما لأنّي في قرارة نفسي أو في لاوعيي، لم أكن راغباً في أن أعرف أكثر ويلات مدينة تشبه ما عشته في لبنان، أنا الذي أحاول منذ سنوات أن أمحو ذاكرة الحرب، وأن أزرع مكانها حضارات وثقافات وصور مدن وشعوب تعيش حياةً مختلفة عمّا عشته.

حين رنَّ جرس هاتفي، لم أتردّد في قبول عرض مدير تحرير الصحيفة. قلت له: «سأسافر بعد يومين فقط. وقد أبقى هناك أسبوعاً أو عشرة أيّام كي أتعرّف إلى المدن، وأتحدّث مع الناس، وأحاول نقل أكبر قدر ممكن من الصور والآراء». سافرتُ ولم أبقَ في موسكو سوى يومين، ذلك أنّ حرب الجزائر التي عُرِفتْ بالعشرية السوداء، كانت قد عنُفت، وكنت من بين قلّة من المراسلين العرب العاملين في مؤسّسات فرنسية في باريس ويعرفون الجزائر جيِّدا. اضطررتُ للعودة سريعاً ولم أرَ من حلمي السوفياتي سوى الساحة الحمراء وبعض قبب الكنائس المذهّبة، وكثيراً من يأس الناس وتهافتهم على المحالّ التجارية لشراء كلّ السلع، ورأيت ضباباً كثيفاً يلفُّ المدينة، وضباباً أكثر كثافةً يغطّي العيون، فلا أحد من الروس يعرف إلى أين الاتجاه.

لينينغراد عادت إلى بطرس

في صيف عام 2016، كانت أسباب رحلتي إلى روسيا مختلفة تماماً عن تلك التي قادتني إليها في مطلع التسعينيات. كان الهدف هذه المرة المشاركة في مؤتمر للتقريب بين الأديان نظّمته السيدة آسيا قاسم، وهي سيدة طرابلسية ترأس جمعيةً لرعاية المسنين. منذ سنوات وهي تنشط في إقامة مؤتمرات متعدّدة الأهداف السياسية والدينية والاقتصادية وتنسج علاقات واسعة في لبنان والخارج. تقفز فوق الانتماءات والطوائف. تميّزت بأنّها غالباً ما تجمع بين أناس من مختلف الاهتمامات والمشارب والوظائف، فيصبح المؤتمر مهمًّا بمضمونه، حاملاً الكثير، من المتعة والرفاهية في الشكل، بدءاً من الصحبة الجميلة والسهرات الثقافية والفنّية، وصولاً إلى الرحلات والأحاديث والحوارات التي لا تنتهي بين من لا يلتقون عادة بسهولة.

رافقَنا في تلك الرحلة مجموعة من النخب الدينية والفكرية والفنّية والثقافية، وسيّدات الأعمال من المشرق والخليج. كان في مقدَّمنا المناضل العربي الفلسطيني المسيحي الجريء المطران عطا الله حنّا، ومفتي طرابلس المثقف والمنفتح الشيخ مالك الشعار. هو شخصية لطيفة وقريبة من القلب تماماً كالمطران حنّا، رغم تباين رأي الرجلين، أثناء رحلتنا تلك، في شأن بعض قضايا الساعة الملتهبة كالحرب في سوريا. كان بيننا أيضاً إعلاميون مشهورون من لبنان والخليج (جورج قرداحي، طوني خليفة، عماد مرمل، ليليان ناعسة، فادي شهوان، عبّاس ضاهر، ونوال درويش وجمانة الشامي وأمل ملحم وغيرهم...) ومحامون معروفون بمهنيتهم في مجال المحاماة ونشاطهم السياسي (سندريلا مرهج، وجوزيف أبو فاضل) ومصمّمات أزياء بينهنّ المصمّمة الإماراتية الشهيرة واللطيفة منى المنصوري التي رسمت صورة الرئيس بوتين على أحد الفساتين التي عرضتها، فلاقت استحساناً كبيراً. كانت منصوري جريئة جداً في تعبيرها عن موقفها المؤيّد لسوريا. كان حضورها لافتاً في قلب موسكو، ذلك أنّ هذه السيّدة المحجّبة قدّمت نموذجاً انفتاحياً استثنائياً للإسلام فيما كانت روسيا ترفع شعار محاربة الإرهاب وتنخرط انخراطاً مباشراً في حرب سوريا، درءاً للتطرّف الإسلامي عند تخومها السوفياتية السابقة.

LA

لرحلات كهذه، متنوّعة وجامعة، إيجابيات كثيرة وسلبيات قليلة. فهي تُفرح المسافر وتنعش أيّامه برفاق الرحلة ومتعة الأحاديث، لكنّها تمنع من التركيز على الجوانب والتفاصيل الكثيرة للمدن حيث إنّ المسافرَ يبقى مرتبطاً بالرفاق. مع ذلك اكتشفنا الكثير من جمال المدينة الروسية ذات الطابع الأوروبي الحداثي الأنيق.

كلمة أناقة تصلح تماماً لسانت بطرسبورغ (لينينغراد سابقاً). استعادت المدينة اسمها السابق الذي كانت قد اقتبسته عن مؤسِّسها بطرس الأكبر أو بيتر الأول. وظلّت عاصمة البلاد الروسية لأكثر من قرنين (1712-1918). عندما زرناها هذه المرّة، كان مَن بقي مِن الشيوعيين الروس يستعيدون شيئاً من أمجادهم. يجاهرون بعزمهم على إعادة اسم لينينغراد ويجوبون الشوارع والمدن الروسية الأخرى للحصول على التواقيع اللازمة لدعم مساعيهم. لكنّ أعضاءً في المجلس التشريعي للمدينة قالوا لنا إنّ إعادة الاسم السوفياتي خطيرة لأنّها قد تؤدّي إلى إحداث شروخ في مجتمع ما زال يتلمّس استقراره.

ربّما التذكير مهمّ هنا بأنّ هذه المدينة الهادئة والوادعة والأنيقة والأرستقراطية حملت اسم «لينينغراد» من 1924 حتى 1991 تاريخ استعادة اسمها التاريخي «سانت بطرسبورغ». وكانت منذ عام 1918 قد فقدت دورها كعاصمة لروسيا حين اختيرت موسكو مكانها.

تظهر الأناقة أولاً في واجهات مبانيها المتجانسة كنغمات الأوركسترا الروسية. تتعدّد أشكال الأعمدة والحجارة والجدران والسطوح والنوافذ والأبواب والشرفات، لكنّها تلتقي جميعاً على دقة الهندسة المتراوحة بين المربّعات والدوائر والمثلثات والقبب الخضراء أو المذهّبة. ثمّة شيء حالم في المدينة يثير مشاعر الحبّ والسعادة، ولا سيّما حين يسير السائح فوق الجسور، أو يجول فوق مياه النهار أو القناة، ليصل إلى الصرح الكنسي الأرثوذكسي الكبير المعروف باسم القدّيس بطرس. لا يزال الصرح هنا واقفاً منذ القرن الثامن عشر، شاهداً على عظمة الحقبة التاريخية ومجدها وجمالها ودقة هندستها.

يبدو واضحاً أنّ بطرس الأكبر شاء الانتقام من موسكو، أو أراد اختراع تاريخ معماري يختصر كلّ التاريخ الأوروبي الغربي. لا شيء يبرّر تعدّد أشكال المباني الحجرية الأنيقة سوى الرغبة في محاكاة الفنون الهندسية والمعمارية في العواصم الأوروبية الغربية المختلفة. لا شيء يشبه الأقنية والأنهار والمعابر المائية الطبيعية أو الاصطناعية، إلّا في «فينسيا» الإيطالية. لا شيء يستطيع تحقيق حلم القيصر سوى إغراء كبار الفنانين والمبدعين والمهندسين الأوروبيين. جاء بهم إلى مدينته ليتفنَّنوا في استنساخ أبرز ما في أوروبا الغربية وجمعه حول الماء. فكانت القصور الفخمة، والأعمدة المتنوّعة الأشكال والطول والعرض، والتماثيل والمنحوتات الكثيرة، والمتاحف والمسارح، فضلاً عن الكنائس الضخمة التي تجمع في حناياها الكثير من الرخام والحجر والألوان والأضواء. حتى ليخال المرء نفسه في تحفة فنّية متجانسة متآلفة خلقت في يوم واحد، فتشابهت في جمالها وأناقتها، وتنوّعت في أشكالها وهندستها وألوانها.

كانت معنا في الرحلة الممثلة السورية المعروفة سوزان نجم الدين. امرأةٌ زاخرة بالحيوية والنشاط، تسير أو تركض أمامنا وتسبقنا في جريها، لكنّ الكاميرا لا تفارقها أبداً. لم أرَ في حياتي شخصاً مثلها حريصاً على تصوير كلّ تفاصيل رحلته، كلّها بدون استثناء، ونشرها مباشرة على وسائل التواصل الاجتماعي والتخاطب مع جمهوره، حتى صار الواحد منّا ينتبه إلى كلّ حركة يأتي بها، كي لا يظهر بصورة لا يريدها أمام مئات آلاف الأشخاص الذين يتابعون نجم الدين. لكنّها كانت تفعل كلّ ذلك بكثير من المرح وخفّة الظلّ، فلا تزعج أحداً منّا، وإنّما تضحكنا فحسب، بينما كان النجم السينمائي والتلفزيوني اللبناني باسم مغنيّة أكثر حيويًّة في الأحاديث، وأقلّ رغبة في التقاط الصور.

بين الثورة والجمال ومأساة القياصرة

استغرقت الرحلة بالقطار من موسكو إلى سانت بطرسبورغ نحو أربع ساعات. انطلقنا في الصباح الباكر بعد سهرة طويلة في العاصمة الروسية. كان التعب يسيطر علينا جميعاً. أحاديثنا في القطار قليلة، قليلنا يقرأ، وبعضنا يحملق بشاشة هاتفه، وسوزان تلتقط الصور على عادتها، بينما آثرت المحامية سندريلا أن تذهب لتنامَ في المكان الذي توضَع فيه الحقائب على القضبان الحديدية في آخر المقطورة. لم تقاوم إغراء النوم، رغم صعوبة النوم على المقاعد الصغيرة. لم أصدّق أنَّ إنساناً يستطيع النوم بتلك الهناءة على قضبان حديدية، هي نامت، وكان كلٌّ من يمرّ إلى جانبها يضحك. سرعان ما حلّ مكان الضحك صراخ كثير عندما نزلنا من القطار، إذ وقعت ابنة الصديق الخفيف الظلّ والملتزم جوزيف أبو فاضل بين الرصيف والقطار، وتم انتشالها بسرعة، وبشبه أعجوبة، كالكثير من الأعاجيب التي يجري الحديث عنها في هذه المدينة ذات الاسم المقدّس.

منذ أن غادرنا محطة القطار، أذهلنا سحرُ المدينة. ثمّة مدن في هذا الكون تبدو كأنّها خُلِقت لتكون جميلة وساحرة. كيف لا تكون سانت بطرسبورغ كذلك وهي المستلقية والحالمة على جانبي نهر «نيفا» الذي يتسلل بين شرايينها وحناياها لينعش كلّ ما فيها. كيف لا تكون رائعة وهي التي تآلفت جزرها المتعدّدة وتماسكت بفضل الأخشاب التي يقال إنّ بعضها اشتُري من لبنان. حدّثنا مرافقنا عن أكثر من 20 جسر ونحو 350 جزيرة، فضلاً عن الخليج الرابط بين المدينة وفنلندا، فيجاور البلطيق بدوله الثلاث ويدغدغ عيون روسيا البيضاء.

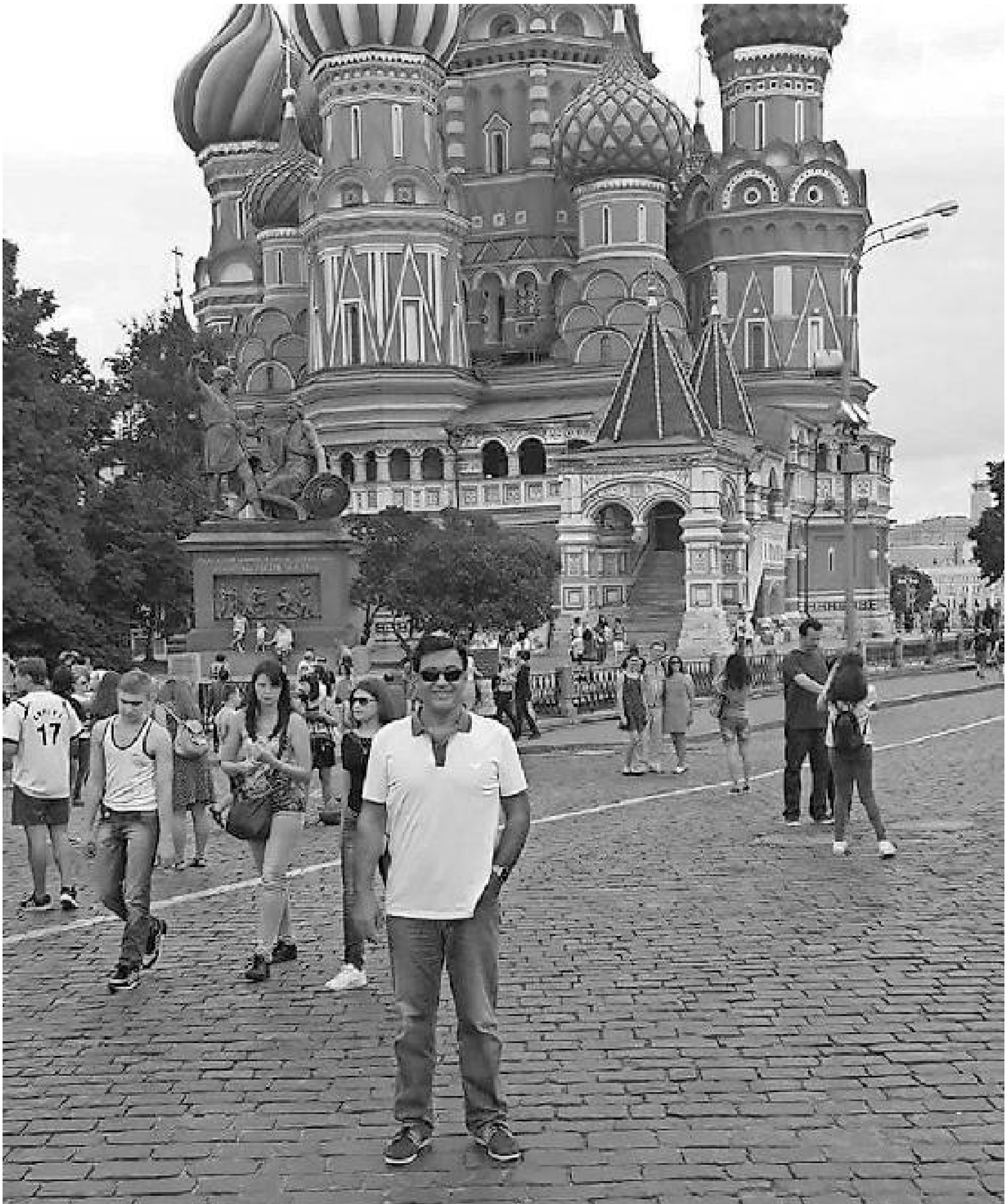

موسكو.

لا يبقى التاريخ الجميل على جماله حين تتسلّل السياسة إلى قلب الجمال. لم يحسَب مطلقاً بطرس الأكبر حين شيّد قصره الشتوي، والقصور الأخرى الفريدة، حين جاء بالمهندسين والنحّاتين والمبدعين والفنّانين من أوروبا، أنّ كلّ هذا الجمال سينتقل يوماً ما إلى الثورة البلشفية، وأنّ العمّال والفلّاحين سيحلّون محلّه، ويحوّلون مدينته إلى مدينة الثورة، ثمّ ينقلون عاصمة البلاد إلى موسكو.

كانت سانت بطرسبورغ محطة أساسية في الثورة البلشفية. سمّاها الثوّار مدينة الثورة. قاتلوا فيها القياصرة وأطاحوا حكمهم بعدما سقطت قذائف إحدى البوارج على القصر الشتوي الماثل أمامي الآن، تحفة فنّية نادرة, اعتقل الثوّار عائلة رومانوف القيصرية، أعدموا معظم أفرادها في سيبيريا، واختفت آثارهم، إلى أن أُعيد إحياء الرفات والآثار في حفل شعبي كبير عام 1996.

من هذه المدينة أعلن لينين انتصاره البلشفي وسقوط العصر القيصري. لم تبقَ القصور على حالها إلّا بالشكل؛ حوَّلها الثوّار إلى متاحف للذكرى، أو مراكز ثقافية، واستهزأوا بالكنائس والتاريخ الأرثوذكسي، ليجعلوها مجرّد أماكن للسياحة والفرجة، أو للالتحاق بِركْبِ فصْلِ الدين عن الدولة، بوصفه أفيون الشعوب.

كنت أتذكّر كلّ ذاك التاريخ، وأعرّج على عظماء الكتّاب والمثقفين الذين أنجبتهم المدينة، حين قال لي صديقنا اللبناني الذي تفضّل وشرح لنا كلّ تفاصيل المدينة، إنّ كبار الساسة الحاليّين هم من هذه المدينة نفسها. الرئيس فلاديمير بوتين وُلد فيها في خريف عام 1952، والرئيس السابق (رئيس الوزراء الحالي) ديمتري ميدفيديف وُلد فيها أيضاً في عام 1965، أي إنّهما عرفا المدينة حين كان اسمها «لينينغراد»، وفيها مات أكبر الكتّاب والروائيين الروس فيودور دوستويفسكي في شتاء 1881.

استقبلتنا المدينة بطقسها الجميل وشمسها الدافئة. وكانت ساحاتها العامّة توحي بالفرح. ربّما كان حظنا ممتازاً، لأنّنا زرناها في فصل الصيف؛ وذلك لأنّها تفتقر إلى الشمس أكثر من 300 يوم في السنة. ولذا، فإنّ نهارها قصير (لا يتجاوز 6 ساعات) في فصل الشتاء، وليلها طويل، بينما تزامن وجودنا هناك مع أطول أيّام النهار (18 ساعة تقريباً). كنت أتمنّى أن نزورها في شهر أيّار/مايو وذلك لأنّ الليالي البيضاء تبدأ أواخر هذا الشهر، وتبقى حتى منتصف شهر تمّوز/يوليو فيختفي الليل تماماً، ويبقى النهار، ويتناجى الغروب والشروق في قصّة حبّ فريدة. يُقال إنّ طقس المدينة تغيّر كثيراً عبْر التاريخ، وإنّها كانت مغطاة بالجليد، قبل 12 ألف عام، وإنّها لم تصبح مأهولةً بالبشر إلّا بدءاً من القرنين الثامن والتاسع.

كثيرٍ من السيّاح يجوبون شوارع المدينة، ويزورونها مثلنا، في هذه الأيّام. تضجُّ الكنائس بالأجانب، مليئةً بالعراقة ورهبة الصمت والسكون. بعض السيّاح يأتون للسياحة أو لحضور مؤتمر، مثلنا؛ وبعضهم يُقيم هنا للعمل في مئات المصانع المختصّة بالسيّارات، أو بالصناعات الثقيلة، أو أسواق المال والبورصات والمصارف. أمّا عدد السكان في بطرسبورغ الممتدّة على مساحة نحو 1500 كيلومتر، فيُقارب خمسة ملايين ونصف المليون شخص أكثرهم روس وأوكرانيون وبيلاروسيون، وبينهم أقليّات جورجية وبولندية وأرمنية وأذربيجانية.

وقفنا في طابورٍ طويل ننتظر دخولنا أحد أهمّ معالم المدينة: متحف أرميتاج. كان أمامه مئات الأشخاص، بل قُلْ أكثر. يُعدّ متحف أرميتاج الأضخم في العالم. قيل لنا إنّنا نحتاج إلى أشهر طويلة كي نتعرّف إلى كلّ ما فيه، لا بل قد نحتاج إلى عام كامل إذا ما أردنا التعرّف إلى كلّ تحفة وتاريخها وأهمّيتها. كان بيننا مَن لا يحبّ المتاحف ولا الآثار. لكنّنا وقفنا بانتظار لحظة الدخول، لا لشيء، بل لمجرّد أن نقول في ما بعد، إنّنا دخلنا هذا المتحف، وشاهدنا بعض التاريخ العريق. في المدينة كذلك متاحف تحفظ أسماء عظماء مرّوا بالمدينة، أو دُفنوا أو عاشوا فيها. هنا متحف الأديب والشاعر والمسرحي المبدع الروسي العالمي الكبير ألكسندر بوشكين المتوفى في المدينة عام 1837. وهنا قصر الباليه، وهناك متاحف العملات، وتحتها جميعاً تحفةٌ هي من أروع وسائل المواصلات في العالم: مترو

الأنفاق الذي بُني ببراعة نادرة تحت نهر «نيفا».

كنتُ، وأنا أسير في تلك المدينة، وأتوقف عند ساحاتها الفسيحة والنظيفة والأنيقة، أغرف من ذاك التاريخ العريق. أتخيّل القيصرَ على حصانه يجوب أرجاءها. أحاول أن أتخيّل أيضاً العمّال والفلّاحين حاملين كلّ نقمتهم واضطهادهم وشظف عيشهم يرمونها حمماً على القصر الشتوي والقصور الأخرى. تساءلت: يا تُرى، هل فوجئوا حين رأوا كلّ تلك العظمة؟ هل أصابتهم الرهبة؟ كيف استطاع رجل هو لينين، أن يغيّر وجه التاريخ، ويغيّر اسم المدينة ومكانتها وهدفها.

مع بعض رفاق رحلة روسيا.

التاريخ يكتبه دائماً المنتصرون. انتصر بطرس الأكبر على جور الطبيعة فبنى أجمل المدن. ثمّ انتصر البلاشفة على عائلة رومانوف القيصرية، فصدّروا من المدينة أهمّ ثورات التاريخ. ثمّ انتصر الفقر والجمود السياسي على الثورات، فاستعادت المدينة اسمها التاريخي، وغداً قد ينتصر الحاضر على التاريخ، فيتغيّر الاسم مجدَّدا، لكنّ الثابت الوحيد، هو أنّنا اليوم في إحدى أجمل مدن العالم وأرقاها وأكثرها لطافةً وعراقةً، نحاول أن نقيم حواراً بين الأديان التي قيل عنها هنا ذات يوم، إنّها أفيون الشعوب.

في رحاب كوبا

كوبا أعجوبة النضارة رغم العمر

كان حلماً من أحلام شبابي أن أذهب إلى كوبا. لم أخطّط لزيارتها، على الرغم من حضورها الدائم في مخيّلتي وفي قلبي. كنت كما معظم الشباب اللبناني المعجب بكثير من أفكار اليسار (وليس جميعها)، أعرف أنّي إذا زرت كوبا فسأعشقها. ذهبت مخيّلتي، وأنا في مقتبل العمر، إلى حدّ الاعتقاد بأنّي لو قُيِّضت لي حياة أخرى، لكنتُ من دون أدنى شك، أقاتل مع تشي غيفارا في أدغال أميركا اللاتينية. لا أدري لماذا تأخّرت كلّ هذا الوقت لزيارة كوبا. لعلّي، في لاوعيي، كنتُ كمن يحتفظ بشيء ثمين لا يريد أن يفرّط به ويستهلكه، فيُبقيه محفوظاً خبيئاً. جاءت الرحلة إلى كوبا بمصادفة غريبة.

كنت في منزلي الباريسي أقرأ رواية «الخيميائي»، أولى روايات باولو كويلو وأشهرها. كان الطقس جميلاً، وكنتُ أستمتع بفترة هدوء بعد عودتي من رحلة شاقّة إلى أفريقيا. لم أكن أنوي مغادرة المنزل إلّا لعشاء مع بعض الأصدقاء على ضفة نهر «السين»، أو لحضور فيلم سينمائي أو مسرحية، أو للسير في شوارع باريس الخلّابة. اتّصلتْ بي زميلة صحافية، وكانت صديقة العمر، تسألني: «هل نستطيع أن نأتي أنا وزوجي (وهو أيضاً زميلٌ ورفيق العمر) لننام عندك، في طريقنا إلى كوبا؟»، قفزت من مكاني كالملسوع، وسقطت رواية باولو كويلو من يدي، وربّما دستها من دون انتباه. اقتربت من النافذة، والهاتف في يدي، وسألتها بكثير من العتب والاستغراب: «ماذا تقولين؟ أتذهبان إلى كوبا، إلى دولة أحلامي، من دوني؟ أهلاً وسهلاً بكما عندي. لكن، قبل ذلك، تفضّلي واحجزي لي معكما، لأنّي سأرافقكما في الرحلة». ضحكت كعادتها، وقالت: «إذا جئتَ معنا فستكون هذه الرحلة رحلةَ العمر حقاً. لكنّ الأمر قد يكون صعباً يا صديقي، فنحن حجزنا قبل فترة طويلة، وإذا وجدنا مكاناً لك، فإنّ ثمن التذكرة والفندق قد يكون مضاعفاً مرّات عدة، وعليك أيضاً أن تحصل على تأشيرة دخول». سارعت إلى القول: «لا تُبالي بالتكلفة يا عزيزتي، سأذهب معكما مهما كان الثمن. ثمّ حاولي مع السفارة في بيروت، فهم يعرفوننا كصحافيين، ولا بدّ من أنّ لديهم حلّاً للتأشيرة». وبالفعل، هذا ما حصل. كان موظفو السفارة الكوبية في بيروت أرقى وأجمل ممّا توقعنا، فقد تدبّروا لي تأشيرة دخولٍ، من دون أن أتجشّم عناءَ الحضور إلى لبنان.

بعدما أمضينا، نحن الثلاثة، يومين في باريس، انطلقنا في رحلة الأحلام. ربّما كانت الرحلة حلماً لديهما أكثر ممّا كانت حلماً لديّ، فقد كانا شيوعِيَّيْن، وكانت كوبا جزءاً من تراثهما الإيديولوجي.

الرحلة بين باريس وهافانا طويلة وشاقّة، تستغرق نحو 11 ساعة. حملت معي كلّ ما وجدته عندي من كتب عن كوبا. استعدتُ ما كنت قد نسيته من اللغة الإسبانية. قرأت كثيراً. نمتُ قليلاً. تسنّى لي التحدّث كثيراً مع صديقتي العزيزة، فقد كان زوجها ينام كثيراً بسبب زكام حادّ ألَمَّ به، ثمّ يستيقظ ليشرب الكونياك أو الفودكا، ليقينه بأنّ ذلك يساعده في الشفاء سريعاً، وبأفضل من الدواء. وحين ينام كلاهما، كنت أبحث عن فيلم هزلي لأشاهده. لم أُبالِ بطول الرحلة، على الرغم من قسوتها. لم أفكّر بالوقت، على الرغم من طول ساعات الطيران. كنت أحلم بأمر واحد فقط: كيف ستستقبلني مدينتي- حبيبتي هافانا. تماماً كما يذهب العاشق للقاء حبيبة تعرّف إليها عبر الانترنت فتحابّا وقرّرا اللقاء.

ها نحن، أخيراً، نهبط في كوبا. يمسح زميلي أنفه بسبب الزكام وقد غدا أحمر كأنوف مهرّجي السيرك، ولا يبدو أنّه مبالٍ بما أصابه. نتضاحك عليه قليلاً، ثمّ يضحك معنا، وهو فرح مثلنا بالوصول إلى عاصمة الحبّ والثورة والعشق والجمال والصمود.

كوبا أجمل ممّا يُحكى عنها، وصامدة أكثر ممّا يُروى عن صمودها. تبدأ الرحلة إليها بسعادة كبيرة

وتنتهي بسعادة أكبر. الله وحده يعلم سرّ ذلك. لا يزال هذا البلد يعيش أوضاعاً اقتصادية صعبة، وحصاراً أميركياً جائراً، لكنّ موسيقى السالسا التي تصدح ابتداءً من بعد ظهر كلّ يوم، تكاد تُنسي الكوبيّين هموم الحياة، فيرقصون ويضحكون ويتعانقون في ليالي الغرام الطويلة، وكأنّما الفقر والحصار شيءٌ عابر، أمّا الحلم بحياة أفضل فلا بدّ آتٍ. ولكن أيّ حلم؟ وأيّ حياة؟

على الزائر أن يكون مسلّحا بالكثير من العزيمة المهنية، كي يستطيع أن يعمل في بلد يوحي أهله (مجرّد إيحاء) بأنّهم في احتفال دائم، وبأنّ العمل هو مجرّد استثناء يومي، لملء فراغ قبل الظهر. بَيْدَ أنّ الأمر أعمق من ذلك بكثير، وأشدّ تعقيداً وصعوبة. والحق، إن ظواهر الأمور في كوبا غير بواطنها. هذا يرقص منتشياً بالموسيقى ومشروب موهيتو، وذاك يرقص مذبوحاً من ألَمِ الفقر الناجم عن الحصار الأميركي.

إنّها نعمة الطبيعة، تجعل كوبا كسيّدة تقدّم بها العمر قليلاً، لكنّها لا تزال تحتفظ بكلّ جاذبيتها وأنوثتها وسحرها. لعلّ هذه من المرّات القليلة التي صدق فيها كريستوف كولومبوس، حين قال في عام 1492 إنّ هذه الجزيرة «هي الأرض الأكثر جمالاً على الأرض».

تأخرت الحقائب قليلاً في مطار هافانا. لا بأس، فتاريخ كوبا في الذاكرة ونضالها وصورة تشي غيفارا في المخيّلة، أمورٌ تسلّح الزائر بالكثير من الصبر والمحبّة، وتجعله يغفر سلفاً ما قد يعترضه من صعوبات أو عقبات. في الصبر هنا تعبير عن التقدير والاحترام للنظام الصامد، وللشعب المحبّ المضياف، والمنفتح على العرب والحياة، وفيه أيضاً مؤازرة لهذا الشعب ضدّ محاصريه.

كانت إجراءات السفر في غاية السهولة. شرّع «الرفيق» كاسترو الأبواب أمام السيّاح الأجانب، بعدما تفكّك الاتحاد السوفياتي وانهارت المنظومة الشيوعية. باتت السياحة مصدراً مالياً أساسياً للدولة. وإلى السياحة أُضيفت بعض القطاعات الإنتاجية الأخرى والإجراءات الحكومية لمنع الانهيار الاقتصادي.

جزء آخر من الانفراج الاقتصادي جاء من حيث لم يكن أحد يتوقّع، جاء من فنزويلا، وتحديداً من الرئيس المتمرّد هوغو تشافيز، الخصم الشرس، هو الآخر، للولايات المتحدة. أسهَمَ تشافيز في إنقاذ صديقه كاسترو من تدهور اقتصادي خطير. بات السند الأقوى للاقتصاد الكوبي في وجه الحصار والجور الأميركيين.

جاء تشافيز في الوقت المناسب، لأنّ التقنين الذي عرفته كوبا بعد تفكّك الاتحاد السوفياتي، وصل إلى حدّ انقطاع التيار الكهربائي لساعاتٍ يومياً، وإلى حدّ تعيين أنواع الطعام الذي يجب الاكتفاء به، واعتماد البطاقات الغذائية. اضطرّ فيدل كاسترو في آب عام 1990 إلى الإعلان عن برنامج خماسي عُرف باسم «المرحلة الخاصة» (periodo especial)، فعوّض بذلك شيئاً ممّا فقده بعد تفكّك الاتحاد السوفياتي الذي كان يقدّم إلى الجزيرة مساعداتٍ تصل قيمتُها إلى أكثر من خمسة مليارات دولار، سنوياً.

نساء باسمات وسيّارات جمّلها الزمن

تأتي شابّةٌ كوبية من الجمارك. تبتسم للجميع. تطلب منّا الانتقال إلى المكان المجاور لتسلّم الحقائب عن السجّادة المتحرّكة. الوجود النسائي في الجمارك والأمن والشرطة لافت، تماماً كما هي لافتة بشاشة المشرفين على الأمن، والمناقضة لفظاظة رجال الأمن ونسائه في الدول الغربية، وخاصّة في الدول العربية. هذه شابّةٌ أخرى تنتظر خارج قاعة المطار. توزع الركاب على سيّارات التاكسي. سيّارات متنوّعة، بعضها قديم، بل موغل في القِدَم، إذ يعود إلى أكثر من 40 أو 50 عاماً، وبعضها «حديث»، أي يعود إلى أكثر من 15 سنة. باتت السيّارات القديمة جزءاً من التراث الكوبي. بدأ الأمر لأسباب

اقتصادية، فصار مادَّة سياحية جاذبة بامتياز.

تعود السيّارات القديمة والضخمة الحجم والمتعدّدة الألوان إلى الأيّام الأولى للثورة، أو إلى ما قبل الثورة. يحافظ أصحابها عليها من منطلق كونها جزءاً من ممتلكاتهم القديمة. أمّا السيّارات الأكثر حداثة، فتبيعها الدولة بأسعار أدنى من قيمتها الفعلية، ولكنّها تباع فقط للذي يستحقها، كأنْ يكون قدّم خدمات صحّية أو تربوية أو اجتماعية وغيرها. ولا يحق لمالك السيّارة أن يبيعها لشخص آخر، بل يبيعها للدولة التي تعيد بيعها لمواطن آخر.

كلمات الترحيب بالإسبانية من سائق التاكسي تحاكي الجمال المحيط بنا من كلّ حدب وصوب، فكنّا ثلاثتنا ننظر يمنة ويسرةً، ونحار إلى أيّ جهة ننظر، كلّ شيء غريب وكلّ شيء ساحر وجميل، كأنّنا أمام لوحة مزركشة الألوان تضجّ بالحياة والفرح. ما إن وصلنا إلى هافانا حتى استقبلتنا أشجارٌ وارفة، وأزقّة نظيفة، وبنايات توحي بأنّها لا تزال قائمة بتاريخها الأرستقراطي المجيد. وهل يمكن أنْ ننسى أنّ كوبا كانت أول منتج ومصدّر للسكّر، وثالث شريك للولايات المتحدة بعد بريطانيا وألمانيا؟

كلما فكرتُ بمزارع قصب السكر، تذكّرت تلك الصناديق الكرتونية الكبيرة التي كانت في منزلنا الريفي في لبنان. هي صوَرُ اثنين من أجدادي هاجرا، مطلع القرن العشرين، إلى كوبا. عمِلا في مزارع قصب السكّر. صارا من كبار الأثرياء. كانت صوَرُهما عند أهلي تُظهرهما ممتطيَيْن حصانين، وحوْلهما العمّال في الحقول. كنتُ أُحبّ جدّيّ هذين لأنّهما جدّاي، ولا أحبّ تلك الصورَ التي تشي بالعبودية، وبأنّهما كانا يستغلّان أولئك الذين كانوا يعملون في مزارعهما. حاولت البحث عن أثرهما حين وصلت إلى كوبا في أواخر القرن العشرين، لكنّي لم أعثر لهما على أثر. تغيّرتْ الأسماء والأماكن. قيل لي إنّ أحدهما غادر كوبا بعد الثورة إلى فلوريدا الأميركية، حين جرى تأميم كلّ مزارع قصب السكّر، والآخر بقي في كوبا ومات فيها.

انتهى عصر الرأسمالية، لكنّ المباني القديمة لا تزال منتصبةً بأناقة أرستقراطيتها السابقة، ومحبّة أهلها الحاليّين. توحي الشبابيك والأبواب العتيقة بأنّها آيلة إلى السقوط بين لحظة وأخرى، لكنّها تبقى صامدةً بأكثر ممّا يظنّ كثيرون. إنّها، من وجهٍ ما، تُشبه الثورة من الخارج. ما أكثر الذين توقّعوا سقوطها، لكنّها صمدت بأكثر ممّا توقعوا. رحل رؤساء أميركيّون كُثُر مع تهديداتهم، وبقيت الجزيرة أنيقة جميلة صامدة ومُحِبّة.

تبدو المباني القديمة كأنّها نعمةٌ لكوبا ونقمة عليها في آن واحد. فأمّا النعمة، فلأنّ الجزيرة لا تزال محافظة على طابع تراثي قلّ نظيره في العالم. تنعش الزائر منذ اللحظات الأولى لوصوله. لا زحمة سيّارات هنا، ولا ناطحات سحاب. لا إعلانات لمطاعم الوجبات السريعة، ولا متسوّلين على الطرقات. لا حاجة أصلاً للإعلانات. يشتري المواطن كلّ السلع الموجودة. السلع معروفة ولا تحتاج إلى ترويج. وأمّا النقمة، فلأنّ المباني باتت بحاجة إلى تجديد؛ فأحوال بعضها صارت مقلقة. وضع المسؤولون عن هافانا خطة اقتصادية تقوم على رفع أسعار الفنادق والخدمات السياحية، وعلى تنويع المتاحف والأماكن الأثرية وتعزيزها وتجديدها، وتقضي بأن يُستخدَم ما يُجمع ويوظّف في التجديد.

تراءت لنا السياحة الأوروبية أكثر حضوراً من غيرها، أمّا الأميركية فمقطوعة بسبب قطع العلاقات. الإيطاليون والإسبان هم الأكثر حضوراً. يأتي بعدهم الأوروبيون الآخرون، وخاصّة القادمون من فرنسا وألمانيا والدول الأوروبية القديمة. انتهى ذلك الزمن الذي قال فيه الثائر هاتوي حين جاءه الراهب يطلب منه الاعتراف قبل إعدامه حرقاً: «إن كان الإسبان سيذهبون إلى الجنّة فلتكن جهنّم من نصيبي، ولا حاجة بي للاعتراف أو طلب المغفرة»!

كنّا نعبر بين كلّ هذا الجمال والتاريخ والتراث والصمود، فيسرح ذهني ناحيةَ التاريخ الإسباني الاستعماري والدموي، في هذا البلد. فكرت كذلك في تلك الأيّام القاتمة التي عرفتها المدن الجميلة هنا، حين كان استعباد الأفارقة أمراً عادياً عند البيض. جيء بالفقراء والمحرومين والمظلومين إلى هنا للعمل في مزارع ومصانع قصب السكّر. كثيرون ماتوا بسبب الأمراض والفقر والعذاب. قُهروا وماتوا لسواد لونهم، ولحاجتهم إلى عمل. تركوا خلفهم كلّ هذا الجمال الذي بنته أياديهم المتشققة وجباههم المتصبّبة عرقاً، وتركوا لوناً خلاسياً يختلط فيه الأبيض بالأسود، ليجعل من الجمال الكوبي حاضراً مشرقاً، لكن فيه بصمات التاريخ القاسي. مزيج الأجناس والألوان خلق شعباً كوبياً متنوّع الألوان والأعراق، وأكثرَ تسامحاً ومحبّة ورحمة. السحنات الخلاسية هي الغالبة والطاغية، وهي الأكثر جمالاً وإثارةً؛ لكنّ السحنات البيضاء والشعر الأشقر هي الأخرى جزءٌ من المزيج الكوبي الجذّاب. كأنّما الله

خصّ هذه الجزيرة بسحر الطبيعة والبشر في آن واحد.

الحصار المفيد

سعت أميركا إلى خنق كوبا أكثر من مرّة. فرضت عليها القوانين الجائرة. عاقبت الشركات التي تتعامل معها. كثفت إجراءاتها العدائية. اضطرّ البابا يوحنا بولس الثاني في عام 1998 للمجيء إلى هافانا. نسي قليلاً ثوب الرهبنة، ونسيت كوبا قليلاً ثوب الشيوعية. قال على أرضها إن الحصار الأميركي غير عادل وغير مقبول أخلاقياً. لكن لا دعوات البابا ولا التدخّلات السنوية للأمم المتحدة استطاعت أن تثني الكاوبوي الأميركي الذي شعر بأنّ حبله التفّ حول عنق الحصان الكوبي، ولم يبقَ أمامه سوى سحبه باتّجاهه فيأتيه صاغراً مطيعاً.

كنّا نتوغّل في أعماق هافانا الخلّابة ببيوتها القديمة وسيّاراتها السبعينية العمر، وأتساءل حتى متى ستبقى صامدةً جزيرة الثورة الرائعة هذه؟ هل يستمرّ صمودها بعد رحيل كاسترو؟ هل يريد شعبها الاستمرار في الصمود حقاً، أم هو ضاق ذرعاً بذلك، وبات يريد حياة أكثر رفاهية تشبه تلك التي يعيشها مَن هرب من كوبا صوب أراضي الجار الأميركي الكبير، واستوطنها حتّى كاد ينسى الوطن؟

حين وصلنا إلى كوبا، كان الرئيس الأميركي جورج بوش الابن يقول أمام طلّاب أميركيين وكوبيين في ميامي إنّ نهاية النظام الكوبي باتت قريبة. الحلم الأميركي بقلب النظام قديم قِدَمَ عروق قبضة كاسترو التي لا تزال ترتفع في الهواء صامدة ضدّ الشمال الأميركي. يتندّر الكوبيّون ببعض أخبار المسؤولين الأميركيين، أو المعارضين الكوبيين المقيمين في أميركا. يقولون على سبيل النكتة، إنّ إصبع الأميركيين قد تقلّص طوله لكثرة ما ينقرون به على الطاولة مؤكّدين أنّ نظام كاسترو سيسقط هذا العام. بقي كاسترو رغم أنف البيت الأبيض وحكّامه.

العين الكوبية صامدة ضدّ المخرز الأميركي. لم تسقط التجربة الاشتراكية في كوبا. ترنّحت غير مرة، لكنّها لم تسقط. بقيت كوبا صامدة في وجه الحصار. صمدت أيضاً بعدما أعرب الأوروبيون عن تبعية غير مسبوقةٍ في علاقتهم بأميركا حيث قرّروا في عام 1996 فرض حصار آخر، مطالبين كاسترو بأن يقدّم أدلّة واضحة على طريق الانتقال السلمي نحو تعدّدية ديمقراطية.

كان رئيس الوزراء الإسباني السابق خوسيه ماريا إثنار، الأطلسيّ الهوى والاتّجاه، قد نجح في دفع حلفائه الأوروبيين إلى فرْض عقوبات سياسية واقتصادية على الجزيرة في صيف عام 2003. مرّت العقوبات الاقتصادية والسياسية، وبقي فيدل كاسترو يردّد أمام جماهيره: «إنّ الكلاب تنبح والقافلة تسير».

مجّانية الطبّ والتعليم

لم تتحسّن حالة الزكام عند صديقي. لا بدّ من إيجاد عقارٍ سريع الفعالية. لا نريد أن يُمضي أيّامه في السرير. النهار الهافاني جميل، والليل أكثر جمالاً وسحراً وإثارة. اتُّصلت بعاملة الفندق لنسأل عن طبيب. لم يتأخّر الجواب. جاءنا الدواء سريعاً. جاء الشفاء أسرع. طوّرت كوبا مجالاتها الطبّية على نحو لافت. لعلّ الحصار أفادها في تطوير علومها والاعتماد على ذاتها. الطبابةُ في كوبا تماماً كما التعليم والتربية، هي من القطاعات الرائدة. صار النظام الصحّي الكوبي من أفضل الأنظمة في العالم. تستطيع بلاد فيدل كاسترو أن تصدّر إلى فنزويلا وإلى دول أخرى في العالم آلاف الأطبّاء، فضلاً عن أولئك الذين اختاروا الرحيل والعمل في الولايات المتحدة.

والطبابةُ في كوبا مجّانية، كمعظم الخدمات الأخرى. إمكانيّة تصنيع الأدوية كبيرة، فأكثر من 70 في المئة من الأدوية تُنتَج محلياً. جرى تطوير العلوم الطبّية بعدما حُرِمت كوبا من الأدوية الأميركية. ثمّة

من يقول مثلاً إنّ شفاء مرض السكّري في هافانا قد يكون الأفضل في العالم. التعليم مجّاني أيضاً. نجح نظام كاسترو في جعل كوبا من البلدان النادرة في العالم التي ليس فيها أمّيٌّ واحد.

كنّا كلّما أمضينا يوماً إضافياً في هافانا، نكتشف أنّ الجميع متعلّمون ومثقفون. لكنّ الذين يتحدّثون بالسياسة قلائل. معظم الثقافة تتمحور حول الأدب والشعر والفنّ والموسيقى والسينما وأمور الحياة الأخرى. لا أدري إن كان الكوبيّون ينفرون من السياسة، لأنّهم حذرون من الحديث فيها بسبب التشدّد؛ لكنّ الأكيد أنّ ثقافتهم واسعة وتشمل قطاعات كثيرة من المجتمع. في الحالتين كان الأمر ممتعاً، وتمنّيت لبلادي الكثير من الثقافة والقليل من السياسة.

الدعارة الممنوعة

قم وارقص معي السالسا. تبتسم يرسكا الخلاسية اللون الممشوقة القدّ. لا يهمّها أن تقول ذلك أمام عشرات الأجانب المتراقصين على النغم الكوبي الجميل. العلاقات الاجتماعية والإنسانية والعاطفية هنا فريدة، قد لا تجد لها مثيلاً في العالم. هنا الناس يتحادثون، يتبادلون الرقص والثقافة والغناء. يطربون للموسيقى الجميلة، من دون أن يكون خلف الأمر أيّ مخطط لكيفية إنهاء السهرة.

يرسكا موظفة في فندق، تحمل إجازتين: الأولى في علم النفس والثانية في الأدب، لا يزيد راتبها الشهري عن 500 بيزوس. والبيزوس الكوبي جزءان، الأول غير قابل للصرف بالعملة الأجنبية، وهو مخصّص لحصول الكوبيين على مأكلهم وعلى الحاجيات البسيطة، والثاني قابل للتبادل بالعملات الأجنبية. هي تقبض راتبها بالنوع الأول، ما يعني عملياً أنّ ما تقبضه لا يزيد عن عشرين دولاراً، يُضاف إليه الحافز، وهو تعبير مستحدث ويعني هديّة شهرية تساوي عشرة دولارات باتت تُقدَّم للموظفين، منذ أن شهِدَتْ الأوضاع الاقتصادية بعض التحسّن في الأعوام الثلاثة الماضية.

بدتٍ لي يرسكا مفعَمةً بالحيوية. فوق عنقها الجميل وجه خلاسي وعينان خضراوان وشعر أجعد متدلٍّ على كتفيها، وأسفل العنق ثدييان بارزان من تحت قميص عليه صورة تشي غيفارا. ترقص وتضحك. تتوقف. تشرب. تتحدّث عن كلّ شيء. ثمّ تسأل عن بلادنا. تسمع عن حربنا، وتعرف عن فلسطين، وتقول إنّها تحبّ بلادنا من دون أن تراها. ربّما لذلك تحبّها هه.

كانت هذه الشابة الكوبية الجميلة ترافق صديقتها التي تجالس رجلاً فليبينياً تبدو عليه بعض مظاهر الغنى. قالت إنّ صديقتها التي لم يتخطَّ عمرها 27 عاماً، تعرّفت إلى الزائر الستيني منذ فترة، وإنّه يدعوهما بين حين وآخر إلى عشاء فاخر في الخارج، أو يقدّم لصديقتها بعض الهدايا التي لا تحلم بالحصول عليها من راتبها الكوبي.

لا توجد دعارة بالمعنى المتعارف عليه في كوبا، ولكنّ بعض الفتيات يُمارسْنَ ما يوصف هنا بـ«كابابيرا». الكلمة تعني بالعربية الفارسة أو الخيّالة أي راكبة الخيل، بمعنى أنّها تقبل مرافقة أجنبي إلى الأماكن العامّة فقط. النظام الكوبي يمنع دخول الكوبيّين أو الكوبيّات إلى غرف الفنادق، أو إلى الأماكن المخصّصة للأجانب، في سياق قمعه لكلّ أشكال الدعارة. منع الدعارة لا يعني منع الحرّية الكبيرة في التعارف. قلّة الإمكانيات المادّية تجعل قسماً لا بأس به من الكوبيين والكوبيات، ينتظرون عند مفترقات الطرق وقارعاتها كي ينقلهم أحدٌ بسيّارته بطريقة «الأوتوستوب» لتفادي انتظار باصات النقل العام وصعوبتها. كنّا نعبر بالسيّارة بين طوابير أو جماعات من الناس يلوّحون بأيديهم للسيّارات. هذه وسيلة تسمح بالتعارف السريع والتلاقي. لكنّ التعارف ليس وحده الهدف. فالتضامن واضح بين الكوبيّين، ولا خوف من سارق أو نشّال أو محتال.

تُعدّ كوبا من أكثر دول أميركا اللاتينية، لا بل من أكثر دول العالم أمناً، فالجريمة تكاد تكون معدومة حتى في الأحياء النائية والمظلمة في الليل. كلّ شيء في هذه البلاد يوحي بأنّها صُنِعت للفرح، وربّما

لو كان وضعها الاقتصادي أفضل ممّا هو عليه، لما رغب كوبي في مغادرتها إلى أيّ مكان آخر في العالم. تذكُّرت شاعر الثورة والثائر الكبير خوسيه مارتي الذي قضى قتلاً وهو يحرّر بلاده، والذي قال يوماً: «أنا راغب في تقاسم قدر الناس الأكثر بؤساً على الأرض، وأنا يسعدني هذا النهر الجاري من الجبل أكثر ممّا يسعدني البحر».

ينتظر الكوبيون في محطات الباصات وتحت الجسور وعند المفارق. ينتظرون سيّارات تُقِلّهم إلى أماكن عملهم صباحاً، وإلى منازلهم مساءً. ربّما ينتظرون أيضاً معجزة اقتصادية تفسح في المجال أمامهم لأن يصبحوا سعداء في البحبوحة، بدلاً من اختراع أنماطٍ للسعادة في الضيقِ والقلّة.

معظم الكوبيين يعملون من أجل الدولة ولما فيه مصلحتها. كلّ شيء تقريباً خاضعٌ للقطاع العام، بما في ذلك الفنادق والمطاعم والمنشآت السياحية. ومع ذلك، فإنّ النظام سمح في السنوات الأخيرة لبعض الكوبيين بإقامة مطاعم في بيوتهم، تماماً كما سمح بتبديل العملة المحلية بالدولار أولاً، ثمّ باليورو. يروي البعض عن شركات خاصّة قامت، أو مصارف أُنشئت، وبينها مصرف فرنسبنك (اللبناني الفرنسي) الذي ينحصر عمله بتقديم قروض إلى بعض المشاريع.

المطاعم في البيوت أجمل

يخترع الكوبيون وسائل سعادتهم يوماً بعد يوم، ريثما يأتي فَرَجٌ اقتصادي طال انتظاره. لم نُفاجأ، أنا وصديقاي، حين شعرنا بخطواتٍ خلفنا، في سوقِ الهدايا والتحف واللوحات والأثريّات. وما إن استدَرْنا، حتّى اقترب منا شابٌّ عشريني العمر سائلاً بصوت خفيض: «أتريد سيجاراً كوبياً أصليًّا مع شهادة، أتريد تبغاً، أتريد تصريف العملة؟». كنّا قد اشترينا كثيراً من السيجار، وبدّلنا العملة. اعتذرنا وشكرناه، فاعتذر وشكر وتابع السير وملاحقة السيّاح.

تبدو كلّ هذه المحاولات نوعاً من عمل هواة، أو أناس اكتشفوا للتوّ وسيلةً للربح السريع منذ فترة قصيرة فقط. ما إن ابتعد عنّا الشابّ العشريني، حتّى اقتربَتْ سيّدة خمسينية في سانفويغو. ابتسمت لنا، فلمعت أسنانها البيضاء خلف وجهها الشديد السمرة. قالت بصوت أكثر ثقة من الشاب الذي سبقها: «ما رأيكم لو تأتون للأكلِ عندي في المنزل، أستطيع أن أطهو لكم السمك والسلطة وأقدّم لكم الفواكه والمشروبات بسعرٍ أقلّ من المطاعم، وبنكهة ألذّ وأطيب، ولا تخشوا السعر، لن آخذ من كلّ منكم أكثر من عشرين دولاراً». شيءٌ ما يوحي بالثقة في وجوه الناس هنا. طلباتهم وعروضهم تمرُّ بسلاسة وبشاشة بعيداً عن صور العصابات والمافيات التي يمكن للمرء أن يراها في مجتمعات أخرى، فبمجرّد أن تقول للذين يتبعونك في كوبا شكراً، «غراثياس» بالإسبانية، حتى يعدّل السائل وجهة سيره ويتركك وشأنك.

مع الزميلين جنى نصرالله وسمير رزق.

اعتدنا في أيّامنا القليلة في كوبا، أن لا نتعامل بحذرٍ مع الكوبيّين. هم قمّة في اللطافة والتهذيب ورفعة الأخلاق. ليسوا نصّابين ولا محتالين ولا منافقين. قبِلْنا عرْضَ السيدة الخمسينية. تبعناها. كانت تُسرع الخطى ربّما خوفاً من شرطي سياحي أو لتوصلنا باكراً. كان قفاها المتوسّط الحجم والمنحوت جيًّدا، يتمايل أمامنا، تحت فستانها القصير، ونحن نضحك ونسير خلفها.

ما إن دخلنا بهو المنزل الذي لا يوحي بشيء من الخارج، حتى كانت المفاجأة: استقبلتنا سيّدة مستديرة الشكل بشوشة محمرّة الوجنتين، وردّدت غير مرّة عبارات الترحيب. بدا لنا بيتها في غاية الترتيب والنظافة. رائحة الطعام الشهيّ تنساب إلينا من المطبخ. الكراسي القديمة والأنيقة تجاور كنباتٍ توحي بالصيف وراحة النفس. يُطلّ المنزل من الشرفة على حديقة غنّاء. وعلى الشرفة طاولة نظيفة وأنيقة وبعض الكراسي. إلى جانبها طاولة أخرى عليها أربعة ضيوف أجانب. هم لا شك يعرفون أنّ الطعام في المنازل أفضل وأرخص منه في المطاعم.

صافحتنا السيدة المستديرة القامة بكثير من الودّ والترحاب. أدخلتنا إلى المطبخ. اختار صديقي أن يرتمي على الكنبة ليرتاح من أثر الزكام. بقيت زوجته إلى جانبه. أمّا أنا فقد دفعتني حشريتي للدخول إلى المطبخ. استأذنتُ صاحبةَ الدار ودخلتُ. ابتسمتْ لي سيّدتان تحرّكان الطبيخ داخل القِدْر. تهامستا وضحكتا. لم أسمعْ، لكنّني ابتسمتُ لهما. كانت إحداهما تُرفِق تحريكَ يدها بصوتها الجميل، وتغنّي. بدا لنا المنظر جذّابا من اللحظات الأولى. كانت رائحة الطعام كافية لجذبنا سريعاً إلى الطاولة الثانية على الشرفة. جلسْنا فجاءنا الشراب الكوبي، ثمّ السلطة، ثمّ سمك القريدس، فأطباق أخرى متنوّعة، وبعدها الفواكه الطازجة. تمتّعنا لأكثر من ثلاث ساعات بذاك الجوّ الكوبي المنزلي الحميم. استمتعنا بالأكل الشهيّ، وراقنا غناء السيدة التي تطهو. كانت ساعات من خيال ومتعة. وكانت مفاجأتنا أكبر حين علمنا أنّ كل ما قُدِّم لنا لا يتجاوز ثمنه ستين دولاراً!

ربّما تكون عزيزي القارئ مرَرْتَ بتجربة مشابهة، وقد ترى أنّ الأمر طبيعي، ولكن صدّقني إن قلتُ لك إنّك تخرج من المنزل الكوبيّ تاركاً فيه جزءاً من قلبك وحبّك. ثمّة سحر في منازل الكوبيين وابتساماتهم وطيبة قلوبهم قلّما تجد نظيراً لها في العالم.

اشتراكية الدولة ورعايتها

من غير الممكن معرفة ما إن كان الكوبيون حريصين على بقاء نظامهم الاشتراكي على حاله أم لا. الضمانات الكثيرة التي تؤمّنها الدولة تجعل الكوبي أكثر اكتفاءً وسعادةً من الكثير من نظرائه في دول الجوار في أميركا اللاتينية، ولكنّ الحلم الاقتصادي الأميركي يبقى هو الآخر حاضراً عند بعض الكوبيّين.

يستطيع الكوبي أن يعتمد على الدولة في الحصول على التعليم والاستشفاء، وعلى قدر كافٍ من السكّر والأرُزّ والزيت والطحين وغيرها من المواد الغذائية، علاوةً على الحليب والفواكه المطبوخة للأطفال. وهو يشتري كلّ ذلك بأثمان زهيدة، وبعملته الخاصّة غير القابلة للصرف. لكنّه، إذا شاء مثلاً شراء الصابون أو سلعاً من هذا القبيل، فهو بحاجة إلى البيزوس القابل للصرف. تلك هي حسنات وسيّئات النظام الاشتراكي؛ فالكوبيُّ يشعر، من جهة أولى، بأنّه ليس بحاجة لتعب القلب ووجع الرأس للحصول على قوت يومه، وعلى حياة هادئة هانئة، لكنّه، من جهة ثانية، لا يستطيع أن يحقق أحلاماً كبيرة، أو أن يجني ثروات تجعله قادراً على السفر والتمتّع بكماليات الحياة.

وقد لا يعرف كثيرون أن فيدل كاسترو الذي بات اليوم رمزاً لصمود آخر قلاع الاشتراكية، لم يشَأْ، ولم يعلن تبنّي الاشتراكية إلّا بعدما وصلت هجمة الولايات المتحدة عليه، إلى حدّ إرسال مهاجرين كوبيين إلى كوبا لقلب النظام عسكرياً، وقصف مواقع كوبية. آنذاك قررت الـ«سي آي إيه» اغتياله، فكان أن أعلن اشتراكية الثورة في نيسان/أبريل من عام 1961. سبق ذلك اتفاقيات مع موسكو، ولا سيّما أثناء زيارة رئيس الوزراء السوفياتي أناستاس ميكويان في شباط عام 1960 لهافانا. بعد تلك الزيارة، جرى توقيع اتفاقيات تجارية هائلة، وأُرسِل خبراء وتقنيّون لتعويض من هاجر من الكوبيين. سبق ذلك أيضاً إقامة علاقات دبلوماسية مع الصين في أيلول/سبتمبر من العام ذاته.

كاريزماتية كاسترو وضعف المعارضة

لا أحدَ في كوبا يجادل في «كاريزميّة» فيدل كاستور وقدرته الهائلة على إلهاب مشاعر الجماهير. على الدوام، تسعى المعارضة الداخلية للقيام بعملٍ ما ضدّه، لكنّها تبقى قليلة التأثير، أمّا المعارضة الحقيقية فموجودة في ميامي في فلوريدا، ولكنّها فاقدة للكثير من تأثيرها المعنوي؛ فهي تشكّل جزءاً من مشروع سياسي أميركي مكروهٍ أصلاً عند الكوبيين. ولذلك، فإنّ الحديث عن تغييرات جذرية بعد رحيل الرئيس الكوبي يحمل الكثير من المبالغة والمغالاة.

مع وصولنا الى كوبا، كان الكلام كثيراً ولكن في الجلسات المغلقة، عن الإعداد لمرحلة ما بعد كاسترو، ذلك أنّ راوول، شقيق فيدل، بات قادراً على تحمّل المسؤولية. وقد أثبت ذلك خلال مرض الرئيس الكوبي، ووضع الحزب خطّة متكاملة لمواجهة أيّ طارئ.

ولأنّ الأمن مهمٌّ، تفادياً لأيّ خروق أميركية، فمن الصعب أن يجد الزائر في كوبا حرّيّة استخدام الانترنت في الفنادق، مثلاً. الانترنت متوفر، لا ريب، لكنّه محدود جداً، فاستخدامه محصورٌ في أمور عادية، ومن غير الممكن الدخول إلى كلّ المواقع أو إرسال أيّ شيء عبْر هذه المواقع. كذلك الهواتف النقالة، فهي غير متوفرة إلّا في نطاق محدود، وهي تُعَدُّ من الكماليات.

الضرورات الأمنية لا تتطلب بطبيعة الحال وجود آلاف المعتقلين السياسيين. عدد هؤلاء المعتقلين، محدودٌ جداً. خلال زيارتنا لكوبا، أُطلِق سراح تسعة معتقلين، في مقدَّمِهم خوسية لويس غارثيا،

المعروف باسم أنطونيث، بعدما أمضى 17 عاماً في السجن، لمجاهرته في أحد التجمّعات العامة بشتم سياسة كاسترو.

هناك نوعان من المعارضة إذاً، الأولى خارجية مرتبطة بأميركا وفاقدة لقاعدة شعبية واسعة، والثانية داخلية نجحت في عام 2003، أي بُعيد الأزمة الاقتصادية، في جمع خمسة وعشرين ألف توقيع، بغية إجراء استفتاء حول الحرّيات، وعقدت مؤتمراً عاماً. كان النظام يسجن في العام ذاته 75 معارضاً ويعدم ثلاثة أشخاص بعد سرقتهم مركباً، بُغْيَةَ مغادرة الجزيرة (بحسب معلومات وزارة الخارجية الفرنسية).

المعارضة موجودة ولكنّها غير قادرة على التغيير. يتندّر الكوبيّون بقصّة لافتة في هذا السياق. يذكُرون مثلاً كيف رفعَ كاسترو أسعار الموادّ الغذائية في اليوم الأول، وما إن بدأ الناس بالتذمّر، حتى جذب ملايين الكوبيين إلى احتفال جماهيري شجباً للحصار الأميركي. لعلّ أميركا قدَّمتْ على مدى السنوات الماضية، أفضل هديّة للنظام، ولو أنّ جور حصارها أصاب الناس لا النظام. في كلّ الأحوال، يبقى الاقتصاد سيد الموقف. الحياة في كوبا متعةٌ قد تندُر مثيلاتها في العالم. لكنّ الجميع ينتظر انفراجاً اقتصادياً. يقال الكثير عن أُناس هاجروا إلى ميامي وندموا، فعلى الشواطئ الأميركية ينبذهم الأميركيون، ويعتبرون أنّهم يزاحمونهم على قوتهم، شأنهم في ذلك شأن كلّ المهاجرين في العالم. الكوبي كغيره من أبناء هذه المعمورة، يحلم برفاهية اقتصادية وبحرّية أكثر اتّساعا. ربّما يبحث بعض الكوبيين عن بدائل خارج حدود الوطن، حتى لو كانت هذه البدائل تصدم غالباً من يهجر كوبا.

نجح كاسترو حتى الآن في الصمود أمام الشمال الأميركي، ولكن هل ينجح من سيخلفه؟ هذا السؤال رافقَنا ونحن نودّع موظفة المطار، ونشكرها كما شكرنا كلّ أهل كوبا الطيّبين على حسن استقبالهم.

اضحك يا غيفارا... كوبا انتصرت
(رحلتي الثانية 2015)

تغيب الشمس خلف الأحياء القديمة في هافانا، ينتشر العشاق على مدى الكورنيش. لا عنصرية ألوان هنا، لا مذاهب، ولا طوائف، ولا حروب «داعش» و«النصرة»، ولا غزوات داحس والغبراء. عشّاق مختلطو الأعراق والألوان. أصولهم الأفريقية والإسبانية تُضفي على الليل الكوبي رونقاً خاصًّا. تترنح المدينة على وقع موسيقى السالسا المنبعثة من السيّارات المتوقفة عند جانبي الطريق.

على الطريق الفاصلة بين هافانا وسانتا كلارا، شعارات مناهضة لأميركا المجاورة. بين لافتة وأخرى، تنتشر صور الكوبيّين الخمسة المعتقلين في سجن غوانتانامو السيّئ الذكر، اتَّهمتهم أميركا باختراق المعارضة الكوبية في أميركا، اعتقلتهم فصاروا قضيّة.

يبتسم الموظف في شركة تأجير السيّارات، يمسح بعض الغبار عن زجاج السيّارة، ينزل تحتها ثمّ ينهض، يدور حولها ليتأكّد من أن لا إصابات فيها، يقدّم ورقة الإيجار لتوقيعها. يبتسم مجدَّدا، ويقول: «ليتني أستطيع الذهاب معكما إلى سانتا كلارا». يبدو كجميع أهل بلده الجميل الطيّب، يكنُّ الحبَّ نفسَه لِمَن هم في سانتا كلارا.

قبل أن نترك العاصمة هافانا، نلمح مبنى شعبة المصالح الأميركية. يرتفع أمامه 138 علماً أسود. هكذا حجبت كوبا الشاشة الإلكترونية فوق الطابق الخامس ل-«شعبة التجسّس»، كما يصفونها هنا، بُغْيةَ منعِها من بث الدعاية المناهضة للنظام. تحسّنت العلاقات قليلاً في عهد الرئيس باراك أوباما، لكنّ كوبا لا تزال تعاني ظلم الجار.

منذ ربيع عام 1960، قال وزير الخارجية الأميركي كريستيان هيرتا: «ينبغي استخدام كلّ الوسائل الممكنة، وعلى نحو سريع، بُغية إضعاف الحياة الاقتصادية في كوبا، والتسبّب بالجوع واليأس وإطاحة الحكومة». جاعت كوبا قليلاً. صبرتْ كوبا كثيراً. شمخت كوبا عالياً. حافظت على كرامة المناضلين.

«هل تسمحين بإرشادنا إلى سانتا كلارا؟»، تبتسم السيدة الكوبية المرتدية ثوباً أبيض اللون، تنحني صوبنا. تكاد تدخل بعض رأسها في النافذة، وتقول إنّها ذاهبة إلى مكان غير بعيد عن المنطقة، تحاول الصعود إلى المقعد الخلفي، ندعوها للجلوس إلى جانب السائق، وأصعد إلى المقعد الخلفي. تجلس شاكرة تقديرنا للمرأة. تصعد ومعها أسئلة عن الدولة التي جئنا منها، تبدو راغبةً في معرفة ما يجري عندنا. هنا ثقافة الناس تميل إلى الأدب والفنون والعلوم والطبّ. يبدون كأنّهم سئموا ويلات ما يحصل. قالت إنّها لم تكن تعرف عن وطننا العربي سوى فلسطين. لا تزال كوبا حتى اليوم تستضيف طلبة فلسطينيين، وترعاهم على الرغم من تواضع حالها. صارت السيدة الكوبية الآن تعرف سوريا والعراق و«داعش» وتونس واليمن ومصر. تبتسم، تسارع إلى القول: «احذروا أميركا والأطلسي... هما سبب مشاكلنا».

اسمها ماريا، لعلّ محبسها الذهبي المتواضع يختزن قصّة من قصص الحبّ الجميلة في كوبا. تصمت فنصمت، تضع يدها اليمنى على نافذة السيّارة، تحيّي بعض الواقفين على حافة الطريق كأنّها تعرفهم، تُرشدنا إلى باقي الطريق، تشكرنا وتترجّل. هنا الناس طيّبون، محبّون للحياة، مثقفون إلى أقصى حدّ، صابرون على العقوبات، يحلمون بشيء من الرفاهية، لكن ليس على حساب الكرامة.

هنا القادة يثورون وينتصرون، ويحفظ التاريخ الثوّار والقادة، منذ استقلال الجزيرة. عرفَتْ كوبا كيف تعاقبُ حكّاما فاسدين مرتبطين بأميركا.

تقطعُ ماريا نحو خمسين كيلومتراً يومياً للذهاب إلى عملها والإياب منه. تحمل شهادتين، الأولى في التمريض، والثانية في الأدب العالمي. تعلّق على صدرها صورة تشي غيفارا. الـ«تشي» كما يسمّونه تحبّبا هنا ينتشر صوراً على الطريق بين هافانا وسانتا كلارا، يبتسم في كلّ الصور، يوحي كأنّه يضحك على ما آلت إليه حال أميركا في العالم. أو لعلّه يضحك على ما بقي من اليسار العربي في عصر الخلافة.

لم يكن غيفارا كوبياً، كان طبيباً ومثقفاً وكاتباً أرجنتينياً، جاء إلى كوبا ينصر ثورتها. أحبَّه أهلُها حتى صارت صوره في كلّ قلب وشارع. كثُرت صوَرُه بعد استشهاده، وندُرَتْ صُوَر أو تماثيل زعيم البلاد فيدل كاسترو، هنا القادة يثورون وينتصرون ويبنون بلادَهم. أمّا دول التماثيل، فهي التي ينهب القادة شعبها. هنا التاريخ يحفظ الثوّار والقادة. هناك التاريخ يلعن التماثيل وأصحابها، إلّا حيثما يكون صاحب التمثال حافظاً للكرامة. غالباً ما يناقض التمثال الكرامة. فالذي يأتي بالعزّ لا يحتاج إلى تماثيل.

ويبتسم غيفارا في ضريحه

ما أجملك يا سانتا كلارا. يرتفع تمثال تشي عالياً نحو السماء. ينتصب فوق الضريح شامخاً. صار الضريح مزاراً، بات الأكثر جذباً للسيّاح. هنا صورة الثائر الوسيم المربّعة الشكل تتوسّط صوراً مستديرة لرفاق النضال والثورة. هنا زنبقة زهرية اللون تجاور الصورة. تحت الصورة شعلة تبقى متَّقِدةً ليل نهار، كما كانت الثورة، وكما هي الكرامة باقية في كوبا اليوم.

تبتسم موظفة الاستقبال. تُدرك أنّنا كملايين الزوار جئنا نستعيد شيئاً من وهج ثورة حقيقية. هنا الثورة لم تأكل أبناءها، ولا هؤلاء أكلوا الثورة. تبتسم الموظفة وتذكّرنا بأنّ التصوير ممنوع، ثمّ تتابع القراءة. نسألها إن كان علينا دفع بدل مالي للدخول. تغلق الكتاب، تضحك، ترفع النظّارة عن عينيها وتقول بلغتها الإسبانية المحبّبة ما مفاده: «أيّها الرفاق، إن الثورة ليست للبيع». أتذكّر بعض أصدقاء ثوراتنا

من دول الأطلسي. هه.

أشياء وآثار تشي غيفارا ورفاقه هنا، بطاقة هويّته تقول إنّه مولود عام 1928، كاميرته التي التقطت فيها آخر وجوه الثوار، كأس المَتّة (هذا المشروب الأخضر الذي يشبه الشاي)، مسدّس كولت، ثياب عسكرية، راديو قديم، حزام جلدي، صور كثيرة للثائر العاشق مع زعيم الثورة فيدل كاسترو، شروحات عدّة قرب كلّ قطعة.

ثمّة قشعريرة غير قابلة للتفسير تنتاب الوافد إلى الضريح، لعلّها رهبة المكان، أو ربّما هو التاريخ الشريف المُختَصَر هنا بابتسامة ثائر وبعض حوائجه.

مثلنا، في كلّ يوم، يأتي إلى الضريح نحو 1500 زائر. لو دفع كلّ زائر دولاراً واحداً لأسهَم في تحسين أوضاع كوبا، لكن هنا الثورة ليست للبيع. الإيطاليون هم أكثر الزوّار. تضحك مسؤولة الضريح وهي تضيف: «الإيطاليات، خاصّة». على لائحة الزوار لا يوجد عربي غيرنا، لا يهتمّ العرب لتاريخ الثورة، أو ربّما هم لا يحبّون هذا النوع من السياحة. المال العربي يكدَّس في المصارف الأميركية أو يُرمى في شوارع أوروبا، أو في علب الليل والكازينوهات، أو يُرسل إلى التنظيمات التكفيرية الإرهابية لتدمير دول أخرى بعضُها يشبه كوبا. تفرح المسؤولة حين نخبرها أنّ في أوطاننا أيضاً من يضعون صورة الـ«تشي» في القلوب والبيوت.

يحلّ الليل الكوبي على سانتا كلارا، نتناول سيجاراً من العلبة الصفراء، نفعل كما يفعل معظم الكوبيين. هنا السيجار ليس حكراً على فاسد، أو على ثريّ جمع ثروته بأساليب ملتوية، أو سياسي نهب الشعب، كما هي الحال في بلادنا. هنا ليس السيجار للوجاهة أو للتعالي على الفقراء. هنا عامل التنظيفات، ونادل المطعم، وسائق التاكسي والمثقف والسياسي وكلّ فرد يدخّن السيجار، فخر كوبا. والثقافة زينة الرجال والنساء. والكرامة وسام على صدور الجميع.

الليل الكوبي جميل. ثمّة فرح يقفز فوق الوضع الاقتصادي الصعب، ليستقرّ في القلوب. من ساعات المساء الأولى تصدح الموسيقى الكوبية من المنازل والمطابخ والمقاهي، يتحلّق الكوبيّون بثيابهم الصيفية أمام المنازل، يضعون بعض الطعام والشراب، يتمايلون على أنغام الموسيقى. لا بأس إن كان وزن ربّة المنزل 100 كيلوغرام، تظلّ ترقص كفراشة مع زوجها أمام المنزل، جميعهم يرحّبون بالضيوف. يسيرون مئات الكيلومترات لمرافقة ضيف إذا ضلّ الطريق. ينثرون محبّة قلّ نظيرها في أيّ بلد في العالم.

لم تأتِ ثورة كوبا من عدم. لعلّ بين تاريخ البلاد وتواريخ أوطاننا الكثير من وجوه الشبَه. عرفت كوبا منذ استقلالها عام 1902، كيف تعاقب حكّاما فاسدين مرتبطين بأميركا، ولم يتردّد الجار الأميركي في الجور على الجار الصغير. غزاها ثلاث مرّات على الأقل، ساعد في تنصيب وحماية الدكتاتور فوخنسيا باتيستا الذي كان يقمع شعبَه بقدر ما كان يبيع ثروات بلاده للغرب. هل يذكّركم بأحد؟ بل بأكثر من أحد؟

باتيستا اعتقل الشابّ فيدل كاسترو، كتب في سجن الدكتاتور مؤلفه الشهير: «التاريخ سينصفني». وأنصفه التاريخ. ناصره الاتحاد السوفياتي. دعمته الصين. وقطعت أميركا علاقاتها بالجار الذي تحوّل إلى مارد كرامة. انتشرت عدوى الثورة، صارت صور تشي غيفارا تنبت كزنابق المجد في أميركا اللاتينية وأفريقيا، بقي رافعاً لواء العزة حتى جاءته الخيانة من بوليفيا نفسها التي أنعش فيها الحسّ الثوري.

استُشهد غيفارا. انتصرت الثورة. غضبت أميركا، سعت لخنق كوبا اقتصادياً، عاقبت كلّ الشركات التي تتعامل معها. هل يذكّركم الأمر بشيء؟ انساق الأوروبيون كالأتباع خلف واشنطن. لَكَم يكرّر التاريخ نفسه! أمّا الأمم المتحدة المسكينة، فتارة تشجب ومرّات تنام، ويبدو أنّها نامت كثيراً، تماماً كما

تفعل حين يتعلق الأمر بفلسطين أو بقضايا العالم الثالث الذي يُراد له أن يبقى ثالثاَ.

صمدت كوبا. جعلت من كرامة شعبها بيدقاً، ومن عزَّتها نبراساً، جاءها جورج دبليو بوش ساعياً لمعاقبة الجار المتمرّد. قال: «سنطيح قريباً النظام الكوبي». ضحك غيفارا في صورته، وسخِر منه كاسترو، قال وهو يغالب المرض: «ليتذكّر بوش أننا حين هزمنا باتيستا، كنّا ألف رجل في وجه 80 ألفاً للديكتاتور الكوبي. أمّا اليوم، فسوف نجعل حياة الغازي جحيماً».

لا التهديد نفع ولا الحصار قضى على الكرامة والعلم. كوبا تقدّمت علمياً وطبًّيا وثقافياً على نحو مذهل. أنتجت أدوية وعقاقير لمعالجة أمراض السكري والكوليسترول، وأوجدت علاجاً لِما لا يقل عن 13 مرضاً مُعدِياً يصاب بها الأطفال. طوَّرت أول لقاح ضدّ الصرع، وهي تصدّر أدويتها إلى أكثر من 40 بلداً. صدّرت أكثر من 80 ألف طبيب إلى الجار والرفيق الفنزويلي المخلص المرحوم هوغو تشافيز

قال كاستور لبوش: «أنتم صدّروا للعالَم قنابل وقتَلة، ونحن نصدّر له أدوية وأطبّاء».

يرتفع صوت الأوبرا الكوبية المنشدة الأغنية الرائعة: «لا كومندانتي تشي غيفارا». نرفع صوت الراديو قليلاً. تتساب السيّارة بنا انسياب النهر بين الأشجار الوارفة. ينعشنا نسيم المساء بعد يومين في سانتا كلارا. تضحك لنا الحقول الخضراء والمراعي المتعدّدة الألوان، والبيوت الخشبية العتيقة، في القرى الكوبية. يرتفع شدو فرقة كوبية أخرى تغنّي «لا كومندانتي تشي غيفارا». عشرات التوزيعات عرفتها هذه الأغنية الممَجّدة لذكرى رفيق جاء من الأرجنتين ليقول للكوبيين إنّ الثورة على الديكتاتورية والظلم والطغيان والاستعمار واَحدة. نتذكّر شيخ إمام وأغنية «غيفارا مات». يحلو لنا أن ننشد في السيّارة «يا رفاقي في كوبا الأبيّة» لمارسيل خليفة.

هنا الثورة لم تكن للبيع، فنجحت. هنا الربيع قاده مناضلون حقيقيّون فأزهر كرامة. هنا الشعب صمد نصف قرن فأرغم أميركا على الاعتذار، وعلى الاعتراف بأنّ سياستها أخطأت. مبارك لكوبا وشعبها، على أمل ألّا تكون العودة الأميركية سبباً في انتهاء ذاك العصر الجميل والمدن التي لا تزال تصونُ عبق التاريخ. نأمل أن يكون في الانفتاح الأميركي على كوبا ما يفيد شعبي البلدين، لا أن نعود إلى عصر الكاوبوي والهنود الحمر. برافو للرئيس باراك أوباما الذي ينهي عهده بهذا الانفتاح الجميل على الجارة الساحرة. سيذكره التاريخ حتماً كأحد الذين وعدوا ووفوا بوعدهم.

في الأندلس لم أتعاطف مع تاريخنا

لم أُحبّذ يوماً تَغنّي العرب والمسلمين بما حملوه إلى إسبانيا. لا يمكن أن نستمرّ في هذا الانفصام التاريخي بين الماضي والحاضر. كيف لنا أن نقاتل استعماراً هنا، وانتداباً هناك، ونشجب احتلالاً هنالك، ونحن نتغنّى باستعمارٍ آخر قمنا به في إسبانيا؟ ليس مهمًّا السبب الذي من أجله «فتح» المسلمون والعرب الأندلس، عبر التاريخ؛ وليس مهمًّا أنّهم نقلوا إليها علوماً وموسيقى وفلسفة وثقافة؛ الأهم أنّهم غزوا بلداً آخر بتآمر بعض أهله على بعضهم الآخر. ولو كان الاستعمار العربي الإسلامي للأندلس يروقُ أهلها لكانت تماثيلنا العربية الإسلامية اليوم تملأ المكان، لكان حديث الناس عنّا هُنا يتلوَّنُ بكلّ ألوان الحبّ والفخر. لكنّ الواقع هو غير ذلك، فلو سألت إسبانيًّا اليوم عن ذاك التاريخ، لقال لك كما قال الجزائري عن فرنسا، وكما قال الصومالي عن إيطاليا.

من هذا المنظار فقط أردت السفر إلى إسبانيا، ليس للتغنّي بتاريخ أجدادي، بل لمعرفة سرّ التعلق بتلك الأندلس التي أراها في كلّ كتب التاريخ القديم، وبين كلّ القصائد العربية، وفي روايات يتناقلها أجدادنا وأهلنا، من دون أن يعرفوا الكثير عمّا حصل.

سبب رحلتي هذه المرّة، هو القمة الأوروبية-المتوسّطية التي استضافتها برشلونة. لفتني، حين وصلت إلى إسبانيا، ذلك التشابه الكبير بين أشكالنا العربية وأشكال عدد كبير من الناس هنا. ربّما هو شبه تلقائي وبالمصادفة، ولعلّي ربطت في مخيّلتي بين من يشبهنا من الناس وبين الاستعمار العربي والإسلامي. لكنّني لم أرَ في المباني التاريخية والمعاصرة أمامي شيئاً من تاريخنا وهندستنا وفنوننا المعمارية. وحده المهندس الشهير أنطوني غودي يحتلُّ الحاضرَ بذاك الطراز الهندسي الساحر المتعدّد الأشكال والألوان يحاكي جمالَ الطبيعة الإسبانية وألوانَها.

قصدت «قصر الحمراء» في غرناطة التي وصلت إليها من مدريد بعد نحو 4 ساعات بالسيّارة. يعتبره العرب والمسلمون من عظائم تراثهم في الأندلس، منذ شيّده الملك أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر بن الأحمر، ومَن خلَفَه من ملوك وأمراء، بين عامَيْ 1238 و1273؛ فكلُّ ملك من ملوك العرب والمسلمين هناك كان يُضيف إلى القصر شيئاً ممّا يريده، حتى وصل إلينا بشكله الراهن.

ما إن عبرتُ البوابة الرئيسة للقصر الهانئ في منطقة مكللة بالأشجار الخضراء، حتى قفز إلى ناظري قفزاً ذلك التاريخ العربي الإسلامي العريق، بكلّ تفاصيله الثقافية والعمرانية، وبدقة منحوتاته ورقّة عباراته الكلامية وآياته القرآنية التي تبقى على الجدران هنا شاهدةً على عصر من القوّة السياسية والعسكرية، ومن النهضة الفكرية والإبداعية، قبل أن يغزوها ويُتلِفها برابرة الإرهاب في عصرنا الحالي.

ليس مهمًّا شرحُ تفاصيل المكان بين قِسم عسكري، وقلعةٍ، وأبراج، وقصرٍ ملكي، وغرف خَدَم، وقناة مياه أمام القصر. كان الأهمّ في نظري، هو ذاك الشعور المتناقضُ في داخلي حيال ما رأيت. أنا الآن داخل إحدى التحف الفنية والهندسية والمعمارية التي قلّ نظيرها في الوطن العربي. نقشٌ على الحجر يشبه الحياكة الدقيقة لقماش الدانتيل. عبارة «لا غالب إلّا الله» تنتشر على الجدران، وتصل حتى السقف، تماماً كبعض الآيات القرآنية. الأشكال الهندسية تتنوّع بين القناطر المنقوشة بدقّةِ صانع الذهب، والأعمدة الرخامية الكثيرة، والناعمة الملمس، والشاهدة على تاريخ عريق من العبقرية الهندسية. تتوزع الأعمدة حول ساحة تتوسّطها بحيرة، وتحملها دزينة من الأسود منقوشة ومنحوتة على نحو يكاد الناظر إليها لا يصدق أنّها من صنع اليد العارية وأزاميل العمّال الفقراء الذين يموتون إلى جانب الحجر ولا يذكر التاريخ لهم فضلاً؛ ذلك أنّ الفضلَ كلّه يذهب إلى الملوك والأمراء والحكّام.

يكاد الزائر يشعر بأنّ كلّ هذه الحجارة الصلبة والعتيقة وُضِعت في قوالب، وصُبّت كي تخرج بهذا القَدْرِ من الإتقان. في الخارج خرير النهر، وزقزقة العصافير، ونسمة مضمّخة بأريج الورد ورائحة الشجر، تذكّرنا بما كتبه الشعراء عن الحدائق الغنّاء والمياه الرقراقة وحبيبة تنتظر عند ضفّة النهر.

لا ريب، كلُّ ذلك ساحرٌ ورائع وخلّاب. لكن، في هذه اللحظة التي أعبر فيها صوب تاريخ القرن الرابع عشر، كنتُ أعجَبُ كيف اندثرت هذه المباني الحجرية الحمراء والصفراء والبيضاء، الساحرة والمتوَّجة بالقرميد الأخضر والبنّي، من تراثنا، ما خلا في بعض المدن التاريخية العريقة (في المملكة المغربية مثلاً)؟ ولماذا الذين بنوا كلّ هذا الجمال هنا باسم العرب والمسلمين، لم يبْنوا مثلها في بلاد العرب والمسلمين؟ ولماذا الذين جاؤوا بعدهم لم يحافظوا على مثل هذا الجمال؟ فكرتُ أيضاً بأنّه لو كان قصر الحمراء في بلادنا اليوم، لابتلعه النسيان، وعرّش عليه الإهمال وعلاه الغبار ودمّره برابرة كثر باسم التخلّف وذريعة إيمانٍ لا يمتُّ بصلة إلى الدين الحنيف. لكنّني فكرتُ أيضاً بأن اعتزازي بما شيَّده أجدادي هنا، لا يناقضه سوى فرحي بأنّ أصحاب الأرض الحقيقيّين قد استعادوه. عاد ما للأندلس للأندلس، وعاد ما لإسبانيا لإسبانيا. صرنا هنا مجرّد ذكرى، قد يذكرها الدليلُ السياحي أمام السيّاح الأجانب، فتمرُّ مروراً عابراً في آذانهم، ربّما لأنّهم لا يصدّقون أنّ ما يعرفونه اليوم عن العرب والمسلمين من فِتَن واقتتال، يمكن أن يكون أثمَرَ في الماضي مثل هذه الروائع.

توليدو غزاها الأمازيغي ومجّدها العربي

ها أنا أخيراً في توليدو الإسبانية، أو قُل في طليطلة، وفق اسمها العربي وتاريخها الإسلامي. كلّ شيء هنا يقول للزائر إنّك في بلاد شيَّدها المسلمون والعرب والأمازيغ ذات يوم، وأقاموا فيها ثمانية قرون متوالية، وكانوا سبب نهضتها الفكرية والعمرانية والثقافية. وفيها، هنا، خسروا آخر معاركهم. كلّ شيء يقول للزائر أيضاً: إنّهم يا سيدي، أي المسلمين العرب والأمازيغ، لا يزالون منذ القرن الرابع عشر، يبكون على الأطلال ويندبون تاريخهم. فلعلّهم بذلك يبرّرون حاضرهم الخاوي.

في هذه التوليدو الجميلة، أيّها القارئ العزيز، تستقبلك زخرفات البناء، فورَ ترجُّلِك من القطار في المحطة، وفي البيت المجاور لها. تقول لك: إنّي مغاربية الأصل والنقش والتاريخ والهندسة. وفي الجدران، وبين الحجارة، ذكرى أولئك الذين جاؤوا مع قائد عسكري من المغرب ليغزوا بلاداً غارقة بتناحر قادتِها، وخارجةً من ظلمات غزوات محتلين آخرين، وهمجيّتهم.

ذلك القائد هو طارق بن زياد. لا يزال المؤرّخون العرب والمسلمون، يا سيّدي القارئ، مختلفين في شأنه إلى يومنا هذا: هل كان قائداً عسكرياً بربرياً (أمازيغياً) في الدولة الأموية؟ أم هو عربي خالص؟ على الأرجح، هو بربريٌّ عمِل قائداً عسكرياً عند قادته الأمويين. وتقول الرواية غير المؤكّدة، إنه حين اجتاز البحر ليصل إلى إسبانيا أحرق مراكبه خشية عودة العرب على أعقابهم فيها لانعدام الثقة به، فكسب ثقتهم.

دعنا من الأصول ولنرَ إلى الواقع. ينطلق بنا القطار من مدريد. سرعان ما يتسلّل بين أشجار الزيتون الممتدّة على مئات الكيلومترات. أتذكّر الآن لماذا كان يقال لنا في مدارس الراهبات: إنّ هذا الزيتون إسباني، فهو إذاً جيّد. تبدو الأشجار أنيقة منسّقة كشعر حسناء مصفّفٍ بإتقان. تُطلّ بين فينة وأخرى بيوتٌ صغيرة قرميدية السطوح توحي للناظر بأنّها انقطعت منذ زمن بعيد عن ضوضاء البشر وسُخفِهم، لتهنأ هنا بين أشجار الزيتون. تكثر السهول وتقلُّ البيوت موحيةً بأنّ البلاد لا تزال قادرة على استيعاب ملايين المهاجرين الذي يقصدون أوروبا هرباً من فقر الجنوب، فيموت بعضهم في البحر غرَقاً، أو في الذلّ قرفاً ويأساً. لا داعي لليأس، سيّدي القارئ، فالرحلة جميلة وعندنا من الجراح ما يكفي لنكئها حين نعود إلى بلاد الاقتتال والخلافة والإرهاب والفتن. الخلافة؟ هنا أيضاً كانت خلافة، وهنا أيضاً سبَقَ إقامةَ الخلافة مذابحُ وهلعٌ وتشريد للناس، وإلّا فكيف استطاع أخونا طارق بن زياد أن يصل إلى هنا، ويحتلَّ هذه الجبال والأودية والأنهر كلَّها، وكلَّ ما دبَّ على الأرض، بأقلَّ من سبعة آلاف مقاتل، معظمهم من الأمازيغ؟ الفارق الوحيد ربّما أنّه في حينه لم تكن وسائل التواصل الاجتماعي جاهزة، ولم تكن جاهزةً أيضاً آلة تشويه الإسلام، مِن أهله أوّلا ومن الآخرين ثانياً. ثمّ إنّ الفاتحين، أو بعضهم على الأقلّ، كانوا آنذاك يتمتّعون بحسن الرؤية وسعةِ الأفق وفضول المعرفة والنقل من الثقافات اليونانية والفارسية وغيرهما، ما جعلهم يحوّلون بلاد البرابرة والاجتياحات الأوروبية إلى عواصم ثقافة ونور وفنّ وأدب وموسيقى. حدث ذلك في توليدو وفي غرناطة وقرطبة وغيرها.

يعبر القطار بين مدريد وتوليدو سريعاً. يبدو، مثل ركّابه، سعيداً بسماء تكاد تكون صافية لولا بضع غيمات تُطِلُّ بين حين وآخر لتذكِّر الركاب بأنّنا في أوْج فصل الشتاء. تعكس الشمسُ ظلال أعمدة الكهرباء وبعضِ الشجر على نوافذ القطار. تمرُّ الظلال كأنّها تغسل القطار من الأيّام الماطرة، أو لعلّها تمسح عنه عرقَ الرحلات المتكرّرة كلّ يوم.

ما هي إلّا أربعون دقيقة ونصِلُ إلى توليدو. هذا باص السيّاح ينتظرنا. لا يوجد عربي غيري في القطار والباص. أعود سائحاً لأكتشف مكاناً كان فيه لأجدادنا فضلُ عمرانه بعد احتلاله. لا أدري أيّهما أُقدِّم على الآخر، في فكري: الاحتلال البغيض، أم العمران الذي – لحسن حظ آهليه حالياً – خلّفه لهم العرب والمسلمون والأمازيغ؟

يجب أن نتصالح مع أنفسنا. لا يمكن أن نبكي على أرضٍ كنّا نحتلّها، ثمّ في الوقت عينه، نبكي على دُوَلِنا حينما احتُلَّت. الاحتلال هو الاحتلال، لا يختلف غزْو طارق بن زياد لهذه الأرض التي ليست أرضه، عن غزو الفرنسيين للجزائر أو عن غزو نابوليون لمصر. هذا احتلال وذاك احتلال، وإنِ اختلف ما يقدّمه المحتلّ لِمن يحتلّهم. ثمّة من يقدّم البربرية والدماء والدمار والدموع، وآخر يقدّم ثقافة وفنًّا وأدباً. لكن في الحالتين نحن أمام احتلال لشعوب لا تريد المحتلّ وتنتظر الفرصة لطرده. صحيحٌ أنّ احتلال توليدو جاء بطلب من بعض أمراء إسبانيا حين دبّت النزاعات بينهم، وانقسموا على أنفسهم،

لكنّ الصحيح أيضاً أنّه يبقى احتلالاً.

لا شيء في الشكل الخارجي لتوليدو يوحي بالغرب. كأنّك، أيّها القارئ العزيز، في مدينة مغربية. هذا قصرٌ هنا، بقرميده الأخضر البنّي، يعتلي مرتَفَعاً، وتلك قلعةٌ تحمي البيوت القرميدية المتدرّجة من قمّة الجبل إلى ضفاف النهر الأزرق. يتعرّج النهر النظيف الشفّاف بين الهضاب والآكام والتلال والجبال. تحار إلى أين تصوّب الكاميرا لتصوِّر. تريد أن تضعَ في آلة التصوير كلّ حجرٍ، وكلّ شجرة، وكلّ قطرة ماء ونبضة قلب وحنين، وكلّ ضحكة ودمعة في أرضٍ كانت ذات يوم للعرب والمسلمين. هذه قلعة أخرى لا تزال تحتفظ باسمها العربي، «التاج»، تيمُّناً بنهر «تاجو» أو «تاخو» الذي يجري في الأسفل وكأنّه يغسل أقدامها. ما أكثر السكّان هنا، وكذلك السيّاح، الذين لا يعرفون أنّ الكثير من الكلمات في بلادهم هي من أصل عربي.

تؤكّد المؤرّخة الإسبانية تيريزا بيريز أنّ أربعة آلاف كلمة عربية لا تزال آثارها ماثلةً في اللغة والحضارة والثقافة الإسبانية. لو أردتَ سُكَّراً مثلاً لقهوتك، فما عليك سوى أن تقولِ للنادل «السُّكر، من فضلِك». وإن أردْتَ زيتوناً إضافياً على مائدتك، تقول له: «الثيتونة». لا غرابة إذاً في أن تسمع الناس هنا ينطقون الإسبانية بحروفٍ هي أقرب إلى العربية منها إلى اللاتينية، كالخاء والثاء، مثلاً. ولا غرابة أن تراهم يرحّبون ويضحكون ويسألون ويمزحون، تماماً كما يفعل بعض العرب، خلافاً للكثير من الشعوب الأوروبية.

بين القلاع بقايا إسطبلات عتيقة لم يبقَ منها سوى حجارة بعضها فوق بعض، تشهَد على زمن انقضى. يسرح خيالك صوب أولئك الفرسان الذين اجتازوا البحر مع طارق بن زياد. تكاد تراهم وقد وصلوا للتوّ، عائدين من معارك كانت في معظمها خاطفةً وسريعة. كانت خاطفة لأنّ سمعةَ الغزاة سبقتهم، فرمَت الهلع في قلوب السكّان، ولأنّ أحد الأمراء هنا سهّل دخولهم لينصروه في صراعه مع أشقّائه. (ألا يُذكّرنا ذلك بما يحدث عندنا اليوم؟ هه) توليدو نفسها لم تصمد سوى أيّام قليلة. ها هي الآن تحفظ الكثير مِن جمال البناء العربي القديم والتراث الإسلامي، في حجارة بيوتها وأشكال بنائها وهندسة العمارة. وتحفظ أيضاً بعض العادات والحِرَف كصناعة السيوف والخناجر والسكاكين. وقد لا تُفاجَأ حين ترى حانوتاً لبيع الخناجر والسيوف، وما زال يحمل اسماً دمشقياً أو نقشاً عربياً أو فارسياً.

يحضرني أحمد شوقي بقصيدته التي يذكر فيها توليدو:

لولا دمشق لما كانت طليطلةٌ / ولا زهَتْ ببني العباس بَغدانُ

أحزن لدمشق التي يقف على أبوابها الغزاة من كلّ حدب وصوب. لعلَّ بعضهم جاء من إسبانيا نفسها، في السنوات الثلاث الماضية. يبدو أنّ المسلمين سيتبادلون والغرب الغزوات طويلاً.

أعبر بين قناطر المدينة وأبوابها. لا يزال بعضها يحمل اسمه العربي بحروف لاتينية: K (قنطرة). أهبط أدراج الأزقّة والأحياء بين المباني القديمة. بعضها يُشبه حيّ القصبة الجزائري الذي منه انطلقت الثورة المجيدة ضدّ المستعمر الفرنسي. ربّما من هنا انطلقت أيضاً ثورة أخرى ضدّ المستعمر العربي الإسلامي. كم يشبه التاريخ نفسه! كم ينتقم الحاضر من التاريخ، والمستقبل من الحاضر، في دورة اقتتال إنسانية جهنّمية وهمجية وغبيّة، من أجل اللاشيء. أسير في المدينة القديمة. لا أجد في المحالّ ودور العبادة أثراً للتاريخ العربي الإسلامي سوى في بعض زخرفات الصحون، أو في بعض أشكال السيوف، أو بعض الأسماء التي توحي بما كانت عليه المدينة من مركز للتجارة واللقاء والتفاعل. أضحك حين أقرأ كلمة Zocodover التي تعني بالعربية «سوق الدوابّ». لا داعي للتعليق. هه.

هنا، تختلط الأديان. في هذه المدينة العريقة تآلف الإسلام والمسيحية واليهودية. وفيها كان لليهود مناصب ومكانة في عهد المسلمين. بعد ثمانية قرون، طُرِد من المسلمين واليهود كلُّ مَن رفض اعتناق

المسيحية. اليوم، لم يبقَ سوى الذكرى والحنين. قامت كنائس مكان المساجد. إن قرأتَ شيئاً عن المدينة، ترى كيف يمرُّ المؤرّخون سريعاً على ثمانية قرون وكأنّها لم تكن. وحدها بعض المخطوطات تؤكّد ذاك الحضور، تماماً كالشكل الخارجي للمدينة. أَصِل إلى ما كان هنا مسجداً. اسمه اليوم «باب المردوم»، يبدو أنّه رُدِم تماماً، فهذا الذي كان يُعدّ أحد أقدم الآثار والمعالم الإسلامية، ويعود إلى أكثر من ألف عام، صار كنيسة تمجّد السيد المسيح ونوره. التاريخ لا يكتبه إلّا الظافرون.

هذه البيوت والحارات والأحياء والأزقة والزواريب والحجر والشجر وعبق المكان، تشهد كلّها على أنّ العرب والمسلمين والأمازيغ كانوا هنا. لا تزال بعض الموسيقى والآلات الموسيقية ترجِّع بعض ألحان ذلك العبقري القادم من بلاد فارس، زرياب، الذي طوَّر العود، وأضاف إليه وتر «الروح»، وصار في ما بعد أصلاً لآلة الغيتار الغربية. في هذا المكان، لم يعُد للعرب والمسلمين سوى بعض ترجمات الشعر والأدب الحديثين، كلّ الباقي قد زال تقريباً من الجغرافيا والحاضر والوجدان. لم يبقَ غير مؤتمرات تنظّم هنا في توليدو للتذكير ببعض الشعر والأدب... ليس غريباً أن تجد هنا قصائد الشاعر الفلسطيني محمود درويش، ولكنّك لن تجد مطلقاً كمنجةً واحدةً من الكمنجات التي بكاها في قصيدته «أحد عشر كوكباً»: «لم يبق منّي/ غير دِرعي القديمة، سَرج حصاني المذهَّب/ لم يبقَ مني غيرُ مخطوطةٍ لابن رشدٍ، وطوقِ الحمامة، والترجمات... الكمنجات تبكي مع الغجر الذاهبين إلى الأندلس/ الكمنجات تبكي على العرَب الخارجين من الأندلس».

لا أدري لماذا لم أتعاطف مع بكاء درويش على أطلال الأندلس، على الرغم من روعة الأمكنة وعبق تاريخنا فيها. فالاحتلال هو الاحتلال، وتَغَنّينا بخلافة الأمس قد يُشبِه تَغنّي البعض بخلافة اليوم. كلتاهما اعتمدت السيف والنار والقتل، فلماذا نبكي على أطلال ليست لنا؟ فليهنأ أهل إسبانيا بما حفظوه وطوّروه.

في رحاب المكسيك

بلاد الشوكولاتة والتبغ والعلكة والحبّ

ما زلت أذكر تلك الراهبة في مدارس طفولتي، تصرخ بنا: «انزعوا هذا الكاوتشوك من أفواهكم»، ثمّ تضيف قائلةً، بشيء من النقمة: «لا سامحك الله يا مكسيك». لم نكن آنذاك، نفهم الرابط بين العلكة والمكسيك. وما عرفنا إن كانت تتحدّث عن بلد أم عن رجل اسمه مكسيك. لم يجرؤ أحدٌ منّا على سؤالها عن الأمر. كنّا نكتفي أمام ناظريها المهدِّدَيْن المتوعَّديْن، بأن نسحب العلكة على خفر من أفواهنا ونُسرع إلى قرب اللوح نرميها في سلّة المهملات ونعود مطأطئي الرؤوس أذلّاء إلى مقاعدنا.

كان دليلي وسائقي المكسيكي يقهقه وأنا أروي له قصّتنا هذه. يلتفت بكامل جسده المكوّر نحوي، فأرجوه أن يلتفت أمامه تجنُّباً لوقوع حادث سير. ينصاع ويكتفي بالقول: «يا سيّدي، الراهبات يتشابهن أينما كنَّ، فعندنا في المكسيك أيضاً، في بلاد منشأ العلكة، ممنوع على الطالب أن يمضغها في الصف».

تقول الوثائق إنّ قبائل حضارة الـ«مايا» الشهيرة في المسكيك، دأبت على مضغ ذلك الصمغ الأبيض السائل من أشجار عالية تتدلى منها أغصان كالحبال. كانوا يسمّون ذلك السائل «تشيكلي». ولعلّ هذا هو سبب اسم علكة «تشيكلتس» الشهيرة عندنا. لم يعلم أهل تلك الحضارة الشهيرة أنّ ما يمضغونه سيصبح أحدَ أهمّ الاكتشافات الأميركية ثمّ العالمية. ففي عام 1869 لجأ جنرال مكسيكي إلى أميركا حاملاً معه نحو 300 كيلوغرام من ذاك السائل الصمغي بغية بيعه بديلاً من الكاوتشوك. لم يُفلح في بيع ما حمل، لكنّ المصادفة شاءت أن أميركياً يُدعى آدمس مزج السائل بشيء من العصير فتحوّل إلى علكة.

إذاً، راهبتنا على حقّ. في الأمر مكسيكٌ وكاوتشوك. لكنّي على يقين من أنّها لم تكن تعلم شيئاً عن دور أميركا في تسويق العلكة، أو أنّها فضّلت أن تلعن المكسيك على أن تلعن أميركا. كنّا نفرح أكثر، كما تعلمنا، حين نرى أميركياً في الأفلام يقتل مكسيكياً. لم نكن نعلم في حينه أنّ ثمّة تشويهاً لتاريخ الحضارات بأفلام تدّعي الحضارة. لو أنّ تلك الراهبة العزيزة رافقتني في هذه الرحلة، بالرغم من اعتقادي بأنّها تُوفيت لأنّها أصلاً كانت متقدّمة في السن، فلربما اكتشفت كثرةَ المكسيكيين الحالمين بالهجرة إلى أميركا، رغم حقدهم عليها. فلماذا؟

سيتّضح ذلك من خلال ما أنقله عن هذه الرحلة الساحرة والغريبة والزاخرة بالاكتشافات، في بلد يتمدّد على مليون و972,547 كيلومتراً (نحو 4 مرّات مساحة فرنسا)، وفيه 31 ولاية، وشعب تخطّى تعدادُه 122 مليون نسمة.

تعبر بنا السيّارة بين حقول الذرة الشاسعة. نتوقف في وسطها فلا نرى لها نهاية. يتقدّم صوبنا مزارع نحيل الجسد أحمر الوجه، يشعُّ الفرح من عينيه تحت قبّعته المكسيكية الشهيرة. ترسم الشمس والعمر والتعب خطوطاً متعرّجة على جبينه ووجنتيه. يلوّح لنا بالمنجل مُرَحِّباً. يسألنا من أين جئنا، فأقول له من فرنسا. يسألني أين تقع، فأقول له في أوروبا. يسارع إلى الاستنتاج: «آه عرفت، إنّها في إسبانيا». أضحك، وأوافقه الرأي كي أوفّر عليه عناء البحث. يقترح علينا كوزاً من الذرة (في الشرق يُسمّى عرنوساً). أسأل دليلي كيف يؤكل عندهم، فيشرح أنّ هناك طرقاً عديدة لذلك، وأبرزها مسلوقاً أو نيئاً أو مع الطعام. نوقد ناراً، نشوي الكوز قليلاً، يبدو الدليل أكثر الحاضرين ابتهاجاً، يلتهمه التهاماً، ثمّ يُخرج من السيّارة زجاجة «الميزكال»، مشروب محلي الصنع، ويتناول منها جرعةً، ثمّ يمسح فمه بكمّ قميصه، ويستلقي على ظهره بين شتلات الذرة. من حسن الحظ أنّ معرفتي بالإسبانية أسعفتني في متابعة الحديث مع المزارع، الذي لو قلت له إنّني من لبنان، لظنّ أنّني من المرّيخ.

كانت الشمس تجنَح نحو الغروب، وتحت آخر أشعّتها تلتمع أوراق الذرة وحبيباتها. تتعدّد ألوانها وأشكالها، لكنّها تبدو جميعاً نضِرَةً لمَّاعة كعروسٍ مجلوّة. يصمت الفلاح، فأسمع حفيف النسيم على الأوراق. تتمايل النبتات كراقصات الباليه، متناسقةَ الخطوات. يميل بعضها نحوي موحياً بالترحيب. يغريني ذاك المكان الهادئ، فأستسلم كما الدليل لبعض القيلولة. لم ننَمْ أكثر من ربع ساعة، وعندما استفقنا، كانت القهوة جاهزة بالأكواب الكبيرة. شربناها. شكرنا الفلاح، طلب منّا أن نسلّم له على إسبانيا التي كان لها تاريخ دموي في بلاده. أومأنا له شاكرين ضيافته، وأكملنا الرحلة. أكملناها بسيّارة الفولكس فاغن الحمراء. هنا في المكسيك لا تزال هذه السيّارة-التاكسي الأشهر منذ الحرب العالمية الثانية. تعدّدت ألوانها بين الأحمر والخمري والأخضر والأبيض، لكنّها لا تزال الأقلّ تكلفة والأكثر صلابة. والنكتة الدارجة هنا تقول إنّك قد تجد قطع غيار لهذه السيّارة حتى في الصيدليات. عام 2008 اندلع خلاف كبير بين سائقي هذه السيّارات والدولة التي أرادت استبدالها بسيّارات أخرى.

يسحب الدليل علبة سجائر من جيبه. يقترح عليَّ واحدة. أشكره. يضحك ويقول: «حسناً. إنّك لم تبتلِ بهذه الآفة. أتعلم أنّ المكسيكيّين هم أقلّ الشعوب ممارسة لهذه العادة، مع أنّنا نفاخر أصلاً بأنّنا صدّرناها إلى إسبانيا وأوروبا ثمّ إلى أميركا انتقاماً من غزوات هذه الدول لنا؟». هنا، كما عند قبائل الهنود والسكّان الأصليّين للأميركيتين الشمالية والجنوبية وبعض جزر الأنتيل، شجيرات الصبّار تنتشر متناسقة كالجيش السوفياتي في أوْجِه. شمس تشارف على الوداع تاركة خلفها شفقاً أحمر. نسمات تدخل إلى السيّارة بالرغم من بعض الدخان.

يسألني ميغيل بشيء من خبثه المحبّب كأستاذ يمتحن تلميذه: أتعرف قصّة الشوكولاتة عندنا؟

أعرفها، طبعاً، فأنا يا صديقي أقرأ عن بلادكم منذ أشهر طويلة. وجئت أتأكد ممّا قرأت، وأنقل سحر الكلام إلى واقع الأشياء والطبيعة. قرأت أنّ الغازي الإسباني فرناند كورتيس سُحِر بشجرة الكاكاو حين وصل إلى المسكيك. كان السكّان الأصليّون من حضارات الأزتيك والمايا، يعتقدون أنّ في عصيرها

شيئاً من النعمة الإلهية. كانوا يمزجون حبّات الكاكاو بالماء والبهارات والزنجبيل والعسل والقرفة ويغلونه مع إضافة شيء من الذرة. كانت خلاصة هذه الخلطة تُقدَّم خصوصاً للأسياد والإقطاعيّين والأثرياء. لا بل إنّ حبوب الكاكاو كانت تُدفع ثمناً في شراء العبيد، فالعبد الجيّد مثلاً كان يُباع بمئة حبّة كاكاو. وكان بعض القبائل يحوّل الكاكاو إلى ما يشبه الزبدة لتُستخدَم للبشرة. من سوء حظّهم أنّ النساء عندنا لم يكتشفن في ذلك الوقت هذا المسحوق المفيد للبشرة. ولو أنّهنّ عرفْنَه منذ ذلك الوقت، لكانت المكسيك جَنَتْ مالاً وفيراً من سيّداتنا اللواتي يشترين من المساحيق والكريمات ما يحرّر فلسطين، لو أنّ هذا المال خُصّص للسلاح (عذراً من القارئات العزيزات).

على كلّ حال، للمرأة فضل على المكسيك في الترويج للشوكولاتة. فحين تزاوجت أميرات إسبانيا مع ملوك فرنسا وأمرائها، نقلن الكاكاو وكلّ خلطاته السحرية، إلى العرش الفرنسي، وتحوّل الأمر هناك إلى شوكولاتة. كان يسود الاعتقاد بأنّ الكاكاو، علاوةً على طعمه اللذيذ، يمتاز بمفعوله في إثارة الغرائز الجنسية وتقوية قدرات أصحابها في السرير. بعض المصادر ينقل مثلاً عن الأميرة ماري-تيريز قولها: «في قلبي حبيبان: الملك لويس الرابع عشر والشوكولاتة». لم تكن الأوزان والشحوم آنذاك أهمّ من الرجال... ههه.

كانت شجيرات الكاكاو تنتشر أمامنا على طول الطريق، أثناء عودتنا إلى العاصمة مكسيكو، أو «ميهيكو» كما تُسمّى هنا. تبدو حبّاتها الحمراء من البعيد كحبّات البلح، أو كحبّات المرجان، متدلّية من بين الأوراق الخضراء، صوب جذوع الأغصان. لكنّها تصبح أكبر عند الاقتراب منها.

سألتُ دليلي وسائقي المكسيكي: «لكن ماذا عن اسم المكسيك يا ميغيل؟ من أين أتى هذا الاسم؟». يسحب دليلي السياحي وصديقي المكسيكي سيجارة مخالفاً بذلك الكثير من تقاليد بلاده، يشعل السيجارة، ويسأل: «أتريد أن تعرف حقيقة الاسم؟»، أسارع إلى الإجابة: «إن كانت كلّ معلومة أحصل عليها منك، ستضطرّني إلى تحمّل دخان سيجارتك لمدّة عشر دقائق، فإني أفضّل في هذه الحالة أن أبقى جاهلاً». يضحك من دون أن يُطفئ السيجارة، ويُكمل: «يجب أن يُلفظ اسم مكسيكو على النحو التالي: ميشيكو، أي بإلغاء الكاف الأولى واستبدال السين بالشين». ثمّ يشرح بفخر واعتزاز: «معنى هذا الاسم: سرّة القمر».

انتصف القمر في وسط السماء تلك الليلة. بدت المناظر أمامنا أجمل من أن توصف بالكلمات. ضحكَتْ لنا بعض المكسيكيات الخارجات للتوّ من الحقول. ليست المرأة هنا عنواناً لجمال خاصّ يجمع سمرة الهنديّات وسحر الخلاسيّات فحسب، بل هي أيضاً رمز للمحبّة والأمومة، وعنوان للتقدير والاحترام. تكفي زيارة واحدة للأماكن الأثرية، أو المتاحف، حتى تجد تماثيل متنوّعة للمرأة، بمختلف شخصياتها، فهي تارة إلهة الشمس، وتارة أخرى ملكة الخصوبة والإنجاب، وهي غالباً السيّدة المخلّصة التي لها كنائس خاصّة بها، ومنها كنيسة السيدة «غوادالوب» التي يُقال هنا إنّ أصل تسميتها ربما جاء من العربية ويعني: نهر الحب، أو وادي الحب، أو ماء الحب. وللمرأة أيضاً جزر باسمها فيها تماثيل ونصب آلهات اكتشفهنّ الإسبان.

ها نحن على أبواب مكسيكو، نوشك أن ندخل هذه المدينة التي باتت تحتضن حوالى 22 مليون مواطن ومقيم أجنبي، فضلاً عن السيّاح. وهناك ما لا يقلّ عن مليون سيّارة أجرة (تاكسي) مصنّعة محلّيا، حيث صناعة السيّارات تُعدّ ثاني مصدر للدخل القومي في البلاد بعد النفط.

نحن في اليوم الثالث من رحلتنا إلى بلاد ما زالت تحتفظ بكلّ الحضارات الأصيلة والدخيلة، فتشكّل مزيجاً ساحراً من ذلك التلاقح الثقافي والحضاري، الذي أبدع علوماً وأهراماً وثقافات وحُبًّا، لكنّه لم يعرف كيف يقفل الأبواب أمام الغزاة الدائمين إلى يومنا هذا.

غداً يوم آخر مع الحبّ وأغاني المارياتشي، وأكل الجراد في المكسيك...

عن الحب والأكل الغريب والماريانتشي

«انتبهوا إلى جيوبكم، لا تضعوا نقودكم في الجيب الخلفي، وإن كان معكم حقيبة ظهر فتلكن أمامكم، ولا تغامروا بالذهاب إلى أماكن غير سياحية، وانتبهوا، وخاصّة في العاصمة مكسيكو، و..، و... الخ».

يكاد المرء يصاب برعب مُسبق إذا ما صدّق كلّ ما يقال في الكتب السياحية الغربية عن المكسيك. هل فعلاً البلد خطرٌ إلى هذا الحدّ، أم في الأمر مغالاة وحرص وحذرٌ أكثر من المعقول والمقبول؟ وهل إن كان الزائر عربياً قادماً من بلاد الاقتتال والفساد والزعامات والعصابات وأمراء الحروب والإقطاع وقطّاع الطرق، سيجد المكسيك غريبة عليه فعلاً؟

تركت الكتاب السياحي على مكتب غرفتي في الفندق البهيّ المطلّ على ساحة واسعة. قرأتُ ما يكفي لأعرف إلى أين أذهب، وماذا أزور. سأتّكل على الله وأغامر، على الرغم من تحذير الكتب. «لا يصيبكم إلا ما كتب الله لكم». يبدو أنّ ما كتَب لي الله في هذه البلاد الغنيّة من ثقافة وحضارة وحبّ ومتعة، أكثر جمالاً ممّا توقّعْت.

في المكسيك مع زملاء فرنسيين ولبنانيين.

مع زملاء فرنسيين تحت أشجار الصبار في المكسيك.

«أريد يا ميغيل أن نشاهد المارياتشي الليلة في ساحات مكسيكو». وافق دليلي ومرافقي، من دون نقاش. ابتسم بخبثه المعهود. أدرك أنّني انصعتُ لنصائحه التي ما فتِئَ يكرّرها على مسمعي، منذ وصولنا، حول السهر وليالي السمر. هو ماهرٌ في الإقناع، وأنا ماهر في العناد. لكنّ عنادي تكسّر أخيراً على صخرة إلحاحه. نجح في إقناعي، بأقلّ من ثلاثة أيّام، بتذوّق ما لم أتخيّل يوماً أنّي قد أُقْدِم على مجرّد التفكير بأكله. وإليكم بعض ما أكلتُ مع هذا الشقيّ ميغيل: «بيض النمل مع بندورة خضراء وصلصة حارّة. فاصوليا باللحمة ممزوجة بالشوكولاتة أو العسل. جراد مشويّ أو مقليّ ممزوج بالحامض ويقرمش قرمشةً تحت الأضراس. أُقسم لكم إنّ كلَّ هذا المأكولات كانت في منتهى اللذة والمتعة... ولو أضفنا إليها التورتيا والتاكو والانشيلادا وغيرها، لأصبح المطعم المكسيكي من أغنى مطابخ العالم، وأكثرها تنوّعا وغرابة. يمتزج فيه الحلو بالحامض بالمالح بالحارّ... ولا يدري إلّا الله كيف يصبح كلّ ذلك لذيذاً إلى هذا الحدّ. أمّا المشروب الروحي الأكثر انتشاراً مع مئات أصناف البيرة، فهو «الميزكال». لا عجبَ إن رأينا في قعر القنينة دودة، أو إن قدّم النادل دوداً مطحوناً مع الملح. شخصياً، لم ولن أجرّب الدود، حتى لو كان بطعم العسل. باستغراب وامتعاضٍ سألتُ صديقي ميغيل: «أمعقولٌ يا رجل أن آكل دودةً بالملح؟». كاد ينقلب على ظهره، من شدّة الضحك، ثمّ قال: «من دون ذلك لن تتمتع الليلة بالمارياتشي». تذوقته. وأحببته. ورجوت الله أن يسامحني وأن أمضي ليلتي بسلام.

ما أكلته من لحوم وحشرات وشوكولاتة في الليلة السابقة، عوّضت عنه بأكل الفاكهة في اليوم التالي. تُعدّ المكسيك جنّة الفواكه الاستوائية والغريبة والمتعدّدة الأشكال والطعوم: الأناناس، الغوافة، المانغا، الموز، الأفوكادو (كانت تُسمّى قديماً: بيض الشجر) الماماي، تشيكو زابوتي، الغوانامانو، التشيريمويا. وتحتلُّ المكسيك المرتبة الأولى في مجال تصدير الأفوكادو، والثانية في تصدير الحامض والباباي، والثالثة في البرتقال، والخامسة في قصب السكّر، والتاسعة في البن. لكنّ اتفاق التجارة الحرّة مع أميركا قبل سنوات، جعل (كما هي العادة في مثل هذه الاتفاقات) أميركا المستفيد الأكبر من التبادل التجاري مع جارتها الجنوبية.

لا يزال النهار في منتصفه. نعرّج على بائع العصائر. يحار المرء أين ينظر، فـ«الفاكهة بالنظر»، كما يُقال. تكاد تشعر بأنّ كلّ فواكه الطبيعة لها نماذج هنا، أو لعلّ مصدرها هنا. ماذا نطلب؟ أيّ شيء. كلّ شيء هنا لذيذ الطعم. لا أدري ماذا طلب ميغيل، لكنّي وجدتني أمام كأس هائلة من العصير، تزدان حافاتها بقطع متنوّعة من الفاكهة. ظننت حين أنهيته أنّي لن أذوق طعاماً خلال اليومين المقبلين، ها أنا ألتهمه الآن بعد أقلّ من ساعتين... هه.

كلّ أنواع اللحوم ممتازة في بلد يُعَدُّ من أغنى دول العالم في تربية المواشي. في الشمال مثلاً، تُصدَّر ملايين الأطنان من اللحوم إلى أميركا، فضلاً عن كلّ أنواع الأسماك السابحة يؤتى بها من مسافة تبعد اثني عشر ألف كيلومتر تقريباً في عُرض المحيط. ووفق الدراسات الدولية، تحتلّ المكسيك المرتبة الخامسة عالمياً في تربية الحيوانات الداجنة.

«قرمشنا» بعض الجراد ميغيل وأنا في المطعم الفسيح. طعمُه ألذُّ ممّا توقّعْت. كان رجل ياباني وزوجته إلى جانبنا، يسوّي نظارته وينحني برأسه فوق صحن الجراد المقليّ أو المشويّ، يكاد يكون كهرٌّ يشمُّ الصحن قبل أن يهمّ بالتهامه. ينظر إلى زوجته، يبتسم على الطريقة اليابانية، فلا تعرف إن كان فعلاً في الأمر ابتسامة أم تعبير عن شعور آخر. يقرِّب كرسيّه أكثر من الطاولة، يلتقط جرادة، يتأمّلها، ثمّ يلتهم الصحن... إذا ما أحبَّ اليابانيون الجراد، فسيغزو العالم، لأنّ هؤلاء سيفكرون فوراً في تأسيسِ شركة للجراد. ونحن، في الوطن العربي، سنفكر حتماً في تأسيس شركة للاستيراد. نكاد نستورد كلّ شيء ولا نصنع إلّا الفرقة بيننا.

نتوجّه نحو إحدى أشهر الساحات العامة في العاصمة مكسيكو. اسمها ساحة الدستور. يربض على جانبها الأيمن «القصر الوطني». لا يزال هذا القصر يحمل الكثير من تاريخ إمبراطورية الأزتيك

وحضارتهم. يُعدّ أحد أهم المقارّ السياسية في العالم. كلّ شيء فيه يضوع منه عبقُ التاريخ العريق لبلد متعدّد الحضارات والثقافات والغزوات. ساحاته الفسيحة، ممراته الطويلة، صالوناته الرحبة، كلها كانت شاهدة، عبْر التاريخ، على حياة الملوك والغزاة والطغاة والدكتاتوريات والثوّار. اللوحات الرائعة، النقوش الدقيقة تغطي الجدران والأدراج والسلالم، وتروي حضارات تمتدّ من الفترة السابقة للمرحلة الإسبانية حتى القرن الحادي والعشرين. يغلب على اللوحات تاريخ الغزوات والمواجهات والثوار والظلم. هكذا هو التاريخ لا يتغيّر أينما كان. كانت طباع البشر ولا تزال تنحو صوب القتل والغزو والظلم والإرهاب، أمّا التسامح فيبدو في تاريخنا استثناءً حتى في عصور الرسل والأنبياء.

بقيت مسمَّراً هناك ساعاتٍ طويلةً أتأمّل التاريخ بلوحات الحاضر. يأخذني الخيال صوب بلادنا المنكوبة. أفكّر بما قد نعلّقه في القصور والبيوت من لوحات لرسم واقعنا. ماذا ستحمل تلك اللوحات غير صور الدم والفتن والاقتتال الذي دمّر البلاد وقتل العباد، وأعادنا إلى عصور العبيد.

ينفطر القلب من الألم، لكن في هذه البلاد المكسيكية الجميلة، لا مجال لاستمرار الألم حتى لو رافقه البؤس. سرعان ما تنساب إلى مسامعنا أنغام الغيتارات من الساحة المجاورة. تصدح أصوات المغنّين قويّة هادرة. تغنّي للحبّ والأرض والوطن والطبيعة والرجولة. إنهم الماريانشي. صحْتُ بمرافقي: «هلمّ بنا يا ميغيل نفرح بما عندكم».

مجموعة من الرجال يتجاورون في صف واحد. يحملون غيتارات متعدّدة الأشكال والأحجام. يلبسون ثياباً سوداء، وعليها بعض النقوش القماشية البيضاء، يلفّها زنّار بلون الذهب. يعتمرون قبّعاتهم المكسيكية العريضة. تطوّق أعناقهم ربطات على شكل فراشة كبيرة تتدلى صوب صدورهم. بعض الوجوه تختفي خلْف الشوارب الكثّة، وبعضها الآخر ينضح بنضارة الشباب. لا فرق هنا بين طاعنٍ في السن وفتىً شابّ. الصوت هو نفسه، قوي، جهوري، طالعٌ من القلب والروح، يصدح في سماء مكسيكو، فيلقي على الناس وشاحاً من البهجة والفرح، ويحملهم على الرقص. للعمر تجلّيات في الحزن، أمّا في الفرح، فيمّحي الفرق.

لا أحد يعرف حتى اليوم حقيقة أصل الكلمة «ماريانشي». سعى الفرنسيون بداية للاستيلاء على الاسم بقولهم إنّه تحريف لكلمة «marriage» التي تعني «زواج»، وذلك لأنّ هذه الموسيقى غالباً ما تُعزف في الأفراح، لكنّ الكتب المكتشفة لاحقاً أثبتت أنّ هذا غير صحيح. يبدو أن «ماريانشي» اشتُقت من اسم الخشب الذي يرقص فوقه راقصو هذه الموسيقى. ليس مهمًّا الاسم. صارت هذه الموسيقى شعاراً للبلاد. غزتِ العالم، فوضعتها منظمة الاونيسكو على لائحة التراث العالمي.

تنتشر فرق الماريانشي في كلّ الساحات العامة في المسكيك. بعضها يعزف طويلاً ويجمع المال من السيّاح. بعضها الآخر ينتظر أن يأتيه عاشق أو عريس للاتفاق معه على ثمن سهرة. وفي مخيّلة العشاق تبقى تلك الصورة الرائعة لعازفي الماريانشي تحت شرفة الحبيبة، ينشدون لها الحب بغيتاراتهم وأصواتهم الصدّاحة.

لم تكن الغيتارات في أصل هذا التراث الموسيقي. كانت الماريانشي في البداية تعتمد على آلات النفخ التي تشبه «منجيرات» القصب عندنا. كانت مصنوعة من القصب أو من الخشب أو حتّى من الطين. مع الغزو الإسباني صار الغيتار سيّد الماريانشي بلا منازع، ترافقه آلات أخرى كالساكسوفون والأكورديون والكمنجات وبعض آلات النفخ وغيرها.

وإن كانت الماريانشي تُعزف في الحفلات والأعراس وقصص العشق والأحزان، فإن أغرب مشهد رأيته في هذه الرحلة، هو عازفٌ يغنّي بصوته الجميل الصادح ليشجّع ديكين على الاقتتال. نعم، هنا أيضاً صراع الديكة هو عادة من العادات، لكنّه صراعٌ يبقى، حتى في أسوأ حالاته، بين دِيَكة فعليين، لا بين دِيَكةِ الأديان والسياسة والمال والفساد التي ترسم حاضراً قاتِماً لبلادنا.

خلافاً لربيع العرب الذي لم يجلب لنا سوى الفتن والاقتتال على موائد الآخرين، فإن الثورات في المكسيك كان لها طابع آخر أكثر عمقاً وأهمَّية. وسأتحدّث عنها في المقال الذي يلي في سياق الكلام على سطوة أميركا، فنحن والمكسيك في مضمار السطوة الأميركية صنوان. أمّا الآن فدعونا نستكمل الاستمتاع بما نرى ونسمع في ساحة مكسيكو.

أهرام و... سطوة أميركية

سألني ميغيل: «ما رأيك يا صديقي في أن نذهب إلى إحدى علب الليل المكسيكية، حيث تسمع الموسيقى الرائعة، وتشاهد أهل البلاد كيف يرقصون ويَسْمَرون؟». يحاول الدليل المكسيكي الظريف والباسم على الدوام، إغرائي بعدم العودة باكراً إلى الفندق. أقنعته بأنّ يومنا كان طويلاً ومُضْنِياً، وأنّ من الأفضل النوم باكراً الليلة، لكي نتمكّن غداً من زيارة أهرام المكسيك الشهيرة. في الواقع لم أبذل جهداً كبيراً في إقناعه، فهو مثلي يبدو متعَباً بعد الزيارات الكثيرة في هذا النهار.

أرتمي بجسدي دفعةً واحدةً على السرير، من دون أن أنزع شيئاً من ثيابي. أُمنّي النفس بحمّام ساخن بعد أن أرتاح قليلاً. أقرأ آخر رسائل الواتساب على هاتفي، متمنّيا ألّا يكون بينها أيُّ خبرٍ يُفسد عليّ سعادتي المكسيكية. معظم الرسائل تتحدّث عن النفايات والساسة في لبنان؛ ولا فرق بينهما على أيّ حال، فكلّما اقتربنا من الساسة تفوح رائحة كريهة. لكنّي على يقين من أنّ في الأمر شيئاً أبعد من النفايات. هذه محاولة لتحريك شارع ضدّ آخر. أخشى أن يكون إقليم الخروب والمخيّمات الفلسطينية وطريق الجنوب، فتيلاً لإشعال نار جديدةٍ متصلةٍ بنيران المنطقة. أحاول ألّا أفكّر كثيراً في الأمر. لستُ هنا لمتابعة مآسي بلادنا. سأعود قريباً لأُبتلى مجدَّدا بالسياسة ونفاياتها المشرقية.

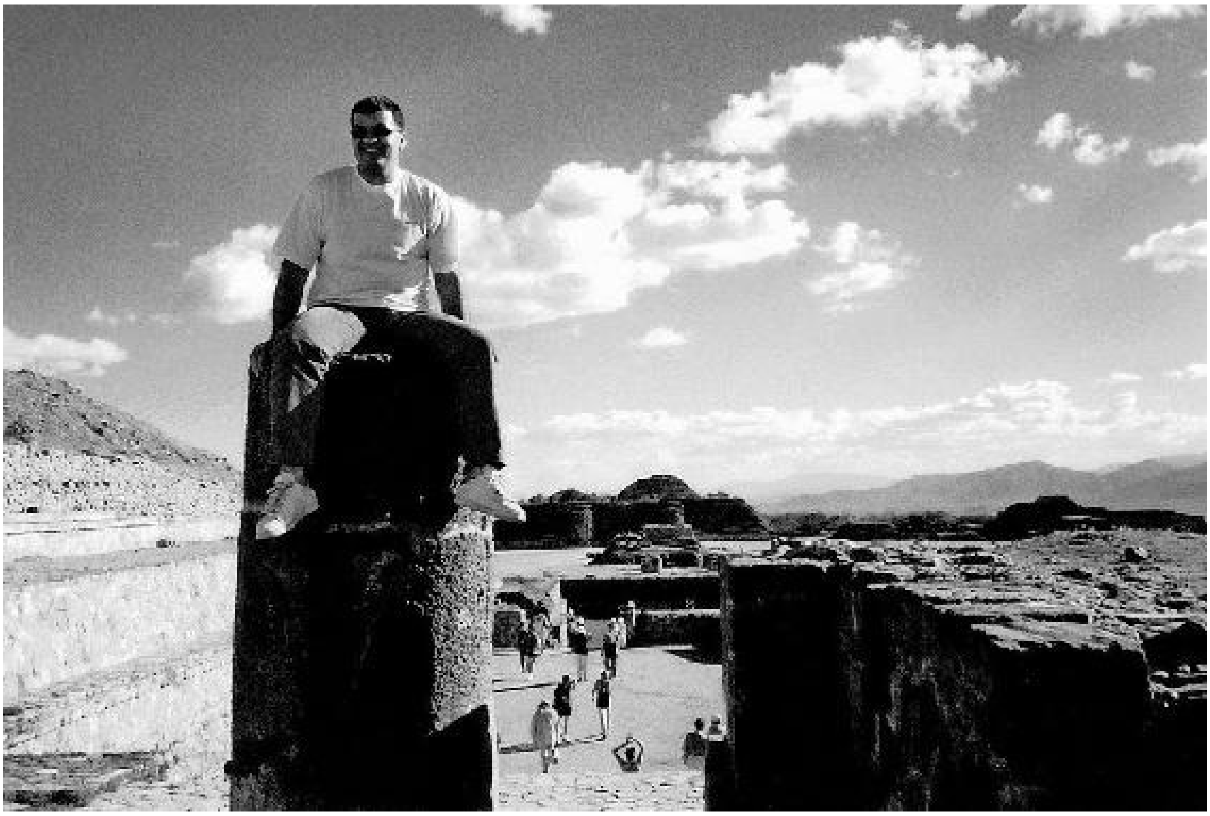

قرب إهرامات المكسيك.

لا تزال أصواتُ الشوارع والماريانتشي وأبواق السيّارات وشيءٌ من آخر حرارة الليل، تتسلَّلُ إلى الغرفة الواسعة في الفندق. أفكِّر بما سنزوره غداً. ثمّة حماسةٌ هائلة في داخلي، لزيارة الأهرام ومقارنتها بمثيلاتها في مصر. لا ينافس تلك الحماسة سوى ثقل النعاس الذي دبّ في جفوني من دون استئذان.

ها هو ميغيل يصل عند السابعة والنصف صباحاً، يحمل أشياء كثيرةً بيديه، وحوْلَ جسده المكوّر. توحي عيناه بأنّه نام مثلي ثماني ساعات متواصلة. أُمسِك بيدي كوب النسكافيه وأحملُه معي إلى

السيّارة، ونبدأ الرحلة صوب الأهرام. يسألني مرافقي إنْ كنتُ نمت جيداً. لا يترك لي متعة الإجابة، بل يُسارع إلى القول بصيغة السؤال: «أتعلم يا صديقي أنّهم اكتشفوا قبل فترة قصيرة زئبقاً في نفق الأفعى في أحد أهرام تيوتيهواكان؟» وطبعاً، أجبته بالنفي. عندنا من أفاعي السياسة في الشرق ما يُنسينا أنّه خارج الشرق توجد حياة. وعندنا من زئبق المواقف ما يُبقينا حائرين على أيّها نعتمد. أسألُه ماذا يعني هذا الاكتشاف الجديد. يضرب بكفه على ركبتي، ويُجيب بحماسة الفرح بما يقول: «يعني ببساطة، بحسب علماء الآثار، أنّ ثمّة مدافن ملكية لم تُكتشَف بعد، ذلك أنّ هذا المعدن كان يُقدَّم قرباناً للملوك والآلهة».

أرتشِفُ قليلاً من النسكافيه مستغِلّاً الوقوف أمام إشارة السير. لا أدري لماذا قرّر ميغيل هذا الصباح أن يُسرعَ بأكثر من سرعته أمس. أسأله التروّي قليلاً، أولاً، لأنّي بطبعي لا أحِبّ السرعة، وثانياً، لأنّ من المؤكّد أنّ المثل القائل «في التأنّي السلامة وفي العجلة الندامة» ينطبق تماماً على فوضى المكسيك، التي تُشبه فوضى الكثير من دولنا، وثالثاً، لأنّ الهرَم الذي نقصده في مستهلّ اكتشافاتنا لهذه الحضارة العمرانية العريقة، لا يبعد عن العاصمة مكسيكو سوى خمسين كيلومتراً، إلى الشمال. هناك تقوم مدينة الآلهة المعروفة باسم Teothihuacan والتي تعلو عن سطح البحر نحو 2200 متر.

تقول كتب التاريخ إنّ مدينة الآلهة بُنيت في القرن الثاني قبل الميلاد، واستمرَّ تطوُّرها حتى القرن السابع الميلادي. نسير الهوينا فوق التاريخ وبين الحضارات. أتخيّل كيف كان الناس هنا في ذروة مجدهم، يسيرون بين هذه الأهرام المتعدّدة الأحجام والأشكال والطوابق والمدرجات. أفكر كيف كانوا يعيشون في هذه المدن الصغيرة ذات البيوت التي تحتضن في حنايا جدرانها عبقرية الهندسة، ودقة الرسم في اللوحات والمنحوتات، وتحتفظ إلى يومنا هذا، ببعض ألوانها.

كانت هذه المدينة الأعرق والأكبر والأهم، على مدى العصور التي سبقت «اكتشاف» كريستوف كولومبوس (هذا البحّار الدموي والقرصان الغازي الذي لا أكنُّ له أيّ احترام ولم أُحبّه في حياتي). عاش في ربوع هذه المدينة المكسيكية العريقة نحو 200 ألف شخص. فيها وُلِدت وازدهرت حضارات كثيرة. يُقال إنّ اسمها كان يعني عند حضارة المايا «المكان الذي ينبت فيه القصب». ويُقال أيضاً إنّ معناه «المكان الذي تولد فيه الآلهة، ومنه يبدأ الكون»، كما يُقال إنّ معناه «مكان العبادة»، أو «مكانِ اجتماع الآلهة».. تعدّدت الأسماء والتفسيرات، لكنّ كلّ شيء يشير هنا إلى أنّ المكان كان مأهولاً بالملوك والعبادات والمؤمنين والأضاحي والقرابين.

أصعد درجات وأهبط سلالم. أسير في الممرّات الطويلة. أقترب من الأحجار المصقولة بإتقان بالغ. ألمس الحجارة كما لو أنّني أريد أن يتغلغل فيَّ عبْرَ مسامّ يدي شيءٌ من تاريخ حضارة المايا. كما لو أنّني أُريد لهذه الحجارة أن تلهَجَ بأمجادها وتاريخ أهلها، وأن تنطق بالسبب الذي أدّى إلى اندثارهم أمام جَور الغزاة. أحمد الله أنّ كثيراً من الآثار ما زال يُخبِرنا عنها، ربّما لأنّ برابرة العصور الغابرة كانوا أقلّ إجراماً من برابرة عصرنا الذين يقتلون الآثار، ويدمّرون المتاحف، وينبشون قبور الصالحين والأنبياء، ويكرهون الشمس والقمر والورد والنسيم.

هنا، كما في شرقنا، اختلطتِ العبادات والحضارات والطقوس. هذه لوحةٌ تجسّد إحدى الآلهات، جالسةً على عرشها. رأسها يشبه البومة، تاجها من ريش، وإلى جانبيها رجلان قصيرا القامة، يقدّمان إليها الهدايا. فوق الرأس شجرة من أيادٍ تمتدّ في كلّ اتجاه. أفكِّر في أيادي ساستنا، أضحك.

هنا يربض «معبد الشمس». إنّه يشبه في بنائه أهرام مصر، لكنّه أقلّ منها ارتفاعاً، ودونَها هندسةً معمارية. أصعد مدرّجاته كما يفعل مئات السيّاح غيري. يزوره نحو مليوني سائح كلّ عام. يرتفع إلى نحو 70 متراً. عليكَ أن تصعدَ 245 درجة لتصل إلى قمّته. من هذا الارتفاع يمكن النظر إلى مدينة الأهرام الساحرة، فتبدو كسورٍ من أهرام يحمي المدينة. خلف السور أشجار وحقول خضراء. وبين الأهرام باعةٌ يهرولون خلف السّيّاح لبيع لوحات أو تحف أو مصنوعات يدويّة.

تقترح علينا سيّدة مكسيكية متقدّمة في السنّ أن تقرأ طالعنا. أفتح لها يدي، وأجلس القرفصاء قبالتها. تحمل كفّي بيَدِها. أفكّر بأنّ «المنجّمين يكذبون حتى ولو صدقوا»، ولكن لا بأس، تسَلّينا قليلاً. سألتني عن أول حرف من اسمي، عرفتْ باقي الاسم. سألتني عن أول حرف من اسم أبي، عرفتْ باقي اسمه. شكرتها ودفعتُ لها ثمن ما عرفت، ولم أدَعْها تكمل القراءة. استغربت ردَّ فعلي، ودَّعتها وأكملتُ الرحلة. أفضِّل أن يُصيبني ما كتب الله لي، لا ما قد تتشوّش به أفكاري هذه المنجّمة. معرفة الطالع سرّ من أسرار بعض البشر لا يعرفه إلّا خالق البشر. ولكلّ شخص تفسيره. لكنّي أفضّل أن أعيش لحظتي المكسيكية لا أن أعرف مستقبلي المشرقي. لا شيء يوحي في شرقنا بمستقبل مشرق، فلماذا نعكّر صفو حاضرنا بالتنجيم.

زرت الكثير من أهرام المكسيك ومدرّجاتها الرائعة، إحدى ساحات تلك المدرجات المحتفظة بتاريخ مدن عريقة، اسمها «جبل البان». يُقال إنّها بُنِيَت بين القرنين الثاني والسادس الميلاديَّين. كانت أعرق مدن الحضارة الزاباتية التي استبدلت منازل القشّ والأغصان بالمنازل الحجرية. كانت في طليعة الحضارات التي نحتت الحجر أشكالاً بشرية تصوّر قوّة الجيوش وسلطانها، أو تصوّر الأسرى، أو الآلهة والسحرة...

لفتني في هذا الصرح الأثري الكبير، أنّ الاسم غير معروف المصدر. يردُّه البعض إلى شجر البان، والبعض الآخر إلى ضابط إسباني اسمه مونتالبان، والبعض الثالث إلى جبل البانو الإيطالي. تركتُ مخيّلتي تذهب إلى حدّ التفكير بأنّه ربما اشتُقّ من جبال لبنان... ضحكتُ هزءاً ببعض الشوفينية والنرجسية القومية عندنا؛ فنحن نعتقد أنّ بلادنا هي مركز الكون، وحين نزور العالم نكتشف أنّنا متروكون لمصائرنا، فنزداد تعلقاً بأوطاننا ونحزن.

بين الأهرام والأضرحة والملاعب القديمة والمدرّجات، كان عبق التاريخ ينسج خيوطاً من نور في حاضر المكان. أشعر بكلّ نبض التاريخ ورعشة الجغرافيا. أفكّر بالحضارات والغزوات والثوّار. وكيف لا أفكّر بالثوار، وأنا في هذا المعقل الزاباتي. كيف لا أستعيد صورة «إميليانو زاباتا» وتاريخ هذا الثائر المكسيكي الذي قاد شعبه في الجنوب الغربي للبلاد، مُدافعاً عن جذوره الهندية، ورافعاً شعار «أرض وحرّية» لاسترجاع ما نهبه الغزاة من تاريخ السكان الأصليّين. كيف لا أفكّر بهذا الملتهب حماسة لتحرير أرض أهله وأجداده، والذي أعاد توزيع الأراضي على الفلّاحين ذوي الأصول الهندية واللون الخلاسي، مقارعاً جيش حكومة كارانزا المدعوم من الولايات المتحدة الأميركية. بقي ذلك المناضل الثائر يقاتل الحكّام وعملاءهم حتى استُشهِد عام 1919. لا يزال شعبه الأصليّ يرفع شعاراته حتى اليوم، وكرّسه «بطل الفلّاحين». مثله استشهد أبطالٌ كُثُرٌ بغدرِ العملاء الخوَنة. استُشهد تشي غيفارا، وعبد القادر الحسيني، وعماد مغنية، والشيخ أحمد ياسين، والعربي بن مهيدي، وأبو إياد وأبو جهاد والقائمة تطول...

الرئيس المكسيكي فنسنت فوكس الذي تولّى حزبه السلطة، بعدما بقيت حوالى سبعين سنة في يدِ «الحزب الثوري المؤسّساتي»، وعَد قُبيل انتخابه، وبعد انتخابه، بتلبية مطالب الزاباتيين، فأقفل أربعةً من أصل سبعةِ مخيّمات عسكرية في الشياباس، وأطلق سراح 85 معتقلاً سياسياً.

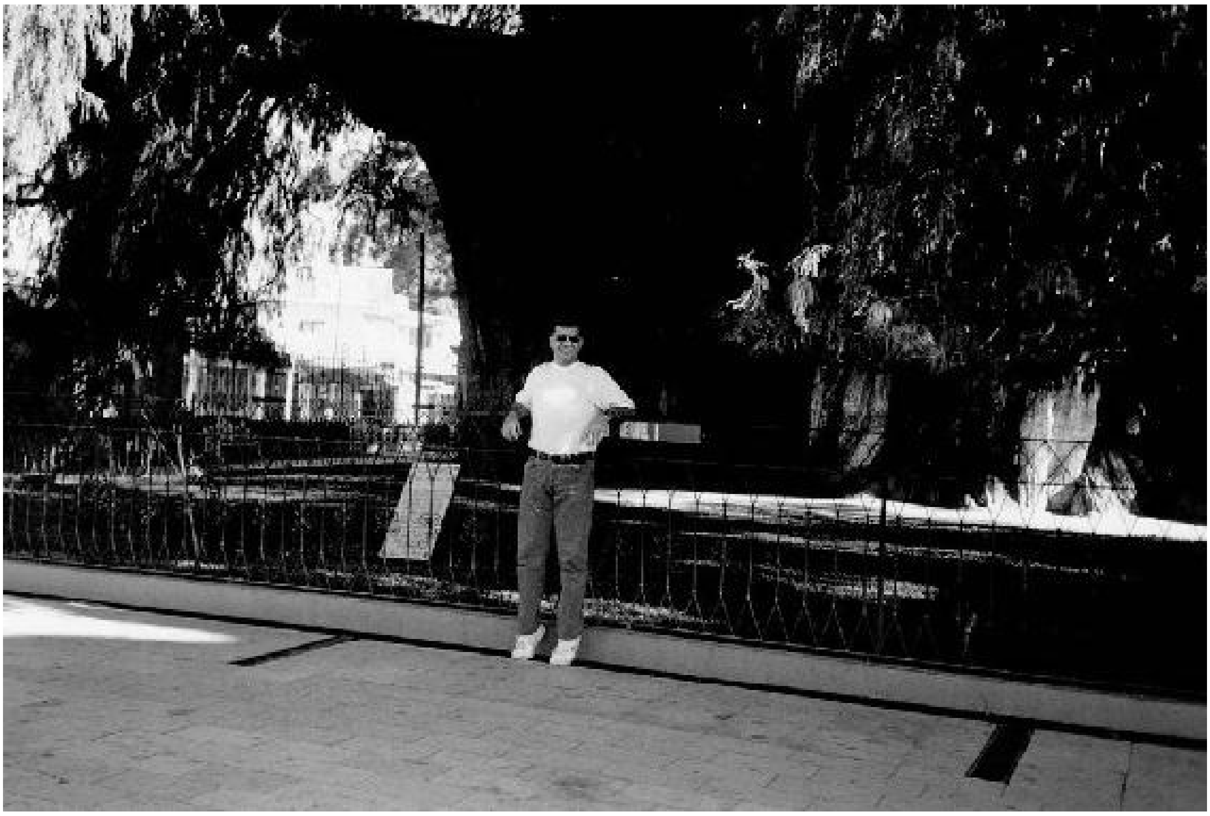

أمام إحدى أكبر أشجار العالم في المكسيك.

كلُّ مَن يزور المكسيك يدركُ أنّ الواقع أكثر عمقاً وتعقيداً من قدرة رئيس على التفاهم. فالمشكلة المكسيكية عامّة فرضتها أحزمةُ البؤس، يلتفّ الناسُ حول الزعيم الزاباتي الحديث ماركوس، وهو في طريقه مع جنرالاته، يلوّح لهم من الباص الذي يعبر فيه باتجاه مكسيكو، يلتفّون حولَه للتعبير عن نقمتهم على أوضاعهم، وعن رغبتهم في بعث هويّة أهل المكسيك الحقيقيين (الهنود الحمر) الذين سحقهم الاستعمار، وإحيائها من جديد.

إنّه الفقر يتُّخذ أشكالاً ووجوهاً نضالية مختلفة، في بلد يشهد، منذ عام 1995، إغلاقَ حوالى سبعة آلاف شركة صناعية؛ وتهديد مليوني شركة صغيرة ومتوسّطة الحجم بالإغلاق. فَقَدَ ما يقارب 200 ألف مزارع في منطقة شياباس أعمالهم بسبب تدهور إنتاج الذرة التي تستوردها الولايات المتّحدة وتُعيد تصديرَها مُعَلَّبةً إلى المكسيك، بثلاثة أضعاف سعرها، وفق ما قال لنا مرافقنا المكسيكي راوول. كما يتّهمون واشنطن بالاستيلاء على النفط المكسيكي، إذ تستورد الولايات المتّحدة من المكسيك ما يتجاوز نسبة 75 في المئة من نفطه، لتزيد مخزونها النفطي، فتزيد البلادَ إفقاراً على إفقار.

أحزمة البؤس تزحفُ على نحوٍ مخيف صوب مكسيكو والمدن الكبرى، حيث الحصول على لقمة العيش أقلّ صعوبةً. تبني الشركات لموظفيها ذوي الأجور المتدنّية بيوتاً من الصفيح، أو يبنونها بأنفسهم من موادّ لا تقيهم برد الشتاء ولا قيظ الصيف، في بلد لا يحصل على مياه الشرب إلّا نصف سكّانه فقط، ولا يحصل على الكهرباء إلّا 12 في المئة منهم.

جرّبت الأنظمة المتعاقبة كلّ الوسائل لقمع المعارضين. في عهد الرئيس السابق أرنستوِ زيديللو وقع حوالى مئة جريمة سياسية. ورُمي بأكثر من 1500 معارض سياسي في السجن. أُقيلَ الآلاف من وظائفهم لمواقفهم السياسية، ولُجمت الصحافة، وكُمّت أفواه الصحافيين، إمّا بالمال وإمّا بالاعتداء السافر عليهم، فطاول 36 صحافياً... لكنّ الثورات استمرّت وتفاقمت بسبب الفقر، وبفضل الإيمان بالانتصار عليه.

لهذا الإيمان أصولٌ قديمة جداً في المكسيك. فالبلد الذي عرف الكثير من الاستعمارات والغزوات من أميركية وفرنسية وإسبانية، والذي كان الإسبان أقسى غُزاته، إذ سعوا لقتل الروح القوميّة طَوال ثلاثة قرون من الاستعمار، لا يزال متمسَّكا بالإيمان بآلهة الشمس والقمر والنجوم. تزخر المتاحف بمنحوتات وتماثيل كثيرة لهذه الآلهة. وفي الشوارع، لا تزال التماثيل والمنمنمات تباع بكثرة لافتة. وكلّ مَن يشتريها أو يسأل عن سرّها، يُقال له إنّ المكسيكيين عرفوا أسرار الكون، ودقّة سيره، ورزنامة الشمس، وعرفوا الصفر من قبل أن يعرفه العرب.

أسأل ميغيل لمَ بقيت المكسيك غائبة عن معارف العالم طويلاً. يطفئ سيجارته بشيء من الغضب أو العتب أو الحزن، ويجيب: «إنّ العالم يا صديقي تعامى زمناً طويلاً عن حضارتنا واكتشافاتنا، وتعامل معنا كشعب بدائي هندي الأصل غير مؤهَّلٍ للحضارة. غداً سنزور معابد بويبلا التي فيها مركز الكون، وستتعرّفون بأنفسكم إلى حركة الشمس داخل أهرام واخاكا. وحين تنظر إلى اللوحة المعلقة على أحد جدران المتحف الوطني، سترى أنّها تضمّ كلّ أنواع الزراعات التي انتشرت في العالم. أتعلم مثلاً، أنّ الأميركيين يأخذون من عندنا الذرة ليُعيدوها إلينا معلّبة، ويبيعوها لنا بثلاثة أضعاف سعرها الحقيقي. أتعْلم أيضاً أنّنا نحن من أقدم منتجي القهوة التي نسدّد بها ديوننا الخارجية لفرنسا».

لكلّ شعب مبادئه وقناعاته ووسائط إيمانه. ومن جسور الإيمان في المكسيك ذات الغالبية الكاثوليكية، السيدة العذراء، واسمها الكامل هنا هو «عذراء غوادلوب». وقصّتها جميلة حتى ولو أنّ أحداً لا يستطيع إثباتها بالمطلق. يروي لي ميغيل، ونحن في السيّارة، في طريقنا من الأهرام إلى الباخرة التي ستقلّنا غداً إلى شاطئ أكابولكو الشهير، القصّة التالية عن السيدة العذراء عندهم: يُحكى أنّه كان هناك شابٌّ فقيرٌ اسمه خوان دييغو، رأى السيدة العذراء على قمّة جبل تيبياك (حيث يقوم نصْبُ العذراء، حالياً)، فطلبتْ منه أن يذهب إلى راهب المدينة، ليبني لها تمثالاً في هذا المكان. انصاع الشاب للطلب عام 1541، أي بعد سنوات على الغزو الإسباني. لكنّ الراهب سخر منه. عاد إلى القمّة ليجد بعد أيّام الزهور تنبت في كلّ مكان. جمع بعضها وقصد الراهب، فوجده يصلّي. رمى الزهور أمامه فرُسمت صورة السيدة العذراء على ثوبه. ذُهِل الراهبُ ممّا رأى، وسارع إلى بناء التمثال.

بغضّ النظر عمّا إن كانت الرواية صحيحة أم ملفَّقة، فإنّ السيدة العذراء تمثّل للمكسيكيين، وفي طليعتهم السكان الأصليّون، الأمل في كلّ شيء. يقصدونها آلافاً مؤلّفة، يقدّمون لها الإيمان ممزوجاً بالحبّ والفرح، يغنّون أمام الكنيسة، يضعون الزهور عند قدميها، ويحلمون بغد أفضل. هنا الدين والفرح صنوان، وعندنا التديُّنُ والحقد صنوان، إلّا في ما شذّ وندر.

في المكسيك نحو تسعين في المئة من السكّان كاثوليك، وأكثر من سبعة في المئة بروتستانت، وباقي السكان من اليهود ومعتنقي الديانات والعبادات الجديدة، أو من الذين لا دينَ لهم. يقال إنّ الحركة الصهيونية تسعى، هنا أيضاً، لفرض نفسها عبر ديانات جديدة كما هي الحال في عدد من دول أميركا اللاتينية.

المصيبة الأكبر تبقى أميركا. يفصلها عن المكسيك نحو 3200 كيلومتر. لا تزال مدن مكسيكية عريقة، من أريزونا إلى تكساس وكاليفورنيا، تعاني من تشرذم عائلاتها وتشتُّت أهلها، منذ الغزو الأميركي عام 1848. بعد مئة عام تقريباً، فعلت إسرائيل الشيء نفسه بفلسطين والجولان وغيرهما. يا للتشابه القاتل بين العامَيْن 1848 و1948: الأطماع نفسها والغزو نفسه والإجرام عينه. ولا من يحاسب. من يحاسب؟

أتذكرون تلك المناطق الخالية إلّا من بعض الناس، والقاحلة والفارغة من كل شيء إلا من حرارة الشمس اللاهبة وبعض السكان الأصليّين المذعورين على الدوام من غزو الكاوبوي الأميركي؟ كنّا نراها في الأفلام الأميركية، وكنّا نصفّق بغباء للبطل الأميركي. هذه المدن قائمةٌ هنا، حقًّا. سبب قفرها وفقرها هو أنّ الجانب المكسيكي من تلك المدن التي قسَّمها الغزو الأميركي، عرفت في سبعينيّات

القرن الماضي نهضة اقتصادية، بعد وصول الشركات الكبيرة الأميركية واليابانية إليها، بحثاً عن اليد العاملة الرخيصة. جذبت ملايين العمّال النازحين بحثاً عن لقمة العيش، ثمّ تركتهم مشرّدين على الطرقات وبين البيوت المقفرة، وانسحبت متخمَةً بما جنت من عرق جبين العمال المكسيكيين الفقراء.

يُحكى اليوم أنّ أكثر من عشرة آلاف جندي أميركي يحرسون ما يصفه ميغيل وسائر المكسيكيين بـ«جدار الذلّ»، أيْ ذاك الجدار ذي الأسلاك المكهربة الذي أعلنه الرئيس الأميركي السابق جورج بوش الابن (لم تقتصر أفعالُه التدميرية على العراق وحده). كلّ عام يحاول أكثر من مليون ونصف مليون مكسيكيٍ عبور الحدود صوب الشمال بحثاً عن حياة أفضل، يموت بعضهم، يعاد بعضهم الآخر مجرجِراً ذيول الخيبة، ولا يصلُ منهم أكثرُ من الثلث. من يعبُر منهم فعليه أن يدفع ثمناً باهظاً للمهرّبين والنصّابين والفاسدين. أكثر من ثلاثة آلاف شخص قُتِلوا أثناء العبور بين عامي 1995 و2006. ومن يصِل منهم فعليه أن يعمل من دون حقوق، ولا حماية قانونية في الجانب الأميركي، لأنّه يبقى غير شرعي. يجري استغلاله في راتبه وفي حقوقه، أو يعود إلى بلاده ذليلاً. وهو غالباً، لا يعود.

لكنّ السحر بدأ ينقلب على الساحر، فكلّ مرشح أميركي صار مضطرًّا اليوم لخطب ودِّ المكسيكيين، أو ذوي الأصول المكسيكية في أميركا. تخطّى عددُ هؤلاء 54 مليون شخص. صارت نسبتهم تفوق 17 في المئة من الشعب الأميركي، فاق عددهم عدد ذوي الأصول الأفريقية. باتوا جسراً حتمياً لعبور المرشح نحو الفوز.

لا يزال المكسيكيون على حالهم منذ عقود. الكثير منهم يعتبرون أميركا مصيبتهم، وكثيرون يعتبرون الرحيل إليها خلاصاً من أوضاعهم الفقيرة.

قال ميغيل ونحن نتوجّه صوب الباخرة: «ألم تلاحظ يا صديقي أنّ دولتنا وقّعت اتفاق التجارة الحرّة مع أميركا، في اليوم الذي انتفض فيه الزاباتيون في ثورتهم الجديدة، في أوّل كانون الثاني/ديسمبر 199؟». شرّع ذاك الاتفاق أسواق المكسيك للبضائع الأميركية. ضرب الحماية الزراعية. أثار الفلّاحين. اغتيل المرشح الرئاسي لويس دونالدو، انتُخِب أرنيستو زيديللو رئيساً، وبقي في الحكم حتى عام 20. اللافت أنّه بعدما ترك الحكم صار عضوَ مجلس إدارة في الكثير من الشركات الأميركية الكبيرة، ثمّ صار مدرَّسا للاقتصاد في جامعة يال الأميركية، وحاز الحصانة الدبلوماسية الأميركية بعد اتهامه بارتكاب مجازر ضدّ هنود بلاده في شياباس الشهيرة التي شهدت ثورات عديدة. فتّش عن السبب.

رمينا أنفسنا من الباخرة، ميغيل وعدد من السيّاح وأنا، صوب المياه. كانت الشمس في منتصف السماء. الحرارة مرتفعة، والمياه صافية شفافة، حتى إنّه كان يمكن مشاهدة كلّ صنوف الأسماك فيها. توقفت بنا الباخرة قليلاً للاستمتاع بذلك النهار الرائع ونحن متّجهون نحو أكابولكو في ولاية غيريرو المكسيكية. تبعد الولاية نحو 400 كيلومتر عن العاصمة مكسيكو. مدينة ساحلية عصرية وجميلة. تغسل مياهها أقدام الجبال المجاورة. اتّخذتْ اسمَها من القصب الغليظ. ترتفع فيها البنايات الشاهقة والفنادق الفسيحة الفخمة. يرقص عند شواطئها ملايين السيّاح، أو يغوصون في مياهها. لفَتَتني اليومَ سيداتٌ خلاسيّات اللون، يزيد وزنُ الواحدة منهنَّ على 120 كيلوغراماً يرقصن فوق الرمال كأنّهنّ فراشات. لم تصِلْهنَّ بعدُ آفة «الشفط». ههه. تحضرني صوَرُ نساءِ موريتانيا، والمناطقِ الصحراوية جنوبَ المغرب. هنا السمنة زينةُ النساء. وهنّ رائعاتٌ حقاً، جمالاً وحسنَ خلقٍ، وانفتاحاً، وثقافةً وأدباً وشعراً.

في مدينة أكابولكو السياحية وشاطئها الرائع، كنت ألتقي ببعض كبار نجوم السينما والفن وساسة العالَم وأثريائه، وبعض الصحافيين مثلي. هنا انتهت رحلتنا إلى المكسيك التي تركتُ فيها كثيراً من الحبّ، وأخذتُ منها ذكرياتٍ لا تُنسى.

غداً أعود إلى شرقنا الجريح، وأعود إلى السياسة العقيمة، وقد أعود إلى مشاهد الدمار والموت. فكُّرت بكلّ ذلك، وأنا أستمع إلى تقاليد الحياة والموت هنا. فحتى الموتُ في المكسيك يحمل بعض

الفرح، وليس كلّ الحزن. حين يفارق أحدُهم الحياةَ، يرقصون ويأكلون ويشربون الخمرة، تسعة أيّام متواصلة، يسبّحون بسبحات خاصّة، ويصنعون في منازلهم كلّ ما كان يحبُّه المرحوم. ربمّا بذلك تغلّب هذا الشعب العريق على كلّ ما قاساه من الاستعمار، ومحاولات سحقه، وقام من موته، ونهض من رماده، فخوراً بالذين صنعوا استقلاله.

أغادر المكسيك مفعَماً بأمل كبير، بأنَّ الغد سيكون أفضل من اليوم، والمستقبل أجمل من الحاضر، لأنّ هذا الشرق يستحقّ ما هو أجمل وأفضل، على الرغم من الدماء والدموع.

من قيظ الصحراء إلى الصقيع الكندي

في أواخر تسعينيات القرن الماضي، دعاني صديق مغربي إلى منطقة العيون الصحراوية، أغراني بسحر المكان والناس، وبأنَّ وفداً من النواب الكنديين قادم أيضاً لزيارة المنطقة. كنت قد زرت قبل ذلك مخيّمات الصحراويين وجبهة بوليساريو في منطقة تندوف. عبَرْتُ إليها من الجانب الجزائري. فرِحتُ بدعوة الصديق المغربي، أولاً لأنّي سأكتشف منطقة جديدة وطبائع الناس فيها، وثانياً كي أوازن بين ما سمعته عند بوليساريو وما سأسمعه في الجانب المغربي. فمنذ عقود أربعة، والخصام بين الطرفين يتفاقم، يتخلله اقتتال حول مصير الصحراء. بوليساريو تريدها مستقلة، والرّباط لا ترى فيها أكثر من جزء مغربي استُعيدَ من الاحتلال الإسباني. العائلات مشطورة، نصفها هنا ونصفها الآخر هناك. زعيم بوليساريو محمد عبد العزيز نفسه الذي يتولّى رئاسة الصحراء الغربية، غير المعترف بها من قبل المغرب، والمدعومة من الجزائر، لم يرَ والدَه منذ عقود، لأنّ الوالد يقيم في الجانب المغربي، وتحديداً في منطقة العيون التي قصدتها للتعرُّف إليها عن كثَب.

طبائع الصحراويين في الجانبين متشابهة، لكنَّ حالهم في العيون أكثر رفاهية لتمتّعهم بدعم العرش المغربي. لباسهم جميعاً واحدٌ أو متشابه، ومأكلهم هو نفسه، وضيافتهم هي عينها، ترحيبهم وابتساماتهم وانفتاحهم وحرّيتهم الاجتماعية هي هي. يغلب الأزرق والأبيض على أثواب الرجال، أو ما يُسمّى «الدرَّاعة»، وهي عبارة عن جلباب ذي قماش ناعم الملمس ومريح. تغلب كلّ الألوان الزاهية الأخرى على ثياب النساء، أو ما يُعرف بـ«الملحفة»، لأنّها تغطّي كامل الجسد والشعر، لكنّها تبقي مفاتن النساء وأوزانهنّ الثقيلة واضحة للعيان. فهنا أيضاً وزنُ المرأة عنوان رفاهية العيش ورفعة العائلة وحُسن السيرة. لا ضرورة لعمليات التجميل، وشفط دهون البطون، ونفخ الشفاه والصدور. هنا كلّما ازداد وزن المرأة صارت أجمل، وعلا شأنها.

أصلُ إلى منطقة العيون بعد سفر طويل. أظنّ أنّي سأرتاح قليلاً في الفندق المخصّص لنا. ظننت ذلك، لكن خاب ظنّي، ففي واقع الأمر، إنَّ أهل المنطقة، طبقاً لعادتهم، حين يستقبلون ضيفاً، يأتون جميعاً، بعضهم يحمل أكواب الشاي والحليب والقهوة، وبعضهم الآخر صحون التمر، وبعضهم أيضاً يحمل باقات الورد.

للشاي هنا طقوسه. يُسكب من الإبريق إلى الكأس، ومن كأس إلى أخرى، ثمّ يُعادُ إلى الكأس الأولى، ثمّ يكرّر ساكب الشاي هذه الحركة مرّات عدّة. وكلما ارتفعت يده وهو يسكبه، صار الطعم ألذّ وأطيب. يقال هنا إنّهم يرفعونه عالياً ليكتسب مزيداً من الأوكسجين، أثناء انسكابه في الكأس. لونه أشقر إلى بنّي فاتح، وله في عدد كؤوسه طقوس، بعضها يتعلق بالواجبات والضيافة، وبعضها الآخر بالحب والغرام. فالكأس الأولى لها أسبابها، والكأس الأخيرة لها أهدافها. عليك أن تفهم ذلك كلّه ذلك كي تزداد متعتك بطعم الشاي.

أهل الصحراء وكرم الضيافة صنوان. يتسابقون على استضافة زائرهم. يتبارزون في تنويع المآكل واللحوم والأسماك. تنزل اللحوم بكمّيات لا يتخيّل المرء أنّه سيأكل واحداً في المئة منها. ليس غريباً أن تجد خروفاً بقضّه وقضيضه على المائدة، وكلّ ما فيه وعليه مطهُوٌّ على نحوٍ يجعل اللحم ينزلق في الفم انزلاقَ القشطة أو المهلبية في بلاد المشرق.

ما إن تنحسر حرارة النهار، حتى يتحلّق الجميع حول الضيف. تنفتح الأحاديث على قليل من السياسة، وكثير من شؤون الحياة والأدب والشعر والغناء والموسيقى. تحضر آلة التيدينيت الشهيرة، المنفوخة الجسد. هي كالعود أو أكثر، طويلة الزند كجيد حسناء صومالية. ما إن ترسل الشمس آخر أشعّتها، وتهدأ حرارة الرمال، وينتشر في الأفق وشاحٌ برتقالي، حتى تحتلّ آلةُ التيدينيت موقع الصدارة

في السهرة التي لا يضاهي سحرها في الصحراء أيّ سحر آخر. يصدح الغناء، فينثر نغماتِه على الرمال. نسمع رغاء الجمال وثغاء الماعز من بعيد، وصهيل حصان يبدو مثلنا سعيداً بهناء المساء. تلمع عيون النساء الذكيّة تحت الملحفة، وعليك أن تفهم ما إن كان في العيون مجرّد ترحيب أم غزلٌ وأكثر. تقوم بعضهنّ إلى حلقات الرقص بعد صلاة العصر. هنا الإيمان والفرح صنوان، والتسامح والإيمان خِلّان.

يجاورني أمام الخيمة سيناتور كندي. يسألني عن سرّ ترحيب الصحراويّين بي أكثر منهم. أشرح له أنّني أعمل في الإعلام، وأنّهم يشاهدونني على الشاشة أو يسمعونني على الإذاعة. يبدو كمن اكتشف سرًّا عظيماً. يقترح عليَّ أن أزورهم في أعالي جبال كندا. يحدّثني عن تظاهرة ثقافية للهنود أو السكّان الأصليّين لكندا، اسمها «هاريكانا»، فيها رياضة وسباق على الثلج والجليد. فيها أيضاً رحلة إلى قمم الجبال، ومشاركة للسكّان في عيشهم، تحت الخيم المنصوبة فوق الثلج. أقسم بالله إني، وأنا على رمال الصحراء، شعرت بقشعريرة بردٍ تنزل من عنقي إلى منتصف ظهري، لمجرّد أن تخيُّلت الرحلة إلى تلك الجبال الكندية. سألته عن الحرارة، فقال من دونِ أن يرفَّ له جفن: «تراوح بين أربعين وخمسين درجة تحت الصفر. ولكن لا تقلق يا صديقي لدينا كلّ ما يلزم». وكيف لا أقلق؟ بالتأكيد سأقلق. ولكن، بالتأكيد أيضاً سأخوض غمار هذه المغامرة. وما نفع الحياة بلا أجنحة حرّية ومغامرات واكتشافات...

عند هنود كندا

لم يكد يمضي شهر واحد، حتى وصلتني دعوةٌ رسميةٌ هذه المرة. لم أتردّد لحظة. ذهبت إلى أكثر المتاجر الفرنسية تخصُّصا بملابس مواجهة الصقيع والملابس الرياضية. اشتريتُ كلّ ما يلزم، أو هكذا ظننت. حجزتُ في أول طائرة، وبدأت المغامرة.

هبطتُ في مدينة «كيبيك» الكندية. طرقاتها ترقد تحت مترٍ من الثلوج. الجرّافات تنثر الملحَ فوقها، وتفتح كلّ الطرقات والمعابر. البخار يخرج من أفواه المارّة ومن فمي. أقارن بين أقدام الكنديين وقدمي، فأجد أنّني ربّما لم أحسن تماماً شراء ما يلزم لمكافحة الثلج. أسال عن أوّل متجر في المدينة. اكتشفت أنّ عندهم ثياباً عازلة للحرارة، وأقمشة لاصقة توضع على الأنوف أو على الأرجل تضخ حرارة، وسترات حين يلبسها المرء يخال نفسه في فرن متنقل. ممتاز، هذا هو المطلوب. أفرك يديّ، أنفخُ عليهما بحرارة نفَسي، وأدخل إلى أول متجرٍ أشتري كلّ ما يلزم.

يتّصل السيناتور بي في الفندق مرحَّبا. يقول إنّ ثمّة سيَّارة ستكون بانتظاري صباح الغد. أنام ليلتي الأولى في كندا، ولا أرى من نافذتي سوى دخان المدافئ يعتلي السطوح، والأشجار تنوء بثقل الثلوج عليها، والبيوت غارقة في اللون الأبيض، والناس ذاهبون وعائدون، وكأنّ شيئاً لم يكن. كلّ شيء أبيض، وكلّ شيء ناصع، وكلّ شيء يبعث في النفس كثيراً من الراحة.

تنطلق بنا سيّارة الدفع الرباعي بين الثلوج وفوقها. اخترع الكنديون إطارات سيّارات تسير على الثلج. اخترعوا كلّ شيء ليتعايشوا مع هذا الزائر الأبيض الذي يبقى عندهم طويلاً. يأتي بعده ما يُعرف هنا بـ«الصيف الهندي» حيث تلبس الأشجار كلّ ألوانِ الطبيعة، وتُزهر وتَزهو وترقص فرحاً حول الأنهار وبين البيوت وفي السهول والأودية والجبال، فتُذكِّر البشرَ بروعة الخالق في مخلوقاته.

نعبُرُ بين الغابات الكثيفة، تبدو أشجارها العالية حاملة أطناناً من الثلوج، تنوء تحتها الأغصان. لكنّها توحي بأنّها حريصة على ألّا تُسقِطَها حُبًّا بها. تمرُّ بجانبنا عرباتٌ تجرّها الكلاب، وخلفها سيّارات الثلج، أو ما يُعرف باسم «موتوناج»، وهي شبيهة بتلك الصالحة للتزحلق على المياه.

صاح بي الرجل الواقف أمام خيمة كبيرة: «أهلاً وسهلاً يا صديقي، لم أصدّق أنّك ستلبّي دعوتنا». كان يرتدي زيًّا هنديًّا مطرَّزا بريش الطيور، على رأسه قبّعة الهنود، وتتدلى من جوانب ثيابه أربطة

قماشية كثيرة. على كتفيه وحَول عنقه شالٌ من الصوف يبرز منه رأسُه. «تعال يا صديقي سامي، تعال، أنت الليلةَ ضيفُ خيمتي». عرفتُ الصوتَ ولم أعرف صاحبه. غير أنّي لم أتأخّر في اكتشاف الأمر: يا إلهي! لا أصدّق أنّ هذا الهندي الكندي، بثيابه التقليدية الجميلة، هو السيناتور نفسه الذي التقيته تحت خيمة في الصحراء، وكان يرتدي بزّته الرسمية، مع ربطة العنق. تعانقنا، رَبَّتُّ كتفه كما ربَّتَ كتفي، على الطريقة الهندية.

ندخل إلى الخيمة الفسيحة. يتحلّق جمعٌ من الرجال والنساء والضيوف. وسط الخيمة نارٌ تُصرّف دخانَها عبْرَ أنبوب معدني إلى الخارج. وأمام الخيمة نار. الجميع يشربون المشروبات الكحولية المحلية أو الشاي والقهوة. أجلس أرضاً قرب مضيفي. يتحدّث فينصتُ إليه الجميع. لا بدّ من أنّه ذو مكانةٍ عند الهنود. يعرض عليَّ أن أدخّن معه في غليونه الطويل، أشكره معتذراً لأنّي لا أدخّن. أفهم لاحقاً أنّني حسناً فعلتُ، ففي التبغ أيضاً شيءٌ من الحشيشة المخدِّرة التي من عادة الهنود أن يدخّنوها، كما من عادتنا نحن أن نشرب القهوة والشاي.

يدور الحديث بالفرنسية. يشرح لي صديقي الكندي أنّ هذه الأراضي جميعاً كانت للسكّان الأصليّين. يأخذ نفَساً من غليونه، ينفثه إلى فوق صوب سقف الخيمة، يرتشف جرعةً من كأس الكحول أمامه، ويتابع: «استولَت الدولةُ على أملاك السكّان الأصليّين، وأعطتهم مالاً ورواتب، فكانت النتيجة أن انزووا في معازلهم، يعاقرون الخمرة ويتناولون المخدّرات، ويقومون بأعمال الاغتصاب والسِفاح، ونحن يا صديقي سامي نقوم كلّ عام بهذه التظاهرة الرياضية الثقافية الفنّية لتذكير العالم بوجودنا وبتراثنا ولغتنا وأرضنا». يهزّ الجميع رؤوسهم مؤيّدين ما قاله. أهزُّ رأسي معهم. قرأتُ كثيراً عن هذا الواقع المأساوي للسكّان الأصليّين وجئت لأعرف المزيد عنهم. يرفع الجميع كؤوسهم مرحّبين بي.

نأكل الوجبة الشهيرة عندهم. اسمها «Poutine». كلا، ليس لذلك علاقة بالرئيس الروسي، فهي موجودة قبله، منذ مئات السنين. هي عبارة عن بطاطا وجبنة، تُشبِع آكلَها وتدفئه وتزيده سمْنةً. نغمسها بسائل «الرابل» المستخرج من الشجر وطعمه يميل إلى السكّر أو العسل. فكّرت أنّني لو أكلت من هذا كلّ يوم، لعدتُ بعشرين كيلوغراماً إضافياً إلى بلادي.

تتعدّد الأحاديث، تشارك فيها بعض النساء. لسن جميعهنّ خلاسيّات اللون، بعضهنّ بيضاوات اللون شقراوات الشعر. تشكو إحداهنّ من رجال كندا. تقول إنّهم لا يفعلون شيئاً، ولا يغازلون النساء، وهم كالدببة يأكلون ويمارسون الجنس على عجل، وينامون. يضحك الجميع. ربّما هذه حقيقة لم أكن أعرفها، أو ربّما هي تتحدّث بفعل الخمرة. تسألني بصراحة الغربيين التي يبدو أنّها غلبت عندهم على تقاليد الهنود: «وعندكم كيف يتعامل الرجال مع النساء، هل يغازلونهن، وهل يقضون وقتاً طويلاً في ممارسة الجنس؟» أضحك ويضحك الجميع، وأجيب: «عندنا حين يمارس الرجل الجنس مع المرأة يأكلها، ثمّ يبحث عن غيرها في اليوم التالي». تكاد تصدّق. يقهقه الجميع. ثمّ أضيف: «عندنا الرجال أنواع، بعضهم يجعلها أميرة وبعضها يريدها خادمة، بعضهم يشتري لها سيّارة، وبعضهم يضعها على المقعد الخلفي والعنزة إلى جانبه. لكنّنا يا سيّدتي أفضل منكم، لأننا لا نزال نعتبر المرأة قيمة، ونحبّها ونكتب لها الشعر، ونقدّس أمّهاتنا، ونعامل شقيقاتنا كأميرات». فجأة قفز رجل هندي عجوز من مكانه في زاوية الخيمة وقال: «هكذا أيضاً نحن الهنود، هكذا كنّا نعامل نساءنا، لكنّ الغزو قتل تراثنا وتقاليدنا، نأمل ألّا تتعرّضوا للغزو». يصمت الجميع، وأصمت. هل أشرح له كم من الغزوات مرّ على بلادنا، وكم من البرابرة دمّروها ثمّ شيّدناها بدمائنا؟

ما إن تنتهي السهرة، حتى نتوزّع على خيمنا. خصّص لي السيناتور خيمة أنيقة. يفرشون على أرضها أغصان الصنوبر طبقات متراصّة فوق الثلج. يضعون فوق الأغصان سجّادة محليَّة الصنع، وفوق السجادة فراشاً وثيراً. أُطفِئُ المصباح، فينعكس على وجهي ضوء نار الحطب في الموقدة. ثمّة من يُبقيها مشتعلةً طوال الليل. هذه وظيفته. أشعر بكثير من الدفء في الخيمة المنصوبة تحت أشجار الصنوبر المكللة بالثلوج، ولكنّي أشعر أيضاً ببعض العطش، ربّما بسبب البطاطا. لا أقوم من فراشي

خشية البرد. أزيحُ جانباً من الخيمة قليلاً، وأمدُّ يدي ناحية الثلج، تكاد يدي تتجمّد من الصقيع. آخذ منه حفنة، تذوب سريعاً في فمي. أنام، فأسمع أصوات طيور غريبة، وأصوات بعض الأواني المطبخية، وعواء كلاب، أو أصوات ذئاب، من بعيد. أنظر إلى سقف الخيمة، تتدلى منها دائرة من قماش، ويتدلى من الدائرة ريشٌ وأجراسٌ وأشياء أُخَر. يسمّون هذا، هنا: «جاذب الأحلام»، ويعتقدون أنّه جالبٌ للحظ السعيد والأحلام الجميلة. لا شكّ في أني في عالم سحري.

تتساب إلى خيمتي رائحة القهوة في الصباح. أسمع صوت مضيفي يسأل حارس الخيمة، «هل استيقظ ضيفنا؟». يجيبه بالنفي، يضيف بصوت أكثر خفوتاً: «دعْهُ ينَم قليلاً، فهو وصل أمس من السفر، وأخبرْني حين يصحو». قفزتُ حالاً من فراشي، وصحْتُ من داخل الخيمة، وقبل أن أفتح بابها: «وهل ينام المرء في هذه الطبيعة الخلّابة؟ لقد صحوتُ يا صديقي وسأكون جاهزاً بعد خمس دقائق»، سمعتُ ضحكتَه، وهو يسألني: «أيّهما أفضل، النوم فوق الثلج أم على الرمال؟»... كلاهما رائع، وأشكر الله أنّي زرتهما.

نشرب القهوة والعصائر، ونأكل بعض المربّيات والأجبان والزبدة والبيض، نلبس كلّ ما يقي من البرد ويصدّه، يعطيني حارس الخيمة مضرباً يشبه مضرب الكرة. أسأله هل سنمارس الرياضة الآن؟ يقهقه عالياً ويقول: «لا، هذه ستنتعلها يا سيدي كي تستطيع السير على الثلج، من دون أن تغرق».

طريقة جميلة اخترعها الهنود الأصليّون منذ قرون. تجعلك تسير فعلاً على الثلج براحة لافتة. لعلهم فهموا كنه الحياة وبساطتها وروحها بأكثر من كلّ الذين سرقوا أراضيهم واخترعوا مجتمعات من وهمٍ قتلت السحر والأحلام.

يسألني مضيفي السناتور الكندي: «يا صديقي، أيَّها تُحبّذ: السير على الأقدام، أم الركوب في عربات تجرّها الكلاب، أم في السيّارة؟». بلا تردّد، اخترتُ عربة الكلاب. لا شيء أفضل وأجمل من استخدام وسائل الطبيعة، في هذه الطبيعة الحافظة لبعض أسرار الكون والخلق.

نعبر فوق الثلج بين أشجار وارفة مغطاة بوشاح أبيض كثيف. يرحّب بنا الهنود الأصليّون. لا تزال النار مشتعلةً في مواقدهم. يتراكض الصبْيةِ أمامناً بقبّعاتهم الصوفية التي تُخفي وجوهاً حمراء طافحةً بالصحّة والفرح. نتوقف قليلاً أمام كوخ مغطًّى بالثلوج. ندخله، فنجد رجلاً طاعناً في السنّ، يعتمر قبّعة كبيرة من الصوف، مُمْسِكاً بصنّارة لصيد السمك تتدلى من ثقب في الجليد إلى ما تحت المياه المجمّدة لاصطياد السمك. يقترح علينا أن نتناول الغداء عنده. نشكره ونشتري بعض الأسماك التي يحملها مرافقنا إلى سيّدة هندية توقد النار منذ الصباح وتطهو للضيوف.

نقترب من باب أحد معازل الهنود. ترحيب بنا وخصوصاً بالسناتور لكونه زعيم القبيلة هنا. نسمع من الناس قصصاً كثيرة عن تعلقهم بالأرض والصيد وحياة الجبال والثلوج. نسمع منهم أيضاً الكثير من المآسي عن الخمرة والمخدّرات والاغتصاب، بسبب كثرة المال وقلّة العمل. تُخبِرني إحدى الفتيات بأنّها تعرّضت للاغتصاب من أبناء عمومتها، و«ربّما» من أحد أشقائها. هذه الـ«ربما» كانت مقصودة من الصبيّة المغتصبة حرصاً على إخوتها أو لأنّه في ليالي المعازل تصبح الخمرة سيّدة الموقف، فلا تعرف من ارتكب الفعل الشنيع، ابن عمّ أم شقيق؟ تقول: تلك عادة مؤسفة، ولكنّها شائعة هنا، منذ احتلال أراضينا بالقوّة، وإنشاء مدنٍ فيها...

استمرّت رحلتي إلى كندا أيَّاما كثيرة. عشت فيها روعة الطبيعة وقدرة الإنسانِ على مكافحة قسوتها المتمثلة بالصقيع والثلوج، وقدرته على الإبداع واختراع ما يجعله يتكيّف مع تقلّبات الطبيعة. من هذه الرحلة الرائعة إلى الجبال الكندية، أدركتُ أمراً رسخَ في ذاكرتي: «كلما اعتقد الإنسان أنّه يستطيع تغيير جمال الأرض وإبداع الخالق، شوّه الطبيعة والجمال، متوهِّماً أنّه يخلق الجمال».

لا شكّ في أنّ كندا قدّمت لناسها ولا تزال تقدّم لهم كلّ أسباب الرفاهية، ولا شكّ في أنّ الإنسان المقيم

فيها أو المهاجر إليها يتمتّع بكلّ حقوقه، وتفتح له البلاد آفاقاً كبيرةً، ليس لها مثيلٌ في بلادنا. لكنّ الثابت والأكيد أنّ ما كانت عليه حياةُ الهنود من بساطةٍ، هو أكثر مجلبةً للسعادة من كلّ بهرجة الحياة المدنية الحالية.

جزرٌ تنام تحت القمر

إذا وصل المسافر إلى جزر القمر ليلاً، أدرك على الفور سرَّ اسمها. القمر بدرٌ مكتمل يتوسّط كبِدَ السماء. تحته أشجار النخيل الوارفة يدغدغ البحرُ أقدامَها. تلمع الرمال البيضاء، فيُحاكي ضوءُ الموج ضوءَ السماء. هكذا، على الأرجح، كانت حال هذه الجزُر حين وصل إليها العرب، فسمَّوها «جزر القمر».

بين المطار ووسط العاصمة موروني، تبدو الطبيعة المغسولة بضوء القمر، وكأنّها وفَّرتْ لهذه الجزر كلّ ما يحلم به الإنسان. أشجار الموز والمانغا وجوز الهند والباباي تنتشر في كلّ مكان، وتتعطّر الأجواء برائحة أشجار الإيلانغ إيلانغ والفانيلا اللتين منهما تُصنَعُ أنواع العطور والمثلجات والحلويات في الكثير من دول العالم.

مع رئيس جزر القمر عبدالله سامبي.

لا يناقض غنى الطبيعةِ هنا سوى فقرِ أهل الجزيرة. إذا سألتَ الرئيسَ أحمد عبد الله سامبي عن سرّ هذا التناقض، فإنّه يسوّي عمامته الخضراء التي تدلّ على مرتبة دينية رفيعة في بلاده، ويقول: «والله عندنا كلّ شيء، ونحتاج إلى كلّ شيء! تصوّر أنّنا بلاد المانغا ونستورد عصيره، وبلاد الثروة السمكية والبحار ونستورد الملح... لا مصانع لدينا ولا استثمارات. وأنا أقول دائماً لأشقّائي العرب: لا أريد حسنة من أحد، بل أريدكم أن تأتوا، وتستثمروا، لكي تفيدونا وتستفيدوا».

يقول ذلك، ولكن لا يُصغي إليه أحدٌ من العرب. لولا الصينيون لَما كان في موروني مطارٌ، ولا حتى قصرٌ رئاسي. كلّ الوجود الدبلوماسي العربي يكاد يقتصر على سفارة ليبية، وعلى مشروع إماراتي لم

يكتمل بعدُ لبناءِ منتجع سياحي. انضمّت دولة «الاتحاد القمري» إلى الجامعة العربية عام 1993. اللغة العربية هي لغتها الرسمية، إلى جانب اللغتين الفرنسية والشيقمرية (مشتقة من السواحلية التي امتزجت فيها العربية بلهجات السواحل الأفريقية). استقلّت الجزر عن فرنسا عام 1975، استعادت فرنسا إحداها، عبْر استفتاء أغرى الناس الفقراء. أمّا جزيرة مايوتي التي تبلغ ميزانيتها السنوية سبعة أضعاف ميزانية الجزر الأخرى مجتمعةً، فقد غدَتْ جزيرةً فرنسية، لا عربية.

قبل سنوات قليلة، ذهبتُ إلى جزر القمر، الدولة الصغيرة، الفقيرة والجميلة وذات الشواطئ الخلّابة، والغنيّة بالثروات الطبيعية من سمك وفواكه وغيرها. رُحتُ أجول في شوارع عاصمتها وبين ناسها الطيّبين، فلفتَتْني أسماءٌ إيرانية كثيرة: مستشفى الإمام الخميني، المركز الثقافي الإيراني، مستوصف الإمام الخميني، الهلال الأحمر الإيراني... الخ.

حملتُ استغرابي هذا وذهبت للقاء الرئيس (السابق) عبد الله أحمد عبد الله سامبي. كانت فرنسا قد سلبته جزيرة مايوتي. قلت له: «يا سيادة الرئيس، لماذا ترتمي في حضن إيران وأنت المنضمُّ للتوّ إلى جامعة الدول العربية؟». ابتسم وقال بذكائه المعهود: «أنا يا أخي دعوتُ العربَ، ولكن من دون جدوى. الإخوة العرب لن يشاركوا بلادنا خيراتها التي حباها بها الله. لم أطلب صدقات ولا زَكَوات، وإنّما قلت لهم تعالوا استثمروا فأفيدوا واستفيدوا». وأخبرني كيف أنّه طاف على عدد من القمم العربية، يبحث عن تغطيةٍ لديون بلاده التي كانت لا تتعدّى 80 مليون دولار، فعاد خائباً. حينئذٍ جاءت إيران، وقدَّمَتْ له المنَحَ التعليمية، والمنشآت الاجتماعية والتربوية والصحّية الصغيرة لمساعدة الناس... دخلت إيران من حيث تخلّى العرب.

فسَّرَ لي سامبي أنّ ميزانية دولته تقتصر على خمسين مليون يورو، وأنّ الديون الخارجية المستحقة على بلاده تبلغ أكثر من نصف هذه الميزانية. وإذا ما عجِز عن دفع عشرة ملايين يورو قريباً إلى دائنيه، فسيلقى مصاعب اقتصادية جمّة، قد تُفرَض عليه.

يبتسم الرئيس القمري، وتسمو ابتسامته على جراح الفقر والتجاهل العربي. يروي كيف أنّ إسرائيل عرضَتْ عليه، عبْرَ وسيطٍ ياباني، أن تدفع له كلّ شهر أربعة ملايين دولار، إن هو وافق على فتح علاقات معها. يشدّد على رفضه هذه العلاقات من منطلقات عديدة، أبرزها انتماؤه الإسلامي، وتربيته وعقيدته ورفض شعبه.

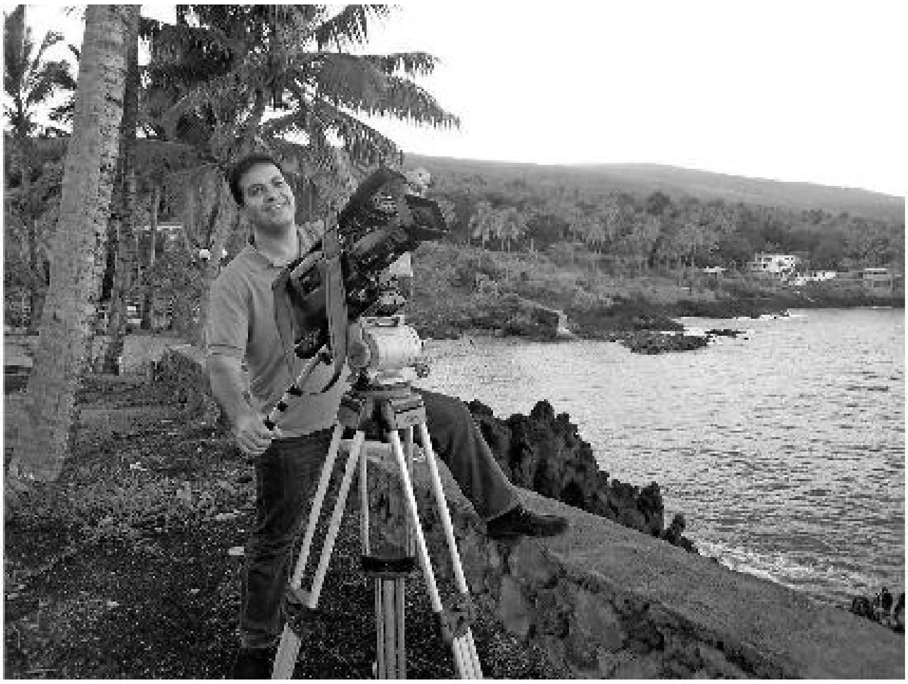

BANGOI-KOUNI

يبتسم، فتلمع أسنانه الشديدة البياض فوق لحيته البيضاء والمشذبة بإتقان. يقول بلغته العربية الممتازة والمطعَّمة بِلَكْنةٍ قمرية محبّبة: «تصوّر أنّ الرئيس الوحيد الذي زار هذه الجزر هو الرئيس الإيراني أحمدي نجاد، وقبله الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات...»، وأمّا الرؤساء والملوك والأمراء العرب، فلعَلَّ معظمهم لم يَعْلَمْ أنّ الجزر عربية، إلّا حين رفع سامبي الصوت عالياً، في إحدى قممهم، يرجوهم ألّا يقبلوا أن تضمَّ فرنسا جزيرة مايوتي نهائياً إليها، في عام 2011.

أسالَتْ علاقةُ سامبي بإيران حبراً كثيراً. أبناء شعبه يسمّونه «آية الله». معارضوه يتّهمونه بنشر المذهب الشيعي، ويؤكّدون أنّه تشيّع. يردُّ بكثير من المرح والحزم، في آن واحد: «يا أخي، أنا حين عدْتُ من دراستي في قُم، بعدما كنت قد درست في مصر والسعودية والسودان.. جئتُ أشرح القرآن الكريم، وأفسّره لأبناء شعبي. قد لا يخلو بيت واحد في الجزر من محاضرة لي. لم يجد المعارضون لي شيئاً يعيبونني به، فاخترعوا قصّة المذهب الشيعي. أؤكّد لك أنّي ما زلت سنّيًا حنفِياً، أمّا إذا شاءت إيران أن تأتي وتستثمر وتساعد فمرحباً بها، ويا ليتها تأتي».

رُحتُ أسير بين البيوت الفقيرة والجميلة المحيطة بالمرفأ المتواضع. جالستُ بعض المتقدّمين في السن. كانوا يبتسمون لي بمجرّد أن أجالسهم. يفرحون كأطفال، حين يعلمون أنّي عربي. العربي بالنسبة إليهم مسلم، وهم يحبّون الإسلام. مررتُ بين الأجساد الشابّة التي تغالب المياه لاستخراج بعض السمك من مراكب الصيّادين العائدة للتوّ من عمق البحر. تأمّلت نساءً فقيرات يبتسمن للرجال العائدين بما يسدّ الرمق. لم أجد للحضور العربي في جزر القمر، سوى دار للأيتام بدعم من الداعية ورجل الخير الكويتي صاحب الضمير الإنساني الصاحي الدكتور عبد الرحمن السميط. وجدت كذلك عدداً قليلاً جداً من الجمعيات الخيرية، ومدرسة شيّدتها إمارة دبي مقابل مشاريع استثمارية مجاورة.

الإسلام في جزر القمر يكاد يكون شاملاً. نسبة المسلمين فيها تصل إلى 99 في المئة. تعلُّق القمريين بالدين الحنيف لا تشوبه شائبةٌ، حتى وإن كانت عاداتهم وتقاليدهم تجعل تطبيق الإسلام ذا سمات أفريقية خاصّة، حيث إنّ الحرّيات تتقدّم على الممنوعات والشعوذات الاجتماعية التي اخترعها أدعياءُ الدين، ولم تصل والحمد لله إلى تلك الجزر الرائعة.

أمّا العروبة، فهي في التاريخ والأحلام والاسم فقط؛ ذلك أنّ معظم القمريين لا يتحدّثون لغة الضاد. هم يحلمون بأن يأتيهم يوماً أثرياء العرب ليستثمروا عندهم. مع ذلك ثمّة أمور عربية قد تفاجئ الزائر من حيث لا يتوقع. هذا شأن الزفاف مثلاً: الرجال الذين يرقصون بالعصيّ، لكنّهم يتمايلون على أنغام أغنية «ليلة حبّ» للسيدة أم كلثوم. يحلو للقمريين تسمية هذا النوع من الأغاني ذات الأصل العربي بـ«الطرب». يعتبرونه ذروة النشوة في الليالي الدافئة، على شواطئ البحر، وتحت أشجار النخيل.

تمتعت معهم بزفاف أحد الأصدقاء. حملت العصا مثلهم. رقصت إلى جانبهم. عزفتُ معهم على الأورغ والغيتار. لكنّ الأكيد أنّي لم ولن أفهم على الإطلاق لغة عيون الرجال وهي تغازل النساء من خلْفِ العصيّ. فهنا للعلاقات الغرامية طقوسها الرحبة، ولها لغةٌ لا يفقهُها إلّا أبناء هذه البيئة الذين يلتقون مساءً في بيت العروس لمساعدتها على توضيب حوائجها وعلى الحنّة والزفّة وغيرها.

يخترع الشعب الفقير والطيّب في جزر القمر أساليب سعادته ووسائل عيشه واقتصاده. بعضه يعتمد على الزراعة والفلاحة والصيد، والبعض الآخر ينتظر تحويلات القمريين من الخارج. أمّا السعادة القصوى، فتكون في فصل الصيف؛ وذلك لأنّ انتشار الأعراس يسمح بانتقال المال، على قلّته، من بيت إلى آخر، فيُحْدث دورة اقتصادية قلَّ نظيرها في العالم، لمغالبة الفقر.

كلما كان الزوج قادراً على دعوة عدد أكبر من الناس إلى زفافه، ارتفعت مكانته في المجتمع، وأصبح «وجيهاً»، والناس يتبرّعون له. ثمّ بعد زفافه يُدعى إلى أيّ زفاف آخر يُقام عند العائلات التي حضرت زفافه. مقابل كلّ حضور له في زفاف مستجدّ، يقبض بدلاً مالياً، وهكذا ينتقل المال من زفاف

إلى آخر فيُحْدث، أو يوحي بأنّه يحدث، دورة اقتصادية جيدة.

Colgate

أمّا أهل العروس، فهم الذين يؤثّثون منزلها، بينما العريس يهديها ما بين كيلوغرام واحد وعشرين كيلوغراماً من الذهب، وفقاً لوضعه المالي، ولذلك تعتمد الأعراس على التبرّعات والتحويلات الخارجية. لكنّ العروس تبقى سيّدة المنزل ومالكة محتوياته. وهذا ما يجعلها قادرة على طرد زوجها، إن هو أساء إليها. وهذا ما يجعل للمرأة هنا مكانة خاصّة وجليلة.

لا يعرف القمريون كثيراً أشقاءهم العرب. نخبتهم تتحدّث بالفرنسية. معظم الطبقة المتوسّطة أو شبه الميسورة تأتي من فرنسا. مع ذلك يشعر الزائر برغبة القمريين في إتقان لغة الضاد. لا يناقض تلك الرغبة الواضحة سوى ندرة الكتب العربية. قال لي الرئيس سامبي: «والله لو توفرت الكتب عندنا لكان شعبنا الآن يتقن كلّه اللغةَ العربية، ولكن كيف يتعلمون من دون وسيلة؟». يفكّر زائر الجزر بعشرات دور النشر، وآلاف الندوات والمؤسّسات الثقافية العربية، ويفكّر بالمؤتمرات والمجامع اللغوية العربية، فيدرك كم أنّ الشعارات كثيرة في وطننا العربي، وكم أنّ التطبيق وهمٌ، فهل إرسال ألف كتاب إلى هذا الشعب الفقير قضيّة كبيرة؟

الفقر يجعل من جزر القمر إحدى أفقر دول العالم. هذا غريب فعلاً في جزر خلّابةٍ تضاهي بشواطئها ذات الرمال البيضاء وبحرها اللازوردي ونخيلها وأشجارها وثمارها وثروتها السمكية، جزرَ المالديف، أو أيّ جزر سياحية أخرى في العالم. هي ليست فقيرة بسبب ندرة الاستثمارات فقط، بل لضعف الخبرات لدى أهلها أيضاً. الأراضي البركانية مثلاً خصبةٌ جدًّا، لكنّها لا تُستغَلّ. ثمانون في المئة من القمريين يعتمدون على الزراعة والفلاحة والصيد، لكن، حتى تربية الدجاج لا يُتقنونها، فيستوردون البيض من اليمن المجاور.

يُضاف إلى ما تقدّم الاضطرابات الأمنية التي عرفتها الجزر، تارةً بسبب بعض المرتزقة الفرنسيين، وفي مقدّمهم المرتزق الشهير بوب دونار الذين كان يقيل رؤساء ويعيّن آخرين ويقتل من لا يتوافق مع سياسة بلاده، وتارةً أخرى بسبب حركات انفصالية كان آخرُها في جزيرة «أنجوان» التي اضطرّ سامبي إلى طلب النجدة من الاتحاد الأفريقي من أجل القضاء عليها. جعلت تلك الاضطرابات الأمنية المستثمرين يتردّدون في الذهاب إلى الجزر الساحرة. ليس غريباً، والحالة هذه، أن نجد الخطوط الجويّة اليمنية، وحيدة في تأمين رحلات إلى الجزر.

المرتزق الفرنسي بوب دونار.

سقطت طائرتنا ونجَوْتُ

ثمّة ذكرى أليمة، أثناء رحلتي إلى جزر القمر، تبقى راسخة في نفسي. كان قبطان وطاقم الطائرة اليمنية التي أقلّتنا من صنعاء إلى الجزر، في منتهى اللطف والمحبّة وحسن الاستقبال. يشتهر الطيّارون اليمنيّون، وغيرهم من الطيّارين في الكثير من الدول الفقيرة، بأنّهم أكثر خبرة من نظرائهم في الدول الغنية، وذلك لأنّ الطيّار في الكثير من دولنا العربية يطير ساعات مضاعفة عن تلك التي يطيرها الأجنبي. وثمّة سببان لذلك، أولهما قلّة الطيّارين عندنا، وثانيهما أنّ الشروط الصحّية الدقيقة التي يفرضها الغرب على شركات الطيران تحدُّ من ساعات العمل. صحيح أنّ ثمّة شروطاً عامّة حِيال سلامة الطيران، متَّبَعة اليوم في كلّ دول العالم، وباتت مفروضة على وطننا العربي، لكنّ ساعات العمل لم – وربما لن – ينجح أحدٌ في التحكّم بها وضبطها. كلما ازدادت الشروط التي تريح العاملين في الشركات والمصانع والحقول في العالم، اخترعنا طرق التحايل على تلك الشروط لاستغلال العاملين. وهذا أحدُ أسرار تخلُّفِنا.

ما إن دخلت إلى الطائرة، وكنت آنذاك معروفاً عند اليمنيّين بفضل إذاعة «مونت كارلو» الفرنسية وقناة «الجزيرة»، حتّى جاء كلّ الفريق مرحِّباً، وطلب بعض أعضائه التقاط الصور التذكارية معي. ثمّ جاءني مساعد القبطان يدعوني إلى قمرة القيادة للجلوس خلف القبطان والتمتّع بجمال السماء وروعة الإقلاع والهبوط. كان فريق الملاحة يضمّ يمنيين وفتاةً مغربية، كما لا أزال أذكر، وهم جميعاً يتميّزون بلطفٍ استثنائي. تحدّثت مع القبطان بشؤون اليمن، وطرح أسئلة سياسية كثيرة تنمُّ عن خبرةِ شخص يتابع تطوّرات بلاده والعالم. تخلل الحديث بعض الطرائف والنكات، فكانت الرحلة حافلةً بالكثير من متعة النظر والسمع. نشأت بيني وبين الفريق علاقة محبّة، واتّفقنا على أن نلتقي يوماً ما في صنعاء، حول مأدبة يمنية.

بعد زيارتي لجزر القمر بنحو عشرة أيّام، كنت أقرأ الأخبار عبر وكالات الأخبار العالمية. لمع لون

أحمر فوق خبر. هذا مؤشر على أنّ الخبر عاجل أو مهمّ. عنوان الخبر: «سقوط طائرة يمنية ومقتل جميع أفراد طاقمها». سرعان ما جاءت الصدمة الثانية: إنّه الفريق نفسه الذي ذهبت برفقته إلى اليمن. الأسماء نفسها، الوجوه نفسها التي كانت قبل أيّام تضحك لي ونلتقط الصور التذكارية معاً، صارت مجرّد صورة في خبر عابر. حزنتُ حزناً عميقاً، ولم أتمالك نفسي فبكيتُ، واستعدت بلمح البصر كلّ ما جرى في الرحلة من تفاصيل وأحاديث.

في تلك الأثناء، لم تكن غير الطائرات اليمنية تذهب إلى جزر القمر. توقفت قبل فترة الطائرات القطرية التي كانت تقلُّ سيَّاحا من جنوب أفريقيا. لا أدري لماذا، لكن ما أعْلَمُه، هو أنّ ثمّة ثروةً كبيرة في هذه الجزر، لو استغلها العرب، لعاشت الجزر برفاهية، ولَما اضطرّ العربي للذهاب إلى جزر أخرى أقلّ منها جمالاً وأغلى ثمناً وأقلّ ترحيباً.

السياسة الغريبة

لا نظير للنظام السياسي القمري. منذ دستور 1996 أصبح لكلّ جزيرة شبه استقلال إداري وسياسي. لكلّ منها مجلس يسهر على شؤونها الداخلية المالية والصحّية والثقافية والتعليمية والبيئية، ولها رئيسٌ خاصّ بها. يتناوب رؤساء الجزر على رئاسة الاتحاد، ما يجعل التركيبة السياسية هشّة وعُرضة للاضطرابات. هذا نوعٌ من الكونفدرالية السياسية التي جرى تطعيمها بنكهة مَحليّة، فلا وصلت إلى حدّ الكونفدرالية الغربية القادرة على تحصين الوحدة، ولا منعت التوترات بين حين وآخر.

تخيّل عزيزي القارئ أنّ كلّ تلك التعقيدات الإدارية والتقسيمات الغريبة قائمة فوق مساحة تقتصر على 2,170 كيلومتراً مربَّعا، ولولا البحر الفاصل بين تلك الجزر، لأمكن اجتيازها جميعاً في أقلّ من يوم واحد.

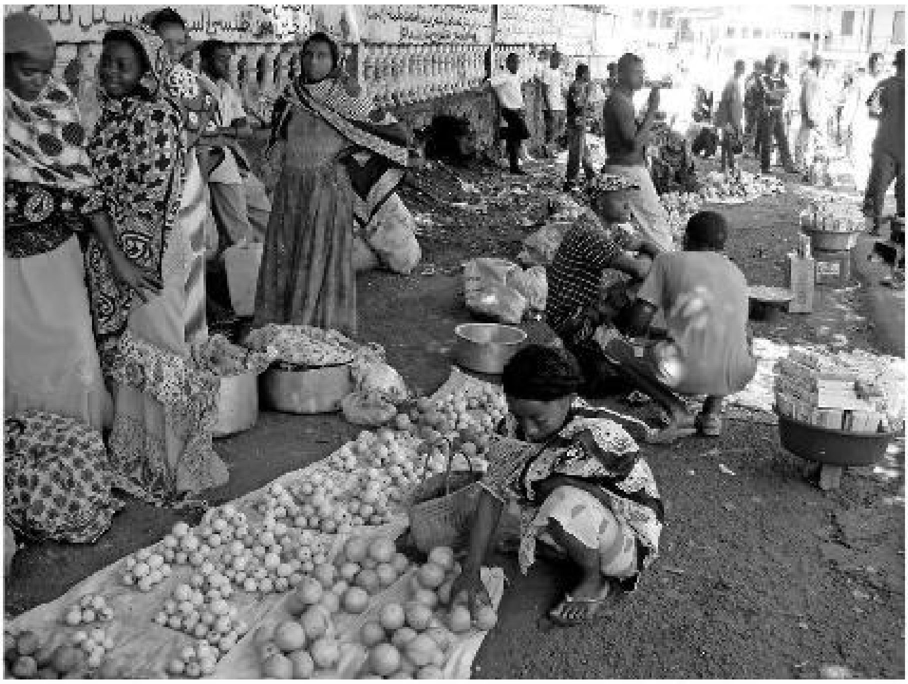

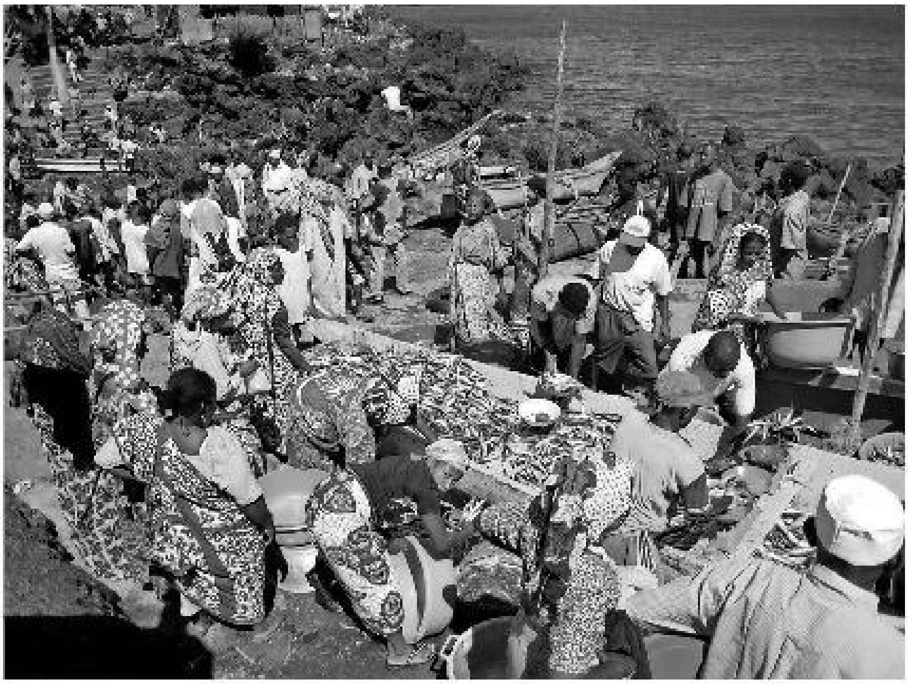

يعلّق القمريون آمالاً كبيرة على الوعود العربية التي لا تأتي. يبدون هانئين بحياتهم رغم فقرهم. الطبيعة تساعد على الهدوء والاسترخاء، والأمن لافتٌ بحيث إنّ السائح يستطيع أن يتجوّل حتى ساعة متأخرة من الليل، من دون أن يعترضه ما يقلقه. ثمّة أشجار كثيرة في الجزر تُعطي ثمرةً تشبه البطيخ، يَشويها القمريون ويأكلونها يومياً، ويضيفون إليها بعض أسماكهم، ويتحلّون بالمانغا أو الأناناس. هذا يكفيهم. يبدون سعداء رغم الفقر.

غادرت الجزر وأنا أطرح على نفسي السؤال التالي: أمِنَ المفيد حقاً أن يأتي المستثمرون العرب إلى هنا؟ أم من الأفضل ترك القمريين ينعمون بقمرهم وأرضهم ورزقهم، بدلاً من أن تشوّههم أفكار دخيلة. لعلّ القمر أدركَ خُبْثَ سؤالِي، فابتسم لي وابتسمت له واعداً بالعودة في أقرب فرصة. لكنّي مع ذلك كنت أقول إنّ شيئاً لن يُحول دون «تدَخُّل» إيران (وفق التوصيف الخليجي) في الدول العربية؛ سوى قيام العرب بما تقوم به إيرانٍ لجزرٍ أرادوها عربية، وجزءاً من جامعة الدول العربية، فاكتفوا بالكلام والوعود، ولم يقدّموا لها شيئاً.

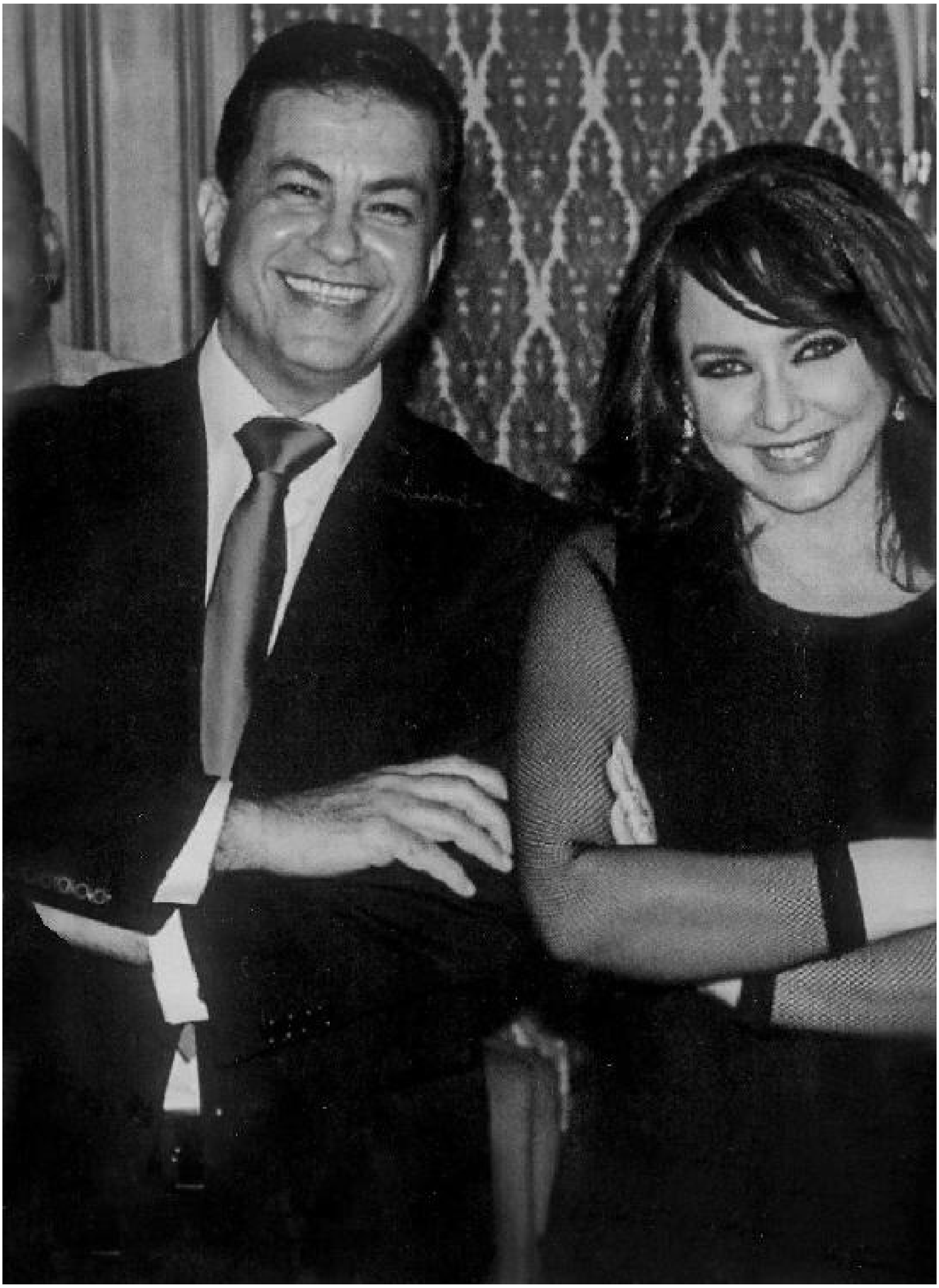

مع النجمة السورية سلاف فواخرجي.

دمشق التي في خاطري

تعود علاقتي الأولى بدمشق إلى منتصف ثمانينيات القرن الماضي. كنت في مستهلّ حياتي الصحافية في لبنان أبحث عمّا هو أبعد من بلدي الذي فقدتُ فيه أقربَ الناس إليّ وأعزّهم على قلبي. كانت الحرب الأهلية اللبنانية، وحروب الآخرين على أرض لبنان، أي حروبٍ بيادق الشطرنج اللبنانيين، لحساب الدول والمال والمافيات، تحت شعارات رنّانة وممارسات مُذلّة، تنخرُ عظام اللبنانيين، وتنهَشُ حضارتهم وحاضرهم وتاريخهم، وتقتلهم على مزابل القضايا. كان ساسةُ لبنان منقسمين بين مؤيِّد لسوريا ومناهضٍ لها. كان معظمهم يتملَّقُها أو يستفيد من العلاقة بها، وكانت أقليّة منهم تؤمن حقاً بعمق الروابط الدمشقيّة العروبية. كانت بيروت التي أدمَتِ الجراحُ وجهَها الجميل، وتَناهَشَ لحمَها أبناؤها، أو مَن حمتْهم بلحْمِها من الإخوة العرب، تنوء تحت تقاطع كلّ استخبارات العالم وأجهزتها، وتنوء تحت المال العربيِ الذي ساعد اللبنانيين على الاقتتال لسنوات طويلة، بدلاً من مساعدتهم على النهوض من الحرب. كم تذكّرني دمشق هذه الأيّام ببيروت تلك الأيّام!!

هل يتجسّسون علينا؟

لا أذكر تماماً ماذا كانت المناسبة في دمشق. أذكرُ فقط أنّ كثيراً من أمراء الحرب وبعض الزعامات العابرة لكلّ حدود الأخلاق، عبرت الحدود اللبنانية السورية للقاء في فندق «شيراتون». كانت تلك زيارتي الأولى لسوريا، وأوّل مهمّة إعلامية أقوم بها. ذهبتُ برفقة صديق آخيته خلال الحرب، وصار له باعٌ طويل في الإعلام، ثمّ في السياسة. نزلنا في فندق عاديّ جداً، لا هو بالمتواضع، ولا هو بالفخم. كان في الغرفة سريران. تطلّ نافذة الغرفة على الشارع العام حيث شاهدت للمرة الأولى في حياتي سيّارات تاكسي صفراء، ونظام سير، وإشارات مرور، وطرقاً إسفلتية نظيفة، وشرطيًّا له هيبة رجل الأمن... كلّ شيء كان غريباً علينا، نحن القادمين من بلد الفوضى والقتال وغياب الدولة وانتشار التنظيمات المسلحة كالطحالب. كان بين السريرين مذياع قديم لا يلتقط أيّ إذاعة. لا أدري لماذا التمسّك به. تذكَّرت كيف كانت عمّتي القروية العجوز تحتفظ بأشياء قديمة ما عادت تنفع لشيء، لكنّها لا ترميها. يُرسل المذياع فقط ذبذبات مزعجة وشيئاً يشبه الأغاني. راح زميلي وصديقي يقول إنّ من يدخل سوريا يشعر بالقلق. ربّما كان متأثراً بممارسات بعض الجيش السوري القاسية في لبنان. فقد كانت بعض الحواجز تتفنّن بإذلال اللبنانيين تماماً، كما كانت حال بعض الحواجز الفلسطينيية ثمّ حواجز الأحزاب والتنظيمات والمجموعات المختلفة في تاريخ الحرب. فتلك جميعاً كانت تنشد تحرير فلسطين، وإقامة أنظمة العدل والمساواة، عبْر التشبيح على الناس وإذلالهم، فانتهت تلك المجموعات في مزابل التاريخ والقضايا. أشرتُ إلى المذياع وقلت ممازحاً صديق الدرب والطفولة ورفيق الرحلة الأولى إلى دمشق: «اخفض صوتك، إنّ هذا الجهاز يتجسّس على كلّ من في الغرف». ضحكنا، ثمّ صمتنا، هو صمت قبلي، لعلّه صدّق ما قلته، لعلّي أنا نفسي كدت أصدّق كذبتي. لعلّ في الأمر شيئاً من الصحّة، في بلد التشدّد الأمني. نمنا، إلى أن سمعنا أذان الفجر. استيقظنا من نوم عميق وهانئ، لم يعكّره صوت الرصاص ولا قصف المدافع، خلافاً لِما كانت عليه الحال في بيروت.

راحتِ الشمس تُلقي بأشعَّتها الأولى على دمشق، فتزهو وجوه بعض البيوت. تلمع قباب المساجد. تعكس بعض صلبان الكنائس شيئاً من سرّ الضوء والجمال وروعة الخالق. أدركتُ منذ تلك اللحظات أنّ ثمّة قصّة عشقٍ لا يعرفها غير الله تربط العربيَّ بهذه المدينة، وأنّ العروبة والتاريخ والحضارة والثقافة، أوسمة محفورة على كلّ حجر وبيت وحارة. كم كان مُحِقاً محمود درويش، في طريقه إلى دمشق، حين كتب بمداد العشق: اغتسلي يا دمشق بلوني/ ليولَدَ في الزمن العربي نهار! رحت مذّاك أبحث عن الباب الثامن للمدينة، لعلّ محمود دروش ولَجَهُ قبلي.

عُدتُ إلى دمشق مرّة رابعة، وأقمتُ فيها فترةً، قبيل بداية الحرب الأخيرة، ثمّ في بدايتها. هالني أن تنزلق البلاد إلى حمّام دم لا سبب له ولا معنى ولا هدف. كتبتُ على دفتر مذكّراتي، بعدما شاهدتُ عراقة الأبواب السبعة القديمة التي تطوّق أقدم مدينة في التاريخ: «مِن أيّ باب ندخلك يا دمشق؟ لم نأتِ لكفكفة دمع أحمد شوقي، ولا لنمسح عن جبين نزار قباني «الحزنَ والتعَبا»، ولا جئناكِ بـ«دهشةٍ وحيرةٍ» إيليا أبو ماضي، ولا صوتنا اختنق «في حنجرة يتيمة» كما رأى أدونيسُكِ. إنّما الآتي إليكِ، يصِلُ على أجنحة الشوق، حاملاً سؤال الأخطل الصغير: «قالوا: تحبّ الشام؟ قلتُ: جوانحي مقصوصة فيها، وقلتُ: فؤادي». هنا يا دمشق، خلف الأبواب المخلّعة، لا يزال بعض ياسمين، ولا يزال بعض حُبّ، ولا يزال بعضُ كرامة، ولا يزال شذْوُ صباح فخري، وملائكة صوتِ فيروز يجوبون الأزقة والحارات، ويهيمون بين البيوت القديمة، ولا يزال محمود درويش يرى في دمشق لغتَه كلَّها على حبّة القمح مكتوبة بإبرة أنثى. في دمشقِه ودمشقِنا «تُطرِّز أسماءُ خيول العرب من الجاهلية حتى القيامة أو بعد القيامة بخيوط الذهب».

أمّا المرّة الثالثة التي زرتُ فيها دمشق، فكانت لمناسبة وفاة الرئيس حافظ الأسد. كنتُ في إجازتي السنوية في بيروت. اتّصلت بمراسلة «سي أن أن» في دمشق الزميلة والصديقة العزيزة رولا أمين. كنّا قد ارتبطنا بصداقة جميلة في العاصمة السورية، وكانت رولا قد برعت في عملها، وأصبحت أشهر مراسلة عربية للقناة الأميركية، منذ حرب العراق. هي شجاعة إلى حدّ المغامرة. عاشقة لمهنتها ومحِبّة للحياة والناس، تعرف كيف تبحث عن القصص المشوّقة والإنسانية، وتقدّمها بأفضل قالب. تحلم بأن تتزوّج رجلاً شهماً يكون فارسَ أحلامها، وتُنجِب منه بنتاً. اتّصلت بها أدعوها للعشاء في بيروت، حيث كان لنا أصدقاء مشتركون، أحببتُ اللقاءَ بهم، كما عادتي كلما عدت من باريس إلى بيروت. قالت لي إنّها غير مستعدّة للمجيء اليوم، وإنّها تفضّل انتظارَ نهاية الأسبوع. حسناً فعَلَت في أنّها لم تقبل دعوتي. لو قبِلَتها لما أحرزت أهمّ سبْق إعلاميّ في حياتها، فقد دخلت التاريخ لكونها أول من أعلن نبأ وفاة الرئيس حافظ الأسد. أعتقد أنّ كثيرين في الشرق والغرب كانوا لا يصدّقون أنّ رجلاً مثل سيّد سوريا آنذاك يمكن أن يموت...

كنت في المساء، مع مجموعة من الأصدقاء، وفي مقدَّمِهم صاحب جريدة «السفير» وناشرها، الأستاذ العروبي طلال سلمان، والزميلة المحترفة والحبوبة بولا يعقوبيان، ومراسل السفير الحيوي في واشنطن هشام ملحم، والإعلامي فيصل سلمان صاحب النكتة الحاضرة دائماً، وربّما كان معنا غيرهم، لكنّي نسيت الآن. كنّا جميعاً نتناول العشاء في أحد فنادق بيروت، فاقترحتُ أن نذهب في الليلة نفسها إلى دمشق لتغطية وقائع الجنازة التي أعتقد أنّها ستكون عالمية. ارتأى طلال سلمان انتظار الصباح حتى تنقشع الرؤية السياسية على نحوٍ أكثر وضوحاً، وقال: «نذهب صباحاً، نقدّم واجب العزاء ونقوم بعملنا». وافقنا جميعاً على اقتراحه. لكن بعد العشاء، وأنا عائد إلى منزلي في بيروت، تحرّكت عندي حشرية الصحافي، وغلبتْ هدوءَ العقل. ركبتُ سيّارتي وذهبت إلى شتورا البقاعية. ركنْتُ سيّارتي في فندق معروف، وأخذت سيّارة تاكسي مباشرة إلى دمشق.

كانت إجراءات الدخول بسيطة لا توحي بأنّ البلاد تمرّ بأحدِ أكثر أوقاتها حرَجاً وأكثر أسئلتها قلَقاً. بقيت في دمشق يومين، وأسهمتُ في كتابة عناوين الصفحة الأولى لصحيفة السفير، وكنتُ أوّل إعلاميّ يقدّم تقريراً عن دمشق، عند الرابعة فجراً، عبْرَ إذاعةٍ أجنبية (إذاعة فرنسا الدولية) مباشرة من أمام المستشفى حيث كان يُسجّى جثمان الرئيس الأسد.

إلى سوريا بعد اغتيال الحريري

أمّا رحلتي الرابعة، فكانت أيضاً محضَ مصادفة، بعد مرور فترة على اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري. تلك كانت رحلةً شاقّة ومهمَّة في آن واحد، وذلك لأنّ كلّ ذاهب إلى سوريا آنذاك، كان سيُتَّهَم حُكماً بأنّه ضدّ تيّار الحريري في لبنان. أمّا أنا فكنتُ، كعادتي في مثل هذه المناسبات، لا أعيرُ اهتماماً

لما يُقال، وأرغب في معرفة ماذا يحصل بالضبط، وسْط الضجيج العارم الذي أحاط بعملية الاغتيال، ورافق ما تلاها من شبه قطيعة بين لبنان وسوريا.

كانت السيّارة تعبر بنا من الحدود اللبنانية المعروفة باسم المصنع، إلى المدخل الحدودي السوري «جديدة يابوس». كلّ شيء هادئ من اللحظات الأولى لعبور الحدود التي اخترعها الاستعمار والانتداب وتكرّست بسبب فشل كلّ مشاريع الوحدة العربية وكلّ مشاريع التعاون. لم أفهم يوماً لماذا كلّ هؤلاء الناس والموظفين والعسكريين والأمنيين جاثمون عند معبر كان يكفي أن يكون فيه موظفان، كما هي الحال عند الحدود في كلّ دول العالم. لم أفهم لماذا يخاف العابرون سرّ الطريق وهي المفضية إلى عاصمة الياسمين. شاهدتُ بعض خوفهم يتحوّل إلى رشى مالية أو عينية لتسهيل العبور. شاهدتُ أيضاً آخرين يعبرون بلا وجَلٍ ولا خوف. ينهبون الطريق نهباً بسيّاراتهم الفارهة ذات النوافذ السوداء. يجتازون من الحدود إلى الحدود، إلى قلب العروبة، عبر الطريق العسكري، فأقلقُ على العروبة من سطوتهم ومن فساد بعضهم. كنّا آنذاك في زمن فريق لبناني سوري أصاب الكثير من الغنائم، ثمّ كان أول المنقلبين على سوريا حين ضاقت بها الحدود. لا شيء أساء لسوريا وأسهم في إغراقها في أتون الحرب، أكثر ممّا أساء إليها بيعُ الضمائر وشراء الذمم عند الحدود. لو كان البابُ الثامن مفتوحاً، لما وقعت كلّ تلك الكوارث. فهناك لا رشى ولا فساد ولا حدود. ثمّة عبور يُشبه حلولَ الروح في النطفة لتصبح جنيناً.

كانت رحلتي تلك إلى دمشق مطلع عام 2006. لم يكن قد مضى على اغتيال الرئيس رفيق الحريري عام واحد، ولم تكن آلة إسرائيل قد غزتْ بعدُ لبنانَ مجدَّدا، في ذاك العام، لتخرجَ منه ذليلة، وفق اعتراف تقرير فينوغراد. كانت حركة السيّارات قليلة عند الحدود. رجال الجمارك والأمن السوري، الذين كانوا قبل حوالى عام كخليّةِ نحل لا تهدأ، عند الحدود، ها هم الآن جالسون أو مستلقون، بعدما أصبحت المعابر بين البلدين قليلةَ الحركة، تعبق بالشكوك والقلق. منهم من يبتسم، ومنهم مَن لا يرغب حتى في النهوض عن كرسيّه، فيُشير ملوِّحا بيده إلى العابرين كي يمضوا، ومنهم مَن يحتسي بتكاسلٍ كأسَ «المتّة»، المشروب الشبيه بالشاي الأخضر، والذي حمله المهاجرون الأوائل من أميركا اللاتينية إلى سوريا ولبنان. في سوريا صارت «المتّة» من تقاليد الطائفة العلوية، وفي لبنان من تقاليد الموحّدين الدروز.

على الطريق من المصنع إلى دمشق، لا تزال بعض اللافتات شاهدة على التاريخ الحديث والمعقّد، حاملة شعارات تقول: «نريد للبنان أن يعود قوياً، لكي تبقى سوريا قويّة به ومعه». على الطريق كذلك، شجيرات ما كادت تُزهر بفعل الربيع، حتى أسقط المطر زهورها والبراعم. كان «ربيع دمشق» السياسي قد انتهى باعتقال أو انكفاء أبرز رموزه، ولم يكن «الربيع العربي» قد وصل بعدُ، بكلّ دمويّته، إلى سوريا، ذريعةً لقتل الناس وهدم البيوت وتدمير الحضارة والتاريخ، بكذبة نشر الديمقراطية والحرّيات. كذبةٌ شابهت إلى حدّ التطابق بدعةَ «القاعدة» وأسلحة الدمار الشامل التي استخدمها جورج دبليو بوش وطوني بلير ذريعةً لشنّ حربٍ قتلتْ أكثرَ من مليون عراقي، وتركَتِ العراقَ مدمَّرا ممزَّقا بين تفجير وقتال واقتتال وإرهاب. كانتِ الغيوم ملبَّدة، والسماء تبرق وترعد فوق ضهر البيدر. استقبلتنا سماء سوريا بالمطر الغزير وضبابية الرؤية. كرِّست الطبيعةُ المقولة الشهيرة: «إذا غيَّمت في لبنان، أمطرتْ في سوريا» أو «إذا غيّمتْ في سوريا، أمطرَتْ في لبنان».

جديدة يابوس، بحيرة زرزر، مواقع عسكرية قليلة منتشرة عند بعض التلال المحيطة بالطريق، دعايات النسكافيه تقارع إعلانات «بن الحموي» وإعلانات سياحية أخرى، وصور قليلة للرئيس بشار الأسد، وأقلّ منها صور للرئيس الراحل حافظ الأسد. كلما اقتربتِ السيُّارة من دمشق، انقشعت الرؤيةِ وخفَّ المطر. تراءى جبل قاسيون كتاج فوق مدينة الياسمين. تقول الرواية إنّه على هذا الجبل قتَلَ قابيل أخاه هابيل، وإن مغارةً فُتِحت في الجبل، وما زالت تحتفظ بدم الجريمة. ربّما في الرواية ما هو صحيح، أو هي على الأرجح من نسْجِ الخيال؛ لكنّ أهلَ دمشق ينسبون إلى الجبل بعضَ القدسية، في

معتقداتهم. بقي المقدَّس عنوانَ فخر للدمشقيين والسوريين حتى اختلفوا على المقدّس، وجاءهم من يغذّي الاختلافَ بالفتنة. هكذا هو دأب البشر، يتقاتلون على الكتب والأنبياء والرسُل والوسيلة، وينسون الله وهو مبتغاهم والمقصد والمآل. لا شكّ في أنّ أهل دمشق هم أكثر صفاءً وعمقاً وصدقاً من تلك الأفكار المستوردة والدخيلة.

القبيسيات وإسلامٌ مغاير

في زمن السلم، ذهبنا إلى مطعم «أحلى طلّة» الواقف كالتاج على رأس جبل قاسيون. لفتتني أضواء المدينة ليلاً. بدَتْ لي كفتاة دمشقية قبل ليلة زفافها، ترفل بثوبها البرّاق بمئة لون ولون. بدت لي هكذا، أو هي كانت هكذا حقاً. قارنتُ بين دمشق وبيروت. أنا القادم من لبنان الذي انتهتْ حربُه منذ ستة عشر عاماً، ولا يزال بلا كهرباء. تحوّل أمراء الحرب فيه إلى مافيات السياسة والمال، تمتعوا بذلّ الناس، فباعوهم الكهرباء والماء، وحجبوا عنهم الدولة في بلدٍ غالباً ما يغرق بالمطر والثلوج طَوالَ فترة الشتاء وبعض الخريف. هنا في دمشق الكهرباء متوافرة، تماماً كالخدمات الطبّية والتعليمية المجّانية. لفتَتني كثرةُ اللون الأخضر بين الأضواء. كان هذا اللون عنواناً لتكاثر المساجد في البلد البعثي العلماني. تخطّى عدد المساجد في سوريا ثمانية آلاف مسجد. أُضيف إليها مئات المعاهد والمدارس لتحفيظ القرآن الكريم، تَخرَّج منها عشرات آلاف الطلاب من الذكور والإناث. لا أدري لماذا كلّما كثر الناس في المساجد قلَّ الدين، وكثرت المشاكل. ربّما لأنّ في المساجد قليلاً من المؤمنين وكثيراً من المنافقين. تذكّرت عبارة طريفة لنجم الكوميديا المغربي أحمد السنوسي المعروف باسم «بزيز»، كان يقول: «لكثرة ما أحبّ العرب جورج بوش، صاروا يقولون: بوشمالله الرحمن الرحيم، بدلاً من بسم الله الرحمن الرحيم»...

كان بين المدعوّين على الغداء في «أحلى طلّة» مفكّرون وإعلاميّون وضابط كبير في الاستخبارات. لم أعتَدْ شخصياً حبّ الاستخبارات والمخبرين. لم تكن لي رغبة في مقاربتهم. لكنّ الرجل كان عميق الثقافة السياسية والفكرية، منفتحاً، سريع البديهة وصاحب نكتة. سألته: «هل ثمّة من يضبط كلّ هذه الحركة الإسلامية؟ ففي فرنسا مثلاً (حيث كنت أقيم آنذاك) تبيَّن أنّ بعض المساجد مخترق من جمعيات متطرفة مغاربية أو خليجية أو تركية». ابتسم وقال: «ما داموا مشغولين بالصلاة والدعاء، ونحن مشغولين بالسياسة والأمن، فلا شيء يثير القلق». لعلّ الضابط نفسه أدركَ لاحقاً، كما أدركتُ وأدركَ كلّ من كان حاضراً في ذلك الغداء، أنّ ذلك الاطمئنان لم يكن في محلّه أبداً. سوء التقدير أدّى إلى سوء العاقبة. لم يلتفت أحد إلى الباب الثامن.

لم أكن في حينه أعرف شيئاً عن «القبيسيات». نزلنا ليلاً من جبل قاسيون. كان الكورنيش المُطلّ على دمشق، مزيَّناً بشبّان وفتيات في ربيع العمر. معظم الشابّات يرتدينَ «الجينز» الممزّق، والثياب العصرية. بعضهنّ يقترِبْنَ من الشبّان، حتى لتخال أنّ القبلة باتت وشيكةً لا يقمعها سوى نظرات المتطفلين، فتنكفئ. تحلّ مكان القبلة المقموعة، يدٌ تتسلل بخجل إلى يد الحبيبة. تصدح الأغاني من السيّارات المزركشة، وبينها سيّارات تاكسي، وهي لكثرة زركشتها تكاد تُخفي معالمَها الحقيقية، وتتحوّل إلى ما يُشبه علب الليل.

كلما كانت السيّارة تزداد بنا اقتراباً من العاصمة، كان يزداد عدد السيدات المنقبات اللواتي لا يظهر منهنّ سوى عيونهنّ. حتى الأيدي مغطاة بقفازات. كان بعضهنّ يسِرْنَ خلْف الرجال، أو وحدهُنّ يتبادَلْنَ الحديث، فلا تُعرَف لهُنَّ أعمارٌ، ولا أشكال، ولا أسباب لتلك المغالاة في الاختباء وراء القماش الأسود. كنت أرى أيضاً نساءً وشاباتٍ محجّبات باعتدالٍ أكثر. يغطّي الحجابُ الأبيضُ شعورَهنَّ، لكنّه يُبقي الوجه سافراً. بان لي الجمال السوريُّ أكثرَ طبيعيةً وأقلَّ زخرفةً من الجمال اللبناني. سألتُ عن المحجّبات وسبب كثرة عددهنّ. قالت لي إحدى الزميلات: بعضهنّ منقّباتٌ على الطريقة السعودية، وهذا جديدٌ عندنا، وأمّا أولئك فهنّ «قبيسيات». سألتُ بكثير من التعجّب: «ماذا؟». ضحكَتْ، ثمّ

كرّرتْ: «قبيسيات». قلتُ: «ومن أين لهنّ هذا الاسم، ولا نورَ ظاهراً منهنَّ ولا نار» (القَبَس تعني النار أو النور). اعتذرتُ لجهلي، فعادت زميلتي إلى شيء من الجدِّ، وفسَّرتْ لي: «إنهنّ يتبعْنَ جماعةً اشتُقّ اسمُها من منيرة القبيسي، التي درست على الشيخ المفتي أحمد كفتارو. يقول بعضهم إنّها تتبع طريقةً صوفية، لكنّ آخرين ينفون ذلك، ويقولون إنّها تتبع تعاليم القرآن والسنّة، وتريد نشرَ الدين بصورته الملتزمة؛ لذلك، يُغطّى الوجه والجسد وغير ذلك... لكنّ بعضهم أيضاً يسعى إلى تشويه هذه الصورة، فيُلصِق بها أفكاراً أصولية متشدّدة». فهمتُ لاحقاً أنّ لهذه الداعية الإسلامية تأثيراً كبيراً على المؤمنات اللواتي يتبعن طريقتها، وأنّ لها طرقاً خاصّة بالتعليم الديني والمناهج التربوية ومساعدة الناس. فهمت أيضاً أنّ الدولة تتسامح مع هذا النوع من التديّن، وربّما تفيد منه. شعرتُ بشيء من القلق. آنذاك، لم يكن لديّ أيُّ معلومة تبرّر قلقي. ولكنّي لاحظتُ فحسب، أنّ عدد المحجّبات والملتحين قد زاد عن حدّه المعقول... من أيّ باب دخل هؤلاء، وهل سيعرفون يوماً باب دمشق الثامن؟

سوق الحميدية سرّ الثروة

في صباح اليوم التالي، ذهبت مع بعض الأصدقاء إلى سوق الحميدية. أخذ السوق اسمه من العثمانيين. بُني في عهد السلطان عبد الحميد الأول، عام 1780. هو عالَم قائم بذاته، يختصر كلّ صنوف البضائع، ويتوسّط ساحات وحضارات وأعمدة أثرية ومساجد، لكنّه يختزن أيضاً كلّ شطارة الدمشقيين ومهاراتهم التجارية، ورائحة العطور والتوابل والعنبر والبخور. تعرف أنّ التاجر قد يحتال عليك بالسعر إنْ كنتَ غريباً، ولكنّك تفرح حتى بالاحتيال. هنا كلّ شيء يبعث على البساطة والفرح، وكأنّما في المكان شيءٌ من سرّ الكون، أو كأنّ الحضارات التي تعاقبت على دمشق تركت في المكان شيئاً من روحها.

ولجتُ أحدَ محالّ التحف. ابتسمَتْ صاحبة المحلّ. ناقضت ابتسامتها كلّ رصانة الحجاب الذي يغطي الشعر ويلتفُّ حول الوجه. بدت لي خمسينية العمر، قصيرة القامة، متوسّطة الحسن، لكنّها تضجُّ حيوية. ما إن نطقتُ بالسلام عليها، حتى عرفت أنّي لبناني. هذه واحدة من عجائب السوق وأسراره، لا يعرفها إلّا أهل السوق وتجّاره. لا يمكن للمرء أن يكون تاجراً هنا، إن لم تكن كلّ حواسّه متأهّبة ومداركه متوثبة، بما في ذلك الحاسّة السادسة. رحَّبَتِ السيدةُ الدمشقية بي وسألت عن مبتغاي. قلت إنّي أريد أن «أتفرّج». رحّبتْ أكثر، وقدّمت لي حلوى. اعتذرتُ فأصرَّت. أكلت فدعت لي بهناء المأكول. وزّعت ناظري سريعاً على المكان وكأنّي أغوص في تاريخه. توقفت عند طاولات صغيرة مرصّعة بالنقش الدمشقي والأصداف. هنا أساور فضّية مرصّعة. وهنا مسابح من أحجار كريمة. قربها علب خشبية متعدّدة الأشكال. إحداها تشبه القلم الغليظ تختزن في داخلها ورقة بيضاء. مددت يدي لملامستها، فسارعت صاحبة المحلّ: «هذه مخصّصة للرسائل، كانت في السابق رسائل سياسية أو اجتماعية يتناقلها الأمراء والحكّام والملوك والسلاطين، ولكن اليوم باتت وسيلة للتخاطب بين العشاق في المناسبات». لم أكن بطبيعة الحال أميراً ولا ملكاً ولا سلطاناً، ولم أكن في حينه حتى عاشقاً، لكنّي قدّرت أنّ الحبّ قد يأتي مع هذه التحفة الدمشقية فاشتريتها. (لم يأت الحبّ سريعاً لكنّي فرحت بها، ولا تزال تزيّن مكتبي). في المحلّ أيضاً إطارات خشبية مزخرفة للصور، ولوحات قديمة، ونحاسيات وكثير من الفرح الهدوء المناقض عجقة السوق.

طال المقام في المحلّ. تخلله فنجان قهوة وأحاديث متنوّعة. كان فضولي دافعي للبقاء أكثر وأسئلتها دافعها لاستبقائي أطول. استأنست بالسيدة الخمسينية واستأنست بي. سألتني أين أقيم؟ قلت في فرنسا. سارعت إلى القول إنّها تريد إرسال أولادها الأربعة للتعلم في أوروبا. قلت إنّ الأمر مكلف. قالت إنّ الله أنعم عليها بما يكفي لتحمّل التكاليف. دققت في عشرات الأسئلة عن أفضل الجامعات وأفضل أماكن السكن وعن تكاليف الإقامة والسفر وربما شراء منزل. عجبت للأمر وأنا أشاهد أمامي محلّاً صغير الحجم بالكاد يتّسع لضيفين... لم يطل عجبي. فهمت لاحقاً، أنّه خلف هذه المحالّ تختبئ ثروات كبيرة

لم يكن الدمشقيون يرغبون في إبرازها أو ربّما يخشون ذلك. لكن منذ وصول الرئيس بشار الأسد إلى الرئاسة وتحرير القطاع المصرفي ووضع عشرات المراسيم للاستثمارات وغيرها، صار الدمشقيون أكثر حرّية في التعامل بالعملات الأجنبية وأخرجوا أموالهم من أوكارها والجحور.

دمشق تغرق في الدماء

كنتُ شاهداً على الأيّام الأولى لاندلاع المواجهات في سوريا. رأيتُ التظاهرات الأولى. سمعتُ الرصاصات الأولى. أيقظتني القذائف الأولى، وأنا نائم في منطقة كفرسوسة، وتحديداً في ذلك الحيّ الذي اشتراه الأغنياء من الفقراء، وبنوا مكان بيوتهم الفقيرة عماراتٍ حجريةً أنيقة، وشوارع نظيفة، ونوافذ زجاجية حديثة تعكس أشعّة الشمس منذ الصباح، وتعكس شيئاً من ثراء مستجدٍّ وطبقةٍ اغتنَتْ فجأةً، وكانت بلا أدنى شكٍّ، أحدَ أسباب النقمة. منذ التظاهرات الأولى، ومنذ الرصاصات الأولى، ومنذ القذائف الأولى، كنتُ على يقين بأنّ ما بدأ في سوريا لن ينتهي قريباً، لأنّ المطلوب منها لن يتحقّق ما لم تُدمَّر، أو تغيِّر وجهها وحسنها وملبوسها وعرينها ودورها. لا بل كنتُ على اقتناع بأنّها حتى لو غيّرت وجهها فستُدمَّر. كانت كفاتنة وقعَ في غرامها شابٌّ ثقيل الوطأة والظلّ، فقتلها انتقاماً من حُسنها.

كان عام 2010 جميلاً في دمشق، قبل الحرب. دأبت على زيارتها كلّ أسبوع تقريباً لظروف عائلية. لا فرق إن قصدتها نهاراً أو ليلاً، فما إن تعبر الحدود صوب العاصمة السورية حتى تشعر بالأمان. وعند الحدود سيّارات كثيرة للمقاومة، تلتقي في دمشق بباصات لسيّاح إيرانيين. كانت سوريا في ذلك العام توحي بانفراج اقتصادي ورفاهية اجتماعية، ولكنّها كانت تتموضع أكثر فأكثر في إطار المقاومة. ما عادت المقاومة ورقةً في استثمار استراتيجي، بل صارت خياراً وتوجُّها ومساراً ومصيراً.

في عام 2010، كتبتْ صحيفة «لوموند» الفرنسية العريقة والموثوقة في تقريرها السنوي: «إنّ الناتج القومي الخام في سوريا انتقل من 21,1 مليار يورو في عام 2005 إلى 43,9 مليار يورو في عام 2. أدَّتْ خصخصة القطاع المصرفي إلى انتعاش القطاع الخاصّ. فُتحت بورصة سوريا في عام 2009. حققت السياحة 3,5 مليارات يورو فقط في الأشهر الأولى من عام 2010. وصلت تحويلات السوريين في الخارج إلى مليار يورو... إلخ.. أُلغيت مفاعيل قوانين التأميم التي كانت سائدة منذ عام 1963». وبالرغم من تباطؤ المصارف الدولية بالمجيء إلى سوريا، سنح التعاون المصرفي اللبناني السوري بانتشار عشرات المصارف اللبنانية في دمشق.

كنّا، بوصفنا عرباً، مؤمنين بدور سوريا العروبي. كنّا نفرح لتلك النهضة الاقتصادية (بالرغم من أخطاء بعض المشاريع التي همّشت المزارعين والفلّاحين، وبالرغم من إغراق الأسواق السورية بالبضائع التركية كرمى لعيون العلاقات الاستراتيجية مع الجار الذي سرعان ما جار)، لكنّنا كنّا في الوقت عينه نقلق: كيف سيُسمح لسوريا وهي في مشروعها النهضوي والداعم للمقاومة وتفاخر بصورة رئيسها بشار الأسد متوسِّطا الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد والأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله؟ كيف سيُسمح لسوريا الناهضة اقتصادياً، بأن تصبح الدولة الأكثر نموًّا في محيطها والأكثر شعبية في الشارع العربي مع المقاومتين اللبنانية والفلسطينية؟

كانت كل المقاهي زاخرة بالناس عام 2010. الحيوية تملأ الأمكنة. مطاعم دمشق القديمة تسهر حتى الصباح حول برك الماء، وبين أشجار الياسمين والليمون وفوق الأرض المزخرفة وتحت الأعمدة المزركشة بروح التاريخ، والشبابيك ذات الأعمدة الحديدية الشامخة بين حجارة الجدران الجميلة. هي البيوت القديمة تحوّلت إلى مطاعم تصدح منها أصوات الفنانين. تنسابُ منها موسيقى الاحتراف الفنّي الأصيل. يتبادل الجميع أخبار ما حصل في تونس ومصر، من دون قلق كبير. كنت وصديقي الدبلوماسي الواسع الثقافة رغم صغر السن، الدمث الأخلاق، صاحب النكتة الذكيّة الحاضرة دائماً، قنصل لبنان رامي مرتضى (صار اليوم سفيراً للبنان في الاتحاد الأوروبي)، نتبادل في مقاهي

العاصمة أحاديث السياسة وما تقوله الصحافة والتقارير، وكنّا كما الجميع نستبعد أن تصل رياح الانتفاضات والثورات وما سُمّي «الربيع العربي» إلى دمشق.

الرئيس السوري بشار الأسد نفسه كان قد استبعد كليًّا وصول الثورات إلى دمشق. قال لصحيفة وول ستريت جورنال: «لدينا ظروف أصعب ممّا لدى أغلب الدول العربية، ولكن على الرغم من ذلك فإنّ سوريا مستقرّة. لماذا؟ لأنّك يجب أن تكون مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً جداً بمعتقدات المواطنين. هذه هي المسألة الجوهرية. عندما يكون هناك اختلاف بين سياستك وبين معتقدات الناس ومصالحهم يصبح لديك هذا الفراغ الذي يخلق الاضطراب». استبعد وصول الثورات، لكنّه لم يتوقّع وصول الثيران باسم الدين وتحت راية الإرهاب... كادت عروس العروبة تسقط تحت براثن الوحوش. وأمام وَحشة الطريق، كاد الدمشقيون يضيعون السبيل إلى بابهم الثامن.

كانت جلساتنا تلك في مقاهي شارع المزة، أو في حارات دمشق القديمة الراشحة بقصص التاريخ والحاملة أيقونات أو ندوب الحضارات الغابرة، مفعمة بالأمل الذي تعكسه وجوه الشباب. كان الجمال الأنثوي السوري يُسدِل على أماكن السهر وشاحاً من سحر ودلال العارفات بأسرار الحبّ العذري في شعر جميل بثينة، أو المنفتح على كلّ الغواية والإغراء في شعر ابن أبي ربيعة وأبي نواس.

بين هذا الجمال في طريقة اللباس الذي يعكس الكثير من حداثة الأزياء الغربية، وبين أولئك الصبايا والسيّدات المحجَّبات اللواتي كنَّ يحضرن أيضاً في المقاهي وأمكنة السهر، نتذكّر أنّ سوريا كانت السبّاقة في إفساح المجال أمام المرأة لتبوُّؤ مراكز سياسية واجتماعية وحكومية عالية. منذ مطلع خمسينيات القرن الماضي وصلت المرأة إلى البرلمان، ثمّ صارت وزيرة، ثمّ نائبة للرئيس، أو رئيسة لمجلس الشعب. ثمّة دول عربية من تلك التي أرسلت السلاح لاقتتال السوريين بذريعة نشر الديمقراطية والحرّيات، تأخّرت المرأة فيها خمسين عاماً قبل أن تصل إلى أيّ مركز حكومي أو نيابي. ثمّة دول أخرى لا يزال صوت المرأة فيها عورة، تأتي لتقول لهذا البلد العريق ماذا عليه أن يفعل، وكيف يمارس ديمقراطيته وحرّيته.

سوريا السريانية في أصل الحكاية

تقول الرواية إنّ أصل اسم «سوريا» سرياني. اشتق من «أسّيريا» Assyria كما تُلفظ بهذه اللغة العريقة التي كان لها فضل كبير على اللغة العربية. أو تقول إنّه مشتقٌّ من «آشور» وفق الباحث روبرت رولينغر. وأمّا السوريّون فلا تهمُّهم أصلاً الروايات والأسماء. هم يقولون إنّهم ما عرفوا يوماً فرقاً بين أعراقهم وطوائفهم والمذاهب. يقولون إنّهم ما سألوا يوماً عن مذهب جارٍ، أو طائفة بائع، أو قومية موظف. هكذا يقولون، لكنّ هذا غير صحيح. الاعتراف بالحقيقة فضيلة، والحقيقة تقول إنّ العروبة لم تنجح، ولا التجربة البعثية نجحتْ في إقناع مكوّنات المجتمع السوري جميعاً بالمساواة. بقي الكردي ينتظر فرصة سانحة للانقضاض على الدولة، والتأسيس لمشروعه، لأنّه كان يشعر بالغربة عن الدولة وبشيءٍ من الظُلم. بقي السرياني والكلداني والأشوري يحلم بمكان أكبر لثقافته وحضارته وتاريخه، وقلّما قَبِل بأنّه عربي. غالباً ما تقضي المشاريع الكبيرة على الطموحات الصغيرة. غالباً ما تسعى المشاريع الكبيرة لصهر المكوّنات الصغيرة في استراتيجيتها. ربّما لا تنتبه إلى أنّها في سعيها ذاك، لا مجال لاستمرار القهر والتهميش، وأنّ الخيارات الاجتماعية والسياسية والثقافية لا تُفرض فرضاً أو بالقمع. هي تستقرُّ فقط إذا شعر كلّ مواطن بأنّها خياراته. لكن بالمقابل، فإنّ بعض المكوّنات سمحت لنفسها، بأن ترفض الحاضر بذريعة التاريخ الغابر. لم يكن غريباً أن ترتفع أصواتٌ في الأشهر الأولى للحرب تنادي بالانتقام: «نحن لسنا عرباً، والعروبة فُرِضت علينا». هؤلاء ليسوا أقلَّ انتماءً إلى سوريّتهم من أيّ سوري غارق في عروبته، وينعم بها، لكنّهم يعبّرون عن نقمة وغضب وعتب. كان هذا جمراً تحت الرماد.

وتقول الحقيقة أيضاً، إنّه حين غار الجرح عميقاً في جسد دمشق، وجدَتْ سرياناً وآشوريين وكلدانيين وكرداً يقفون إلى جانبها ومعها في صفٍ واحد. كيف لا، وهذه الدمشق لها في قلب ووجدان كلّ عربي وكلّ إنسان محبٍّ للحضارة والثقافة مكان الصدارة.

ولجت مع بعض الصحبِ بابَ توما. لا يزال بخور قدّيسه يعبق بالمكان. انعطفنا يميناً، فلامسنا بأيادينا الجدران القديمة، كان كلّ حجرٍ يحكي عن حضارة مرّت من هنا. كيف لا تكون دمشق كذلك، وهي أقدم مدن التاريخ وأكثرها عراقةً. هي «دمشقا» التي ذُكرت في رسائل تلّ العمارنة؛ أي إنّها كانت هنا منذ آلاف السنين. كانت هنا قبل القدّيس توما، وقبل كلّ الأنبياء والرسل. قبل ١٤ قرناً من قدوم القدّيس توما إلى بابه. رواها «بَرَدى» من مائه كما تروي الأم جنينها من العروق. رواها حتى جفّ أو كاد. قاومَت الغزاة مذ رأت النور. دمّرها الأشوريون ثمّ قامت من جديد. غزاها الفرس الأخمينيون ثمّ انتصبت من جديد. جار عليها الإسكندر المقدوني ثمّ ركلته وشمخَت. جاءها اليونان والرومان وظنّ القائد الغازي بومبي أنّه باحتلالها سوف يجعلها غربية الاتجاه والثقافة والحضارة، ركلته وازدادت عزةً وكرامة، وعادت أكثر جمالاً وبهاءً، جاءها البيزنطيون ورحلوا، ثمّ كانت مفاتيحها للعرب المسلمين، فكانت لعبيدة بن الجرّاح وللأمويين والعباسيين والفاطميين. جاءها القرامطة والعثمانيون والسلاجقة والأيوبيون. غزاها المغول، فدمّروها وأحرقوا ما فيها وقتلوا وشرّدوا ناسها، لكنّها قامت من جديد. جاءها المماليك من مصر ثمّ العثمانيون من الجوار، والفرنسيون من الغرب، صبرت، تحمّلت، تألّمت، تجلّدت، ثمّ ثارت وركلت الغزاة وطردتهم من أبوابها السبعة، وجلست تأكل البرازق والمعمول المغزول على رحيق الورد وتضحك. ها هو الجامع الأموي الذي حلم العثمانيون الجُدُد بالصلاة فيه يوماً ما، يرسّخ هويّته وهويّة الدمشقيين. لا يزال عربياً مسلماً يرجّع صدى الكنائس العربية والسريانية والأشورية والكلدانية، فلا هو استقرَّ معبداً لآلهة الآراميين، ولا معبداً للرومان وجوبيتيرهم، بل صار في تاريخ المدينة الإسلامي مكاناً لصلاة المسلمين والمسيحيين على السواء. بات نموذجاً يُحتذى من القدس حتى المغرب الأقصى. فكيف لا تكون دمشق، قلب العروبة النابض، وقلب الإسلام النابض، وقلب المسيحية النابض، وقلب كلّ مكوّن من مكوّنات السوريين جميعاً، ينبض بالحياة والمقاومة والصبر؟ كيف لا تنتفض يوماً ما لتركل كلّ الغزاة وكلّ الملتحين زوراً والملتحفين زوراً باسم الدين.

تستحقّ دمشق أن تكون أجمل، وتستحقّ سوريا أن تعود إلى ناسها، كلّ ناسها، وأن يتعلم السوريّون من دروس الماضي والحاضر، فلا فرق بين سوري وآخر، إلّا بقَدْر معرفته بعراقة بلده، وبقدر حبّه لبلده، وتفانيه في سبيله ومن أجله... لا تفرّق الأبواب السبعة بين سنّي وشيعي وعلوي ودرزي ومسيحي وعربي وكردي وأشوري وسرياني وكلداني وغيرهم...

حين غرقت بالحرب، وتقاطعت في أجساد ضحاياها مصالح إقليمية ودولية كثيرة، عاد إلى خاطري بيتان من قصيدة رائعة للجواهري:

فَخْراً دِمَشْقُ تَقاسَمْنا مُراهَقَةً / واليوم نَقْتَسِمُ الآلامَ والرَّهَقا

دِمَشْقُ صَبراً على البَلْوى فَكَمْ صُهِرَتْ / سَبائِكُ الذَّهبِ الغالي فما احْتَرَقا

أغادرها هذه المرّة وأنا أقول: «لا بدّ للحرب من أن تخجل يوماً ما من جمال المدينة وعراقة التاريخ والحضارة». لا بدّ من أن تعود دمشق كما قال محمود درويش: «امرأة بسبعة مستحيلات وملتقى الحلم ونهايته».

في رحاب اليمن

بين الشيخ الأحمر وصاحب اللحية الحمراء
كلّ القضية

عرفتُ اليمن في كلّ مراحله. عشت فيه الحرب ورافقت فيه وحدة الشطرين. تعرّفت إلى كلّ قادته المعاصرين وزعماء أحزابه وقبائله المتنوّعة وناسه الطيّبين. لكنّي لم أظنّ يوماً أنّ حاله ستنتهي إلى هذه الحرب الشرسة، التي يعيشها اليوم بين محورين، الأول يريد كسر الحوثيّين وعلي عبد الله صالح، ومن خلالهم إيران، والثاني يريد استعادة زمام المبادرة وكسر الدور السعودي عبر حلفائه في السلطة. لم أظنّ ذلك ولا توقعته، لأنّني كنت أظنّ أنّ ما يظهر من علاقات سعودية-يمنية، وعلاقات يمنية-أميركية، وخاصّة في السنوات الأخيرة لحكم الرئيس علي عبد الله صالح، كفيلٌ بدرء الحروب.

أوفدتني الإذاعة الفرنسية إلى اليمن عام 1994. كان التشظي قد بلغ ذروته، وكانت الاتّهامات المتبادلة بين نائب الرئيس والزعيم الجنوبي علي سالم البيض، وبين الرئيس صالح تُنذِر بالأسوأ. في تلك الفترة كان المشروع السياسي الذي طرحه الحزب الاشتراكي قد بدأ يغزو بالإغراء مناطق الشمال. الأفكار الجاذبة للاشتراكي المسيطر على الجنوب (الذي عرف انشقاقات ومجازر بين أهله)، جعلت جزءاً لا بأس به من أهل الشمال يتعاطفون معه. وأعتقد أنّه في مكان ما، كان الحزب الجنوبي قد بدأ يفرش سجَّادا أحمر لمشاركة أوسع في السلطة. كان لا بدّ والحالة هذه، من أن يثير قلق أطراف السلطة في الشمال، ولكن أيضاً وخاصّة، غلاة الإسلاميين، وعلى رأسهم الشيخ عبد المجيد الزنداني.

الشيخ عبدالله الأحمر وابنه.

كنتُ شخصياً متعاطفاً مع الجنوب. ترعرعت على أفكار يسارية إنسانية في لبنان رغم لومي الدائم

للتقوقع الشيوعي في منظومة أفكار لم تتطوّر، ولحرمان الناس من كثير من الحرّيات بذريعة حماية البروليتاريا. كنتُ بحكم الإيديولوجيا الاجتماعية والسياسية إذاً، أقربَ إلى الحزب الاشتراكي اليمني؛ لكنّ ذلك لم يكن السبب الوحيد لتعاطفي مع الجنوب. فقد كنت أرى في عدن ساحة ممتازة لانطلاق التغيير الاجتماعي والسياسي لا في اليمن فقط، بل في المحيط الخليجي أيضاً. ثمّ كانت الحياة الاجتماعية في الجنوب أكثر حرّية وانفتاحاً وتفاعلاً مع العواصم العربية النابضة بحركات التغيير وفي مقدَّمها بيروت.

حين وصلتُ في ذاك العام إلى صنعاء، كان الجيش اليمني الشمالي قد بدأ بالتوجّه صوب الجنوب. كنّا مجموعة من الصحافيين ذهبنا إلى اليمن لتغطية وقائع الحرب. أذكر أنّي التقيتُ في صنعاء آنذاك بالزملاء عبد الباري عطوان وجمال خاشقجي وفيصل جلول وغيرهم. وكان لافتاً أنّ خاشقجي الكاتب السعودي المثقف الجريء كان أكثرنا إحراجاً في التنقل بلباسه السعودي، ذلك لأنّ ثمّة نقمةً كانت تغزو الشوارع ضدّ السعودية، ما جعل أيضاً الصحافي والصديق اليمني حمّود منصر يحسب ألف حساب حين يظهر مراسلاً على شاشة أم بي سي.

لم أكن في حينه أعرف الكثير عن تعقيدات العلاقة السعودية اليمنية وتاريخها. كلّ ما كنت أعرفه هو أننا ذاهبون مع جيش الشمال اليمني لنغطي معركته ضدّ جيش الجنوب. كان هذا سيّئ الوقْع عليَّ شخصياً، لكوني أقرب إلى الجنوب وأفكاره. لكنّي تعلّمت في مهنتي أن أميّز بين قناعاتي الشخصية وميولي السياسية، وبين العمل الإعلامي. فحين أكون على الأرض أو خلف الميكروفون أو على الشاشة، أكون فقط صحافياً بلا ميول ولا مشاعر ولا غرائز، إلّا ما تعلَّق من المشاعر بالنواحي الإنسانية التي قد أشاهدها أمامي.

ذهبنا مساءً إلى أحد مطاعم صنعاء، يشتهر بأسماكه الكبيرة المشويّة في الفرن، وخبز التنّور الخارج لتوّه ساخناً من التنّور، والشوربا اليمنية، والمتبّلات وبنت الصحن. أجمل ما في تلك المطاعم الشهيرة في العاصمة أنّه لا يوازي لذة الأكل فيها سوى جمال الفوضى. أحاديث الرجال وأصواتهم العالية (ليس فيها نساء) تملأ القاعة. هم يأتون من كلّ حدب وصوب، من انتماءات شتّى وأعمار متباينة، وأشكال متنوّعة في اللباس التقليدي. ما إن نجلس إلى الطاولات حتى يتوزّع الخبز بكمّيات كبيرة عليها، ثمّ السمك وحواضره، ثمّ المشروبات الغازية. سرعان ما تمتلئ الطاولات بالفضلات. لا شوك، لا ملاعق، ولا سكاكين. إذا طلبت يأتونك بها. لكن ثمّة سعادة أكبر في أن تأكل بيديك، وأن تفعل كما الجميع حولك، ترمي الفضلات على الطاولة، ثمّ تختم الغداء بموز وعسل وكوب من الشاي وضحكة النادل الذي يجول بسرعة لافتة بين الطاولات، يقدّم الأكل هنا، وينظف الطاولة هناك.

لا شيء للزيارة في صنعاء سوى جلسات المَقيل، حيث «تخزين» وريقات «القات». لا سينما ولا مسرح ولا أماكن لهو أو رياضة.

نمتُ ليلتي الأولى من دون ضجيج، لكنّ ارتفاع صنعاء الكبير عن سطح البحر، يجعل النوم صعباً، ويرفع مستوى ضغط الدم. هي من أكثر عواصم العالم ارتفاعاً عن سطح البحر. في اليوم التالي، كان مسيرنا صوب الحرب. شاهدتُ الكثير من تفاصيلها. رأيتُ بأمّ العين القصف العنيف لمواقع جيش علي سالم البيض. كنّا حين نمرُّ خلْف الدبّابات والآليّات العسكرية اليمنية، نرى على الطرقات قذائف المدفعية الفارغة. لو أنّها نزلت على بيت وهي فارغة، لدمّرته لضخامة حجمها. طرحتُ عشرات الأسئلة آنذاك عن الأسباب والمبرّرات الحقيقية لتلك الحرب، ولماذا لم يكن ممكناً تفاديها. وفي كلّ مرّة كنتُ أصل إلى القناعة نفسها، وهي أنّ التنافس الشخصي بين صالح والبيض هو الأساس، وأنّ الشكوك المتبادَلة بين قيادتي الشمال والجنوب لم تترك مجالاً فعلياً لاستكمال الوحدة التي كانت قد بدأت على أكثر من صعيد وأنعشت الكثير من الآمال.

كنت متعاطفاً مع الجنوب، وأسير مع جيش الشمال للسيطرة على الجنوب. لكنّي في الواقع كنتُ وما

زلت وحدوياً بامتياز، وأردتُ أن أصدّق أنّ الحرب قد تأتي بالوحدة ولو قسراً. لم أكن متحمِّسا أبداً لدعوات علي سالم البيض، في الفترة الحرجة، إلى الانفصال وإعلان حضرموت مملكة مستقلة.

وصلنا إلى عدن في اليوم التالي لسيرنا. نزلنا قرب مبنى التلفزيون. كان جزء منه مدمَّرا والجزء الآخر قد عبثت به أيادٍ كثيرة. كانت الملفّات والأوراق وأشرطة التسجيل التلفزيوني منتشرة في كلّ مكان. كانت الأبواب محطمة وكذلك الطاولات. في البداية، منَعَنا الأمنُ من الدخول، لكن أمام التلفزة وجدتُ ضابطاً كبيراً اسمه مكتوبٌ على سترته: اللواء عليوان كليب. اقتربتُ منه وقلت له: «نحن من عائلة واحدة، ويقال إنّ أصولنا من اليمن». رحّب بي، وتبادلنا حديثاً سريعاً، فأفسح لي في المجال للتجوال في الكثير من المناطق التي كان دخان القذائف والاشتباكات لا يزال يتصاعد منها.

الشيخ عبدالله الأحمر وعائلته.

هذا كان لقائي الأول مع اليمن. عرفته في خلال الحرب، لكنّي ما زلت حتى اليوم أمنّي النفس بأنّها على الأقلّ دارت تحت شعار الوحدة التي قامت فعلاً بعد الحرب. هي قامت فعلاً، غير أنّها قامت مشوَّهة بسبب الإقصاء الكبير الذي تعرّض له الحزب الاشتراكي وأهله، من قِبل صالح وحليفه الجديد، الإسلامي الاتّجاه: «التجمّع اليمني للإصلاح».

يمن الوحدة وأسئلة القلق

بعد سنوات قليلة على تلك الحرب، وصلتني دعوة من الرئاسة اليمنية للمشاركة في احتفال الوحدة. فرحت بالدعوة لأنّي منذ سنوات طويلة لم أسمع خبراً مفرحاً. كانت أخبار التمزّق والفتن والاقتتال والتآمر تتصدّر الصفحات الأولى من صحف العرب. فكيف لا أذهب إلى أول عاصمة عربية تعلن أنّها تحتفل بالوحدة، حتى ولو... بالقوّة.

وصلنا إلى العاصمة صنعاء. كانت، على غير ما يُعهَد بها، نظيفةً على نحوٍ لافت. لم نرَ أوراقاً، وعلباً فارغة، ونفايات مرميّة أمام الحوانيت، ولا رأينا زحمةً ولا فوضى. كان كلّ شيء أنيقاً ومرتباً،

وكانت براميل النفايات مطليَّة بألوان لا تزال رائحة الطلاء تفوح منها.

في اليوم التالي لوصولنا، دُعينا إلى القصر الرئاسي. كان الرئيس علي عبد الله صالح سعيداً بذلك اليوم، ينثر فرحه على الزوّار، يسأل عن دولنا، يمازحنا. وكنّا مجموعة من الإعلاميين العرب والأجانب، نستمع إليه، وهو يشرح أهمّية هذا اليوم، قبل أن يفسِح في المجال أمام الأسئلة.

قلت له: «يا سيادة الرئيس، أولاً شكراً على الدعوة، هذا وسامٌ على صدورنا أن نشارك في يوم الوحدة، ولكن اسمح لي بأن أكون صريحاً لو تفضّلت. لقد مررتُ على بعض القيادات الاشتراكية وذهبت لزيارة صحيفة الحزب الاشتراكي، فوجدتُهم قلقين، وعرفت منهم أنّ بعضهم لا يزال مسجوناً، وأنّ صحيفتهم لا تصدر، ألا ترى أنّ حصر تحالفاتك مع الإسلاميين، والتضييق على شركاء الأمس في الوطن، سيُشعِر جزءاً كبيراً من أهل الجنوب بغبن كبير، ويبقي اليمن على بركان؟». طرحتُ هذا السؤال، وأنا على يقين من أنّ الرئيس سيغضب، أو قد لا يجيب. لم أكن مهتمًّا بردّ فعله، بل كان ما يهمّني هو أنّي قلت ما ينبغي قوله، بينما كان بعض الزملاء يكيل له الإطراء والإشادة به. فوجئت في الواقع بأنّ علي عبد الله صالح، أجاب بكثير من الاهتمام. قال كلاماً طيِّبا، وأكّد أنّه عازم على الاستمرار في بناء الوحدة، وعدم ترك أيّ يمني يشعر بأنّه على هامشها.

أثناء وجودنا في اليمن، للاحتفال بالوحدة، دعانا الرئيس اليمني لمرافقته في رحلته إلى بعض المحافظات. كان مستشاره الصحافي عبدو برجي رجلاً طيِّبا يحبّ الصحافيين، ويحبّونه. وكان إلى جانب الرئيس أيضاً العميد علي الشاطر، الذي يبادر إلى الاهتمام بكلّ إعلامي يزور اليمن، ويسهّل لنا كلّ التفاصيل. وكان كما برجي، متابعاً بدقة للأوضاع السياسية في الوطن العربي، لكنّه كان أيضاً يتمتّع بسطوة لافتة.

ركبنا طائرة الرئيس الخاصّة، وكان فيها مجموعة من الإعلاميين وبعض الحرس الجمهوري. ما إن حلّقت بنا قليلاً، حتى جاء من يقول لي: «إنّ سيادة الرئيس يدعوك لتناول الشاي معه». دخلت عليه، فاستقبلني بالترحاب وعبارات المودّة، وشكرني على ما قلته خلال لقائنا، ثمّ أسهب في الحديث عن لبنان والمقاومة والصراع مع إسرائيل. قال: «والله لو استطعت لذهبت وقاتلت إلى جانب المقاومة، وأنا أحترم كثيراً السيد حسن نصر الله». قلت له: «ما رأيك يا سيادة الرئيس أن أكتب هذا الكلام؟». ضحك وقال: «وهل تريد من الأميركيين أن يقطعوا علاقتهم بي؟». كانت علاقته بأميركا آنذاك قد أصبحت ممتازة. لعلّها احتاجت إليه كثيراً في ضرب القاعدة، ولكنّها احتاجت أيضاً إلى التلويح بورقته ضدّ السعودية.

كانت مدينة «المكلا» إحدى محطاتنا مع الرئيس صالح. أجلسونا في الصف الأمامي، لكنّ مقعدي كان بعيداً عنه، وكان إلى جانبه بعض الوزراء. نظر إليَّ وأومأ لي كي أقترب منه. كان اليمنيّون في المحافظة قد أعدّوا حفلاً غنائياً بسيطاً. تذكّرت أغنية الفنّان السوري العريق فهد بلان «يا بنات المُكلا». اقتربت من الرئيس وقلت له: «يقول فهد بلان، يا بنات المكلا، يا دوا كلّ علة، لكنّي يا سيادة الرئيس لا أرى أولئك البنات الجميلات، هل تغيّرت المكلا؟»، فضحك وقال: «أعتقد أنّه لو جاء معنا اليوم لما غنّاها».

يتمتّع الرئيس صالح بروح النكتة، لكنّه يتمتّع خاصّة بذاك الدهاء الفطري الذي ساعده كثيراً في اللعب على كلّ تناقضات اليمن وقبائله، فسيطر على الجميع، وقَوْلَبهم بحيث ما عادت تقوم في وجهه معارضة حقيقية.

الشيخ الأحمر

قادتني إحدى رحلاتي اليمنية الكثيرة، للتعرّف إلى أبرز مشايخ اليمن آنذاك، الشيخ عبد الله بن حسين

الأحمر. كان الرجل السبعيني الوقور زعيماً آنذاك لقبائل حاشد العريقة والشهيرة، التي ينتمي الرئيس صالح إلى أحد بطونها. كان كذلك رئيساً لمجلس النواب الحيوي، والزاخر بالنقاشات والانتقادات والاعتراضات. زرته في قصره في صنعاء. كانت صورته تتصدّر صالون الاستقبال الفسيح جداً، وإلى جانبها شجرة قبيلته التي كان لها باع طويل في اليمن. لفتني أنّ حجارة القصر متعدّدة الأشكال والألوان ودرجة الحرارة. قيل لي إنّ الشيخ عبد الله حرص على أن يبني قصره من حجارة جمعها من كلّ أنحاء اليمن، فجاء من كلّ ناحية بحجارة مختلفة. قيل لي أيضاً إنّ تحت القصر سجناً للخارجين عن قانون الشيخ والقبيلة. أمّا خارج القصر فكان عشرات الشبّان يقفون بسلاحهم حرَّاسا على كلّ الأبواب. هم بالتأكيد من القبيلة نفسها. كان الرجل دولة داخل الدولة، تتألف من قوّات قبلية أمنية ومصالح اقتصادية وشركات ودور سياسي. عرف الشيخ الوقور بحكمته وخبرته كيف يوازن بين دوره على رأس القبيلة وبين علاقته بعلي عبد الله صالح، وأيضاً بالمملكة العربية السعودية، فأسهم إلى حدّ كبير في استقرار اليمن برغم الاضطرابات الكثيرة التي ألَمَّت به.

في إحدى زياراتي للشيخ عبد الله، أقام لنا مأدبة غداء عامرة بالمآكل اليمنية التي غالباً ما تُختَتَم بالموز والعسل الشهير. تمنّيت عليه أن أصوّره في جلسة «المقيل» حيث يصبح ورق «القات» سيّد الجلسة، ويسهم في إنعاش الحوارات والنقاشات التي تتناول كلّ شيء بحرّية لافتة. قال: «أنت عزيز علينا يا أخي سامي، وسوف أقبل لك ما لم أقبله لغيرك، فأهلاً بك في بيتك وبين أهلك». بالفعل، حصلت على لقطات نادرة للشيخ عبد الله في مجلسه (بعضها منشور في هذا الكتاب). قال لي عبارةً هزّت اليمن لأيّام طويلة في أوج الحملة الانتخابية للرئاسيات. فحينما سألته عن رأيه بالرئيس علي عبد الله صالح العازم على الترشّح للرئاسة من دون أن يعلنه آنذاك: «جنّي تعرفه ولا إنسي لا تعرفه». هذه العبارة أثارت حفيظة الرئيس، وجرى تواصل بين الرجلين، لكنّ الأكيد أنّها صارت على كلّ شفة ولسان. ففي عبارة قصيرة ككلّ العبارات الذكيّة للشيخ الذي كان يعاني من مشكلة بسيطة في النطق، اختصر زعيم قبائل حاشد ورئيس البرلمان دعمه لصالح وانتقاده له في آن واحد.

في ذاك الغداء الغنيّ بمآكله ونقاشاته مع الشيخ، تعلّمت الكثير عن اليمن والقبائل. حكى لي الشيخ عبد الله خذلان قبيلته من أنصارها، عبر التاريخ خلال الثورة. أخبرني كيف كان الإمام (قبل سقوط الإمامة وقيام الجمهورية) يحتفظ في قصره بأحد أبناء رئيس كلّ قبيلة، وحين يعيده إلى أهله يأخذ أخاه مكانه، وذلك كي لا تحصل انقلابات عليه. لكنّ الشاب المعتقَل عند الإمام كان يتعلم ويعيش في رفاهية تامّة كواحدٍ من أبناء الإمام، ويتوفّر له كلّ شيء يليق به وبمقام قبيلته، رغم جور الإمام الذي كان معزولاً عن كلّ شيء، ورغم دمويته حين يغضب.

الرواية عينها سمعتها لاحقاً من زعيم قبائل بَكيل، الشيخ سنان أبو اللحوم. كان شيخاً شديد الذكاء، طريف اللسان، قريباً للقلب. التقيتُه في القاهرة، وكان يستعدّ لنشر كتاب مذكّراته. علّمني هو الآخر الكثير عن اليمن، وحين جاء وقت الغداء، انتبهتُ إلى أنّه لا يأكل إلا الخضروات، فقلت له: «يا شيخ سنان، أنتم مشهورون في اليمن بأكل اللحوم والأسماك، فما بالك، أراك لا تأكل الآن سوى الخضروات؟». أجابني ضاحكاً: «يا بنيّ، أنا اسمي سنان وأبو اللحوم، لكن لا أسنان بقيَتْ لي، ولا أحب اللحوم». ثمّ قهقه فوق جسده النحيل، وتحت عينيه اللتين تُمطران ذكاءً ودهاءً. كانت قبيلة بَكيل، في تلك المرحلة، مبعَدةً تقريباً عن المراكز الكبيرة في الدولة، وعن المصالح الاقتصادية، خلافاً لحاشد، لكنّي أُعجبتُ كثيراً بذاك الوفاء الكبير الذي لا يزال الشيخ سنان يكنُّه للرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر.

الشيخ صاحب اللحية الحمراء

لم يكن ممكناً فهْمُ تعقيدات اليمن وتلك العلاقة الدقيقة والصعبة والمعقدة بين الإسلاميين (معتدلين ومتطرّفين) وبين القيادة اليمنية، بزعامة علي عبد الله صالح، من دون المرور بالشيخ عبد المجيد

الزنداني. قيل الكثير عن دور الشيخ وشبكته. من قبل أن ألتقيه، فهِمتُ ممّا قرأته عنه أنّ الأشرطة المسجّلة بصوته للدعوة الإسلامية تنتشر في الخليج كالنار في الهشيم. قرأتُ أيضاً أنّ أسامة بن لادن تأثر به، وكان قريباً منه. قيل لي إنّ مدارس «الإيمان» التي يُشرِف عليها الشيخ تُصدر مئات المتشدّدين. اتّهمته أميركا مراراً بأنّه أحد منظّري الإرهاب التكفيري في اليمن. لك أن تتخيّل عزيزي القارئ، بأيّ أفكار مسبقة ذهبتُ للقاء الرجل المديد القامة، والقويّ البنية، والذي ميَّزَته لحيتُه الحمراء الشهيرة، والمصبوغة على الدوام بالحنّاء.

القيادي في حزب الإصلاح الإسلامي اليمني الشيخ عبد المجيد الزنداني.

وصلتُ عند الشيخ عبد المجيد في يوم ماطر. عجبتُ لابتسامته العريضة التي استقبلتني. كنتُ أظنّه متجهّم الوجه، عبوساً كبعض الذين يتسلّحون بالدين، وهو منهم براء. على العكس تماماً، بدا لي الشيخ عبد المجيد قريباً للقلب، مرح الكلام، طيب اللقاء، مرحِّبا إلى أقصى حدّ. لعلّه كما بعض نظرائه أتقن لعبة الإغراء مع الضيف فأحسن إخفاء ما يُضمر، أو لعلّه فعلاً هكذا. تعرُّفت عنده إلى مشروب شتوي لذيذ الطعم كبير الفائدة، فيه شاي وقرفة وزنجبيل وحليب وعسل. شربناه مرّات عدّة بينما كان الشيخ يشرح لي ما جئتُ لكي أعرفه. لم يتهرّب من أيّ سؤال، ولم يتردّد في أيّ جواب. لكنّه أثناء الحديث قال: «إنّ الاشتراكيين الكفرة كانوا يريدون لليمن خراباً وتقسيماً، لذلك كانت الحرب ضرورية ضدّهم»، قلت له: «لكن يا شيخ عبد المجيد مع احترامي لك، لا يمكنك، وأنت بشرٌ، أن تعرف ما في قلوب الناس. لعلّ في قلوب الاشتراكيين إيماناً يفوق إيماني وإيمانَك». استغرب جوابي، قطّب حاجبيه، بدا كمن يستعد للانقضاض على فريسته. دافع بشدّة وشراسة، لكنّي عدتُ لأطرح عليه سؤالاً غير متوقَّع، وخارجاً عن إطار المألوف: «هل أحببت امرأة، في حياتك، يا شيخ عبد المجيد؟»، لا أدري لماذا امتقع وجهُه وتغيّرت قسماته، وبدا عليه كلّ ذلك الانزعاج. أجاب من دون أن يجيب. وحين جلسنا معاً، بعد اللقاء، كاد يلومني على سؤالي عن الحبّ؛ فقلت له: «إن الله دعا إلى الحبّ، ولولا الحبّ لما وصلنا إليه»، فابتسم واستعاد هدوءه وقال: «نعم. أنتَ مُحِقٌّ في ذلك يا بنيّ. لكنّ هذا ليس سؤالاً عامًّا يُطرَح أمام الناس». ابتسمتُ وقلتُ في سرّي، لعلّ أموراً كثيرة كان يجب أن تقال علانيةً وأمام الناس.

ولو أنّنا فعلنا ذلك، لكنّا وفّرنا على بلادنا الكثير.

ديمقراطية غريبة

في كلّ مرّة زرت فيها اليمن، كنت أشعر بأنّ ثمّة ديمقراطية لا يعلم إلّا الله وحده كيف تسير. نقاشات البرلمان، حرّية الجدل والنقاش والحوار في جلسات «المَقيل» حول القات، علاقة الأحزاب بالرئيس وحضور بعض قادتهم إلى «مَقيله». تمازج واختلاط كلّ مراتب المجتمع من الوزراء وكبار الضبّاط إلى الصحافيين وصغار الموظفين في تلك الجلسات التي تمتدّ من بُعَيد الظهر حتى الليل، وتكون مفتوحةً للنقاش في كلّ شيء، ومن دون تحفظاتٍ، ولا خوفٍ ولا وجَلٍ. جميع هذه الظواهر توحي فعلاً بأنّ سقف الحرّية رفيع، وأنّ ثمّة ديمقراطية عريقة في عادات المجتمع وتقاليده.

أذكر حرارة المجتمع وحوارات أهله حين زرت اليمن في عام 2003. كان كلّ شيء يشير إلى أنّ الشيخ عبد الله الأحمر عائد إلى رئاسة البرلمان. التقيتُ أولاده، حسين ومذحج وحميد؛ لفتني أنّ كلّاً منهم ينتمي إلى حزب. أحدهم في المؤتمر الشعبي العام التابع للرئيس، والثاني في حزب الإصلاح، والثالث قريب من الإخوان المسلمين. أمّا الرابع، فيهتمّ بشؤون القبيلة. وجميعهم لديهم شركات أو مصالح اقتصادية. فاز حسين بمقعد نيابي عن حزب المؤتمر، وفاز مذحج عن حزب الإصلاح.

للقبيلة في اليمن دور كبير. هي تحمي أفرادها وتضمن مصالحهم، لكنّها تُسهِم أيضاً في تحصين الدولة، إن كان مَن في الدولة ينتمي إليها. ثمّ إنّها تضبط شؤون المجتمع، لجهة وَأدِ الخلافات، والقيام بالمصالحات والوساطات، وإيجاد مخارج تجنّب الناس الثأر، حين يكون ذلك ممكناً. وتقوم بين القبائل الكبرى علاقات مصاهرة، على الرغم من التنافس في ما بينها. فبَكيل مثلاً، أكبر من حاشد، لكن المصاهرات كبيرة ومتعدّدة وتسهم في حلّ الكثير من مشاكل الدولة.

ها أنا عند الشيخ مجاهد أبو شوارب، أحد أبرز وجوه قبيلة بكيل، أراه يكثّف الاتصالات الهاتفية. تارةً يتحادث مع الرئيس علي عبد الله صالح، وتارةً أخرى يتصل بفروع قبيلته للمسارعة في حلّ مشكلة. يؤكّد لي أنّ تدخُّلَه قد «أسهَمَ أخيراً في وأد أكثر من عشرين مشكلة كانت ستؤدّي إلى سيل من الدماء».

صحيح أنّ المرأة اليمنية لا تزال مغبونةً في الكثير من الحقوق في المجتمع اليمني ذي العادات القبلية الصارمة، لكنّ المرأة التي ترتدي ثوباً هو أقرب إلى النقاب، وأسود اللون في معظم الاوقات، بدأت تحدث اختراقات لافتة، في عدد من الوزارات والوظائف الحكومية وإدارات الدولة. وحين صار الرجل يبتعد عن بيته ساعات طويلة لتخزين القات في جلسات المقيل، وجد أنّ زوجته صارت هي الأخرى تنظم لصديقاتها جلسات مماثلة، فساوى المقيل ووريقات القات ما بين الرجل والمرأة من دون جهد كبير. كيف لا تتساوى المرأة اليمنية مع الرجل وهي سليلة ملكاتٍ (وهل ننسى بلقيس؟) حكَمْنَ البلاد حين كانت الفتيات في مجتمعات كثيرة تتعرّض للوأد؟

تزامنت زيارتي لليمن هذه المرة، مع وجود زميلة وصديقة عزيزة هي السيدة خديجة السلامي. كانت ملحقة ثقافية في السفارة اليمنية بباريس لكنّها برعت أيضاً في مجال السينما والأفلام الوثائقية، فأخرجت مجموعة من الأفلام عن اليمن حققت نجاحاً لافتاً في الغرب. تتمتّع خديجة بذكاء حادّ لا يوازيه سوى محبّتها للناس وسعيها لرفع الظلم عن النساء والفقراء والمحرومين في اليمن. كانت متزوِّجة برجل أميركي يفوقُها طولاً بنحو نصف متر، لكنّه كان ذا صفات إنسانية نادرة. كنّا نذهب معاً إلى غابات باريس نشاهد الطيور، أو نتعلّم منه حبَّ الطبيعة. كان إذا زار أحدَنا في منزله، ورأى حنفيةَ الماء مفتوحةً، سارع إلى إغلاقها بلطف، قائلاً: «نحن نهدر الماء هنا، بينما في دول أخرى يموت الناس عطشاً. يجب أن نتضامن في هذا الكون كي نحقق الانسجام وننشر العدالة». ربطت خديجة وزوجها علاقة حبّ، وهو كان قد خُطف في اليمن، لكن بحسب عادات الخطف في البلد العريق، فإنّ المخطوف يلقى معاملةً كريمة، فيتمتّع بأفضل ما عند القبائل من وسائل الراحة وكرم الضيافة. يُخطَف

لكي يكون رهينةً يضغط بها خاطفوه على الدولة لتحسين ظروف حياتهم أو فتح طريقٍ أو إيصال المياه أو الكهرباء وغيرها. كان ذلك يحدونا إلى التندّر على هذا الأمر، كأن نقول، مثلاً: «ليت اليمنيّين يخطفوننا لنستمتع بأيّام هانئة». كان هذا قبل أن يتحوّل الخطف إلى سلاحٍ دمويّ، على يد الإرهابيين ورجال تنظيم القاعدة الذين وجدوا اليمن ساحةً مريحةً لهم.

جلستْ خديجة أثناء وجودي في اليمن، على رأس طاولة الغداء التي تضمّ إلى جانبيها مشايخ قبيلتي بكيل وحاشد. لاحظت أنّ الجميع يحترمونها ويخدمونها، فيما نساء المشايخ، ومعهنّ الشابّات، يتناولن الغداء في الغرفة المجاورة. للانفتاح حدود لا تزال بحاجة إلى سنوات طويلة قبل أن تتدرج في عادات المجتمع. لكنّي حين كنت أبحث في اللوائح الانتخابية في صنعاء، وجدت أنّ مرشحة المؤتمر الشعبي قد فازت في عدن، وأنّ الرئيس اليمني اتّصل شخصياً بمرشحة في منطقة أخرى يشجّعها على المضيّ قُدُماً في إثبات وجودها.

الديمقراطية في اليمن تسير، لكنّ الله وحده يعرف كيف. لذلك تتبدّل التحالفات، ويعود أعداء الأمس حلفاء اليوم. كان إسلاميو الإصلاح ومتشدّدوه، وفي مقدّمهم الشيخ عبد المجيد الزنداني، حتى فترة قريبة، يتّهمون الحزب الاشتراكي بالكفر والزندقة. خرج أحدهم ليغتال أحد أبرز وجوه الاشتراكي جار الله عمر. اغتيل هذا المثقف والموسوعي والمناضل العريق، على المنبر، وهو يلقي خطاباً. ما كان أحدٌ منّا يزور اليمن من دون أن يعرّج على جار الله عمر لزيارته. ما كان صحافي أو دبلوماسي عربي أو أجنبي ينجح في معرفة تفاصيل اللعبة الداخلية لليمن، من دون الاستماع إلى الرجل القصير القامة، الطويل الباع في العمل السياسي، والصريح إلى حدّ الخلاف مع الجميع، والدمِث إلى حدّ اللقاء مع الجميع. ها هو الإصلاح المتّهم بقتل جار الله وعدوّه الاشتراكي متحالفان اليوم، في إطار لقاء المعارضة الذي يضمّهما وأربعة أحزاب أخرى.

صالح جنّيّ السياسة

كلّ الحركة السياسية اليمنية كانت مِطواعةً في يد الرئيس علي عبد الله صالح. نجح الرجل في تقديم نفسه كصانع للوحدة. وازن بين القبائل كي يبقى مسيطراً عليها. لم يكن غريباً أن نجد برفقته إلى رحلته الأميركية قائد المعارضة الناصرية عبد الملك مخلافي (صار وزيراً للخارجية في الحرب ضد صالح). لم يكن غريباً أيضاً، أن نجد في مَقيل الرئيس عدداً كبيراً من المعارضين الذين كان يحترم قليلهم ويحتقر أو يرشو كثيرهم.

عبد الملك المخلافي، وزير خارجية اليمن.

زرتُ اليمن مرّة أخرى في عام 2005. كان صالح قد أعلن عزوفه عن الترشّح لولاية جديدة. لم تمضِ أشهر قليلة حتى عاد عن قراره كما كان مُتوقَّعاً. تلك كانت ولا تزال طريقته في الإحجام والإِقدام. آنذاك قال لي الشيخ عبد الله الأحمر تلك العبارة التي ذكرتها أعلاه: «جنّي تعرفه ولا إنسي ما تعرفه».

هكذا استمرّ التحالف بين الزعيم القبلي والرئيس المترعرع أصلاً في قرية آل الأحمر، وواصل صالح رئاسته التي استمرّت نحو أربعين عاماً. كانت السعودية آنذاك قد نسجت خيوطاً متينة مع الشيخ عبد الله والرئيس، وكان الأمير سلطان هو الراعي وأحد أبرز مموّلي زعيم القبيلة.

كنت أشاهد مئات آلاف اليمنيين ينزلون إلى شوارع صنعاء، وأفكّر بأن الشيخ عبد الله كان على حق. لا أحد غير علي عبد الله صالح يعرف كيف يقوم من تحت الرماد. لا أحد غيره يدرك كيف ينسج تحالفات عصيّة على المنطق، فيضع الخصوم دائماً في موقع حرج. خصمه الأول هذه المرّة هو السعودية التي وصفها في آخر خطاب له بـ«الشقيقة الكبرى».

اليمن بلد يصعب حُكمه، على الرغم من طيبة أهله وأصالتهم وعراقة حضارتهم. هو مبنيّ على نظام قبلي له قوانينه وأعرافه. لم تكن القبيلة دائماً في المكان الصحيح. قبيلة حاشد نفسها، كما ذكرتُ أعلاه، خذلتْ آل الأحمر، حين لم تقف إلى جانب العائلة، وبعدما أُعدم الإمام أحمد (حاكم اليمن آنذاك) والد الشيخ عبد الله وشقيقه. لكنّ القبائل تعرف متى تناصر ومتى تعادي. هنا تختلط المبادئ بالتقاليد بالمصالح المادّية. علي عبد الله صالح يدرك تماماً ذلك ويعرف كيف يوظفه.

الفقر يعضّ على ثمانين في المئة من أبناء اليمن. البطالة ترمي ثلثي الشباب في أتون الضياع أو الحرب. الأمّية في اليمن من أعلى نسب الأمّية في العالم. وريقات «القات» الشهيرة كادت تقضي على كلّ نشاط اجتماعي أو اقتصادي أو ترفيهي آخر. وكأنّ كلّ هذا لا يكفي، حتى جاءت الحرب و«عواصف» الجيران والصراع السعودي – الإيراني لتراكم دماراً فوق دمار.

لم يكن مفاجئاً لمن كان يزور اليمن قبل سنوات، أن يرى علي عبد الله صالح ذا الأصول الفقيرة، واليتيم الأب، والضابط الذي اخترق كلّ القواعد التقليدية في الوصول إلى السلطة، جالساً في «مَقيله» ونصف قادة البلاد إلى جانبيه، مؤيّدين ومعارضين، يخزّنون «القات» ويتضاحكون. عرف الرجل كيف يلعب على التناقضات. احترف توظيف المال لشراء معارضين وإعلاميين. لم يكن يتردّد في إجلاس معارض إلى جانب الباب في جلسة المقيل على مسافة قصيرة جداً من مكان الأحذية. كان يدفع الرشوة ثمّ يهين من يشاء بدهاء.

اعتمد صالح على غريزته السياسية وحنكة أبناء القبائل. راح يؤيّد أميركا في قراراتها ضدّ متَّهَمين بالإرهاب في بلاده، ثمّ يحمي المتّهمين (الشيخ عبد المجيد الزنداني خير مثال). تارة يعتمد على الاشتراكيين لصياغة الوحدة معهم، ثمّ يقاتلهم مع الإسلاميين، وتارةً أخرى يؤلّب المعارضة ضدّ الإسلاميين، فيحتكر الحكم أو يكاد. تحالف مع ألدّ خصومه الحوثيّين بعد ستّ حروب ضدّهم في صعدة، ليضع الجميع أمام واحدة من أحجيات السياسة ودهائها في هذا الوطن العربي الجريح.

كاد خصمه الإخواني الشيخ حميد الأحمر، ابن الشيخ عبد الله، يقتله حين قصفه في القصر الرئاسي. لكنّه قام من تحت القصف. داوى حروق الجسد والوجه واليدين. ضمّد الجراح واستعاد زمام السياسة. يعرف كيف يتراجع ومتى يتقدّم. أوحى بالتراجع حين تنازل عن الحكم وسط بدعة رياح الربيع العربي، وبعدما فاقَمَ الفسادُ من نقمة اليمنيين ضدّ السلطة وأثريائها الجدد (صالح نفسه يتربّع على ثروة هائلة). قبِل المبادرة الخليجية، شجّع الحوار مع السعودية، لكنّه على الأرض راح يقاتلها، ويقوّي دعائم تحالفه مع الحوثيّين (على الرغم من إدراك الطرفين أنّ الثقة الكاملة غير موجودة بينهما). قاتل السعودية بصلابة نادرة. ثمّ ها هو يمدّ لها اليد طالباً التفاوض. يقول إنّ إيران لم تساعده، ويطالبها بترك اليمن وشأنه، ثمّ تحت الطاولة يطلب المساعدة أو يلعب الورقة الإيرانية. مرّة أخرى ينقلب علي عبد الله صالح على كلّ شيء ويستعيد زمام المبادرة. لكن إلى متى؟ لا أحد يعرف سوى الله، ففي اليمن أمورٌ لا يدركها إلّا اليمنيون والله. لكنّ الأكيد أنّ هذا البلد ذا الشعب الطيّب المفعَم بالعنفوان والكرامة يستحقّ أفضل ممّا هو فيه وما تعرّض له. إنّه بلدٌ سبّاق في الحضارة والتاريخ والعراقة. وفي اليمن، إن صمت البشر، نطق الحجر، ورشح العمران عراقةً وتاريخاً وحضارة.

لم يمض شهران على كتابتي هذا النصّ عن اليمن، حتى جاءني خبر مقتل الرئيس علي عبد الله صالح. تمنّيت لو أنّي لم أعرفه يوماً. غالباً ما أحزن على من يرحل أو يُقتل، ويتغلّب قلبي على عقلي، فلا أبحث عن أسباب الغياب وإنّما يسكنني جرح الغياب. ليس مهمًّا من هو على حق، أنصار الله، أم صالح، ليس ضروريًّا أن أعرف من خان ومن صان، الأهمّ أنّي حزنت عليه، كما حزنت وسأحزن على كلّ شخص عرفته في حياتي ومات أو قد يموت. قلبي أقوى من عقلي في حالات كهذه.

صنعاء الباحثة عن سعادة ضاعت

توحي المدينة القديمة بأنّها خارجة لتوّها من التاريخ. كلّ شيء فيها غارق في عراقته: ملابس أهلها. شكل السوق فيها. الناس الغادون والعائدون كخليّة نمل. الصياح المتعالي فيها تماماً كالغبار المتناثر صعوداً من تحت الأقدام الحافية أو النعال المهترئة. صخب السوق وبعض المعارك وأصوات الصبية. تتعدّد في السوق القديمة الأحاديث وتتشعّب المناقشات كلما ازداد غرقُ البلاد في مجهول الصراعات الكثيرة المتحكمة بها حالياً. هذا تاجر يؤيّد أنصار الله الحوثيين، وذاك يوحي من حديثه ولحيته ولباسه بأنّه أقرب إلى السلفيين. تتنافر الإيديولوجيات وتتقاتل المشاريع، فتقلق البيوت العتيقة.

هي صنعاء التي تعود منازلها إلى القرن الخامس عشر. يرتفع بعضها طوابق عدّة، زيّنتها أيادٍ في غابر العصور، حين كان اليمن يتمايز عن غيره ببراعة البناء وكيفية تطويع الحجر والطوب. تتعدّد أشكال القناطر في هذه الهندسة الدقيقة. يختلط الأبيض بالبنّي في ألوان الجدران. تزيِّنها ألوان مزركشة على زجاج النوافذ والطاقات. وقرب الأبواب الخشبية المنقوشة بحُبّ، يتدلّى حبل لقرع الجرس. توحي عراقة المكان بأنّه لم يكن في هذه البلاد العربية الإسلامية العريقة، مكانٌ لبيوت الشَّعر المعروفة تاريخياً في المحيط.

أسير في الأزقة القديمة بين البيوت العريقة. تغزو أنفي روائح البخور والبهارات في الأسواق الشعبية. كأنّها تذكِّرني بما كانت عليه حالنا زمنَ الأسواق القديمة. يرحّب بي بائعٌ متربِّع على أرض دكّانه المرتفع أصلاً عن الطريق. تظهر أسنانه الصفراء خلف الضحكة الطيّبة. يسوِّي الكوفية فوق رأسه، ويدعوني لشراب بعض القشر (قشر حبوب البن الشهير في اليمن). تتناثر بعض الرفوف الخشبية القديمة في دكّانه. على الرفوف كلّ أنواع العسل اليمني وبعض أكياس الهيل.

القيادي الإشتراكي جار الله عمر.

حال البائع ذي اللحية القصيرة التي يتنافس عليها اللونان الأبيض والأسود وكثير من الغبار، كحال

كلّ اليمنيّين صغاراً وكباراً في السوق: ثياب تقليدية. جنبية (الخنجر اليمني) تتوسّط الجلباب والجسد، مؤكّدة مقولة «السلاح زينة الرجال». القوانين القبلية التقليدية تمنع اليمني من سحب خنجره أو استلال سيفه، لأنّه إن فعل فعليه أن يقتل، وإلّا اعتُبِر جباناً؛ وإن قتل، فعليه أن يتحمّل الثأر، في أسوأ الأحوال، أو الدِّية، في أفضلها، إذا سامحت عائلة القتيل. يختصر الزيّ اليمني قروناً من الحضارات والممالك التي تعاقبت على البلاد. هذا ثوب عاديّ وذاك مزخرف وثالث مزيّن بالنقش والحلِيّ.

لم يتغيّر التاريخ كثيراً هنا، ما تغيّر هو نوع الصراع واسمه ووجهه. تغيّرت صفة «السعادة» التي كانت تلازم اليمن، حتى قيل: «اليمن السعيد». ثمّة من يقول إنّ هذه الصفة أطلقها الإسكندر، بعد فشله في غزو البلاد. آخرون يؤكّدون أنّ اليمن هو مهد الحضارات والممالك القديمة. أعجب اليمنُ الرومانَ فسمَّوه «العربية السعيدة». آخرون ينقلون عن رحّالة غربيين وصفهم جمال البلاد بالقول: «إنّها حقاً أرض السعادة والهناء».

يبدو أنّ السعادة استقرّت فقط في التاريخ ولم تصل إلى الحاضر. لا شيء اليوم يُسعد اليمني سوى تلك الآفة اللعينة المعروفة باسم «القات». هي نوع من وريقات الشجر يمضغها اليمني من منتصف النهار حتى آخر الليل. يدفع ثمنها من قوت يومه حتى لو حرَمَ منه أولادَه. تدور حولها المناقشات والحوارات في جلسات تُسمّى «المقيل» وتمتدّ لساعات طويلة. باتت تلك النبتة غير المعروفة بمفاعيلها الجانبية، بمثابة العشيقة التي يخفت حبّ اليمني لكلّ شيء إلّا لها، فعشقها مستقرٌّ مهما تبدلت العصور وتعدّدت الأزمات.

صنعاء اليوم كئيبة في نظر البعض، وواعدة بمستقبل باهر في نظر البعض الآخر. تختلف التوصيفات تبعاً للقرب أو الابتعاد من الحوثيين الذين باتوا الرقم الصعب في يمن اليوم. هم أسياد القرار في صنعاء، لكنّ القلق يكبر أكثر فأكثر من أن تغرق البلاد بالدماء إن استمرّت عمليّات الثأر منهم على أيدي تيّارات سلفية أو تكفيرية أو إخوانية أو قبلية.

يأخذ هذا القلق بُعداً إقليمياً أشدّ صعوبةً حين تذهب التحليلات إلى ربط الداخل اليمني بالصراع السعودي-الإيراني من جهةٍ أولى، وبالصراع الدولي مع الإرهاب من جهة ثانية. فمِن اليمن ذهب الداعية محمّد عبد الوهّاب ينشر المذهب الوهّابي في السعودية، ومن اليمن أصل عائلة بن لادن، وفي اليمن أخطر فروع القاعدة. ماذا تريد أميركا؟ هل تؤيّد الحوثيين بالرغم من رفعهم شعارات تنادي بموتِها؟ هل تؤيّدهم لقتالهم الإرهاب؟ هل تنتظر وقوعهم في فخاخ الداخل والخارج لتسهّل عودتها بقوّة؟ ماذا تريد السعودية؟ هل فرحت بأنّ أنصار الله قاتلوا الإخوان المسلمين في جوارها، على الرغم من قلقها الكبير من الحوثيّين؟ هل تنتظر لحظة ضعفهم للانقضاض وشنّ حرب ضروس عليهم؟ ماذا تريد إيران؟ هل تعتبر الحوثيين جزءاً من استراتيجيتها الأوسع، ومن تنافسها مع السعودية؟ الأسئلة كثيرة والجواب واحد: اليمن قلق وعلى شفير المجهول. اليمن مقبِلٌ حتماً على حربٍ لا يعرف غير الله كيف ستنتهي في تضاريس جغرافية معقدة، ووسط شعب لا يعرف الذلّ والهوان، حتى لو دفع حياته ثمناً لبقاء مَن بَعدَه.

أتذكّر الآن ما كانت عليه حال صنعاء القديمة، قبل سنوات، حين كان السيّاح يغزون شوارعها الضيّقة وأزقتها الزاخرة بالباعة والمنافسة والحيوية والمناقشات.

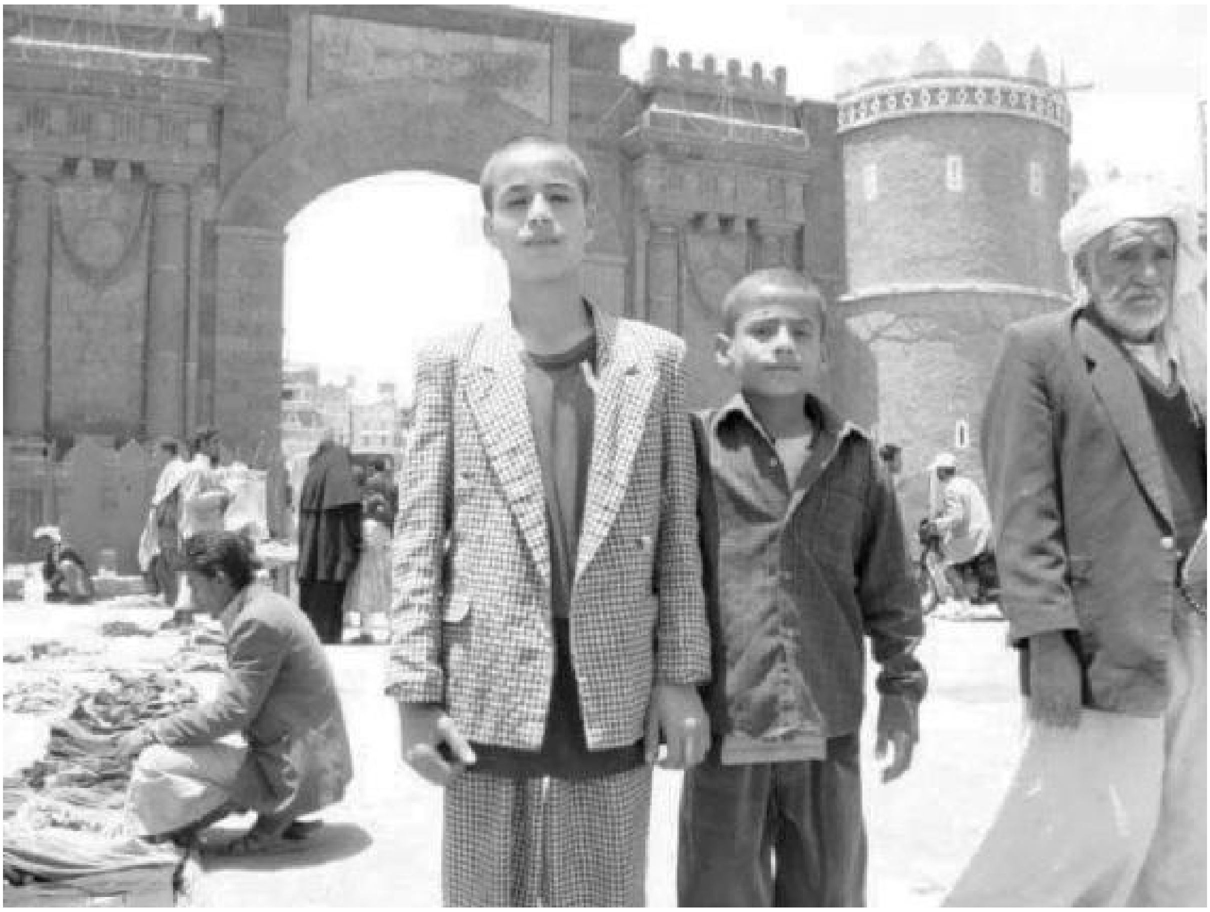

أطفال من صنعاء.

أتذكّر ماهر ومبارك اللذين كانا يترصّدان السيّاح. لا يقولان في البداية شيئاً، فقط يسيران قرب السائح، يبتسمان له، ثمّ يتطفّلان بالسؤال عمّا يريد. ولأنّ السائح يشكّ غالباً في أنّ السؤال سيُفضي إلى مطالب أخرى، فإنّه يفضّل عدم الإجابة؛ لكنّ ماهر ومبارك يتابعان السير إلى جانبه أو خلفه أو أمامه. يتحادثان في ما بينهما. إن دخل السائح محلّاً وقفا إلى جانبه يراقبان معه ما قد يشتري. هما ليسا من النوع المزعج. لا يطلبان شيئاً. لا يقولان شيئاً. يكتفيان بالابتسام. يوحيان بأنّ أقصى ما يريدانه هو السير إلى جانب السائح. ثمّة ما يثير فضول السائح فعلاً. يريد أن يعرف ماذا يريدان، فلا بدّ إذاً من سؤالهما عمّا يريدان، فيسارع ماهر إلى الإجابة: «لا شيء»، ويساعده مبارك ذو العين الصحيحة الواحدة: «لكنّنا نستطيع أن نرشدك إلى محلّ أرخص وبضاعة أفضل». نسمع من خلْفِنا أصواتَ صِبْية آخرين ينادونه: «يا أعور». لكنّه لا يبالي، ربّما لكثرة ما تكسّرت النصال على النصال.

كان ذلك في ربيع عام 2003. كان اليمن سعيداً بانتخاباته. سألت مبارك من يحبّ من الأحزاب. سارع إلى القول «الإصلاح» (التجمّع اليمني للإصلاح) الإسلامي الاتّجاه. ردّ ماهر مع ضحكته الخبيثة: «إنّه محتال فهو يحب الذي يطعمه. والله أمس أكل عند المؤتمر الشعبي، وقال لهم إنّه يحبّهم، واليوم يفعل الشيء نفسه عند الإصلاح». يضحك الاثنان. أضحك معهما. أسالهما عن الدراسة، يقهقه مبارك ويسحب من جيبه صحيفة 26 سبتمبر الحكومية. عدد يعود إلى 13 نيسان، يقول أنا أُحسِن القراءة أفضل من ماهر. يقرأ خبراً عن الإرهاب في اليمن، من دون أيّ خطأ لغوي.

يتقن ماهر ومبارك العربية والإنكليزية وبعض الفرنسية والإيطالية. تعلّما كلّ هذه اللغات هنا في هذا السوق الصنعاني. يوحيان بذكاء حادّ. وجهاهما مجبولان بطيبة لافتة. يبدوان جميلين بالرغم من بشاعة تسريحة شَعرِهما. يمضيان النهار بالجري خلف السيّاح لكسب قوت عائلتيهما.

في اليمن آلاف الصِّبْية يجرون في الشوارع بحثاً عن لقمة العيش، على الرغم من الجوار الخليجي المتخم بالغنى. الدول الغربية التي تشجّع الديمقراطية لم تفعل أكثر من التفرّج على ماهر ومبارك يغرقان في فقرهما. باتت نسبة الفقر في يمن ما بعد «الربيع العربي» أكثر من 75 في المئة. نصال الفقر تتكسّر على نصال الاقتتال والأمّية والقلق.

سألَنا ماهر ومبارك بصوت واحد، ونحن نغادر صنعاء القديمة: «متى ستعودون إلى هنا». يزيحان بعض الوسخ عن وجنتيهما ويقبّلان كل الوفد الصحافي. ثمّ يقبضان على بعض ما جنَيا، ونسمع قهقهتهما، و«يا أعور».

عُدتُ إلى صنعاء، أبحث عن ماهر ومبارك. ربّما صارا اليوم في العشرين من عمريهما. ربّما يقاتلان في صفوف أنصار الله. ربّما في صفوف خصومهم. ربّما قتلتهما الحرب أو الفقر أو المرض.

ما زلت بعد اثني عشر عاماً على لقائي بماهر ومبارك، أسمع قهقهاتهما، وربّما اليوم أكثر من الأمس. لعلّهما كانا ينتظران من ربيع اليمن أن يحمل إليهما بعض خبز وكسوة ومنزل وكرامة. ربّما

قتلهما الربيع العربي. ربّما قتلهما من قتل الربيع، أو ربّما كلّ الربيع كان مجرّد كذبة.

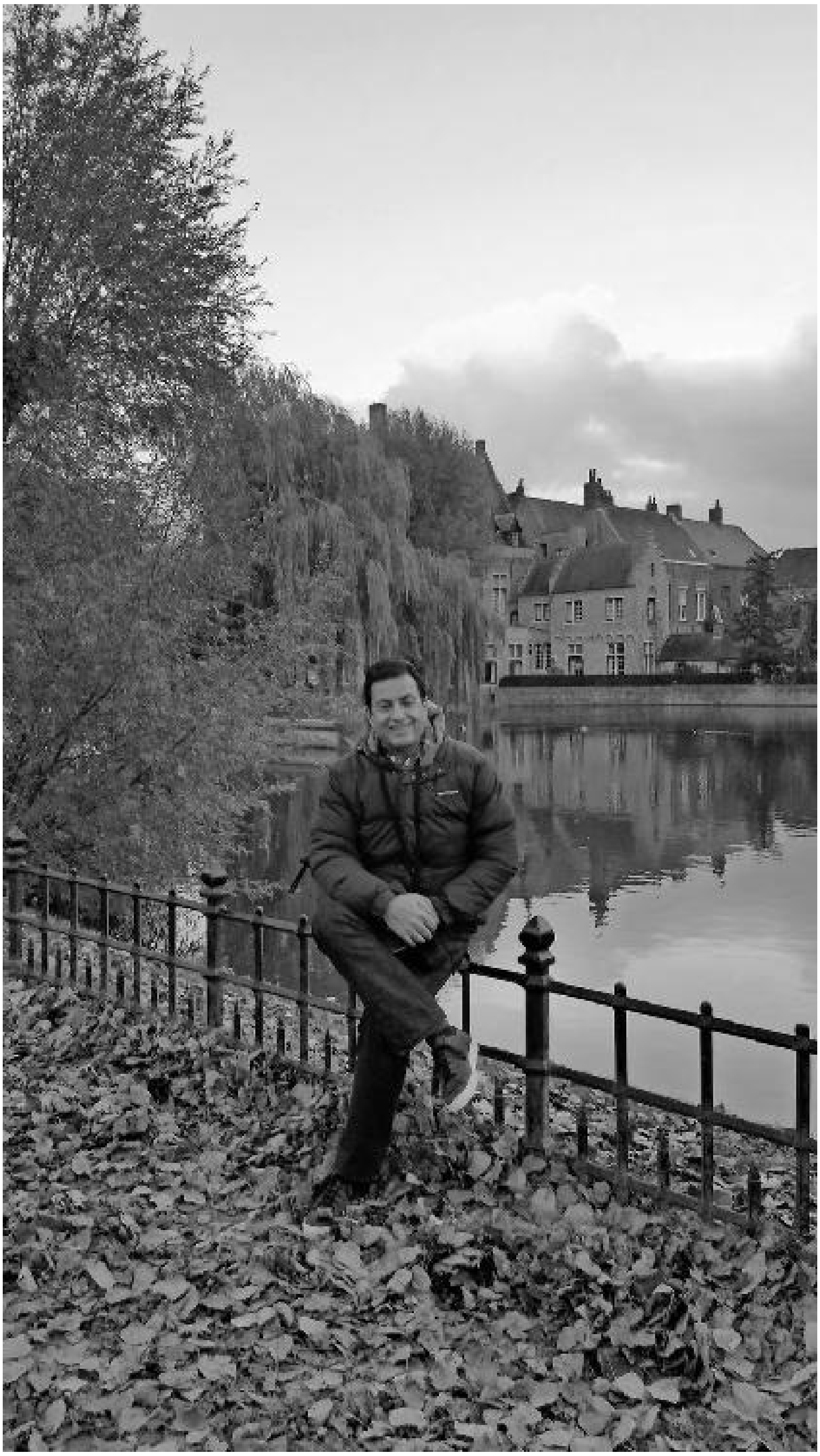

ثمّة ما يستحق الحياة....
لكن في النورماندي وبْروج

فوق النهر وعند ضفافه، طائرُ نورس، يُلاعب الهواء تارةً، فيفرد جناحيه كأنّه يتنشّق ملء رئتيه، ويهوي سريعاً صوب الماء تارة أخرى، ليلتقط غذاءه، أو لينظّف ريشه.

يبدو النورس في المدى الرحب كراقصٍ راغبٍ بإغراء الجالسين عند النهر أو السائرين على ضفته. يتراقص صعوداً شاقًّا عِنان السماء، ثمّ يَنحدر هبوطاً. يكرّر لعبته المثيرة بين فترة وأخرى، تماماً كما تكرّر فرق الباليه العروض كلّ ليلة، لعلّه يُسلّي الجالسين هناك، أو يتسلّى بهم. يتضاحك العشّاق الشباب عند حافة النهر. يتابعون عروض النورس وخفْقَ جناحيه، كأنّهم يسرقون منه متعة الطيران. يتبادلون القبلَ كأنّها تتويج لسعادة عابرة. أو لعلّ في الطيران أمامهم المتعة الأكثر تعبيراً عن حرّية لا تعرف حدوداً.

بيدٍ تبرز عروقها بوضوح، وقد نقش عليها الزمنُ بُقعَ العمر، يُمسك عجوزٌ يدَ زوجته الأنيقة. يأخذ بيده الأخرى حبيبات قمح وكسرات خبز من كيس بلاستيكي في حضنه، ويرميها للنورس. يُسرع الطائر صوب القمح والخبز، يتبعه بعض الحمام. يختلط هديل الحمام بأصوات النورس. تعبِّر الطبيعة عن انسجام الكون. أفكر بـ«الحمام المحشي» في القاهرة. أضحك. يبتسم لي العجوز وزوجته-حبيبته، أعرف سرّ الابتسام، لكنّهما لا يعرفان سبب ضحكي. هنا يُطعمون الحمام، وهناك نأكله. لا بأس، ففي مصر يزداد عدد السكّان كلّ سنة بين مليون ومليوني نسمة. هناك المجتمعات هرمة.

قرب النهر مقاعد خشبية عتيقة، نقش الزمن عليها دهراً من الخطوط المتعرِّجة كما حفر تجاعيد وجه العجوز وحبيبته. بين خطوط المقاعد نبَتَ عشبٌ قصير القامة، وبين تجاعيد وجه العجوزين زُرعت أسرارُ حياةٍ وقصصٌ كثيرة. في تلك القصص حبٌّ وعمل ورحلات وخلافات وضحك وحزن وعشق وصراخ وكفاح وتعب، لم يبقَ من كلّ ذلك سوى خطوطٍ محفورةٍ على وجه الحبيبين كما النقش على المقعد الخشبي.

هي الحياة هكذا... جيلٌ يتأمّل طائر النورس، يتبادل القبلات، حالماً بالتحليق مثله وهو مقبل على الحياة، وجيل يُطعم النورس، ويتبادل الذكريات، حالماً ببعض فرح وهو يودّع الحياة.

مقابل المقعد الخشبي، بيوت عتيقة، زادها العمر ألَقاً. تتمدّد تحت قرميدها ألواحُ خشبية وحجارةٌ متقنةُ النحت تجعلها تحفةً لساكنيها. تتثاءب حجارتها في هذا اليوم البارد ثمّ تغفو عند حافة النهر.

تحلِّق طيور النورس فوق البيوت. تعتلي القرميد كملوك على عروشها. لعلّ ملوكاً مرّوا من هنا سكنوا هذي البيوت، لعلّه فيها رُسمت خرائط التاريخ والجغرافيا، لعلّ في النهر عبيداً زُجَّ بهم في البواخر لبيعهم عبر التاريخ، بعيداً عن جغرافيتهم، في أسواق النخاسة الغربية.

التاريخ يطوي التاريخ، والملوك يصبحون أثراً بعد عين، لا يبقى منهم سوى بعض تماثيل قائمة هنا قرب النهر، تُجاورُها تماثيل كبار الأدباء والمثقفين والثوّار والجنود، في بلاد تُجِلُّ الأدباء والمناضلين بقدر ما تحترم الملوك... وربّما أكثر.

هنا الحرف ينثر على الناس نوراً، هناك الحرف يطفئ النور في عيون كاتبه. أُفكّر بتماثيل بلادنا، لا تحتفظ من التاريخ إلّا بمجد من قمع شعوبها، تكاد تحمل آثار القمع حتى على يد من أبدع نحتها في بلاد أصبح فيها الإبداع جريمة والبِدْعُ موضِع تكريم ومثاراً للمَكرُمات.

يصل القطار. يقطع عليَّ احتفالية طيور النورس وتلك المناظر الخلّابة. أهبُّ مسرعاً صوبه. أفسح في المجال لعجوز آخر يساعد زوجته على الركوب. أساعدهما في حمل الحقيبة الثقيلة. تبتسم السيدة الأنيقة، يتأفّف زوجها، يقول: «تصوَّر يا سيّدي كم تبعد هذه الدرجة عن حافة القطار، قد تُعرِّضنا للسقوط، هذا ليس موجوداً في سويسرا وألمانيا. يجب إعادة النظر بالقطارات». أبتسم. أكاد أقول له: «آه يا سيدي لو تعرف كم في بلادنا ما يعرِّضنا للسقوط والقهر كلّ يوم! وكم من الأمور والناس يجب إعادة النظر بهم». أصمتُ لأنّه قد لا يفهم ماذا أقول. أتمنّى لهما يوماً سعيداً، وأرتمي على مقعدي الوثير في القطار النظيف الأنيق. أفكّر بالنورس ومسرحية تشيخوف. أضحك حين أتذكّر أنّ النورس لا يسمع أيّ صوت وهو نائم، أضحك أكثر حين أتذكر أنّه لا يخاف من شيء سوى من زوجته. لعلّ تأفّف هذا العجوز مرتبطٌ بخوفه من زوجته... هه.

يَعبُر القطارُ بين الحقول الخضراء رغم بعض الصقيع. تبدو الحقول كأنما قيست بدقة صائغ الذهب. تتوزّع فوق الأرض على نحو هندسي رائع. تنتشر الأشجار حول الحقول كأنّما تحنو عليها أو تحميها من ريح أو مطر. تُطوِّقها بأغصانها كأمٍّ حنون. تخترق قلبي لحظةُ حزن على أمّي. أتمنّى لو أنّها معي في هذه الرحلة. لعلّها في مكان أكثر رحمة من عالمنا. أتمنّى ذلك.

يتصاعد من قرميد البيوت دخان يوحي بهناء ساكنيها في هذا الشتاء. يعلو الدخان صوب السماء المرصّعة بغيوم دكناء أو رمادية أو بيضاء. يُطلّ شعاعُ شمس بخجل شديد، كأنّه يُدرك أنّه يأتي في غير وقته ومكانه. ينسحب بخفر. يختبئ خلف غيمة. يُحلّق النورس بين الدخان والسماء.

في القطار سيّدة متوسّطة العمر تقرأ رواية. يتغيّر شكلُ وجهها وابتسامة ثغرها بين صفحة وأخرى، وكأنّها تتفاعل مع كلّ حرف وشعور. تغفو قربها شابّة جميلة، لعلّها ابنتُها، تسند رأسها إلى زجاج القطار. ينساب شعرها الأشقر فيخفي بعض حبيبات المطر. تُسند بيدٍ رأسها، وتُمسك بيدها الأخرى كتاباً. ما أغربَ هذا الخوف على الكتاب!

ثمّة هناءٌ في هذا اليوم الطويل والجميل، جعلني أفكّر بأنّ ثمّة ما يستحق الحياة، على الرغم من كلّ هذا الدمار والدم والدموع في بلادنا. فهنا، في النورماندي، كانت في منتصف القرن الماضي أشلاء القتلى والدمار، وهنا نزل الأميركيون إلى شواطئ الأطلسي يسْهمون في إنقاذ فرنسا من جنون هتلر في الحرب العالمية. شكرت الله على صنيعه، لعنتُ البشر على ما فعلوا بصنيعه.

بْروج حوريّة البحر والتاريخ

ها هي مدينة «Bruges» البلجيكية تُرسل أشجارها الخضراء وجسورها العتيقة، لتستقبلنا عند حافة النهر. كنتُ قد اتفقت على اللقاء فيها مع مجموعة من الأصدقاء بينهم الكاتب العربي فيصل جلول الذي جال هو الآخر في دول كثيرة من هذا العالم، واستقرّ في فرنسا، حيث وضعنا معاً مجموعة من الكتب حول دولنا العربية. نتشابه هو وأنا في أنّنا تركنا لبنان قرفاً من الحرب التي أدّت إلى تناحر الرفاق، لا إلى تقاتل الخصوم فقط. نتشابه كذلك في أنّنا حرصنا طوال عمرينا على نقل شؤون وشجون دول عربية كثيرة كنّا نزورها في أوج أزماتها وحروبها، وفي مقدَّمِها اليمن. نتشابه خصوصاً في حبّنا لاكتشاف المدن الجميلة والتعرّف إلى الشعوب. كان فيصل ينتظرني هنا في بروج البلجيكية هذه المرّة، مع زوجته الكاتبة والمثقفة والمهضومة على طيبة نايلة ناصر وبعض الأصدقاء. كانت نايلة محترفة تصوير، لم تترك لحظة خلال رحلتنا تلك، إلّا انحنت قليلاً أو رفعت رأسها أو رمَتْ جسدَها على الأرض، تلتقط أدقَّ تفاصيل الجمال. كانت أشجار بروج ترشح علينا أوراقَ خريفها وبعضَ رذاذ المطر، فعُدنا قروناً من الزمن إلى الوراء، كأنّنا نسير في مدن العصور الغابرة.

كلّ شيء في هذه المدينة البلجيكية يبعث التاريخ ويروي عراقة وحضارة إنسانيتين وهندسة معمارية من طراز رفيع، فينطق الحجر لو عزّ على الإنسان وصفٌ: البيوت من حجارة الطوب الأحمر. القناطر دقيقة الهندسة. واجهاتُ الكنائس القديمة مزخرفةٌ بحِرفية استثنائية. الأسواق تتخلّلها دروب معبّدة بالأحجار التي نَعُمَتْ لكثرة السير عليها. النهر المنسابُ رقراقاً بين الأشجار المتدلِّية غصونها حتى الماء. مراكب السيّاح والعشاق تعبر النهر تحت أشعّة الشمس الدافئة وتبقى في النهر حتى تلاقي ليلاً ضوء القمر. الأحصنة تجرُّ عربات قديمة تعيد السيّاح إلى غابر التاريخ.

بروج اخترعها ممرّ بحري فأدهشتْ وسَحَرَتْ

كنت أسيرُ مع أصدقاء الرحلة بين كلّ هذا الجمال، ونخزِّن بكاميراتنا صوراً من التاريخ للحاضر والمستقبل. لا حاجة لكثير من الجهد في التقاط الصور. اللوحات الطبيعية تنتشر من كلّ جانب. يكفي أن أوجّه العدسة صوب أيّ شيء حتى أرى في شاشة الكاميرا لوحةً تجمع بيوتاً قديمة كالقصور، وأشجاراً وارفة متعدّدة الأشكال والأحجام والألوان، وطيوراً مختلفة الأنواع من النورس والبط والإوَزّ في الماء وحوله، إلى الحمام الطائر فوق الماء والبيوت والشجر يضفي على المكان سحر العشق وروعة الخالق.

يقول التاريخ في رواية تشبه الأسطورة، إنّ مدينة بروج الساحرة وُلِدَت بالمصادفة. حصل ذلك بين القرنين التاسع والعاشر. تمخّض البحر مدًّا وجزراً، ففتح معبراً مائياً ربط اليابسة بالبحر. طوّر الناس هنا تلك النعمة الطبيعية إلى معابر من الأنهار والقنوات المائية، فانتعشت الحركة الاقتصادية والمالية، وصارت المدينة جسراً يصل بحرَيْ الشمال والبلطيق بالبحر الأبيض المتوسّط. اتّسعت شهرة بروج عبر كلّ أوروبا. قصدتها قوافل التجّار وبواخر ومراكب الطامحين إلى الغنى. صار مرفأها مقصداً لكلّ طالب ثروةٍ ومال. قامت فيها أول بورصة غربية. تحوّلت بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر إلى أهم سوق اقتصادي ومالي في أوروبا، ولأنّ المال يجلب عند أصحاب العقول النيّرة الجمال والثقافة، ازدانت المدينة ببرجها الشهير وكنائسها القديمة ومنازلها الحجرية الحمراء والبيضاء والصفراء والبنّية. اشتهرت كذلك بمطحنتها الفريدة العتيقة التي لا تزال تعمل حتى اليوم. أقيمت الجسور. شُيِّدت ساحات باسم الحب. عبرت في مياهها بواخر التجّار ومراكب السيّاح. انتشر عند أطرافها وبين أزقتها وساحاتها الجميلة مجموعة من النحّاتين والرسّامين الذين كان لهم تأثير كبير على حركة الرسم والإبداع في الكثير من المدن الأوروبية.

كلّ هذا الجمال الذي بُنِيَ على مصادفة بحرية، تضاءل وتراجع ابتداءً من أواخر القرن الخامس عشر حين عاد الرمل يهاجم الممرّ البحري، ويغلِقه تماماً. لكنّ عبقرية مؤسّسي المدينة استبدلت البحر بمرفأ كبير أقامته على بُعدِ نحو نصف ساعة بالسيّارة عن المدينة، فاكتسبَتْ بروج وهجاً جديداً في القرنين التاسع عشر والعشرين. ها هي اليوم قد أصبحت واحدة من أهم مدن الجذب السياحي في أوروبا بتنويعاتها الهندسية التي جعلتها تسمّى «فينيسيا الشمال الأوروبي». أمّا أنا، فأعتقد أنّها أكثر أهمَّية وجمالاً من فينيسيا (البندقية) لأنّها أوسع ومتعدّدة النشاطات والأحياء والشوارع، ولأنّها تحاذي الماء، وترتبط بالمعابر البرّية، في آن واحد. منذ القرن الماضي أدرجت بروج على لائحة مدن التراث العالمي المحميّة من قبل الأونيسكو وغيرها.

كنّا، رفاق رحلتي وأنا، نتمتّع بكلّ هذا الجمال وبعراقة التاريخ وأناقة الجغرافيا. نتحادث حول طبق شهيّ من الأصداف والثمار البحرية، ونطرح سؤالاً وحيداً يحمل كلّ خذلان المواطن العربي: «لماذا عرفت الحضارات الأخرى كيف تحافظ على تراثها وجمالها وتاريخها وتُطَوِّرُه، بينما نحن قتلنا التراث، ووأدنا الحضارة، وحوّلنا مدنَنا من بيوت الحجارة والقرميد إلى بنايات عشوائية تقتل الجمال؟». هل تنقصنا العبقرية أم الأخلاق؟ ألا يستحق الحياة عندنا شيءٌ حتى نقتل كلّ ما يتعلق بجمال الحياة؟

لا داعي للجواب، تعرفونه أكثر منّي.

نائب الرئيس السوداني د. غازي صلاح الدين.

وزير الخارجية السوداني مصطفى عثمان اسماعيل.

في رحاب السودان

الـ«لا» تعني «نعم» والبقرة أنقذت حديثنا

لم يكن السودان في أحسن أحواله حين زرته منتصف تسعينيات القرن الماضي. كانت صورة الرئيس حسن البشير مخيفة في الغرب، وسمعة الدكتور حسن الترابي مقلقة. ربّما لذلك اختارتني الإذاعة الفرنسية لمهمّة الخرطوم. ذهبت إليها مسكوناً بالقلق، وعُدتُ منها مُترَعاً بالمحبّة والفرح.

كانت خطوط الطيران مفقودة بين باريس والسودان. قصدتُ القاهرة ومنها إلى الخرطوم. كانت الرحلة مرهقة، والحرارة مرتفعةً وشهر رمضان في منتصفه. حاولتُ أن أنام قليلاً بين العاصمتين الجارتين. ما كدت أستسلم لغفوة عميقة، حتى شعرت بشيء يهطل عليّ من العلبة فوقي المخصّصة أصلاً للحقائب الصغيرة. فتحتُ عينيَّ فسقطت منها ريشة دجاجة. أزحتها سريعاً، فسقطت أخرى. نظرت حولي فوجدت ريشاً متساقطاً على مقعدي وتحت قدميّ. سألت المضيفَ المصري عن السبب، فضحك واعتذر وقال: «ما تقلقش يا باشا، ممكن أخونا السوداني واخد معاه فرخة أو حمام». نقَلني إلى مقعد آخر. لم أناقش الممنوع والمسموح معه، لأنّي تعلمت في رحلات كهذه أن أرضى بكلّ شيء، حتى لو كان الراكب في العلبة فوقي فرخ حمام.

حاولت الاستسلام للنوم مجدَّدا بالرغم من قصر الرحلة بين القاهرة والخرطوم. عاجلني جاري بسؤال بلهجته السورية: «هل أنت ذاهب للسياحة أم للعمل؟»، نظرتُ إليه بشيء من الاستغراب الممزوج ببسمة مصطنعة، وقلت: «وهل ثمّة من يذهب للسياحة هذه الأيّام إلى السودان». أجاب: «معك حق ولكنّي أودّ فقط أن أنصحك ببعض الأمور إن كانت هذه زيارتك الأولى». لم أرتَحْ له، لكنّي تركته يُكمِل حديثه، بعدما منعني من إكمال غفوتي الضرورية. قال: «أقترح عليك مثلاً، أن نتجاور في السكن في الفندق، إن كنت ستنزل في الهيلتون، لأنّه الوحيد الصالح للسكن». استغربتُ اقتراحه أيضاً، وذهبت ظنوني إلى حدّ التشكيك في مسلكِه الشخصي. لعلّه قرأ ما جال في ظنّي، فضحك وأردف قائلاً: «والله ستعرف حين نصل أنّي على حق، ففي الفندق قد لا تجد غيري وغيرك، وإن كنّا جارين فربّما مضى الوقت سريعاً».

أسئلة كثيرة في المطار قبل ختم الدخول. يوحي معظمها بأنّك أمام محقق وبأنّه يشكّ في كلّ ما تقول. يسأل عن سبب الزيارة، وعن المال الذي تحمله، وعمّا إن كانت لديك كاميرا أو ممنوعات، إلخ... لا يعترف بالسفارة السودانية في باريس، ولا بتصريح وزارة الخارجية. هو وحده يقرّر. الحمد لله أنّه قرّر تركي أدخل إلى السودان. لم يبتسم ولم يجامل. بقي كلوح خشب. قلت في نفسي: «إن كان المكتوب يُقرأ فعلاً من عنوانه، فإنّ أيّامي هنا ستكون بالغة الصعوبة».

لفتني ونحن نصل إلى الفندق بُعَيدَ غياب الشمس، أنّ شابّات وشبّانا كانوا يفترشون الرمال عند الضفّة اليسرى للنيل الأزرق، يتسامرون، ويتناولون طعام الإفطار. رأيت بجانب بعضهم آلة العود التي أحبُّ. إلى جانب بعضهم الآخر، شاشة تلفزيون صغيرة مثبّتة على الرمال ومربوطة بسلك كهربائي يصلها إلى بطارية السيّارة المتوقفة عند حافة الطريق. لا شك إذاً في أنّ ما يُقال في الغرب عن التشدّد والأصولية في السودان هو من قبيل الدعاية الهادفة لاحقاً إلى فصل جنوبه، والهادفة حالياً إلى ضرب مشروع الجبهة الإسلامية بقيادة الثنائي البشير والترابي.

إنّها سهرات «الونس» الشهيرة في السودان. الكلمة بحدّ ذاتها توحي بالفرح فكيف إن كانت في هذا المكان الجميل عند ضفّة النهر العظيم.

ما إن رميت حقائبي في الفندق، حتى نزلت أسير بين الناس قرب النهر. أردت ان أعيش السودان

بكلِّ تفاصيله، وأن أباشرَ التفاصيلَ من الدقائق الأولى. عند النهر شربت عصير المانغا والكركدي والقهوة، وشاركت بعض الشبّان سهرتهم. شعرت منذ اللحظات الأولى بأنّي في بيئة هانئة ومسالمة ومرحّبة ومضيافة.

في صباح اليوم التالي، نزلت إلى بهو الفندق الكبير وشبه الفارغ. خرجتُ إلى الساحة أمامه أبحث عن سيّارة تنقلني إلى وزارة الخارجية. كان السائقون مستلقين بجلابيبهم البيضاء على ظهورهم، القدم اليمنى معقودةٌ فوق اليسرى، واليدان مشبوكتان تحت الرأس. إنّه شهر رمضان، والحرارة مرتفعة، والسوداني ميّال بطبعه إلى التعامل مع الوقت كأنّه لا وجود له. سألتُ السائق الأول: «هلّا توصلني لو سمحت إلى وزارة الخارجية»، أجابني بصوت من فمه يشبه الكلمة ولكنّه ليس بكلمة: «تيييك»، يُرجع اللسان قليلاً إلى الخلف، ويصدر ذاك الصوت من جوف فمه إلى اليمين. هذا الصوت يعني في مشرقنا «لا». شكرته فسارع إلى القول: «دجِداً». لم أفهم. سألت السائق الثاني، فأصدر الصوتَ نفسَه. شكرته أيضاً، فقال: «دجِداً». لم أفهم. تكرّر الأمر مع كلّ السائقين فكانت الإجابة ذاتها. قلت في نفسي: «لا بدّ من أنّهم لا يحبّون العمل في الشهر الفضيل»، لكنّ الوزير ينتظرني، ماذا عساي أفعل؟ وقفت بينهم وقلت: «أرجوكم، هل يستطيع أحدكم إيصالي إلى الوزارة»، هبّ الجميع للنجدة. استغربتُ الأمرَ، وركبت مع أحدهم قاصدين وزير الخارجية. كنت طيلة الطريق أمسك باب السيّارة بيدي خشية وقوعه. ترجّلْتُ من السيّارة، ولم يكن معي إلّا ورقة المئة دولار. أعطيتها للسائق، فاعتذر لأنّه لا يملك نقوداً كافية ليعيدَ إليّ الباقي، فقلت له: «لا بأس يا أخي خذها، وأراك في الفندق». سارع للإجابة بكثير من اعتزاز السوداني بكرامته وطيبته: «يا أخي، لا حاجة لأن تدفع لي، أنت ضيفنا». ابتعد باسماً وهو يقول: «نلتقي لاحقاً في الفندق، أتمنّى لك التوفيق». تعلّمت في العالم أن أقيس طباع الناس من خلال سائقيهم. لا شكّ في أنّ طباع أهل السودان تنحو إذاً صوب الكرامة والكرم وعزة النفس.

كان وزير الخارجية آنذاك اسمه علي سحلول (رحمه الله). استقبلني بالترحيب وابتسامة عريضة. صافحته بحرارة، ثمّ سحب يده ونقر بها على كتفي. هكذا يصافح السودانيون. سألته خلال الحديث معه: «ألا يوجد يا معالي الوزير حلّ لمشكلة مثلث حلايب بينكم وبين مصر؟». نظر إليّ وأصدر الصوت نفسه الذي سمعته عند السائق، شيء يشبه «تيييك» يصدر من قعر الجهة اليمنى للفم. قلت مستغرباً: «كيف لا، يا معالي الوزير. أنتم بلدان جاران». قال مستغرباً أكثر: «لم أقل لك لا، أقول نعم». ضحكتُ طويلاً، ورويتُ له ما حصل لي أمام الفندق، وتابعتُ: «لو أنّي عرفت أنّ هذا الصوت يعني نعم، لما تأخّرت عليك ربع ساعة». قهقه عالياً وقال: «لست وحدك من يرتكب هذا الخطأ، أهلاً بك في السودان، بلدك الثاني».

كي لا تتكرّر أخطائي اللغوية مع سائقي التاكسي، استأجرتُ سيّارة مع سائقها. كان جنوبياً من قبائل الدينكا. يقارب طوله المترين، ويزيد وزنه عن 120 كيلوغراماً. بشرته سوداء لمّاعة، ولا يوازي ضخامة جسده سوى صوته الجهوري. ظلّ في اليومين الأولين يكتفي بإصدار الأصوات ردًّا على أسئلتنا أنا والمخرج الذي يرافقني. أسأله مثلاً «هل لا يزال الطريق طويلاً؟»، يكتفي بالقول «مممممممممم»، مع تحريك للرأس، فأفهم أنّها متوسّطة الطول. هل تريد أن تشرب قهوة معنا، أم تفضّل الكركدي؟ (وهو مشروب يشبه الشاي، لونه أحمر ولعلّه أكثر المشروبات رواجاً عند السودانيين)، فيُجيب أيضاً بصوت «مممممممممم» فأفهم أن لا فرق عنده.

كنّا محمّد وأنا نضحك في السيّارة كلما أصدر سائقنا واحداً من تلك الأصوات. أمّا هو، فكأنّه لم يسمع شيئاً.

في يومه الثالث فقط، نطق. كنّا نسير في أحد الشوارع الفرعية فرأينا شابّة سودانية فارعة الطول، لعلها هي الأخرى تقارب المترين. لعلّها مثله، من قبائل الدينكا الشهيرة بطولها. قال محمّد: «انظر ما أطول هذه الآنسة» وافقته لكنّي أردفت: «أتعلم أنّ طول شقيقتي 181 سنتمتراً». في تلك اللحظة بالضبط، نظر السائق الضخم إلى الخلف، وقال لي: «تساوي بقرتين». سألته مستغرباً: «نعم؟ لم

أسمع». كرّر العبارة «تساوي بقرتين». شرح لي لاحقاً بكثير من صعوبة استنطاقه، أنّه في قبيلته، كلما زادت المرأة سنتمتراً بعد المتر والثمانين، يزيد مهرها للزواج بقرة. ضحكنا طويلاً، محمّد وأنا، فضحك معنا بصوته الجهوري الرخيم.

معارض مسيحي أقلقني ثمّ صادقته

رجعت ليلاً بعد نهاري الطويل في الخرطوم. دخلتُ إلى الفندق، وتوجّهت مباشرة إلى البار الذي يقع على يمين البهو. كان خلف الطاولة شابّ في مقتبل العمر، بشرته سوداء لمّاعة، متوسّط القامة، نحيل القدّ، عيناه حمراوان يلمع فيهما بؤبؤان أسودان. رحّب بي وسألني ماذا أريد أن أشرب. قلت «أيّ عصير طبيعي عندك»، قال: «دعني إذاً أحضّر لك عصيراً من الموز والحليب وأشياء أخرى ستحبّها لأنّك في الصباح شربتَ المانغا». عجبت لدقة ملاحظته، وتمتّعت جداً بما قدَّم لي. شكرته وهمَمْتُ بالمغادرة بعدما دفعت الحساب. استوقفني وقال بصوت خفيض، وهو يصطنع النظر إلى مكان آخر: «ابقَ قليلاً لو سمحت، أريد أن أخبرك بأمرٍ مهمّ»، ثمّ اقترب أكثر وقال: «أعرف أنّك صحافي، وأنّك تعمل في إذاعة فرنسية، وأنا أستمع إليكَ دائماً، هل تريد أن تلتقي بالمعارضة السودانية هنا في الخرطوم؟». لم يَرُقْني سؤاله في بداية الأمر. أنا جديد على السودان، وأحمل عنه معلومات تفيد بالتشدّد حيال المعارضين وبسجنهم. تعلّمت من تجاربي وخبرتي الصحافية ألّا أثيرَ شبهة السلطات أول قدومي، وألّا ألتقي بالمعارضة في أيّ بلد إلّا بعد أن أنهي لقاءاتي الرسمية، كي لا أقطع الطريق على نفسي، أو أتعرّض للطرد.

ظننت أنّ الرجل من المخابرات السودانية المعروفة بقوّتها، وأنّه يحاول معرفة ما جئت لأجله. قلت له: «في الواقع، أنا هنا لإجراء مقابلة مع الرئيس البشير وبعض التحقيقات في الشارع، لست بحاجة حالياً للمعارضة». سارع إلى القول: «أعتقد أنّك حذر منّي وتظنّ أنّي من المخابرات، أنا يا أخي سامي من المعارضة المسيحية الجنوبية. أريد إسماع صوتنا للخارج، وأريدك أن تلتقي ببعض المسؤولين». سألته: «ألا تخشى أن تُعتَقَل؟» أجاب: «لا، لست قلقاً، هذا واجبي حيال شعبي وقضيّتنا». صدّقته رغم استمرار بعض الشك. واتفقنا على كيفية اللقاء سرًّا.

في صباح اليوم التالي، نفذت ما طلب منّي، بعدما أخبرتُ أحد زملائي بأنّي ذاهب في مهمّة وإذا اختفيت، فعليه أن يبلّغ الإذاعة أو السفارة. استقللت سيّارة تاكسي حتى الجسر الفاصل بين الخرطوم وأم درمان. نزلت منها وسرت مشياً على الأقدام مسافة مئة متر. توقفت إلى جانبي سيّارة تاكسي أخرى، كان الشابّ المعارض بداخلها إلى جانب السائق. صعدت معهما من دون أن نتحادث حتى ابتعدنا لمسافة تقارب خمسمئة متر. نظر الشاب إلى الخلف يشكرني على ثقتي به، وعلى تجشّمي عناءَ المغامرة، وشرح لي إلى أين نحن ذاهبون الآن، وبمن سنلتقي.

بعد نحو نصف ساعة، وصلنا إلى منزل متواضع. طرق مرافقي المعارض الباب ثلاث مرّات، ثمّ توقف، ثمّ طرق مرّتين. فتح الباب رجل ضخم الجثة، مديد القامة، أقلقني... جثته لا توحي بأنّه على علاقة بالثقافة أو المعارضة. هذا ما جال في خاطري. لا أدري لماذا ربطت ضخامة الجثة بقلة الثقافة، مع أنّ الكثير من المثقفين في العالم ضخام الجثة. قلقتُ قليلاً، لكن ازداد تعلّقي بتلك المغامرة. أليس هذا عنصراً مهمًّا وتشويقياً في عالم الصحافة الاستقصائية؟

فتح لنا الضخم الجثة باب غرفة واسعة، يتحلق فيها ما لا يقلّ عن خمسة عشر شخصاً. ليس بينهم أيّ خلاسي أو أبيض أو حتى أسمر. كلهم من ذوي اللون الأسود الأدكن. تعرّفت إليهم. قالوا لي أسماءهم الحقيقية وبينهم مسؤولون سابقون في الدولة. شرحوا لي كلّ تفاصيل أوضاعهم. انتقدوا التضييق عليهم. تمنَّوا أن أوصل مطالبهم إلى الخارج. شكروا لي خطوتي هذه قائلين إنّ كثيرين قبلي لم يُقدموا على مثل هذه الخطوة، خوفاً من السلطة. سألتهم: «هل أنتم واثقون من رغبتكم بأن أبثّ أصواتكم كما

هي عبر الإذاعة، أم تريدون أن نضيف إليها أقنعة صوتية وتشويشاً؟». طلبوا جميعاً أن تُبَثّ كما هي، من دون أيّ تغيير أو تعديل. قدّرت عالياً صراحتهم وشجاعتهم.

سجّلت كلّ المقابلات. أخفيتها في مكان سرّي في حقيبتي. ثمّ ذهبت بعد يومين للقاء الرئيس البشير. كان لقاءً غنيًّا يحمل الكثير من الشروح والمعلومات. وكان البشير ودوداً إلى أقصى حدّ، بدا لي شجاعاً وصريحاً ونابضاً بالعروبة والإسلام المعتدل. أدركتُ كم هي خطيرةٌ آلة الإعلام في عصرنا. تستطيع أن تشوّه صورةَ من تشاء، وأن تجمّل من تريد.

بعد اللقاء وجدتُ مجموعة من الزملاء الصحافيين عند باب القصر الرئاسي. تقدّموا صوبي، وسألوني عمّا دار بيني وبين الرئيس. قلت ضاحكاً: «ما بالكم يا إخوان، أنا صحافي مثلكم، جئت أُجري مقابلة معه ولست سياسياً أو دبلوماسياً حتى أُدلي بتصريح». قالوا: «لا بأس، ولكن أخبرنا على الأقلّ عمّا سألته؟». أخبرتهم، لأفاجأ بخبَرٍ ورد ضمن عناوين نشرة الأخبار في التاسعة ليلاً، على شاشة التلفزة السودانية الرسمية، يقول إنّ «سيادة الرئيس الفريق الأخ عمر حسن البشير استقبل وفداً من الإعلام الفرنسي برئاسة الزميل سامي كليب». لم يكن في الوفد أحد غيري. ضحكتُ، ولكنّي قدّرت محبّة الزملاء من جهة وحاجتهم إلى خبر من جهة ثانية في بلد كان شبه مهجور آنذاك سياسياً ومنبوذاً إعلامياً. خرجت في اليوم التالي إلى شوارع الخرطوم لأجد نفسي قد أصبحت نجماً بفضل تلك المقابلة.

د. حسن الترابي.

أمضيت أسبوعاً رائعاً في السودان، أُناقش مثقفيه البارزين، وأتعرّف إلى أهله المحبّين المتعلقين بالقضايا العربية. زرت العلّامة الإسلامي المنفتح والمثير لجدل كبير، الدكتور حسن الترابي. كان آنذاك ناقماً على السلطة وعلى البشير، يطالب بتغيير النظام الذي كان هو نفسه أحد أعمدة تأسيسه ويرى أنّ البشير خان الأمانة.

بعد تلك الرحلة التي علمتني الكثير سياسياً وإنسانياً واجتماعياً عن السودان الشاسع المسافة والمتعدّد القبائل واللهجات والأعراق والأديان، ذهبت إلى المطار حيث كانت مقابلتي مع البشير قد مهّدت لي

كلّ الطرق وفتحت صالون الشرف. استلقيت قليلاَ، أحاول إغماض عينيّ بانتظار الطائرة. لم تكد تمضي 15 دقيقة، حتى أحسست بيد ضخمة تربّت كتفي. صحوتُ مذعوراً. فكرت بأنّهم لا شك عثروا على المعارضين واعتقلوهم وقد وشوا بي. لم يكن الأمر كذلك أبداً. كان ضابط الجمارك يريد أن يعيد إليَّ قلماً ذهبياً كنت قد نسيته عند الجمارك. شكرته بحرارة، ولم أستطع النوم حتى وصلت إلى القاهرة. بعد ذلك بأيّام، بُثّ كلام المعارضين. لكن، حرصاً منّي على الموضوعية، وعلى حبّي للسودان وأهله، وضعت كلام المعارضة وكلام السلطة في برنامج واحد، بحيث يتسنّى للمستمع معرفة كلّ وجهات النظر. لم أشأ مطلقاً أن أخدع بلداً عربياً أفريقياً أحببته منذ لقائي الأول به، وقرّرت مساعدته إن استطعت على المستوى الإعلامي، ثمّ زرته مراراً، وفي كلّ مرّة كانت خلايا محبّته تزداد في قلبي.

هكذا تسبّبنا باعتقال مؤسِّس الإخوان المسلمين

في سياق بحثي عن شخصيات أثّرت في تاريخنا العربي الحديث، ذهبتُ مرَّة إلى السودان أرصد تاريخ الإخوان المسلمين فيه. كنت آنذاك أقدّم برنامج «زيارة خاصة» على قناة «الجزيرة»، وكان للقناة القَطرية سمعة ممتازة بين السودانيين. طبيعي إذاً أن تُفتح لنا الأبواب واسعةً، وأن نصول ونجول كما لو أنّنا في بيتنا. هكذا ظننت. وهكذا تصرّفت. لكنّ الواقع كان غير ذلك تماماً وأفضى بفريق العمل إلى السجن.

مؤسس الإخوان المسلمين في السودان الشيخ صادق.

يعتقد كثيرون أنّ الدكتور الإسلامي الكاريزمي حسن الترابي هو سيّد الحركة الإسلامية السودانية ماضياً وحاضراً. أنا أيضاً كنت على اقتناع بذلك. فالرجل يحتلّ المنابر، ينظّر، يحلّل، يُجري عشرات المقابلات باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية، يجتذب الإعلاميين والساسة، يجادل، يُثير صخَباً عارماً عبْرَ فتاويه التي يخرج بعضها عن النمط المتزمّت لنهج المُفْتين، ويوحي بأنّه هو الذي جاء بالفريق عمر حسن البشير إلى الرئاسة. أو يوحي، في أفضل الأحوال، بأنّ اتفاقه مع المؤسّسة العسكرية هو الذي أدّى إلى تسلّم الحكم. مع ذلك، فإنّ الدكتور الترابي الشديد الذكاء والواسع المعارف، والذي التقيته مراراً في الخرطوم وكنت أفرح للقياه، وأتعلم منه الكثير، في ما يتعلق بالسودان وبالحركة الإسلامية في الوطن العربي، دأب على القول إنّه لم يكن من الإخوان المسلمين.

من هو إذاً زعيم الإخوان ومؤسِّس جماعتهم؟ هذا هو السؤال الذي دفعني إلى التعمّق في تاريخ الحركة الإسلامية السودانية، والذهاب في رحلة البحث عن المؤسِّس إلى هناك.

كان صديقي ورفيق رحلاتي المصري محمّد سليمان يتولى وظائف عدّة في رحلاتنا. يُخرج الحلقة،

يؤمّن فريق المصوّرين والتقنيين، يرتّب شؤون الإقامة، ويجري الاتصالات مع الضيوف. لا يبقى لي سوى القراءة وإعداد الحلقة وإجراء المقابلات التي كانت تدخل إلى عمق حياة الشخصيات بغية استخراج أجمل ما في مخزون حياتها. إضافة إلى كلّ وظائفه هذه، كان محمّد طريفاً، يتمتّع كما الكثير من المصريين بروح النكتة وسرعة البديهة. وكان رجلاً مخلصاً يمكن الاعتماد عليه في أصعب الظروف والدول، فعشنا معاً الكثير من المغامرات في مهنة المتاعب، التي غالباً ما كنّا ننجح في تحويلها إلى مهنة متعة السفر والعمل والاكتشافات، على الرغم من الصعوبات العديدة التي تعترضنا. مشكلته الوحيدة أنّه كان يخاف الطائرات، ونحن مضطرّون للسفر أسبوعياً، فوقعنا في مشاكل كثيرة وحوادث طريفة، بسبب هذا الخوف، قد نأتي على ذكر بعضها لاحقاً؛ ذلك أنّه كان يضطرّ، بدون أيّ تفكير، وبصورة لاشعورية، إلى الإمساك بيد أيّ شخص إلى جانبه في الطائرة بمجرّد أن تُقلع باتّجاه السماء، ولا يهمّ إن كان هذا الشخص جاره أو رجلاً أو سيدة، أو أن تكون المرأة عجوزاً أو صبيّة، سافرة أو محجّبة. المهمّ أنّي أحببت صحبة محمّد حبًّا كبيراً، وكنت لا أسافر من دونه. أصبحت صديق عائلته، كما هو صديق عائلتي. حملت ابنته على يدي، منذ طفولتها، وزرته مراراً في منزله الواقع في أحد الأحياء الشعبية الجميلة في القاهرة، حيث كنّا نتحادث ونخطط ونضحك لساعات طويلة.

وصلنا في ساعة متأخرة إلى الخرطوم. كان محمّد قريباً إلى القلب، وسرعان ما يبعث الابتسامة أو الضحكة عند موظفي الجمارك. لا تنفع معه كلّ تحذيراتي بأن يبقى أكثر جدّية. لكن في حقيقة الأمر، فإنّ قربه من الناس ساعدنا كثيراً في التخلص من مشاكل جمّة اعترضتنا في المطارات والدول. حين وصلنا إلى المطار، كان في استقبالنا شابّان سودانيان لطيفان، قرّرا أن يعملا في الإنتاج التلفزيوني، رغم ضيق الحال وندرة الأموال. أحدهما بوهيمي يرتدي قميصاً شبه ممزق، لكنّه يحبّ ذلك، ولا يأبه لما يقوله الناس. وكان يميل إلى الصوفية، أو لعلّه كان يصطنعها. والثاني موظف في التلفزة السودانية، يصِرّ على تقديم نفسه كرجل أعمال، ويريد أن يقدّم لنا أفضل الخدمات التقنية والتصويرية أثناء المهمّة. تصادقنا معهما وصارا جزءاً من حياتنا في الخرطوم. كانت بساطتهما وطيبتهما، كما هي حال الكثير من السودانيين، طريقهما إلى القلب، ففكّرت بأن أسهّل لهما مهمّتهما معنا، لأنّ فيها نجاحاً معنوياً ومادًّيا قد يفتح الطريق لهما مستقبلاً.

بعد أن رمينا أمتعتنا في الغرف، نزلنا مع صديقينا السودانيين، نسير على شاطئ النيل الأزرق، نشرب الشاي، ونتمتع بسهرات «الونس» حيث السودانيون والسودانيات كباراً وشباباً ومراهقين، يفترشون الأرض يتحادثون أو يرافقون أحد المغنّين أو العازفين. هنا الإسلام لم يمنع الناس من الفرح أو الاختلاط، رغم كلّ الصورة السلبية التي حاول الإعلام الغربي ترويجها عن البشير والترابي والنظام.

لم يكد نور الصباح يضيء غرفتي حاملاً انعكاس الشمس على نهر النيل، حتى ركبنا السيّارة التي استأجرها محمّد، وذهبنا نبحث عن مؤسّس جماعة الإخوان المسلمين في السودان. قيل لنا إنّه يقطن في أحد الأحياء الشعبية الفقيرة في ضواحي الخرطوم. اسمه الشيخ صادق عبد الله عبد الماجد، وربّما شارف على الثمانين حولاً. بحثنا كثيراً حتى أضنانا البحث. كلما دخلنا إحدى الحارات، بناءً على إرشادات أحد السودانيين، ازددنا ضياعاً، وكلما ولجنا زاروباً أو طريقاً متعرًّجا، فقدنا الأثر. يشبه السودانيون المصريين في هذا الشأن شبهاً كبيراً، فهُم قلّما يرشدونك إلى المكان الصحيح، لكنّهم يخجلون من أن لا يرشدوك، يومئون بأياديهم إلى أماكن متناقضة فيضيع نصف نهارك وأنت تبحث.

كان محمد يُلقي النكات علينا كلما اكتشفنا أنّنا ضللنا الطريق. توقفنا إلى جانب أحد المنازل. ترجّل من السيّارة وقد أعياه التعب، سحب سيجارته من جيبه، اتكأ على مقدّمة السيّارة، وقبل أن يشعلها نظر إلى مجموعة رجال متقدّمين بالعمر يجلسون أمام حانوت، حيّاهم بالسلام عليهم، واقترب منهم، وقال: «أنا اسمي محمّد، أعمل مع الأستاذ سامي في قناة الجزيرة»، رحّبوا به وبنا، ثمّ عرَّفوه إلى أنفسهم، الأول اسمه عمر، والثاني عثمان، والثالث عثمان، والرابع أبو بكر. ضحك محمّد، نظر إلينا، وصاح أمام

الجميع: «الحمدلله يا سادة، ها نحن وصلنا إلى بيت المؤمنين، ها نحن بين الصحابة». قهقه الجميع، فنزلنا وشربنا الشاي معهم.

جميعهم يعرفون الشيخ صادق. تناوبوا في الحديث عن حميد صفاته وكبير تواضعه وعميق إيمانه. أرشدونا إلى زاروب فقير تسير فيه الدجاجات أو تهرول بحثاً عن الأكل، أو هرباً من الديك. لا شيء يوحي بأنّ في هذا المكان رجلاً كان في أصل تأسيس جماعة الإخوان. لكنّه كان هناك، كان واقفاً مَحنِيَّ الظهر، فقير اللباس، بشوش الوجه، رافعاً يديه مرحِّبا بنا...

خلافاً لبساطة عيشه وحياته الهادئة في فترة وصولنا إلى السودان، فإن للشيخ صادق قصّة زاخرة بالأحداث والمعتقلات والكفاح، قبل أن يصبح المراقب العام لجماعة الاخوان، وبعدما شغَلَ هذا الموقع. كلّ الفلاحين هنا يعرفونه، خلافاً لحاله على مستوى الوطن العربي. تاريخه حافل، لكنّ تواضعه ربّما هو الذي حجب شهرته. أدّى أدواراً كثيراً بقيت خلف الأضواء منذ تعرّف إلى جماعة الإخوان المسلمين في مصر. هو الذي نقل بعض تجاربها إلى السودان، وأعجب أيّما إعجاب بمؤسِّس الجماعة الشيخ حسن البنّا.

كافح الشيخ صادق في بيئة سودانية تقليدية، منقسمة بين زعامتين وولاءين وطائفتين كبيرتين: الأنصار والختمية. الأولى تتزعمها تاريخياً عائلة المهدي، والثانية عائلة الميرغني. كان من الصعب اختراق تقاليد الولاء تلك إلّا نادراً، حتى إن الحزب الشيوعي السوداني اضطرّ في مراحل معيّنة للتعامل مع الطائفتين، مثلما كافح وسط أنظمة متقلبة بين الإسلام والعسكر والأحزاب والأفكار، إذ كان النظام تارةً يقارب النمط الغربي، وتارة أخرى يعتنق الأسلمة المتشدّدة، كما كانت الحال في عهد الرئيس جعفر النميري.

لوحِق الشيخ صادق، وحوكم وسُجن واعتُقل مراراً، ولسنوات طويلة. لكنّه بقي على وفائه لجماعته. استمرّ يحارب الجميع بمحبّته وتواضعه وطيبته. شكّل نموذجاً فريداً حتى داخل الحركة الإسلامية نفسها. روى لنا خلال يومنا الطويل الكثير من ذكرياته المريرة والجميلة، وما فيها من نجاحات وخيبات، وابتسامات ودموع؛ لكنّ عينيه لمَعَتا كنجمٍ في سماء صيف، حين أخبرنا كيف ثار الشبابُ ودخلوا إلى السجن، وأخرجوه مع رفاقه من السجن، وهم ينشدون «ليس السجن للأحرار، ليس السجن للأحرار».

حين وصل في روايته إلى هذه النقطة، تبادلنا محمّد وأنا النظرات. تفاهمنا من دون أن نتحدّث، فكرنا أنّه لا بدّ اذاً من تصويره في السجن الذي اعتُقل فيه، كي نُعطي قصّته مصداقية بصرية أجمل، ونعطي البرنامج حيوية أكثر. رحّب الشيخ صادق بالفكرة رغم تقدّمه في السنّ ومشقة الذهاب والإياب، لكنّه أصرّ على ألّا نغادر المكان قبل أن نشاركه مائدته. لم تنفع اعتذاراتنا ولا التبريرات في ثنيه عمّا نوى. كان كرم الضيافة ينضح من كلماته ومن عينيه ومن يده التى تشدّ علينا أن نبقى. بقينا، فجاءت المائدة حاملة لنا بيضاً مسلوقاً وجبنة بيضاء وبعض الألبان وزيتوناً وخضروات وخبزاً طازجاً شهيًّا. أكلنا وشربنا وشكرنا وركبنا جميعاً السيّارة. أنا عدت إلى الفندق لأكمل الإعداد، ومحمّد والفريق رافقوا الشيخ صادق لأخذ بعض اللقطات في السجن.

ما إن ارتميت قليلاً على سرير غرفتي وفتحت نافذتها ليدخل بعض نسيم النيل، حتى رنّ جرس الهاتف. كان محمّد يكلمني بصوت خفيض وحازم خلافاً لمعهود كلامه. قال: «يا أستاذ سامي نحن في السجن»، قلت: «ممتاز، خذوا كلّ اللقطات وخصوصاً تلك التي تذكّرنا بفترة اعتقال الشيخ، حاولوا أن تصوّروه في الزنزانة نفسها...»، قاطعني محمّد بصوت أكثر حزماً: «يا أستاذ سامي نحن والشيخ في السجن». كرّرت القول: «ممتاز، تابعوا التصوير»، ارتفع صوت محمّد قائلاً: «يا أستاذ سامي سجنونا نحن والشيخ، حاول أن تفعل أيّ شيء لإخراجنا». لم أصدّق أن مؤسِّس جماعة الإخوان المسلمين في السودان يسجنه نظام إسلامي. أجرينا الاتصالات اللازمة، التي استغرقت وقتاً أكثر من المحتمل. ثمّة

إجراءات إدارية لا بدّ منها. يكاد رجال الأمن في السجن يوحون بأنّهم سلطة مستقلة. كان لا بدّ من تدخل الرئاسة شخصياً لإطلاق سراح الفريق والشيخ.

حين عاد محمّد، روى لي أنّه ما إن بدأ والفريق بأخذ أولى اللقطات مع الشيخ الصادق، حتى هرول صوبهم رجال الأمن واعتقلوهم. لم يأبهوا لكون الرجل هو مؤسِّس جماعة الإخوان، قالوا له، يمكنك أن تغادر أمّا هم فمعتقلون. أصرَّ الشيخ على البقاء مع الفريق، فدخل معهم إلى الزنزانة. بقي صامتاً لا يقول أيّ شيء، بقي متواضعاً في لحظة كان ينبغي فيها أن يصرخ في وجه ذلك الساذج الغرّ الذي سجنه. لكنّه بقي صامتاً حتى أُخلِيَ سراح الجميع وأكملوا التصوير.

عرفت حينئذٍ أنّ ثمّة أناساً عظماء أمضوا حياتهم في الكفاح، ثمّ قطف غيرهم المجدَ الذي كان لهم. الشيخ صادق بقي في وجداني وعقلي وقلبي ذكرى لطيفة وجميلة وعميقة تعني لي الكثير.

دارفور: مَراعٍ صارت قضيّة عالمية

حين يحلُّ الجفاف في الشمال ويندر المطر، ينزح رعاة دارفور نحو الجنوب الغنيّ بالماء والكلأ. تضيق الأراضي بمزارعيها أمام غزو الرعاة، فتقع مصادمات وتسيل دماء. هذه باختصار قصّة الحرب التي دارت مراراً في دارفور، قبل أن تتحوّل إلى صراع سياسي بين المتمرّدين الدارفوريين والحكومة المركزية، في الخرطوم، وقبل أن تتلقفها واشنطن وتجعل منها قضيّة دولية.

عقب وصولنا إلى السودان، كانت الأنباء الواردة من أقصى الغرب تبشر ببعض الهدوء على الجبهات. كان ثمّة حديثٌ يجري عن انفراجات رغم استمرار بعض جيوب القتال هنا وهناك.

53

ثمّة وسيلتان فقط للذهاب إلى دارفور، إمّا بطائرات الاتحاد الأفريقي، وإمّا بالحصول على إذن خاص من السلطات السودانية، والسفر بطائرة مدنية إلى إحدى عاصمتَيْ الشمال والجنوب، أي الفاشر أو نيالا. محاولتنا الأولى للسفر في طائرة للاتحاد الأفريقي باءت بالفشل، فالمسؤول عن جهاز الإعلام، وهو تونسي الجنسية، تذرّع بأسباب كثيرة لشرح سبب عجزه عن توفير إذنٍ عاجلٍ لنا، فكان لا بدّ من الطائرة المدنية. كانت الإجراءات السودانية سريعة هذه المرة، خلافاً للشكوك التي أحاطت بزيارتي في المرة الأولى، ففي الخرطوم جهازٌ إعلامي نشِطٌ، على عكس الحياة البطيئة التي تميّز أهل السودان. زحمة الركاب إلى الفاشر ونيالا توحي بأنّ أبناء الإقليم غير آبهين بكلّ الضجيج الدولي، وصراخ المنظمات الإنسانية، وهم في معظمهم من الطلبة، ففي ولاية الفاشر كليّة مهمّة للطب.

أولى محطاتي كانت في مطار الفاشر. كان علي تونغو نائب المعتمد الرئاسي في استقبالي. قامة متوسّطة وممتلئة، أمامَه كتابٌ على مكتبه الخشبي العاري يوحي بنَهَم المضيف للقراءة. لحيةٌ غزاها الشيب، وبقعةٌ سوداء (زبيبة) على الجبين تعكس إيمان الرجل الذي عَرفنا لاحقاً أنّه قادم من صفوف الإسلاميين. ابتسامة، فمصافحة، ثمّ شرحٍ يطولٍ عن المطار الذي تعرّض للقصف قبل سنوات قليلة، وعن الحياة التي تعود إلى مجاريها رويداً رويداً في دارفور، وعن اتّساع المدينة اليوم للجميع بمن فيهم المتمرّدون السابقون. في مثل هذه الحالات، عليك بالتظاهر بأنّك تصدّق كلّ شيء. هكذا تعلمتُ من تجاربي، خلال مسيرتي الصحافية. حين أكون في دولة غريبة، أو في منطقة حرب أو أزمات، لا أُخالف أبداً رأيَ الطرف الآخر، بغية تسهيل مهمّتي، لكنّي أقول لاحقاً كلّ ما أريد، وبشفافية مطلقة.

في المطار زوّار كثُر، معظمهم من الأجانب المنتمين إلى منظمات دولية. حول المطار سيّارات وطائرات دولية بعضها تابع للأمم المتحدة، وبعضها لجمعيات إنسانية وطبّية أوروبية الانتماء. يأتي صوت الرئيس عمر حسن البشير، عبر التلفزة السودانية، مؤكداً أنّه لن يقبل بتدخل دوليّ ولا بمحكمة دولية.

يقول الشيخ تونغو الناطق بلغة عربية لافتة بفصاحتها: «يمكنك أن تزور أيّ مكان شئت، وسوف ترى بأمّ عينك أنّ الحياة عادت إلى طبيعتها، وأنّ كلّ ما يقال في وسائل الإعلام الغربية عارٍ من الصحّة». تلقفنا الدعوة وتوجّهنا إلى الغرب، ثمّة مثل في السودان يحمل الكثير من الدلالات ويقول: «البجي من الغرب ما بسُرّ القلب»، أي إنّ كلّ ما يأتي من غرب البلاد لا يبعث على السرور. من غير المعروف ما إن كان المثل ينطوي على بعض استعلاء من أهل الوسط تجاه أولئك القابعين في الغرب، وذوي الملامح الأكثر أفريقيةً من ملامحهم. لكنّ الأكيد أنّ إقليم دارفور قدّم للبلاد أكثر ممّا أخذ، ذلك أنّ مساهمته الزراعية والحيوانية في الإنتاج الوطني، لم تقابَل بتنمية كبيرة. الجميع يشكو هنا من التنمية، برغم المساعي الواضحة التي بذلتها السلطات الرسمية في السنوات الأخيرة، بُغيةَ سحْب البساط من تحت أقدام الدول الغربية.

يشكّل إقليم دارفور ما يقارب خُمس المساحة الإجمالية للسودان. رمَتْه الأقدار وسط براكين من الأزمات التي قد لا تنتهي قريباً؛ وذلك لأن الصراعات والحروب التي عرفها، نتيجة تقاتل القبائل وتناحر الرعاة مع المزارعين، وصراع القبائل العربية مع غير العربية، والأفريقية ضد الأفريقية وغير الأفريقية، هي أيضاً جزء من واقع جغرافي معقد. ثمّ إنّ جيران دارفور ليسوا من النوع العادي أو السهل. فمن الشمال تحدّه ليبيا التي استخدمته أكثر من مرّة لتصفية صراعات مع تشاد، ومن الغرب تحدّه تشاد التي تقاتلت مرّات مع السودان وتقاتلت أطرافها أيضاً عبر دارفور، أو من خلالها، ومن الجنوب الغربي تحدُّه أفريقيا الوسطى.

اللافت في قصّة هذا الإقليم، أنّ أبرز الانقلابات التي حصلت مثلاً في تشاد كانت تُعَدّ في دارفور، وبعض حركات التمرّد الدارفورية انطلقت من الأراضي التشادية. والصلات بين تشاد والسودان كثيرة عبر الانتماءات القبلية في دارفور، حيث إنّ الرئيس التشادي إدريس دبي ينتمي إلى قبيلة الزغاوة،

التي تُعدّ من بين القبائل الأفريقية الأكثر حضوراً ومثاراً للجدل والصراع هنا. هذا ما يفسّر اتهام الرئيس البشير غير مرة نظيره التشادي بإيواء المتمردين الدارفوريين وتدريبهم.

كانت السيّارة تمخر بنا عباب الرمال، متّجهة نحو معسكر الفاشر، وهو أحد عشرات المعسكرات التي أُقيمت خلال الحرب وبعدها، بغية إيواء اللاجئين والمرضى والمشرّدين والجائعين. في إحدى خيمات المعسكر، كان الفتى إسحق شاخصاً نحو السماء. طفلٌ بعمر الورود، لم يتخطَّ ربيعَه السابع. كانت عيناه تنظران إلى البعيد، نظرة جامدة لا حياة فيها، وإنّما فيها شيء من عتب أو عذاب. كانت أمّه مستلقيةً إلى جانبه لا تقوى على القعود. نظرت صوبنا، كادت تبتسم فخانتها عضلات الوجه. أغمضت عينيها ثمّ استسلمت مجدَّدا للنوم. إسحق وأمّه وصلا قبل يومين، كانا يصارعان الموت والجوع في تشرّدهما بعد هروبهما من مناطق القتال، وقد تحسّنت حالهما اليومَ قليلاً، ولكنّ الخطر على حياة إسحق لا يزال قائماً، وفق ما شرحت لي الطبيبة الإيرلندية العاملة في الحقل الإنساني والطبّي. قالت الطبيبة إنّ إسحق تعرّض لسوء تغذية حادّ، ولذلك فإنّ بعض خلايا جسمه قد لا تعود إلى العمل بنحو طبيعي، حتى لو استعاد الغذاء. لا يهمّ إلى أيّ قبيلة ينتمي إسحق، فالجوع كافر لا يعرف قبيلة أو انتماءً. هنا، خلف العيون الغائرة، والأفواه الفاغرة، والنظرات الشاردة، يتوقف التاريخ ليحاسب كلّ أولئك الذين كانوا سبباً في ما حصل، سواء قامت المحكمة الدولية أو لم تقم.

في الخيم المنتشرة في معسكر الفاشر، تستعيد الحياة دربها نحو بعض الضوء. بضع نسوة يسرّحن شعورهنّ، يتضاحكن في ما بينهنّ، أو يضحكن علينا، أو على حالهنّ أو على الحياة. لا يعرفنَ من العربية سوى قليلها، يتحدّثن بلهجات محليّة، في بلد يضمّ أكثر من 500 قبيلة ومئات اللهجات. وحولهنّ بضعة أولاد يلعبون بما تيسّر لهم من المساعدات الدولية. وأمام المعسكر شابّان وثلاث صبايا قالوا إنّهم شكّلوا فرقة مسرحية بغية مرافَقة الأطفال في رحلة الخروج من الموت جوعاً... إلى الحياة، وأيّ حياة؟!

لم يكن إسحق يضحك ولا ينفعل ولا يقول شيئاً ولا يتجاوب مع الزوّار، لأنّه في وضع نفسي مضطرب، فهل تساعده مشاهدة بعض الأعمال المسرحية الفكاهية، حتى لو كانت من عملِ هواة، في استعادة بعض رونق الحياة؟ ليس الأمر مؤكّدا.

كنت أسير بين خيم القهر والظلم والعذاب والمرض، وأنا أتساءل، كيف للجوع أن يضرب هؤلاء الاطفال، ما دام الإقليم معروفاً بخصب زراعته وتعدّد مواشيه وبثروة حيوانية كبيرة وبتصدير القطن والتبغ والقمح والذرة وأفضل أنواع الصمغ العربي؟ هو التصحّر والجفاف تارةً، واقتتال أهل الإقليم تارةً أخرى، وتناقض المصالح بين السودان ودول الجوار تارةً ثالثة.

عرف إقليم دارفور تقلبات سياسية عديدة، فقد كان تاريخياً معقلاً لحزب الأمّة وطائفة الأنصار اللذين يتربّع على عرشهما حالياً الإمام الصادق المهدي المعارض للرئيس عمر حسن البشير. لكنّ الحركة الإسلامية بقيادة الدكتور حسن الترابي سعَتْ لتعريب بعض القبائل، ويتّهمها البعض بأنّها حاولت طرد عدد من القبائل الأفريقية لاحتلال مكانها.

روى لي بعض المسؤولين هنا، أنّ إقليم دارفور عرف صراعات وحروباً كثيرة، لكنّها كانت تُحَلّ من دون تدخل خارجي؛ ففي عام 1989 مثلاً، اشتبكت قبائل الفور مع القبائل العربية، ثمّ اشتبك العرب مع قبيلة المساليت، بعد ذلك بحوالى عشر سنوات. واستمرّت الحرب بينهما حتى عام 2001 حين وُقّعت اتفاقية سلام.

زعيم حزب الأمة الصادق المهدي.

بدأت مشكلة الإقليم مع تغيير نظام الملكية هناك، ذلك أنّ قانون 1970 الذي كان قد وُضع في عهد جعفر النميري، أعاد في حينه كلّ الأراضي إلى حكومة السودان؛ ثمّ في عام 1974 وضعت الحكومة قانون الإمارات الذي أعطيت بموجبه القبائل العربية إمارات في غرب دارفور، وهذا ما أجّج نقمة أبناء المنطقة، لأنّ بعض الذين حصلوا على أراضٍ كانوا من الوافدين. وهكذا، نجد مثلاً أنّ أحداث مجمري في الجنينية قامت بسبب قانون الإمارات، حين شعر بعض الناس بالاعتداء على هيبتهم.

الجميع في دارفور مسلمون، والأعراف واحدة. لا فرقَ بين المساليت والمهادي والعطرية، بل إنّ كثيراً من البطون العربية ذابت في القبائل الكبيرة، كالمساليت أو الفور. اختلطت الأعراق والأصول والبطون. لم يكن غريباً أنْ أجدَ مثلاً بطوناً من بني هلبة، ذابت في قبائل الفور، حتى لم يعد ممكناً التمييز بين الناس. بات الكثير من الفور رعاةً، على الرغم من أنّهم كالمساليت والداجو، من القبائل الزراعية المستقرّة.

المشكلة أنّ موجات الجفاف والتصحّر أدّت إلى النزوح من الشمال، صوب الجنوب، فنلاحظ أنّ قبائل الأبالة (رعاة الإبل) تحرّكت في ذاك الاتجاه. ترافق الأمر مع قدوم أعداد كبيرة من القبائل العربية إلى دارفور، عبْر تشاد. والذين جاؤوا من خارج السودان لم يحترموا الأعراف الموجودة داخل السودان. في ما مضى، كان الدخول إلى الأراضي الزراعية يتم عبر الحصول على إذنٍ مسبق من السلطات المحليّة، أمّا اليوم، فالأمر بات يحصل عنوة.

استغلت الحكومات المتعاقبة مراراً ما يحصل في دارفور. راحت تغلّب طرفاً على آخر. ألغت النظام الأهلي، وأفقدَت السلطات المحليّة كلّ صلاحياتها فأصبح في الإقليم غيابٌ للسلطة والتنمية، وافتقارٌ لمرجعية محليّة. اعتمدت الحكومة على الحزام العربي الذي أقامته القبائل العربية، لأسباب محليّة واستراتيجية، وخاصّة حين كانت الاستراتيجية السابقة في مطلع التسعينيات تنحو نحْوَ تشجيع القبائل العربية في المحيط الإفريقي، ونشر الإسلام انطلاقاً ممّا عُرِف بالمشروع الحضاري.

ليست قبيلة الفور أكبر قبائل إقليم دارفور، لكنّ تلك المنطقة السودانية التي وصلت إليها أخذت اسمها عن هذه القبيلة، في وقتٍ كانت فيه سمعتُها الدولية قد ساءت بسبب الدعايات الكثيرة حول المجازر والإبادة الجماعية فيها.

أخذت دعاية المجازر حيِّزا كبيراً من الاهتمام الأميركي، للضغط على نظام عمر حسن البشير. قيلَ أيضاً إنّ بعض الضغط نابعٌ من تأثير اللوبي الأفريقي أو اليهودي في أميركا. لكن ثمّة من حدّثني في الإقليم عن مطامع أوسع، وعن صراع مصالح دولية. ذلك أنّ إقليم دارفور يشكّل حدوداً مهمّة لدولٍ كانت خاضعةً سابقاً للاستعمار الفرنسي، على غرار تشاد وأفريقيا الوسطى والكاميرون والنيجر. كذلك فإنّ إسرائيل مهتمّة جداً بتلك المنطقة الأفريقية المتاخمة لدولٍ باتت صديقةً لها، تبدأ بتشاد وتصل إلى إريتريا.

المشردون والجائعون والهاربون من عنف القتال، لا يعرفون عن كلّ تلك المصالح أيّ شيء. كلّ ما يطمحون إليه هو العودة إلى بيوتهم، حتى لو أنّ البعض في معسكرات الفاشر ونيالا وغيرهما كان يبدو أكثر استقراراً في هذه المعسكرات، وربّما أكثر قدرة من المنظمات الدولية على الحصول على قوت يومه.

كنت على يقينٍ، وأنا أودّع دارفور، بأنّه بات مطيَّة جدّية، بعد انسلاخ جنوب السودان، لزيادة المناطق المقسَّمةً ونهب الثروات، وتغيير النظام أو تأديبه. أمّا العرب فقد كانوا حتى رحلتي تلك غائبين، أو ربّما لا يعرفون أنّ ثمّة منطقة في السودان اسمها دارفور.

هل يتشيّع السودان؟

تزامنت رحلتي هذه المرّة للسودان مع زيارة الرئيس الإيراني أحمدي نجاد. أعلامٌ إيرانية قليلة تنتشر في الشوارع، خلافاً لتلك التي رُفعت بكثرة مع صورة الرئيس الإيراني السابق هاشمي رفسنجاني، حين زار الخرطوم قبل سنوات، ربّما لأنّ الأوضاع الحالية لا تحتمل صوراً وشعارات، أو لأنّ الخرطوم كانت خارجة لتوّها من أزمة مع السفارة الإيرانية.

أهلاً بك في السودان. يبتسم قائد الطائرة التي تنقلنا من دبي باتّجاه الخرطوم. الطقس عندنا جميل هذه الأيّام والأحوال تتجه إلى هدوء. كان الطقس جميلاً بالفعل، على الرغم من موجات الحرّ التي تشتدّ قليلاً عند الظهيرة، أمّا الهدوء فإنّما يبدو كالجمر تحت الرماد.

بضعة أصدقاء ينتظرون عند سلم الطائرة. تربيتٌ على الكتف ثمّ عناق. هذا هو السلام السوداني الشهير المشحون بكلّ عاطفة ونوستالجيا وحنين هذا البلد الشاسع إلى عمقه العربي والاسلامي، «اشتقنا لك يا أخي، ألا يستحق السودان زيارة؟» هكذا يقول الصديق السوداني. صالون الشرف مفتوح، الترحيب كبير ليس بالزائر القادم من لبنان فقط، بل بضيوف معظمهم من آسيا أو الهند. «هؤلاء يعملون في مجالات النفط»، قال أحد الزملاء السودانيين.

صلاح البندر في كامبردج.

سألتُ المسؤول الذي أرسله وزير الخارجية الدكتور العزيز مصطفى عثمان إسماعيل إلى المطار لاستقبالي والاهتمام بي: أين تقترحون عليَّ الإقامة؟ ردّ أكثر من صوت: آه، إنّ الفنادق باتت كثيرة في السودان، منها ما هو بالغ الفخامة، ومنها ما هو جيِّد، ولكن بأقلّ تكلفة.

كانت الرمال حتى تاريخ قريب تغمر قَدَمَيْ الزائر. تعدّدت الفنادق التي بناها الغربيون أو الهنود أو الصينيون، وأقيم على ضفة النهر مبنىً فارع الطول، مجاور لفندق خاصّ بالآسيويين، بتمويل من العقيد معمّر القذافي، فكان لا بدّ من تسميته «برج الفاتح». الحركة هنا توحي بكلّ شيء، سوى أنّ البلاد معرّضة لكلّ تلك الضغوط الدولية والحصار الأميركي. هذا مثلاً أحد الفنادق الفخمة المستلقي عند الضفة اليسرى للنيل الأزرق، كان قبل سنوات يستجدي زائراً، بينما هو اليوم يعجّ بالزوار، حتى إنّ موظف الاستقبال يكاد يعتذر بلباقة عن عدم توفر غرف شاغرة.

نضع الحقائب على عَجَلٍ في الفندق، فالطقس جميل، والرغبة في معرفة ما تغيّر تفوق الحاجة إلى الراحة. نذهب جميعاً نحو المقهى الجديد المبنيّ على الطريقة الغربية، وسط الخرطوم. هو يتوسّط تقاطع طرق، ويمتدّ بين أشجار وارفة. لافتٌ أنّ كلّ الذين فيه، أو معظمهم، غربيون: الشعر الأشقر والعيون الزرقاء تغلبُ فيه على السحنات الدكناء. إنّهم يعملون في النفط أيضاً، أو في السفارات، ومقارّ

الأمم المتحدة والمنظمات الإنسانية الدولية.

يبدو أنّ المشروع الحضاري والاسلامي الذي بشّر به الزعيم الاسلامي الدكتور حسن الترابي قبل حوالى عقدين، انكفأ كثيراً، أو أنّ إنقاذ الوطن بات أولوية. يبتسم الترابي اليوم تلك الابتسامة التي تشي بكلّ ذكائه ودهائه، وببعض الخبث أيضاً. يحدّثنا بكاريزماتيته المعهودة عن المخاطر المحْدِقة بالسودان، يلوم القائمين على النظام، وينحو باللوم أيضاً على معظم الأطراف. لم يتغيّر الترابي على الرغم من سنوات السجن. لا يزال غنيًّا بتحليلاته للبعد الإسلامي والعربي والدولي، ولا يزال ينفعل، على الرغم من سنواته التي تخطّت السبعين، ويشرح، ويشرح، كأنّه لا يزال في قلب المعركة. لكنّه يكاد يوحي بأنّ أزمة السودان الحالية هي الأسوأ في تاريخه، فيحاول تلطيف الاتهام: أنا تعلمت في السجن أن أرى الأمور من منظور آخر، وقرأت الكثير وكتبتُ. وهو يستعدّ لإصدار كتاب جديد عن تفسير القرآن، يدرك قبل غيره أنّه سيثير ردود فعل كثيرة.

ما أكثر الاتهامات التي تُساق ضدّ السودان ونظامه هذه الأيّام. في كلّ مرّة، يجمع الرئيس البشير عشرات الآلاف من شعبه ويرفع عصاه التقليدية ملوِّحا بها في الهواء، ومنذراً بأنّه سيتحدّى المجتمع الدولي ولن يخضع، فيهلل الحضور ويكبر. لكنّ هذا التحدّي أيضاً يصبح أقلّ أهمّية حين يصل الزائر إلى الخرطوم ويسمع من بعض مستشاري الرئيس، وفي مقدَّمهم لولب الدبلوماسية منذ سنوات، الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل، بأنّ السودان لم ولن يرغب في تحدّي واشنطن، وأنّ المشكلة ليست مع الإدارة الأميركية، بل مع قوى الضغط هناك. لم تتغيّر الشعارات السودانية؛ هي ذاتها منذ سنوات. لكنّ الأزمات هي التي تغيّر وجوهها وتزيد الضغوط على النظام. بالأمس القريب، كان الرئيس البشير يرفع عصاه نفسها، ويجمع عشرات الآلاف معلناً التمسك بالجنوب، ومؤكِّدا القدرة على ضرب المتمرّدين هناك بقيادة العقيد جون غارنغ. اليوم، هدأت جبهة الجنوب بعد الاتفاق بين نظام البشير والحركة الشعبية لتحرير السودان، وقدَّمت السلطة تنازلات عديدة، لكنّ مصير ذلك الجزء المهم من البلاد لا يزال على كفّ عفريت واحتمالات الانفصال النهائي لا تزال قائمة.

التشيّع بين الخطر والتاريخ والمغالاة

كنت أشعر لدى وصولي هذه المرة إلى الخرطوم، بأنّ ثمّة شيئاً غريباً وقع. كلّ الصحف السودانية تعنون عن التشيُّع، أو عن إيران والفرس. سبب القصّة، أنّ مجموعة من رجال الدين والفقهاء السنّة تنادت لسحب كتب شيعية من معرض الخرطوم الدولي للكتاب، وطالبتْ بإغلاق المستشارية الثقافية في السفارة الإيرانية. حدث ذلك قبيل مجيء نجاد إلى السودان.

شكّل الأمر سابقةً في تاريخ البلد المعروف بتسامحه. كان السودان في طليعة من عرف الأحزاب الشيوعية، وفي مقدَّم من طبق الشريعة الإسلامية بحذافيرها، في عهد الرئيس السابق جعفر النميري، الذي لم يعد يذكر عنه العالم العربي والأفريقي إلّا سقطته التاريخية في تهريب اليهود الفالاشا من إثيوبيا إلى إسرائيل، عبْر الأراضي السودانية.

الضجّة التي أثيرت، ناقضت ما هو معروف ومألوفٌ في السودان وتراثه. ذلك أنّ البلد السَّمح، بتطبيقه للدين الحنيف وانفتاحه ونقاشات أهله، لم يعتَدْ ضجَّة مثل هذه، حتى عندما غزَتْه الشيوعية؛ فالسوداني ليس بحاجة إلى مسجد أو مكان للصلاة، فكلّ الأماكن صالحة لها. وهو لم يفرِّقْ يوماً بين مسلم وآخر، والسوداني قد يصلّي في مكان عمله، أو يفترش الشارع، أو يفيءُ إلى شجرة، ولن يسأل مطلقاً هل المسجد الذي يقصده يتبع الطريقة الصوفية التيجانية أو الشاذلية.

يحبّ السوداني النقاش، وربّما لا يحبّ إلّا النقاش، ولا سيّما إن كانت الشمس رحيمة. وأمّا العمل، فليس مرغوباً فيه كثيراً، وربّما خمول ناس عند ناس فوائد، فكلّما قلّ عمل السودانيين، انفرج سوق العمل أمام الجار المصري. حين زرتُ السودان هذه المرّة، كانت كلّ مطاعم الخرطوم الحديثة

والغربية الأسماء تعجُّ بعمّال مصريين وزبائن سودانيين.

ولأنّ السوداني يحبّ النقاش، فإنّ قضيَّة بحجم سحب كتبٍ شيعية من معرض الكتاب أثارت ضجّة كبيرة وبقيت لفترة طويلة حديثَ الناس. كاد السودانيون يصدّقون أنّ خلف الكتب مؤامرة كبيرة، وأنّ خلف المؤامرة بلداً اسمه... إيران.

ذهبتُ إلى الخرطوم أحاول معرفة حقيقة ما يقال، وأتبيّن الحجم الحقيقي لِما يوصف بالتدخّل الإيراني في البلد الإسلامي ذي النزعة الصوفية، فيما كانت دول عربية عدّة توصَف بالمعتدلة، تحذّر ممّا تسمّيه الخطر الفارسي، أو التمدّد الشيعي، أو الهلال الشيعي.

تاريخ السودان يشير بوضوح إلى أنّ الشيعة وآل البيت لم يكونوا غرباء عن المجتمع السنّي الصوفي. وإن كانت الطرق الصوفية هي المهيمنة على معتقدات السودانيين عموماً، فإنّ التاريخ الديني لأهل السودان كان قد شهد جذوراً شيعية ضاربةً في أبرز الطوائف والنِّحَل. وليس غريباً أن تجد مثلاً في الطائفتين الكبيرتين الختمية والأنصار أصولاً تعود إلى آل البيت والإمام علي بن أبي طالب.

صور الرئيس الإيراني القليلة لا تزال منتشرة على بعض الجدران، وكذلك بعض الأعلام الإيرانية المجاورة لنظيرتها السودانية. بعض هذه الصور أُلصِقت فوق صور قديمة للرئيسين السابقين رفسنجاني ومحمد خاتمي. عرفَت الثورة الإسلامية الشيعية في إيران كيف تنسج تحالفاً عضوياً ومصلحياً ودفاعياً مع الثورة السنّية في السودان. تكامل المصالح أدّى إلى زيادة التعاون، وسْطَ انكفاءٍ عربي عن السودان، لأسباب كثيرة معظمها مرتبط بموقف مصر، أو بالضغوط الأميركية والقلق من واشنطن.

قلَّما زار ثلاثة رؤساء إيرانيين بلداً عربياً في تاريخ العلاقات العربية الإيرانية. وبين الزيارات الثلاث، شهدت العلاقات السودانية الإيرانية نموًّا مطّردا، قابله (أو ربّما شجّعه) فتورٌ إيراني مصري، حيث إنّ الرئيس حسني مبارك والملك الأردني عبد الله الثاني، تصدَّرا فريق التحذير من التمدّد الشيعي. كانت إيران بحاجة إلى حليف عربي وأفريقي ومسلم بحجم السودان، وكان السودان بحاجة إلى فك عزلته الدولية، عبْرَ إقامة روابط وعلاقات واسعة مع دولة كبيرة كإيران، ولا سيّما حين تنادت دول الخليج إلى معاقبته لوقوفه إلى جانب الرئيس العراقي صدام حسين بعد غزوته السيّئة الذكر للكويت.

لم يكن من السهل الاتصال بسودانيين اعتنقوا المذهب الشيعي، رغم وجود إحصاءات تشير إلى أنّ عددهم قد يكون بلغ عدّة آلاف حالياً. صعوبة التواصل تكمن في أنّ معتنقي هذا المذهب غالباً ما يفضّلون الصمت أو اعتماد مبدأ التقيّة تفادياً لإثارة مشاكل ضدّهم.

قال لي صديقي السوداني: «تعالَ نشرب قليلاً من الكركديه ثمّ نذهب للقاء الزول». الكركديه والزول كلمتان لا بدّ من معرفتهما في بداية الزيارة للسودان، فالأول هو مشروب شهير عند السودانيين ينحدر من الشاي الأحمر، والزول كلمة تعني الرجل، وهي كثيرة الاستخدام بحيث تكاد لا تخلو منها أيّ جملة سودانية صحيحة... أو غير صحيحة.

السوداني مهذب إلى أقصى الحدود، لكنّه يغالب تهذيبه وتواضعه بشيء من المغالاة في التعبير عن الشهامة، وكأنّما هو راغب في تذكير الزائر الغريب بأنّ عصر الرقّ قد ولّى، وأنّ لهذا البلد القائم عند أطراف الدول العربية، تاريخاً من الحضارة والقيم والمكانة الرفيعة في صلب العروبة والإسلام.

الإسلام في السودان راسخ في طباع الناس وتقاليدهم. هذه التقاليد السمْحَة تجعل الممارسة الدينية أكثر بهجة ممّا هي عليه في العديد من الدول العربية والإسلامية الأخرى. فحلقات الذكر والوِرد (بكسر الواو) الصوفية في المساجد تجمع بين السودانيين في تآلف لا يحتاج إلى سؤال عن طبقة أو وظيفة أو طائفة المشارك في الصلاة. لا بأس إن ذهب المسلم الصوفي مباشرة من المسجد بعد الصلاة إلى سهرة

فنّية كبيرة مع صديقته ورقصا حتى الصباح. الإيمان شيء والحبّ والغزل شيء آخر، ولكنّهما لا يتناقضان... أو هكذا يبدوان.

من هذه الزاوية، يلج بعض السودانيين الذين اعتنقوا المذهب الشيعي حديثَهم عن الفروق الشاسعة بين التسامح السوداني والتشدّد الوهّابي. يرى بعضهم أنّ الحركة السنّية السلفية في السودان انتفضت ضدّ التشيّع لأنّها وجدت في ذلك معركة داخلية تعوّضها عن خسارة الكثير من وهجها الخارجي. هي رأت أنّ الشيعة هم الذين أخذوا مكانها التقليدي في محاربة إسرائيل وأميركا، بينما الحركة الوهّابية وجدت نفسها عرضة لاحتلال أميركي مباشر ولقواعد عسكرية أميركية في عقر دارها.

الصيف السوداني صعب لشدة حرّه، والتنقل بسيّارات الأجرة شبه مستحيل، إلّا إن كانت السيّارة مكيّفة وحديثة العهد، لكنّ السودانيين قلّما يعملون في فترة الظهيرة، فلا بدّ من انتظار المساء حتى تنتعش العاصمة بجلسات الوِنس التي ينفَلِت فيها الكلام من عقاله، وتصبح النقاشات مفتوحة على كلّ شيء، تقريباً كلّ شيء.

كان اتّصالي الأول مع المحامي والكاتب متوكّل محمّد علي. هو في طليعة من جاهر بتشيّعه، لا بل إنّه وضع كتاباً جريئاً ومهمًّا عن كيفية وأسباب اعتناقه المذهب الشيعي. حمل الكتاب عنوان «ودخلنا الباب سُجَّدا»، وهي جملة مقتبسة عن آية قرآنية. بعد الابتسام والترحيب عبر نقرة برأس أصابع اليد على كتف الضيف، استهلَّ متوكّل محمّد علي كلامه بسرد أسباب اعتناقه المذهب الشيعي، فقال: «قبل أن أصبح شيعياً، لم أكن أعرف الشيء الكثير عن الإسلام. كنت منتمياً إلى الحركة الإسلامية في السودان التي سمحت لي بولوج عالم أرحب، والتعرّف إلى مسائل كانت مغيَّبة عَمْداً، على الرغم من وجودها في الكتب المتداولة بين أيدينا، على غرار صحيح البخاري وصحيح مسلم والكتب الأساسية لأهل السنّة. ومن خلال القراءة تفتّحت لنا أبواب عدّة، وعرفنا كيف أنّ أهل البيت هم امتدادٌ للرسول، وأنّ باتّباعهم يكون الهدى. تصوَّر يا أخي سامي أنّ كرّاسات الصفّ الأول الثانوي مثلاً، تضمّ سبع صفحات عن أبي بكر الصدّيق، واثنتي عشرة صفحة عن عمر بن الخطاب، بينما لا تحتوي سوى على جزء ملخص وصغير عن الإمام علي، على الرغم من قيمة الرجل وبحر علومه وفكره وسعة تأثيره. نحن نشعر بأنّ ثمّة نيّة متعمَّدة لإخفاء الإمام عليّ عنّا، وكذلك الحسن والحسين والسيدة فاطمة. لقد كنّا ضحايا التضليل وإخفاء الحقائق، ويخطئ من يعتقد بأنّ التشييع هو رفض للصحابة، فنحن تعلّمنا التشيّع من الصحابة أنفسهم».

أين إيران؟

يحرص المثقفون السودانيون الذين اعتنقوا المذهب الشيعي على تأكيد المؤثرات الفكرية ودور الكتب والمؤلفات في تشجيعهم على سلوك هذا الطريق. ينفون بشدّة أو يسخرون من تلك الاتهامات القائلة بأنّ إيران اشترتهم بمنح دراسة أو إغراءات مالية، فإيران لم تكن وحدها مقصد معتنقي المذهب الشيعي.

قال لي الكاتب السوداني آدم مريود إنّ الحركة الشيعية في السودان كانت في بدايتها موحَّدة، لكن حصل نوع من الانشقاق لاحقاً بحيث ذهب قسم إلى سوريا وأسّس أصحابه مجموعة «حسينية المرتضى»، وقسم آخر إلى إيران، حيث أُنشئت مؤسّسة «الكوثر» عام 1995 (أُغلِقت لاحقاً). روى أنّ المجموعة التي اتّصلت بإيران كانت قد تأثرت بالثورة الإسلامية منذ عام 1979، حيث بدأت بالانفتاح على مثقفي الحركة الإسلامية، وعلى مقولات التشيُّع وفكرِه. الاعتقاد السائد هو أنّ هذه الحركة هي ذاتها التي كانت موجودة في صلب انقلاب عام 1989 (وصول الجبهة الإسلامية بقيادة حسن الترابي وعمر حسن البشير إلى السلطة) ففي حينه كانت العلاقة مع الثورة الايرانية روحية وسياسية في آن واحد.

يفضّل الكاتب والصحافي منتصر النور، من جهته، العودةَ إلى التاريخ في شرح أسباب ظهور قضية

الشيعة في السودان، فيستند إلى مؤلفات كثيرة تشير إلى العلاقة الوطيدة التي قامت بين سلالة أهل البيت والطائفتين الكبيرتين في السودان، أي الختمية والأنصار. يقول مثلاً: «إنّ الطريقة الختمية وآل الميرغني ينتمون إلى الإمام المهدي الشيعي الذي اختفى عام 256 للهجرة، ذلك أنّ صلة النسب تصل إلى محمّد بن الحسن العسكري، أي الإمام المهدي عند الشيعة الاثني عشرية، وأنّ المشكلة بين السلفية والتشيُّع قديمة في السودان، دشّنها الشيخ ابن تيميّة في الردّ على الشيعة، في كتاب سمّاه «منهاج السنّة النبوية ردًّا على الشيعة والمعتزلة والقدرية». لكنّ ابن تيميّة لم يكفّر الشيعة، بل قال إنّهم اعتمدوا على مصادر ضعيفة في الاستدلال على الإمام وأهل بيته. وأمّا ظاهرة التكفير فهي من مساوئ عصرنا الحديث، وهي حديثة الظهور في السودان. وقد بدأت خصوصاً بعد ظهور الوهّابية في السعودية وتجريد الشيخ محمد عبد الوهّاب حملة ضدّ كلّ الحركة الصوفية، حيث كفَّرهم وقتل منهم طائفةً كثيرة، وشنَّع بالشيعة وحمل على النجف، وقتل عشرات الناس، ووصل حتى المرقد العلوي في النجف، وهي أمورٌ أثّرت في السلفيّين السودانيين الذين راحوا يتبعون سلفهم».

ويضيف منتصر النور: «إنّ الإخوان المسلمين في السودان يعانون من مشكلة جوهرية في الوقت الراهن. فهم فقدوا السند الشرعي الكلاسيكي وراحوا يبحثون عن بدائل، ولعلّهم وجدوا في القضية الشيعية ضالّتهم لإعادة تظهير دورهم».

والمعروف أنّ المستشارية الثقافية الإيرانية في السودان كانت قد نشطت جداً أثناء إدارتها من قبل الدكتور آذر شب وأمير الموسوي، اللذين كانا قد وجَّها دعوات إلى رجال دين وسياسيين سودانيين للمشاركة في احتفالات الثورة الإسلامية، وذلك بغية التقريب بين المذهبين. وكانت الأمور تسير في طريقها الصحيح قبل أن تعود النغمة العربية السابقة، ولكن هذه المرّة بقالب سياسي أشمل، محذرة من «تمدّد شيعي ومن هيمنة فارسية».

انتهت قضية الكتب الشيعية في المعرض بعد سحبها. سعت السلطة السودانية إلى الابتعاد قدر الإمكان عن التورّط فيها. وقفت بين الطرفين، بحيث إنّها طوت الموضوع قبل أن يتفاقم؛ فمن جهةٍ أولى، قبِلَتْ مطالب رجال الدين السنّة، وعرفت من جهة ثانية كيف تُبقي التفاهم قائماً مع إيران. لا بل إنّ بعض مَن وقّعوا على البيان الاتهامي، عادوا وسحبوا اتّهامهم بعدما تبيّن أن في الحديث عمّا جاء في الكتب الكثير من المغالاة والتضليل.

قد يكون بعض قلق رجال الدين السنّة في السودان مبرَّراً، لجهة الخوف من توسّع رقعة المذهب الشيعي على حساب مذهبهم، ولكنّ الأكيد أنّ انتفاض حركة الإخوان المسلمين السودانية ضدّ الكتب الشيعية، وبالتالي ضدّ الدور الإيراني في بلادهم، ليس معزولاً عن الحركة العربية والدولية ضدّ إيران. السودان بلد حيوي في محيطه العربي والأفريقي، وتحالفه العضوي مع إيران يشكّل حاجزاً دفاعياً لا بدّ من كسره.

ولأنّ السودان بلد متسامح، فإنّ القضيّة طُوِيَت، ولكنّها تبقى قابلة لارتدادات عدّة، ويقيني أنّ البشير سيضطرّ عاجلاً أو آجلاً إلى الابتعاد عن إيران، كلما فتحت له دول الخليج أبوابها.

ماذا تريد أميركا؟

لعلّ أفضل جواب يسمعه زائر السودان، يأتيه من المستشار الرئاسي الدكتور منصور خالد. فوزير الخارجية السابق الذي انضمّ قبل سنوات إلى حركة التمرّد بقيادة جون غارنغ، عاد إلى صلب القرار السوداني من موقعه كمستشار للبشير، وهو يقول إنّه لا بدّ من الخروج من المحنة الحالية، لأنّها في الأساس مفتعلة، وإنّ الجنوب نفسه قد وجد حلاًّ، ولو أنّ الانفصال لا يزال احتمالاً قائماً إن لم تتوفّر عناصر الوحدة الجاذبة في الشمال. ومنصور خالد، مثقف كبير ومؤلف عشرات الكتب عن السودان، صاغ فكرته كما سبائك الذهب بلغة عربية أدبية عريقة تقارع أروع الأدب السياسي في أوج ازدهار

لغة الضاد.

في منزله الأنيق الزاخر بالمنحوتات واللوحات الجميلة، والمنسّق الأثاث والمزدان بمسبحه المجاور، يبدو منصور خالد مترنّحا بين الثقة بأنّ الأمور مع أميركا يمكن أن تُسوّى، وبين القلق من احتمال عدم اقتناع بعض صقور النظام السوداني الحالي بأنّ الخطر بات وشيكاً، خطر أكبر من المناورات، وبأنّ الجنوب السوداني نفسه مقبل على الانفصال، ما لم يقدّم الشمال نموذجاً جيّدًا وجاذباً.

ومنصور خالد، الذي تربطه علاقات متينة بالأميركيين، وصاحب المعرفة الدقيقة بمجلس الأمن الذي ترأسه مرّة، يؤكّد أنّ الضغوط الأميركية والدولية على السودان ليست مرتبطة فقط بالجنوب أو دارفور، وإنّما تتعدّاها إلى ملفّات أخرى، ذلك أنّ عدداً من اللوبيات الأميركية المتعلقة بحقوق الإنسان واللاجئين والقضايا الأفريقية والرق، والمرتبطة عملياً بالحزب الديمقراطي، أو ببعض المتنفذين في الحزب الجمهوري، هي التي تحث الإدارة الأميركية على ممارسة هذه الضغوط. أمّا واشنطن فهي راغبة في العلاقة مع السودان.

أمّا عن دور إسرائيل في أزمات السودان، فإنّ منصور خالد يرى أنّ من الطبيعي أن تسعى إسرائيل لتأليب كلّ مراكز الضغط في أميركا ضدّ السودان، ذلك أنّ النظام السوداني الحالي يدعم قوى تعتبرها إسرائيل عدوّة لها، ومنها مثلاً حركة حماس، كما أنّ أميركا وإسرائيل لا تنظران بعين الرضى إلى العلاقات السودانية الإيرانية.

أودّع الدبلوماسي والخبير السوداني العريق، والعازب العاشق للسفر، وأذهب إلى الرجل الأكثر تحرًّكا في التاريخ السوداني الحديث، إنّه وزير الخارجية السابق والمستشار الرئاسي الحالي الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل. يختصر إسماعيل الموقف الحالي بالقول: نحن لا نريد مواجهة مع أميركا، وإنّما نرغب في الحوار، وسابقاً، كنّا قد ساعدنا الأميركيين كثيراً في مجال محاربة الإرهاب.

إنّها النقطة الأهم في ملفّ العلاقات الأميركية السودانية، فكل الوثائق التي قرأتها عن السودان قبل وصولي إلى الخرطوم تكاد تجمع على أنّ نظام الرئيس البشير كان في طليعة الأنظمة العربية مساعدة للاستخبارات الأميركية في مجال مكافحة آفة الإرهاب. التاريخ الإسلامي والموقع الجغرافي لهذا النظام جعَلاه، في مرحلة معيّنة، قادراً على أن يصبح عيون أميركا ضدّ الإرهاب في أفريقيا. لكنّ أميركا كانت تريد المزيد. وهذا المزيد يعني وضع النظام السوداني بمجمله في دائرة الخطر الداخلي.

يُقرّ زعيم حزب الأمّة وطائفة الأنصار الإمام المعارض الصادق المهدي بهذه الضغوط الأميركية وأهدافها، لكنّه في الوقت نفسه يقدّم قراءةً تحمّل نظام البشير جزءاً من المسؤولية. يقول: «لو كنت مكان المسؤولين لما ورّطت نفسي بما تورّطوا به حاليًّا. فمثلاً في حزيران/يونيو 2004 زرنا دارفور، ومررنا على ولاياتها، والتقينا بضحايا الأحداث هناك، وجئنا إلى الخرطوم حيث عقدت مؤتمراً صحافياً قلت فيه: «نعم وقعت تجاوزات في دارفور، وارتُكِبت جرائم حرب، وجرائم ضدّ الإنسانية، فلنسارع إلى تشكيل لجنة محايدة وقومية، للتحرّي بهدف معاقبة المجرمين والتعويض على الضحايا. وما لم نفعل ذلك، فسوف يتحرّك المجتمع الدولي. والحقيقة يا أخي، ببساطة شديدة، أنّ هناك ضحايا، ولا يمكن لهذا الأمر أن يستقيم من دون عدالة. فما دامت العدالة الوطنية تخلّفت، فلا مفرّ من العدالة الدولية».

يرفع البشير لاءاته الكثيرة، وبينها: لا للتدخل الدولي، ولا للمحكمة الدولية، ولا لتسليم أيّ متّهم سوداني إلى الخارج. لكن الذي يزور مناطق النزاع وبينها دارفور، سيجد أنّ التدخل الدولي حقيقة، وأنّ المنظمات الإنسانية الدولية وسيّارات الأمم المتحدة حاضرة بقوّة في تلك المناطق، بذريعة مساعدة المرضى والجائعين والنازحين من مناطق القتال.

حتى الآن، نجح البشير في الحفاظ على لاءاته، لكنّه قدّم تنازلات كثيرة لمتمرّدي الأمس في الجنوب.

وبين اللاءات والتنازلات، يشعر زائر السودان بأنّ البلاد مقبلة على تحوّلات مصيرية، لكن لا أحد يعرف متى، وكيف. الأكيد هو أنّ الجنوب مقبل على الانسلاخ عاجلاً أو آجلاً.

فتّش عن إسرائيل... وعن أخطائنا

لم يأخذ عثمان معه أيّ أشياء ثقيلة حين قرّر الهرب من دارفور إلى إسرائيل. كان يعرف أنّ الرحلة طويلة، والطريق شاق، ولا بدّ من اجتياز حدود كثيرة تحت جنح الظلام. تسلّح بكثير من الأمل وقليل من النقود التي جمعها بعرق الجبين، وترك رسالة قصيرة إلى أمّه واتّجه صوب الحلم.

يستطيع عثمان، الشابّ السوداني، أن يروي يوماً ما لأولاده كلّ تفاصيل تلك الرحلة، لكنّه قد يتجنّب ذكر نهايتها. قد يخجل لو أخبرهم بأنّ رحلته الطويلة انتهت بطرده أمام عدسات الكاميرا من إسرائيل.

قصّته تشبه قصص مئات السودانيين الذين وصلوا إلى إسرائيل، ثمّ جُمعوا في معسكرات-معتقلات، وأعيدوا إلى مصر أو إلى السودان، بناءً على اتفاقية وقّعها الرئيس المصري حسني مبارك مع رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت في 8 شباط/فبراير عام 2005 في شرم الشيخ. قال أولمرت في ذلك الحين: آمل أن يكون في هذه الاتفاقية ما يضع حدًّا لتسلّل اللاجئين الأفارقة إلى إسرائيل، ذلك أنّ هذا التسلّل يخلق لنا مشكلة كأداء.

نقلت منظمة العفو الدولية عن وزير الداخلية الإسرائيلي مئير شتريت قوله: إنّ أكثر من 300 شخص كانوا يجتازون الحدود المصرية الإسرائيلية (حوالى 250 كيلومتراً) خلال الأشهر القليلة الماضية. وتخطّى عدد السودانيين بينهم عتبة الـ1200 شخص، وثمّة من يقول إنّ العدد هو أقلّ من ذلك.

سعت إسرائيل إلى إظهار إحراجها في استقبال المهاجرين أمام الرأي العام العالمي. هي بارعة في مثل هذه الحالات. قالت إنّها لا تستطيع أن تستوعب هذه الأعداد. لم تقل لأنّهم غير يهود. انبرى الصحافي المخضرَم نواه كليجر، أحد أقدم كتّاب صحيفة يديعوت أحرونوت، والناجي من محارق النازية، ليقول إنّ إسرائيل أصبحت اليوم دولة، وعليها أن تتعاطف مع أولئك الذين يعيشون مجازر كالتي عاشها اليهود في القرن الماضي.

أرادت إسرائيل أن توحي للعالم بأنّها صارت قبلة اللاجئين والهاربين من بلادهم، وبعدما انطفأت أضواء الكاميرات، عادت إلى الواقع. لا بدّ من إعادة طرد هؤلاء اللاجئين، ذلك أنّ إسرائيل تستوعب اليهود فقط. ذكّر البعض بأنّ الأمر احتمل استثناءات عبر التاريخ، عاد هؤلاء بالذاكرة إلى أولئك الفيتناميين الذين جرى استيعابهم في إسرائيل وباتوا من أشرس المقاتلين في «جيش الدفاع».

نقلت إذاعة «بي بي سي» في تقرير لمراسلها عن الطيّب إبراهيم، وهو أصغر السجناء السودانيين في إسرائيل، قوله: «إنّ الإنسان حين يخرج من الحرب يخرج هارباً، والهارب لا يرى إلّا الحدود التي يقف عندها. إنّ إسرائيل أصبحت مركز إيواء للاجئين، بدلاً من مصر التي عانى فيها اللاجئون ومات منهم الكثير». وقال حسن نصر، وهو من جبال النوبة: «إن كان الموت وراءك، والممنوع المصري أمامك، فالسؤال هو التالي: هل تختار الممنوع التاريخي أي إسرائيل، أم الموت في مصر؟!».

مصر قد لا تُلام على ما حصل للاجئين فيها، فعلاقتها الحسّاسة تاريخياً مع الجار السوداني تمنعها من تشجيع اللاجئين على المجيء إليها، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية لا تسمح لها بأن تفتح الحدود لكلّ طالب ملجأ. لكن، ماذا عن العرب الآخرين؟

رحلة البحث عن العلاقات السودانية الإسرائيلية

«لا عليك، سوف يرتّب لك الزول كلّ الإجراءات الأمنية والجمركية، وأهلاً بك مجدَّدا في السودان...». أهل السودان هم دائماً هكذا، تلمع أسنانهم البيضاء في الوجوه الدكناء حين يفتر الثغر عن ابتسام، وتلمع العينان ترحيباً بكلّ عربي قادم إليهم، كأنّهم في كلّ مرّة يكتشفون العالم العربي:

عمقهم الطبيعي وامتدادهم القومي. يرتفع صوت الأذان. يتّخذ كلّ سوداني، بمن في ذلك بعض رجال الجمارك، مكاناً محايداً، يفرشون سجّاداتهم الصغيرة، ويصلّون تحت الإعلانات الدعائية لشركات الهاتف المحمول.

يعتذر الصديق السائق عن عدم وجود مكيّف في السيّارة. يعِدُ بأنّ إصلاحه لن يستغرق أكثر من يوم واحد. يكرّر الترحيب ويلتفت إلى الراديو راغباً في رفع صوت الموسيقى السودانية قليلاً. يدهمه صوت بوق شاحنة. ننجو من حادث محتم. يكتفي الرجلان بمدّ الرأس من نافذة السيّارة والقول: انتبه يا زول. الحياة في السودان مغالية في هدوئها، كأنّما الزمن هو من كمالياتها. جئت هذه المرّة لمعرفة شيء عن العلاقات السودانية الإسرائيلية، «هل تعتقد أنّ الأمر محرج؟» سألتُ صديقي. ابتسَمَ واكتفى بالنفْي عبْر تحريك رأسه يميناً ويساراً. فهنا قد يصبح الكلام غير مرغوب فيه، حين تكون الرغبة في الراحة أكبر. ثمّة نكتة تُقال عن السودانيين وغرامهم بالراحة وعدم العمل: إنّ مذيع الراديو يفتتح الإذاعة صباحاً بالقول: «أعزائي المشاهدين سنبدأ هذه الفترة الصباحية باستراحة». كلما أخبرتُ عزيز هذه النكتة يقهقه فتلمع أسنانه البيضاء والعوجاء كأنّه يسمعها للمرة الأولى.

لم يعُد الحديثُ في السودان عن العلاقات الإسرائيلية السودانية من الممنوعات، لا بل إنّ صحيفة عريقة كـ«الرأي العام» باتت قادرة الآن (أي في عام 2011 تاريخ رحلتي) على أن تخصّص ملفًّا كاملاً لهذا الموضوع، أرفقته بمقابلة مع الأكاديمي المثير للجدل صلاح البندر، المبشّر برفع العلم الإسرائيلي قريباً في الخرطوم، كما أرفقته بعدد من الاستفتاءات مع سياسيّين ورجال دين لمعرفة إيجابيات وسلبيات العلاقة بإسرائيل.

فجّر الدكتور صلاح البندر قضية كبيرة قبل أشهر قليلة. هذا الأكاديمي الغامض، الذي يعمل باحثاً في جامعة كامبريدج البريطانية العريقة، كشف، مستنداً إلى الارشيف البريطاني، عن سرّ العلاقات التاريخية بين بعض الأحزاب السودانية العريقة وإسرائيل.

كنت قد التقيت البندر في شقة صغيرة في كامبريدج، قال إنّها ليست منزله الدائم، بل يستخدمها للعمل والتصوّف. كانت الشقة زاخرة بالملفّات وبخريطة كبيرة تزيّنها أضواء صغيرة لتوضح الخطوط المتعرّجة فيها. وإلى جانبه جهاز لاسلكي متطوّر. سألته عن السبب فشرح أنّه يراقب تحرّكات القوّات العسكرية في السودان، وتحديداً في دارفور، بحيث إنّه يستطيع الْتِقاط الاتّصالات التي يُجريها الجيش السوداني وكذلك المتمرّدون.

يحافظ البندر على الدرّاعة السودانية، لكنّه غيّر لونها بحيث صارت بنّيّة بدلاً من بياضها المعهود. يبتسم ككلّ أهل السودان تلك الابتسامة المعبّرة عن هدوء الحياة، لكنّ عينيه توحيان بشيء غامض، كأنّما الملفّات التي يحتفظ بها تضمّ أسراراً كثيرة، لا عن السودان فقط بل عن البحرين التي ذهب إليها مستشاراً حكومياً، وغادرها مطروداً بعدما فجّر فضيحةً قال فيها إنّ جماعة الإخوان المسلمين تريد السيطرة على الحكم عبر أحد أعضاء الأسرة الحاكمة.

من خلال لباسه الذي يشبه أزياء فنّاني أفريقيا أكثر ممّا يشبه لباس الباحثين الأكاديمين، يريد البندر القول إنّه لم يفجّر فضيحةً إلّا طلباً للحقيقة وحماية للسودان. لا بل إنّه يُظهر ذهابَه إلى إسرائيل بأنّه ما كان ليحصل لولا السعي لإطلاق سراح شابّ سوداني كانت السلطات الإسرائيلية قد اعتقلته حين تسلّل إلى هناك لمساندة الانتفاضة. ولكي يقطع الطريق على التشكيك، يسارع البندر إلى التأكيد أنّه هو نفسه تدرّب مع الفلسطينيين، وعاش في مخيّماتهم في لبنان، وتعرّف عن قرب إلى الرئيس الراحل ياسر عرفات. يقول ذلك، ثمّ يسوّي من جلسته الملاصقة للسجّادة المتواضعة في شقّته، ويُشير بيده إلى الصور الملصقة على الحائط من خلفِه. واحدة لياسر عرفات، وأخرى لزعيم النضال في جنوب أفريقيا نيلسون مانديلا، وأُخريات لفنّانين وسياسيين من أصول أفريقية، وبينهم خليجيون.

أسأله: وماذا عن إسرائيل؟ لماذا فجّرت هذه القضية؟ وماذا تملك من وثائق دامغة؟

يبتسم صلاح البندر، كأنّه قبض لتوّه مليون دولار. تلمع عيناه. يقوم عن الأرض ويدعوني للّحاق به. ندخل إلى مكتبه، يُخرج أحد الملفّات، ويقول: «انظر إلى هذا الأرشيف البريطاني، لاحِظْ أنّ الصديق المهدي، أي والد الزعيم الحالي لحزب الأمّة الصادق المهدي، كان قد التقى برجال الموساد الإسرائيلي في الخارج». يُكمل كلامَه بكثير من الثقة بالنفس: «إنّ كلّ الأحزاب السودانية نسجت علاقات مباشرة أو غير مباشرة مع إسرائيل». يكاد يشير أيضاً إلى الجبهة الإسلامية، بقيادة الرئيس عمر حسن البشير والدكتور حسن الترابي، لكنّه لا يملك معلومات، خلافاً للمعلومات الكثيرة التي بين يديه، عن الأحزاب التقليدية، وأيضاً، وخاصَّة، عن علاقة الجيش الشعبي لتحرير السودان بقيادة العقيد الراحل جون غارنغ بإسرائيل.

أعود من كامبريدج إلى الخرطوم، أقصد زعيمَ حزب الأمّة وطائفة الأنصار، الصادق المهدي. أطرح عليه السؤال عن العلاقة بإسرائيل. يستنفر كلّ شرايين رقبته. يبدو كمن لدغه عقرب. يستحضر كلّ الاتّهامات التي سيقت ضدّه، حين صافح عرَضاً شمعون بيريز، على هامش إحدى القمم. ينتفض في كرسيّه الذي يتوسّط خيمته قرب منزله الفسيح في أم درمان، ويسارع إلى القول: «إنّ إسرائيل هي وراء كلّ مشكلة في أيّ دولة عربية، وما لم تمارس هذا الدور، فإنّها تكون مقصّرة في سياستها التآمرية، وأنا شخصياً ضدّ التطبيع مع إسرائيل، لأنّ التطبيع معها يعني موافقة على نفي حق الشعب الفلسطيني، ونفي حقوق البلدان العربية المجاورة لها، كما في الجولان، وأنا كنت أقول، وما زلتُ أقول أوَّلا، لا يمكن ولا يجب أن يكون هناك أيّ نوع من التعامل مع إسرائيل، ما لم تسلّم بحق الشعب الفلسطيني، أيْ لا بدّ من الاعتراف بحق لاجئي 1948، ومَن تلاهم، ذلك أنّ هؤلاء هم أصحاب حق، وهناك القرار 194 الذي ينصّ على أنّه لا بدّ من أن يُرَدّ لهم حقهم. وثانياً، لا بدّ من انسحاب إسرائيل من كل الأراضي المحتلة، ومن دون أيّ مراوغة. وثالثاً، لا بدّ من أن يكون لأهل فلسطين الحقّ في إقامة دولة ذات سيادة، وليس تحت رعاية أحد. رابعاً، لا بدّ من تصفية المستوطنات التي أُقيمَت في أراضٍ عربية. وخامساً، لا بدّ من أن يعامل العرب داخل فلسطين، على أساس المساواة في حق المواطَنة. وما لم يتم ذلك، فالتطبيع جريمة».

حين يستذكر صلاح البندر التاريخَ، فإنّه يسحب ورقةً من دُرْج مكتبه، ويقرأ: «في 13 مايو/أيار 1 عُقِد لقاءٌ سرّي بين أرييل شارون وجعفر نميري، في مزرعة سفاري في نيروبي، ورتّب اللقاء رجل الأعمال السابق عدنان خاشقجي وضابط الاستخبارات الإسرائيلي يكوف نمرودي، وذلك بعد استشارة الرئيس المصري الراحل أنور السادات. كان الهدف من وراء ذلك حثّ نميري على المساعدة في ترتيب الانقلاب في إيران وذلك عبر إيواء وتدريب ضبّاط إيرانيين هاربين بقيادة سعيد رزقاني. وحين تمّت صفقة الفالاشا قبض نميري 10 آلاف دولار عن كلّ مهاجر يهودي إثيوبي إلى إسرائيل».

ليس جديداً الكلامُ في السودان اليوم عن العلاقات مع إسرائيل، أو عن صفقة الفالاشا. سعت الولايات المتحدة أكثر من مرّة لإقناع نظام عمر البشير بما يشبه ما أقنعت به النظام الموريتاني السابق بقيادة معاوية ولد الطايع. قالت للخرطوم مباشرة طبّعوا تسلموا. ألم تسكُتْ كلّ الأصوات المطالبة بالحرّيات، وبتعزيز الديمقراطية، وبوأد العبودية في موريتانيا، حين أقام ولد الطايع علاقات مع إسرائيل؟

قالت وزيرة الخارجية الأميركية السابقة مادلين أولبرايت مثل هذا الكلام مباشرة لنظيرها السوداني السابق مصطفى عثمان إسماعيل. شرحَتْ له أهمّية إقامة علاقات مع إسرائيل، والانعكاسات الإيجابية لذلك على السودان. لكنّ نظام البشير كان ولا يزال يُدرك أنّ مثل هذا التطبيع خطّ أحمر، حتى لو كان لا بأس بتمرير رسائل إيجابية، كالقبول بالمبادرة العربية للتطبيع، مثلاً. واليوم، بعدما تفاقمت أزمة دارفور، وكادت تهدّد مستقبل النظام، عاد بعض الوسطاء (وبينهم عرب) يحاولون إقناع السودان بالطريق الأقصر نحو الحلّ، أي عبر إسرائيل.

في رحلة بحثي عن العلاقات السودانية الإسرائيلية، كنت أستعيد من الأرشيف جزءاً من الدور الأميركي في العودة إلى فضيحة صفقة الفالاشا الشهيرة. لم ينسَ العالم بعدُ دورَ البيت الأبيض

والاستخبارات الأميركية في ترتيب هجرة يهود إثيوبيا الذين لا يزال الجدل بشأن يهوديتهم أو عدمها قائماً حتى اليوم.

يقوم عثمان السيّد بجسده الضخم من خلف مكتبه، يصافح بحرارة المنتظر أصدقاء منذ فترة طويلة. هو يعرف لبنان لأنّه عاش فيه، ودرس في جامعته الأميركية، لكنّه بات يعرف الكثير عن قضايا المنطقة بعدما أسّس مركزاً للدراسات يهتم بالشرق الأوسط وأفريقيا. كان عثمان السيد مدير الأمن الخارجي في عهد الرئيس السوداني السابق جعفر نميري، وعمل سفيراً لبلاده في إثيوبيا، وكان بالتالي أحد مالكي سرّ تلك الصفقة التي لا يزال صداها يتردّد حتى يومنا هذا، لا بسبب ما فعله نميري، بل لأنّ الفالاشا تعرّضوا لاحقاً للعنصرية ولنبذ المجتمع الإسرائيلي، وزُجَّ بهم في الجيش كلحمٍ للمدافع.

روى لي السيد كيف أنّ إسرائيل سعت للتغلغل في السودان، عبر إقامة علاقات قويّة مع متمرّدي الجنوب. قال لي: «كنّا نعرف أنّ ثمّة علاقاتٍ تقوم بين جون غارنغ وإسرائيل، وأنّ الحركة الشعبية لتحرير السودان ارتبطَتْ بعلاقات وثيقة مع الموساد الإسرائيلي، ولا سيّما عبْر مواقعها في أوغندا وكينيا، وأنّ بعض قادة التمرّد زاروا إسرائيل أكثر من مرّة. أنا كنت في أديس أبابا، وكانت الحركة موجودة في إثيوبيا، وكنت أعلم أنّ ثمّة اتصالاتٍ تجري بين السفارة الإسرائيلية في أديس أبابا وجون غارانغ وكبار معاونيه، وكانت كلّ هذه المعلومات تُنقَل إلى المسؤولين الأمنيين في السودان فيتقاسمونها مع بعض الأجهزة العربية، بُغية تطويق التغلغل الإسرائيلي».

«هاتي الشاي، يا بنت»، يصيح عثمان السيد. تدخل فتاة سودانية إلى مكتب السفير السوداني السابق بعد أن يفتح لها بزرّ كهربائي تحت مكتبه، كأنّه لا يزال يخشى الاغتيال، أو هو مستمرٌّ في الحفاظ على عاداته الأمنية القديمة. يسأل عن عدد ملاعق السكّر في الشاي الأشقر اللون. ثمّ يرمي نفسه مجدًّدا على كرسيّه الجلدي الأسود، خلف مكتبه ويواصل الرواية.

يقول: «بحكم مسؤوليتي السابقة عن الأمن الخارجي، أستطيع أن أؤكّد أنّ ثمّة قراراً سياسياً صدر من السودان، لنقْلِ يهود الفالاشا عبْر الأراضي السودانية إلى إسرائيل. كانوا قد دخلوا أصلاً إلى ولاية الغضارف السودانية من إثيوبيا. وكان عددهم 7400 شخص، وقد أدّت المخابرات الأميركية والإسرائيلية الدور الأبرز في ذلك. وكان رجال الموساد الإسرائيلي يعملون، أصلاً، من خلال السفارة الأميركية في الخرطوم، ومن هناك نسجوا العلاقات الوثيقة مع المخابرات الإثيوبية. وأسهَمت المجاعة التي ضربت إثيوبيا عام 1984، في عمليات التهجير. كنّا نعْلم من خلال التقارير التي كانت تصِلُنا، وبعضُها عبْر سفارتنا في واشنطن ومندوبي جهازنا الأمني في أديس أبابا وبعض الدول الأفريقية، أنّ ثّمة يهوداً اسمهم الفالاشا، كانوا قد هاجروا من إسرائيل (بحسب زعم التاريخ الإسرائيلي لهؤلاء) مروراً بالسودان، عبْر مالاوي، إلى إثيوبيا، يستعدّون اليوم للذهاب إلى إسرائيل بمساعدة الأميركيين والإسرائيليين. وبعد فترة، فهمنا أنّ نميري قرّر الاستجابة لضغوط الأميركيين والسماح بترحيلهم إلى إسرائيل، شريطة ألّا يذهبوا مباشرة إلى هناك، بل أن يُنقلوا إلى أميركا أو أوروبا، وبعد ذلك فهم أحرار. والواقع أنّ الذي فجّر كلّ القضيّة لاحقاً، هو صحفي أجنبي حقق لدى شركة سفر أجنبية، وحين انكشف السرّ، شعر نميري بالقلق وأوقف العملية، لكنّ السفير الأميركي في الخرطوم عاد يمارس ضغوطاً، لاحقاً، وحصلت عملية الترحيل الثانية. وهكذا تمّت عمليتا سبأ وموسى».

في الحقيقة فاجأني ما رواه لي رجل المخابرات والدبلوماسي السابق. كان معروفاً أنّ المشير عبد الرحمن سوار الذهب وزير الدفاع السابق، هو عنوان الديمقراطية الحقيقية في السودان. هذا الضابط الذي يتّصف بالنزاهة كان أول ضابط عربي ينقلب على السلطة، ثمّ يسلّمها إلى مدنيين تشجيعاً للديمقراطية. هل يُعقَل أن يكون عالماً مسبقاً بصفقة الفالاشا؟

يسارع عثمان السيد إلى التأكيد بالقول: «نعم، إنّ سوار الذهب كان يعْلم ذلك، إذ لا يمكن أن تحطَّ طائراتٌ عسكرية أميركية من نوع سي 130، من دون أن يعْلم بها الجيش ووزارة الدفاع. وأنا أؤكد أنّ

القرار كان سياسياً من الرئيس نميري ومن عمر الطيّب (المسؤول الأمني الأول، في عهد نميري، والذي حوكم بسبب الفالاشا)، وأنّ الدولة كلّها تتحمّل المسؤولية، وعلى رأسها نميري والفريق أول عبد الرحمن سوار الذهب، لأنّه كان وزير الدفاع آنذاك؛ ذلك أنّه تمّ ترحيل مجموعة سبأ بطائراتٍ من مطار العزازة في ولاية الغضارف، وكان ذلك بعِلْم وزير الدفاع ومدير العمليات الحربية اللواء عثمان عبد الله، الذي أصبح وزير الدفاع في الانتفاضة، واللواء المرحوم فارس عبد الله حسني الذي كان مدير الاستخبارات. وبالتالي، فإنّ عملية كهذه لا بد من أن يكون سوار الذهب قد علم بها».

هل الفالاشا يهود فعلاً؟

كلّ الأدبيات حول يهود إثيوبيا، المعروفين باسم فالاشا، تؤكّد أنّ ممارستهم لشعائر الدين واحتفالاتهم بعيدة تماماً عن اليهودية. ثمّة من يقول إنّ الفالاشا إنّما زُجَّ بهم زجًّا في الديانة اليهودية، وذلك بفضل اكتشافهم من قبل أميركيين وفرنسيين. كلمة فالاشا تعني بالعبرية المهاجر أو البدوي الرحّالة. ينسبهم بعض مؤرّخي اليهود إلى سلالة الملك سليمان أو الملكة بلقيس. ويقال إنّهم هاجروا إلى إثيوبيا منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام. لكنّ مؤرّخين آخرين يقولون إنّ الفالاشا قبيلة أفريقية اعتنقت اليهودية على أيدي مهاجرين يهود، وربّما لم تعتنقها أصلاً.

لم يكن أبناء الفالاشا يعرفون العبرية قبل رحيلهم إلى إسرائيل. وهم لا يعترفون بالتلمود. تقول بعض الدراسات إنّ كتابهم هو نسخة محوَّرة من التوراة التي كانوا يقرأونها بلغتهم الأصلية، أي اللغة الأمهرية. مع نكبة فلسطين وقيام دولة إسرائيل أنشِئت مدارس في إثيوبيا في عهد الإمبراطور هيلاسيلاسي حيث جرى تعليم الفالاشا مبادئ العبرية، وبدأ إعدادهم للهجرة إلى إسرائيل، على الرغم من أنّ أعضاءً في الحركة الصهيونية أكّدوا قبل ذلك أنّ الفالاشا لا يتمتعون بدم يهودي.

صاروا يهوداً بالقوة، وباتوا أبناء قبيلة الدان اليهودية الضائعة، على حدّ زعم كبير حاخامات اليهود السفرديم في إسرائيل، في مطالع السبعينيّات. لعلّ أصلهم المشكوك فيه، ولونهم الداكن، وتاريخهم الفقير، هي التي جعلت العنصرية تتفاقم ضدّهم، حتى وصل الأمر إلى حدّ المطالبة بفحص دمائهم.

النميري قدّم الفالاشا ثمّ أسقطته أميركا

خلال بحثي عن أسباب تسهيل السودان ترحيل الفالاشا إلى إسرائيل، كنت أعلَمُ أنّ ثمّة سبباً سياسياً عند الرئيس جعفر النميري يهدف إلى تعزيز وضعه في الحكم، والقضاء على المعارضة، وفتح الخزائن والاستثمارات الغربية عليه. لكنّ مصير الرجل لم يكن أبداً أفضل من مصائر الكثيرين غيره، مِن الذين أسقِطوا فور انتهاء مهمّتهم.

قصدت العميد السوداني حسن البيّومي لأعرف المزيد. هو رجل هادئ أكثر من اللزوم. بشوش أكثر من المتوقَّع، ويوحي بأقلّ ممّا كان عليه حين تولّى سابقاً إدارةَ الأمن الخارجي السوداني. وضَع كتابين على الأقلّ عن تجربة الاستخبارات السودانية في الخارج. قال لي: «إنّ ترحيل الفالاشا لم يكن صفقة، بل انطلق من قوانين السودان والقوانين الدولية التي تحرّم على السلطة إعادة لاجئين إلى بلادهم، إن كانوا معرّضين هناك للعنف الجسدي أو الموت. لكنّ اكتشاف عمليات الترحيل كان مبكراً، وكانت أميركا متورِّطة فيها منذ البداية؛ وذلك لأنّ الأمن السوداني كان قد عثر على بقايا مأكولات وثياب تابعة للموساد الإسرائيلي في الأراضي السودانية. كذلك عثرنا على أميركيين واعتقلناهم في جوبا، فاعترفوا بأنّهم أشرفوا على ترحيل الفالاشا إلى إسرائيل، وسلّمناهم إلى السفارة الأميركية. كذلك، فإنّ الأميركيين ضغطوا منذ البداية على الرئيس النميري؛ ذلك أنّ الرجل لم تكن له علاقات مباشرة مع إسرائيل، بل مع البيت الأبيض. وكان السودان يعيش حالة صعبة حيث كانت المجاعة تضرب غربَه وشرقه، وكانت الأحوال الاقتصادية متدهورة، وكان الأميركيون يعملون من خلال قسم شؤون

اللاجئين في سفارتهم. دخل جورج بوش نفسه على الخط خلال زيارة خاصة تتعلق أساساً بمشكلة المجاعة في السودان».

ثم شرح لي كيف تعامل الأميركيون آنذاك مع السودان، وكيف سلّموه طائرات تجسّس أواكس وعتاداً عسكرياً. وختم بقوله: «هم كانوا يتعاملون معنا بخبث، وأعتقد أنهم هم الذين عملوا على إسقاط النميري حين انتهى دوره».

لكن هل كان ذلك كلّه سيؤدي يوماً ما إلى انفصال الجنوب السوداني، وتغلغل إسرائيل عميقاً في المجال الحيوي للأمن القومي العربي؟ هذا كان هاجسي الذي أعْدَدْتُ له رحلةً إلى الجنوب، لأكتشف أنّ كلّ شيء بات جاهزاً لتحقيق الانفصال.

جوبا في خريف 2010
قبل الانفصال: لا نريد عرباً

نظرات الريبة والشك التي تقابل الزائر العربي لمدينة جوبا، في جنوب السودان، لا تدَعُ أيَّ مجالٍ للشك بأنّ الجنوبيين ما عادوا قابلين، بأيّ شكل من الأشكال، الوحدة مع الشمال العربي، ولا المشروع الإسلامي الغريب أصلاً عنهم. باتوا يفضّلون الغربَ أولاً، والجوار الأفريقي ثانياً. ليس غريباً أن يمدّ الزائر العربي يدَه لمصافحة أحد أبناء جوبا، فترتدّ اليد الأخرى إلى الوراء، وتحلُّ مكانها نظرة فيها من العدائية ما لا يبشّر بأيّ خير. ربّما هو التاريخ الاستعماري. لكن، بالتأكيد هي الحربُ التي امتدّت لأكثر من عشرين عاماً. وهو أيضاً التأجيج المباشر وغير المباشر الذي تبثّه دعاية الحركة الشعبية في الجنوب، بغية الانفصال عن الشمال السوداني.

ليس غريباً، والحالة هذه، أن يسمع الزائر العربي في جوبا عباراتٍ من نوع «لا نريد عرباً هنا». أمرٌ يدعو فعلاً إلى التساؤل عن سرّ هذا الحقد الدفين، المعبَّر عنه بوسائل مختلفة، أقلُّها الرغبة الفعلية في الانفصال، وأسوأ ما فيها تنامي مشاعر العنصرية، كرَدّ فعلٍ تاريخي على عنصرية أخرى كانت على ما يبدو تُمارَس ضدّ جنوبيين في شمال السودان.

في هذه الأجواء الكارهة للعرب، وصلتُ إلى جوبا في خريف 2010. سحنتي السمراء لم تساعدْني في إخفاء عروبتي، فبدأتِ العقباتُ الإدارية منذ ترجّلي من الطائرة القادمة من الخرطوم. شعرتُ كأنّي أنزل في دولة أخرى لا علاقة لها بالسودان، إلّا بالاسم، ولم تعرف من العرب والعروبة إلّا ما يدفعها إلى التنافر معهما.

كانت السيدة عواطف أول من التقيت بهم، فسألتها عن سرّ هذه البغضاء. هي باحثة سودانية في علم الأحياء، وناشطة في مجال مكافحة الإيدز. قالت: «كنت أدرس في الخرطوم، وكنت كلما مشيت مع صديقتي السودانية الشمالية، يتضاحكون عليّ، ويقولون بشيء من السخرية، لماذا تسيرين مع زيتونة؟». الزيتونة هنا تشير إلى اللون الأسود. عجباً، كأنّما باقي السودان شقر أو بيض. روَت لي كيف أنّها، وهي المسيحية، كانت تضطرّ لارتداء غطاء الرأس وثياب طويلة فضفاضة، لتتناسب مبادئ الشريعة المفروضة في شمال البلاد.

لا شيء في جوبا يشبه الخرطوم، فالجنوب يبدو منفصلاً فعلياً عن الشمال. لم ينفعني التصريح الصحافي مثلاً، الذي حصلت عليه من السلطة المركزية في الخرطوم، في أيّ شيء هنا. لم ينفع سوى باستثارة سخرية من قدَّمته له، فقد سارع إلى القول بعصبية وغضب: «هذا لا نعترف به هنا، نحن دولة مستقلّة في ظلّ النظام القائم حاليًّا، وإن كنتَ تريد أن تعمل بهذا التصريح، فما عليك سوى العودة إلى الخرطوم». في مثل هذه الحالات، تعلّمنا في مهنة المراسل الحربي، أن تساير من يهاجمك، وأن تهدّئ من روعه، لكنّي ما استطعت احتمال هذه العنصرية، ولا أحببتُ أصلاً انفصال أيّ جزء من وطننا العربي، ولم أفهم أو أتقبّل هذه اللهجة الاستعلائية التي حدّثني بها. فكّرت بأنّي سأقول له ما أريد، وليفعل ما يشاء. نظرت إلى عينيه بعين الغضب. ركّزت عليهما دون أن أشيح بناظري، وقفت وقلت له: «على حدّ علمي إنّ الخرطوم لا تزال السلطة المركزية، وعلى حدّ علمي إنّي هنا لكي أفهم ما يحصل، وإن كنتَ لا تريد عرباً، فعليك على الأقلّ التعامل مع الناس باحترام، وأنا سأعود للتوّ إلى الخرطوم، وهنيئاً لكم الانفصال والحقد والكراهية، الذنبُ ليس ذنبك، بل ربّما كان ذنبي أنا، لأنّي احترمتك أكثر ممّا يجب». كمن مسّه جنون، ضرب يده على الطاولة وقال: «نعم، لا نريد عرباً هنا، يكفينا ما عانينا منكم». ضحكت منه بسخرية، وقلت: «ما دمتم عانيتم منّا، فلماذا تريدون من الآخرين أن يعانوا منكم؟ يبدو أنّ الحكمة الفلسفية التي تقول إنّ من يتعرّض للظلم قد يصبح أكثر ظلماً وجَوْراً ممّا تعرّض له، هي حكمةٌ صحيحة. شفاك الله يا أخي وبارك لك بالدولة وخيراتها، لكن في المرة

الثانية كن محترماً أكثر إن كنت تريد أن تبني دولة لا عصابة».

خرجت وكنت لا أزال أسمع صوته المضطرب يصرخ في المكتب، ثمّ رتّبت الأمور عن طريق آخر عبر إعلاميين معروفين في الجنوب، ومن خلال السلطات، ومن خلال رجل أعمال لبناني يُقيم مشروعاً تجارياً هناك، وله علاقة مالية مباشرة مع مسؤولي الجنوب.

جوبا الفوضى والصليب

فوضى عارمة في جوبا هذه الأيّام. تشبه عاصمة الجنوب إلى حدّ بعيد ما كانت عليه بيروت أثناء سيطرة منظمة التحرير والميليشيات المسلحة المتقاتلة على مزابل الوطن. فأنتَ لا تدري مَن يوقفك في الطريق، ومَن يطلب هويّتك. كلّ الازدهار الاقتصادي الذي شهدته في السنوات الخمس التي أعقبت «اتفاق نيفاشا» للسلام منذ عام 2005، بات يؤكّد في ذهن المواطن الجنوبي أنّه كلما ابتعد الجنوب عن الشمال، تحسّن وضعه. ربما في الأمر وهمٌ، إنْ نظرنا إلى صراعات أهل الجنوب في ما بينهم وجشعهم للسيطرة على مقاليد الثروة. إنّي على يقين من أنّهم سيغرقون عاجلاً أو آجلاً في صراع أمراء الحرب، تماماً كما حصل عندنا في لبنان.

لم أجد مساحيق الاقتصاد في الجنوب قادرة على إلغاء تجاعيد الحرب ومفاعيل النزوع نحو الانفصال. ليس غريباً أن يكون الفندق اللبناني ذو الخمس نجوم، القائم في جوبا، والذي يُعدّ الأول من نوعه هناك، رغم حداثة إنشائه، مضطرًّا لتوظيف 12 حارساً جنوبياً مسلحين برشاشات الكلاشنيكوف. ما إن ينتصف الليل حتى تغلق كلّ الأبواب الخارجية، خشية تكرار عملية السطو المسلح التي تعرّض لها سابقاً، حيث سُلب 22 ألف دولار من صندوق الفندق.

مدير الفندق ناظم فياض، رجل الأعمال الناجح وابن بلدة أنصار الجنوبية، والمولود في سيراليون، قال لي: «تغيَّرتْ جوبا كثيراً في السنوات الخمس الماضية، والقيادة الجنوبية تسهّل مهمّة المستثمرين بحيث إنّ إجراءات البناء والاستثمار في الجنوب، باتت أكثر سهولة منها في الخرطوم». روى كيف أنّه حين غامر بالمجيء إلى عاصمة الجنوب، الخارجة لتوّها آنذاك من عقدَيْ الحرب، لم يكن أيُّ شيء يوحي بحياة عصرية، فلا سيّارات ولا فنادق ولا بنى تحتية. اضطرّ للنوم مع أقربائه في غرفة بنوها بما تيسّر، حتى يبدأوا العمل. أمّا اليوم فإنّ فندقه المكوَّن من 92 غرفة، يعمل طوال أيّام السنة من دون أن تكون هناك غرفة واحدة شاغرة ولو لليلة واحدة.

بات هشام فيّاض قريب ناظم، المالئ المكان حيويّة بروح النكتة التي يمتلكها، يعرف كلّ مسؤولي الحركة الشعبية وحكومة الجنوب، ليس مفاجئاً أن ترى إلى طاولته قيادياً جنوبياً يتناول المنقوشة بالزعتر أو البيتزا المطعّمة بنكهة لبنانية.

يبدو أبناء الجنوب السوداني فرحين بقرب انفصالهم عن الشمال، يحدوهم الأمل بأنّهم ما إن ينفصل الجنوب حتى تجري فيه أنهار اللبن والعسل، ويبيض النفط ذهباً خالصاً، ويحلّ النعيم محلّ الحرمان والفقر. هذا بالضبط ما يشاهدونه في جوبا التي صارت فيها زحمة السيّارات خانقة والمحالّ عشوائية، وحركة فنادق غريبة من نوعها، ذلك أنّ غرفة متواضعة، في فندق مبنيّ من ألواح الألومينيوم، قد تكلّف ما بين 200 و300 دولار للّيلة الواحدة.

كم تشبه جوبا اليوم ما كانت عليه بيروت في عهد الميليشيات. سيّارات الدفع الرباعي والجيبات تجوب الشوارع على نحو عشوائي، تتخلّلها مئات الدرّاجات النارية. شبّان مسلّحون أو من دون سلاح، ينتظرون عند جوانب الطرقات يرصدون كلّ حركة غريبة في مدينتهم. أمّا الغرباء فحدِّث ولا حرج، من القوّات الدولية إلى المبعوثين الدوليين إلى المبشّرين بالمسيحية.

ابتعدت أمتاراً قليلة عن فندق «صحارى» اللبناني، فوجدت لافتةً لفندق مجاور مكتوباً عليها كلمة

«Shalom» العبرية. لم يعد غريباً في جوبا أن تسمع عن إسرائيل وتشاهد آثارها في السياسة والأمن والحركة التجارية، وإن عزّ الأمر مباشرة، فلِمَ لا عبْرَ الأصدقاء الإريتريين الذين يحرّكون الكثير من الفنادق هناك. نعم، إنّ إسرائيل موجودة هنا، على الرغم من أنّ الدولة المركزية في الخرطوم لا تزال تناصبها العداء، وهي ليست في وارد إقامة علاقاتٍ معها. فكيف لهذا القسم الجنوبي من بلد لم يُقسَّم بعدُ، أن يقرّر فتح العلاقات علانية مع إسرائيل، حتى ولو أنّ مقاتليه كانوا يتدرّبون منذ سنوات طويلة هناك؟ ذلك كلّه يقدّم مؤشرات سيّئة تدلّ على انفصال حتمي.

في الطريق الفاصلة بين فندق «نيو سلام» والمطار، تسير تظاهرة تضمّ أكثر من 200 شخص، كلّهم رهبان وراهبات سود، يتربّع الصليب الكبير على صدورهم. كأنّما يريدون القول إنّ وجه المدينة سيكون بعد اليوم غربياً مسيحياً أفريقياً.

تخيّلت كيف ستكون حال الدكتور حسن الترابي منظّر الإسلام الحديث في السودان، لو أنّه شاهد تلك التظاهرة، وهو الذي صدَّق ذات يوم أنّ مشروعه الحضاري الإسلامي سيعمُّ الجنوب، ويمتدُّ عبره صوب الجوار الأفريقي، ولمَ لا يكون صوبَ العالم أجمع؟! لم أرَ في حياتي صليباً خشبياً بهذا الحجم، يتدلّى من رقاب السائرين في المسيرة. الرسالة واضحة.

تمثّل جوبا بلا شك فشلاً ذريعاً للمشروع الإسلامي. قلّما تجد مسؤولاً جنوبياً من الحركة الشعبية أو من معارضيها، لا يحمّل «الهيمنة العربية الإسلامية» مسؤولية ما حدث وسيحدث للجنوب وغير الجنوب. هذا منصور خالد، وزير الخارجية السابق والقيادي في الحركة الشعبية الجنوبية، على الرغم من كونه شمالياً، يقول صراحة في كتابه عن الجنوب والهيمنة والقمع، إنّ العروبيين في السودان هم الذين أوصلوا الأوضاع إلى ما هي عليه، بسبب استعلائهم وقمعهم. يسعى هذا المثقف السوداني اللامع والمتّهم بالدوران في مناخات أميركية، إلى إثبات أنّ الحركة الشعبية كانت، مع قائدها الكاريزماتي جون غارنغ، وحدوية إلى أقصى حدّ، وأنّ كلّ ما يقال عن علاقتها بإسرائيل ليس سوى صنيعة أوهام العروبيين.

في الشمال أيضاً، قد تجد الصادق المهدي، زعيم حزب الأمّة وطائفة الأنصار، منتشياً وقلقاً في خيمة حديقة منزله الفسيح في أمّ درمان. فأمّا النشوةُ، فلأنّه يشهد بأمّ العين تفكُّكَ مشروع ما بقي من الجبهة الإسلامية في النظام الحالي، وذلك لأنّ الرجل يحمل حقداً دفيناً على من خلعوه من السلطة. وأمّا القلقُ، فلِيَقينِه بأنّ الانفصاليين في الجنوب لا يفرّقون بينه وبين الترابي، أو عمر حسن البشير، فالهدف هو كلّ عربي إسلامي، على الأقل، في مرحلة أولى.

يسوّي الصادق المهدي من ثوبه السوداني الأبيض، يمسّد لحيتَه المحنّاة، ويقول إنّ ما وصل إليه الجنوب من نزوع نحو الانفصال، وما قد تصل إليه مناطق أخرى كدارفور أو أبيي، «إنّما هما تعبير عن فشل حتمي كان سيصل إليه النظام». لا يزال المهدي منذ وصول نظام البشير إلى السلطة، ينذر باحتمال سقوطه بعد فشل. لكنّ النظام ثابت، وما يتغيّر هو أرض السودان. يطرح المهدي حلولاً لإنقاذ البلاد، خشيةَ التغلغل الاسرائيلي الغربي، وتطويق الأمن العربي من الجنوب. من هذه الحلول مثلاً، مفوّضية حكماء، أو قمّة سياسية تضمّ الجميع، لبحث المستقبل السياسي للبلاد. وحين يطرح مثل هذه الأفكار، تراوده على الأرجح، فكرةُ إطاحة النظام الحالي.

لكنّ اللبن والعسل الموعودين في الجنوب، قد ينقلبان عَلْقَماً على دُعاة الانفصال، فالصراعات الجنوبية الجنوبية كثيرة، وها هو موقع وزارة الخارجية الفرنسية على الإنترنت يؤكّد، مثلاً، أنّه منذ العام الماضي قتلت تلك الصراعات أكثر من تسعة آلاف شخص.

للتعبير عن طبيعة الصراعات، ليس هناك أفضل من الدكتور المهندس لام أكول، زعيم ومؤسِّس حزب الحركة الشعبية لتحرير السودان – التغيير الديمقراطي، أي الحزب الذي انشقّ عن الحركة الشعبية؛ فهو يشنّ حملة شعواء على حكومة الجنوب، ويتّهم الحركة الشعبية، بزعامة سلفا كير

ميارديت (نائب الرئيس السوداني) بالعمل، تحت تأثيرات غربية، على فصل الجنوب.

التقيته في أحد فنادق جوبا. كان قد شارك لتوّه في مؤتمر جنوبي يبحث الاتفاق على المرحلة المقبلة. أكّد لام أكول ضرورة وقْفِ احتكار الحزب الواحد في الجنوب للسلطة، أي الحركة الشعبية، وأنّ الانفصال قد لا يحصل لو أنّ الأطراف الأخرى قالت كلمتها، كما جدّد التأكيد أنّ الحركة الشعبية هي التي تنمّي مشاعر الانفصال عند الجنوبيين، لكنّها لا تسيطر على الشارع الجنوبي.

يبدو أنّ في ما يقوله لام أكول كثيراً من الصحّة؛ فإن كانت الحركة الشعبية تستند إلى المدّ الشعبي القبَلي الذي تمدُّها به قبائل الدينكا، فماذا عن قبائل النوير والشُّلُك الجنوبية؟ وماذا عن قبائل المسيرية العربية التي ستدخل، على الأرجح، في مرحلة النزاع المسلّح الخطير مع قبائل الدينكا-نقوك، في منطقة أبيي، ما لم يُعترَف بحقها في الرعْيِ والثروة النفطية والحدود.

لعلّ هذا بالضبط ما يراهن عليه أهل الشمال السوداني، على الرغم من خطورة الأمر. ثمّة قيادات شمالية بارزة تقول، ولا ترغب في ذكر اسمها، إنّ الانفصال قادمٌ لا رَيْبَ فيه، لكنّه قد لا يدوم طويلاً؛ وذلك لأنّ تناحر الجنوبيين في ما بينهم، والمشاكل التي قد تقع عند الحدود، ستُرهِق الجنوبيين، وتضعضع قواعدهم، وتزعزع اقتصادهم. وربّما بعد ذلك، تقوم وحدة جديدة على أسس أخرى. وهم في ذلك لا يستبعدون المقارنة مع ما حصل بين شمال اليمن وجنوبه.

هذا بالضبط ما تسعى الدول الغربية إلى تجنُّبه، وهذا ما يفسّر الزخمَ الكبير في الدعم السياسي والاقتصادي والأمني الذي تقدّمه أميركا ودول غربية وبعض الدول الأفريقية للجنوب. في ذهن هؤلاء، يجب أن تنجح التجربة الانفصالية الجنوبية، لكي يشتدّ الطوق على نظام الرئيس عمر حسن البشير.

نام العرب فانفصل الجنوب

أما زال في وُسْعِ العرب أن يمنعوا وقوعَ الانفصال؟ السؤال يستحق مجرّد ابتسامة ساخرة من أحد قادة الحركة الشعبية في جوبا. لكنْ، ثمّة وعيٌ عربيٌّ متأخرٌ لا بدّ من الإشارة إليه. ها هي مصر، المهدّدة قبل غيرها بانفصال الجنوب، تكثف المساعدات الإنسانية والاجتماعية والطبّية، وذلك بعدما نسجَتْ في السنوات القليلة الماضية، علاقاتٍ ودِّية مع القيادات الجنوبية، بُغية كسبِها ومنعها من الوقوع في حضن إسرائيل. وها هو أحد أبناء الشيخ زايد من الإمارات، يأتي بمشروع زراعي اقتصادي بحوالى 200 مليون دولار. وبينهما عقدت جامعة الدول العربية مؤتمراً في عاصمة الجنوب، بُغيةَ تعزيز الاستثمار وأواصر الصداقة.

لا يُخفي نائب رئيس مجلس النواب السوداني، أتيم غارنغ، وهو أحد القادة الجنوبيين، رغبته الواضحة في أن يأتي المستثمرون العرب للعمل في الجنوب. يقول بشيء من اللوم التاريخي: «متى سيخرج إخواننا العرب من حسّ المؤامرة، ويتعاملون مع الواقع؟ وبدلاً من أن يتركوا إسرائيل وغيرها تدخل إلى الجنوب، فليأتوا ويُقيموا علاقات اقتصادية وسياسية، فإسرائيل دولة صغيرة وفقيرة، بالمعنى الاستثماري، وهُم أثرياء. وفي الجنوب مساحات شاسعة من الأراضي القابلة لكلّ أنواع الاستثمار». أعتقد أنّه على حقٍّ في ما يقول. الجانب الجغرافي والاستثماري، في ما يقوله، صحيحٌ تماماً؛ فحين كانت الطائرة تحلّق بنا فوق الجنوب، كانت المساحات الخضراء والغابات والأراضي الخصبة، ونهر النيل، والطبيعة الخلّابة، والامتدادات الشاسعة لتلك الأراضي، تبعث على سؤال واحد: «لماذا يقتل العرب دولهم، الواحدة تلو الأخرى، وهم قادرون على الاكتفاء الذاتي إذا وضعوا مجرّد استراتيجية زراعية بسيطة؟».

لا شك في أنّ الجواب صعب، ولا سيّما أنّ عدداً من القادة العرب لا يعرفون، على الأرجح، أين تقع جوبا، ومن هي قبائل الدينكا والنوير والشلك والمسيرية وغيرها؛ ولا يعرفون أنّ هذا السودان المجاور

لثماني دول وذا المساحات الشاسعة الغنّاء، والذي منه تستورد شركتا «كوكا كولا» و«بيبسي كولا» وشركات أدوية البروبايوتيك الأميركية، الصمغَ العربيَّ بثمن بخسٍ؛ يشكّل منجم ثرواتٍ طبيعية ستضيع، على الأرجح، شبراً بعد شبر، بينما نبني لغيرنا ناطحات سحابٍ على الرمال.

مَن يودّ معرفة شيء، في الوقت الراهن (أي في عام 2010) عن السودان، فلْيعْلَم أنّ السودان مقبلٌ على مصير قاتم، وأنّ الانفصال سيجرّ الانفصال، وأنّ مؤامرةً كبيرة تُحاك ضدّه، وأنّه لم يبقَ لشعبه الطيّب والمحِبّ للعرب وقضاياهم، سوى جلسات «الونس» حين تغيب الشمس فوق نهر النيل. هذا، على الأقل، ما نفهمه من كُتّاب غربيين كبار، كنت أقرأ كتبَهم قبل وصولي إلى السودان، وأذكرُ منهم كاتبَ التحقيقات الفرنسي الكبير بيار بيان.

أهي مؤامرة، أم سرقة ثروة؟

يروي المحقق والكاتب الفرنسي الشهير بيار بيان، في كتاب بعنوان Carnages (مذابح)، أنّ ثمّة تآمراً دولياً وأفريقياً حصل في السودان لتقسيمه. يقول: «حين كنت أقوم بتحقيقي عن المذابح، اكتشفتُ أنّ أفريقيا مهمّة جدًّا لإسرائيل، لا بل أقول إنّها كانت مسألة حياة أو موت؛ فإسرائيل تعتبر السودان إحدى الدول الأكثر خطورة، بسبب مساحته وخيراته الباطنية. عقدت إسرائيل تحالفاً دائرياً مع دول الجوار السوداني، وخاصّة مع إثيوبيا وإريتريا وأوغندا، وأصبحت أوغندا مهمَّة جدًّا ومركزيةً في الخريطة الاستراتيجية لإسرائيل. كان الهدف تطويق السودان، والبَدء بتقطيع أوصاله. ومنذ عام 1956 بدأت إسرائيل بتشجيع حركة آنيا نيا، حتى عام 1972. وبعد ظهور الجيش الشعبي لتحرير السودان بقيادة جون غارنغ، دعمته منذ البداية بالسلاح والمستشارين. ثمّ منذ عام 2003 لاقت حركة جنوب السودان، التي تدعمها إسرائيل، تشجيعاً أسهم في امتداد التمرّد إلى غرب السودان، أي دارفور. أمّا بالنسبة إلى أميركا التي تفكّر على مستوى عالمي، فإنّ السودان هو البلد الأكبر مساحة في كلّ أفريقيا والعالم العربي، بحيث تصل هذه المساحة إلى أكثر من مليوني كلم مربع». ويروي مؤلّف الكتاب، بكثير من التفصيل، كيف تُحاكُ شبكات اللوبي، من أميركا إلى إسرائيل فأفريقيا، حين يُراد الضغط على دولة...

ثروة الجنوب الهائلة

الواقع أنّ الجنوب مهمٌّ نفطياً وزراعياً وحيوانياً؛ فأكثر من ثلثي النفط السوداني يُستخرَج من هناك. فيه 84 مليون هكتار قابلة للزراعة، من أصل حوالى 250 مليون هكتار، هي مساحة البلاد. لا يُستغَلّ من هذه المساحة الزراعية سوى ما يقارب 19 مليون هكتار، أي إنّ ثلثي المساحة القابلة للزراعة لم تُستغَلّ بعد، وهي تساوي بمساحتها تقريباً المساحة المزروعة في كامل الوطن العربي.

لم يُحسِن العرب استغلال ذاك المخزون الهائل. ثمّة إحصاءات دقيقة تؤكّد أنّ في الوطن العربي 85 مليون عامل، لكنّ القوّة العاملة الزراعية لم تتخطَّ 26 مليوناً، بينما تقتصر مساهمة القطاع الزراعي في الناتج القومي العربي العام على 80 مليار دولار من إجمالي 705 مليارات. وبالتالي، فإنّ العرب يستوردون القمح والسكّر والأرُزّ ومجمل الحبوب.

هم يستوردون أيضاً اللحوم الغربية، بينما في السودان ثروة زراعية وحيوانية هائلة: 24 مليون هكتار من المراعي، 64 مليون هكتار من الغابات، مصادر مياه وفيرة ومتعدّدة... ويحتلُّ السودان المرتبة السادسة عالمياً، والأولى عربياً، لجهة الثروة الحيوانية. أكثر من 128 مليون رأس ماشية (37 مليوناً من الأبقار، و38 مليوناً من الماعز، و46 مليوناً من الأغنام، و3 ملايين من الإبل، و4 ملايين حصان أو من فصيلة الخيول).

نفهم الآن كيف أنّ رجال أعمال أميركيين يسارعون إلى شراء أراضٍ في الجنوب، حتى قبل أن

ينفصل، وفي مقدَّمهم المصرفي المتقاعد فيليب هالبيرغ الذي اشترى 400 ألف فدّان في الجنوب، أيْ إنّه اشترى مساحة تزيد على مساحة إمارة دبي.

التنافس الصيني-الغربي

كان لا بدّ من تقسيم السودان، لوضع اليد على خيرات البلاد انطلاقاً من جنوبه. سرَّع الغرب الخطى حين اكتشف فجأة أنّ الصين باتت سيّدة أفريقيا أو تكاد، وأنّها باتت القوّة الاقتصادية الثانية في العالم، وقد تصبح الأولى. تخطّى إنتاجُها القومي كلَّ إنتاج منطقة اليورو، وفاق نموُّها الاقتصادي ثلاثةَ أضعاف نظيره الأميركي. نسبة الناتج القومي الخام في الصين بلغت 11 في المئة عالمياً، بينما كانت تقتصر على 5 في المئة في مطلع السبعينيات. صارت المصدِّر الأول عالمياً. أنتجت 40 في المئة من الإسمنت والحديد، على مستوى العالم، في الأعوام الماضية. تَضاعَف إنتاجُها الصناعي مرّات عدّة، منذ عام 2002. عقدت تحالفات استثمارية واقتصادية هائلة مع أفريقيا، وهي تقود دبلوماسية هادئة، ولكن حازمة، حين يتعلق الأمر بمجلس الأمن الدولي. عزّزت الصين وجودَها في السودان، فكان لا بدّ من إبعادِ شبح سيطرتها على الثروات. هذا ما فهمتُه من قيادات سودانية كثيرة، ومن كتب ودراسات. لكنّي فهمت أكثر، وأنا أودّع جوبا، أنّني قد لا أستطيع العودة إليها مطلقاً، فهي آيلة إلى الانفصال، وإسرائيل ستكون حتماً حاضرة بقوّة، وكذلك سيحضر بقوّة شبه الاقتتال الداخلي...

غادرتُ، وأنا أدعو الله أن ينظر بعين الرحمة إلى هذا البلد الشاسع الذي قد يفقد أعضاءه، الواحدَ تلْوَ الآخر.

بحثاً عن أمازيغ (بربر)
المغرب والجزائر

قبائليٌّ أنا وأكره المسلمين

على غير عادة هذه الأيّام الشتوية، استيقظَتْ باريس، هذا الصباح، على دغدغة أشعّة الشمس الدافئة. انحسر قليلاً دخانُ المدافئ، من فوق السطوح ذات القرميد الأسود، وانفتحت بعض النوافذ تاركةً شيئاً من الأشعّة يتسلل إلى البيوت.

انحسرت كذلك أوشِحةُ الصوف من حول الأعناق، سامحةً للدفء بأن يلامس الأجساد. كلّما ارتفعت حرارة الشمس قليلاً، علا بخار الماء من فوق أسطح السيّارات العابرة باتّجاهات مختلفة. تعْبُر السيّارات إيذاناً ببدء نهار سيكون لا شكّ باسماً في وجوه الفرنسيين وسكّان العاصمة. ثمّة علاقة بين الشمس والفرح لا يعرفها إلّا مَن عاش أشهراً طويلة من المطر والصقيع والثلوج وأسابيع قليلة من الدفء.

أستَقِلُّ سيّارة التاكسي صوب المطار. ما إن أجلس في المقعد الخلفي (الجلوس إلى جانب السائق شبه ممنوع في فرنسا) حتى يقابلني السائق بابتسامة عريضة وبعبارة «صباح الخير» زاخرة بالفرح... عال... ممتاز... بدأ يومي إذاً جميلاً. كانت تلك آخر جملة جالت في خاطري. لم يترك لي السائق لحظة واحدة لأحدّث نفسي أو حتى أفكّر.

كان صوت أغنية قبائلية (بربرية كما يعرفها أهل الشرق) تصدح من مذياع سيّارته. إنّه شدو الفنّان الجزائري والناشط السياسي والرمز القبائلي الراحل معطوب لوناس. اغتيل خلال الحرب الجزائرية، منتصف تسعينيّات القرن الماضي. عُرِفَتْ تلك الحربُ البشِعة باسم العشرية السوداء أو الحمراء، لأنّها استمرّت عشر سنوات، بين الجيش والجماعات الإسلامية المسلّحة. قتلتْ وجرحتْ وأعطبتْ مدى الحياة عشرات ألوف الجزائريين. وقعت الحرب في أعقاب إلغاء الدورة الثانية للانتخابات التشريعية، بعد اكتساح الجبهة الإسلامية للإنقاذ الدورة الأولى. ربّما كانت تلك أولَ حربٍ يخوضها جيشٌ ضدّ الإخوان المسلمين، وتيّارات إسلامية أخرى، في دولة عربية، منذ منتصف القرن الماضي.

كانت السيّارة تعبُر بنا، بين ظلال الأشجار الوارفة، قرب نهر السين، قبل ولوج الطريق شمالاً صوب المطار. بعض المتحمّسين للقاء الشمس يمتطون الدرّاجات الهوائية، على طول النهر، وكأنّهم ذاهبون للقاء حبيبة. نظرَ السائقُ إلى الخلف، وقال: «هل يزعجك يا سيّدي صوت الراديو؟» أجبتُ بـ«لا». التَفَتَ ثانية: «هل تعرف المغنّي؟» أجبت بـ«نعم»، وبأنّني كنتُ أُغطّي أحداث الجزائر في منطقته، حينِ اغتياله. أردف سريعاً: «تعرف أنّي أحبّه أكثر من أبي، لا بل حين أخبرت أبي بأنّي أحبّه أكثر منه، قطَعَ علاقته بي منذ خمسة عشر عاماً، وما زالت مقطوعةً إلى يومنا هذا؟». صدَّقته، لأنّ طِباع الجزائريين الصادقة، والحادّة، لا تقبل أنصاف الحلول، ولا التكاذب الاجتماعي المشرقي المسمّى مجاملات.

خفض صوت الراديو ببطء، وكأنّه يخشى على فنّانه أن يهرب منه، أو كأنّما يخشى إزعاجه وهو يغنّي. تابع الحديث، وتابعنا الطريق: «أبي لم يكن يحبّه، ربّما لأنّ معطوب لوناس كان معارضاً شرساً للسلطة ولهيمنة العرب، بينما أبي كان مع السلطة. أنا نشأتُ على أغانيه، وترعرعتُ بين كلماته، وما زلت حتى اليوم، كلّما استمعتُ إليه اقشعرّ بدني، بالله عليك اسمع هنا ماذا يقول».

يرفع صوت الراديو. يترنّح مع الأغنية، ينقر برفق على المقود ثمّ على فخذه. استمعتُ ولم أفهم لكنّ

اللحن جميل، إلّا أنّني لم أفهم كثيراَ. لِحُسْن الحظ، إنّ معطوب لوناس بدأ، في تلك اللحظة بالضبط، يُلقي خطاباً بالفرنسية، لا باللغة القبائلية (أيْ الأمازيغية). لعَنَ السلطةَ والمعارضةَ القبائلية الزائفة، وكان يقصد الزعيمين البربريَّيْنِ حسين آيت أحمد وسعيد سعدي، مع أنّ حسين آيت أحمد هو آخرُ رجال الاستقلال، وأكثرهم نزاهةً.

يلتفت اليَّ السائق: «بالله عليك، اسمع هذه الجواهر، والله أنا أحبّه أكثر من النبي محمّد». تأفّفْتُ من تعليقه. شعرتُ بأنّ الحديث بدأ يخرج عن أسسه الأخلاقية. لم أعرف في حياتي جزائرياً، لا عربياً ولا قبائلياً، يقول إنّه يُحِبّ أحداً أكثر ممّا يحبّ رسولَ الله. عَجِبتُ لجرأته. قلت ربّما هو حاقد فعلاً، أو ربّما هي حماستُه العاطفية. ثمّ أضاف: «يا أخي، اليهود كانوا عندنا قبل المسلمين وبقيت حضارتنا». قال ذلك وهو يلتفتُ صوبي.

«انتبه يا رجل» نهرته. كاد يصطدم بالسيّارة أمامنا. سارعتُ إلى التقاط اللحظة، وقلتُ: «هل رأيتَ سرعةَ ردِّ الله على مَن لا يحبُّ رسولَه؟». ضحك وأجاب: «أنا أمّي حاجّة، وذهبت مرّتين إلى مكّة».

تخيَّلتها امرأةً قبائلية سمينة قليلاً، عيناها خضراوان، ملتحفةً بثياب القبائل المزركشة، تحبُّ أولادَها، حتى إنّها تهجر كلَّ متع الحياة من أجلهم. تتفانى في إسعاد زوجها وعائلتها. تُرضِع أبناءَها تراثَهم وحضارتهم. فكّرت كم تكون حزينةً لمآل ابنِها وكم تؤنّبه.

لم يتركني أفكّر. أكمل «مونولوغه»: «هل تعرف أنّي أكره المسلمين، ولا أخجل بالقول إنّي ملحد؟». قلتُ له أنت حرّ في أن تكره من تشاء، ولكن هل يُعقَل أن تكره كلام الله وكتابه؟ سألني: «وهل أنتَ تحبّه؟». قلت له: «أنا أُحبّ كلَّ الأديان السماوية التي تجعل الإنسان أكثر أخلاقاً في مجتمعه، وأكثر قرباً من خالقه».

بين رغبتي في أن أقفِلَ الحديثَ، وحشريتي في أن أعرفَ سببَ نقمته، اخترتُ الثانية. لا بأس، لعلّي أستطيع، على الأقل، أن أخفّف من حقده، أو لعلّه يشكو من عقدة شخصية أوصلته إلى ما هو فيه. قلت: «هلّا أخبرتني أيُّها الملحد السعيد بذاته، ما الذي جعلك تكره المسلمين، وتُحبّ معطوب لوناس أكثر من رسول الله؟». التفَتَ نحوي بعينيه الصغيرتين شبه الخضراوين، وشعره الخفيف البنّي، وابتسم. ثمّ استدار صوب الراديو، وخفَضَ الصوت. ثمّ التَفتَ نحوي ثانية. رجوته أن يُكمِل الحديث، شريطةَ أن ينظر أمامه، لأنّي لا أريد أن أموت بصحبة كافر. ضحك وقال:

«أنا ملحد ولست كافراً، أحببتُ الشيوعيةَ، وأقرأ كلَّ يوم سقراطَ وأفلاطونَ ومعظمَ فلاسفة اليونان. أنا عشتُ يا أخي في منطقة القبائل في الجزائر، وكنتُ أشعر بأنّي أنتمي إلى بيئة ضعيفة. كان أبي يُشعِرني بأنّه ضعيف. حين بدأتُ الاستماع إلى معطوب لوناس استعدتُ كرامتي، وفهمتُ أنّ غزو الإسلام لبلادنا قتَلَ لغتَنا وثقافتَنا وحضارتنا. يا أخي، لا أفهم لماذا ممنوع علينا أن نجوّد القرآن بلغتنا الأمازيغية؟ ولماذا كلّ تاريخ الإسلام والمسلمين غزواتٌ وحروبٌ ودماء وذبح وسيوف؟ أتعلم، حين تُوفي والدي، وجاء شيخٌ سلفيٌّ يقرأ الفاتحة على روحه، قلتُ له إذا قرأتَ عليه بالعربية، فسأفتحُ صدرك وألْتهِم قلبك أمام الجميع، فخاف وهرب. والله. أنا أكره السلفيين وأولئك الذين يدّعون أنّهم معتدلون، كلّهم سواسية».

كان بودّي أن أجادل سائقي القبائلي، الذي يرفض أيضاً انتماءه الجزائري، على اعتبار أنّ قبائليته هي الهويّة، لعلّي أخفّف شيئاً من عنصريّته. كان بودّي أن أنفضَ غبارَ الحاضر وفوضاه ودماءه عن الإسلام، لأُريه محطّات مضيئةً في تاريخ العرب والمسلمين ومسيحيّي الشرق. كانت رغبتي قويةً في أن أقول له إنّ أمازيغيته يجب ألّا تناقضَ عروبتي أو تُلغي كرديةَ آخر، أو تنبذَ سريانيةَ ثالث... لكنّني أدركتُ أنّ النقاش مستحيل. أدركتُ أنّه ليس مقتنعاً فقط بكلّ هذه الأفكار، بل هو ناشطٌ فيها، ويبشّر بها، بين الجمعيات الأمازيغية في الجزائر وفرنسا.

تابع وكأنّه يكتفي بسماع كلامِه أكثر من أسئلتي: «يا أخي الكريم، أنا لم أكن أتحدّث الأمازيغية قبل مجيئي إلى فرنسا. جئتها عام 1996، تعلمتُ لغتي هنا، وهنا اكتشفتُ كبار الفلاسفة، وهنا شعرتُ بحرّية التفكير كما أريد حتى ولو أردت الإلحاد».

وبغرابة أكثر، شرح لي كيف يعيش مكتفياً بمبلغ مالي بسيط، لأنّه لا يقبل أن يأخذ قرشاً أكثر من أجر التاكسي الظاهر على العدّاد، لأنّه لو أخذ أكثر «فهذه رشوة».

كانت السيّارة تمر بمحاذاة الضواحي الفرنسية الزاخرة بأهل المغرب العربي، والملابس المنشورة على الشرفات احتفاءً بالشمس تُعلِن أنّ السكان ليسوا فرنسيين. كانت الإعلانات التجارية تمرُّ سريعاً أمام ناظري، فتتقاطع مع حبال الغسيل. سألتُه ألا يخشى على حياته من مواطنيه المغاربة المعروفين بإيمانهم، وبأنّ بعضهم في فرنسا، مَن هو شديد التطرّف؟ ضحكَ وقال، وهو ينظر أمامه: «ضربوني مرّتين ولكنّي أفضّل أن أموت، وأنا صادقٌ في ما أقول، على أن أعيش متزلّفاً ومدَّعياً أنّي مؤمنٌ، وأنا لست كذلك».

رفع صوتَ معطوب لوناس مرّة أخرى. نظر إليّ وابتسم. لم أبتسم. فكرْتُ بسؤال واحد: «هل الصور الحالية للمجرمين الذابحين وقاطعي الرؤوس باسم الإسلام، ستُقنِع هذا المتمرّد الملحد بأن يعود فعلاً إلى إسلامه؟» على الأرجح: لا.

ترجَّلتُ. كان أمامي ملتحيان جزائريان، يرتدي أحدهما جِلْباباً تقليدياً من بلاده، والثاني قميصاً أبيضَ يصِلُ إلى ما دون الركبةِ بقليل، مذكّرا بحال السلفيّين. نظرتُ إلى السائق، رأيتُه ينظر إليهما ثمّ يلتفت إليّ ويبتسم... قرّرت أن أذهب إلى المملكة المغربية والجزائر، أبحث عن قُرْبٍ في حاضر الأمازيغ وآمالهم، وربّما عن سبب انقسامات مُقبِلة، في وطننا العربي، على وقع العرقية.

أمازيغ (بربر) المملكة المغربية

البربر كلمة يكرهها المنتسبون إليها في المغرب، تماماً كما يكرهون تسمية بلادهم بالمغرب العربي. هم يفضّلون أن يُطلق عليهم اسم الأمازيغ (كلمة بربرية ومعناها: الرجل الحرّ)، كما يفضّلون تسمية بلادهم بالمغرب (من دون صفة العربي). يذكّرون بأنّهم ما أصبحوا عرباً ومسلمين، إلّا بفعل الغزو العربي باسم الإسلام.

إنّها قضيّة شعب من المفترض أن تكون له حقوق موازية لحقوق العرب، لكنّه يقول إنّه لم يحصل سوى على فتاتٍ ما منَّتْ عليه السلطاتُ به، فكان طبيعياً أن ينتظرَ كلّ فرصة سانحة للانتفاض، مذكِّراً بمطالبه التي تقتصر حتى الآن، في المملكة المغربية، على الاعتراف باللغة البربرية (تمازيغت) لغةً رسميةً يُقِرّها الدستور، وتتبنّاها المؤسّسات، بينما تصل في الجزائر إلى السياسة وإلى المطالبة بالاستقلال. (في المغرب، جرى إصلاح الكثير من الأمور لاحقاً، وبينها الأمور الثقافية واللغوية، ولا سيّما بعد وصول الملك محمّد السادس إلى سدّة العرش).

ماذا يريد أمازيغ المملكة المغربية الذين يشكلون أكثر من 40 في المئة من مجموع السكان في المملكة، والذين كانت إحدى بناتهم ذاتَ يوم زوجةَ الملك محمّد الخامس؟ لماذا يستعجلون الأمر وتحقيق المطالب، ما دامَ الملك الجديد محمّد السادس أتاحَ لهم تحقيق ما لم يُتِحْه لهم كلُّ أهلِه وأجدادِه، وأقام لهم المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية؟

حملتُ هذه الأسئلة، وذهبت إلى المملكة المغربية قاصداً مناطق الأمازيغ. أردتُ تصحيحَ بعض الأفكار المغلوطة عند أهل المشرق الذين غالباً ما ينظرون إلى البربر على أنّهم مجموعات انفصالية أو مناهضة للعرب، أو مقرَّبة من إسرائيل، أو في أفضل الأحوال، أقليّات فولكلورية.

«يا أخي لا تقل بربر، هذه كلمة غير مستحبّة عندنا»، يسارع مرافقنا الأمازيغي إلى قول ذلك، ونحن نجول في السوق الشعبية الأمازيغية في تارودنت، التي تبعد عن مدينة أغادير السياحية حوالى 80 كيلومتراً.

تارودنت مدينة سياحية ببحرها الجميل وشاطئها المنبسط تحت عشرات الفنادق والمحالّ التجارية، والمحتضِن كلّ يوم عشرات آلاف السيّاح الأجانب (للتمتُّع بالشمس التي تندُرُ في دولهم) والسيّاح العرب (للتمتّع بالسهر والنساء، وهم لا يملّون من الجري خلف الاثنين).

المرافق محقٌّ في ما يقول، إذا ما اعتمدنا على التاريخ، ذلك أنّ كلمة بربر استخدمها اليونان والرومان للتدليل على كلّ أجنبي في مدينتهم، وعلى أهل شمال أفريقيا. كانوا يعنون بها، حين تصدق نواياهم، الأجنبي غير الناطق بلغتهم، أو يعنون بها البرابرة المتوحّشين حين تسوء النوايا. وهي غالباً ما كانت تسوء. ولأنّ التاريخ لا يخدم إلّا صانعيه، فهو متناقض في الروايات المغربية. وهكذا، نجد أنّ المغالين في استنباط التاريخ العربي، وإلصاقه بكلّ شيء، يقولون إنّ السكان الأوائل للمغرب كانوا من البربر، ولكنّهم قدِموا إليه من اليمن وسوريا ومصر وإثيوبيا (ما يعني أنّ أصولهم عربية في معظمها)، إلّا أنّ ابن خلدون نفسه شكّك في هذه الأصول. أمّا المُغالون في إسقاط التاريخ البربري على كلّ شيء، فهم يرفضون تلك الأصول العربية، ويقولون إنّ تلك الهويّة، وحتى الإسلام أيضاً، فُرِضا عليهم فرضاً، خلال الغزو العربي في القرن الثامن للميلاد، بقيادة عقبة بن نافع.

«لعنك الله يا عقبة يا مسخوط»، تقول عائشة المغربية الأمازيغية، وتضحك. هي موظفة في مكتبة صغيرة وتتحدّث بطلاقة لغات عدّة، من بينها لغتُها الأمّ. تقول ذلك حين نسألها عمّا إن كان لديها كتابٌ للفاتح الشهير. هي مثقفة وحاصلة على إجازة في الأدب المقارَن. هنا أيضاً تختلف الروايات. البعض يريد القول إنّ أهل المناطق التي تعرّضت للغزو استقبلوا الفتحَ الإسلامي من دون مقاومة أو اعتراض،

وإنّ السلطان مولاي إدريس (جدّ العائلة المالكة) لم يجد صعوبة كبيرة في إقامة سلطنته وتأسيس المملكة على اعتبار أنّه سليل النبيّ محمّد. البعض الآخر (وهم الأمازيغ) ينتفض ساخطاً عند سماع هذه الرواية، ليؤكّد أنّ عقبة بن نافع واجَه مقاومة وأنّ المغرب الأقصى عرف قائداً بربرياً سبقه بأحد عشر قرناً تقريباً.

لا يتّسع المجال للسرد التاريخي، فهو بحاجة إلى أطروحات. لكنّ الأكيد الذي يتّفق عليه الجميع ويعترفون به هو أنّ الغزو العربي والغزو الإسلامي كانا السبب في نشر العربية والإسلام كما يقول العرب، أو كانا السببَ في الاستعمار العربي والإسلامي للبربر، كما يقول البربر.

مات عقبة بن نافع وشبع مَوتاً، ومات السلطان إدريس، وصار العديد غيره من سلاطين وملوك المملكة المغربية في ديارِ الحقّ، لكنّ القضيّة الأمازيغية لا تزال قائمة، لا بل إنّها كانت تشهد، من حينٍ إلى حين، انتفاضاتٍ قوبِلَت بالقمع، ومطالبَ قوبلت بالرفض، ولا سيّما حين كان الأمر يتعلّق بجعلِ اللغة الأمازيغية لغة رسمية، على غرار نظيرتها (أو عدوّتها) العربية. وصل الأمر ببعض الأمازيغ إلى حدّ المجاهرة في تظاهرات عدّة بشعاراتٍ تطالب بخروج العرب، وبوضع حدٍّ لِمَا يرونه استعماراً عربياً مشابهاً للاستعمار الفرنسي. قالوا إنّ وجودهم في المغرب سابقٌ بقرونٍ على الوجود العربي، أيْ إنّهم هناك منذ أكثر من 5 آلاف عام. وقالوا أيضاً إنّهم كانوا أصحابَ فضل كبير في محاربة المستعمرين الفرنسيين والإسبان، وإنّ معظم أهل المملكة هم من أصول بربرية، حتى وإن كان الكثيرون منهم لا يتحدّثون الأمازيغية، بفعل الغزوات والضغوط والتعريب والأسلمة.

في 5 آب/أغسطس 1991، وقّعتْ ستُّ جمعياتٍ أمازيغية على «شرعة أغادير» المطالِبة بتكريس اللغة والثقافة الأمازيغيتين، في المغرب، دستورياً. شجبت ما وصفته بالتهميش المتعمَّد، وحدَّدتْ سبعة أهداف، يتقدّمها هدف وضع اللغة الأمازيغية في مصافّ اللغة العربية، رسمياً. وفي 1 أيار/مايو 1994 اندلعت تظاهرةُ البربر في غولمية في الرشيدية، حيث العلاقة مع العرش دائمة التوتّر. حصلت اعتقالات، وذكرَت السلطات في شأن هذه التظاهرة أنّها اكتشفت عند أحد منظّميها وثائقَ تُثبِتُ التورّط مع جمعيات أجنبية. وحُكِم على اثنين من قادة التحرّك بالسجن عامين، وعلى ثالث بالسجن عاماً واحداً، لكنّ الحسن الثاني عفا عن الجميع بعد أسابيع قليلة. كان الملك الراحل يدرك بحسّه السياسي الثاقب، أنّه لا يستطيع المضيّ قُدُماً في قمع البربر، لأنّ الجمر الذي تحت الرماد قابل للاشتعال في أيّ لحظة.

كان العرش المغربي قد قام قبل ذلك بخطوات انفتاحية رمزية حيال الأمازيغ، بينها مثلاً، حين أعلن رئيس الوزراء عبد اللطيف الفيلالي، في منتصف التسعينيات، في مجلس النواب، أنّ التلفزة ستبدأ ببثّ أخبار باللغة الأمازيغية. وهذا ما حصل. بدأت التلفزة منذ أواخر آب/أغسطس 1994 بتقديم نشرة إخبارية باللغة الأمازيغية، مدَّتُها 12 دقيقة. وقد فعلت الإذاعة ذلك قبل التلفزة بسنوات. قُدّمت النشرة باللهجات الأمازيغية الثلاث المستخدَمة حالياً في المغرب؛ وهذه اللهجات هي: تيرفيت (في الريف الشمالي)، وتمازيغت في الوسط الشرقي، وتشلحيت في الجنوب. لكن الأمازيغ كانوا يريدون تلفزيوناً خاصًّا بهم وبلغتهم.

والحقّ، إنّ المشكلة اللغوية في المغرب لا تقتصر على القرارات الرسمية، بل تطال أيضاً طريقة كتابة هذه اللغة الأمازيغية، وذلك لأنّ بين البربر أنفسهم خلافاتٍ حول مطالبة بعضهم بكتابة الأمازيغية بالحرف اللاتيني لا بالحرف العربي. ويرى آخرون أنّ الحروف الأمازيغية موجودة أصلاً، وهي المعروفة بـ«تيفيناغ». قلة شبه نادرة ترى أن لا ضير في استخدام الأحرف العربية، ولكنّ هذه القلّة تلقى رفضاً من الأكثرية الأمازيغية، على أساس أنّ العربية كانت سبب التهميش التاريخي.

«هل تريد السوق العربية أم الأمازيغية؟» يسألني رجلٌ رثُّ الثياب، كان متأهِّبا في موقف السيّارات وسط تارودنت لاصطياد السيّاح. في تارودنت سوقان، إحداهما للعرب، والثانية للأمازيغ، وذلك لأنّ روّاد السوق الثانية هم في معظمهم من الناطقين باللغة الأمازيغية وحدها، وأسعاره جيدة. في السوق

الأمازيغية لتارودنت، أو في السوق الشعبية لمدينة تيزنيت ذات الوجود البربري الكثيف أيضاَ، تختلط روائح البهارات والنعناع والخضار والتوابل، بالألوان المتنوّعة لِلّباس التقليدي الأمازيغي. تختصر السوق جزءاً كبيراً من التراث والتقاليد الأمازيغية الشهيرة. هنا الأغاني الأمازيغية منتشرة بكثرة، تتحدّث عن التراث والتقاليد، وتدعو إلى محاربة الفقر والبطالة، ومناهضة الاستعمار، ولكنّها تُغرِق أيضاً في الحبّ والغزل، حتى لو كان الأمازيغ معروفين بأنّهم أكثر محافظة وتشدَّدا من العرب.

يروي مرافقي الأمازيغي أنّ انتشار الأشرطة المصوّرة للأغنية الأمازيغية، عبْر الفيديو والأقراص المدمَجة، إنّما هو ناتج عن قصور تاريخي، حيث إنّ وسائل الإعلام المغربية الرسمية كانت تخصّص جزءاً بسيطاً فقط من برامجها للأمازيغية.

قالت لي خديجة البناوي، الأمازيغية الجميلة والخفيفة الظلّ والمقيمة حالياً في بروكسل، حيث تُشرِف على أنشطة ثقافية وفنّية أفريقية، والتي كانت في أغادير للمشاركة في الإشراف على مهرجان الموسيقى الأمازيغية: «نحن عانينا فعلاً من تهميش اللغة الأمازيغية، فأنا مثلاً، وُلِدتُ وترعرعت في عائلة تتحدّث لغة أجدادنا، ولكن مع الوقت بدأتُ أنساها، لأنّ التعليم كان باللغة العربية، أو اللغات الأجنبية الأخرى. واليوم فقدتُ الكثيرَ من كلماتها. وحين كنت أدرس في مدارس الدار البيضاء، كان زملائي العرب يسخرون من لكنتي، ويقولون إنّي شلحة، نسبة إلى الأمازيغ الشلوح، ولكنّها كلمة يُراد منها أيضاً الإساءة أو السخرية».

خديجة شابّة في مقتبل العمر، تبدو بشعرها المُجعّد المسترسل على كتفيها أقربَ إلى النموذج الغربي منها إلى المغربي، لجهة استخدامِها اللغة الفرنسية، رغم طلاقة لغتها العربية، وهي التي درسَتِ الأدبَ العربي؛ وكذلك، لجهة مَلبَسِها ومظهرها الخارجي. أخبرتني أنّها حين تستمع إلى أغنيتين أمازيغية وعربية، تشعر بحنين أكبر إلى الأغنية الامازيغية، ولكن حين تستمع إلى أغنية عربية وأخرى أجنبية، فإنّ قلبها يدقّ على الوتر العربي. قالت لي: «نحن أمازيغ معرَّبون». وهي في ذلك، ليست حالةً نادرة، فأمازيغ المملكة المغربية ليسوا جميعاً معادين للغة العربية، وإنّما هم يريدون أن تصبح لغتهم الأمّ أساسية أيضاً تماماً كلغة الضاد.

لا يعترض الأمازيغ على اللغة العربية، لكنّهم يريدون أن تصبح لغتهم موزاية تماماً للغة الضاد. يريدونها رسمية في مؤسّسات الدولة والمحاكم والإدارات. (هي أصبحت هكذا لاحقاً بعد أعوام قليلة على زيارتي لمناطق الأمازيغ).

قال لي الباحث السياسي محمّد الخنوبي: «إنّنا نريد الاعتراف الدستوري باللغة الأمازيغة لغةً رسمية، ونطالب بإدماج حقيقيّ لا صوري، لهذه اللغة، في الدستور والبرامج والقضاء والمؤسّسات التربوية وإدارات الدولة والتعليم، وذلك لأنّ قسماً كبيراً من الأمازيغ لا يتحدّثون العربية، وهم بالتالي يشعرون بأنّ ثمّة لغةً أجنبية (العربية) تُفرَض عليهم فرضاً»، يُضيف الباحث الأمازيغي الثلاثيني: نحن نموّل الإعلام الرسمي من جيوبنا، وبالتالي يحقُّ لنا أن نستفيد منه بالعناية اللازمة على مستوى لغتنا وثقافتنا. في الأمس القريب، تَعامَل معنا الاستعمار الفرنسي بلغته، وفرضها علينا، واليوم يتصرّفون معنا باللغة العربية من المنظور ذاته». يضحك الخنوبي طويلاً حين نسأله عمّا إن كان لدى بعض أمازيغ المغرب رغبةٌ في الاستقلال، على غرار الحال عند بعض أمازيغ مناطق القبائل في الجزائر. يسأل: «عمّن نستقلّ؟»، ويُجيب: «نحن يا أخي سامي جزءٌ من الشعب المغربي، ولا نميّز بين عروبي وأندلسي وصحراوي، إنّنا وحدة منسجمة، فأنا مثلاً نصفي معرّب ونصفي من الأمازيغ، ولا يمكن بالتالي الحديث عن تقسيم، لأنّ المغرب نسيجٌ موحّد، حتى لو تنوّعت الثقافات واللغات واللكنات. كلّ ما نطالب به هو الاعتراف الفعلي بلغتنا وثقافتنا».

قصدتُ الأستاذ الجامعي في كليّة الآداب في أغادير، المختصّ بعلوم الألسنية البربرية، عبد الله المنتصر. لم يتردّد لحظةً في القول: «إنّ اللغةَ إنْ لم تُمارَس تمُتْ، وإنّ ثمّة من أراد القضاء على هذه

اللغة عبر التاريخ، وهو الأمر الذي جعل الكثير من الجمعيات الثقافية، نظراً لغياب الأحزاب السياسية الأمازيغية، تناضل لإحياء الثقافة واللغة الأمازيغيتين، وعدم تحويلهما إلى مجرّد فولكلور. لذا، فإنّ الشعراء الامازيغ، الذين كانوا بمثابة المرشدين السياسيين لقومهم، كانوا غالباً ما يشرحون في أشعارهم معاناةَ الأمازيغ، فتتردّد في كلماتهم المغنّاة مشاعرُ الضَّياع، والتيه، والماضي، والتَّرحال، والغضب والثورة ضدَّ ما هو قائم، وضدّ هجرة الرجال».

كان المغنّي البربري عبر التاريخ، المعروف باسم الرايس، مصدرَ المعرفةِ لأبناء قبيلته، ومنهم على سبيل المثال، الحاج بلعيد والمهدي بن لمبارك. كان الأستاذ الجامعي عبد الله المنتصر يشرح لي ذلك كلّه، قُبَيل دخول عميد المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية أحمد بوكوس، إلى القاعة التي تجري فيها وقائع ندوة عن الشعر والغناء الأمازيغي في أغادير. فهنا الشعر والأدب والغناء كانت ولا تزال وسائل دائمة للحفاظ على تراث هائل يخشى الأمازيغيون أن يضيع. لكن من حسن حظّهم أنّ الملك محمّد السادس قدّم لهم أكثر ممّا توقعوا ربّما. وحين زرت المملكة المغربية في مطلع عام 2018 رأيت أنّ اللغة الأمازيغية باتت حاضرة بقوّة إلى جانب اللغة العربية. لعلّ المملكة نجحت في سحب فتيل انفجار كبير كان سيشكّل دون شكّ مادّة خصبة لتدخلات خارجية. مع ذلك، ففي أواخر عام 2017 كانت بعض التظاهرات المطلبية في الريف المغربي وخصوصاً في منطقة الحسيمة، تشدّ بعض اللافتات والمطالب المؤيّدة للانفصال وللعودة الى تأسيس «جمهورية الخطّابي» تيمُّنا بالثائر التحرّري التاريخي الكبير عبد الكريم الخطّابي.

ضاعت لوحتي الأمازيغية

حين وصلتُ إلى المغرب باحثاً عن تاريخ الأمازيغ وحاضرهم، لم يكن يوجد بعد أيُّ حزب سياسي لهم فيها، ولا جمعيات ذات صبغة سياسية، مع أنّ أحد الوجوه الأمازيغية البارزة، وهو المحجوبي أحرضان، كان قد وصل إلى مرتبة عليا في السلطة، وبات رئيساً لمجلس النوّاب، في عهد الملك الراحل الحسن الثاني.

ذهبت للقاء أحرضان في منزله الجميل الأنيق، والمزيّن بلوحاتٍ جميلة رسمها بنفسه. رحت أجول في المنزل أشاهد اللوحات ومعانيها. لفَتَني أنّ معظم لوحاته تركّز على العين البشرية. لوحات كثيرة وعيون كثيرة تنظر في اتّجاهات مختلفة. انتبهتُ إلى أنّني توقفتُ عند إحداها وأغربها. قال لي: «هذه هديّتك، ستأخذها معك». شكرتُه، وقلت له: «اعذرني، فأنا أقسمتُ في هذه المهنة على أن لا أقبَل أيَّ هديّة، احتراماً لأخلاق الصحافة الحقيقية». أصرّ، فشكرتُه مجدَّدا وكرّرت جوابي. ثمّ خطرت لي فكرةٌ حين علِمت أنّه متوقف عن الرسم منذ سنوات. اقترحتُ عليه أن يرسم لي لوحةً ونحن نتحدّث، وسوف أقبلُها هديَّة. ابتسم وراقته الفكرة. وهذا ما حصل. رسم لي لوحة فيها عشرات العيون. فرحتُ به وبعودته إلى الرسم. كان هذا مقصدي، أنْ أشجّعه على العودة، وأن أصوّره وهو يرسم. أخذتُ اللوحةَ وذهبتُ إلى باريس ومنها إلى بيروت. مررتُ بالتفتيش الحدودي في باريس. نسيت اللوحةَ في آلة التفتيش الشعاعي. انتبهتُ إلى أنّي نسيتُها بعد ربع ساعة. عدتُ لآخذَها، لكنّها اختفت. يبدو أنّ مسافراً بعدي سرقها، من دون أن ينتبه إليه أحد. حزنت حزناً شديداً، فلهذه اللوحة تحديداً ذكرى عزيزة على قلبي، وهي هديّتي الأولى من أمازيغ المغرب.

عدتُ بعد عامين إلى المملكة، لأشارك في تأسيس إذاعة «أتلانتيك» الاقتصادية السياسية. وصلتُ في شهر رمضان. وهو شهر جميلٌ جدًّا هنا، لناحية العادات والتقاليد والمأكل والحلويات والأجواء الرمضانية الرائعة. أجرتْ معي إحدى الصحف المغربية حواراً عن تجربتي الإعلامية. سألتْني عن أجمل وأصعب ذكرى لي في المملكة. تحدُّثت عن صعوبة العمل في عهد الملك الحسن الثاني، حيث كان التشدّد والقمع، وعن سهولته في عهد الملك الجديد المنفتح والقريب من ناسه. وذكرتُ قصّتي مع اللوحة. لم تمضِ 24 ساعة حتى جاءني اتّصال من أحرضان يقول لي: «أخي سامي، أهلاً بك في

بلادي، أنا أنتظرك غداً على الغداء مع مجموعة أصدقاء، ولك عندي مفاجأة». ذهبت في اليوم التالي، فوجدته قد رسم لي لوحة ثانية، قدّمها لي وهو يضحك وقال: «لقد قرأتُ قصّتك مع اللوحة السابقة، وحزنتُ مثلك، لكنّي أريدكَ ان تحتفظ في بيتك بشيء من عندي». كيف يمكن للمرء أن ينسى اتّصالا أوليًّا كهذا مع أحد القادة السياسيين العريقين في المملكة، وأحد أبرز قادة الأمازيغ. أتفرِّقُ الأخلاق الحسنة والمحبّة والضيافة بين أمازيغي وعربي؟

علّمني المحجوبي أحرضان السياسي والشاعر والرسّام، الشيءَ الكثير عن المغرب والأمازيغ. قال لي: «إنّ مسيرتي كانت دائماً سياسية، لكي أفرض الثقافة، ولكنّها أصبحت مع الوقت ثقافيةً أكثر منها سياسية». غالباً ما يتحدّث أحرضان باللغة الفرنسية (زوجته فرنسية) ويكتب بالفرنسية والأمازيغية، لكنّه يفاخر بحفظه القرآن الكريم. يقول أحرضان إنّه ناضل طويلاً لفرض اللغة الأمازيغية، وإنّه ناقش طويلاً الملك الحسن الثاني، صديقه وخصمه في آن واحد، في هذا الشأن، لكنّ معارضيه يقولون إنّه وغيره من قادة الأمازيغ الذين انضووا في إطار العرش، إنّما جاروا السلطة السابقة في عمليات التهميش.

لا تزال لوحته في بيتي البيروتي، تزيّن صالون الاستقبال. وكلما نظرتُ إليها، تذكُّرت تلك الأيّام الرائعة عند أحرضان وغيره من الأمازيغ.

من طارق بن زياد إلى اليوم

يتوزع أمازيغ المملكة المغربية على ثلاث مناطق مختلفة، من الريف إلى الأطلس إلى مناطق أغادير وتيزنيت وتارودنت. رحت أجول في تلك المناطق، وأسمع روايات عدّة منسوبة إلى التاريخ. منها مثلاً أنّ الأحزاب الكبيرة، وبينها حزب الاستقلال بقيادة زعيمه التاريخي الراحل علّال الفاسي الشهير، ناهضَ الأمازيغية. من الروايات الباعثة على اعتزاز الأمازيغ، أنّ طارق بن زياد الذي اشتهر بفتح الأندلس، كان بربرياً أمازيغياً، من منطقة الريف في المملكة المغربية، وأنّ حقبتَيْ المريدين والموحّدين، الممتدَّتَيْن من القرن الحادي عشر إلى القرن الثاني عشر، واللتين عَرف خلالهما المغربُ كيف يمتدّ من إسبانيا حتى نهر السنغال، كانتا حقبتين بربريّتين.

بالمقابل، كنتُ خلال رحلتي إلى مناطق الأمازيغ، ولقاءاتي بناسها، ألاحظ أنّ الأمازيغ يتجنّبون التذكير بأنّ المحاولتين الانقلابيتين اللتين كادتا تطيحان الملك الراحل الحسن الثاني في مطلع سبعينيّات القرن الماضي، كانتا صنيعة ضبّاط من البربر، وفي مقدَّمهم رجل الثقة الأول عند الحسن الثاني، الجنرال محمّد أوفقير. انتقل هذا الأخير في ظروف غامضة من صفوف الجيش الفرنسي إلى المقاومة (لفترة قصيرة) ثمّ أصبح أحدَ أبرز حرّاس ومستشاري الملك محمّد الخامس، ومِن بعده الملك الحسن الثاني، قبل أن ينتحر (أو يُقتل) في القصر الملكي، بعدما فشلت محاولة قتل الملك، عبر إطلاق الرصاص على طائرته، وكان هو أول المتّهمين. سنحت لي لاحقاً فرصةُ لقاءِ أرملة أوفقير وابنتِهما اللتين سُجِنتا لسنوات طويلة في معتقل تزمامرت الرهيب، وكتَبَتْ كلٌّ منهما رواية حياتها الصعبة والقاسية والحزينة. تكثّفت الخطوات الملكية لجهة تعزيز الحضور اللغوي والثقافي الأمازيغي، ولكنّ المشوار لا يزال في أوّله، والمطالب لا تزال كثيرة. وثمّة من يستفيد من هذه المطالب داخل المملكة وخارجها (ولا سيّما في أوروبا) لتحريك الورقة الأمازيغية في اتّجاهات متعدّدة. لعلَّ الكاتب والمؤرّخ الفرنسي الشهير بنجامين ستورا على حقّ، حين يقول إنّه مع تعدّد ظهور وأفول حركات قومية عربية عدّة (وخاصّة البعثية والوحدوية والقومية...) ومع نموّ التيّارات الإسلامية الأصولية، بات أمازيغ المغرب يشعرون بالحاجة إلى تكريس حضورهم أكثر من أيّ وقت مضى.

صحيح أنّ أمازيغ المملكة المغربية لم يذهبوا إلى ما ذهب إليه بعض أبناء مناطق القبائل في الجزائر، أيْ إلى الدعوة للاستقلال والانفصال، لكنّ الصحيح أيضاً أنّ المطالب الأمازيغية في مملكة محمّد

السادس باتت قضيّة قائمة بذاتها، وحاضرةً في المناقشات، أكثر منها في أيّ وقت مضى. بات مؤكّدا أنّ اللغة الأمازيغية ستفرض نفسها عاجلاً أو آجلاً، لغةً رسميةً موازيةً تماماً للّغة العربية. ويبقى السؤال الذي يطرحه بعض الحريصين على لغة الضاد: هل حضور اللغة الأمازيغية سيخدم التنوّع الثقافي، أم يُراد له محاربة اللغة العربية والانتقام منها، ومن الإسلام عامّة؟ أخشى، شخصياً، أن يكون مَن يحرّك بعض الخيوط الأمازيغية، ليسوا دائماً حريصين على المغرب العربي وتاريخه ومستقبله. وما أكثر الذين مِن النخب الأمازيغية في المملكة، يعرفون ذلك، ويعْملون على منعه، لأنّهم متعلّقون بدولتهم، على قدَم المساواة مع تعلّقِ العرب بها، وربّما أكثر منهم، في بعض الأحيان.

بعض أمازيغ الجزائر
يحاربون العنصرية.. بمثلها

أنا قبائلي فقط، لا جزائري ولا عربي، ولا أيّ شيء آخر. هكذا يعرّف بعض أبناء الجزائر أنفسَهم. وهُم، حين يقولون ذلك، إنّما يرفضون هويتين: جزائرية وعربية، وكأنما أبناء تلك المناطق الجزائرية الجميلة والثائرة عبر التاريخ، وجَدوا في مثل هذا التوصيف ما ينتقمون به من ممارسات السلطات المتعاقبة. هي عنصرية الحاضر تنتقم من عنصرية التاريخ، فتكاد تضع البلاد على كفّ عفريت، لولا مبادرة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة لاحتوائها ونزع الفتيل، مؤقتاً على الأقل.

في الثورات على الاستعمار كانوا في الطليعة. في التمرّد على السلطات المتعاقبة كانوا في المقدّمة. في الجماعات الإسلامية كانوا أمراء. في قيادة الجيش كانوا بارزين، وفي الأحزاب السياسية لهم على الأقل حزبان بارزان، هما جبهة القوى الاشتراكية بزعامة القيادي التاريخي حسين آيت أحمد، وتجمُّع الثقافة والديمقراطية بقيادة الدكتور سعيد سعدي.

ماذا يريدون إذاً؟ ولماذا يتمرّدون من حين إلى حين، فيتنكّرون للعروبة، وفي بعض الأحيان للوطن برُمَّتِه؟

مجرّد طرح مثل هذه الأسئلة في جزائر اليوم، قد يثير الشبهات، ولا سيّما إن كان السائل عربيًّا ومشرقيَّ اللهجة والمنشأ؛ فالقومية العربية صارت عند بعض أبناء القبائل تكاد تقارب حالَ إسرائيل بالنسبة إلى العرب. فلنذهب إذاً ونسألهم في مناطقهم، ونسمع منهم، لا من غيرهم، حقيقة ما يرغبون فيه.

تتمايل السيّارة صعوداً من الجزائر العاصمة صوب تيزي أوزو، عاصمة منطقة القبائل الكبرى (في الجزائر قبائل كبرى وأخرى صغرى). أخذَتِ المدينةُ اسمَها الأمازيغي هذا، مِن نبتةٍ برّية صفراء اللون تُسمّى أوزو بلغة التمازيغت، وتُشبه نبتةَ الوزّال في لبنان. تقع هذه المدينة التي تزدان بوردتها الجميلة، على بعد 100 كلم تقريباً، شرقيَّ الجزائر.

سألتُ سائقَ سيّارة الأجرة، وهو أمازيغي أيضاً: «هل نستطيع زيارة المنطقة كلها في يومين؟». ضحك السائق، وخفض قليلاً صوتَ أغنيةٍ أمازيغية للفنّان الرمز إيدير، ومدّ يده اليسرى من نافذة السيّارة، مشيراً صوب الأعلى، وقال: عندك فقط هنا ما يقارب 3 آلاف كيلومتر مربّع، إذا أردتَ أن تتكلم مع السكّان، وأنْ تتمتع بالطبيعة، أنصحك بأن تبقى بضعة أيّام. الناس هنا سيرحّبون بك، وإذا وجدتَ صعوبة في التفاهم باللغة المحلية، فمعظمهم يتحدّث بالفرنسية. ولعلّ من الأفضل أن تتحدّث بالفرنسية. ثمّ إنّهم يحبّون أهل لبنان، والله شرّفتونا يا أخي بهذه المقاومة الباسلة ضدّ إسرائيل».

تقع تيزي أوزو بين البحر الأبيض المتوسط و3 ولايات جزائرية تشكّل ما يُشبه الطوقَ السكّاني. من الشرق تحدّها بجاية، ومن الجنوب البويرة، ومن الغرب بومرداس. يتجلّى دلال طبيعة هذه المناطق الجبلية الجميلة في بعضها، والقاسية في بعضها الآخر، عند الانتقال من السهول المنبسطة والملوّنة هذه الأيّام، بمحاصيلها الزراعية، وسنابلها المشرئبّة صوب السماء، إلى جبال جُرجُرة التي رأسها قرب القمر وأقدامها عند الساحل.

المياه في هذه المناطق الزراعية متوافرة بكثرة، لا بل ربّما بأكثر ممّا تحتاج، مع أنّ المشاريع الحديثة لا تزال قليلة، باستثناء السدّ الذي أُقيم قبل بضع سنوات، لاحتواء ما يقارب ستين مليون متر مكعب من المياه. تحاول السلطات منذ سنوات عدّة تنفيذَ بعض المشاريع الصغيرة، بُغية التخفيف من هدر المياه الكثيرة، وتحويلها باتّجاه القرى التي لا تزال تعاني من شحٍّ في مياه الشرب، أو من سوء الإدارة.

إنّها الطبيعة أنعمت على مناطق القبائل الكبرى بشيء من جودِها وكرَمِها، فتأهّلت لتكون من أهمّ مراكز اجتذاب السيّاح، ولو أنّ الخدمات السياحية لا تزال دخيلةً على عقول معظم الجزائريين. يكفي المرء أن يصعد مثلاً إلى أعالي منطقة عين الحمام، أو قمم اللِلّا خديجة (للّا تعني السيدة أو الآنسة في المغرب)، حتى تغتسل العين وتكتحل بروائع الطبيعة.

غالباً ما تميل طِباعُ الشعب الجزائري نحو شيء من الحدّة. هم يقولون إنّه «النيف». كلمة نيف (بتسكين الياء) متداولة بكثرة، وهي تعني المغالاة في العنفوان والكبرياء. ثمّة من يقول إنّ هذه الحدّة ناجمة عن تاريخ طويل من مقارعة المستعمرين، وخاصّة الفرنسيين منهم. البعض الآخر يشير إلى شيء متجذر في أهل الجبال وقسوة الحياة. ولئن كان زائر الجزائر يفرح لأنَّ شعباً عربياً لا يزال يحافظ على هذا القدْر مِن الأنفة والكبرياء، فيرفض تقاضي البقشيش مثلاً، فإنّ الأمر يتحوّل إلى استغراب وتعجُّب حين يردُّ عامل الفندق بشيء من الحدّة والتشنّج، حين يطلب منه أحدُ النزلاء خدمةً ما.

ما يمكن قوله في العاصمة الجزائرية ذات الغالبية الأمازيغية، يجد صدىً أقوى في مناطق القبائل، ربّما بسبب قسوة العيش في الجبال والعمل في الزراعة والفلاحة، أو على الأرجح بسبب الثورات والانتفاضات وحركات التمرّد التي تعاقبت على مناطق القبائل. ثمّ إنّ الأطماع الغربية بلعب ورقة القبائل يجب أن يُحسَب لها حسابٌ لا يُستهان به. طرح الفرنسيون صراحة، في عهد الجنرال شارل دوغول مثلاً، إمكانيةَ قيام حكم لامركزي للقبائل. أُنشئت الأكاديمية البربرية في فرنسا عام 1967. ولذا، فإنّ ثمّة قيادات جزائرية ما زالت إلى يومنا هذا، تُسارِع إلى اتّهام الغرب بمحاولة تأليب الأمازيغ على بلادهم، بحجة اللغة والثقافة، بُغية تعزيز نزعة الانفصال. لا بل سمعت هنا مَن يقول إنّ بعض الكتّاب والفنّانين الأمازيغ يلاقون ترحيباً ومساعدة كبيرة في الغرب، لتمويل ونشر إنتاجهم، بأكثر ممّا يلاقيه أيّ عربي أو مسلم آخر.

ماذا تريدون بالضبط؟ طرحتُ هذا السؤال مراراً، في منطقة القبائل الكبرى. جاءتني إجاباتٌ كثيرة تتآلف أو تتناقض، لكنّها تصبُّ جميعاً في الخانة عينها. «نحن تعرّضنا للتهميش، ونريد حماية ثقافتنا ولغتنا وحضارتنا». ويذهب البعض المغالي في التطرّف إلى حدّ القول: «يا أخي نريد الاستقلال».

يتجمّع الشبان بوجوههم السمراء وأعمارهم الفتيّة حول الزائر. يلتصقون به. يُشعرونه بأنّ ثمّة طوقاً يُضرب حوله. يتدخّل المرافق راجياً الابتعاد والإجابة بهدوء. تتعدّد الإجابات ثمّ تتفق على أمر واحد: نريد مشاركة فعلية في السلطة، واعترافاً كاملاً بلغتنا الأمازيغية لغة رسمية.

من أين تأتي كلّ هذه الجموع من الشبّان؟ توحي البلاد بأنّها ما اتّسعت سوى للذين تقلّ أعمارهم عن 30 عاماً. يشرح لي أحد القادة المحليين لماذا تسمّى هذه المنطقة «العروش»، فالتسمية تدلّ على نوع من التجمّع القبائلي، ومناطق القبائل شاسعة، والكثير من سكّان الجزائر هم من الأمازيغ، وغالبية سكّان العاصمة منهم، وليس من السهل إذاً تحديد تلك المناطق جغرافياً بدقة. هذا صحيح. ولكنّ الصحيح أيضاً أنّ أمازيغ الجزائر ينقسمون إلى أقسام ديمغرافية وجغرافية وقبلية، فهم في شرق العاصمة الجزائر يُسمَّون القبائل، وهي تسمية يُقال إنّ العرب هم الذين أطلقوها. وفي منطقة الأوراس جنوبي شرقي العاصمة يُسمَّون الشاوية. وأمّا المزابيون فهم أولئك التابعون للمذهب الإباضي ويقطنون خاصّة منطقة غرداية. يُضاف إليهم الطوارق، في أقصى الجنوب، والشناوة في شرشال، غربيَّ العاصمة، والشلوح القريبون من الحدود المغربية.

بينهم من يرفض أصلاً تبنّي اللغة الأمازيغية، وخاصّة في ولاية البويرة، والخلافات تقوم بينهم حول الحروف التي تُكتَبُ بها لغتهم: هل هي الحروف العربية، أم الحروف اللاتينية، أم حروف تيفيناغ؟

ربيع الطبيعة والبربر

ربيع الطبيعة في مناطق القبائل صار صنواً لتاسفوت إيمازيغن (ربيع البربر) إذ يجري كل عام في شهر نيسان/أبريل منذ عام 1981 إحياء ذكرى أول تمرّد كبير للاعتراف باللغة الأمازيغية (تمازيغت) لغة رسمية في البلاد.

بدأت نُذُر التمرّد الحديث حين منع الرئيس الجزائري الأسبق الشاذلي بن جديد في نيسان/أبريل من عام 1980 مؤتمراً عن الشعر الشعبي، كان سيُحييه الشاعر القبائلي المتحدّث باللغة الفرنسية مولود معمري، في إحدى جامعات تيزي أوزو. غضب الطلّاب. خرجوا إلى الشوارع، فكانت السلطات بالمرصاد، حصلت مصادمات تلتها اعتقالات بالعشرات ومحاكمات بتهمة المساس بأمن الدولة. أضرمَ عودُ الثقاب النارَ في الهشيم.

لم يكن معمري رجلاً عادياً. هو شاعر وكاتب وباحث مولود في عام 1917، وكان رئيساً للأكاديمية البربرية في باريس حتى عام 1979. أسّس في عام 1982 مركز الدراسات والبحوث الأمازيغية في فرنسا. يعتبره كثيرون بمثابة الأب الروحي لقواعد اللغة الأمازيغية التي كان ينشر بذورها في مجلة أوال (الكلمة). ألّف الكثير من الروايات (غفوة العادل، الأفيون والعصيّ، الهضبة المنسيّة...)، ووضع دواوين شعرية تُعدّ نبراساً في الأدب الامازيغي، وتُوفي بحادث سير عام 1989.

انتفض أبناء القبائل، بعد إلغاء المؤتمر، ثمّ خمدوا، ثمّ انتفضوا، وبقوا بين كرّ وفرّ بانتظار عام 198، حين جرى تبنّي التعدّدية السياسية، وتشريع بعض أحزابهم التي كان بينها من ناهض الإسلاميين، ودعا إلى العلمانية، كالتجمّع من أجل الثقافة والديمقراطية، بقيادة الدكتور سعيد سعدي. سرعان ما اتُّهِم سعدي، من جزء كبير من الأمازيغ، بأنّه يدور في فلك المؤسّسة العسكرية، ليناهض القيادي الأمازيغي التاريخي حسين آيت أحمد، المنفيّ طوعاً في سويسرا، والذي يُعدّ من آخر رجال الثورة الجزائرية الشرفاء ضدّ المستعمر الفرنسي.

بقي الجمر تحت الرماد، يطلّ برأسه الأحمر مرّة، ثمّ يخبو بانتظار فرصة ثانية. جاءت الفرصة الأخطر حين قُتِل أحد الطلّاب الأمازيغ، في مقرّ الدرك الوطني، في بني دوالة، في ولاية تيزي أوزو. اشتعلت مدن القبائل بالتظاهرات في نيسان/أبريل 2001. سقط عشرات القتلى، فصار الجرح كبيراً بين السلطة والأمازيغ. انتهى الأمر بأن قدّمت تنسيقية القرى والعروش (التي تضمّ زعماء القبائل) عريضةً بجميع مطالب البربر الأمنية والثقافية واللغوية، عُرفت باسم لائحة القصر. سعت السلطة إلى استغلال ذلك من خلال التنسيق المباشر مع هؤلاء وإقصاء الأحزاب السياسية.

كان الجرح يزداد اتِّساعا، حين شعرت بعض قيادات الأمازيغ بأنّ السلطة المركزية قد ضعفت بفعل الحرب مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ أولاً، والجماعات الإسلامية المسلحة ثانياً، في أواسط التسعينيات. رفع بعض قادة القبائل مطالبهم التي لم يخْلُ بعضُها من عبارات العداء للعرب والعروبة والقومية.

قال لي عبد العزيز، لاعب الكرة في تيزي أوزو، وأحد الناشطين في العروش: «يا أخي، مِن أين جئتمونا بتلك القومجية التي قتلت نفسها وقتلتنا ولم تحقق شيئاً؟». أجبتُه أمام الشبّان المتحلّقين حولنا: «وهل ستحارب القومجية بالأمازيغجية؟». ضحك وضحكنا جميعاً. ليس من عادات الجزائريين المزاح. لا تدخل النكتة في تقاليدهم الاجتماعية. القسوة هي الأساس. هي تشبه الجبال ووعورة المسالك إلى القمم. يُقال، على سبيل الطرفة، إنّك إنْ أخبرت نكتة لجزائري، فسينقبض جبينه وينظر إليك بعد تفكير، ويقول: «وصلت الفكرة». الأكيد أنّه لن يضحك.

تخلّت السلطات عن بعض التشدّد عبر التاريخ الحديث. قرّر الرئيس الأسبق اليمين زروال السماحَ بتعليم اللغة الأمازيغية في مناطق القبائل. أُنشِئ ما عُرِف باسم «المحافظة السامية للأمازيغية». أُقِرّت نشرات إخبارية على التلفزيون باللهجات الأمازيغية الثلاث أي القبائلية، والشاوية والمزابية. تضمّن الدستور، في تعديل عام 1996، مادَّة تعتبر أن الأمازيغية هي إحدى المقوّمات الأساسية للهويّة الجزائرية، إلى جانب الإسلام والعروبة. كان يُراد لتلك العبارة أن تكون في الموقع الوسط بين مطالب

القبائل والانفتاح الخجول للسلطة.

بوتفليقة يرجئ الانفجار

يُعدّ الرئيس عبد العزيز بوتفليقة من أكثر الدبلوماسيين العرب حنكةً وذكاءً وقدرةً على نجاح الوساطات. اكتسب خبرة سياسية ودبلوماسية طويلة، من خلال عمله إلى جانب أحد أبرز رؤساء الجزائر وأقواهم: هواري بومدين. قام بدور الوسيط مراراً، حين كان وزيراً للخارجية، في قضايا شائكة وحارقة في الشرق الأوسط. توسَّط في قضايا خطف طائرات. أدّى دوراً محورياً في قضيّة خطف وزراء أوبك، من قبل كارلوس ورفاقه. صاغ اتفاقيات وصفقات عدّة تتعلق بالقضية الفلسطينية، وبقي إلى جانب الفلسطينيين، وملتزماً بعمق بقضايا العرب.

أدرك بوتفليقة أنّ ثمّة جمراً تحت رماد التحرّكات الأمازيغية. عرف كيف يستجيب لعدد لا بأس به من مطالب البربر، يقيناً منه بأنّه، بذلك، يسحب البساط من تحت أقدام محرّكي الاحتجاجات. هو أصلاً تولّى الرئاسة على صفيح عشر سنوات من الحرب الدامية بين الجيش والمسلحين الإسلاميين، في ما عُرف بـ«العشرية السوداء» أو الحمراء. أسهم هو نفسه أيضاً بإنهاء تلك الحقبة البشعة من تاريخ الجزائر، من خلال تطبيق قانون الوئام المدني والمصالحة. لذلك كان راغباً في وأد برميل البارود الأمازيغي، قبل انفجاره. أدرك بتوفليقة، بحسّه السياسي الثاقب، أنّ العودة إلى الخلف باتت شبه مستحيلة، فلجأ إلى ترسيم اللغة الأمازيغية ودسترة الأمازيغية لغةً وطنية. لم يتحدّث مطلقاً عن جعلها لغة رسمية، على اعتبار أنّ العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة، بعد سنوات على إلغاء الفرنسية والتعريب.

مِن المعلوم أنّ العلاقة مع اللغة العربية عرفت خلافات حتى داخل القبائل في الجزائر، وذلك لأنّ قسماً كبيراً مِن أهل مناطق الشاوية والمزاب يرى أنّ الصراع اللغوي مصطنع، وأنّ وراءه أهدافاً سياسية لا ثقافية. هذا السبب وغيره من الأسباب المتعلقة بمعارضة قسم كبير من عرب الجزائر لجعل الأمازيغية لغة موزاية للعربية، دفع بوتفليقة إلى التراجع عن فكرة طرح الأمر على الاستفتاء العام، وأقرَّ ترسيم اللغة الامازيغية بمغامرة شخصية؛ فقد قال بوتفليقة، في خطابه الشهير: «إنّنا حين نتحدّث عن الأمازيغية، فإنّما نعني هويّة الشعب الجزائري قاطبة، والطابع الوطني لمقوّمات هذه الأمازيغية، ولا يمكن أن يكون الأمر محلّ أخذٍ وردّ، سواء تعلق الأمر بالأمازيغية لغة أو بالأمازيغية ثقافة، وعليه فإن الإقرار دستورياً باللغة الأمازيغية لغةً وطنية، ليس سوى استكمال لما هو حاصل في الواقع، وفي الممارسة المؤسساتية. أضِف إلى ذلك، أنّ مقدّمة الدستور الحالية أدرجت اللغة الأمازيغية صراحة كأحد مقوّمات الهويّة الوطنية، على قدم المساواة مع العربية والإسلام».

تذكُّرت وأنا أقرأ خطاب بوتفليقة، كلاماً مماثلاً قاله ذات يوم الرئيس الجزائري الأول أحمد بن بلّا في خطابه الشهير في تونس: «نحن عرب، عرب عرب». وحين سُئل لاحقاً عن موقفه من اللغتين العربية والأمازيغية، قال إنّي أرى أنّ «من المعيب طرح السؤال، بعد ربع قرن، عن موقعنا من اللغة العربية، فأنا ضدّ مَن يطرح أيّ لغة أخرى، مهما كانت، واللغة العربية هي لغتنا الوطنية، ولا يمكن التخلّي عنها، أو تشجيع أيّ لغة أخرى منافسة لها. وأنا بربري في الأصل، وتراثي البربري تعزيزٌ لأصالتي العربية والإسلامية، ثمّ إنّي لا أسمح بوجود لغتين وطنيتين، واحدة عربية وأخرى بربرية؛ إنّ اللغة الوطنية الوحيدة هي اللغة العربية».

ثمّة فرقٌ كبير بين الأمس واليوم. والرئيس بوتفليقة الذي سيذكره التاريخ كمبادر إلى المصالحة الوطنية، نجح في تَرْك بصماته أيضاً على هذا التاريخ، كأوّل مَن جعل اللغة الأمازيغية تتَّجه شيئاً فشيئاً نحو الاعتراف الرسمي بها لغة رسمية.

تُقدِّم السلطات تنازلاً تلْوَ الآخر، ربّما بقناعة، أو لاحتواء الغضب، أو خشيةَ المقاطعة الانتخابية، أو

لسحب البساط من تحت أولئك المتسلّحين بالثقافة واللغة لضرب الوحدة الوطنية. لكنّ الغريب في الأمر، أنّ من يزور بعض مناطق القبائل سيسمع كلاماً عنصرياً ضدّ العرب والعروبة، لا بل ضدّ ما يصِفه بعضهم هنا بـ«الغزو الإسلامي»، على الرغم من تعلّق الأمازيغ الكبير بالدين الحنيف. مرّة ثانية، أسأل هنا كما سألت في المغرب: هل تتطلّب حمايةُ اللغة والثقافة الأمازيغيتين ضرْبَ اللغة العربية والتراث، أم ثمّة أمور أبعد وأخطر من اللغة والثقافة؟ وهل يحمي البربر ثقافتهم بضرب الثقافة الأخرى؟ هل يحاربون العنصرية بمثلها أو بأسوأ منها، حتى لو وَجَب أن تُصانَ ثقافتُهم ولغتهم وحضارتهم وأنْ تبرز؟

سحر الحُبّ في إيطاليا
يلفح الشعر العربي

ثمّة مثل إيطالي يقول: «Chi va piano va sano e va lontano»، يُقابله في العربية «في التأنّي السلامة وفي العجلة الندامة». تبدو حياة الإيطاليين هكذا، ينشدون الفرح ويتمتعون بالحياة ويسعون للابتعاد عن مشاكلها.

وأنا بدوري قرَّرت، هذه الفترة، الابتعادَ عن السياسة، والذهاب إلى جزر نائية من أميركا الجنوبية إلى السواحل الأوروبية للمتوسّط، يقيناً منّي بأنّ مثل هذا الابتعاد لن يمنحني الراحة النفسية على المستوى الشخصي فحسْب، بل أيضاً استعادة القدرة على النظر إلى واقعنا العربي بشيء من العقل البارد والقلب الحالم بوطن عربي أكثر تقدُّما ورفاهيةً وإنسانيةً، بعيداً عن الفتن والحروب.

بروشيدا هي إحدى تلك الجزر، وأنا أزورها منذ بضع سنوات. تبعدُ نحو 45 دقيقة، بحراً عن نابولي. بين هذه المدينة الساحلية الجنوبية والجزيرة المستلقية هناك عند أطراف البحر، رحلة مزيَّنة بروعة الطبيعة. استرخاء التلال الخضراء. سحر البيوت البيضاء أو القرميدية. مياه زرقاء أو بيضاء أو خضراء صافية تدعوك للغوْصِ فيها، كي تغسل عنك هموم أوطانٍ يتناحر فيها المسلمون، ويهجرها المسيحيون، وينتحب فيها الدين، وتبكي كنائسها ومساجدها، وتسود فيها الغرائز القبيحة المتوحّشة، التي قد تقتل مواطناً على قارعة الطريق في لبنان، بسبب خلافٍ على أولوية السير بينما الناس يتفرّجون.

هنا في هذا البحر الذي نتشاطؤه مع جيراننا الأوروبيين، نَزداد حنيناً إلى أوطاننا، ونريد لهذه الأوطان أن تنعَمَ بسحر الطبيعة وتنبذ طباع البشر. أنظُرُ عن المركب أمامي، فأرى جزراً تلو جزُرٍ تخرج من كلّ ناحية، أخالني فاتحاً العلبة الروسية الشهيرة المتعدّدة العلبِ والمعروفة باسم «ماتريوشكا»، إذ كلما بانت لي جزيرة جميلة، ظهرَتْ جزيرة أجمل منها كانت خبيئةً خلفَها.

هنا «تعرّش» المنازل على الجزر وفوقها وعند أقدامها، كما تفعل صغارُ الهِررة وهي «تعربش» على جسد أمّها، أو كأنّما التلال الخضراء أمٌّ حنون، تسرِّح شعر المنازل ببعضِ الغيوم العابرة في السماء، وتُنزِلها إلى البحر لتغسل فيه أقدامها.

تظِلُّ علينا عروسُ البحر هنا، جزيرة مغرية اسمها «بروشيدا». لا عجبَ أن يسحر هذا الجمال أديباً فرنسياً رائعاً ومُحِبًّا لشرقنا، هو ألفونس لامارتين، فيُبدِع روايته «غرازييلّا» (Graziella) وهي قصّة نبيلٍ فرنسي يقع في غرام إحدى فتياتِ الجزيرة المنسيّة، فيُغرَمُ أيضاً بالجزيرة. كتب عنها، فخلّدها. ومنذ وفاته لا يزال أهل الجزيرة يخلّدون ذكراه، فيحتفلون بها كلّ عام على طريقتهم. وفي مثل هذه الأيّام يختارون ملكة جمال الجزيرة، ويطلقون عليها اسم «غرازييلّا».

وفي «بروشيدا» أيضاً كتبَتْ إليزا مورانتي روايتها «ليزولا دي آرتورا»، وفي حناياها أيضاً، وتحديداً في «مارينا كوريتشيلا»، صُوّر الفيلم الشهير «ساعي البريد»، الذي يروي جزءاً من حياة الشاعر المُلهَم بابلو نيرودا. أنصحكم بمشاهدته فهو من روائع السينما العالمية.

تسلك بنا سيّارة التاكسي الطرقَ والأزقّة الضيّقة. ربّما تكون صفة أزقة أكثر ملاءمة لهذه المعابر الجميلة بين البيوت الهانئة البيضاء أو الملوّنة، وتحت الشرفات المكللة بالورود. تعكس أشعّة الشمس علينا ظلالِ الأشجار والحيطان وأزهار الجزيرة، تلاقيها نسمةٌ تنساب معنا وحولنا وخلْفنا، في تلك الأزقّة، لتلطّف حرارة المكان.

يشرح السائق الإيطالي العتيق، بلغته الإنكليزية المفكّكة، سببَ تكاثر المنازل على أعالي التلال هنا. يحكي لنا عن غزوات أنهكت المكان، وعن إرادات حفظته، وعن سواعد وعقول وقلوب آمنت بأنّ الأرض لأهل الأرض، فبنت المنازل الحجرية والكنائس والأديرة في الأعالي، كما كرامات أهلها، كأنّما البيوت تحرس، من تلك الأعالي، الجزيرة ومحيطها وناسها. وكأنّ الأزقّة الضيّقة والجميلة بين البيوت شرايينُ من الحجر والبشر، عبرها تمرّ الحياة والفرح وهناءة العيش.

أترك السائق يحدّثني عن التاريخ، وأغرق في الجغرافيا. أفكّر بأنّ عودتنا الانتقائية نحن العرب إلى التاريخ أسهمَتْ بقتل جغرافيتنا وحاضرنا. كذَبَتْ علينا كثيراً كتبُ التاريخ، فاخترنا منها ما يلائم غرائزنا وتجاهلنا الدفاع عن الجغرافيا. تمسّكنا بالمتنبّي وعنترة وتاريخ انتصارات كانت غالباً انتصارات عرب على عرب، ومسلمين على مسلمين، وتناسينا أنّ في ذاك التاريخ مجازر وهزائم ومؤامرات لو التفتنا إليها وتعلّمنا منها ودرسناها وحلّلنا أسبابها، لتفادينا ما يشبهها اليوم. لكنّنا نقرأ بغرائزنا لا بعقولنا. هذا إنْ قرأنا.

هنا في «بروشيدا» يلتقي العقل والقلب. يهدأ الأول فيقرأ أفضل، وينفتح الثاني للإنسانية والمحبّة والآخَر. يحضر جمالِ الطبيعة وإبداع الخالق في كلّ زاوية. تبدو نافذة غرفتي في الفندق، إطاراً للوحة من الجمال حين أطِلُّ على الخارج. يبدو لي البحر مبتسماً ومصبِّحاً عليَّ بالخير. أفكّر ببحورنا التي صارت إمّا مطيّة لقواعد أطلسية، وإمّا ساحات لصراع غربي روسي، وإمّا معاقل للموساد، وإمّا قنابل موقوتة بانتظار اكتشافات الغاز وتكالب السياسيّين على اقتسام جبنَتِها فوق جثث الفقراء. أفكّر أيضاً بمياهنا التي لوّثتها يد البشر بعدما غالى الساسة في فسادهم وتركوا الطبيعة والأرض والمياه والطعام والشراب عرضة للتلوّث والأمراض فتضاعفت أمراض السرطان ثلاث مرّات.

كما البشر، كذلك الحجر، صمد هو الآخر، هنا، ضدّ غضب الطبيعة. في هذه الجزيرة وغيرها حجر اسمه «توفو». اشتهر بقدرته على امتصاص الماء. يضحك سائق التاكسي: «نحن أيضاً عرفنا كيف نمتصّ الغزاة فنأخذ منهم حضاراتهم ثمّ نلقي جثثهم في البحر». كدت أقول له: «عندنا يا سيدي ينهبون حضاراتنا بمالنا ويلقون جثثنا فوق أرضنا، وفي بحرنا، وندفع ثمن قتلنا من نفطنا ومالنا وأرضنا وجهلنا». لكنّي لم أرغب في تعكير سيل كلامه بلغته المفكّكة والمحبَّبة، ووجهه المحمرّ بفعل الطبيعة، وربّما بفعل النبيذ والفرح، ولم أشأ أن أعكّر صفو رحلتي. جئتُ أصلاً للراحة والنسيان.

في هذه الأزقة المعروفة باسم «الأحياء» الإسبانية، يبدو حذر التاريخ مرسوماً على وجوه الناس. لم تغيّر السياحة طباع أهل بروشيدا. تراهم يتفرّسون بالزائر كأنّه دخيلٌ على هناءة عيشهم. وحدَهم شبابُهم يبتسمون له، لحاجتهم إلى إنعاش سياحتهم. أمّا الجيل الأقدم، فيبدو أقلّ تمسُّكا بالسيّاح، وأكثر حرصاً على التاريخ والجغرافيا. ربّما لأنّ هذا الجيل شاهد ويلات حروب كثيرة.

بين البيوت الحجرية التي لا يرتفع بعضها أكثر من طابقين، ووسط أريج الورد ونسمات البحر، ليس غريباً أنْ ترى كلّ أنواع الثياب، الخارجي منها والداخلي، منشورةً على حبال الغسيل فوق الشرفات وعلى السطوح وخلف البيوت. هذه عادةٌ من العادات القديمة التي ما زلنا نمارسها نحن وجيراننا في جنوب أوروبا. ننشر غسيلنا وغسيل سياستنا على السطوح، خلافاً لما هي الحال مثلاً في فرنسا أو في ألمانيا أو في الشمال الأوروبي.

ماذا تعرفون عن العرب؟ أحاول أن أطرح السؤال لمجرّد استفزاز بعض الأصدقاء الأوروبيين الذين

تعرّفت إليهم في الندوة التي جمعتنا هنا قبل سنوات. أخالهم سيحدّثونني عن الإرهاب وعن حروبنا التي لا يعرف غير الله سبباً وجيهاً لها. لكنّ المفاجأة الكبرى تأتي من السيّدة الإيطالية الخمسينية فرانشيسكا كورّاو. إنّها أبرز مترجمي الأدب العربي إلى الإيطالية. أقامت في مصر لتتعلّم اللغة العربية (بينما سيّدات مجتمعنا وجيلنا الشبابي الجديد يخجلون من لغة أهلهم وقرآنهم). وفي مصر ربطتها صداقات منذ عام 1975 بكلّ من أمل دنقل وعبد المعطي حجازي ومحمود درويش وغيرهم.

تسوّي نظّارتها على وجهها المستدير، تبتسم وتقول بعربية جميلة ومحبّبة ومطعّمة باللهجة المصرية «أنا نشأت وترعرعتُ في صقلية، وكنت أسمع هناك الكثير من الكلمات العربية الأصل، بعضها بقي قريباً إلى أصله وبعضها الآخر صار أكثر قرباً إلى اللغة الإيطالية». أسألها أن تذكر لي بعض الأمثلة، فتجيب: «نحن نقول مثلاً قصر، أو فندق. ولدينا سوق العطّارين ونسمّيه ميركاتو العطارين، وعندنا المحشي والرز باللبن وغيرها من المأكولات ذات الأصل العربي».

سعت فرانشيسكا كورّاو في بداية رحلتها إلى القاهرة والمغرب ودول عربية أخرى للتخصّص في التاريخ العربي، لكنّها وقعت في غرام الشعر العربي، كما وقعتُ أنا في غرام الجزيرة. اكتشفَ الإيطاليّون، بفضل فرانشيسكا، أنّ الشعر العربي موجود عندهم منذ عقود طويلة. وضعَتْ كتاباً عن «شعراء العرب في صقلية». فورَ صدور الكتاب، بيعَت منه ستة آلاف نسخة. أحدث الأمر سابقة، لا في إيطاليا وحدَها، بل في الوطن العربي، حيث بات أفضل كتاب لا يبيع أكثر من 3 أو 4 آلاف نسخة، هذا إذا حسبنا أمّ الكاتب وأخته وعائلته وأقاربه وأبناء عمومته وبعض عشيقاته. ههه.

حبُّ فرانشيسكا كورّاو للشعر العربي، قديمه وجديده، وصداقاتها مع شعراء عرب، دفعتها للتعرّف عن قرب إلى أدونيس ومحمود درويش ومحمّد بنيس وغيرهم. كان لها الفضل في ترجمة مختارات من شعر أدونيس ودرويش. وحين نشرت كتابها المهمّ بعنوان «مختارات الشعر العربي من الجاهلية حتى اليوم»، بيعت منه 50 ألف نسخة. نعم 50 ألف نسخة، أي ربّما ما يوازي كلّ ما يبيعه أي معرض للكتاب في بلادنا.

كانت فرانشيسكا تروي لي كلّ ذلك بحماسة المحبّ والراغب في أن يقول للحضور إنّ في الوطن العربي شيئاً آخر غير القتل والدمار. فيه حبٌّ وشعر وأدب وحضارة، فيه تاريخ غير ذلك الذي ينبشه أعداء التاريخ من رحمنا ودمنا ليشوّهوا الإنسانية في مهد الأديان. بدت لي أكثر حماسة وجرأة وإقداماً من أيّ عربي اليوم، حيث صارت العروبة تهمةً، وصارت بعض دور العبادة أسواق نخاسة للمتاجرين بالدين ومدمّري بيوت الله. كانت عيناها الجميلتان تلمعان فوق وجهها الأبيض، وصوتها الإيطالي يعطي للغتنا رونقاً أوروبياً فريداً.

فرانشيسكا واحدة من مجموعة مترجمات وباحثات إيطاليات أحبَبْنَ الأدب العربي وعمِلْنَ على ترجمة عيون الشعر العربي إلى اللغة الإيطالية، وفي طليعتهن إيزابيلّا كاميرا دافليتو التي تتلمذت على يد المستشرق الإيطالي فرانشيسكو غابرييلّي. ترجمَتْ نحو 85 رواية وقصّة عربية، وخصّصت أطروحتها للأدب العربي المعاصر.

سألتني ماريا دافينو، الأستاذة في معهد اللغات الشرقية في نابولي: «لا شك في أنّك تعرف إيزابيلّا دافليتو». وهل ثمّة عربي مثقف أو كاتب أو صحافي لا يعرف إيزابيلا كاميرا دافليتو، التي ترجمت معظم الأدب العربي الحديث إلى الإيطالية؟ فهي وماريا وغيرهما شكّلن «الطلائع الأولى» لحركة الأدب العربي المترجَم في بلاد ليوناردو دافينشي الذي رسم الشرق من دون أنْ يزوره لضيق ذات اليد وفقره آنذاك (ربّما لذلك رسم الشرق على نحوٍ أفضل). ماريا دافينو مولودة في ليبيا، وكان والدها وأهلها من أواخر المستعمرين الإيطاليين. عادتْ قسراً إلى بلادها مع عائلتها عام 1970 بعد ثورة أو انقلاب العقيد معمّر القذافي. تقول إنّ والدها وأعمامها وأقاربها كانوا يتحدّثون اللغة العربية بلكنة ليبية خالصة، وإنّهم حين يعودون إلى إيطاليا لا يتحدّثون إلّا بتلك اللغة. ولذلك فهي تعتبر أنّها «من صلب

العالم العربي، وعربيةَ عاربة، وليست مستعربة».

درست دافينو الآداب العربية والإسلامية في سوريا، وتزوّجت سوريًّا يعمل في مجال التجارة، وحين تقول «زوجي اسمه فهد»، لا يمكن التمييز بين لهجتها وتلك اللهجات الدمشقية الأصيلة، حتى لتكاد تقول عن زوجها كما في مسلسل باب الحارة: «ابن عمّي».

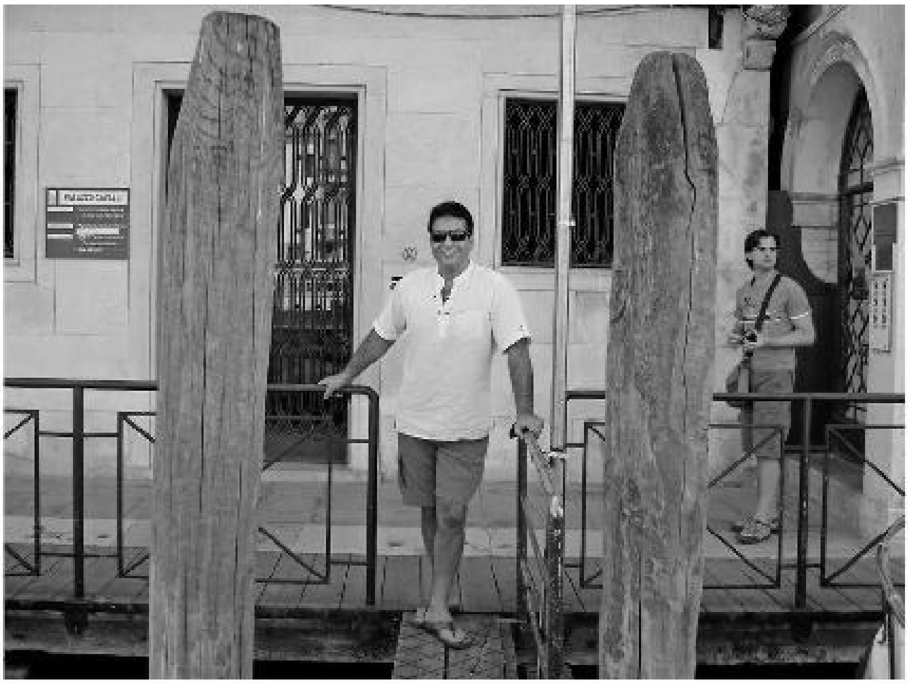

حين زرت كليّة الدراسات الشرقية في نابولي، لفتَني أنّ الإقبال على اللغة العربية ازداد كثيراً في السنوات القليلة الماضية. بعضهم لاكتشاف هذا العالم الذي ما عاد يرسل إلّا صورَ القتل والموت والتطرّف، على الرغم من أنّه في الكثير من جوانبه، ضحيّة لمن يدَّعون في الغرب نصرته، وبعضهم لأنّه تعلّق بالقضايا العربية وخاصّة قضيّة فلسطين. من هؤلاء الإيطالية الحسناء لوانا كريسارا، التي تعلمت العربية، لأنّها أحبّت فلسطين، والتي كانت عيناها تبرقان إعجاباً حين تتحدّث عن المقاومة اللبنانية، حين التقيتُها قبل سنوات، وكانت في أوج شبابها وجمالها وحماستها.

الإيطاليون لم يحبّوا الأميركيين كثيراً. نزلوا إلى الشوارع نصرةً للعراق، حين غزاه جورج بوش وطوني بلير، بذريعة أكذوبة أسلحة الدمار الشامل، التي لم يعثروا عليها، وخلّفوا دماراً شاملاً، في أسوأ جرائم العصر. لعلّ في ذلك ما جعل الإيطاليين في السنوات التي سبقت ويلات ما وُصِفَ بـ«الربيع العربي»، وقيام داعش والنصرة وغيرهما، يُعرِبون عن تعاطفٍ كبير مع قضايانا. ربّما غيَّروا رأيهم الآن، بل على الأرجح أنّهم غيَّروه.

في بروشيدا الساحرة قد تجد كتباً عربية أو شعراً لمحمود درويش أو أدونيس أو روايات لصنع الله إبراهيم وإلياس خوري ويوسف زيدان وهدى بركات وجمال الغيطاني، أكثر ممّا تجد في الكثير من مكتبات العرب. فماذا نعرف نحن عن شعر إيطاليا وآدابها؟ لا بل ماذا نعرف عن أدبنا وشعرنا العربيين؟ طبعاً، النزر اليسير، إنْ لم يكن لا شيء. هل يُعقل أنّ أمَّة تنتج أغنية تقول: «لا تضربني لا تضرب...» هي نفسها الأمة التي أنتجت قبلها «أغداً ألقاك»، أو «لو كنت أقدر أحب تاني أحبّك انت»؟

لا نعرف شيئاً عن أدب إيطاليا، نعرف أكثر عن الأزياء الإيطالية. فمعظم المحالّ التجارية في روما تمتلئ بالعرب في أواخر الشتاء، لأنّ تنزيلات ما قبل الربيع والصيف في ذروتها... لا تضحكوا أرجوكم.

من حائط كنيسة سيّدة النورية في لبنان.

في رحاب لبنان

جئت بالباخرة الفرنسية بعد خروج الاحتلال

أخيراً في بيروت. أو بالأحرى في صيدا. أكثر من شهر في انتظار لحظة العودة إلى لبنان الخارج لتوّه من الحرب. 24 ساعة على الباخرة العسكرية الفرنسية تبدو كأنّها الأبد. تطول الساعات، يبتسم الكابتن دولورم. الضابط الفرنسي المكلف بشؤون الصحافة اعتادَ هذه الرحلات. يشرح لنا مع الكابتن باتريك لوتييه أنّ حوالى 13 ألفاً و500 شخص قاموا بهذه الرحلة، لكن بالاتّجاه المعاكس صوب بلادهم، وأنّ أكثر من 61 جنسية غادروا في الشهر الماضي، هرباً من الحرب التي لم يكن أحد يحسَب أنّها ستنتهي يوماً.

ها أنا أعود إلى لبنان في آخر أيّام حرب 2006 التي شنّتها إسرائيل على لبنان، ودمّرت الكثير من بنيته التحتية، لكنّها لم تدمّر قرار شعبه بالتصدّي لغطرستها.

خليط من القوّات البرّية والجوّية والبحرية، يلتقي على ظهر الباخرة لوميسترال. بضعة صحافيين بينهم 3 لبنانيّين، تاتيانا مسعد من مونت كارلو، وماهر شميطلّي من بلومرنيغ، وكاتب هذه السطور، و3 مصوّرين أجانب جاؤوا يريحون زملاءهم الذين بقوا أكثر من شهر كامل تحت القصف والدمار، شاهدين على بربرية إسرائيل وحقدها الأعمى. بين الركّاب المدنيّين أيضاً المخرج فيليب عرقتنجي، حاملاً كاميرته يصوّر كلّ شيء، وهو الذي حاز، منذ فترةٍ، إعجاب الجمهور والنقاد، عن فيلمه «البوسطة».

خليط آخر على ظهر الباخرة من المساعدات الإنسانية، أدوية وحليب مجفّف من مؤسّسة رفيق الحريري، أو في إطار حملة رفيق الحريري للإغاثة. تمورٌ من مؤسّسة عجلان. أطنان من الصناديق الملفوفة بأكياس بلاستيكية لتحمّل عناء السفر.

أخيراً، ظهر البرُّ، وبانت صيدا مع إشراقة شمس الصباح. أسئلة من زملائنا الأجانب عن المدينة، وعمّا إن كانت تعرّضت للقصف. خيبةُ أملٍ قليلة، فهم يأتون لتصوير الخراب والدمار، وما بقي من شهداء تحت أطنان الباطون المسلح، أو ربّما يأتون باحثين عن صورة للإمام الخميني أو لأسامة بن لادن، للقول إنّ النصر ليس فعل مقاومين من أبناء الأرض الطيّبة، وإنّما من صنع إيران وسوريا.

التعليمات العسكرية تمنع الصحافيين من الصعود إلى ظهر الباخرة. «الحذر سيّد الموقف»، هكذا يقول الضابط المرافق. نعرف أنّ الخطر العسكري قد زال تقريباً، لكنّ الإجراءات العسكرية تبقى على حالها. انتشارٌ إذاً للجنود الفرنسيين يؤخّر نزول الصحافيين. حالةٌ لافتة من التنبّه لأيّ حركة غير طبيعية، ثمّ نزول إلى اليابسة قبل الركّاب، بُغية ضمان أمن الصحافيين والمساعدات الإنسانية.

إجراءات جمركية سريعة، لتبدأ بعدها الرحلة إلى الجنوب. جنوب الصمود الأسطوري، بلا ريب، ولكن جنوب الدمار الكبير أيضاً. كانت النقاشات كثيرة على ظهر الباخرة، بين من يرى في السيد حسن نصر الله مناضلاً وطنياً بامتياز، وبين من يعتبره مسؤولاً عن تراجع لبنان، وعن تسبّبه بدماره. نقاشات أخرى عسكرية عمّا إن كان نصرُ حزبِ الله هو لحزب الله، أم للبنان؟ وعمّا إن كان النصر هو للحزب الذي صمد وقتل الكثير من الإسرائيليين، وبدّد وهمَ الجيش الذي لا يُقهر، أم هو نصرُ إسرائيل التي ضربت البنى التحتية ووصلت حتى مشارف الليطاني؟

تختفي النقاشات سريعاً، حين تنطلق بنا السيّارة من مرفأ صيدا إلى الجنوب. هنا المَشاهد تلجم الكلام، وتُعيد النقاش إلى بعدِه الإنساني المحض. كيف لا، والصوَرُ تبدو خارجة لتوّها من فيلم أميركي يبدِع

أنماطاً من الخراب والدمار.

زحمةُ سير على بعض الجسور. السيّارات تلتفُّ حولها أو تحتها أو تمرّ إلى جانبها عبر المعابر الترابية. يطول الانتظار. يترجّل بعض الركّاب ليعرفوا السبب، يحمل بعضهم شارات تدل على انتمائهم إلى بعض المنظمات الإنسانية. يبقى البعض الآخر في السيّارة، وخاصّة النساء المتّشحات بالسواد، والسيّارات تحمل على ظهورها بعض البطانيات والفرش والأغطية.

تنفرج أخيراً، تعبر السيّارات الواحدة تلو الأخرى، وتنفرج في سيّارتنا أساريرُ الزميل والروائي إلياس خوري، لا بل تنطلق من الحناجر أغنيةُ «صامدون هنا»، من دون تصميم مُسبَق.

تعْبُر السيّارات، وعلى عددٍ منها أعلامُ حزب الله. الساعة العاشرة صباحاً. وقفةٌ في فرن المناقيش، لقاء بالصدفة مع الزميلة زينب ياغي (رحمها الله) الطيّبة إلى أقصى حدّ، والمتلزمة إلى أقصى حدّ، مذ فقدت بعض أهلها في الحروب. نلتقي كذلك بالمصوّر بلال قبلان وبعض الصحافيين الآخرين. حديث عن الزميل حسين أيّوب الذي يدفن أمّه التي قُتلت تحت الردم جرّاء القصف الإسرائيلي، بعدما كان والده اليساري قد استُشهد في حرب سابقة. لا بأس، فالزميل حسين يناضل على طريقته، ولعلّه كان سيذهب في طليعة الذاهبين إلى الجنوب، بعد التحرير، لولا تقبُّل التعازي.

تبدو صيدا عادية الحركة. سائقو الباصات الصغيرة يعلنون بأصواتهم الصادحة أنّ أجرة الراكب إلى بيروت 2000 ليرة. تعود بعض محطات البنزين التي لم تُدمَّر إلى حركتها. لا شيء يشير إلى الحرب في عاصمة الجنوب التي لم تتعرّض أصلاً للقصف سوى في بعض أطرافها. الرسالة الإسرائيلية واضحة.

تتغيّر الصورة رويداً رويداً في صور، آثار الحرب والحقد واضحة تماماً على جانبي الطريق. لا داعي للوصف، فالمدينة عرفت مراراً مثل هذه الصور. بنايات مدمّرة، وأخرى تغالب السقوط. قذائف كثيرة مرّت من هنا تاركة خلفها ثقوباً بمختلف الأحجام، لكنّ المدينة تبدو مستعجلة لاستعادة حياتها وحيويّتها. توحي الحركة فيها بأنّ الخروج من العاصفة سيكون أسرع من المتوقع. ما تغيَّر فيها هو فقط حواجز الجيش التي باشرت الانتشار ونشر ملصقات تحذّر من لمس القنابل التي خلفها الحاقدون.

كلّما اتجهت بنا السيّارة جنوباً، اتّضحت أكثر مخلّفات الخراب. هنا بقايا جثّة في سيّارة محترقة قرب حفرة كبيرة وسط الطريق، هناك بقايا محلّ تجاري تظهر من تحت ركامه ألعاب الأولاد وحمّالات الأطفال، وبين هذه وتلك، تمرّ سيّارة للأمم المتحدة، وأخرى للصليب الأحمر. تابعوا سيركم سترون ما هو أفظع، يقول العائدون من الجنوب باتّجاه بيروت. الأفظع لا يتأخّر.

عيتا الضحيّة والصمود

كلّ ما يشاهده الذاهب إلى الجنوب قبل عيتا الشعب شيء، وما تراه العين في عيتا الشعب شيء آخر. هنا الحقد الاسرائيلي تجلّى بأبشع محطّاته. هنا المقاومة الأسطورية تجلّت بأبهى صورها. ما بقي من قرية الصمود إنّما يقارب ما بقي من هيروشيما بعد القنبلة النووية، أو يكاد. نساء متّشحات بالسواد، جالسات تحت ما بقي من بيوت عند مدخل القرية. نظرات غريبة صوب الصحافيّين، فيها من الحزن الدفين بقدر ما فيها من اللوم والعتاب، وكأنّما في تلك النظرات رسائل إلى أولئك المستعجلين على دفن النصر في مدافن الشهداء، أو كأنّما فيها ما يقول: نحن دفعنا ثمناً من دمنا وأبنائنا وأهلنا، فماذا ينفع التصوير بعد.

القرية الصامدة تحوَّلتْ إلى مقبرة من الإسمنت المسلح. يحار الزائر أين ينظر، يميناً، حيث البيوت حطامٌ فوق حطام، أم يساراً، حيث الدمار فوق الدمار، أم إلى بعض أوراق التبغ المعلقة في ما بقي من المنازل المحطّمة.

يكاد السؤال يختنق في مصدره، لكنّ فتياناً بعمر الورود، وإرادة من فولاذ، وابتسامة مرحّبة، يطلعون من بين الركام، يقترحون إرشادنا إلى الأماكن الأكثر دماراً في القرية. وهل سنرى أكثر ممّا رأينا؟

الجواب يأتي سريعاً من هناك، من المنطقة العليا. لا تزال جرّافة قاطرة إسرائيلية مدمّرة وشاهدة مع جنازيرها المستلقية إلى جانبها، على استبسال أبناء عيتا الشعب. «كان يُراد لهذه الجرّافة أن تفتح الطريق أمام دبّابات ميركافا، وأنْ تُقيم على جوانبها السواتر الترابية، وتفتك بالمزيد من الأبرياء، لكنّ الشباب قاموا بحركة التفافية حولها ودمّروها»، هذا ما قاله لنا حسن، وكأنّما كان يريد بذلك أن يقول إنّه هو الذي قام بذلك.

دمّروها. كلمة دمار لم تعد تليق بذلك الحيّ الذي بات كومةً من إسمنت وتراب، لم يبقَ منه سوى كتب أطفال مبعثرة، وبقايا مأكولات إسرائيلية شاهدة على آخر اللحظات، قبل أن يجرجر العدوّ هزيمته ويهرب مرتدًّا على أعقابه. هربٍ تاركاً خلفه قريةً تقول للعالم إنّ كلّ همجيّة إسرائيل وبربريتها وحقدها ما زادت الناس هنا إلّا تعلّقا بالأرض الطيّبة المناضلة.

حسينيّة عيتا الشعب تعجُّ بأبنائها، كلهم عادوا أمس إلى البيوت المدمّرة باطوناً، والشامخة إرادةً وصلابةً وعنفواناً. لا بهرجات هنا، ولا مسؤولين رسميين، بل بكاء صامت، وصوت القرآن، وفتيان بعمر الورود يوزّعون الحلوى عن أرواح الشهداء.

تبدو القرية ثكلى ولكن صامدة، توحي بأنّها خرجت لتوّها من الحرب العالمية الثانية، يكاد أهلُها يعكسون في وجوههم ونظراتهم شيئاً من تلك العزلة التي عاشها أبطال عيتا الشعب لأكثر من شهر، أو شيئاً من تلك العزلة العربية، أو التآمر العربي الذي أراد لإسرائيل أن تُكمِل مهمّتها وتُنهي عصر المقاومة.

لا تعرف مَن كان مقاوماً هنا، ومَن هو الواصل لتوّه، الجميع قادرون على شرح أصغر التفاصيل عن المعركة، ومخابئ المقاومين، وكيفية نصبهم لبعض الكمائن، واستبسالهم، ولكن لا أحد يقول لك إنّه كان هنا. هل في الأمر تواضع، أم سبب أمني؟ ليس الجواب مهمًّا، وكيف يكون مهمًّا حين ترى سيِّدة عجوزاً جالسةً على ركام منزلها، ترفع شارة النصر، وتقول: بيتي ليس مهمًّا، فالبيت هو التاريخ، وتاريخنا هنا يبقى مهما دمّروا الحجر، وكلّ التضحيات تهون لأجل المقاومة.

يعلو صوت القرآن، ترتفع زغردات النساء، يصفق البعض. يعتقد الزائر أنّ خبراً عن نصرٍ جديدٍ قد وصل لتوّه. لكنْ، للزغردة هنا سببٌ آخر، إنّها الشهادة. وصلت قافلة النعوش إلى عيتا الشعب نعشاً خلف نعش، وعلماً أصفر خلف علم، وشبَّانا بقمصانهم السوداء يحملون أبطال القرية على الأكتاف.

تعلو زغردات النساء، لكنّ للعاطفة حدوداً. يختلط عنفوان الزغردات بدموع تقطر من القلب. لا شيء يشبه ذاك الحزن الدفين سوى قلبِ أمٍّ انفطَرَ على فلذة كبدها. تصل قافلة الشهداء إلى البيوت المدمّرة، منشدٌ يُطْلِق عبارات تُلهِبُ حماسة المشيّعين.

بنت جبيل الشامخة فوق الدمار

المسافة بين عيتا الشعب وبنت جبيل تبدو قريبة، أو لعلّ تشابه الدمار وعظمة الصمود هما ما جعلهما تتشابهان إلى حدّ بعيد. إنّهما نموذجٌ عن تلك القرى التي لم تطلب شيئاً من أحد. فقط، هي قرّرت أن تدافع عن أرضها بناسها. اللافت أنّه بين القرية والمدينة، تبدو المناطق المسيحية، على غرار رميش وعين إبل، قليلة أو ربّما نادرة الدمار، باستثناء بعض أطراف عين إبل. نسمع في هذه القرى المسيحية رواياتٍ عن تضامنٍ كبير مع الذين لجأوا إلى هنا في أوقات الشدّة. نسمع كذلك امتناناً من اللاجئين الذين وجدوا عند جيرانهم بيوتاً مفتوحةً، وقلوباً متعاطفة، ربّما لأنّ الحقد الإسرائيلي نجح هذه المرّة في قتل الفروقات السياسية والإيديولوجية، وأسهم في إهداء النصر إلى كلّ لبنان، حتى لو قال البعض غير ذلك.

«اذهبوا إلى سوق بنت جبيل، هناك المنظر أفضل للتصوير». هكذا قال لنا ابن المدينة الصامدة، وكأنّما كلّ الدمار المحيط بهذا الشاب الطليق اللحية، لا يعبّر عن مدى فداحة القصف الأعمى...

تختنق كلمات الوصف. تتجمّد الدموع في المآقي. سوق المدينة؟ أيّ سوق؟ لم يبقَ منه سوى بعض اللافتات المترنّحة من فوق أكوام الإسمنت، وبعض أكياس البطاطا المقليّة (تشيبس) المشرئبّة بألوانها من تحت الدمار، ورائحة موتٍ وغبار، وجثث لم تُنتشَل بعدُ، بعض الأهالي يتحدّثون عن انتشال سبع جثث اليوم من هنا... أمام ما بقي من منزلهما، يجلس عجوز وزوجته يحتسيان قهوةً بنكهة الشهادة والحزن على من رحلوا، والأمل بنصر دائم...

شابٌ في العشرين من عمره يقول: «كلّ يوم ننتشل جثثاً». لكنّ الكلام عن الجثث سرعان ما يختفي مفسحاً في المجال أمام روايات عن معارك البطولة، وكأنّما الشهادة أمر عادي، والتحرير هو الأهمّ. كان يروي تفاصيل المعارك التي دارت هنا، والكمائن التي نُصبت هناك، بحماسةِ طفلٍ فرِحٍ بلعبته الأولى.

تعبر بنا السيّارة تحت الجسور المدمّرة، والقرى الثكلى. نمرُّ في قرية مركبا التي لا تقلّ دماراً، تمرّ بنا جنازةٌ خلفَها قلّةٌ من المشيّعين، ربّما هي لشهيد اكتُشفت جثّته للتوّ، أو لشخص فارق الحياة بعد النصر. لم يعد للموت أهمّيّة في هذه القرى، أو لعلّها توحي بذلك. يأتي صوت مارسيل خليفة من إذاعة «صوت الشعب» مختلطاً بتشويش من إذاعة إسرائيلية، ثمّ تختلط شبكة الهاتف الخلوي اللبنانية، فتارة تعلق على الشبكة الإسرائيلية، وتارة أخرى على الشبكة السورية.

هنا لا كلامَ عن سوريا وإسرائيل، ولا اهتمام بالشؤون الإقليمية والدولية. هنا، فقط روايات عن

معركة ربّما ستغيّر وجهَ التاريخ. لكن إلى متى سيستمرّ سفكُ الدماء في هذا الشرق؟ حتى متى سيدفع لبنان الجميل ثمن جغرافيته؟ هل لا يزال كثيرون فعلاً يريدون الحرب مع إسرائيل؟ أم بات السلام حاجة كبيرة لكلّ دول المنطقة، إنْ صدقت إسرائيل في سعيها للسلام؟ المشكلة أنّها حتى اليوم لم تصدق.

الغد سيكون أجمل

ترجَّلتُ من سيّارة الدفع الرباعي. هممتُ بوضع قدمي على الأرض، فرأيتُ أقحوانةً حمراء نقيّة تبتسم لي بشيء من الخوف. لو لم أنتبه لداسَتها قدمي وقتلت جمالَها في هذا الربيع الدافئ، الناثرِ ورودَه على العابرين. أزحتُ قدمي قليلاً لأحمي الأقحوانة. رحْتُ أسير بين الحقولِ الخضراء، وتحت الأشجار التي أنجبَتْ لتوّها أجنّة الثمار والزهور. منحتني الطبيعة كلّ الألوان دفعة واحدة. تهادت عيناي بين الجبال وفوق السهول، وسارتْ برفقٍ قرب خرير النهر.

إن غاب شيءٌ من روعة الخلق والخالق عن ناظري، كان أريجُهُ يُرشدني إليه. هنا تفوح رائحة زهر الوزّال الأصفر. ومن هناك تُرسِل شجيراتُ الزيزفون عطرَها. وبين زهرة وأخرى ترشح الأرض الخارجة لتوّها من حمّامات الشتاء برائحة التربة النضرة. أتّكئُ على جذع شجرة الجوز. ألامِس برفقٍ، باليد الأخرى، شجيرةَ زيتون شابّة. أداعب وريقاتها بيَدي، كعاشق يداعب شعرَ حبيبته. تسرح عيناي بين الشجرتين، نحو الأفق الرحب، تتّسع رئتاي لذلك الأوكسيجين السحري الذي يجعل الجسد والروح فرِحَيْن معاً ودفعةً واحدة.

أنظر صوب السماء. أراها زرقاء شبه صافية. لا يمكن أن تكون صافية تماماً في مثل هذا الشهر. تُزيِّن زرقتَها بعضُ الغيمات، كأنّما بين الزرقة ولون الغيم الأبيض يدُ عجوز جبلية طرَّزت السماء بكلّ تلك الألوان والأشكال الهندسية، كما تطرّز شرشف طاولة خشبية قديمة. تعبُر أشعّة الشمس بين الغيمات، فتتمازج مع شيء من نسيم الصباح الدافئ، لتجعل الدفءَ يعمُّ المكان.

قرَّرت في هذا اليوم أن أُقفِل هواتفي. تعمَّدت نسيان التكنولوجيا والفايسبوك وتويتر والأخبار والتلفزات والإذاعات. شيءٌ ما كان يجذبني بقوّة إلى الطبيعة. لن أسمعَ طَوالَ هذا النهار مآسي الاقتتال ولا فسادَ الساسة. جلستُ عند حافة النهر أتأمّل نملةً في سَيْرها، ومن خلْفِها رفيقاتها. تأمّلت دقة هندسة هذا الكون ومخلوقات الله. لا شيءَ عكَّر هذا الانسجام سوى البشر. كلّ شيء في الأرض، وعلى الأرض، وفي السماء والماء، يسير مع الطبيعة إلّا البشر. وحدَهم يسيرون بعكسها ويدمّرونها.

شدَّتني رائحة الخبز الطازج من تنّور مجاور. اقتربتُ وكلّي يقينٌ بأنّ من لا يزال يطحن ويعجن ويخبز، إنّما فيه شيء من روح هذا الكون وانسجامه. رأيتُ سيِّدة في منتصف العمر تلوّح الرغيف من يدٍ إلى أخرى، ليكوِّن دائرةً صغيرة، ثمّ يكبُر ويكبُر بين يديها، وحين تكتمل الدائرة تطرحه على الصاج، فتبرز حبيباته الحمراء على الرغيف. وجنتا السيدة الخمسينية العمر، والمغطّاة الرأس بقماش أبيض، محمرَّتان بفعل نار الموقدة. يداها القويّتان تنتقلان برشاقة بين جاط العجين وحرارة الصاج. تأخذُ العجينة الصغيرة، ترميها على الطاولة الخشبية، تضغط عليها قليلاً بأصابعها، ترشّ فوقها قليلاً من الطحين. تمارس عليها كلّ فنون التكبير حتى تصبح دائرةً جاهزةً للانتقال من يد إلى أخرى. ثمّ ترمي الدائرة الكبيرة فوق «الكوارة» وبعدها تصبح جاهزة للاستلقاء على الصاج.

يُنزِل زوجها رأسه حتى يكاد يلاصق النار. ينفخ في الجمر والقضبان المشتعلة، ثمّ يتراجع قليلاً، حين يزداد اللهيب. يتسلّل بعض دخان النار والرماد إلى عينيه، يفركهما بشيء من الانزعاج. يلعن النار والدخان والرماد، تضحك زوجته، فيضحك. ينتبهان إلى اقترابي منهما، يدعُوانني ببساطةِ أهلِ الجبال، لأتناول رغيفاً ساخناً أو فطوراً إلى مائدتهما. أشكرهما جزيل الشكر، وأتابع يومي.

على بُعدِ أمتارٍ قليلة، تتهادى دجاجات مزركشة الألوان قرب «القنّ». يتقدّمها عددٌ من الدِيَكة بكثير من الزهْو والكبرياء الذي يشبه اعتدادَ مذيعات ومذيعي التلفزات بأنفسهم... ههه. تتسابق على نقد الحبوب بين الزهور. تلاحق حشرةً تطِلّ برأسها من تحت التربة الطريّة، فتسارع إلى الانزلاق مجدَّدا إلى تحت التربة. فجأةً، ومن دون سابق إنذار، يلاحق أحدُ الديكة أكبر الدجاجات حجماً. هي تهرب

وتصيح مذعورةً أمامه، وهو يركض خلفها ويزجرها. أفكّر بالمثل القائل: «يتمنّعن وهنَّ راغبات»... ههه. سرعان ما ينتهي السباق بين الغازي وطريدتِه، بأن يعتلي ظهرَها وينقد رقبَتَها ويمارس معها واجبه الزوجي... ما إن ترتاح المسكينة قليلاً، حتى يلاحقها ديكٌ آخر. فكَّرتُ بكلّ تعقيدات الزواج والإنجاب والطلاق والتربية... في قوانين البشر. ضحكت.

كلما رأيت دِيَكةً تذكُّرت البشر. هنا تُفسح الطبيعة في المكان لسباقٍ إلى المأكل والحُبّ، وهناك يتقاتل دِيَكة البشر على مزابل السياسة، والفِتَن المذهبية، والتاريخ والحاضر، فيلعَنون التاريخَ، ويذبحون الحاضر وينهشون لحم المستقبل.

يتقاتل ديَكةُ البشرِ على الأرض والجبال والأنهار والأودية والأرزاق والدجاج والحيوانات. يموت البشر بأيدي البشر، بينما الطبيعة تستمرّ بكلّ جمالها وجلالها وحُسنها، راسخةً هنا. تستمرّ شاهدةً على صراعات وحروب ونزاعات من أجل اللاشيء. قد تصطاد الحيوانات بعضها بعضاً، لكنّي لم أرَ حيواناً يصطاد أكثر ممّا يحتاج، أو يقتل لمتعة القتل، أو لأنّ إيديولوجيةً سياسيةً غبيَّة عزّزت الإجرام في قلبه، أو أنَّ تأويلاً دينياً أكثر غباءً دفعَه إلى كلّ هذا التوق للدماء، فقتلَ الإيمانَ الحقيقي، ونحَر الدين الحق.

«ما بالك يا رجل! عدْتَ تفكّر في السياسة؟». هكذا زجرتُ نفسي، وأنا أنحدر من الجبل إلى الوادي. استلقيتُ قرب النهر. داعبتُ ورودَ الأقحوان، ملأتُ رئتَيَّ بأريجِ الزهور وعطر التربة، نظرتُ إلى السماء، قلتُ شكراً لخالق كلّ هذا الجمال، وأغمضتُ عينيّ طويلاً. لا شكّ في أنّ الغد سيكون أجمل. لا تحتاج السعادة إلى الكثير عادة، فكيف إن كانت وسط هذا الجمال اللبناني.

كنيسة في رمضان

كانت راهبة الدير واقفة أمام عمود الكنيسة القديمة تصلّي. لا شيء يصل إلى ذلك المكان الوادع، سوى حفيف أوراق الحور في الخارج، وأريج الصنوبر الأخضر النديّ، ورونق الصباح الهادئ في مستهلّ الصيف.

كانت هناك واقفةً بثوبها الأسود، رأسُها متكِئٌ على العمود. يداها تلامسان الحجر. عيناها مغمضتان بخشوع. الصليب يتدلى من فوق صدرها، يلامسُه نسيمُ الصباح، فيقبّل العمود ويُحدِث صوتاً كأنّه الموسيقى المرافقة لصلاة الراهبة.

في بهو الكنيسة القديمة، ممرٌّ تزيُّنه أعمدة حجرية عتيقة، وفي آخر البهو بابٌ مفتوحٌ يُطلُّ على شجر السنديان، وعلى صنوبرة داعبتها السنون، حتى كوّرت جسدها فانحنت صوب الأرضِ تلامسها، فتبدو هي الأخرى، في حال صلاةٍ وخشوع.

يُرسِل البحر في تلك اللحظات الكونية الفريدة، انعكاسَ زرقته إلى فوق. وفي هذا الفوق تتربّع الكنيسة العتيقة، بين كلّ صنوف الشجر العريق. ومن هذا الفوق، راهبةٌ تصلّي لكلّ مريضٍ وضعيفٍ ومحتاج وفقير. لا فرق عندها إنْ كان هؤلاء مسيحيّين أو مسلمين أو يهوداً أو بوذيّين.

نحن في اليوم الأول من شهر رمضان الكريم. ربما كانت الراهبة لا تدري أو تدري، لا فرق، أنّ الشهرَ الفضيلَ قد بدأ، فهي تمارس طقوس الإنسانية كما يمارسها أيُّ مسلمٍ في أيّام الورع والتقوى والصيام. تبدو من لباسها وسحنتِها وحركتِها البطيئة وابتسامتها الحنون وعمرِها المحفور خطوطاً على الجبين، كأنّها اختصرت في الوجهِ والجبين كلّ آلام الحياة وآمال الخلاص. تحارُ وأنت أمامَها، أتَنظُرُ إلى شواهد الألم، أم إلى بوارق الأمل. هي الحياة هكذا، تُشبه الراهبةَ الخاشعةَ أمام عمود الكنيسة. أنت تقرّر هل ترى الألم فيها أم الأمل. وهبَنا الله نعمة الخيار، فلماذا نقتل الخيار والنعمة، ولا نرى إلّا المآسي من حولنا.

انتظرت اكتمال صلاة الراهبة، ورحتُ أشاهدها عن بُعدِ خطواتٍ قليلة. وقفت إلى جانب شجيرة الوزال وتحت السنديانة الوارفة. لامستني نسمةُ البحر المعطّرة برحيق الورد، وعطر الأغصان النديّة. شعرتُ بدفءِ أشعّة الشمس المتسلّلة من بين الأغصان و«أكواز» الصنوبر تتسلّل إلى جسدي فتدفئه. قدّم لي الكَونُ في تلك اللحظة، اختصاراً لقصّة انسجام الطبيعة التي لم يضعْ لها خاتمةً حزينةً سوى جَوْرِ البشر وتقاتلِهم على اللاشيء فوق مزابل التاريخ.

اقتربْتُ من الراهبة، بعد اكتمال الصلاة. ردَّد بهْوُ الكنيسة صدى خطواتي على الحجر الناعم، بفعل سير الأقدام عليه، عبْر الزمان. قلتُ لها بصوتٍ خفيض: «صباح الخير يا أمّي، لي صديقة مريضة ونرغب في زيارة الكنيسة الصغرى في أسفل الجبل قرب البحر». تمعّنت في عينيَّ كأنّما تريد اختبار صدق كلامي. ابتَسمَتْ، فبانت أسنانُها الصغيرة تحت وطأة العمر. مسحتْ يدها اليمنى بثوبها الأسود، لتزيل بعض العرق. أدخلتها ببطءٍ في جيبها الأيمن، وأخرجت مفتاحين. أدْنَتهما من عينيها للتأكّد منهما، ثمّ رفعتْ رأسها صوبي، وقالت بصوتها الخافت المختزن سنين من الإيمان والخشوع والهدوء وطمأنينة المؤمن: «يا بنيّ، نحن لا نفتح تلك الكنيسة إلّا يومَيْ السبت والأحد، لكن لأنّ صديقتك مريضة، ولأنّها مؤمنة بأنَّ شفاءها قد يكون هنا، تفضّل هذا المفتاح تفتح به الباب الأول، والثاني يفتح باب الكنيسة. أرجوك أقفلهما بعد الخروج». شيء ما في كلام المؤمنين يدخل إلى القلب بلا استئذان، كأنّما بين الأرواح لغةٌ لم يكتشفْها الإنسان بعدُ، ربّما لحسن حظ الروح أنّه لم يكتشفها، لأنّ الإنسان يقتل كلّ ما يكتشفه.

نزلنا على الدرج الطويل. حجارته قديمة ناعمة صقلتها خطى العابرين. عبرته أقدام المؤمنين،

والمرضى والعاشقين والفقراء والأغنياء. تحميه من الجانبين أغصانٌ خشبية دخلها أخيراً بعض الحديد. يتمايل الدرج بين صخور تبدو كأنّها خرجت لتوّها من التاريخ. تلامس أغصانُ الشجر الصخورَ المجاورة، وكأنّهما في حالة عشق دائمة، فوق البحر. تتوزّع على الأشجار قطعٌ من قماشٍ مربوطة في الأغصان. تضحك رفيقتي على الرغم من ألمها، وتقول: «أتعرف سرّ هذا؟». أسارع إلى الإجابة بالنفي، فتفسّر لي: «هنا تأتي النساء ويربطن هذه الأقمشة البيضاء لإيمانهنّ بأنّها تساعدهنّ على الحَبَل والإنجاب»، أضحك وأشكر الله أنّي عرفت القصة قبل أن أربط قماشتي، فهذه مخصّصة للنساء.

على طول الدرج القديم، يتسلّل لون السماء الزرقاء من بين الأشجار، يلاقيها لون البحر، تداعبهما أغصان الشجر، تَضفي عليهما الطبيعة رونق الروائح وأريجَ الزهور. شيءٌ من روح الله في هذا المكان.

هذه هي الكنيسة القديمة. محفورةٌ في الصخر كما الإيمان في قلوب المؤمنين الحقيقيين. عليها رسوم الرُّسُلِ وتلامذة السيّد المسيح. رائحة البخور والشموع تملأ المكان. كلّ شيء يبدو قديماً: المقاعد الخشبية التي مرّ عليها مئات آلاف البشر، بعضهم لا يزال حيًّا، وبعضهم عَبَر، بعضهم لم يتعلّم شيئاً، وبعضهم التقط العِبَر. هنا شموع لا تزال متّقدة، وأخرى لم يبقَ منها سوى الذكرى، هنا حوض العِمادة العتيق، هنا رسَم التاريخُ شيئاً من أريج الإنسانية الصادقة، وهنا صليب حديدي يُذكّر العابرين فوق الزمان، بأنّ ثمّة من مات صلباً من أجْلهم، فعاد إلى الحياة مبشّرا بالخلاص.

جلستُ مع رفيقتي على المقعد الإسمنتي. هي استلقَتْ على ظهرها لسحر المكان، أو لقهر الألم، وأنا مددْتُ رجلي صوب البحر، كأنّي أريد ملامسة الماء، على الرغم من ارتفاع المكان. ملأتُ رئتيَّ بكلّ تلك الروائح التي تهديها لنا الطبيعة، ويزيّنها الإيمان.

صلّيت للفقراء والمحرومين والمرضى والنازحين والجرحى، ولكلّ معذَّبٍ في هذا الشرق الجريح، ولكنّي صلّيت أيضاً لكي يبقى أبناء المسيح في هذا الشرق، لأنّه لا رمضانَ حقيقياً من دون مسيحيّي الشرق. لا يكون المسلم مسلماً إذا قتل نفساً بريئة، أو ذبح من يخالفه معتقده، ولا يكون الإنسان إنساناً إذا ميّز بين مسجد وكنيسة، في فعل الإيمان. كلّها بيوت الله، ومأساة البشر أنّهم اختلفوا على البيوت ونسوا الله.

فكّرت بأولئك الجهَلة الذين يدمّرون الكنائس، ويقتلون التاريخ، ويسْبون النساء، ويبيعون الفتيات في أسواق النخاسة، ويغتالون المتاحف، ويذبحون التماثيل. تخيّلت بعضَهم يصوم الآن في شهر رمضان، رجوتُ الله أن ينقذ مهدَ الأديان، وتمنّيت عليه أن يمنح مسيحيّي هذا الشرق الصبرَ والإيمان، لكي يبقوا منارةً، كما كان دأبهم عبر التاريخ.

عدتُ إلى الراهبة. وجدتُها جالسة أمام بهو الكنيسة. عيناها سارحتان صوب الأفق. شكرتها وأعدْتُ إليها المفتاحين. حدَّقَتْ في عينيَّ. ابتسمتُ. ودّعْتها وابتعدتُ ببطءٍ وأنا أنظر خلفي، لأحفظ في ذاكرتي وقلبي روعة الكنيسة والمكان، وعينيْ الراهبة في مستهلّ شهر رمضان. أيقنتُ في تلك اللحظة بالضبط، أنّ الله واحدٌ والإيمانَ واحد، وكلّ ما بقي هو من جرائم البشر التي تحافظ على شكلها وتغيّر الأسماء.

اطلب الحبّ ولو في الصين

ينعم علينا الله في بعض الصباحات المضيئة بأشياء بسيطة تجعل نهارنا أجمل. ليست السعادة مطلقة ولا دائمة. هي تلك اللحظات العابرة التي نتمتّع بها في يومنا بأمور بسيطة. كأن نشربَ قهوةً قرب البحر، أو في أحد مقاهي الرصيف، في عاصمة جميلة، أو أن نقرأ كتاباً ممتعاً، أو أن نلتقي بمن نُحبّ، أو أن نستمع إلى موسيقى عذبة، أو أن نمارس الرياضة، أو أن نستمع إلى الأذان ونحن نقرأ الصحافة في خان الخليلي في القاهرة، حيث ذكرى نجيب محفوظ عابقة في المكان، أو نسمع جرسَ كنيسةٍ صباحَ يوم أحد، في قرية عتيقة، أو أن نتناول الغداء مع أصدقاء حقيقيين، أو أن نساعد محتاجاً أو فقيراً... أو أن نتمتّع بشمسِ دمشق أو حلب من دون قذيفة... أو أن نصعد بتاكسي فنسمع واحدةً من أجمل قصص الحبّ. وهذا ما حصل معي هذا الصباح وأنا متوجِّه إلى المطار. وإليكم القصّة: كنتُ أستمع هذا الصباح إلى كلّ مآسينا، عبْر التلفزات والإذاعات. فعادتي الصباحية أن أبدأ بقراءة صحف أميركا، فالخليج، ثمّ المغرب، فالشرق الأوسط، وصولاً إلى الصحف الأوروبية، وذلك وفق وقتِ صدورها. ثمّ أستمعُ إلى الإذاعات العربية والدولية، ثمّ بعد ذلك أبتسم قليلاً، وأنا أرى مجموعات الخبراء الاستراتيجيين والعسكريين والمحللين السياسيين والمفكّرين والعباقرة على شاشاتنا، الذين غالباً ما يناقضون بما يقولونه اليوم ما قالوه بالأمس، فيضلّلون مُشاهديهم، إلّا في ما ندر. هداهم الله وهدانا.

شعرتُ بشيءٍ من الغضب والقرف، فاستمعتُ إلى فيروز تغنّي «بكرا إنتَ وجايي». قلتُ في نفسي لا شك في أنّ أحداً سينتظر عودتي بهذا الفرح. لا أدري مَن، ولكن ربّما أحدٌ ما. بعد ذلك استمعتُ إلى أغنية «عهدير البوسطة»، فانتعشتُ، ثمّ أغنية أجنبية تتحدّث عن الحبّ، ففرحتُ...

جمعتُ آخرَ كتبي وأجهزتي الإلكترونية، وهي كثيرة ومتعدّدة لتواكب العصر، ولملمتُ آخرَ حوائجي وحشرتها في آخر زاوية في الحقيبة. أكادُ أسمع حقيبتي تقول: «كفى يا رجل، خنقتني». لكنْ، لا بدّ من الكتب. فهي الأنيسة الوحيدة الصادقة التي تزيدك معرفةً من دون أن تطلبَ منك شيئاً. ترقد بجانبك، وما إن تلمسها حتى تفتح لك نوافذ على العالم والمعرفة والسعادة. ليت البشر مثلها.

نزلتُ لأركب التاكسي الذي ينتظرني تحت المنزل. وجدتُ وجهاً أنثوياً آسيوياً باسماً يدعوني للصعود. الحمد لله. في مثل هذه الأوقات تكون وجوه السائقين الأوروبيّين مكفهرَّة، لسبب لا يعرفه إلّا الله. فحياتهم هانئة وعندهم كلّ شيء، لكنّهم دائمو التذمّر. ربّما هي تخمة السعادة. المهمّ، صبَّحتُ على الوجه الآسيوي الصبوح بالخير وابتسمْتُ. حاولت المسكينة أن تحمل حقيبتي لتضعها في الصندوق، فرجوتها ألّا تفعل لسببين، أوّلهما أنّي لا أحبّ هذا التعب للسيّدات، لأنّي أؤمن بضرورة رفاهية المرأة وحسن معاملتها (ولتَمُتْ داعش بغيظِها)، وثانيهما أنّ الحقيبةَ ثقيلةٌ حقاً.

كان الطقس جميلاً، والشمس تُرسِل دفئها بعد ليلة ماطرة. أفتحُ هاتفي لأقرأ آخر الرسائل. كلّها تتعلّق بالعمل. أقرّر أن أُغلِق كلّ هواتفي. لن أفتحَها إلّا حين تصل الطائرة إلى بيروت. سأقضي وقتي بقراءة أشياء أكثر متعة من السياسة. كانت الطريق سالكةً تماماً، وظلال الأشجار ترتمي على السيّارة، وعلَيْنا، كأنّها عشيقةٌ تلامسنا برفق. موسيقى كلاسيكية تنبعث من الراديو، والأشجار الوارفة على حافتَيْ الطريق، مزهرة بكلّ الألوان، ومبشِّرة بقدوم الربيع. يا الله ما أجمل نِعمك.

سألتها: «منذ متى تعملين سائقة يا سيدتي؟». التفتت قليلاً إلى الوراء، وابتسمت: «منذ 6 سنوات».

«لا شك في أنّك تعملين في النهار، لأنّ هذه المهنة خطرة على سيدة في الليل». ابتسمَتْ مجدَّدا: «أبدأ عند الثالثة فجراً، وفي تلك الأوقات، إمّا أن يكون الزبائن يريدون الذهابَ إلى المطار، كما حضرتك، وإمّا أن يكونوا ذاهبين إلى أعمالهم البعيدة، وإمّا أن يكونوا صحافيين ومذيعين...». ضحكتُ، لم أقُلْ لها ماذا أعمل.

وما إن طرحتُ عليها سؤالي الثالث، حتى استمعت إلى إحدى أجمل القصص:

«أنا يا سيّدي، كنتُ رياضيةً في الألعاب البهلوانية الهوائية. وكنت أيضاً راقصةَ باليه. جئتُ مع فرقتِنا الصينية إلى فرنسا، قبل عشرين عاماً، لأقدّم عرضاً بعد عرضي في الباراغوي. كان الناس هنا فرحين جداً بالتعرُّف إلى الفنّ الصيني. وفي نهاية العرض، تقدّم منّي رجل أوروبي يحمل باقة من الورد، وحدّثني باللغة الصينية. لم أصدّق أذني حين سمعتُه يتحدّث لغتَنا بتلك الطلاقة. قال لي كلاماً جميلاً، لكن في اليوم التالي، كان عليَّ أن أغادرَ إلى فنزويلا، لتقديم عرض آخر. وهذا ما حصل. سافرت مع الفرقة إلى كاراكاس، وبعد أسبوع بدأنا العرض. أَحَبَّ الفنزويليّون كثيراً ما قدّمناه لهم، وصفقوا لنا طويلاً. وفي نهاية العرض، لم أصدّق عينيَّ حين رأيتُ الرجلَ الأوروبيَّ نفسَه يقدِّم لي باقةً من الورد. لحق بي إلى فنزويلا. كنّا آنذاك تحت رقابةٍ مشدّدة من الحكومة الصينيّة، لم نكن نستطيع التحرّك كما نريد، ومعاشرة من نشاء. تحادثنا طويلاً. بعد ذلك، سافرتُ إلى الصين. لم أكد أصل إلى هناك، حتى ورَدَني اتِّصال من الأوروبي نفسه يقول لي: أنا هنا، في مطاركم، هل أستطيع مقابلتك؟ تصوّرْ: أنا من قرية صينية نائية، والمطار الذي يصل إليها يبعد يومين عن العاصمة. هذا الرجل بدَّل ستَّة مطارات لكي يحمل لي ورداً إلى الصين. هل أستطيع بعدُ أن أقول له: لا؟ تزوّجنا، وعُدْتُ لأعيشَ معه هنا، وأنجبنا ولدين».

ابتسمتُ. فرحتُ. أحبُّ قصص الحبِّ التي تنجح إلى هذا الحدّ. لكنّي سألتُها، كما أخالك تسأل، عزيزي القارئ: «ولكن لماذا تعملين سائقة تاكسي؟».

تضحك بخجل أهل الصين، على الرغم من حياتها الطويلة هنا، تلتفت إليّ مجدَّدا وتقول: «حين تُحِبّ شخصاً وتُحبّ مهنتك، ويكون الخالق قد منَّ عليك بكلّ هذا الفرح، فعليك أن تستفيد منه. التاكسي يا

سيّدي تسمح لي بأن أمارسَ هواياتي الفنيّة حينما أريد، وأن أتناول الغداء مع زوجي – حبيبي حينما أشاء، وأن ألتقي بولدي طيلة الوقت... يجب أن نعرف كيف نستفيد من نعمة كهذه».

نظرتُ إلى المسافة الفاصلة بين المذياع الذي تنبعث منه الموسيقى الكلاسيكية، وبين الزجاج الأمامي، فانتبهتُ إلى تمثال صغير لبوذا زيَّنَتْه بنبتتين خضراوين، ثمّ نظرتُ إلى عينيها في المرآة الأمامية، فلم أرَ إلّا فرحاً صباحياً، وحكمةً صينية. اجتاحتني رغبة في أن أخفّف قليلاً من هموم الحياة، ومن مشاهدة المحللين والاستراتيجيين والمنافقين والسياسيين، وأن أحاول الإفادةَ ممّا وهبَنا الله، لأنّ من المؤكد أنّه وهبَنا كلّ شيء إلّا أن نتقاتل باسمه.

دبي مدينة تلد مدناً

«آسفٌ يا سيدي، لقد أضعْتُ طريقي، انظرْ إلى هذا الجسر، لم يكن موجوداً قبل فترة قصيرة، وهذا البرج لم يكُنْ قائماً في العام الماضي». كان السائق الإيراني يسردُ كلَّ ذلك، ويتأفف. ثمّ يعود إلى هدوئه، ويرفعُ قليلاً صوتَ المذياع، ويسوّي ربطةَ العنق. يصمت، فيرتفع صوت نشرةِ الأخبار عبْرَ الموجات القصيرة المنبعثة من راديو السيّارة، وهي تتحدّث على الأرجح عن أزمة إيران مع الغرب، بسبب الملفّ النووي. هنا الجالية الإيرانية كبيرة. يُحكى عن نصف مليون إيراني، وعن استثمارات تراوح ما بين 200 و300 مليار دولار، على الرغم من نزاع الدولتين على جزر طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبي موسى، التي تقول الإمارات إنّ إيران احتلّتها.

لم أزُرْ دبَيْ منذ 3 سنوات. كنتُ أزورُها دورياً، لمقتضيات عملي التلفزيوني. اتَّخذتُ فيها مكتباً في المدينة الإعلامية، قربَ وكالة رويترز، وقناة العربية. تعرّفت إلى تاريخها من قدمائها، وفي مقدّمهم الشيخ جمعة الماجد صاحب الفضل في البحث عن كتب العالم والمخطوطات العربية والإسلامية والحفاظ عليها وصونها في مركزه الثقافي الكبير. وتعرّفت إلى تاريخها الاقتصادي والسياسي من الكتب ومن أوائل رجال الأعمال فيها مثل الشيخ سعيد لوتاه صاحب فكرة المصارف الإسلامية. وعرفت شوارعها وحاراتها وكثيراً من بداياتها من سائقي سيّارات التاكسي الأفغان والهنود والباكستانيين وغيرهم.

كانت الزميلة والصديقة اللبنانية فاتن عزّام، النجمة الأولى على شاشة تلفزيون الإمارات، أولَ من عرّفني إلى المكان. كانت تستقبلنا دائماً بوجهها الباسم، وكرَمِها الاستثنائي، ومحبّتها الأخوية الصافية. نذهب معاً نجول في الإمارة الصغيرة التي كانت تكبُر يوماً بعد يوم، أمام عيوننا، بأناقة باهرة، ورفاهية ناطحات السحاب، وبمطاعمها الفخمة، وأمنها الاستثنائي، في جوارٍ عربيٍّ مضطرب. أحببنا الإمارة ولكنْ، كان حبُّنا لها ممزوجاً، على الدوام، بالقلق عليها، لأنّ سرعة ارتفاعها صوب السماء، لم تكن شيئاً معهوداً في عالمنا، على الأقلّ العربي. وكنت دائماً أفكّر أنّني لو تركتُ يوماً باريس، للإقامة في دولة أخرى، فستكون حتماً دبي، نظراً لتمتّعها بحرّية اجتماعية لافتة، ولكونها تحوّلتْ إلى ساحة صغيرة لمسرح العالم ولقاء الحضارات والجنسيات.

كانت فاتن، ذات الإطلالة البهيّة، والتي احترفَت الشاشة، قارئةً ومحاورةً تمتلك ثقافةً واسعة، بيتها مفتوحٌ لنا جميعاً. ما إن نصل إلى دبي، ونضع حقائبنا في الفندق، حتى تأتي لاصطحابنا، لتناول العشاء عندها. هذه المرّة أزور دبي، بينما تغالِبُ فاتن، في المستشفى، بصبر استثنائي، مرضَها العُضال الذي شمّع كبدها، لكنّه لم يشمّع ابتسامتها، ولا حبَّها للحياة. أمّا رفيقتي الثانية، فهي نجاة قصير، رفيقة الشباب، المُحبَّة والطيبةُ والمكافحةُ بشرف. هي أيضاً زميلةُ الجامعة، وزميلةُ العمل الأول في مهنة الصحافة في بيروت. كنّا حين نلتقي في دبي نتذكّر دائماً مغامراتنا الإعلامية، تحت القصف والدمار ولهيب القتال والاقتتال والمتاريس وسيّارات الإسعاف وانقطاع الكهرباء والماء وارتفاع الشجر والعشب عند أطراف المباني المدمّرة والمهجورة. مارسَتْ نجاة الصحافة لسنوات في دبي، ثمّ يئست منها، فانتقلت إلى مهنة ثانية.

هكذا إذاً، كان لقائي الأول مع دبي يتخلّله الإعجاب بالمدينة الحديثة والعصرية، ويزيده جمالاً وجودُ صديقات وزميلات كنتُ قد عرفتُ معهُنَّ، ومع سواهنّ أيضاً، ويلاتِ الحرب اللبنانية، قبل أن يحاول كلٌّ منّا، بمفرده وفي بلد بعيد، أن يُعيد صناعة نفسه، لنتخلّص أولاً من آثار الحرب، ولنخطَّ لأنفسنا ثانياً طريقاً للنجاح.

هذه المرّة أزور دبي بدعوةٍ من منتدى الإعلام العربي (2015). ما إن ركبتُ سيَّارة التاكسي من

المطار، حتى شعرت بالرفاهية المنعشة، والأناقة المعهودة للمدينة تتسلّلَ إليَّ. تكنولوجيا وشاشات في السيّارة. تهذيبٌ لافتٌ في الاستقبال، وعند الجمارك. ابتساماتٌ في قاعة كبار الزوّار. طرُقاتٌ وجسورٌ أنيقة. بنايات وأبراج شاهقة تعكس الشمس نظافةَ زجاجها وبريقه. زهورٌ متعدّدة الألوان على جوانب الطرقات تتحمّل الحرارة المرتفعة. فكيف لا تبادر الإمارات إلى إنشاء وزارة للسعادة، وأخرى للتسامح.

إنّها دبي، مدينة تَلِدُ مدناً. أبراج تستنسخ أبراجاً. ورشات لا تنام، وعمّال هنود منتشرون فوق الأعمدة وتحتها، كما ينتشر حبّ السمسم على فطير أبيض طازج. وفوق الجميع ضوء القمر، وأضواء الكشافات الكهربائية، وكأنّما البنيان يسابق الزمن. في كلّ أسبوع يُشقُّ طريقٌ جديد، وفي كلّ فترةٍ تنشأ تحويلةٌ بسبب الأشغال، فيضيع السائقون في زحمة المدينة وحيويّتها اللافتة.

أذكر في إحدى المرّات أنّي مررْتُ بدبَيْ، لبعض الأعمال التلفزيونية، وكنت متوجِّها منها إلى المملكة المغربية. نسيتُ بعضَ كتبي عن المغرب في باريس. استأجرتُ تاكسي في الإمارة وذهبتُ أبحثُ في المكتبات عن الكتب التي نسيتها في باريس. كان سائقي أفغانياً يتحدّث العربية، على نحوٍ واضحٍ ومفهوم. كان عفوياً وطريفاً وسريع الكلام. وكنتُ ألاحق كلماتِه ألَمْلِمُها من هنا وهناك، حتى أستوعِب كلّ ما يريد أن يقوله. أخبرني أنّه جاء إلى هنا منذ نحو 35 عاماً. آنذاك، لم يكن بحاجةٍ إلى تأشيرة دخول، وصل إلى دبي بقاربٍ رسا على الشاطئ. روى لي كيف كانت تلك الإمارة خاليةً من كلّ شيء تقريباً، إلّا من بعض البيوت الفقيرة، والكثير من الخيم والرمال. وكان الجميع ينزلُ إلى البحر يصيد السمك. سألتُه عن عائلته، فأزاح قبّعته الأفغانية قليلاً إلى اليمن، ووضع يده اليسرى على نافذة السيّارة بعدما فتحها قليلاً، فرجوته على الفور أن يُغلِقَها لأنّ الحرارة مرتفعة، فأقفلها، ثمّ استدار بكامل رأسه صوبي وقال: «لقد أرسلتُ عائلتي في العام الماضي إلى كابول، يا أخي عندي بنتان وصبيّ، لا أريد لهم أن يكبروا هنا، الحرّية هنا كبيرة ونحن محافظون، وأخشى أن يتعلّق الصبيّ بالفتيات الروسيّات أو الأوكرانيات». سألته عن عمر ابنه، أجاب: «عمره عشر سنوات. الحمد لله». ضحكتُ، وقلت له: «ولكنّه لا يزال صغيراً على هذه الأمور». صمتَ برهةً ثمّ أردَفَ: «نعم، أنت على حق. ولكنْ، في بلادي، أحياناً نزوّج الأولاد في سنّ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، وعلى كلّ حال، ارتحْتُ من هذا القلق. حالياً نحن ثلاثة رجال نعيش هنا في بيت واحد. أضعُ صورةَ أبي تحت وسادتي، وأنام كلّ ليلة هانئاً مطمئنًّا على عائلتي». سألته، وفي سؤالي بعضُ تعجّب: «لماذا صورة والدك فقط، وأين صورة أمّك؟» ضحك وقال: «أمّي خرّفت وما عادت تعرفني. ثمّ إنّه ليست عندي صورة لها. هل تعلم أنّنا ما زلنا في أفغانستان نتصوّر بالكاميرات الكبيرة التي توضع على حمّالة ثلاثية القوائم، وينبعث منها دخانٌ مع كلّ صورة؟» ضحكت، فضحك، وتابع بجدّية أكثر: «والله، أقول لك الصدق». سألتُه كيف تعلّم العربية، حتى بات قادراً على استخدامها على هذا النحو، فقال: «أولاً القرآن الكريم، الحمد لله، وثانياً أنا أُحبُّ الحديث مع كلّ الناس فأتعلّم منهم، أتعْلَمُ مثلاً أنّي أعرف كثيراً من اللهجات العربية؟ فمثلاً أنا حين أذهب في خط مستقيم أقول: سيدا، وأنتم في لبنان، تقولون: دغري، وفي مصر يقولون: على طول، وفي السودان: طوّالي». ضحكنا مجدَّدا، فارتاح وسحبَ سيجارةً يدخنها. لم أتأفّف، شعرت بأنّ سعادته في تلك اللحظة أهمّ من راحتي. تركته يتمتع بها رغم يقيني بأنّ التدخين ممنوعٌ في دبي داخل سيّارات الأجرة.

برغم هذا التناقض بين بلاده ودبي، كان هذا الأفغاني يبدو سعيداً. لا شيءَ يزعجه غير صعوبة النزول إلى البحر كما يشاء وكما كان يفعل سابقاً. وقد فوجئت فعلاً بأنّه يعرف كلّ المكتبات وهو أميٌّ. فحين لم نجد كتباً مغربية في دبي، قادني إلى مكتبة كبيرة في الشارقة. هناك أيضاً لم نجد، لكنّه، على الأقلّ، حاول.

دبي إذاً، مدينة تلِدُ مدناً كثيرة، لأنّ الواصل إلى منطقة جبل علي مثلاً، الواقعة في ضاحيتها، على الطريق الممتدّة حتى أبو ظبي، سيُفاجَأ حتماً، إن لم يكن زارها منذ فترة، بأنّ هذه المنطقة صارت

مدينة قائمةً بذاتها، لا بل إنّ مدينتَيْ الإعلام «ميديا سيتي»، والإنترنت «إنترنت سيتي»، ما عادتا أكثر من شجرتين صغيرتين في غابة الأبنية والأبراج والجسور والشركات والشوارع الجديدة.

كأنّما الشكل لا يكفي، فتُضاف إليه أسماء توحي بحبِّ الاتساع، وبالرغبة في اختراع عالَم كان قبل سنوات مجرّد حلم أو خيال. اختراع؟ نعم! الكلمة مناسبة تماماً لِما أنتَجه خيال القائمين على دبي. ذكرياتي هذه المرّة تأخذني إلى ما كانت عليه الحال قبل عشر سنوات فقط، حينما كانت الورشةُ الكبرى تتمحور حول بناء قطارٍ معلّق (مترو) لنقل العمال من المدينة إلى الضواحي، بتكلفة أدنى وسرعة أكبر، ولتخفيف ازدِحام الطرقات. أذكُر أنّي أخذتُ آنئذٍ، من جيبي، دفتراً صغيراً، وسجُّلت عليه نصًّا كاملاً، عن المدينة. كتبت: تعبُرُ السيّارة بنا قرب الأعمدة المنتظمة بإتقان، الواحدَ تلْوَ الآخر، بين جبل علي والمطار، تعْبُر قربَ تلك الأعمدة كأنّها تودّع عصرها الذهبي، أو تستعدُّ لاستقبال عصرٍ آخر. فهنا، فوق هذه الأعمدة سيولدُ قريباً مخلوقٌ معدني جديد اسمه «المترو الهوائي» أو «المترو المعلّق». الغايةُ منه هي تخفيف الازدحام، وتوفير وسيلةٍ رخيصةِ الثمن، لنقْلِ العمّال والموظفين، من بيوتهم إلى مراكز عملهم، وبالعكس.

تعبُر السيّارة بين تلك الأعمدة المشابهة، باستدارتها وارتفاع هامتها، لأعمدة بعلبك. تنحرف قليلاً صوب اليمَن. تمرُّ بمحاذاة شركة «إعمار» الهائلة، لتصلَ إلى تلك القرى التي نزلت من الوهم والخيال إلى أرض الواقع. هذه قرية الروضة، وهذه منطقة الينابيع، وتلك قرية الحدائق، وبعدها قرية المعرفة. هي قرىً قامت فوق الرمال، بأعجوبة التنّين القائم من تحت الرماد. بيوتٌ أنيقة ومتشابهة إلى حدّ التناسخ الناجح. بيوتٌ هانئةٌ بين أشجار وارفة خضراء، تخترقها طرقات إسفلتية أنيقة، وفي منتهى النظافة. عند باب القرى، حرّاس يتأكّدون من هوية النزيل، أو الزائر، أو المقيم، يفتحون الحاجز الحديدي بنقرةٍ على الزرّ الأخضر الواقع إلى جانب الزرّ الأحمر، فيدخل المرء إلى عالمٍ فيه من وسائل الرفاهية الكثير: مسابح، متاجر، ملاهٍ، مقاهٍ ومولات.

لا تقل مجمَّع تجاري في دبي، بل قُل: مول؛ وذلك لأنّ الكلمة باتت على كلّ شفة ولسان، ففي تلك المجمّعات يكمن جزء كبير من وقت التسلية والتبضّع وشراء كلّ ما يحتاج إليه المرء. كلّ ما يحتاج إليه المرء؟ نعم. وربّما أكثر. ألَمْ يخترع خيال القائمين على هندسة المدينة جبلاً ثلجياً للتزلّج في قلب دبي، التي تصل حرارتها في بعض الأشهر إلى أكثر من خمسين درجة مئوية؟ ألم تجترح عبقريتهم عالماً سحرياً في المنطقة المعروفة باسم مدينة الجميرة؟

هنا يستطيع الزائر أن يركب مركباً صغيراً، ويسبح الهوينا على مياه متعرّجة بين الفيلات الفخمة، التي أُقيمت خصيصاً لكي يشعر بأنّه في مدينة تشبه فينيسيا (البندقية) الإيطالية. وإذا ما فرض سلطانُ الجوع أمرَه، فقد لا يجد الزائر مكاناً شاغراً في المطاعم الكثيرة والمتنوّعة والمنتشرة عند جانبَيْ النهر الاصطناعي، وذلك لأنّ السياحة في دبي تخطَّتْ كلَّ التوقعات.

ليالي دبي عامرة بكلّ شيء. لكي تدخل أحدَ المطاعم الفخمة لا بدّ لكَ من حجزٍ مُسبَق، وبعضُها قد يحتاج إلى حجزٍ قبل يومين. الفنادق الراقية والباهظة الإيجار تكاد تغصّ بالزوار. أستقلّ مركباً نهرياً. يرحّب بي سائقه إدريس. شابّ على الأرجح مغربي، لكنّه يتقِن الإنكليزية، خلافاً للكثير من أبناء وطنه الذين يميلون أكثر إلى الفرنسية. أسأله عن السياحة هنا. يُقسم بأنّه ورفاقه لا يهدأون طَوالَ النهار والليل. يقومون بمئات الرحلات المائية يومياً، لتلبية حاجات النزلاء القادمين إلى دبي من أجل السياحة أو التسوّق أو العمل.

أترجّل من المركب، بعد رحلة ليليّة لطيفة، بين الفيلات الجميلة المستلقية على جانِبَيْ النهر الصناعي. أسير بين المحالّ والبيوت والحوانيت الصغيرة. تُخبرني فاطمة التي ترسم على أكتاف السائحات وظهورهنّ وشمَ الوردة الجميلة، أنّها منذ جاءت من السودان، للعمل في الفندق الفخم، لا تكاد تهدأ ولا تكفّ عن العمل حتى ولو ربع ساعة، فالسائحات القادمات من الدول الأوروبية خاصَّة،

يكتشفْنَ يوماً بعد آخر، سحْرَ الوشمِ العربي الجميل.

أعود ليلاً إلى الفندق الحديث. سيّارات الصحارى تتكدّس بالعشرات أمامه. تنتظر ركّاب الصباح للذهاب إلى الرمال والواحات الطبيعية، أو الاصطناعية، والمغامرات.

تؤكد الأرقام السياحية الرسمية في دبي أنّ هذه الإمارة الصغيرة كادت تضاهي مصر في العام الماضي، في المجال السياحي. معظم العاملين في الشركات الكبيرة، صاروا يأتون مع عائلاتهم، في رحلات سياحية للاستجمام بين الصحراء والبحر وللتسوّق والتمتع بالشمس.

يشرح لي حسان، الفلسطيني الجنسية، والعامل في أحدِ أبرز فنادق دبي، أنّ الحركة الفندقية عرفت نهضة شكّلتْ سابقةً في تاريخ الإمارة. تراوحتْ نسبة النزلاء بين 85 و100 في المئة في المرّات التي زرت فيها الإمارة، أسهم في ذلك تعدُّد الأنشطة والمهرجانات الثقافية والاقتصادية والفنّية.

تأكدتُ من كلامه في اليوم التالي. كان الازدحام خانقاً على طريق المطار، بسبب إقامة المعرض العالمي للتكنولوجيا المعروف باسم جايتكس.

نعم، ارتفعتِ الأسعارُ في دبي، وأصاب التضخمُ بعضَ القطاعات، لكنّ الأسعارَ ارتفعتْ في معظم دول العالم، وبقيت الإمارة تجتذب الأجانب الراغبين في مستوى الربحِ الأعلى، ونسبة الضرائب الأدنى، ونمط العيش الشبيه بنمط عيشهم في بلادهم، لا بل يفوقه رفاهيةً، لتوافُرِ الخدمات، وانعدام الضريبة على الدخل.

المشكلة الأساسية التي أخذت تحتلُّ حيّزاً في مناقشات الأجانب، تتعلّق بارتفاع بَدَلاتِ الإيجار، وعشوائية هذا الارتفاع، حيث إنّ صاحب الشقة أو البناية يستطيع أنْ يحدّد السعرَ الذي يريد. ثمّة بدَلات إيجار ارتفعت 100 في المئة، بل أكثر من ذلك، فاضطُرَّت الدولة إلى التدخل وتحديد نسبة رفع الأسعار بـ7 في المئة كلّ عام.

في دبي، لكلّ مشكلة حلٌّ. القيادة السياسية والاقتصادية للإمارة عرفَتْ كيف تخترع كلَّ أسباب الرفاهية، لاجتذاب الأموال والاستثمارات والخدمات والشركات. يبدو الشيخ محمّد بن راشد عازماً على جعل دبي تنجح فعلاً في عدم اعتماد اقتصادها على النفط والغاز، وعلى جعل السياحة والقطاعات التجارية والصناعية والخدماتية والصحّية والإعلامية العمودَ الفقري لاقتصاد دبَي، والبديل القابل للحياة، في السنوات المقبلة.

تنتعش الإمارةُ الصغيرة، فتنتشر الشائعات كالطحالب. ثمّة من يروي قصصاً عن مافيات روسية أو عربية أو محلية أو أجنبية، تشتري الشقَقَ السكنيّة، وتجمّدها، ثمّ ترفع أسعارها وتبيعها في حركة ذكيّة لتبييض الأموال. آخرون يقولون إنّ التقدّم السريع في إنجاز المشاريع، يهدف إلى تحقيقِ كسْبٍ مالي ضخم، من مُنطلَق أنّ هذه الفورة الاقتصادية الكبيرة لن تدوم... لكن يبدو أنّ ما يُقال هو ضَرْبٌ من الشائعات، وليس تعبيراً عن واقع قائم.

إنّ القوانين التي استُحدِثت في الإمارات، لمكافحة الإرهاب وتبييض الأموال هي من أهم القوانين المرعيّة في العالم. فمثلاً، كان الهدف من مركز دبي المالي هو أنْ يكون مشابهاً لِما هو قائم في لندن ونيويورك وسنغافورة وطوكيو، ومنافساً له على أساس القوانين والرقابة والخدمات المالية المتميّزة والبنية التحتية.

لم تخترع دبي نظرياتٍ اقتصاديةً عالمية، ولا هي اجترَحَت معجزات. كلّ ما في الأمر أنّ قيادتها السياسية أدركت أنّ زمن النفط يشارف على نهايته، وأنّه لا بدّ من إيجاد بدائل، فوسَّعَت هامشَ الحرّيات، وأطلقت مشاريع اجتماعية واقتصادية وتنموية، وسهّلت عمل الإدارات بحيث أصبحت معظم الإجراءات مرِنة للغاية، فاجتذبت الكثير من السيّاح الخليجيّين، الذين باتوا يجدون فيها ما كانوا

يجدونه منذ فترة قصيرة في الغرب، وشجَّعت المستثمرين الغربيين على نقل عوامل الجذب من دولهم إلى الإمارة.

يكفي أن تزور أحد المحالّ التجارية مثلاً، لتجد أنّ معشر الرجال والذكور باتوا يقفون جانباً إذا ما تقدَّمتْ سيدةٌ نحو الصندوق، لتدفع ثمن مشترياتها؛ أو أنْ تَجولَ على المقاهي والمراكز التجارية، لتجِدَ أنّ حوّاء موجودة في كلّ مكان، من دون حسيب أو رقيب.

لا شك في أنّ الموظفين الصغار في دبي يصرفون على أرضِها معظم ما يَكسِبون؛ ولكن لا شك أيضاً في أنّ دولةً توفّر لموظفيها الأمانَ الوظيفي والحياتي، وخدماتٍ عالية الجودة والمستوى، نجحت إلى حدّ كبير في أن تصبح في فترة زمنية قصيرة نسبياً، أهمَّ دولة عربية في مجال تطوير القطاعات الإنتاجية التي ستصبح يوماً ما، بديلاً من النفط. ليس عندي ما أقوله في ختام هذه الزيارة إلّا أملي في أن تنجح عمليات استنساخ البشر، كي نستنسخَ عشرة رجال مثل محمّد بن راشد، ونسلّمه عشر مدن عربية، لكي يجترح لها جمالاً ورفاهيةً وعواملَ جذبٍ كالتي رأيتُها في هذه الرحلة.

خان الخليلي.

في رحاب مصر

صدمة اللقاء الأول.. ثمّ حبّ دائم

كنت أعِدُّ نشرة الأخبار في إذاعة فرنسا الدولية في باريس في 12 تشرين الاول/أكتوبر 1992، حين وصلني خبرٌ مفادُه أنّ زلزالاً ضرب القاهرة. لم يكن خبرٌ كهذا ليؤثّر بي، وأنا الذي عشت ويلاتِ الحرب اللبنانية، وغطّيْتُ عدداً من الحروب في دولٍ عربية وأفريقية، ورأيت الموت مراراً يقترب منّي ثمّ يبتعد ليقترب منّي ثانيةً. لكنّني لسببٍ أجهله تأثّرت، لا بل تأثّرت كثيراً، ورحْتُ أبحثُ عن كلّ تفصيلٍ في ما حصل. أعتقد أنّ ثمّة بذوراً تُزرَع فينا، منذ طفولتنا، ثمّ تنمو وتُثمر في مراحل معيّنة ومختلفة من حياتنا. من تلك البذور أنّي حين كنت على مقاعد مدرسة الراهبات في بعلبك اللبنانية، بهَرَني تمثالُ الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وهو يخرج من صندوق خشبي كبير ليرتفع معْلَماً في أول بعلبك. لم أكن أعرف من هو هذا الرجل الوسيم الذي صار جارَ مدرستِنا، والمنتصِب على قاعدة عالية، فيبدو هائلاً باسماً رافعاً يده اليمنى يُحيّينا. صفّقنا له حين ارتفع، فنهرتنا الراهبة، وقالت عودوا إلى مقاعدكم هذا ليس شأنَنا. فورَ عودتي مساءً إلى المنزل، سألت أبي عن ذاك الرجل، فدبّتْ في كلامه حماسةٌ غريبة، وراح يحكي لي قصّة جمال عبد الناصر، والآمال التي أحياها في قلوب العرب، والكرامة التي نثَرَها في كلّ العواصم العربية. لم أفهم كثيراً ممّا قال، لكنّي عرفتُ أنّه يُشبِه جَدّي الذي كانت أمّي تخبرني عنه كلّ يوم، باعتزاز ومحبّة كبيرة، فأحْبَبته. صرت كلّ يوم وأنا أمرُّ بجانبه، متوجًّها إلى مدرسة الراهبات، أحيّيه، وأرفع يدي مثله، وأراه يبتسم لي.

في سنواتي اللاحقة، اكتسبت صورة تمثال عبد الناصر دماً ولحماً وروحاً. ما عاد تمثالاً لا يتحرّك. صار يتحرّك في كلّ زاوية وشارع من حياة مراهقتي. كان الرئيس المصري على كلِ شفةٍ ولسان، كمنقذٍ للأمة، ثمّ صار أكبرَ خسارةٍ عرفها العربِ في تارِيخهم الحديث. كنتُ أصدّق كلَّ ما كان يُقال حولي، لأنّي أحببت التمثالَ قبل أن أعرف الرجلَ حقيقةً وتاريخاً. لاحقاً، أُعجِبْتُ بكثير من جوانب سياسته وشخصيته، وانتقدتُ الكثير أيضاً. باختصار، أحببْتُ صِدقَه وقربَه من عائلته ومن الناس، ونزوعَه نحوَ رفع مستوى الكرامة العربية، والعملِ على بعثِ الأملِ في الانتصار على إسرائيل؛ لكنّني لم أفهمْ كيف أنَّ رَجلاً مثلَه يمنعُ الأحزابَ ويسجن المعارضين، ويخسر حرب 1967، ولا يحسب أنّ إسرائيل قد تضرب الطائرات وهي رابضةٌ في مطاراتها. لم أفهم كذلك، لماذا ذهب إلى اليمَن، أو لماذا تصرَّف بعضُ ضبّاطه على نحوٍ استعلائي مع رفاقهم السوريّين، حين جاؤوا إلى سوريا، في زمن الوحدة التي لم تعمّر طويلاً. مع مرور الوقت، وبسبب تكسُّرِ نصالِ الأخطاء والهزائم العربية على نِصالِ التخلّف والجهل والفِتن، صارت أخطاء عبد الناصر تتراجع في قلبي ووجداني، ولا أحفظ له سوى سعْيه النبيل نحو الكرامة واستقلال القرار.

ما إن وصل خبرُ زلزال القاهرة، حتى قفزتُ من مكاني أقترح على مدير الإذاعة أن أذهب إلى القاهرة. أردتُ أن أعرف بلد جمال عبد الناصر. رغبتُ في التعرُّف إلى الناصرية في عُقرِ دارها. هكذا اعتقدتُ. كانت لي زميلةٌ لبنانية اكتسبَتْ شهرةً واسعة بوصفها إعلاميةً، وكانت مهضومةً وجميلة وكتلةً من الحيوية وحبِّ المغامرة. فاقترحَتْ هي الأخرى أن نذهب مع مجموعة من الصحافيين الفرنسيين إلى مصر لنغطّي ويلات الزلزال، وننقل واقع الكارثة، وحكايات الناس.

أغربُ القصص

حصل مع هذه الزميلة أمرٌ قد لا يحصل في الحياة إلّا مرَّة واحدة. سأسمّيها نوال حرصاً عليها. كانت نوال في مقتبل العمر، حين جاءها طبيب مصري إلى بيروت، ليتزوّجها، بعدما أُعجِب بها أيّما

إعجاب؛ فقد كانت نوال فائقة الجمال (ولا تزال) ورياضية من طراز رفيع، وحائزةً العديد من الجوائز، وهي في ربيع العمر. قدَّم نفسه كأنّه أمير أحلامها. كلامٌ معسولٌ، ووُعودٌ بحياة زاخرة بالرحلات حول العالم، ومنزلٌ يشبه القصر، واستعداد لمساعدتها في أن تُكمِل تعليمَها ورياضتها، وأن تُحقّق كلّ مشاريعها وأحلامها. صدّقت، وكذلك أهلُها صدّقوا. تزوَّجا وانتقلا للعيش في القاهرة. ما إن حَبِلتْ، حتى صار الأميرُ وحشاً. منع عليها الخروجَ من المنزل، ومحادثةَ الجيران، وفرض عليها أن تُمضي نهارها في الطبخ والتنظيف، وعندما يعود يمارس معها الجنس ساعة يشاء، من دون أيّ اكتراثٍ بمشاعرها. لا جامعة، لا رياضة، لا أحلام. سقطت كلّ الأحلام دفعة واحدة. عاشتْ نوال أسوأ أيّام عمرها، حتى أنجبت ابنتَها. امتزج فرح الأمومة عندها بدموع حياةٍ قاسيةٍ لا تُطاق. ضاق عليها الخناق، وهي المعتادة على الحرّية والجري وركوب الحصان والسباحة يومياً. حاولَت التأقلمَ مع واقعها الجديد، فما نجحَت. ظنَّت أنّ هروبَها من لبنان الحرب، سوف يقدّم لها حياةَ الاستقرار، ونعيمَ الحبّ والرفاهية. اشتاقت لويلات الحرب التي تصبح ورداً، مقارنةً بما تعيش حالياً. قرَّرت الهرب. تحادثَتْ سرًّا مع أهلها، حيث لم يكن يسمح لها بمكالمتهم إلّا مرَّة واحدةً كلَّ ثلاثة أشهُر. خطَّطتْ معهم للهرب مع ابنتها. جاء أهلُها سرًّا إلى القاهرة، لأنّ الطبيب المذكور كان قريباً من الاستخبارات المصرية، ووضع اسمها على الحدود، كي لا تستطيع السفر من دون إذنه. بعد اتِّصال مع السفارة اللبنانية، وإجراءات صعبة ومعقدة وسرّية، نجحَتْ نوال في الهرب، والعودة مع أهلها إلى لبنان، لكن... من دون ابنتها. بقيت أكثر من ثمانية عشر عاماً لا تعرف عنها شيئاً. انقطعت كلُّ أخبارها. اختفت. أخفت نوال القصّة عن كلّ أصدقائها. كانت قد تزوَّجت مرّة ثانية في باريس، وأنجبت ثلاثةَ أولاد. كنّا نظنّ جميعاً أنّ حياتها الهانئة في العاصمة الفرنسية لا يمكن أبداً أن تُخفي أخرى حزينة ومؤلمة.

ما إن ترجّلْنا من الطائرة في مطار القاهرة، حتى شعرتُ بأنّ ثمّة خَطباً يُقلِق نوال. بقيَتْ صامتةً لكن شاردة. تتلفَّتُ حولها كمَنْ أضاعَ شيئاً، أو كمن يخشى حصولَ شيء. سألتُها ما بها، اكتفَتْ بابتسامةٍ عابرة، وأكملَتِ الالتفاتَ يمنةً ويسرة. كانت مسحةُ حزنٍ تغزو عينيها الجميلتين. وجهُها شاحبٌ زالت حيويتُه التي عهدناها بها. تسلّمنا الحقائب، وتوجّهنا نحو سيّارات الأجرة. هجم السائقون يقترحون علينا الركوب في سيّاراتهم. للمرّة الأولى في حياتي أسمع سائقاً يقترح «ليموزين» ذات تكييف جيّد. نظرتُ إلى رفاق الرحلة وقلتُ، فلنركب سيّارة الليموزين إذاً، فالحرارة مرتفعة، وقد تكون الليموزين مريحةً أكثر من غيرها. لكنْ، سرعان ما فوجئنا بأنّ السيّارة لا تختلف في شيء عن باقي السيّارات، لا بل إنّ هواءها «المكيّف» هو عبارة عن الهواء الخارجي يدخل إلى رئاتنا بكلّ ما يحمله من غبار الطريق والمحرّك. فهمْنا أنّنا وقعنا في أوّل فخٍّ احتيال. لا مجالَ للتراجع الآن، وقد عبَرْنا المطار، ثمّ إنّ الرحلة طويلة من باريس، ونحن في أمَسّ الحاجة للوصول بسرعة إلى الفندق. التفَتَ السائق إليّ، وسأل: «هل تحتاجون إلى فندق جيّد؟»، سارعتُ إلى الإجابة، بشيءٍ من الغضب: «إن كان الفندق أيضاً ليموزين، فلا حاجة لنا به»، ضحك رفاقُ الرحلة، وضحك السائقُ. لا أدري لماذا ضحك، ولكنّه ضحك. ثمّ قال: «أنا أعرف أفضل فنادق القاهرة، وبأفضل الأسعار». لم أثق كثيراً بما قال، لكنّنا لم نجد طريقة أخرى، فقد جئنا إلى القاهرة من دون أنْ نحجز مسبَقاً. بعد نحو أربعين دقيقة قضيناها في الليموزين نسمع الأغاني ونتنشّق غبارَ المحرّك، وصلنا أمام فندقٍ يبدو جيداً ومصنَّفا «4 نجوم». ظننّا نحن القادمين من باريس، أنّ هذا التصنيف يعني أنّه فندق شبهُ فخم. نزل السائق وتبادل حديثاً سريعاً مع موظف الاستقبال (على الأرجح للحصول على حصّةٍ من الربح). أنزلوا لنا الحقائب سريعاً، وتوزّعنا على الغرف. رميتُ الحقيبة على السرير، وقرَّرت أن أستحمَّ بعد كلّ عناء الرحلة والطريق. فتحتُ صنبور الماء، فوقعت الحنفية في يدي، وسالَ ماءٌ أحمر اللون، قبل أن يستعيد لونه الطبيعي. كان في الحمّام صابونةٌ لا غير، ولا شيء آخر للاستحمام. اتصلتُ بموظف الاستقبال، فقال: «ما تخفْش يا باشا، سأُرسِل لك المهندس فوراً لإصلاح العطل». وصل رجلٌ ستّيني العمر، وبدأ العملَ والطّرقَ على القساطل. تمدَّدْتُ على السرير، لأشعِل التلفاز، تمضِيَةً لوقت الانتظار، بأقلّ الخسائر الممكنة. لم يلتقط التلفاز إلّا قنواتٍ مشوّشة. اتّصلْتُ ثانية بموظف الاستقبال، فقال: «حاضر يا باشا، سأرسل لك فوراً

مهندس التلفزة»، وجدت نفسي إذاً بين مهندسَيْن، وأنا المنهَك من تعَبِ الرحلة، والحالم بالاستحمام والنوم فقط. اعتذر مهندس التلفزيون، وسألني: «هل عندك شوكة أو ملعقة؟» تعجّبت لسؤاله، لكنّه عاجلَني بالشرح أنّ هوائيّ التلفزيون مكسور، ويريد أنْ يستبدلَه بأيّ جسم معدني. لم يكد يُنهي كلامَه والاعتذار، حتى مرَّ صرصور سريعاً وانْدَسَّ تحت السرير. نهضتُ مذعوراً، اتصلتُ بموظف الاستقبال، وقلت له: «يا أخي، أهذا فندق أم معتقل؟ أرجوك ألْغِ حجزَ الغرفة. أريد الانتقال إلى فندق آخر»، فأجابني: «لا يا باشا، مش حنخليك تسيب الفندق، إن شاءَ الله كل شيء يتصلح». أخذتُ حقيبتي ونزلتُ إلى البهو، واتصلْتُ بالزملاء، ففوجت بأنّ كلّاً منهم يعاني من مشكلة مماثلة لمشكلتي، أو أسوأ منها. قال لنا الموظف: «لكنْ، أنتم دفعتُم الفلوسَ، ولا نستطيع أنْ نُعيدَها إليكم». تركْنا كلَّ شيء، وطلبْنا من السائق أن يأخذنا إلى أحد فنادق النجوم الخمس المعروفة. وهذا ما حصل، ووجدنا أنفسنا في فنادق فخمة ومحترمة ونظيفة، وتتوافر فيها الخدمات على درجة عالية من الاحترام والدقة.

لِنَعُدْ الآنَ، عزيزي القارئ، إلى قصّة نوال.

في اليوم التالي لوصولنا، رحْنا ننقلُ مشاهد الزلزال والكوارث الإنسانية والبنيوية والاجتماعية والاقتصادية التي تسبَّب بها. قابلنا الكثير من الناس. مرَرْنا بين الأماكن المدمَّرة. زُرنا المستشفيات والجرحى. عُدْنا إلى الفندق ليلاً. كان في الفندق أحدُ الروائيين المصريين المعروفين. تعارفنا وتبادلنا الحديث، رحَّبَ بنا، ودعانا في اليوم التالي إلى عشاءٍ في منزله. كانت نوال طوالَ الوقت تعمل على نحو استثنائي، ولا ترتاحُ دقيقةً واحدة. تردَّدتْ في تلبية الدعوة، لكنّها وافقَتْ بعدَ إلحاحِنا ورافقتنا.

هذه هي المرّة الثانية التي أرى فيها نوال تبكي، منذ وصولنا إلى القاهرة. كانت المرّة الأولى في سيّارة التاكسي، ولم أسألْها عن السبب. والمرّة الثانية بعدما بلغَتِ السهرةُ منتصفَها، عند الروائي المصري. ألحَّ الروائي على معرفة السبب. كانت نوال قد شربت كأسَ نبيذٍ واحدة. نظرتْ إلينا جميعاً، وقالتْ: «اعذروني أنّي بكيْتُ، لكنّي سأكشفُ لكم أحدَ أهمِّ أسرارِ حياتي». روَتْ لنا كيف تزوَّجتْ في لبنان، وماذا حصل لها، ثمّ قالت: «إنَّ سببَ بكائي الآن، هو أنّني أزور مصر للمرّة الأولى منذ تسعة عشر عاماً، أيْ منذ هربتُ منها تاركةً خلفي ابنتي. ولا أدري أين أصبحَتْ، وكيف تعيش، وهل ما زالت على قيد الحياة، أم لا؟ لا أعرف عنها شيئاً». ثمّ أجهشَتْ بالبكاء. التفَتَ الروائيُّ إليها، وطرح عليها سؤالاً واحداً ثمّ قال: «اسمعي يا نوال: في مصر 84 مليون نسمة، لكنْ، أعتقدُ أنَّ ابنتَكِ تعيش في هذا الطابق الذي فوقي تماماً». أُصِبْنا جميعاً بالصدمة. هل يُعقل أن تكون ابنة نوال هنا؟ هل يُعقل أن تكون المصادفة قادتنا للتعرُّف إلى هذا الروائي، وأن يكون هذا الروائيّ يسكن في البناية نفسها التي تسكن فيها ابنة نوال؟؟؟

كان الروائي على حقّ. رتَّبَ في اليوم التالي زيارة نوال للطابق العلوي بعدما غادرَ زوجُها السابق المنزل. فصعدتْ نوال والتقَتْ بابنتِها للمرّة الأولى، منذ ثمانية عشر عاماً. لكم أنْ تتخيّلوا هذا اللقاء. أمّا أنا فقد بقيَتْ هذه الذكرى محفورةً في قلبي كمصادفة مِن أهمّ مصادفات الحياة، نعمة من نِعَم الله على البشر. منذ ذلك الوقت، صرتُ أكثر اقتناعاً بأن لا شيء يحدُثُ بالمصادفة، وبأنّ لكلّ شيء سرًّا في هذه الحياة. المهمُّ فقط أن نتوجّه بكلّ إيماننا ويقيننا وإرادتنا نحو هذا السرّ لتُفتح جميع الأبواب.

الناصرية بين الوهم والواقع

أحببتُ مصرَ كثيراً قبل وصولي إليها. غنّيت مع شاعرها الفذ أحمد فؤاد نجم أجمل أغاني الناس البسطاء بصوت الشيخ إمام الذي كان يُلهب مشاعرنا النضالية وغضبنا. دخلت الى أحيائها الفقيرة لاحقاً بحثاً عن نجم، وذهبنا معاً لنسقي تراب قبر شيخ إمام. كنت دائماً أتخيّل مصر تلك الدولة العظيمة الحامية للوطن العربي. لم أستطِع تخيُّل عروبتنا من دونها، ولا تخيَّلتُ قدرةً للعرب بعيداً عن مصر. وأحببتُ مصر بسبب حبّي لزعيمها عبد الناصر. ذهبت إليها أبحث عن حقيقة التمثال الذي رأيته يرتفع

صوب السماء، وكنتُ بعدُ تلميذاً في مدارس الراهبات. لكنّي في رحلتي الأولى أصبْتُ بصدمات كثيرة وخيبات أمل حيالَ الفقر والفوضى والنقمة، ورأيت كيف تُعلَّق كلّ المآسي على شمّاعة عبد الناصر. وجدت بقايا ناصريّين ليس لهم أيّ تأثير، ولم أجد الناصرية. لكنَّ عمْرَ خيباتي لم يَطُلْ، إذ استعدْتُ الكثيرَ من مصر التي في وجداني وقلبي، أثناء رحلاتي اللاحقة. ذهبتُ إلى العريش في أواخر تسعينيّات القرن الماضي. كان العالمُ يستعدّ لاحتفالات رأس السنة، كما في كلّ سنة. أمّا أنا فقد اخترت أن أذهبَ إلى العريش، لعلّي أجد شيئاً آخر، غير الأشياء العابرة التي اخترعناها كي نفرح، فصرنا عبيداً لها في نهاية كلّ عام أو في كلّ عيد.

الشيخ إمام.

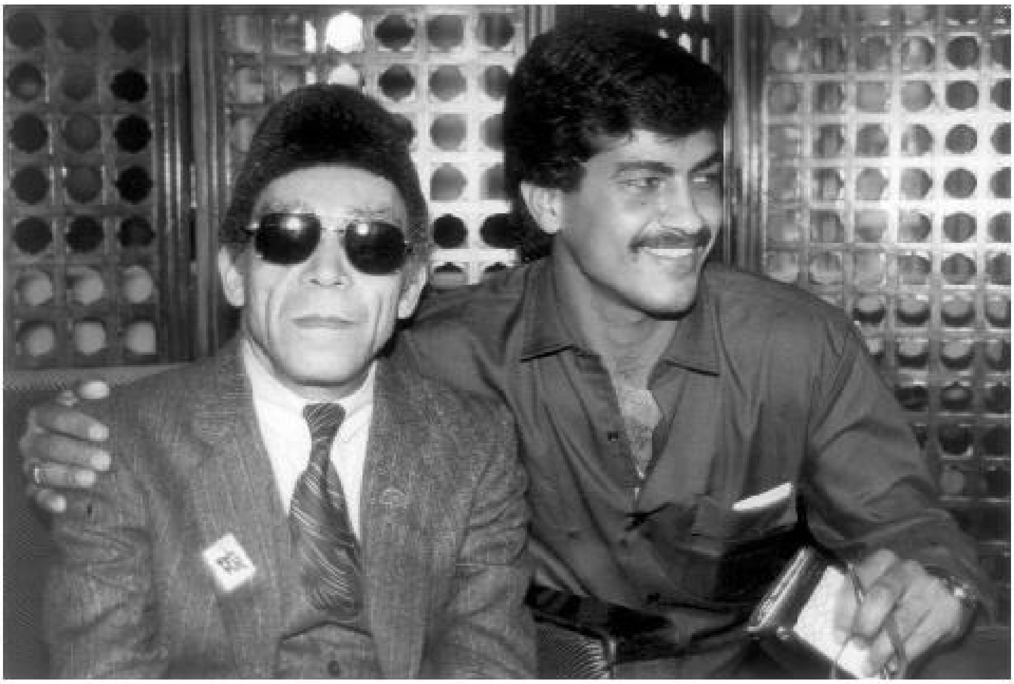

الشاعر أحمد فؤاد نجم.

«من ستزور في العريش؟»، يسأل السائق المصري، مِن قَبيلِ التحايل على طول الطريق بين القاهرة وسيناء. السرعة محدّدة بمئة كيلومتر في الساعة، والمسافة تتطلّب ما يقارب خمس ساعات متواصلة. أجبته: «سنزور موسى رويشد، أتعرفه؟». يسارع كما الكثير من المصريين الذين لا يحِبّون الاعتراف بأنّهم لا يعرفون: «طبعاً أعرفه يا باشا، ده فنّان عظيم». قلت له: «حسناً، أريد منك فقط أن تسمع قصّته حين نصل إليه، وبعد ذلك، في طريق عودتنا إلى القاهرة، ستقول لي رأيك بما سمعت». وافق وأكملنا الطريق، وكان صوت عبد الحليم حافظ ينساب إلينا من راديو السيّارة يغنّي «قارئة الفنجان».

جاءت عائلة رويشد من حيّ الخروبة في شمال سيناء، لتستقرّ في العريش. شاهدَتْ بأمّ العين احتلال ذلك القسم المهمّ من مصر. رأتْ عن قرب، كيف سحق جنودُ الاحتلال تحت جنازير دبّاباتهم عشرات الجنود المصريين، وتعلَّمَتْ من خلال ضابط مصري جريح لجأ إليها كيف تزرع وتُفكّك الألغام.

صار كلُّ أفراد العائلة يبادرون من تلقائهم إلى نزْع الألغام التي كان المصريّون أنفسهم قد زرعوها لمنع تقدّم الإسرائيليّين، ثمّ يزرعونها أمام السيّاراتَ العسكرية والدبّابات الإسرائيلية. قُتِل الوالد وهو يزرع لغماً، ثمّ قُتل الشقيق الأكبر. قرّر موسى رويشد أن يُكمِل طريق أبيه وشقيقه. عاجلته إسرائيل بالرصاص أثناء محاولته زرْعَ لغم، فانفجر اللغم بين يديه. كانت مأساته أنّه لم يَمُتْ. اعتقلته إسرائيل وهو محترق الجسد والدماء تسيل مًن الجروح والحروق. اقتادته إلى معتقلاتها. سلخت جلده المحترق من دون أيّ مسكّنات، وفْقَ ما يَروي وما يرويه جيرانه، ثمّ علَّقتْه 99 يوماً حتى بدأ الدود يأكل لحمه. كانت تريد انتزاع اعترافاته، لكنّ مصيبته أنّه لم يكن لديه أيّ شيء يعترف به، فهو فعلاً لا يعرف شيئاً سوى أنّه بدويٌّ هالَهُ أن يرى جنود مصر يُسحَقون تحت الدبّابات، وأنّ والدَه وشقيقه استُشهدا، فقرّر الانتقام.

تعبر سيُّارتنا طريقاً وعراً. نتقدّم نحو ما يُشبه البستان الأخضر. يترجّل دليلنا، وهو زميل صحافي محلّي، يفتح بوابة البستان، وهي عبارة عن شريطين شائكَيْن فقط. تتقدّم السيّارة بين أشجار زيتون لا تتعدّى أعمارها السنوات العشر. رجلٌ يلوّح من بعيد. لا ندري أيلوُّح لنا أم لغيرنا. يبدو أنّه يلوّح فقط لِما سمع، لا لِما رأى.

يلبس موسى رويشد ما يشبه العباءة البيضاء، وهي أشبه بقميص طويل رثِّ القماش، يبادرُنا بعبارات الترحيب الحميم. ننزلُ من السيّارة، نقتربُ لمصافحته فيُشيح بنظره وكأنّه لم يرَ الشخص الواقفَ أمامه، تتلمّس يدُه الهواء الفاصل بيننا، أقترب منه أكثر... إنّه شبه ضرير...

لم تكن زيارتي لموسى رويشد في العريش مبرمجة. جاءت بالمصادفة المحضة. عرفتُه من كلام الناس عنه، وعرفَني من صوتي حين ألقيتُ عليه السلام. كنت آنذاك مذيعاً في مونت كارلو الباريسية، وكان بسبب فقْدِ النظر، وفقْرِ الحال، يفضّل الاستماع إلى الإذاعات. ما إن سلَّمتُ عليه، حتى صاح بأعلى صوته: «أنت سامي كَليب، أنا أسمعُكَ كلّ يوم، لا أصدّق أنّك عندنا»، وهبَّ يصافحني، فسَرَتْ قشعريرةٌ في جسدي اجتاحت خلايايَ، وعانقتُه كأنّني أعانق والدي، أو أحدَ أفراد عائلتي.

روى لي أنّه حين رفض الاعتراف لجلّاديه الاسرائيليين بما فعلَتْ يداه لحماية أرضه وبيته، ضربوه حتى فَقَد عينَه اليسرى، وضربوه على اليمنى أيضاً، وكسروا أضلاعه، ورموه في زنزانة انفرادية... ثمّ جيءَ بأمّه لتقنعه بالاعتراف، فقالت له وهي واقفة أمامه، ثابتةً كسنديانة، تغالِبُ الدمَ ولا تبكي: «لا تعترف، فالسجن للرجال». ضربوها وضربوه، ولم يخرج من براثن الإسرائيليين إلّا حين جرى تبادلُ الأسرى.

لم ينتبه موسى رويشد إلى حلول العام الجديد. توقَّفَ الزمن في حياته، منذ سنوات طويلة. هو يرصد الأيّام فقط من خلال شجيرات الزيتون التي غرَسها مكانَ الألغام، منذ خروجه من المعتقَل. لا يستطيع التمتُّع بكرْمه الخصب من بعيد، فهو لا يراه جيِّدًا. في أعقاب سنواتٍ من الاعتقال، لم يجد ما يفعله

سوى شراء أرض مزروعة بالألغام من الدولة المصريّة. ذهب هو ووالدته لتفكيك كلَ ألغامِها، وزرع مكانَها أشجار الزيتون. تزوّج وأنجب ولديْن يساعدانه حالياً في ما تعجز عنه عيناه. زرع ألفَ شجرة زيتون مكانَ ألف لغم. سألتُه إن كان نادماً على شيء، فسارع إلى الجواب الحاسم: «لو عاد بِيَ الزمن إلى الوراء، لكرّرت ما فعلْت، هكذا تعلّمْنا من عبد الناصر: حماية الأرض والكرامة». يقول ذلك، وهو يُمسِك بيَدِ ولديه ويسير معهما حافِيَ القدمين، وبثياب مهلهلة يروي الأرض بعرقه وعرقهما.

نظرتُ إلى السائق الذي حسِبَ أنّ موسى رويشد فنّان، رأيتُه يبكي. ما إن صعدتُ معه، وكان رويشد وابناه يلحقون بنا مودّعين، حتى قال لي: «أرجوك اعذرني، والله الزمن ده حقير، الصحف القومية (الرسمية) عندنا ما عدِتش تهتمّ للأبطال دول. والله أنا آسف».

لم تكن زيارتي للعريش وسيناء وبور سعيد مرصودة للقاء موسى رويشد. كنت آنذاك ذاهباً إلى هناك للقاء مناضل آخر له قصّة مماثلة، أو ربّما أقسى بقليل؛ اسمه محمود السواركة. كان يتجمّع على نفسه في الغرفة الباردة، ويلفّ حول جسده النحيل غطاءً من الصوف، وليس في الغرفة الصغيرة والفقيرة إلّا أشياء قليلة، تكاد لا تكفي لإبقائه على قيد الحياة.

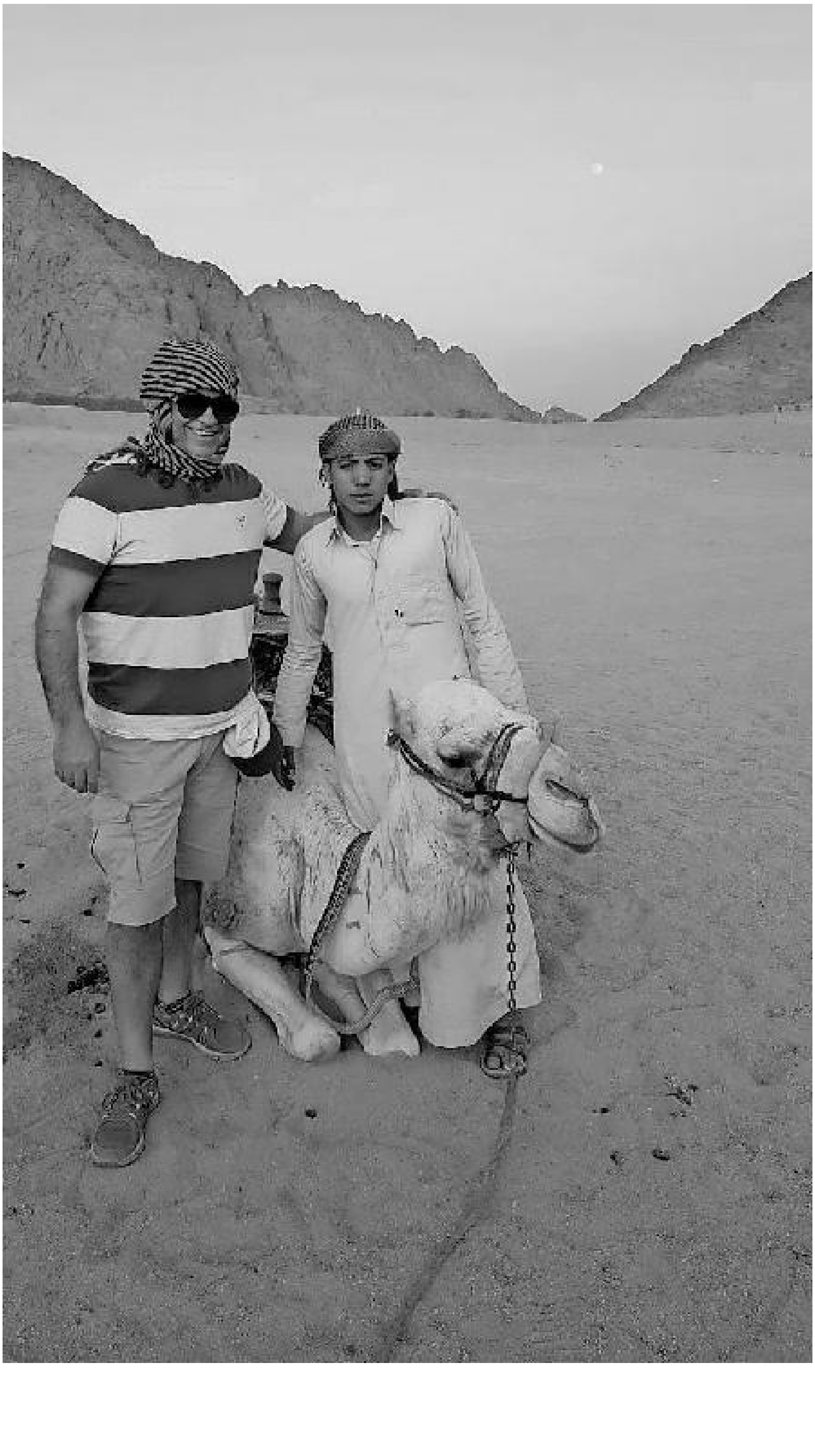

سألت عن منزل محمود السواركة معتقداً أنّ كلّ أهل العريش لا بدّ من أن يكونوا على عِلْم بقصّته. كانت صورته واسمه قد احتلا العناوين البارزة في الصحف القومية والوطنية والمعارضة على السواء. لم تأتِ شهرته من كونه بطلاً من «أبطال» العبور، بل لأنّه خرج من المعتَقل وبطنُه غريب الشكل، وهو يتّهم إسرائيل بأنّها أجرت عليه تجارب طبّية. لكنّني لم أستطِع الحصولَ على وثيقةٍ تؤكّد ذلك، باستثناء ما يرويه وما ينقله الناس، وما تقوله الصحف. كان في تلك الاثناء قد كلّف محامياً يطالب الدولة العبرية حالياً بتعويضاتٍ تصل إلى 3 مليارات دولار.

كان محمود السواركة في الخمسين من عمره تقريباً، حين اكتشفتْ إسرائيل، من آثار قدمَيْه، أنّه هو الذي فجّر عدداً من سيّاراتها العسكرية في سيناء، وقتل عدداً من جنودها، وأشعل مخازن أسلحتها، فنكّلَتْ به وعذّبتْه. وحين خرج من السجن تعرَّف، للمرّة الأولى، إلى ابنته التي كانت قد بلغت 22 من العمر. لم ينتبه البطل محمود (كما يلقّبونه هنا) حين زرتُه في ذاك اليوم الصحراوي البارد، لزينةِ الأعياد وبهرجها. أمضى ليلة العيد كالمعتاد، في الغرفة الباردة كلوح الثلج، في سيناء، يداعب أحفادَ شقيقه الفقير، مثلِه، والحافي القدمين مثلِه، والباسم مثله، متعالياً على الألم. من أعلى عمره الذي ينوف على السبعين، كان محمود السواركة يحاول مغَالبة الزمن، وكانت آثار التعذيب لا تَزال واضحةَ المعالم على رأسه وفي أنحاء جسده، ولا يزال جزءٌ من بطنه متقدّما جسمَه، بشكلٍ مستدير لافتٍ، وكأنّه َليس منه. بدا لي رجلاً يعيش منتظراً الموت، أو أنّه يتحايل على خريف العمر، من دون أمل كبير بالمستقبل.

سألته عن شعوره حين التقى بابنته التي لم يتعرّف إليها إلّا وهي في ربيع العمر. قال بصوته المتهدّج فوق جسده النحيل ووجهه الشاحب: «رأيت صورتها للمرّة الأولى في السجن، بعد عشرين عاماً على ولادتها. نجح بعض رفاق السجن في تهريب الصورة عبْر أربعة سجون، حتى وصلَتْ إليَّ، ولكنّي لم أشعر بأيّ شيء، تماماً كما لم أشعر بشيء حين رأيتها، أو حين حُرِمتُ منها ومن زوجتي، فمن نذر نفسه لما هو أسمى من ذلك، لا يتعلق بتفاصيل الحياة».

حدّثني محمود السواركة كثيراً عن عذابات السجناء والمعتقلين الآخرين في إسرائيل. روى لي بالتفصيل ما يعانيه المعتقلون اللبنانيون، لكوني لبنانياً. كان يحدّثني، فتغرورق عيناه بالدموع، لكنّه كان يكبت انزلاقها على وجنتيه المجعّدتين بفعل الزمن. يتحدّث ويُنعِمُ النظرَ في الأرض، وهو جالس على أريكته في الغرفة الباردة كلوح ثلج. حاولتُ مراراً أن أنظر إلى عينيه، لكنَّ عينيه بقِيَتا مسمّرتين بالأرض. اقتربَ مرافقنا الصحافي يهمسُ في أذني قائلاً: «هو دائماً هكذا، لا يقوى على النظر إلى أعلى من ذلك. إنّ جروح البطن تحول دون ذلك».

قيل لنا إنّ السلطات المصرية وهبته شقةً، بعد خروجه من المعتقل الإسرائيلي، في أعقاب تبادل للأسرى. قال لنا إنّ الشقة المتواضعة لا تزال بحاجة لبضعة أشهر، كي تصبح جاهزة للسكن، وإنّه فضَّلَ البقاء هنا حيث كبر وترعرع. هذه ال-«هنا» تعني غرفتين متلاصقتين تشبهان غرف المخيّمات الفلسطينية في لبنان، أمامهما شجرة زيتون. في أبواب الغرفتين نتوءات أكثر ممّا فيهما من الخشب، والبرد ضيفٌ ثقيل في الشتاء الجائر هذا العام. دفعني فَقْرُ السواركة إلى أن أقدِّمَ له هديّة مالية تساعده على الفرح لفترة قصيرة، هبَّ كالمذعور من مكانه قائلاً: «يا ابني أنا حدّثتك عن الزعيم جمال عبد الناصر، وهل تريدني أن أقبض ثمن ما قلته؟ ما هكذا تعلّمنا الكرامة». ردَّ لي المبلغَ شاكراً، فشعرتُ بخطيئة ما فعلتُ، واعتذرتُ وقبّلته على جبينه.

لا شيء يناقض برْدَ المكان، سوى حرارةِ منطقة العريش حين زرتُها. كانت توحي بحيوية لافتة. تزايدَتْ منازلها، وتضاعف عددُ فنادقها مراراً، في السنوات الأخيرة. بدتْ لي فيها السياحة العربية جيِّدة، والسياحة الغربية تفوقها بمرّات، وخاصّة في طابا. سِرتُ في الشوارع أتفرّج على كلّ ما تصادفه عيناي. تمتّعت بأكل سندويش «الطعمية» (الفلافل) فوجدته الأكثر لذة في كلّ مصر. كنت أفكّر

بأنّ بين السيّاح إسرائيليّين حتماَ، وبأنّ بين الإسرائيليين ربّما ضابطاَ، أو شقيق ضابط، أو ابن ضابط، من أولئك الذين عذّبوا السواركة. سألتُ عمّا ربحَتْه تلك المنطقة من السلام، غير السياحة والازدهار الواضح. تضاربت الآراء: بعض الناس كانوا يتحدّثون بكثير من الإيجابية، وبعضهم الآخر يروي بصوت خافت أنّ سيناء باتت منطقة مقسَّمة إلى ثلاث مناطق، بالمفهوم العسكري، الأولى ممنوع فوقَها الطيران الحربي، والثانية ممنوعة عنها الدبّابات، والثالثة محصورة برجال الشرطة.

بورسعيد: التاريخ لو حكى

كان القمر يتهادى في سماء مصر. ينظُر إليه الناسُ اليومَ بغير ما نظروا إليه أثناء الحرب. آنذاك، كانت المقاتلات الإسرائيلية تدمّر طائرات المشير عبد الحكيم عامر، وهي رابضةٌ على الأرض، فتنوء مصرُ، والعرب (ربّما ليس جميعهم) معها، تحت وطأة الهزيمة.

الطريق إلى بور سعيد لا تحمل الكثير من المفاجآت. تتشابه المناظر، قبل الوصول إلى القناة الشهيرة. يتراءى لنا خطّ بارليف، وباخرةٌ تحمل على الأرجح موادّ تجارية أو نفطاً. لقد ولّى عصر انتقال السلاح، في ذلك الممَرّ الذي شهد أكثرَ من حربٍ وعمليةٍ واعتداء. ينتظرنا أحمد عطيفي بهامته الطويلة، التي تحمل من العضلات أكثرَ من أيّ شيء آخر، على الرغم من تَقدّمه في العمر نسبياً (فهو حاز أكثر من مرّة بطولة مصر في المصارعة الحرّة)، سحنتُه شديدة الاسمرار، كمعظم جيران قناة السويس، الذين يخبرون السباحة منذ نعومة أظفارهم. يشرق وجه عطيفي بابتسامة الناس الطيّبين في تلك الأرض التي عرفت كيف تصمد، وكيف تقاتل، وكيف تحرّر نفسها مراراً، حتى حين عزّ الدفاعُ عنها من الجيش ومن العرب (وخاصّة من العرب). يزداد وجهه إشراقاً حين يُعيدنا بالذاكرة إلى تلك العملية التي نفذها، مع رفاقه الفدائيين، في 24 تشرين الأول/أكتوبر 1973. آنذاك، كانت مدينة السويس محاصرة، وكلّ شيء كان يوحي بأنّ المدينة ستنهار أمام رتل الدبّابات الإسرائيلية المتقدّمة. كان فدائيّو المنطقة شبَّانا في ربيع العمر. تدرّبوا على أيدي الجيش المصري. تقدّموا حاملين أرواحهم على أكفِّهم باتّجاه الشهادة، فاعترضوا رتْلَ الدبّابات، في وضح النهار. وكانوا قبل ذلك قد أسروا أولَ جندي إسرائيلي عام 1969. أطلقوا الرصاص، ثمّ تقدّم بينهم إبراهيم سليمان، أسطورة السويس، ليرمي أول قنبلة على طليعة الدبابات الإسرائيلية، ويوقِف تقدُّمَ جحافل الغزاة. كانت معركة طاحنة استشهد فيها سليمان وعددٌ من رفاقه، ونجا الآخرون، ولم تستسلم المدينة التي صمدت بأبنائها، كصمود بعض قرى الجنوب اللبناني.

يروي عطيفي كلّ تلك الحقبة المشرقة من تاريخ النضال بكثيرٍ من بهجة التاريخ، على الرغم من قسوة الحاضر. يعود بنا إلى تلك الحماسة العارمة التي كانت تشعل فِتْيَة مصر وشبيبتها. يدخل بين الفينة والفينة إلى الغرفة المجاورة. يأتي بقاذفة تشبه الآر بي جي، أو الفراش العسكري المتنقّل، أو آلة عسكرية مدنية، فيها رفش ومعْوَلٌ، ويمكن أن تتحوّل أيضاً إلى آلة حادّة جداً. يقلّبها بين يديه، ويقول: «هذا بعض ممّا لم أشأ أن أسلّمه للدولة، وأريد الاحتفاظ به غنيمةَ حربٍ، وشاهداً على انتصارنا على العدوّ. هذه كلّها غنمناها من الإسرائيليين، كما كنّا نقاتلهم بالسلاح الذي ننتزعه منهم. كانت مدينتنا هذه محاصرةً، ولم تستطِع القوات المصرية النظامية الوصول إلينا بسرعة، لأنّها كانت تشتبك مع العدوّ في منطقة سيناء».

يعيش عطيفي أفضل من غيره؛ فهو نجح بعد الحرب في توظيف خبرته ودراسته في مجال النفط، وعمل في بعض دول الخليج، خلافاً لكثير من رفاقه القدامى، أو من أبناء سيناء الذين لا يزالون يعيشون في ظروف مُزريةٍ ومأساوية. لكنّ الغريب في الأمر أنّ ثمّة أنَفةً وكبرياء واعتزازاً بالنفس لدى هؤلاء الفدائيين القدامى يكاد يُلغي ضيقَ ذات اليد، ثمّة شموخٌ لم تغيّرْه السنون، ولا غيَّره مناخُ الصلح مع إسرائيل. حين تسأل أحدهم عمّا يعانيه في حياته اليومية، وعمّا إن كانت الدولة تقوم بواجبها حيالهم، يُسارع إلى القول، بل كلُّهم يسارعون إلى القول: «نحن لم نتقدّم نحو الشهادة لنحصل على شيء بالمقابل، كان همُّنا تحرير الوطن والذَوْد عن حياضه وأرضه، والحمد لله تحقق ذلك بسواعد أبنائها».

لا تزال صورة جمال عبد الناصر حاضرةً لدى العديد منهم. ثمّة من يعتبُ على غياب الاهتمام الرسمي، لكنّ الجميع راضٍ بما هو عليه، وكأنَّ فعلَ البطولة السابق أهمُّ من كلّ ما تلاه؛ أو كأنَّ مَن

سما آنذاك بمقاومته، قد ينظر بكثير من الازدراء لأيّ تكريم آخر.

هذا مثلاً سيّد عسران. لا يبعُد منزلُه كثيراً عن تمثال فرديناند دوليسبس، باني قناة السويس الأسطورة. كان سيّد عسران في السابعة عشرة من عمره، حين لفَّ القنبلةَ برغيفٍ الخبز الحافي، ورماها على الضابط الإنكليزي، رئيس جهاز الاستخبارات السابق، في منطقته، وقتله، انتقاماً لشقيقه الذي سحقته الدبّابة البريطانية. حالياً، تتصدَّر صورتُه المتحفَ الحربي في منطقته، بطلاً مِن الأبطال الذين أسهموا في إجلاء المحتلّ البريطاني. يبتسم حين أسأله عن التكريم، يقول: «يكفيني أنّ أحفادي سيفخرون بما قمنا به، أنا ورفاقي. وليحتفل الآخرون بالنصر، فهم أكثر براعةً منّا في إقامة المآدب ووضع النياشين. أمّا أنا فما زلت أحتفظ بصورة الزعيم، وأصِرُّ على القول: الزعيم جمال عبد الناصر. حينما كان يأتي إلى هنا، كنّا نهرع راكضين حتى القطار، لملاقاته، فكان يحتضننا ويمازحنا ويسألنا عمّا فعلنا لطرد الغزاة».

حين مررْتُ على أحمد عطيفي في بورسعيد، وجدتُه، كالمعتاد كلَّ سنة، وفْقَ ما روى لي جيرانُه، يزور بعضَ قدامى الرفاق المناضلين، ثمّ يذهبون جميعاً إلى منزل رفيقهم الشهيد إبراهيم سليمان، بطل بور سعيد، لقضاء بعض الوقت بجوار والدته المتَّشحة بالسواد، منذ أكثر من ربع قرن. هؤلاء جميعاً باتوا خارج الزمن، زمن السلام الذي يقولون إنّه أوقف الحرب، لكنّه نسِيَهم على قارعة الطريق. إنْ سألتَهم عن «الرئيس عبد الناصر» يعترضون جميعاً على الصفة، ويقولون: «إنّه الزعيم، إنّه الزعيم وليس الرئيس، وذلك لأنّ الرئيس موجود في كلّ دولة، أمّا الزعيم فلم تُنجِبْ مصر غيره». تقدّموا بالعمر جميعاً، لكنّهم أبناء البحر. لا تزال أجسادهم قويَّة، بعكس تلك التي رأيتُها في منزلَيْ رويشد والسواركة. وجوهُهم سمراء، زادتْها الشمس اسمراراً لا يزال يلوّن الوجوه، على الرغم من أيّام البرد القارس في المناطق الصحراوية.

لم يبقَ من هؤلاء، ولهُم، سوى الذكرى. كنتُ، وأنا أستمِع إلى رواياتهم، أتذكَّر قُدامى المحاربين في فرنسا، كيف يرتدون كلّ عام بزّاتهم الأنيقة، ويضعون النياشين على صدورهم، فيبْدون وهُم في آخر العمر، فرِحين مزهُوّين بيوم الاحتفال بهم. يتحلّقون قرْبَ قوس النصر، في أعلى جادّة الشانزليزيه، يستقبلون التهاني من رئيس الدولة وكبار المسؤولين، ومن الناس الذين ينظرون إليهم بكثير من الاحترام والحبّ والإعجاب، على الرغم من مرور أكثر من سبعين عاماً على مشاركتهم في الحرب العالمية. يحتفلون بالذكرى ويستذكرون الذين سقطوا من رفاقهم في ساحات القتال، ثمّ يعودون إلى منازلهم ينعمون بدفئها الذي توفره لهم مرتّباتهم والمكافآت التي لا يزالون يتقاضونها منذ انتهاء الحرب. أمّا هنا، فكلّ ما يبقى لقدامى المحاربين الذين أسهموا في تحرير الأرض، شيءٌ من ذكرى زعيم ومعارك، وكثيرٌ من هموم الحياة. ومع ذلك، فهم ليسوا نادمين أبداً. يكفي أن تذكر أمامهم بعض ذلكً التاريخ، حتى تنفتح ذاكرتهم على تفاصيل الأمور وأكثرها دقَّة، وتنفرج أساريرُهم وتزهو وجوههم.

أعود إلى القاهرة بعدما أمضيْتُ رأس السنة مع تاريخ مجيد وذكرى كرامة نفتقدها اليوم. أشاهدُ ضفتَيْ نهر النيل زاخرتين بالأجانب. بعضهم يوحي بأنّه قادمٌ من أوروبا، وآخرون من اليابان. تتصدّر الصحف القومية عناوين تتحدّث عن خطط اقتصادية، بعدما خُفِض سعر الجنيه المصري، وأخرى تشرح ما حمله الاجتماع الوزاري الأخير. زحمةُ الحياة تنبض في شرايين العاصمة الموحية فعلاً بأمنٍ واضحٍ، وصراخ الناس من شارع إلى شارع، وسائقو التاكسي المتراكضون خلف الزبون.

ها أنا أغادر مصر في اليوم السادس لحلول العام الجديد، وفي ذهني صورةٌ فريدة، صورة موسى رويشد ينظر إلينا من بعيد، بما بقي عنده من نَظَر، متّكئاً على شجيرة زيتون كان قد غرسها مكانَ لغم... يا الله كم تتناقض قصص الزيتون مع الألغام، لكن بينهما حياة رجلٍ أراد أن يعيش بكرامة. هذه هي القصّة كاملةً.

الأقباط في أصل الحكاية

في قريتنا الجبلية اللبنانية، يجاورُ بيتُ أجدادي الحجري العتيق كنيسةً يمتدّ عمرها إلى مئات السنين. ترتفع على طابق واحد فوق أحجارٍ هندستها أيْدي أبي جان وشقيقه سعيد الحدّاد. للأخوين الحدّاد وكذلك لعائلة «بوتين» فضلٌ معماريٌّ كبير على كلّ أهل قريتنا. هم عالجوا الحجر الصخري الصلب، وصاغوا منه بيوتاً حجرية قرميدية جعلت من قريتنا إحدى أجمل قرى الجبل.

كان أبو جان قوي البنية منتفخ البطن يتدلّى شحمه إلى منتصف ركبتيه. لكنّه كان عاملاً نشيطاً ورجلاً زاخراً بمحبّة الناس، والطيبةُ تمسح وجهه بأجمل ما فيها. وكان كما الكثير من أهل قريتنا، صادقاً ومحبًّا. وكان شقيقه سعيد أبيض الشعر، منحنِيَ الظهر، حتى يكاد رأسه يلامس الأرض، لكنّه ما ترك حجراً إلّا هذّبه، حتى في شيخوخته. أمّا أيّام الأحد، برغم فقر الحال، فقد كان أبو جان وشقيقه، كما تقتضي عادات المسيحيين، يتركون كلّ عمل، ويكرّسون هذا النهار للعائلة، واللحم المشويّ، والكبّة النيئة، وكأس العرق. ربطتني بأولاد سعيد الحدّاد علاقة أخوية قاربت علاقتي بأهلي، فبكيت مريراً حين قُتِلت ابنتُه كاميليا بحادث سير، وهي التي كانت رفيقة طفولتنا. وتعرّفْتُ، من خلال شقيقتها ناديا، وهي أيضاً كانت صديقة الطفولة، إلى أغاني مارسيل خليفة ثمّ جورج وسوف. أمّا المعماريّ الأخير في قريتنا، إسماعيل بوتين، فلا يزال حتى اليوم شامخاً فوق سنواته التي تقارب التسعين. هو ليس ابن قريتنا. تبعد قريتُه عنّا نحو نصف ساعة بالسيّارة، لكنّه كلّ يوم، نعم كلّ يوم، يقود سيّارته ويأتي إلى قريتنا يزور أهلَها، حتى بعد أن توقف عن العمل. وكلما زارنا يذكّرنا بأنّ بيت أجدادي وأهلي بناه جدُّه، ثمّ أعاد أبوه ترميمَه بعد الزلزال، ثمّ قام هو ببنائه على الطراز الحديث. وقد تميَّز إسماعيل بوتين، هذا الرجل المناضل، المكافح الشريف، ذو المواقف الإنسانية والسياسية، بأنّه يسجّل، كلّ يوم، كلَّ أحداث قريتنا، لحظةً لحظة، ولا يزال حتى اليوم يحتفظ بأرشيفٍ فيه كلّ الأفراح والأحزان، والأعراس والمآتم، وكلُّ حدَثٍ كبير أو صغير، مرَّ على القرية وأهلها.

درج أهلي وإخوتي على إضاءة شموع الكنيسة، كلَّ يوم جمعة، أو يوم أحد، وفي كلّ المناسبات والأعياد، ولا سيّما أنّ شبّاك الكنيسة يُشْرف على حديقتنا، ولا يبعد عنها سوى مترٍ واحدٍ فقط. لم يفرّق أهلي مطلقاً بين دين ودين، ولا بين مذهب ومذهب، ولا لقّنونا ونحن في عمر المراهقة، ماذا يعني أن تكون مسلماً أو مسيحياً. كلّ ما عرفناه أنَّ عمَلَ الخير جيِّد، وأنَّ الإيمانَ بالله أمرٌ ضروري ومفيد للإنسان ويحميه، وأنّ الإساءة إلى الآخر ترمينا في النار. في صِغَري، كنتُ أختبئ تحت السرير. لا أعرف من أين جاءتني تلك العادة اللعينة. كنت أتخيَّلُ كيف أنّنا، إنْ أسأنا إلى أحدٍ، فسنوضَعُ على شبكٍ من حديد، ثمّ توقد نارٌ من تحتنا، فنصبح كالدجاجة المشويّة، أو كالخروف أو اللحوم التي نشويها في قريتنا، في نهاية كلّ أسبوع، ونتلذّذ بأكلها. في بعض المرّات أخاف من الصورة، وفي بعضها الآخر أضحك وأكاد لا أصدّق، لكنّي في الحالتين، كنت أقتنع بما يقوله أهلي، ويزداد إيماني، وأخاطب الله قبل نومي، راجياً إيّاه أن يصفح عنّي ويسامحني.

مُختَصَرُ الكلام، أنّي نشأتُ على حُبِّ الكنيسة والمسيحية، فرسخ عندي هذا الحبُّ في مدارس الراهبات والخوارنة، تماماً كما أحبَبْتُ، حين بدأتُ بالتَّرحال، المساجدَ، في دولٍ لم أكن أعرف عنها شيئاً، كموريتانيا أو المغرب أو أفريقيا أو اليمن، أو حتى تايلاند وغيرها. ما عرفتُ يوماً الحقد أو التقوقع أو الانكفاء على دين دون الآخر.

في بداية عملي في فرنسا، تعرّفت إلى رجل قبطي كان له منصب إعلامي في باريس، يفاخر بأنّه أول عربي أجرى حواراً مع رئيس وزراء إسرائيلي. لم أكن أعرف عن الأقباط إلّا بعض العموميات. حاولت أن أعرف أكثر، فوجدت أنّ مرشدهم الروحي الأكبر، الأنبا شنودة، هو من أشدّ الرافضين للصلح مع إسرائيل، لا بل إنّه تعرّض للقمع والملاحقة والضغط والحصار في مصر، بعد عبد الناصر،

بسبب هذه المواقف التي جاهرَ بها كثيراً، رافضاً توقيع معاهدة كامب دايفيد. تساءلتُ: «أيّهما يُعبّر عن الأقباط، الرجل الذي عرفته في باريس، أم الأنبا الذي يحظى بالاحترام والإجلال في طائفته، وفي أوساط واسعة من الوطن العربي؟».

لعلّ هذا السؤال بقي يجول في خاطري سنوات طويلة، قبل أن أقرّر الذهاب إلى مصر بحثاً عن الأقباط وتاريخهم وواقعهم، والاستماع إليهم، لا إلى غيرهم، في كلّ ما يفكّرون به ويعتنقونه.

الأقباط وأصل مصر

كلمة «قبطي» لا تعني بالضرورة المسيحي. فالمصريون جميعاً كانوا أقباطاً في تاريخهم الغابر. اللغة القبطية بقيت اللغة الرسمية، حتى بعد الفتح العربي الإسلامي. التاريخ يرحّب بالزائر فور ولوجه السوق الشعبية في منطقة «شبرا الخيمة» في القاهرة. يتجذر التاريخ أكثر فأكثر، كلّما اتّجه الزائرُ نحْو بعض مناطق الصعيد. يكفي الانحراف قليلاً إلى اليمين بين المتاجر والمحالّ والبسطات العادية، حتى يدخل الزائر في شارعٍ ضيّق ترتفع فوقه صورُ السيدة مريم العذراء والسيد المسيح وأيقونات قديمة.

إلى أسفل الصور، يجلس فنّانو الوشم ينقشون على أكتاف المؤمنين صور وأسماء القديسين. ما إن يجتاز المرء أمتاراً قليلة، حتى يصل إلى باحة كنيسةٍ موغلةٍ في القِدَم. هذه كنيسة العذراء الأثرية التي كانت مخبأً للسيدة مريم وابنِها، في غابر الزمان. أرى أمامي كاهنَ الكنيسة، الأب عبد المسيح بسيط. يبدو كاسمه بسيطاً في كلّ شيء: ثيابُه عبارة عن ثوب أسود يعلوه بعض غبار المكان، ابتسامته لا تفارق شفتيه، ويدُه توقّع على دفتر لأناس يأتون إليه طلباً للمساعدة.

يرفع الأب عبد المسيح ناظريه عن الدفتر، يبتسم لنا ويقول: «أهلاً وسهلاً بكم، تعْلَمون أنّنا نستعدُّ لعيد السيدة العذراء، فاعذروني قليلاً». ثمّ ينظرُ إلى إحدى مساعداته، وهي فتاةٌ حسناء، في مقتبل العمر، ترتدي ثياباً عصرية، ويقول لها بكثير من المحبّة: «وحياتك جيبي الفطار وشاي وقهوة».

نصعد والأب بسيط إلى الطابق الثاني. هنا المكان أقلّ ضجيجاً، ويَشي بشيءٍ من الهدوء، على الرغم من صخب الجوار. ينادي أحد مساعديه: «هاتلي القبّعة التانية، مش يمكن الإخوة عايزين يصوّرونا؟». يبتسم ونضحك، ثمّ يَحْضُرُ طبقُ الفول وبعضُ الأرغفة الصغيرة السمراء، التي تذكّر ببساطة أهل مصر. «اسمحوا لي بلقمتين قبل أن نبدأ الكلام، سأفكّ صيامي فقط». ثمّ يبدأ الكلام. على الرغم من بساطةِ عيشه، كلامُه عميق، فالرجل متعمّق في شؤون الدين، مدركٌ تماماً لِما يريد، ومتمسّك بشدّة بمطالب أهله الأقباط. أخبرَنا بعضُ مساعديه أنّ السلطات المصرية سعَتْ، في مرحلة معيَّنة، إلى الحؤول دون وصوله إلى منصبه هذا، مَخافةَ صلابتِه وعنادِه. وقال لنا: «إنّ كلمة قبطي التي مرادفها بالإنجليزية «إجِبت» [الجيم المصرية تُنطَق ق، أو ما يُقارِبُها لفظاً؛ والتاء في إجبت تُنطَق ط: إجبت = إقبط] تعود في أصولها إلى اليونانية بحيث إنّ كلمة كيبت تعني قبط وهو الاسم السابق لمصر. وحين نقول قبطي يعني ذلك المصري عامَّة، وليس المسيحي خاصَّة، وهذا موضِعُ إجماع لدى المثقفين عندنا. وهناك منطقة في الصعيد لا تزال حتى اليوم تُعرف بهذا الاسم، وكل ذلك ينطلق من كلمة تاريخية يونانية هي إجيبتوس». يمضغ لقمة ثانية، يضع ملعقة إضافية من السكّر في كأس الشاي، ثمّ يتابع: «إنّ الأقباط موجودون في مصر مذ كانت مصر، فهذه الدولة التي اتفقنا على تسميتها بالفرعونية، نسبةً إلى الحاكم فرعون، أو برعو، أيْ القصر أو البيت الذي تُحكم من خلاله مصر، عرفَتْ مع القدّيس مرقص، في القرن الميلادي الأول، تبشيراً بالمسيحية. وقد آمن المصريون بالمسيحية حتى القرن الرابع الميلادي، وكانت الغالبية العظمى من سكّان مصر مسيحيّين. وهذا يعني أنّ الأقباط مصريون دخلوا المسيحية في بلادهم».

كنت قبل وصولي إلى القاهرة، بحثاً عن المسيحيين الأقباط (الذين يُقال إنّ عددَهم اليوم بات يفوق 12 مليوناً) قد قرأت مجموعة من المراجع العربية والأجنبية، لكي أعرفَ مِن أين أبدأ، وكيف أخفّف من

مغالاة بعض المسؤولين عن الكنيسة في شرح أحوالهم، لعلّهم يبالغون في شرح تاريخهم، كما يفعل البشر عادةً، سواء كانوا أقباطاً أو غير أقباط. وقد وجدتُ في الواقع أموراً تبعث على الدهشة والعجَب، لا في شأن تاريخِ هذه الطائفة المهمّة، فحَسْب، بل في شأن فضْلِها أيضاً على هذا الشرق، وعلى اللغة العربية نفسها.

تقول وثائق التاريخ، مثلاً، إنّ الكتاب المقدَّس تُرجِم إلى العربية على أيدي الأقباط المصريين، في القرن الثاني الميلادي، وإنّ مدرسة الإسكندرية المسيحية هي أوَّل مدرسةٍ من نوعها في العالم. ولكنَّ الأقباط يحمّلون التاريخ العربي الإسلامي بعضَ ما لحق بهم. قال لي الأب عبد المسيح بسيط، الذي يدرّس أيضاً اللاهوت الدفاعي لِرَدّ الهجمات عن الكتاب المقدّس: «إنّ ثمّة من يقول إنّ عَمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية، لكنَّ الإخوة المسلمين ينفون ذلك. وتقول كتب التاريخ الأوروبية مثلاً إنّ الذين دخلوا إلى مكتبة الإسكندرية أرسلوا للخليفة كتاباً يشرحون له فيه ما تضمُّه المكتبة، فكان جوابه أنّه إن كان ما في هذه المكتبة يوافق القرآن، فلا حاجة لنا بها... وإن كان يخالِفُ القرآن فلا حاجة لها أيضاً. المؤسف في الأمر، أنّ المكتبة الرائدة احترقت بصرف النظر عمّن أحرقها».

يقول إنّ مدرسة الإسكندرية المسيحية كانت صاحبةَ الفضل في تعليم نَسْخ الإنجيل بطريقة علمية، وفي وضع قواعدَ التَزَمَها الناسخون. يفاخر أقباط مصر بالتالي، بأنّهم حموا الكثير من الكتب المقدّسة والوثائق اللاهوتية، كما يؤكّدون أنَّ السيدة مريم اختبأت مع السيد المسيح في الكنيسة الأثرية للسيدة العذراء، في شبرا الخيمة، وأنّ من بئرها شربا، ولولاها لما استطاع السيد المسيح إكمال مسيرته.

في هذه الكنيسة، كان المؤمنون، وخاصَّة من جيل الشباب، يتوافدون للمساعدة في بيع بعض الأيقونات والأشرطة والترانيم وقداديس الأنبا شنودة، الذي كان أثناء زيارتي لمصر يخضع للعلاج في الولايات المتحدة، تاركاً خلفه الكثيرَ من الأسئلة عمّن سيستطيع إكمال الطريق بعده.

الفاتيكان ضدّ الأقباط؟

يتوزّع أقباط مصر على طوائف عدّة، كالأرثوذكس والإنجيليين والكاثوليك، وقد تعرَّضت الكنيسةُ مِراراً لما يصفه الأقباط هنا بـ«مؤامرة الكنائس الشرقية». اتَّهمتْ تلك الكنائسُ أقباطَ مصر، بالتفريق بين ما هو لاهوتي وناسوتي، أيْ إنّهم يقولون بالفرق بين الألوهية والبشرية في طبيعة السيد المسيح.

بقيت الكنيسة الأولى للإسكندرية تقود الكنيسة المسيحية، حتى القرن الرابع. في نهاية ذلك القرن، ظهر شخصٌ اسمه نسطور، وكان بطريركاً لكنيسة الكرسي القسطنطينية. اعترض على مفهوم ولادة السيد المسيح، على أساس أنّ الله لا يَلِد ولا يولَد، فلا بداية له ولا نهاية، وبالتالي فهو ليس والداً، ولا يمكن للولادة أن تكون حسّية أو ملموسة. وقال نسطور أيضاً إنّ المسيح هو الإله الذي نزل من السماء، وحلّ في بطن السيدة العذراء.

سألتُ الأب بسيط عن نسطور، وعمّا يمثّله بالنسبة إلى كنيستهم القبطية في مصر. ارتشف رشفتَيْن من كأس الشاي أمامه، بعدما حرّك السكر الراكد في قعره. نفضَ بعضَ فتات الخبز عن جبَّتِه السوداء، وقال: «إنّ نسطور اعتبر أنّ اللاهوت والناسوت كانا متلازمين، بحيث إنّ اللاهوت حلَّ على الناسوت، ولكنّه خاف أن يستخدم كلمة اتحاد بين المسألتين، لأنّ في ذلك تغييباً لإحدى الطبيعتين على حساب الأخرى، فراح يتوسّع في الشرح والتفسير، حتى وصل الأمر بأتْباعه إلى اعتبار أنّ ثمّة مسيحَيْن اثنين، أحدهما نزل من السماء والثاني حلّ في بطن السيدة العذراء... وقد ولّد ذلك نظرياتٍ كثيرةً عند الأتباع؛ مِن تلك النظريات، مثلاً، أنّ أحد أصحاب نسطور قال إنّ المسيح نزل على يسوع في العمادة، وفارقه في الصليب. لذا، يا أخي، نحن نعتبر أنّ الخطيئة الكبرى لدى نسطور، التي أدّت إلى كلّ هذه التأويلات، تمحورَتْ حول استخدامه كلمة مصاحَبة مكان كلمة اتّحاد، ما يعني أنّ ثمّة شخصين متصاحبين... ثمّ جاء راهب اسمه أوطافي، وكان رئيساً لدير في القسطنطينية أيضاً، لكنّه لم

يكن متعلماً أو متعمَّقا في علوم اللاهوت والدين، على الرغم من كونه رئيساً للدير، وراهباً من الدرجة الأولى، دفَعَتْه غيرتُه وحماسته إلى الرد على نسطور؛ فبالغ في الردّ، وقال إنّ اللاهوت، حين حلّ على الناسوت، جعل الطبيعة البشرية تتلاشى في اللاهوت، أيْ كنقطة خلٍّ تلاشت في الماء. وهو بذلك، ألغى إنسانية المسيح تماماً، فوقع في الهرطقة. ولأنّه لم يكن عالِماً، بل كان متحمّسا فقط، أُقيم مجْمَعُ أفافوس الثاني، حيث أقرَّ أوطافي بخطئه، فبرّأتْهُ الكنيسة المصرية».

يحرّك ثانيةً السكرَ الراكد في أسفل الكوب. يرفعه صوب الضوء وينظر إليه عن قرب، ليتأكّد من ذوبان كلّ ما فيه. يرتشف منه رشفةً، يمسح شفتيه، يضعه على الطاولة كمَنْ يتأهّب للقيام بعمل آخر، ثمّ يرتاح على مقعده. يسلّط الضوء على موقف كنيسة روما، الذي أدّى لاحقاً إلى كلّ الجدل الذي قام بين الكنيستين، والذي كاد ينتهي بتكفير الأقباط في مصر. قال: «إنّ كنيسة روما كانت للأسف متحفزة سياسياً، وهي تصرّفت، منذ البداية، على أساس أنّها أمّ الكنائس جميعاً، لأنّها في العاصمة روما حيث الإمبراطور. قالت إنّ القدّيس بطرس هو سيّد الرسل، لأنّ السيد المسيح قال له: «على هذه الصخرة أبني كنيستي»؛ ذلك أنّ المسيح حين سأل تلامذته: مَن بين الناس يقول إنّي ابن الإنسان؟ ذكر كلّ واحد له شيئاً، ثمّ سألهم وأنتم مَن تقولون؟ فقال له بطرس: «أنت المسيح ابن الله الحيّ»، فقال له المسيح: «أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها».

يرى الأب بسيط أنّ «كلّ الخلاف في التفسير قام على فكرة تلك الصخرة، ذلك لأنّ الكنيسة في روما فسَّرت الأمر على أساس أنّ بطرس هو الصخرة، وهذا ما ناقضته الكنيسة القبطية في مصر، وقالت إنّ السيّد المسيح أراد أن يقول لبطرس إنّه على هذه الصخرة، أيْ على قوله: **أنت المسيح ابن الله الحيّ** يبني كنيسته؛ فكلمة صخرة جاءت من بيترا اليونانية التي تعني الصخرة، لا من بطرس، ولا يمكن في أيّ حال من الأحوال أن تُبنى كلمة الله على الإنسان، وبطرس إنسان. ثمّ قالوا إنّ بطرس كَرَزَ في روما، والحقيقة هي أنّ الذي كَرَزَ هو القدّيس بولس».

هنا، وقع الخلاف الحقيقي مع كنيسة روما. يقول الراهب القبطي، والبسمة ترافق كلامه: «هُم كانوا ينظرون إلى المصريين كفراعنة، وأصحاب أدمغة ناشفة، وذلك لأنّ كرسيّ الإسكندرية كان متمسَّكا بحرفية العقيدة، والحفاظ على الكتاب المقدّس. فكانت المسألة سياسيةً بالدرجة الأولى. وحين عُقد مؤتمر خلقيدونيا اتَّخذوا من أوطافي، على الرغم من اعترافه بخطئه، ذريعةً لاستكمال الهجوم على كنيستنا».

قبطي وقبطي

كانت الكنيسة الإنجيلية في القاهرة خالية من المؤمنين حين وصلتُ إليها، بعد لقائي بالأب بسيط. كانت شبه مهجورة ومناقضة تماماً لحال الكنائس الأرثوذكسية، حيث يتوافد مئات الأشخاص، زرافاتٍ ووحداناً، في هذه الأيّام في أعياد السيدة العذراء. دخلتُ إليها فبدَتْ لي باردةً على الرغم من الطقس الحارّ. كان الأستاذ الجامعي والمسؤول الإعلامي في الكنيسة الإنجيلية، إكرام لمعي، يجلس خلْفَ مكتبه، وكان بضعة موظفين وحارس الكنيسة، من دون صور أو شعارات ولا أيقونات، يبدون كأنّهم حرُّاس المكان. شعرتُ بأنّي أدخلُ إلى مبنىً حكومي، أو إلى إحدى مؤسّسات القطاع العام.

لم يوحِ لي د. لمعي بشيء على علاقةٍ بالكنيسة. كان باللباس المدني، كأيِّ أستاذ جامعي آخر. لكنْ، سرعانَ ما أدركتُ أنّه متعمِّقٌ في مجال مقارنة الأديان، فهو قد تعلّم هذا الاختصاص، والآن يُعلّمه. سألته عن التباينات بين مسيحيّي مصر، على الرغم من الإجماع على أصلهم القبطي، كما كلّ أبناء مصر. قال: «إنّ بين الطوائف الثلاث، أيْ الأرثوذكس والكاثوليك والإنجيليين، تفرُّعات عديدة، وإنّ الكنيسة البروتستانتية بدأت العملَ على صعيد أكثر واقعية، فهي، في بادئ الأمر، أقرَّتْ مثلاً إقامة مستشفى ومدرسة، على أن يكون بينهما كنيسة صغيرة لصلاة الموظفين، أرادت من البداية أن تكون

الخدمة الاجتماعية أساساً لاهوتياً. وإن كان الأنبا شنودة يُعدّ الأب الروحي لكلّ المسيحيين في مصر، فإنّنا لا نؤمن عقائدياً بالكهنوت إطلاقاً، ونعتبر أنّ كلّ المؤمنين قادرون على اللقاء بالله مباشرة، وليس ثمّة حاجة إلى أيّ وسيطٍ بين الله والإنسان. ثمّ إنّنا نرفض أيضاً شفاعةَ القدّيسين، ونؤمن بأنّ الفريضتَيْن الأساسيتين هما المائدة، أي العشاء الربّاني، والمعمودية. هُم مثلاً يقولون إنّ العشاء الربّاني، أيْ الخبز، يتحوّل فعلاً إلى جسد المسيح، والخمر يتحوّل إلى دم المسيح، أمّا نحن، فنرى أنّ هذا مجرّد رمز، وأنّنا حين نتناوله، فإنّما نتذكّر فقط موتَ السيّد المسيح، لأنّ التحوُّلَ يعني ذبيحةً، والذبيحة الفعلية تتطلّب كاهناً، وبالتالي رئيس كهنة، ونحن لا نؤمن بكلّ هذا النظام، لا نؤمن بذبيحة ولا بكهنوت ولا بأيّ شيء آخر من هذا القبيل. وبذلك، نُعدّ خارجين عن تعاليم الكنيسة. أمّا بالنسبة إلينا، فهذا هو الإصلاح الحقيقي».

لكن ماذا عن تاريخ الإنجيليين هنا؟ يشرح لمعي: «إنّ الإنجيليين حين أتوا إلى مصر، كانوا أوّل من ترجم الكتاب المقدّس إلى اللغة العربية. وقد ترجَمَه أحدُ أعضاء الإرساليات الأجنبية، واسمه فاندايك، وعاونه في الترجمة في بيروت مفكّر مسيحيٌّ هو بطرس البستاني. واليوم، كلّ الكنائس، بما فيها الكنيسة الأرثوذكسية، تستخدم هذا الكتاب، والإنجيليون هم أول من فتح مدارس للبنات في مصر، على غرار رمسيس كوليدج، ومدارس الأميركان، وهم أولُ من قدّم الخدمة الاجتماعية للناس».

الأقباط من عبد الناصر إلى مبارك

عرفَتِ العلاقات السياسية بين الكنيسة القبطية والأنظمة التي تعاقبت على حكم مصر عملياتِ كرٍّ وفرٍّ كثيرة. ازدهرت هذه الكنيسة وبقيت مصر دولةً مسيحية لأكثر من أربعة قرون، وإلى ما بعد الفتح العربي لها. سُمح للأقباط بعد الفتح العربي بممارسة شعائرهم بحرّية، شريطةَ أن يدفعوا الجزية، لأنّهم أهل ذمّة، والجزيةُ ضروريةٌ لحمايتهم، ما لم يعتنقوا الإسلام. زادت الدولة العبّاسية من الضرائب عليهم، ولكنّ اللغة القبطية بقيت اللغة الرسمية لمصر، ولم تظهر الكتابات باللغتين العربية والقبطية إلّا بعد منتصف القرن الحادي عشر. لم تبدأ أحوالهم بالتقهقر الفعلي إلّا مع بدايات الألفية الثانية، حينما فُرِضَت عليهم بعضُ القيود المتعلقة ببناء الكنائس وترميمها، والقيود على الشهادة في المحاكم وفي المعاملات اليومية. راح الأقباط يقولون إنّهم يعانون من تمييز في الوظائف، ويُعتَبَرون مواطنين من الدرجة الثانية.

اللافت أنّه في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، لم يكُنْ هناك أيُّ قبطي بين رجال الثورة. يقول الأقباط إنّ عبد الناصر، في بداية حكمه، سعى إلى إرضاء الإخوان المسلمين، فلم ينتبه كثيراً للأقباط؛ ثمّ تعاون مع الاتحاد السوفياتي، ولم تكُنْ مسألةُ الاهتمام بالأديان حاضرةً. ومع أنّ عبد الناصر عيّن بعضَ الوزراء منهم، فإنّ مطالب الأقباط الأساسية لم تُحقَّق. غيْر أنّ أقباط مصر يَكنّون لعبد الناصر احتراماً وحبًّا كبيرَيْن، بسبب حربه ضدّ إسرائيل، التي لا يريدون إقامةَ أيّ علاقة معها، وِفْقَ ما شرح لي كلٌّ مَن التقيتُهم في أواخر عهد حسني مبارك.

بالمقابل، يذكر الأقباط بقليل من الرحمة، الرئيسَ الراحل أنور السادات، ويكيلون له الكثير من النقد والشجب، فيقولون مثلاً، إنّه همَّشهم، وجاهر بالقول إنّي رئيس مسلم لدولة مسلمة، كما وضع الأنبا شنودة في ما يشبه الإقامة الجبرية، خصوصاً حين راح الأب الروحي لمسيحيّي مصر يجاهر برفضه الصلح مع إسرائيل، واعتباره الكيان الصهيوني عدوًّا.

قياساً إلى العهدَيْن السابقين، فإنّ علاقة الأقباط بالرئيس حسني مبارك تُعدّ الأفضل. كان الأقباط، على الدوام، يعيبون على الدولة المصرية عدمَ تلبية مطالبهم، وخضوعَها للضغوط الإسلامية، لجهة بناء الكنائس. إلّا أنّهم يرون عهد مبارك أكثر انفتاحاً وخدمة لهم. روى لي أحدُ مسؤولي الكنيسة أنّه حين وقعت مشكلةٌ لسيدة قبطيةٍ كانت قد اعتنقَت الإسلام، وأرادت العودة إلى دينِها، بعد طلاقها من زوجها

المسلم، لم تتردّد السلطات المصرية في تسليمها إلى الكنيسة. ومع ذلك، فإنّ بعض الأقباط، في أوج عهد مبارك، ظلوا يقولون داخل مصر وخارجها (وخاصّة في الولايات المتحدة، حيث لهم لوبي قويّ هناك) إنّ السلطات المصرية لا تزال تهمّشهم، وتعتبرهم من الدرجة الثانية، وخاصَّة في مجالات الوظائف والوزارات والسفارات وأمن الدولة والجامعات والأحزاب وغيرها.

قال لي الأب عبد المسيح بسيط: «إحنا عايزين منحسّش بأيّ فرق بين مسيحي ومسلم في مصر، ونحن نقول دائماً إنّ حقوق وقوانين الدولة تنطبق على الجميع، فأنا أدفع ضرائب، وأدافع عن بلدي، وأتطوّع في الجيش، مثل أيّ مصري مسلم، كما أنّ هناك نسبة عالية من رجال الأعمال في مصر من المسيحيين وتشغل المسلمين والمسيحيين على السواء، لذلك أريدُ من الدولةِ أنْ تساويني إذاً مع المسلم. يريد الأقباط أن يشعروا بالمساواة مع سائر المصريين. يا أخي، خذ مثلاً الآن، في اختيار الوزراء والسفراء، لا نريد أن نشعر بأي فرق بين قبطي ومسلم، وكذلك بالنسبة إلى رؤساء الجامعة، والتعيين في الجامعة. لا نريد أن نسمع أنّ مسيحياً استُبعِد، لأنّه مسيحي. قد يحدث الأمر مع بعض المسلمين، لكن عادة ما نلاحظ أنّ ثمّة قضايا رفعها مسيحيّون، ولم تؤدِّ إلى أيّ نتيجة. لا بدّ من قوانين واضحة، وخاصَّة لجهة المساواة مثلاً، بين بناء الكنائس والمساجد؛ ذلك لأنّ غياب القوانين يؤدّي إلى بناء كنائس بطرق غير شرعية، الأمر الذي يؤلّب الناس ضدّنا، فيمنعوننا من ذلك».

القيادي الناصري حمدين صباحي.

سألت الأب بسيط عن دور اللوبي القبطي في الغرب، في تشجيع أقباط مصر على النقمة والتمرّد، وفي تشويه بعض صورة مصر أيضاً، كدولة خارقة لحقوق الأقليات، فسارع إلى القول بشيء من الحدّة: «إنّ أقباط الخارج أناس مخْلِصون لمصر أكثر من المسيحيين والمسلمين المقيمين على الأراضي المصرية. والأقباط في الخارج مصدر دعم مادّي يُغني عن أيِّ مساعدة لمصر تأتيها من الخارج، من دولة أجنبية، فهناك مليونا قبطي يعيشون في الخارج، تصوَّر أنْ يُرسِل كلّ واحد إلى قريبه في مصر، مبلغَ ألف دولار، في السنة، فيكون مجموع ما يرسلون مليارَيْ دولار تقريباً. وهم

أيضاً يشترون بيوتهم هنا، وبالتالي فهُم يؤمّنون مصدراً مالياً سنوياً يُقدَّر بالمليارات. أمّا الحديث عن نشاط سياسي فذلك صحيح، وهو نابعٌ أصلاً من أنّ لدى الأقباط مطالبَ بسيطةً لا تستجيب لها الدولة، فيضع المشترعون مثلاً قانوناً لبناء الكنائس، ثمّ يُسحَب هذا الطلب. فليُقرّوا المساواة، وليُشعِروا القبطيَّ بأنّ مطالبَه تؤخذ على محمَل الجدّ. لكنّهم لا يريدون تحقيق أيّ شيء من هذا كلّه، وفي الوقت نفسه يطلبون من أقباط الخارج عدم التحرّك».

مطالب كثيرة يسمعها زائرُ مصر من أقباطها. ولكنْ، في الأعوام القليلة الماضية، صدرتْ ردودٌ كثيرة أيضاً عن نُخَبٍ وكتّاب وسياسيين في مصر، تفنِّد هذه المطالب، وتقول إنّ الأقباطَ صاروا يُغالون في كلّ مطلَبٍ بسيط، لشعورهم بأنّ النظام يمرُّ في مرحلة حسّاسة، وأنّ بإمكانهم الضغطَ عليه، والحصولَ على دعم خارجي. يتناقل السياسيون المصريون واقعةً حقيقيَّة حصلتْ مع الرئيس الراحل أنور السادات، وباتت نكتةً. وذلك أنّ المرشد العامّ السابق للإخوان المسلمين كان يناقش الرئيس الراحل بشأن الأقباط، وسأله: هل تقبل يا سيادة الريس أن يكون رئيس مصر مسيحياً؟ فأجاب السادات: بالطبع لا، ولا أن يكون مسلماً أيضاً، بمعنى أنّه هو الرئيس الوحيد.

الواقعة تثير الضحك اليوم حين يتذكّرها المصريون، إلّا عند الأقباط، فوجوههم تكفهرُّ كلما استذكروا عهد السادات. والدعوات بعدم الترحُّم عليه تسبق توصيفَهم لِما عانوه في عهده. ذلك أنّ الرئيس الراحل كان قد خلعَ زعيمَهم الروحي (والسياسي؟) الأنبا شنودة من منصبه، وحاكَمَه بتهمة إثارة الفتنة. وهم إذ يعبّرون عن ارتياحهم لعهد الرئيس حسني مبارك، لكونه أفضل من عهدَيْ جمال عبد الناصر والسادات، صاروا يسترجعون في أحاديثهم، اليوم، الكثير من محطات الماضي الغابر، بحيث تصِلُ الذكرياتُ إلى بداية الفتح العربي الإسلامي، وذلك ليقولوا إنّهم، في محصّلة الأمر، لم يجْنوا الكثيرَ من جيرانهم العرب والمسلمين، وإنّ أوضاعهم استمرّتْ في التدهور، بعدما كانوا أمَّة قائمة بذاتها.

مطالب المسيحيين الأقباط في مصر واضحة، فإن قابلت القبطيَّ العادي، أو الراهبَ المتعمّق في علوم اللاهوت، أو السياسي المحنّك، فلن تجِدَ فرقاً كبيراً، ولا أسراراً، فهُم جميعاً يُجمِعون على ضرورة المساواة مع المسلمين، ويركّزون خاصَّة على الوظائف وبناء المعابد. أمّا ناقدوهم فيعتبرونهم جاحدين بنِعَمِ الدولة التي حضنتهم، وحمَتْهم، وأبْقَت شعلةَ دينهم مُتَّقِدة.

بين القول ونقيضه، يبرز مفكّرون وكتّاب وإعلاميون ينتقِدون وصولَ الأوضاع إلى هذه المرحلة من التنافس الطائفي، وخاصَّة بين الأقباط وجماعة الإخوان المسلمين، ويقولون إنّ الدولة تستفيد من ذلك، فالطرفان القبطي والإسلامي نجحا، ولو بحدود، في الآونة الأخيرة، في فرض بعض القرارات التي تناقض سيادةَ الدولة؛ ومن ذلك مثلاً تعليقُ فيلم «آلام السيد المسيح» لكاتبه القبطي فايز غالي، بعدما تهافتَ غُلاةُ المسيحيين والمسلمين لمنع تناول الأنبياء في الأفلام والأعمال الفنّية.

كان الأمين العام لرابطة المحامين الإسلاميين ممدوح إسماعيل قد طرح، في مقال له، أسئلة عدّة، من بينها مثلاً: ماذا يريد الأقباط في مصر؟ فهُم، طلبوا كنائسَ وحصلوا عليها بما لا يتلاءم مع عددهم، حيث إنّهم 7 ملايين من أصل 77 مليوناً؛ وسيطروا على الاقتصاد؛ ثمّ صار العُرف في البلاد أن يُعيَّن وزراء لهم في كلّ حكومة؛ فماذا يريدون أكثر من ذلك؟

يجيب الأب مرقص عن مثل هذه الأسئلة بالقول: أولاً، أنا أشكرُه على القول إنّ رجال الأعمال المسيحيين عندهم 40 في المئة من رأس المال، فهذا يعني أنّ المسيحيين يُنفِقونَ على مصر بمسلميها ومسيحييها. أمّا قوله إنّنا أخذنا حقوقنا كاملة، فيكفي أن نذكّر بأنّه لا يوجد، في كلّ مصر، أكثر من ألف كنيسة. ولو كان عددنا 7 ملايين كما يقول، فكلّ كنيسة يجب أن تستوعب 7 آلاف مسيحي، بينما نجد أنّ كلّ كنيسة من كنائسنا لا تستوعب أكثر من مئة شخص. أمّا على صعيد الوظائف والمناصب، فيكفي القول إنّه لا يوجد اليومَ رئيس مجلس مدينة، ولا أمين حزب وطني على مستوى الجمهورية، ولا مدير أمن، ولا أيّ مسؤول مسيحي في منصب عميد كليّة.

وحين يقال للأب مرقص إنّ في الدولة المصرية نوَّابا أقباطاً ووزراء، يبتسم قليلاً، ثمّ يقول: المشكلة أنّ معظم هؤلاء معيّنون تعييناً، الدولة هي التي تختار، وأمين الحزب الوطني لا يرشّح نفسه. في النهاية، يطالب مرقص ببرامج متلفزة للمسيحيين، لكي يفهم المسلم من هو المسيحي فعلاً.

الإخوان والأقباط

على غرار الكثير من مسؤولي الكنيسة في مصر، يلقي الأب مرقص بعض اللوم على الإخوان المسلمين. فبالنسبة له، صحيح أنّ القرار في مصر داخليٌّ مئة في المئة، ولا يتأثر بالخارج، إلّا أنّ الإخوان المسلمين في الداخل قد يكون لهم تأثير، ولا أحد يعرف سياسة الإخوان ومنهجهم. ويضيف الراهب القبطي: جاءني مرةً أحدُ أعضاء مجلسِ الشعب، وهو من الإخوان المسلمين، في شبرا الخيمة. طرحتُ عليه بعض الأسئلة، عن مشاريعهم ومستقبلهم وآرائهم في الدولة، والمسيحيين، وتطبيق الشريعة، والثقافة، والفنّ، والإبداع، والمصارف، والمرأة... فخرج من عندي ولم يعُد.

ولأنّه خرج ولم يعد، ذهبتُ أثناء رحلتي إلى القاهرة، للقاء أحد أقطاب الإخوان المسلمين حالياً في مصر، وهو الدكتور عصام العريان. خلافاً لصورته الغاضبة دائماً عبر وسائل الإعلام، فإنّ الدكتور عصام العريان الذي يتَّخِذ من مكتبه في نقابة الأطبّاء، مقرًّا لاستقبال زوّاره والإعلاميين، يبدو عن قُرْب، رجلاً سلساً ومنفتِحاً، لا تفارق الابتسامة وجهَه، لا بل ويرفِقُها ببعض النكات أيضاً، كما هي عادةُ المصريّين جميعاً.

يسوّي العريان نظّارته، ينحني قليلاً نحوَ آلة التسجيل، ربّما لأنّ الآلات التي كان يعرفها قبل قضائه سنوات طويلة في السجن لم تكن بالغة الحساسية، ويقول: «أعتقد أنّ حالةَ القلق مفهومةٌ، ولكنَ اتّهامنا بأنّنا سببُ مشاكل الأقباط، غير مفهوم؛ ذلك لأنّ الدولةَ هي المسؤولة، وليس الإخوان، فهناك نخبةٌ تسيطر على الثروة في مصر، وتريد تهميش الجميع. ونحن علاقتنا بالمسيحيين المصريين تاريخية، ومنذ 80 سنة لم تَشُبْها شائبةٌ أو صدام أو خلاف. وغالباً ما نقول إنّ مصلحتنا المشتركة تكمُنُ في بناء نهضة على أسسٍ إسلامية تحفظ للأقباط حقوقهم في المساواة، حقوقاً وواجبات».

روى لي العريان، من خلف نظّارته وخبرته الطويلة في السياسة المحلية والشؤون الإسلامية، أنّه «كان لدى حسن البنّا (مؤسِّس جماعة الإخوان المسلمين) مستشاران من المسيحيين، في لجنته السياسية، هما وهيب دوس ولويس أخنوخ. وفي وقتنا الراهن، فإنّ أحد أكبر مستشاري الأخ مهدي عاكف مرشد الإخوان، مسيحيٌّ ينتمي إلى الكنيسة الإنجيلية، وهو رفيق حبيب. ونحن رشّحنا، على قوائمنا الانتخابية في عام 1987، جمال عبد الملك، وهو مسيحي أرثوذكسي، لا بل هو يساريٌّ أيضاً، ومن أبناء دائرة مشهورة في التعصّب، هي أسيوط الشمالية. وقد أصدر المرشد العام، في حينه، دعوةً لمناصرته، وأصبح بالتالي أوّل نائب مسيحي يصل إلى البرلمان بأصوات الشعب».

شيخ وقس في مصر.

الشواهد التاريخية الإيجابية كثيرة، على علاقة الإخوان المسلمين بالأقباط، وفق ما يروي عصام العريان. ولكن ماذا عن الحاضر؟ لماذا يقلق الأقباط من الإخوان، ومن مراعاة السلطة للإخوان، في تلبيتها أو عدم تلبيتها بعض مطالب الأقباط؟

يبتسم العريان قليلاً، يجدّد اعتذارَه من الصحافي الأجنبي الجالس أمام مكتبه ينتظرُ انتهاءَ حوارنا، ثمّ يقترب مجدَّدا من آلة التسجيل، ويقول: «إنّ سبب صعوبة العلاقة حالياً، هو التوتّر الشديد، واستخدام النظام المصري فزّاعة الإخوان، ليس للتهويل على المسيحيّين وحدَهم، بل للتهويل أيضاً على جميع القوى الأخرى. فنحن تعرّضنا للقمع أكثر من الأقباط بعشرات المرات، وفي كلّ العهود، ونحن الذين نُعتقَل ونُسجَن، كلّما شاء نظام في مصر أن يفعل ذلك؛ ولو كانت الأنظمة تراعينا لما تعرّضنا لما تعرفون. وهذا بالتالي يُسقِط دائماً الفكرة الرائجة عند بعض إخواننا المسيحيين من أنّ السلطات تتّخذ هذا الموقف أو ذاك مراعاة لنا».

يقول الأقباط في مصر إنّهم طرحوا أسئلةً محدّدة على جماعة الإخوان المسلمين، تتعلّق بالشريعة، ومستقبل المسيحيين، ومفهوم الدولة والحرّيات، وإنّ الإخوان لم يُجيبوا عن تلك الأسئلة. بدوري، أنقل هذه الأسئلة إلى الدكتور العريان، فيُجيبُ مصحِّحا: «أجَبْنا عن تلك الأسئلة كلّها، وطرَحْنا كلّ الأمور على بساط البحث، وتحاورنا مع مسيحيين علمانيين، منذ سنوات طويلة، ولكنّنا في كلّ مرّة كنّا نصطدم بمشكلة مفادُها أنّ الكنيسة المسيحية الأرثوذكسية تسيطر على القرار المسيحي في مصر، وهي أقفلت الحوار، لأنّها تراهن على أنّ الدولة ستراعي مصالحها. نحن في الواقع نعتبر أنّ الخطرَ، اليومَ، يكمن في أنّ القرار المسيحي بات في يد الكنيسة التي ترى أنّ مصالحها هي مع الدولة، وفي أنّ الدولة لا تريد حواراً بين الكنيسة والإخوان. ومع ذلك، فإنّنا نكرّر القولَ بأنّنا منفتحون على الجميع، ونرحّب بالجميع، ونطرح كلّ القضايا. ولكنّنا نعرف أنّ ثمّة أسئلة تُطرَح في سياق جدلٍ عقيم، ومن تلك الأسئلة

مثلاَ: هل تريدون رئيساَ مسيحياَ؟ هل تفتحون الأزهر للمسيحيين؟ نحن نقول إنّ هذه قضايا تعقّد الأجواء، ولا تمهّد للتهدئة أو تنقِية الأجواء، بل تقفز بنا إلى المجهول، فالمواطن المصري المسيحي الطبيعي والطامح إلى دور سياسي، لا يطمح إلى رئاسة دولة غالبيتها من المسلمين، وهذه الغالبية تريد أن تحكمها الشريعة، فكيف يمكن لرئيس غير مسلم أن يكون مسؤولاً عن دولة تريد تطبيق الشريعة؟

لعلّ العريان يدرك، كما الكثير من الأقباط، أنّ عمق المشكلة في مصر سياسي بقدر ما هو ديني، فيختَتِمُ حديثه بتوصيف الواقع في عهد مبارك، على النحو التالي: «إنّ المشكلة لا تكمن في الإخوان المسلمين، بل في سيادة الفكرة الدكتاتورية الاستبدادية، وذلك لأنّ النظام لا يريد حلاًّ، ويعمل على ترويج فكرة أنّنا نحن المشكلة، وبعض إخواننا المسيحيين يصدّقون ذلك، حتى حين يرون أنّنا في طريقنا إلى السجون».

وبالفعل، ما إن أنهيتُ الاستماع إلى حديث العريان مساءً، وعُدْتُ إلى الفندق المُطِلّ على نهر النيل، حيث تعْبُر مراكب السيّاح، وتعلو أصوات الموسيقى والطرب وشَدْو أمّ كلثوم وطقطقات الأغاني الراقصة الحديثة لتغزو غرفتي وشرفتَها، حتى صحَوْتُ في الصباح على خبر اعتقال القيادي الإسلامي. لا أدري إن كان لقاؤنا هو سبب الاعتقال، لكن يبدو أنّ الرجل معتادٌ على الاعتقالات الدورية، وهو غالباً ما يضع حوائجه إلى جانبه، في مكتبه، منتظراً رجال الأمن، كي يقتادوه إلى السجن.

ربّما من المغالاة الحديث عن طائفية فعلية في مصر، فالمشكلة هي في كوْنِ الأقباط المسيحيين يعتبرون أنفسهم مغبونين، ولهم حقوقٌ لم يحصلوا عليها كاملةً، ويطالبون بمساواتهم بالمسلمين، فيما المسلمون يقولون إنّ عدد المسيحيين وطبيعة المجتمع الإسلامي، لا تسمح بالمساواة بين الأقباط والمسلمين في مصر. في الواقع، يصعبُ تفسيرُ الكثير من ظواهر الأمور، من دون العودة إلى بعض الحساسيات المصرية، وخاصّة في الوقت الراهن، فهل يُمكن للنظام المصري، أنْ يسمحَ بوصولِ قبطي مثلاً إلى رئاسة الجمهورية؟ هل سيَقبل المسلمون أن يكون على رأس دولتهم المسلمة رجلٌ مسيحي؟ ربّما لا، وعلى الأرجح لا، ولكن ما الذي يَحولُ دون تعزيز الحضور المسيحي في الدولة؟

لا شك في أنّ للدين دوراً، وللسياسة أدواراً، لكنّ الأهمّ بالنسبة إلى كلّ مصري، مسلماً كان أو قبطياً، هو الاقتصاد، ووضعه المعيشي، وتحصيل قوت يومه. الرئيس وحاشيتُه وأولادُه والمقرّبون منه يزدادون غنىً، فيما الكثير من المصريين يغرقون في الفقر، أو يعيشون في المقابر.

حين كنت أزور بعضَ الكنائس القبطية في القاهرة، رأيتُ راهباً يُمسِك بذراع سيّدة، ويقودها خلفه بغية طردها، وذلك لأنّها كانت تسرق أو تبيع ملبَناً مزوَّراً (عليه طابع كنسي مزوّر). سرقتْه بغيةِ الحصول علي قوتِ يومها. ولمّا خرجْتُ من الكنيسة، وجدْتُ عند أولِ مفترقِ طرقٍ امرأةً مسلمةً تخترع طريقةً جديدة للتسوّل؛ ففي الفقر لا مجال للحديث عن طائفية، ويبقى الهمُّ الأولُ للمصريين هو البحث عن حلول اقتصادية، حتى لو ظهرت على السطح، بين الفَيْنة والفَيْنة، مشكلةٌ قبطية أو إخوانية...

(ملاحظة: عند إنهائي إعداد هذا الكتاب، كانت مصر قد أقرّتْ في دستور ما بعد ثورتها التي أطاحت مبارك، عدداً من البنود المهمّة في مجالَيْ مشاركة الأقباط في السلطة، وممارسة شعائرهم).

بريطانيا: الله أكبر
على وقع ساعة بيغ بن

المشهد في برمنغهام البريطانية يليق بأفغانستان في أوْج عهدِ طالبان: امرأةٌ منقَّبة من الرأس حتى أخمص القدمين (وربما أكثر) تنظر بعينيها اللامعتين، مَن تحت النقاب، تُسرِع الخطى، وتنتقل إلى الرصيف الآخر، مطأطئةَ الرأس. امرأة أخرى تشتري لحوماً من «المجزرة الحلال»، تُشيحُ بنظرها عن الرجال الداخلين إلى المكان نفسه، تدفعُ الثمنَ بسرعة، تدفع الباب بعجَلة، وتخرج إلى الشارع. قد يكون للبريطاني العادي الحقّ في أن يقلق.

إنّها برمنغهام، أيّها القارئ العزيز. فيها أكبر تجمّع إسلامي في أوروبا. وفيها ذهبتُ للقاء الدكتور هاني البنّي الذي انتقل من الطبّ إلى العمل الخيري الإسلامي، وبات يتربّع على واحدة من أكبرِ المؤسسات الإسلامية العاملة عبْر بريطانيا: الإغاثة الإسلامية. لم تمنع ممارستُه الإسلامية ملكة بريطانيا من تكريمِه؛ فقد منحتْه وساماً، وزارَهُ الأمير تشارلز، قبل أن تقْدِمَ الملكة نفسُها على تكريم صاحب كتاب «آيات شيطانية»، سلمان رشدي، بوسام أيضاً. إنّها سياسة التوازن الذكيّة، وربّما الخبيثة، التي نجحت بريطانيا في إقامتها بين الطوائف.

كان رئيس الوزراء البريطاني، طوني بلير، قد قال قُبَيْل مغادرته السلطة، إنّ لندن ستزيد مساعداتها لتأهيل أئمّةٍ عصريّين. وقال أيضاً إنّ التأهيل بات مسألةً استراتيجيةً بُغيةَ الوصول إلى إسلام عصري. هل في الأمر بحثٌ عن مجهول ومستحيل؟ أم إنّ بريطانيا، تماماً كمسلميها، حائرةٌ في كيفية نسج علاقة جديدة؟

هذا هو السؤال الذي دفعني إلى المزيد من التعرّف إلى مسلمي بريطانيا، وإلى علاقة الدولة بهم. قادني إلى ذلك أيضاً قلقٌ من أن نشهدَ، في وقتٍ قريب، موجاتٍ من الإرهاب تجتاح شرقنا، ويكون بين مخطِّطيها ومنفذيها شبّان وُلِدوا في أوروبا، وترعرعوا بين مدارسها وجامعاتها، ثمّ اعتنقوا أفكارَ التطرُّفِ، وذهبوا إلى شرقنا يقتلون ويفجّرون...

الرحلة من فرنسا إلى بلاد شيكسبير، ليست صعبة. ثمّة ثلاث وسائط نقْلٍ يمكن استخدامها: الطائرة أو القطار السريع (أوروستار) أو السيّارة المحمولة على القطار العادي... وهكذا فإنّ المسافر إلى لندن يَعبُر المسافةَ جوًّا أو تحت بحر المانش؛ فقبل سنواتٍ بُني النفق تحت البحر، ويتطلب اجتيازُه حوالى عشرين دقيقة، أمّا كامل المسافة فيستغرق اجتيازها بالقطار حوالى ساعتين و45 دقيقة، وبالسيّارة ما يقارب 5 ساعات.

السيّارة مريحة لمن سيبقى بضعة أيّام، ذلك لأنّ أسعارَ سيّارات الأجرة (التاكسي) في بريطانيا هي الأغلى في العالم، حتى وإنْ كان مَن يصِلُ إلى لندن ويريد أن يقود سيَّارة فيها، قد يجد بعض الصعوبة في القيادة، لأن البريطانيين يقودون سيّاراتهم على يسار الطريق، بينما مِقوَد السيّارة إلى اليمين. والسيّارة تبقى أفضل من القطار لِمَن يريد التمتع بروعة الطبيعة، في المسافة البرّية الفاصلة بين بريطانيا وفرنسا. يكحّل ناظرَيْه بالمروج الخضراء، والسهول المنبسطة، والبيوت القرميدية السطوح والمختبئة بين الأشجار الوارفة. ويمكنه أن يتوقف، بين وقت وآخر، ليتذوَّق المأكولات الريفية اللذيذة والطبيعية، مباشرةً من عند أصحابها في مزارعهم.

وليسَ ما ذكرتُه سوى ذرائع جاذبة لصرْفِ النظر عن استخدام الطائرة والقطار، وذلك لأنّ مطار هيثْرو كان قبل فترة وجيزة قد تعرّض لاقتحام نفّذه إرهابيٌّ بسيّارته، وهاجمَ إرهابيّون محطاتِ القطار أكثر من مرّة، وذلك حين صارت لندن هدفاً لمتطرّفين إسلاميين اعترفوا بانتمائهم إلى تنظيم القاعدة.

وفي أعقابِ كلّ هجوم، كان المهاجمون يقدّمون التبرير نفسه تقريباً: الاعتراض بالعنف والدم والنار، على السياسة الخارجية التي قادها رئيس الوزراء البريطاني السابق طوني بلير، والتي كرَّسَت، في عهده، تبعيَّة بريطانيا للولايات المتحدة.

لكنَّ المستغرَبَ في محاولات التفجير الأخيرة، التي اكتُشِفت قبل حصولها، أنّها تزامنت مع بداية عهد رئيس الوزراء الجديد، غوردن براون الذي خلَفَ طوني بلير. وما هو أكثر إثارةً للاستغراب، أنّ المعتقلين هذه المرّة، هم في معظمهم أطبّاء عرب، وأعمارهم تقلّ عن 27 عاماً.

حين وصلتُ إلى لندن كانت صورةُ الإسلام والمسلمين قد ساءتْ جداً في بريطانيا، حتى إنّ الاعتداءات العنصرية حيال بعضهم باتت لا تحرّك الكثير من المشاعر الساكنة. يُحكى عن مئات الاعتداءات منذ 6 سنوات. يُقال إنّ كلَّ مسلم وعربي صار مثيراً للشبهات، حتى يثبتَ العكس. ثمّة اختلافٌ يبلغ حدَّ التناقض بين صورة بريطانيا الحاضنة لكلّ الحركات الإسلامية، بما فيها تلك الموسومة بالتطرّف، لا بل بالإرهاب، وبين صورة بريطانيا المستمرّة في إجراءاتها الاحترازية ضدّ تحرّكات الإسلاميين.

منذ ريعان شبابي كنت أحلم بالدراسة في إحدى الجامعات الغربية الكبيرة. فكّرت بجورج تاون والسوربون وكامبريدج، لكنَّ حالي قادتني، لأسباب كثيرة، إلى السوروبون الفرنسية، ولستُ نادماً على أيّ حال. ومع ذلك، فأنا لا أدري سببَ رغبتي في الذهاب إلى كامبريدج. ربّما كان للاسم وقعٌ سحريٌّ عليّ، أو لعلّ ما كان يسحرني هو تلك الصور التي كنت أراها في الكتب، وتُظهِرُ هندستها العمرانية، والنهر القريب منها، كما كنت أراها ساحة جذابة في بعض أفلام المغامرات.

أمّا الآن، فسبب زيارتي للجامعة البريطانية العريقة يتعلّق بالإرهاب. هنا، في هذه المدينة الطلابية العريقة، تُعقَد أهم الندوات، وتوضع أدقّ الدراسات حول تمويل الإرهاب. على مدارج هذا الصرح الأكاديمي، قال طوني بلير، قُبيل مغادرته السلطة، إنّه يريد تغيير المناهج التعليمية الإسلامية في الجامعات، كي تتناسب مع واقع البلاد. هذا الاقتراح كان قد اقتبسه أصلاً عن الكاتب والمثقف عطا الله صديقي.

كلّ شيء في هذه المدينة ذات الطبيعة الوادعة والثقافة الهائلة، يوحي بالفرح والعلم. شبّان وشابّات في مقتبل العمر يسرعون الخطى للدخول من الأبواب الرئيسية للصروح التعليمية المنتشرة في كل مكان. أساتذةٌ يحملون الملفّات تحت الإبط، ومبانٍ تنضَحُ بالتاريخ والعلم. يكفي أن تسير قليلاً بين المباني العتيقة، ثمّ تنحرفَ قليلاً إلى اليسار، وتجتازَ مسافة مئة متر، حتى تجِدَ نفسكَ فوق جسر مقوَّسٍ على شكل قنطرة، فوقَ النهر. في النهر زوارق تنقلُ السيّاح نهاراً، وعشّاق الليلِ من الطلبة، في الليالي المقْمِرة. ولا بأس إن غاب القمر.

بين كامبريدج وبرمنغهام تختلف الصورة تماماً، فمن مدينة جامعية تبعثُ على الفرح والحيويّة والشباب والعلم والثقافة، إلى أحياء تجارية ومجمِّعات سكنية متجاورة حتى التلاصق، بل حتى الاختناق، في بعض الأحياء، ووجوه موحية بالالتزام الديني وبعض التشدّد. ومن مدينة يغلب على سكّانها – الطلاب، الشَّعرُ الأشقر اللون، والوجوه البيضاء، إلى مدينة تفتح ذراعيها لِذَوي البشرة الدكناء والسمراء، فهنا يكثر الهنود والباكستانيون والصوماليون والعرب والأفارقة.

كان الدكتور هاني البُنّي المقيم في بريطانيا منذ أكثر من ربع قرن، يقود سيّارته بين بيوت برمنغهام، ويشرح لي أنّ تَوافدَ الصوماليين بكثرة قد حصل منذ سنوات قليلة، وربّما بلَغَ عددُ الوافدين الجدُد أكثر من 5 آلاف عائلة.

لا تزال بريطانيا ملاذاً للكثير من الهاربين من جحيم الموت، أو الفقر، أو الملاحقة، في بلادهم. المحالُّ التجارية هنا إسلامية، أو عربية الأسماء. المساجد منتشرةٌ على نحوٍ لافت، بعضها عبارة عن

مجرّد مبنىً عاديٍّ، وبعضُها الآخر تَعلوهُ مئذنة. توحي المدينة بأنّ كلّ ما فيها مسلمٌ، وأنّ أهلها البريطانيين قد هجروها...

يقول البنّي الذي تُرافِقِ ابتسامتُه معظمَ كلامه: إنّ العمل الخيري جزءٌ من رسالتي كمسلم، وديني يكتمل بعمل الخير، وعملُ الخير أصبح فريضة. قُلنا للدول الغربية التي سعت للتضييق على المنظمات الخيرية الإسلامية، إنّها ترتكبُ خطأً فادحاً، وذلك لأنّ الزكاةَ فريضةٌ دينية، ولأنّ أحداً لن يستطيع أن يمنع مسلماً من تأدية هذه الفريض. وقلنا لتلك الدول إنّها إذا ما ضيَّقتْ على المسلمين، فإنّ الأموال سوف تنتقل سرًّا.

لا يعرف البُنّي سببَ الهلع الذي أصاب بعض الأثرياء، أو المتبرّعين، أو الدول الإسلامية، حيال العمل الخيري الإسلامي. يَروي أنّه كان عائداً مرَّةً، من جنوب أفريقيا والتقى محسناً سابقاً كان غالباً ما يتبرّع للمنظمات الخيرية الإسلامية، فبادره بالقول: كنت أتبرّع لكم، لكن، الآن أصبحت منظماتكم إرهابية. يضحك البُنّي، ويتابع بصوته الهادئ: شرحت له الأمرَ، وقلتُ له: إنّ الأمير تشارلز قد زار مقرّنا، والملكة منحَتْنا وساماً.

بريطانيا التي أزورُها في هذه الأوقات الصعبة بعد حرب الخليج، وبعد فترة على التفجيرات الأخيرة، تبدو خلافاً لِما كنتُ أنتظره وأتوقّعه، مهتمَّة بالعمل الخيري الإسلامي. صحيح أنّ الأجهزة الأمنية حقَّقت، على مدى السنوات القليلة الماضية، في معظم السجلّات، إلّا أنّ السلطات البريطانية لم تَمنع أعمال الخير، لا بل إنّها منحت الإغاثة الاسلامية رخصةً وإعفاءً ضريبياً، حتى إنّها طلبت من البنّي نفسه، أن يقدّم تقريراً مفصَّلا عن العمل الإنساني في أفغانستان، أمام البرلمان البريطاني، في عام 2001.

يتوجّه البنّي إلى الأنظمة العربية التي تخشى العملَ الخيري، أو التي تسعى إلى إعاقته، بُغية إرضاء الأميركيين، فيقول: «لا بدّ من أن تجعلوا العمل الخيري المحليَّ جُزءاً من المنظومة الفاعلة لتنمية المجتمعات، وأن تجعلوا العمل الخيري الدولي جزءاً من المساعي لتحسين صورة الإسلام والمسلمين ورفع الظلم والجوع والفقر والأمراض عن المحتاجين في العالم».

العمل الخيري الإسلامي مسموح في بريطانيا، والسلطات البريطانية شريكة فيه، شرط الشفافية المطلقة، لجهة الكشف عن مصادر التمويل، ومآل المساعدات، ومراقبة الحركة الخيرية، من المنشأ حتى المصبّ. ذهبتُ إلى مصنع إسلامي كبير، في برمنغهام، أقامتْهُ الإغاثة الإسلامية، لفرز الملابس والأقمشة والأحذية، بغية إرسالها إلى الدول الأفريقية المحتاجة، حيث تُباعُ في أسواق الألبسة المستعمَلة. هذه فكرة قديمة تهدف إلى تغطية النفقات الكبيرة التي تُدفَع لجمْع المساعدات وإرسالها. قال لي الشاب الإريتري المُشْرِف على المصنع: في معظم الأحيان، نحصل علىَ تبرّعات كثيرة بالملابس، هنا في بريطانيا، وهي تأتي في معظمها من المسلمين، وحين تنقص الكمّيات فإنّنا نشتريها من منظمات أخرى. وقد حققنا في الأعوام القليلة الماضية أرباحاً كثيرة وُظّفت في مجالات الإغاثة.

تقطع السيّارة مسافات طويلة بين المروج الخضراء في بريطانيا. وتوحي بلاد شيكسبير بأنّ محاصيلَها الزراعية تكفي لسدِّ رمقِ الكثيرين من جِياع العالم. يقول أحمد، أحدُ المرافقين، وهو من مسلمي بريطانيا: «انظرْ إلى هذه المساحات الشاسعة، أليس من المفيد الإتيان ببعض سكّان أفريقيا بغية تقاسم الثروة العالمية؟». يشرح لي أنّه كان شيوعياً، وأنّه التزمَ الإسلام، حين تعرَّف، في السجن، إلى أحد الإخوة الذين كان الله قد هداهم قَبْلي. ويقول إنّ بين الإسلام والاشتراكية قواسمَ مشتركةً عدّة، بينها تقاسُمُ الثروة. لكنّه يسارع إلى تصحيح ما قاله، فيُضيف إنّه كان يمزح حين اقترح الإتيانَ بالأفارقة، إذ من الأفضل، بطبيعة الحال، أن تجري التنميةُ في بلاد الفقراء، بحيث يستطيعون العيش على أرضهم، ويخفّفون عن أنفسهم عناء الرفض والعنصرية التي باتت تعترض المسلمين في أوروبا والولايات المتحدة.

كثيرٌ من المسلمين في بريطانيا يتحدّثون عن أعمال عنصرية، لكنّ مَنْ يزور المدنَ ذات الغالبية الإسلامية، يشعر بأنّ التسامح لا يزال قائماً، ويتذكّر أنّ العنصرية في بلاد العرب ضدّ الإسلاميين، قد تكون أكثر حضوراً منها في بلاد شيكسبير. من غير المستغرب أن يجِد زائرُ لندن، أو المدن البريطانية الأخرى، الكثيرَ من الموظفين الأجانب، في مواقع أمنية وإدارية حسّاسة. وهذا أمرٌ ينذُرُ وجودُه في الدول الأوروبية الأخرى.

وصلْتُ الآن إلى ويمبلي. رُحْتُ أبحثُ عبثاً عن منزل داوود عبد الله، فللرجل قصّةٌ قائمة بذاتها؛ هو من مواليد غرينادا في أميركا الجنوبية، وكان اسمه دافيد، وكان شقيقه في الجيش الأميركي. غادر بلاده وهو صغير السن سعْياً وراء العِلم. بعد فترةٍ، عَلِمَ بمقتل شقيقه على أيدي الميليشيات المحلّيّة، بعدما كان هو الآخر قد اعتنق الإسلام، وغادر الجيش الأميركي وعاد إلى بلاده. قُتِل عشيَّةَ الاجتياح الأميركي للجزيرة التي بنى الزعيم الكوبي فيدل كاسترو مطارَها الدولي، فجاءها الرئيسُ الأميركي رونالد ريغن، عام 1983، غازياً وافتتح المطار بدلاً من عدوّه الكوبي.

من غرينادا إلى السودان ثمّ السعودية، كانت رحلة داوود عبد الله الذي تعلّم العربية، على نفَقَة محسنٍ سعودي. وكان قد تعرّف إلى سفيرٍ ليبي، في أفريقيا، فساعده أيضاً. لكنَّ السفير نفسَه قُتِل في معركةِ العزيزية في ليبيا، حين قامت حركة تمرّد ضدّ العقيد معمّر القذافي. واليوم، داوود عبد الله هو نائب الأمين العام للمجلس الإسلامي في بريطانيا. يقوم بأنشطة عدّة، وتتُّهمه بعض الأجهزة البريطانية بالتشدّد، حين يرفع الصوتَ عالياً شاجباً بعضَ العنصرية التي يتعرَّض لها المسلمون، ولا سيّما بعد الاعتداءات على الولايات المتحدة. من تلك الأنشطة مثلاً الذهاب إلى المدارس، والإتيان بمفكّرين ومثقفين مسلمين لتقديم صورة أفضل عن الإسلام للطلّاب.

يؤكّد عبد الله أنّ الإسلاموفوبيا (الخوف من الإسلام) قد ازدادت في السنوات الأخيرة. ويقول إنّ «المسلمين قدّموا الكثير للبلد المضيف، الذي فيه وُلِدَ نصفُهم؛ فمثلاً، نحن ندفع 50 مليون دولار سنوياً للدولة البريطانية، وهو مبلغ كبير إذا ما قورِن بنسبةِ عدَدِنا التي لا تتعدّى 3 في المئة. وبفضْلِ أصوات الدول الإسلامية، استطاعت بريطانيا الحصولَ على استضافة الأولمبياد. ثمّ إنّ قيمة التجارة الإسلامية التي تشارك فيها بريطانيا، كبيرةٌ جداً، ولا سيّما أنّ لندن هي العاصمة الغربية شبه الوحيدة التي تسمح بالتعامل بالنظام المصرفي الإسلامي. وعندنا هنا أكثر من 25 ألف طبيب، إضافةً إلى القضاة والوظائف الأخرى».

كان عبد الله يعمل باحثاً في مركز العودة الفلسطيني، الذي قدَّم دراساتٍ، وألَّفَ كتباً قيِّمة في قانون العودة، ووَعْدِ بلفور. وهو يؤكّد أنّ السياسة الخارجية لطوني بلير، أساءت كثيراً للعلاقة البريطانية مع المسلمين، لكنَّ الرجلَ قام بخطوات لا بأس بها حيال المسلمين أنفسهم، على الصعيد البريطاني الداخلي.

مسلمو بريطانيا.. التاريخ إنْ حكى

تقول بعض الدراسات البريطانية إنّ المسلمين القادمين من الهند حقّقوا النجاح الأكبر بين نظرائهم القادمين من دول إسلامية أخرى. فمثلاً، يعاني بنغاليون كُثُر من البطالة. تُشير الدراسات نفسُها إلى أنّ التحوّل الحقيقي في الفكر الإسلامي البريطاني نحو التشدّد، بدأ بعد نشر الكاتب البريطاني سلمان رشدي، مؤلَّفه «آيات شيطانية» عام 1988. وتشير أيضاً إلى أنّ مسألة الإسلام لم تكُنْ، قبل ذلك التاريخ، مُدرَجةً أصلاً في المناقشات العامّة.

معلومٌ أنّ مسألة الدين لا تزال تَطرَح مشكلةً في الإحصاءات البريطانية؛ فمثلاً تمتنعُ اللجنةُ الرسمية للمساواة، التي تأسّست عام 1970، عن تقديم أيّ تحليل أو دراسة على أساس الدين؛ الأمرُ الذي أثار مشكلاتٍ عدّة بين الحكومة والجاليات المسلمة. كان المحافظون هم الذين بادروا، قبل حوالى عشر

سنوات، إلى استشارة ممثّلي الطوائف. ثمّ تَبِعَهم العمّاليون، حيث باشروا المشاورات بين وزارتَيْ الداخلية والتربية من جهة أولى، والمنظمات الإسلامية من جهة ثانية، على مستوى البلديات، في عدد من المدن الكبيرة، على غرار برمنغهام ومانشستر وليسستر.

تأسّس اتّحاد المنظمات الإسلامية عام 1972، لكنّه بقي بلا تأثير يُذكَر، ما جعل منظماتٍ أخرى تسرق منه الضوء، ولا سيّما بعد قضيّة رشدي؛ من بين تلك المنظمات مجلس مسلمي بريطانيا. من الصعب الإحاطةُ بكلّ جوانب الإسلام في بريطانيا؛ فثمَّة تاريخٌ طويل من العلاقات بين المهاجرين الذين قَدِموا في منتصف القرن الماضي، بحثاً عن عمل، وبين الدولة التي بعد أكثر من 50 عاماً اكتشفت أنّ الجاليات المسلمة باتت قضيَّة بحاجةٍ إلى دراسةٍ أكثرَ عمقاً وعقلانيةً، وأقلَّ انفعالاً عاطفياً.

تعود بنا السيّارة نحو الحدود الفرنسية. تقترب فتاةٌ شرطيةٌ شقراءُ الشعر، جميلة المحيّا، تبتسم وتُلقي التحيَّة، ثمّ تُلقي قطعةً من قماش على السيّارة، تمسح أحدَ جوانبها، تدخل إلى أحد المكاتب الحدودية، ثمّ تتمنّى لنا رحلة موفّقة. صار الكشف عن المتفجّرات أكثر دقّة، أمّا الكشفُ عن الأسباب الحقيقية لتعقيدات العلاقة بين المسلمين والدول الأوروبيّة المضيفة، فيحتاج إلى وقت طويل.

إسطنبول عروس شرقيّة
والعيون ملوّنة

ثمّة مدنٌ تبعث البهجة في النفس، بمجرّد الدخول إليها. من هذه المدن: إسطنبول، مدينة جميلة وناعمة تشبه إلى حدٍّ بعيد الأطفال الذين يولَدون من زواج رجل مشرقي أسمر بامرأة شقراء زرقاء العينين.

إسطنبول مدينةٌ لا تخترع التاريخ، ولا تستنبط حضارة. توحي بأنّها كانت دائماً والتاريخَ صنوَيْن. تدفعُ زائرَها إلى طرح السؤال عن سبب تهافتِ بعض قادتها على الدخول إلى الاتّحاد الأوروبي، ما دام فيها من جمال الطبيعَة، وسحر البوسفور، والتقاء قارَّتيْ آسيا وأوروبا، وتلاقح حضارات عثمانية وبيزنطية وشرقية وغربية، ما يمكن أن يُبقيها قِبلةَ الأوروبيين، لا العكس.

الرسالة تُقرأ من عنوانها. اللحظات الأولى للدخول إلى المدينة، تدلّ على ما يليها. معاملات جمركية سريعة مقرونة بابتسامة رجل الجمارك. تفتيشٌ ذكيّ وسريع، من دون حاجة إلى طرح تلك الأسئلة الغبيّة التي غالباً ما تواجه الزائر في بعض مطارات العرب. سيّارات أجرة صفراء نظيفة، مع عدّاد يجعل الاحتيال المعهود لسائقي التاكسي في العالم مستحيلاً. ثمّ تتوالى الصور المعبّرة عن تلاقح الحضارات والعادات والتقاليد: إعلانٌ ضخمٌ لسلعة تجارية، فيه امرأة شبه عارية، ثمّ فتيات بالشورت يمارسن هواية الركض عند الضفّة اليسرى للبوسفور، فأشجارٌ وارفة، وطبيعة خضراء غنّاء تغزو العيون من دون استئذان، فامرأةٌ مبَرْقَعة بالأسود من الرأس حتى أخمص القدمين... مرحباً بكم في إسطنبول.

شعار الترحيب الذي يتصدّر مدخلَ المدينة العريقة، يلي صورةً قديمة لمؤسِّس تركيا الحديثة والعلمانية، كمال أتاتورك. أمّا صوَرُ الزعيم الإسلامي الجديد في تركيا، رجب طيّب أردوغان، فهي شبه غائبة، وكأنّما البلاد التي اهتزّت، قبْل أيّامٍ قليلة، على وقع الفوز الساحق لأردوغان وحزبه «العدالة والتنمية»، في الانتخابات التشريعية، نظرَتْ إلى الأمر وكأنّه مجرّد حدثٍ عابرٍ كالأحداث الكثيرة التي مرّت بها وخرجت منها دائماً معزِّزةً دورَ الجيش. ولكنْ، ربّما هذه هي المرّة الأولى التي يجد فيها الجيش أن لا مفرَّ له من القبول بإرادة الشارع والتسليم بالنتيجة. وثمّة من يتحدّث عن تسوياتٍ ضمنية كثيرة حصلت مع الداهية أردوغان.

يتذكّر زائرُ إسطنبول كيف أنَّ صوَرَ المرشحين الميامين في الدول العربية غالباً ما تملأ الجدران تاركةً خلفَها أوساخاً تقارع أوساخَ الفساد، التي تُرافق عهدَ النائب أو المسؤول الذي ألْهَبَ ذاتَ يومٍ مشاعرَ الجماهير، قبل أنْ يُلهب غضبَهم في ما بعد.

الرسالة تُقرأ من عنوانها؛ فإسطنبول التي كان فيها رجب طيب أردوغان ذاتَ يوم بائع الكعك بالسمسم، ثمّ لاعبَ كرة قدم محترفاً، فرئيس بلديّتها، حفِظت الودَّ للرجل الذي بات مالئَ تُركيا وشاغلَ ناسِها. صورٌ كثيرة جذبت انتباهي، وبعثت فيَّ مشاعرَ السعادة، في العاصمة القديمة للدولة العثمانية، التي صارت اليومَ أحدَ أهمّ أماكن الجذب السياحي. من بين تلك الصور بائعو الكعك بالسمسم المنتشرون في الساحات العامّة، وبائعو عرانيس الذرة، أو الأصداف البحرية، الفخورون بمِهَنِهم، ومحطّ أنظار السيّاح الأجانب، وهدف كاميراتهم. هم جميعاً يتماثلون بأردوغان الذي بات رمزاً لا مجرّد قائد سياسي ذي خلفية إسلامية.

يقول نشْأت، المترجم التركي، الذي رافقني في هذه الرحلة إلى تركيا، إنّ أفضل وأهمَّ ما قام به رجب طيب أردوغان هو نظافة المدينة، ولا سيّما بعض الأحياء التي كانت، قبل وصوله إلى البلدية، عبارة عن مزابل واسعة. فهو قام بحملة نظافة هائلة وخفّف من أسباب التلوّث وراح يزور الأحياء الفقيرة

ويعيش مع أهلها حتى اقتنعوا بأنّ ما يقوم به صادق وشفاف.

الناس في تركيا لا يختلفون عن الناس في أيّ دولة من دول العالم؛ يريدون الزعيمَ قريباً منهم، ويرغبون في أن يلبّي جميع احتياجاتهم. لم يبخلْ أردوغان، فكان أن منَحَه الأتراك في الانتخابات الأخيرة كاملَ ثقتِهم. أظهرتْ دراسةُ بعضِ النتائج أنّ الأصواتَ التي حصل عليها، في اكتساحه المجلس النيابي، لم تأتِ من الإسلاميين والفقراء فقط، بل جاءت أيضاً من مسيحيين وأرمن وأكراد ونُخَب مثقفة ومتعلمة.

تغيّرت إسطنبول، يقول مرافقي التركي. تقلّصت فيها المساحات الخضراء أمام هجمة الاسمنت بغية استيعاب ملايين الأشخاص الذين جاؤوا إمّا من مناطق التوتّر في شرق البلاد حيث يواجه الجيش حزب العمّال الكردستاني، وإمّا بسبب شهرتها وإمكانيّات العمل في قطاعاتها السياحية. يقول إنّ غزو المدينة حصل بسرعة قياسية، ولذلك فإنّ عدداً من المشاكل استجدّ على أهلها. من بين تلك المشاكل مثلاً المياه التي صارت تشحّ في بلاد البوسفور العريق.

تناقض العرب في إسطنبول

توحي إسطنبول لزائرها بأنّ كلّ ما فيها يسير على ما يُرام. لفتتني فيها السياحة العربية والخليجية على وجه الخصوص: رجال بالقمصان العديمة الأكمام أو التيشيرت وقبّعات البيسبول. خلفهم نساء مبرقعات يهرولن مع الأولاد بغية اللحاق بالذكر ورمز الفحولة المشرقية. قال لي أحمد الذي يعمل في شركة سياحية قبل الظهر وفي مكتب للإنتاج التلفزيوني بعده، إنّ السياحة العربية ازدادت كثيراً في السنوات القليلة الماضية. أسباب ذلك كثيرة، منها انغلاق الآفاق الغربية بعد الاعتداءات الدموية على الولايات المتحدة، وتحسّن العلاقات باطّراد بين تركيا والعرب بمبادرات كثيرة قام بها الإسلاميون الأتراك، والحملات الدعائية الكثيرة التي تقوم بها الفضائيات العربية، إضافة إلى قرب المسافة والتاريخ والحضارة. هذا الاقتراب يبدو واضحاً حتى في أشكال الناس وملبوسهم والعادات، خصوصاً في أشكال الرجال. ويبدو أيضاً في بعض الفنون المعمارية والمطبخ وحتى طريقة الغناء والرقص.

المسافة بين منطقتي تقسيم والفاتح لا تتعدّى كيلومترات قليلة. يمكن اجتيازها بالسيّارة بحوالى ربع ساعة إذا ازدحم السير، أمّا المسافة بين أجواء المنطقتين فهي لا شك ضوئية. الأولى مزدحمة بمقاهي الأرصفة والملاهي والمراقص. تنبعث منها الموسيقى لتبقي ليل العاصمة ساهراً حتى الصباح بينما تتناثر القبل بين الشبّان في كلّ اتّجاه خصوصاً على الساحة الكبيرة المنبسطة أمام مركز أتاتورك الثقافي. والثانية، أي منطقة الفاتح، توحي بالكثير من التشدّد: معظم النساء لابسات البرقع. رجال يرتدون القمصان البيضاء النازلة حتى ما تحت الركبة قليلاً. مساجد تصدح من بعض مآذنها أصوات من دون مكبّرات صوت (ممنوع استعمال التقنيّات). في أرجائها عائلات بكاملها تتسامر من خلف البراقع وأطفال يتوضّأون ويمرحون أو يتسوّلون. رأيت معظم الرجال يعتمرون عمامة الطريقة الصوفية النقشبندية التي كانت حتى الأمس القريب مثاراً للشبهات. يضحك إبراهيم مرشدي إلى تلك المساجد حين يسمع التعليق بأنّ المنطقة توحي بأنّها أفغانستان مصغّرة. الشابّ الأردني ذو العينين الثاقبتين كصقر والرابضتين فوق لحية مشذبة بدقة على طريقة بعض أهل الحركة الإسلامية في الأردن، يعرف المنطقة عن ظهر قلب. هو حصل على دكتوراه في الدراسات الإسلامية والفقهية في إسطنبول. متزوّج بسيّدة تركية ويدرك، وفق ما يشرح، أنّ الالتزام الدقيق بأصول الدين هنا لا يعني مطلقاً التطرّف.

أردوغان صوفي أم إخواني؟

هنا في منطقة الفاتح التي أخذت اسمها عن محمّد الفاتح الذي فتح إسطنبول، يبدو الالتزام الدقيق بالدين

ذا تفسير خاصّ. بعض أهلِ الحيّ مثلاً، يرفضون أيَّ تقنيّة جديدة، وإمام المسجد يرفض استخدامَ مكبّرِ الصوت، والنساء يبقَيْنَ منقّباتٍ حتى داخلَ المنازل. لكنّ ذلك لا يعني، وفق ما يشرح إبراهيم، نزوعاً نحو الإرهاب والتطرُّف، ويمكن لأيّ امرأةٍ، حتى لو كانت سافرةً، أو مرتدية اللباس الغربي، أن تأتي إلى هنا، وتسير في الشوارع، ولن تسمعَ كلمة واحدة نابية.

«السلام عليكم.. من أين أنتم؟» يسألُنا أحدُ رجال الدين، وما إن يعرفُ أنّ الزائرين هم من لبنان والأردن وفلسطين، حتى يمسَح بيده على أكتافنا، ويدعو لنا بالخير، ويمضي في طريقه. يبدو أنّ بعض إسلاميّي تركيا يؤمنون ببركةِ أهل المشرق، وعمقِ إيمانِهم. لا تزال بعض عاداتهم تدعو إلى لمس المشرقيِّ للتبرّك به، وذلك خلافاً لما هو معهود في تركيا من تنافرٍ تاريخيٍّ مع العرب.

العربيةُ حاضرةٌ بنسبة جيدة في اللغة التركية. تشير الإحصاءات اللغوية إلى أنّ 30 في المئةِ من لغة الأتراك تأتي من لغة الضاد، حتى ولو أنّ بعضَ الكلمات ذات الأصل العربي باتت مقرونةً بجارة تركية. فبدلاً من أن يقال مثلاً، شكراً، صار يُقال تَشَكُّر أديريم. وكلمة ثابت تصبح سابت، وأمّا مرحباً فتبقى على حالها كلمة استقبال وترحيب.

يغلبُ على أهل منطقة الفاتح الطريقةُ الصوفية النقشبنديّة المنتشرة بكثرةٍ في تركيا، حتى ولو أنّ الدولة العلمانية منعَت الكثيرَ من تجلّياتها، أو التعبير العلني عنها. وأهلُ هذه الطريقة، غالباً ما يعتبرون أنفسهم أصلَ الدولة العثمانية.

يروي مرافقي الأردني في المطعم الشعبي، في حيّ الفاتح، حيث الكباب المشويّ ينشُر رائحتَه الزكيَّة الجاذبة للمارّة، أو للجالسين يتسامرون حتى ساعة متأخّرة من الليل، أنّ نجم الدين أربكان (مؤسِّس الحركة الإسلامية الحديثة) كان مع أسعد جوشان التلميذَيْن الأساسيَّيْن عند الشيخ محمّد زاهد كوكتو، شيخ الطريقة الصوفية. وفيما بقي جوشان ملتزماً شيخَه دينياً، على دربِ التصوّف الخالص، سارَ أربكان في طريق السياسة، وانغمَس في الحياة الحزبية.

أربكان، كتلميذه رجب طيّب أردوغان، الذي ابتعد عنه أخيراً، هو صوفيٌّ نقشبندي. كذلك تأثّر الرجلان بجماعة الإخوان المسلمين. يقول إبراهيم إنّ صوراً عدّة تُظهِر أردوغان مع مصطفى مشهور، وقيادات أخرى من الإخوان المسلمين. ويُضيف إبراهيم، الذي درس في كلّيّة الإلهيّات (لأنّ اسم الإسلام كان ممنوعاً في الكليّات الفقهية)، أنّ معظمَ الأحزاب التي تفرّعت لاحقاً عن حزب السلام الوطني، كحزب النظام القومي، وحزب الرفاه، والفضيلة والسعادة والعدالة والتنمية، تستند إلى الطريقة الصوفية، على غرار أحزاب أخرى. ولِبعضِها تأثيرٌ واضح أيضاً في بعض رجال الإخوان المسلمين، وهم أساساً لا يُنكِرون ذلك.

كانت كلُّ هذه الأحزاب تدور في فلكٍ فكري عقائدي ينادي به أربكان، ويسمّيه الرأي أو المذهب الأممي. وكانت كلّها تدور في مناخ فكريٍّ ملخَّصُه أنّه يجب أن ننطلق من مفهوم الأمّة. كما أنّ لأصحابِ هذه الفكرة، وبينهم أردوغان نفسه، وقفاً إسلامياً اسمُه وقفُ الرأي الأممي، نجح في اجتذاب الكثير من الطلّاب وأهل الفكر، من خلال التقديمات والأنشطة المهمّة التي يقوم بها، إنْ على الصعيد العقائدي، أو من خلال المساكن الطلّابية والشعبية وغيرها.

يشرح مرافقي الفلسطيني الآخر، فكري، الآتي من منطقة الخليل، والمتزوّج هو الآخر بسيّدة تركية، أنّ أردوغان نجح، إلى حدّ بعيد، في جذب الأتراك، بمختلف مشاربهم، إليه، من خلال عمله الاجتماعي والاقتصادي والإنساني، بحيث إنّه غالباً ما كان يلبّي حاجات الناس، ولم يُعرَف عنه أيُّ قضيّة فساد أو رشوة.

الجميعُ في تركيا يذكر أردوغان بالخير، وخاصَّة حينما كان رئيساً لبلدية إسطنبول، بتزكيةٍ مباشرة من أربكان، واستطاع أن يطوّرها من مرحلة إلى أخرى، وغيَّرَ الكثيرَ من عاداتِ أهلها، بحيث صارت

نظيفة وجذابةً وزاخرةً بالأنشطة. وصارت المياه تصل متدفّقة صافية إلى البيوت، بعدما كانت تصِلُها متقطِّعةً وصفراء اللون.

نجح أردوغان في تقديم نفسه، لا على أنّه إسلامي معتدل (ألَّب ضدّه أربكان) فحسْب، بل أيضاً كخادم فعليٍّ لشعبه، وإنْ لم يستطِع أنْ يفرضَ الكثيرَ من الأمور التي أراد هو وحزبُه أن يفرضَها، كمنْعِ الخمرة، مثلاً، كما اضطرَّ للتوقيع على قرار إلغاء عقوبة الزنا.

ثمّة من يروي عنه قصصاً بسيطة، ولكنْ معبّرة. وبينها مثلاً كيف أنّ نشرَ الغسيل على سطوح المنازل والشرفات، في إسطنبول، كان شبه مستحيل، بسبب الدخان الأسود المنبعث من الحطب المشتعل في البيوت للتدفئة أيَّام الشتاء، بينما اليوم أوجدت حلولٌ لهذه المشكلة وغيرها.

يصدح الأذان مجدَّدا في منطقة الفاتح، يُلقي الليلُ ظلالَه على إسطنبول، فتلمع أضواءُ مركز أتاتورك الثقافي من بعيد. تبدو المدينة المنقسمة حول البوسفور بين أوروبا وآسيا، راضيةً بما آل إليه وضعُها من تسويةٍ بين الجيش والإسلاميين، فرضَتْها صناديقُ الاقتراع. ولكن مَن يعرفُ تفاصيلَ الأوضاع الداخلية، لا يتردّد في الحديث عن جمرٍ تحت الرماد؛ فلكلِّ شيء حدودٌ في هذا البلد العريق، وأردوغان نفسُه الذي اكتسح المقاعد البرلمانية في الانتخابات الأخيرة، يُدرك أنّ ثمّة خطوطاً حمراء مع الجيش، لا يمكن تخطّيها... على الأقلّ حتى الآن.

(ملاحظة: انفجر هذا الجمر الكامنُ تحت الرماد، في الانقلاب الذي تعرّض له أردوغان عام 2016 أي بعد عشر سنوات تقريباً على كتابة هذا المقال. وكان أردوغان قد تورّط في الكثير من حروب الخارج، ولا سيّما في سوريا، واعتقد أنّ لحظة العودة العثمانية بقوة إلى الساحة العربية حانت حين اندلع ربيع الإخوان المسلمين من مصر إلى المغرب...).

تونس تحفونة الربيع

«تحفونة» كلمة تونسية تعني الجميلة أو الساحرة أو «المهضومة»، ولعلّها تجدُ أصلَها في التصغير المحبّب لكلمة «تحفة». طَوالَ عملي في مهنة الإعلام في فرنسا، كنتُ أفكّر في زيارة تونسٍ، لكنّي لم أقْدم يوماً على هذه الخطوة. كانت سمعَةُ الرئيس زين العابدين بن علي مع الإعلام كفيلةً بثنْي أيّ إعلامي عن الذهاب إلى تلك البلاد الجميلة. فإن حصل الصحافي الأجنبي على تأشيرة بعد جهد جهيد، فهو سيكون حتماً عرضةً للمراقبة والملاحقة والتضييق عليه. أمّا الصحافي المحلّي، فهو إمّا أن يكون خاضعاً للسلطة، وإمّا أن يتعرّض للقمع والسجن، وإمّا أن يفرّ. وكان في تونس مؤسّسة إعلامية اسمها «وكالة الاتصال الخارجي» تخصّص جُلَّ وقتها للترويج لبن علي، أكثر ممّا تفعل أيّ شيء آخر. والمؤسف أنّ كثيراً من الصحف العربية التي تدّعي الحرّية واليسار والديمقراطية، كانت تنشر صفحاتٍ لبن علي، مقابلَ مبالغ مالية تقبضها من هذه الوكالة وغيرها. غالباً ما تسقط الشعارات الكبيرة في النفوس الصغيرة بسبب المال.

أذكر مرّة أنّي أجريت مقابلة إذاعية مع زعيم حركة النهضة الشيخ راشد الغنوشي. كان هذا القيادي الإسلامي ذو الثقافة العالية، الذي يعتبر نفسه خارج تنظيم الإخوان المسلمين، حتى لو كان قريباً منها، منفيًّا في إحدى ضواحي لندن، ويحلم باللحظة التي يعود فيها إلى بلاده، إمّا بتسوية مشرِّفة مع بن علي، وإمّا بعد إطاحته. سجّلت المقابلة وكنت أنوي بثّها في نشرة الأخبار الليلية. لكن قبل البثّ ببضع ساعات جاءني اتّصال من مسؤول كبير في السفارة التونسية في باريس. حادثني باللطافة المعهودة للتوانسة، ثمّ سألني بشيء من الوقاحة: «سي سامي، أيّ ساعة ستبثّون حلقة الغنوشي؟ وماذا قال بالضبط لو سمحت؟». سارعتُ إلى الإجابة بحزم وبشيء من الصَّلَف: «إنّ المخبرَ الذي في إذاعتنا، والذي أخبركَ بأنّنا أجريْنا مع الشيخ الغنوشي مقابلة، يستطيع إخبارَك بالباقي، مع السلامة». أقفلتُ الخط، وأنا أعلَم تماماً من هو الشخص الذي وشى بالمقابلة. ما إن بُثّ اللقاءُ على الهواء ليلاً، حتى أحدث ضجّة وردود فعل كثيرة.

بعد أسبوعين كان موعد مهرجان قرطاج المسرحي. هو لقاء سنوي مهمّ يجمع نخبة المسرحيين العرب والعالميين. وكانت تونس رائدة في تلك السنوات بمسرحها وأعمالها السينمائية، على أيدي مخرجين وممثلين أبدعوا في تقديم لوحات فنّية رائعة. تأثّرت كثيراً بالمبدعة الاستثنائية جليلة بكّار وفاضل الجعايبي وحضرت كلّ أفلام فريد بوغدير ونوري بوزيد وغيرهما... اختارتني إدارة الإذاعة للذهاب إلى المهرجان. لكنّ المفاجأة أنّ إدارة المهرجان الذي كان يشرف عليه آنذاك بوغدير نفسه، بعثت للإذاعة طالبةً اختيار شخص غيري. يبدو أنّ مقابلة الغنوشي أوصدَتْ في وجهي أبواب تونس. لم تخضع الإدارة الفرنسية للطلب. وقفَتْ موقفاً مشرَّفا: «إمّا أن نرسل السيد سامي كليب، وإلّا فلن نرسلَ أحداً من عندنا إلى مهرجان قرطاج». بالفعل ذهبتُ بعد أيّام، لكنَّ القلقَ بقِيَ ينتابني من أن يدسَّ أحدُ من رجال الأمن شيئاً في حقيبتي، أثناء وصولي، وأتعرّض لتهمةٍ أو اعتقال. تشبّثت بحقائبي كما لم أفعل يوماً في حياتي. مرّ المهرجان على خير وتمتّعت بالكثير من عروضه.

لم أكرّر زيارة تونس بسب بن علي ونظامه. كنتُ من بين الإعلاميين العرب في فرنسا الذين آمنوا طويلاً بدورهم في دعم الحرّيات، وفي الدفاع عن السجناء وحقوق الإنسان في دول عربية. لم أوفّر ناشطاً تونسياً إلّا استضفته في الإذاعة والتلفزة، قبل ذهابي إلى تونس وبعدَه. وسرعانَ ما وُضِعْتُ على اللائحة السوداء.

حين سقط بن علي بفضل الناس والجيش، كنت في طليعة من قصد تلك البلاد الجميلة، لألتقي بناسها الطيّبين المحبّين للعرب، والذين يغلب اللطف على طباعهم وكلامهم، كما تغلب البساطة على حياتهم

ولباسهم وعاداتهم. ما إن وصلت إلى المطار حتى وردَتْ في خاطري كلمة «تحفونة». شعرتُ بأنّ التوصيف يليق تماماً بالثورة التونسية، التي أطاحت نظام أكثر الدكتاتوريين العرب غموضاً وانغلاقاً وفساداً وقسوةً. كتبت في دفتر ذكرياتي آنذاك: «هي ثورة لم تنتهِ بعدُ، أو هي أُجهِضت من قَبل أن تبلغَ كلّ أهدافها، فرحيل زين العابدين بن علي وزوجته **والأربعين حرامي** من مغارة علي بابا التونسية، لم يُعِدْ بعْدُ للثوّار حقوقَهم، بل أعاد القتلى إلى الطرقات».

كان كلّ شيء يوحي بالأمل والفرح، ولكن بالقلق أيضاً. ارتاحت البلاد من نظام قاسٍ، لكنّ البدائل الأولى على أرض الواقع كانت تثير القلق. الأوضاع الأمنية لم تستَتِبّ. الاقتصاد الذي كان بن علي يكذب على مواطنيه بالقول إنّه حسَّنه، انكشفتْ حقيقتُه، فأظهرَتْ كم نهب النظام من عرق الشعب ومن دمه، بالتواطؤ مع الغرب القريب الذي يدّعي الدفاع عن الحرّية في بلادنا.

آنذاك سجُلت الملاحظات والمفارقات التالية:

• المفارقة الأولى والطريفة في هذه الثورة، هي أنّ بن علي نفسه كان قد أعلن أنّ عام 2011 سيكون «عام الشباب»، وبالفعل كان، ولكنّ رياح الشباب جاءت عكس ما اشتهَتْ سفن الرئيس ونظامه، فاقتلعَتْ الأول، ولا يزال الثاني يحاول استعادة موطئ قدم... ولو بصعوبة.

• المفارقة الثانية، هي أنّ النظام التونسي الذي خدع العالم بقولِه إنّ القمع والدكتاتورية والانغلاق هي الوسائل الفضلى لتفادي المدّ الإسلامي الأصولي والإرهاب، وإنّه بالمقابل جعل من تونس جنّة اقتصادية وواحةً رفاهيةٍ للسيّاح الأجانب، وإنّ الناس فيها ينعَمون برَغَد العيش، تكشّف قُبَيْل وبعد انهياره، عن حقائقَ مخيفةٍ في الوضع الاقتصادي، والبطالة، وحتى الأمّية المستشرية في جسد المجتمع الخائف.

لو عدنا إلى بعض تقارير مؤسّسة «كارنيغي» الموثوقة عموماً، لوجدنا أنّ نسبة البطالة وصلت إلى نحو 31.2 في المئة، بين صفوف الشباب الذين تراوح أعمارهم بين 15 و29 عاماً، وذلك في عام 200، أي في العام الذي كان فيه النظام نفسه يفاخر بأنّه حقّق خلاله إنجازاتٍ اقتصاديةً كبيرة. ولو قرأنا تقريراً لصحيفة «لوموند ديبلوماتيك» الفرنسية، استند إلى دراسة حديثة للاتحاد العام للعمّال التونسيين، لوجدنا أنّ نسبة الأمّية وصلَتْ إلى 60 في المئة، في منطقة سيدي بوزيد نفسها، التي كانت محطّة مهمّة في الثورة الشبابية.

بمعنى آخر، أكثر من ثلث الشباب كانوا بلا عمل، وحوالى ثلثيهم كانوا أمّيين، في المناطق التي ثاروا فيها، مع الإشارة إلى أنّ 40 في المئة تقريباً من التونسيين هم من الشبّان الذين تقلّ أعمارهم عن 25 عاماً، فلم يكن غريباً أن يحرق محمد البوعزيزي نفسه تاركاً خلْفه عائلةً فقيرة، وعربةَ خضروات تبكي يديه الكادحتين.

كان تقريرٌ للبنك الدولي قد حذَّر من أنّ البطالة «تظلّ مشكلة مهمّة» لخرّيجي مؤسّسات التعليم العالي في تونس، الذين يمثلون 60 في المئة من الوافدين الجدد إلى سوق العمل، بينما كانت الإحصاءات الرسمية التونسية تكتفي بالحديث عن معدّلات بطالة لا تتخطى 13 في المئة، وهي معدّلات قريبة جداً لما هو في الغرب. كان بن علي يطمر رأسه بالرمال كالنعامة، وزوجته وأقرباؤها يطمرون أنفسهم بالذهب والماس والشركات التجارية.

• المفارقة الثالثة، أنّ الطبقة شبه الغنيّة في تونس، والبرجوازيات الصغيرة والطبقة الوسطى من التجّار ورجال الأعمال، سرعان ما التحقت بالثورة، معبِّرة بذلك عن سخطها الكامن منذ سنوات على المافيا المالية، المحيطة ببن علي وزوجته، التي حرمتها من مشاريع كثيرة في البلاد. لعلّ هؤلاء أدّوا دوراً مهمًّا في تأجيج الثورة بُعَيدَ اندلاعها، ذلك أنّ التونسيين الذين كان جزءٌ منهم يعاني البطالة، لم يكونوا في الواقع فقراء. فتقارير البنك الدولي كانت تقول في حينها إنّ 7 في المئة فقط من التونسيين

يعانون الفقر، فيما النموّ كان بمعدّل 5 في المئة سنوياً، كما استكملت تونس برنامج تخصيص، وخفضت الدين العام إلى 43 في المئة من إجمالي الناتج المحلي، عام 2010، بعدما كان بحدود 60 في المئة عام 2001.

• المفارقة الرابعة، أنّ أداة القمع الأولى، عند بن علي، المتمثّلة برجال الشرطة، والأمن الداخلي، والحرس الرئاسي الخاصّ، وهُم في مجموعهم يبلغون حوالى 155 ألف رجل، كانوا أوّل مَن انهارَ وتفَكَّك، خصوصاً أنّ الطلّاب الذين عانوا الأمَرّيْن من هراوات هؤلاء وقمعهم، عبَّروا عن جرأة لافتة في التصدّي لهم، وتحدّيهم بالصدور العارية والأعمار الغضّة.

أمّا الجيش فإن لوقوفه على الحياد، ثمّ تأييده للثوّار وحمايتهم، قصّة أخرى تجد أسبابها أصلاً في العلاقة المعقدة بين رئيس يحتقر كبار الضبّاط ويخشاهم، ومؤسّسة تعضُّ على الجرح، وسطَ تكرار الإهانات والتصفيات، بانتظار أيّام أفضل.

لا شكّ في أنّ قائد أركان الجيش الجنرال رشيد عمّار، حين قال لا لإطلاق النار على المتظاهرين، يوم الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير، دقَّ المسمار الأخير في نعش نظام القمع. يبدو أنّ الرجل القليل الكلام أصلاً، لم يكن من أولئك الذين يكنّون ودًّا كثيراً لبن علي، ولا كانت شخصيّته تتّفق مع شخصيّة الرئيس.

كان الجنرال الذي درس بداية في منطقة سوس، في عداد الدفعة الأولى من خرّيجي المدرسة الحربية التونسية، وكان من بين أول 15 ضابطاً نُقلوا إلى فرقة المدفعية. وسرعان ما تبيَّن أنّه ليس من النوع الذي يرضى بأن تُهضَمَ حقوقُه، حيث هدَّد بالاستقالة، في مطلع السبعينيات، حين تأخّرت ترقيته، وهذا ما حصل عليه؛ وكيف لا، وهو في طليعة ضبّاط دورته. بعدما تقلّب في مناصب عدّة في الجيش، وتولّى منصب مدير مدرسة المدفعية، ذهب إلى فرنسا لإكمال الدراسة والتدريب في أرقى المعاهد العسكرية، ولذا، يوصف بأنّه «فرانكوفوني» الاتّجاه، خلافاً لبن علي الذي قيل الكثير عن علاقته بالاستخبارات الأميركية وبمركز القرار في واشنطن.

كان عمّار قد تولّى، بعد عودته من فرنسا، قيادة المدرسة التي تخرّج منها، خلال عهد الرئيس السابق الحبيب بورقيبة. لكن ترقِيَتِه إلى رتبة جنرال، ورئيس أركان الجيش، تمَّتْ في عهد بن علي. وقد أثبتَ خلال سيرته الطويلة، تعلّقا كبيراً بدور المؤسّسة العسكرية، ورغبةً في تحييدها عن الصراعات الداخلية، حفاظاً عليها كحامية للبلاد وليس للنظام أو لرئيسه الفاسد.

أراد بن علي مراراً توريط الجيش في القمع الداخلي، خصوصاً في شهرَيْ كانون الأول/ديسمبر 200 وكانون الثاني/يناير 2008، ضدّ من كان يصفهم بالسلفيين والمجموعات الإرهابية. قاد تلك الحملة الدموية الجنرال علي سرياتي، قائد الحرس الجمهوري الذي اعتُقل وهو هاربٌ عند الحدود التونسية، بعدما زرع مع فريقه الفوضى ونكّل بالثوّار.

غداً، حين تُفتَحُ ملفّات بن علي وحاشيته، سيكتشف العالم أسراراً كثيرة، من بينها مثلاً، كيف قُتِل 13 ضابطاً ومساعد ضابط، في تحطّم مروحيةٍ في أواخر شهر نيسان/أبريل 2002، وكان من بينهم قائد القوّات البرّية عبد العزيز سكيك الذي خلفه الجنرال رشيد عمّار بعد مقتله. لا تزال قضيّة تحطّم تلك المروحية الجديدة، وذات القدرات التكنولوجية الحديثة، عند الحدود التونسية الجزائرية، قضيَّة غامضة. ولعلّ التحقيقات ستكشف يوماً أنّ بن علي هو الذي أصدر القرار بتصفيتهم، إضعافاً لسطوة الجيش.

أدّى الجيش التونسي الدور المحوري في إنجاح الثورة، وأدّى أيضاً، في الخفاء، دوراً مهمًّا في التركيبة السياسية التي نشهدها اليوم، وهو في كلّ الأحوال كسِب ودّ الشعب، وبات قادراً على أن يكون حكَماً بينه وبين أيّ سلطة تريد، في المستقبل، إجهاضَ ثورته. من هنا بالضبط، تصبح العيون الغربية

جميعاً مفتوحةً على هذه المؤسّسة العسكرية؛ ففرنسا التي تعتبر أنّ تونس، تاريخيًّا، تدور في فلكها، ليست وحدها من يريد تعزيز العلاقات مع هذا الجيش، بل إنّ الولايات المتحدة الأميركية أيضاً كثّفت المبادرات حيالَه، في الآونة الاخيرة، وهي أصلاً مدّتْ أذرعَ أخطبوطِها إليه، منذ سنوات، وحَمَتْ بن علي، وتغاضت عن فساده وقمعه. هنا نصل إلى المفارقة الخامسة: هل كان بن علي فرانكوفونياً أم عميلاً أميركياً صغيراً كَبُرَ في صفوف السلطة ووصل إلى رئاستها؟

قد تكون قراءة المقال الذي كتبه السفير الفرنسي السابق والإعلامي العريق إريك رولو، في صحيفة «لوموند ديبلوماتيك»، ذات دلالات واضحة في هذا السياق؛ فهو يروي كيف أنّ بن علي، حين أصبح وزيراً للداخلية، وراح يتسلّق مناصبَ السلطة، بمساعدة ابنة أخت بورقيبة، راحَ يمتنع عن استقبال المسؤولين العسكريين والسياسيين الفرنسيين، ولا يستقبل عملياً إلّا رولو نفسه الذي كان سفيراً لبلاده في تونس، بينما كان يفتح الأبواب لكلّ طارق أميركي.

في تلك الفترة، لم يكن الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران، الذي كان واسع الثقافة متَّقِدَ الذهن، يكنّ احتراماً كبيراً للضابط التونسي الشاب، ولا سيّما أنّ العاهل المغربي الراحل الملك الحسن الثاني، كان هو الآخر، يحتقر بن علي ويعتبره مخبراً صغيراً محبًّا للمومسات المغربيات.

روى لي إريك رولو الذي ربطتني به صداقةٌ، مُذْ قدَّمتُ سيرةَ حياتِه الغنيّة، من عبد الناصر (الذي كان صديقه) إلى بن علي (حيث كان رولو سفيراً في تونس)، عبْر قناة «الجزيرة»، كيف أنّ بن علي كان يستقبل المسؤولين في المخابرات الأميركية، بكلّ حفاوة، ولا سيّما أنّه عرفهم عن كَثَب، حين تدرَّب وعمِل فترةً في الولايات المتحدة. كان رولو على يقين بأنّ الرئيس التونسي الراحل هو أحد أبرز بيادق الـ«سي آي إيه» في منطقة المغرب العربي، وأنّه لم يترك خدمة إلّا قدّمها للأميركيين، كي يتجاهلوا ممارساته القمعية ضدّ أيّ مُعارضٍ أو مواطنٍ حرّ في الداخل.

لا بدّ هنا من العودة أيضاً إلى وثائق «ويكيليكس» التي نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» جزءاً منها يتعلّق بتونس ورئيسها المخلوع. تروي هذه الوثائق كم كان «الاشمئزاز» الأميركي كبيراً من فساد بن علي وعائلته. تقول إحدى البرقيّات: «إنّ الفساد بكافة أنواعه استشرى في تونس، حيث طال الأموال والخدمات والأراضي والأملاك وحتى اليخوت، مشيرةً إلى أنّ أبناء إخوة الرئيس التونسي صادروا يختاً من رجل أعمال فرنسي عام 2006». لكنّ الفساد لم يكن يمنع سفراء واشنطن، ومن بينهم السفير الأخير في تونس، روبرت غوديك، من إقامة علاقات قويّة مع عائلة بن علي، وحضور العشاء الفاخر الذي أقامه على شرفه، محمد صخر الماطري صهر الرئيس التونسي.

إنّها واشنطن الوفيّة لمبادئها، تدعم نظاماً مهما ارتكب، ثمّ تتخلى عنه عند ظهور أوّل بادرةٍ من بوادر ضعفه؛ فما إن بدأ نظام بن علي يترنّح، حتى سارعت الإدارة الأميركية إلى المشاركة في تشييعه، بينما بقيت فرنسا متردّدة، واستمرّت في دعمه حتى آخر لحظة، حتى إنّ وزيرة دفاعها جاءت تشاركه بعض الأفراح على باخرته، قبيل أيّام من سقوطه. وقد حصل نقيضُ ذلك، في تعاملِ الدولتين مع مصر، حيث سارعت فرنسا للشجب، بينما تردّدت واشنطن، ما عكس فعلياً علاقةَ كلٍّ من تونس ومصر بالفلكين الفرنسي والأميركي.

• أمّا المفارقة السادسة فتمثلتْ في غياب الأحزاب، وقد بدا واضحاً أنّ حركة «النهضة» الإسلامية، بزعامة الغنوشي، كانت أقلَّ ثقلاً ممّا قيل، وأقل خطراً ممّا قيل، فالرجل الذي أعربَ، طوالَ فترة نفْيه، عن انفتاحٍ لافِتٍ وشجْبٍ للإرهاب، الْتَحقَ بالثورة، بُعَيدَ اندلاعها، كما فعلت الأحزاب الأخرى، وقد يكون له دَورٌ في المستقبل، على الرغم من كلّ الآلة السياسية والدعائية والمالية التي ستوظَّف ضدّه خشية انتعاش التيّار الإسلامي في المغرب العربي. أمّا الأحزاب الأخرى، فكانت إمّا مشلولةً، وإمّا فاقدةً للشعبية الحقيقية.

الطلّاب والعاطلون عن العمل هُم وحدَهم قادوا التظاهرة، لا بل إنّ الاتحاد العامل للشغل لم يقرّر

المضيّ قُدُماً، إلّا بعدما تبيّن أنّ الأمور باتت تتّجه فعلاً نحو إسقاط بن علي، وكثيرون من قادة الاتحاد كانوا أصلاً بيادق بيد بن علي وحاشيته.

هذا بحدّ ذاته هو التحدّي الكبير حالياً، فعودة القتلى والجرحى إلى شوارع تونس، تُثْبِت أنّ هناك مَن يريد إجهاضَ الثورة قبل استكمالها، وأنّه لا بدّ من تصحيح الخلل الذي حصل. صحيح أنّ حزب بن علي، أيْ «التجمّع الدستوري الديمقراطي» قد توقف عن النشاط بقرار من وزير الداخلية، منعاً لوقوع أعمال عنف جديدة، وصحيحٌ أيضاً أنّ مافيا النظام تفكّكتْ، ولكنّ الثابت أنّ الأخطبوط الأمني والمصلحي الذي بناه الدكتاتور المخلوع، على مدى أكثر من ثلاثين عاماً، يستدعي يقظةً وحذراً شديدَيْن، ولا سيّما أنّ المصالح الدولية في تونس قد لا تلتقي تماماً مع من أطلق الشرارات الأولى للثورة.

• أمّا المفارقة الأخيرة فتكْمُنُ في دور الإعلام التونسي المحلّي والعربي والعالمي، فإن كان الإعلام المحلّي دُجّن، على مدى أكثر من ربع قرن، وباتت وظيفته تمجيد النظام ومشاريعه، فلماذا صمت الإعلام العربي والعالمي؟ لا بدّ من البحث عن الدور الكبير الذي قامت به «وكالة الاتصال الخارجي» في توزيع الإعلانات وتكثيف الاشتراكات ورشوة الإعلاميين العرب لتمجيد بن علي، فشارك الإعلام العربي في الجريمة، كما أنّ آلة الضغوط السياسية والأمنيّة جعلت الدول الغربية تتعامى عن الفساد والقمع والدكتاتورية.

دروس كبيرة قدّمتها الثورة التونسية «التحفونة». ولعلّ ثورات أخرى ستتحِفنا بالكثير... من الصعب توقع أيّ تراجع بعد اليوم في نبض الشارع العربي. قد تتولى حركة النهضة بقيادة زعيمها الغنوشي جزءاً كبيراً من السلطة، لكن لا طباع التونسيين ولا الانفتاح الاجتماعي الذي أسّسه رئيس الاستقلال، الحبيب بورقيبة، ولا انفتاح المجتمع على المرأة وتعزيز دورها، بفضل بورقيبة أيضاً، يسمح بأن تكون تونس تحت نظام إسلامي.

إنّنا في مخاض صعب ومقلق، لكنّه مخاضٌ حيويٌّ ومنعش وباعث على الأمل بأن «التحفونة» الخضراء ستكون حتماً بخير في الأشهر والسنوات المقبلة. وهي تستحق كل الخير.

بحور تتلاطم فوق البحرين

على متن خطوط «طيران الخليج» بين باريس والمنامة، كان الركّاب، ومعظمهم عربي، يشاهدون فيلم «ناصر 56». نحن في يوم الجمعة الموافق 20 شباط/فبراير، أي قبل ساعات قليلة فقط من وصول الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان إلى بغداد لبدء مفاوضاته الحاسمة مع المسؤولين العراقيين في محاولة أخيرة لِلَجْم الرئيس جورج بوش عن شنّ الحرب. في الفيلم مشهد لمسؤول بريطاني يقول: «نحن لا نذهب إلَى المنطقة لنقاتل الشعب العربي، بل لنقاتل الضابط ناصر الذي أمّم قناة السويس وهدّد مصالحنا». التاريخ إذاً يكرّر نفسه، تتغيّر الأسماء. تتبدّل المواضيع والاتّهامات وتبقى القضيّة محصورة في هدف واحد... المصالح.

التشابه بين القائد العربي الراحل جمال عبد الناصر والرئيس العراقي صدام حسين لا يستقيم، طبعاً، على الرغم من أنّ طموح صدام حسين، كطموح كثيرين غيره من زعماء العرب، يبقى دائماً متّجها نحو احتلال مكانة عبد الناصر في الوجدان العربي، لكنّ مَن يزور الخليج هذه الأيّام، سيشعر كم أنّ هذه الدول تتصرّف عكس رغباتها الفعلية، وتسير في اتّجاهات لا تريدها، لسببٍ بسيط يتمحور حول مراعاة المصلحة الأميركية، منطلقة من مبدأ «مُكرهٌ أخاك لا بطل».

الشيخ عيسى بن سلمان أمير البحرين السابق.

قبل وصولي إلى البحرين، كنتُ على اقتناع تامّ بأنّ الإمارة (المملكة الآن) سارت في ركب البوارج الأميركية بانتظار لحظة الحسم وضرب العراق، لكني وجدتُ في البحرين شعباً منقسماً على نفسه. جزءٌ منه يؤيّد الخلاص من صدّام، كجارٍ مزعجٍ للخليج، وجزءٌ أخر يريد ذلك بسبب الحرب الإيرانية العراقية، وجزءٌ ثالث محفوف بمشاعر العروبةَ المناهضة لكل تدخّل أميركي أو أجنبي. لعلّ المذهبية

دوراً في هذا الانقسام أيضاً، لجِهةِ تفضيل بعضهم إيرانَ على العراق.

أوّل ما لفتَني، فور وصولي إلى المنامة، أنّ صحيفة «الأيّام» الرسمية كانت قد أجْرَت استطلاعاً للرأي في البلاد، أفادت نتائجُه بأنّ «مواطني البحرين يعلنون رفضهم الكامل لأن تقوم الولايات المتحدة الأميركية بتوجيه ضربة عسكرية إلى العراق، حتى لو فشلت الجهود الدبلوماسية». جاء في افتتاحيتها «إنّ الولايات المتحدة أدركَتْ سلفاً مقدار الخسارة التي يمكن أن تتكبّدها بانفرادها، ضدّ إرادة الغالبية العظمى من دول العالم، في شنّ هجوم على العراق؛ فالعمل العسكري كان سيجعلها معزولةً سياسياً، على نطاق كبير. وكان سيزيد من حجم المشاعر المعادية لها في البلدان العربية والإسلامية. وهذا كفيل بحدّ ذاته بإطلاق اضطرابات لا حدود لها».

قال لي عددٌ كبيرٌ من المسؤولين البحرينيين الذين التقيتُهم، وبينهم أمير البلاد نفسُه، إنّ المنامة لم تُعطِ الأميركيين الموافقة على استخدام الأراضي البحرينية منطلقاً لهجماتهم على العراق. ولكن «لا رأيَ لِمَن لا يُطاع». الأميركيون لا ينتظرون ضوءاً أخضرَ من الدولة الخليجية الصغيرة، للانقضاض على الشعب العراقي الشقيق. ما إن أعلن أمير البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أنّ بلاده لم تعطِ الإذن للأميركيين، حتى صدر التصريح الأميركي المؤكّد للعكس، ففهم المسؤولون البحرينيون ذلك على أنّه «إحراجٌ مقصود للموقف البحريني».

البحرين عائمة على البحر، والبحر يطوّق الجزيرة من كلّ مكان، إلّا من مكان واحد، هو جسر الملك فهد. إنّه جسر الصداقة في أوقات السلم، وجسر النجدة في أوقات النوائب، فلا بدّ من تآلف المواقف وتقاطع السياسات، ولا بدّ من تحصين الوضع الداخلي، قبل النظر إلى ما وراء البحر. ما ستقوله السعودية إذاً سينطبق على البحرين. لا مجال لمخالفة الشقيق الكبير مهما كانت النتائج.

كان الرئيس الأميركي بيل كلينتون قد سلَّف المنامةَ موقفاً متميِّزا بعد اكتشاف «الخلايا الإرهابية» في البحرين. حرِصَ على بعث رسالة إلى أمير البلاد، يقول فيها، بصورة مباشرة ولافتة، إنّ «الولايات المتحدة الأميركية تقدّم كامل دعمها لحكومتكم ولسيادة وأمن الأراضي البحرينية». قبله كان الجنرال جون شاليكاشفيلي رئيس هيئة رؤساء الأركان الأميركيين، قد قال في المنامة، قبل أسبوع واحد من اعترافات المتّهمين البحرينيين بالاضطرابات التي هزّت البلاد، عام 1996: «إنّنا ندعم جهود الحكومة لضمان استقرار البلاد، ونحن نواصل اتّهام إيران بتهديد استقرار المنطقة».

فهل تستطيع البحرين التخلّي عن واشنطن؟ وهل بإمكانها درء الخطر الإيراني، وتفادي الانحرافات العراقية والقطرية، وتحصين وضعها الداخلي وحدها، وهي الدولة الصغيرة في الخليج التي لا يتعدّى عددُ سكانها 600 ألف نسمة؟

تناقضات البحرين تكاد تكون الطريق الوحيدة التي يمكن من خلالها الدخول في عمق هذه الدولة الخليجية الواقفة أمام خيارين لا ثالث لهما: إمّا الاستمرار في سياسة الانفتاح والتحرّر من القيود، وإمّا الغرق مجدداً في مشاكل داخلية ستكون أشدّ خطورةً إذا ما نظرنا إلى مستقبل منطقة الخليج بأسرها. والتناقضات ليست بالضرورة سياسية بل أيضاً اجتماعية واقتصادية وفكرية، بعضها باعث على القلق، وبعضها الآخر مبعث للراحة.

لا يمكن التعرّف إلى هذه التناقضات إلّا بعد قضاء أكثر من سهرة مع البحرينيين الذين كلما تعرّفْتَ إليهم، لمستَ لديهم طيبةً خاصّة، وكرَماً نادراً، وتواضعاً يميّزهم عن الكثير من الدول الخليجية الأخرى؛ ربّما لأنّ نفطهم لم يأخذ مداه في قلب العادات والتقاليد، إذ إنّه سرعانَ ما نضب؛ وربّما أيضاً لأنّهم هم أنفسهم يحاربون استعلاء بعض إخوانهم الخليجيين بسلاح الطيبة والبساطة والتواضع.

للسهر في البحرين نكهةٌ خاصة، فالبحرينيون الذين يتجلببون طَوالَ النهار باللباس العربي الأصيل، تكاد لا تعرفهم في مرابع الليل، فهذا يرتدي الجينز والقميص الأميركيين، وذاك يتبارى مع رفاقه في

الرقص وجذب الحسناوات. والحسناوات في نوادي البحرين كثيرات. معظمهنّ شقراوات الشعر. بعضهنّ من الهند والفيليبين وباكستان، وأخريات من المملكة المغربية. هذا عدا عن بعض الفنانات اللبنانيات اللواتي يصدحن بالعتابا والميجانا حين ينتصف الليل، وتبلغ النشوةُ مداها.

الحديث عن هذه السهرات مهم، لأنّ البحرين نجحت، في السنوات الأخيرة، في استقطاب جيرانها الخليجيين، مجدَّداً، عبر تخفيف القيود على الحياة الاجتماعية والسياحية فيها. وبذلك، غَدَتْ متنفَّساً لعددٍ من دول الجوار، من دون أن تغيّر الكثير من عاداتها وتقاليدها؛ لكنَّ الأمرَ لا يقتصر، طبعاً، على مرابع الليل، بل انسحب على العديد من القطاعات الأخرى، كالمصارف والتجارة والاستثمارات الأجنبية وتطوير الخدمات وفتح الأبواب مجدَّدا أمامَ الإعلام الأجنبي، ولا سيّما بعد تعيين وزير جديد لشؤون مجلس الوزراء والإعلام، هو محمد إبراهيم المطوّع الذي يبدو راغباً فعلاً في إعطاء صورة حقيقية للبحرين، مخالفة لتلك التي دفعت أبرز وكالات الإعلام العالمية إلى الانتقال من المنامة إلى دبي، في السنوات الأخيرة. فقد عمل المطوّع على بناء علاقات إعلامية جيّدة، ويكاد يرفض كلَّ القيود التي مورِسَت سابقاً على عمل الصحافيين، كما منح تأشيرات دخول لبعض الزملاء الفرنسيين الذين كانوا قد مُنعوا من الحصول على تأشيرة. وأنا أزور البحرين في تلك الفترة، شعرتُ للمرّة الأولى بأنّي قادرٌ على التنقل بحرّية أينما شئتُ، من دون حسيب ولا رقيب، وحتى من دون مجرّد السؤال عن وجهة سيري.

أسهم هذا الانفتاح الاقتصادي والإعلامي والسياحي الجديد في جذْب رؤوس أموال قد لا تكون بمستوى طموحاتِ ساسةِ البحرين، ولكنّها مستمرّة في الازدهار. يكفي أن نذْكرَ، على سبيل المثال لا الحصر، أنّ المصارف الدولية التي يقاربُ عددُها خمسين مصرفاً، أوصلت حساباتها، خلال السنوات الماضية، إلى ما يوازي 65 مليار دولار؛ وهذا على الرغم من أنّ انعكاسات حرب «عاصفة الصحراء»، في مطلع التسعينيات، هزّت بقوّة الاقتصادَ البحريني. تفيد التقارير الاقتصادية الغربية أنّ البحرين رفعت مستوى دخْلِها، في العامين الماضيين، بقيمة حوالى 300 مليون دولار، وهي نسبةٌ جيدة، نظراً إلى ما تعانيه الدول الخليجيةِ الأخرى، منذ الحرب الدولية على العراق، وإلى عدد سكان البحرين (حوالى 600 ألف نسمة) مقارنةً بالدول الأخرى. وتفيد التقارير نفسُها أنّ البحرين قد تكون بصدد اكتشافات نفطية جديدة تُسهِم في إعادتها دولة ثريّة في محيطها.

كانت البحرين أولَ دولة خليجية تلِدُ الذهبَ الأسود، عام 1932، بعد 7 سنوات من التنقيب عنه، قبل أن يعود وينضب، بين عامَيْ 1980 و1990. الشركة الغربية عيْنُها، التي اكتشفت النفط البحريني في تلك الحقبة، عادت اليوم توقّع العقود مع المنامة، لاستئناف التنقيب. ويبدو أنّ ثمّة آمالاً كبيرة معلّقة على ذلك.

تبدو البحرين، من الناحية الاقتصادية، مقبلةً على تحسُّنٍ ملحوظ، تُضاف إليه المساعدات التي تقدّمها الجارة الكبرى، أي المملكة العربية السعودية، التي تُعدّ الرّاعي الأساسي للدولة الصغيرة.

البحرين هي أصغر الدول الخليجية مساحةً وأقدمها حضارةً، حيث تفيد الدراسات بأنّها كانت مأهولة منذ بدء الحضارات؛ تشهد على ذلك مقابرُ الفينيقيين والأشوريين فيها، وهي تأمل أن تعود «درّة الخليج». كان هذا الاسم قد أطلِق عليها لغناها باللؤلؤ، وتفنُّنِها في صناعاته، ولا سيّما بعدما اكتشفَ سكّانها أهمّيته؛ لكنَّ هذا الأرخبيل الذي كان يُسمّى «بلد المليون نخلة»، بات يستحق اليوم اسم «بلد المليون فندق». لا يكاد يخلو شارع أو ممرٌّ في المنامة، من فندقٍ، أو بالأحرى فنادق. جميعها عامرةٌ بالسيّاح والزوّار والمستثمرين والوفود الكثيرة التي عادت تيمِّمُ شَطْرَ الجزيرة الجميلة بحثاً عن موطئ قدم، أو قصداً للمرور باتجاه الجارة الغنية، فالمسافة بين المنامة والمملكة لا تزيد عن 25 كيلومتراً.

بين السياسة والاقتصاد والشيعة

تعيش البحرين على حدّ السيف، بين الانتعاش الاقتصادي والمشاكل السياسية والدينية، الكامنة كالجمر تحت الرماد. لم يلتئم تماماً بعدُ جرح الأحداث التي حصلت في السنوات القليلة الماضية. سلطات البحرين مستمرّة في تحصين نفسها تفادياً لتكرار التجربة، ولا سيّما أنّ المناحي الإقليمية التي تأخذها الأزمات المتكرّرة، بين العراق والأمم المتحدة، تدفع المنامة إلى التساؤل عمّا يخبّئه المستقبل للدولة الصغيرة التي تعيش أكثر من علاقةٍ متوتّرة مع عددٍ من دول المنطقة، ولا سيّما إيران وقطر، والتي تحمل على كاهليها الصغيرين عبءَ الضيف الأميركي «الثقيل».

في الثالث من حزيران/يونيو 1996 دعَت المنامةُ الصحافةَ الدولية، لتُبلِغَها بأنّ معارضين للنظام، في الخارج والداخل، قرّروا توسيع مجلس شورى الدولة، الذي أُسِّس عام 1992، ويضمّ شخصياتٍ تعيّنهم السلطة، لكنّها انتهزَت المناسبة نفسَها للحديث عن «مؤامرة» على النظام، تحرّكها أصابعُ خارجية. سارعَت المعارضة لرفض مجلس الشورى، واعتبرته أداةً طيّعةً في يد النظام، كما اعتبرت أنّ كلّ ما يُقال عن مؤامرات، لا يعدو كونه محاولات يائسة لتحويل الأنظار عن المشكلة الحقيقية.

المشكلة الحقيقية المقصودة بكلام المعارضة، تتمحوَر في ظاهرها حول البرلمان، لكنّ حقيقتَها هي أبعد وأخطر من ذلك، فالبرلمان الذي جرى حلُّه عام 1975، أيْ بعد مرور فترة وجيزة على تأسيسه عام 1973، (استقلال الجزيرة كان في عام 1971) يبدو بمثابة قميص عثمان. كان يكفي أن أجول في عدد من المناطق الداخلية في العاصمة، حتى أرى الشعارات الجريئة، على الجدران تطالب بالعودة إلى البرلمان. يقول بعضها «برلمان + دستور = حرية»، ويطالب بعضُها الآخر بـ«أعيدوا إلينا البرلمان».

في الواقع، إنّ الحديث عن البرلمان يقود إلى التركيبة الاجتماعية والمذهبية في البحرين؛ فأغلبية السكّان هم من الشيعة، بينما الحكم الفعليّ هو في أيدي السنّة. ولذا، فإنّ أيّ مطالبة بالعودة إلى الانتخابات، قد تعني قلبَ ما هو دائم، تماماً كما كانت الحال في لبنان، حين رفع البعض شعاراتٍ ديمقراطيةً ذات أهداف مذهبية معيّنة (الديمقراطية العددية مثلاً). كنت وأنا أسير في الشوارع الداخلية للبحرين، أجِد شعاراتٍ مناهضةً تماماً للأمير وعائلته، وشعاراتٍ أخرى تطالب بالإفراج عن عبد الأمير الجمري، الشيخ الشيعي الذي تعتبره الدولة المسؤول الأول عن الاضطرابات، تماماً كالمسؤولية التي تحمّلها لمنظمة غير واضحة حتى الآن، يطلق عليها اسم «حزب الله».

يرى شيعة البحرين أنّهم هم أصل البلاد، وأنّ آل خليفة قدِموا إليها في عصر الفتوحات عام 1783، أثناء انتقال القبائل من نجد، وهو انتقالٌ أفضى إلى إنهاء قرنين من الهيمنة الفارسية على المنطقة، وأدّى إلى ترسيخ آل الصباح في الكويت.

قال لي زميل بحريني يحتلُّ موقعاً مميَّزا على الساحة الإعلامية في المنامة، إنّ الشعور المذهبي لم يجد بعدُ حلّاً له، لدى عددٍ كبير مِن أبناء الطائفة الشيعية، وإنّ ذلك برز من خلال تظاهرات عدّة، بدأت خلال حرب العراق وإيران، حيث انتبهت السلطات الرسمية إلى ضرورة أخْذِ الأمر في الحسبان، نظراً للتأثير الإيراني الواضح على جزء من الطائفة الشيعية، ولا يزال يبرز حتى اليوم في مناسبات عديدة، وكانت إحدى هذه المناسبات مثلاً، تأهُّل إيران إلى كأس العالم، حيث عاش الكثير من شيعة البحرين هذه المناسبة، وكأنّها تخصُّهم مباشرة. هذا عدا عن أنّ ما يقارب 20 في المئة منهم يتحدّثون باللغة الفارسية.

لقد برهنت الأحداثُ والاضطرابات التي شهدتها البحرين على مدى خشية النظام القائم من تغلغل إيران في الشؤون الداخلية. تولّد لدى بعض المسؤولين البحرينيين الذين التقيتهم، الانطباع بأنّ الأنظار ستتوجّه، بعد العراق، إلى إيران، وقد تكون بؤرة التوتر معها منطلقة من البحرين نفسها إذ يكفي حادث واحد داخل البحرين لوضع طهران في قفص الاتهام، إن كان يراد تحجيمها كما حصل مع العراق تمهيداً لإعادة إطلاق سياسة الاحتواء المزدوج. من هنا تبدو البحرين في موقع صعب يتطلّب الحذر

الشديد، لئلّا تقع البلاد مجدَّدا في ما قد لا يكون قابلاً للاحتواء.

أتاحت لي زيارتي هذه للبحرين أن أوقِنَ بأنّ المشكلة المذهبية قابلة للحلّ، إذا تواصلت سياسة ترشيد الاقتصاد، وضمنت البحرين استثمارات أجنبية كبيرة، وتحوّلت إلى موقع جذب سياحي، ومحطة إقليمية، كما هو شأن دبي. لكنّها قد تصبح أيضاً القنبلة القابلة للانفجار والاستغلال في أيّ وقت.

لم أجد بين المعارضين البحرينيين الذين التقيتهم هذه المرّة مَن يطالب صراحةً برحيل آل خليفة، أو يعمل على ذلك؛ وإنّما هم ينادون بتحسين الظروف الحياتية، لأنّها الكفيلة بتوسيع هامش الحرّيات. الحرّيات! هذه الكلمة السحرية التي تدغدغ مخيّلة كثيرين هنا، لا تزال نسبية. قال لي دبلوماسي غربي في المنامة: «إن لم تنجح السلطات في منح منافذ ومتنفّسات لحركات الاحتجاج، فإنّ الأمرَ سيبدو كمن يحشر القطَّ في الزاوية، وبهذا المعنى يكون ردّ الفعل مفتوحاً على أكثر من احتمال».

الانفتاح السياسي ضروري لوأد الانفجار المحتمل، لكنّه صعب إن لم يحصل بالتدريج. لذلك يشتدّ التركيز على الحلول الاقتصادية، على أمل أن تهدأ النفوس الغاضبة.

لفتني، في رحلتي هذه، أنّ هيكلية الاقتصاد البحريني تكاد تكون فريدةً في غرابتها؛ فمِن أصل 77 ألف شخص يسيّرون عجلة العمل في البلاد، هناك ما يقرُبُ مِن 60 ألف شخص تابعين للدولة. السلطات الرسمية تؤكّد أنّ نسبة البطالة تقتصر على 8,1 بالمئة فقط، لكنّ المصادر الغربية تشير إلى أكثر من 12 بالمئة.

يختلف البحريني عن نظرائه في الدول الخليجية الأخرى، بوجوده في كلّ الوظائف والأعمال. رأيته مديراً لفندق، كما وجدته سائق سيّارة أجرة (تاكسي)، أو بوَّابا، الأمر الذي يشير إلى أنّ المشكلة لا تكمن في الرغبة أو عدم الرغبة في العمل، بل تكمن في توفير الوظائف وخلق الشركات. هنا تختلف التقديرات والتحليلات، ففيما يقول مصدر دبلوماسي غربي في المنامة، إنّ السلطات البحرينية لم تصل بعدُ إلى المستوى المطلوب من توزيع الثروة وتوفير فرص العمل، لكي تمنع اضطرابات مقبلة، يؤكّد، بالمقابل، أنّ الاضطرابات التي شهدتها البلاد منذ عام 1995 بدأت تعزز الاتّجاه نحو خيارات اقتصادية أخرى. ولذا، فإنّ قطاعات خدماتية كثيرة صارت موضِعَ اهتمام، وأكثر ازدهاراً من ذي قَبْل؛ ويكفي أن نذكر مثلاً أهمّية قطاعَيْ الصحّة والتعليم ومجّانيتهما للتأكّد من ذلك.

لا يبدو البحرينيُّ عنيف الطبع أو سريع الانفعال. شعبُ البحرين شعبٌ هادئ وطيّب وكريم ومطبوع على العادات والتقاليد العربية التي اختفت من الكثير من الدول العربية. العادات لا تزال أيضاً جزءاً من تراث العرش نفسه؛ فإن زرتَ الأميرَ في قصره، أو وليَّ العهد، أو أيّ وزارة أو مؤسّسة أخرى، لرأيتَ بأمّ العين أنّ ثمّة علاقات اجتماعية متميّزة تماماً عن الكثير من دول الجوار، فالأمير يقف لأكثر من ساعة مصافحاً ضيوفه ومرحِّبا بهم، يجلس إلى مائدتهم يحادثهم، من دون رفض أيّ سؤال، أو الإعراب عن أيّ اأيّ ااستياء، ويكفي أن يعرّج الضيف على الخيم الشعبية المنتشرة في الكثير من مناطق العاصمة، والتي يختلط فيها الحديث السياسي بأخبار البلد وصوت التلفزيون وقرقرة النارجيلة، ليكتشف بنفسه أنّ ثمّة هامشاً للحرّية صار أكثر اتساعاً، على الرغم من الاستمرار في البقاء تحت سقف معيّن.

ومع ذلك، فإنّ البحرين محكومةٌ بجغرافيتها. السياسة فيها لا تحتمل الخطأ؛ ولذا، فإنّ الخيارات المطروحة، لترسيخ استقرار الوضع الداخلي، هي ثلاثةٌ لا رابعَ لها: فإمّا إحكام القبضة الحديدية ورفض التحاور والعودة إلى البرلمان؛ وإمّا الاستمرار، لفترة قصيرة، في سياسة التشدّد، لرفع سقف التفاوض؛ وإمّا الاهتمام بالأوضاع الاقتصادية والبحث عن مصادر تمويل واستثمارات، مع توسيع هامش الحرّيات. يقيناً، إنّ النهضة الاقتصادية ستستمرّ؛ لكنّ الرغبةَ في انفتاح سياسي واسع تبقى صعبة المنال، إن لم تكن مستحيلة. ولذا، فأنا أغادرُ الإمارةَ، وفي قلبي من الحبِّ لها، بقدر ما فيه من القلق عليها. ثمّة شيء يقول لي إنّ الانفجارَ قادمٌ، لأنّ المشاركة الواسعة في السلطة غير مقبولة...

على الأقل حتى الآن.

في كورو صفّقت لـ«نايل سات»
وبكيتُ على معتقلي الجزائر

كنت كعادتي الباريسية، في ذلك اليوم من عام 1996، أشتري كتاباً من مكتبةٍ أحبُّها، في منطقة سان جيرمان، في قلب باريس. وكنت كعادتي أحسَبُني سأجلس لساعات طويلة أشرب القهوةَ وأتناول العشاء وأقرأ ليلاً في مقهى «les deux magots» الذي يلتقي فيه، من ساعات المساء الأولى، الكُتّاب والمثقفون وكثيرٌ من السيّاح، يقرأون أو يتأمّلون المارّة، أو يتسامرون، في أكثر الأحياء الباريسية حيوية. هذا المقهى يقابله من الجهة الأخرى للجادّة الباريسية سان جيرمان، مقهىً آخرُ كان قد خُطِفَ منه، في سبعينيّات القرن الماضي، المناضلُ اليساري المغربي المهدي بن بركة. وتقول الرواية غير المؤكّدة، حتى يومنا هذا، إنّ الأمن المغربي والفرنسي تعاونا على خطْفِ وتصفية ذاك القيادي الكاريزمي والعبقري والمزعج للملك الحسن الثاني. وإلى يومنا هذا، لم يستطِع أحدٌ فعلياً توفير كلّ الوثائق التي تُثبِتُ ذلك؛ غير أنّ القناعة المبنيّة على الكثير من الشواهد والشهادات تكاد تجعله يقيناً.

كنت في تلك الليلة أقرأ كتاباً عن سجن تزمامرت المغربي، الذي مورِست فيه كلّ أساليب القتل البطيء ضدّ مَن اتُّهموا بمحاولة الانقلاب على الملك المغربي. مات فيه البعضُ، وصمد البعض الآخر يقاوم الموتَ كلّ يوم. كان عددٌ من أولئك العسكريين والضبّاط المعتقلين في ظروف صحراوية نائية وصعبة، كانوا أبرياء، كحال عائلة الجنرال محمد أوفقير، مثلاً، التي سُجِن كلُّ أفرادها، بمن فيهم مَن لم يتخطَّ العامين من العمر، عقاباً على اشتراك والدهم في المحاولة الانقلابية على صديقه وسيّده الملك.

رنّ هاتفي، فارتسم على شاشته رقمٌ مصري. ظننْتُ أنّ المتّصل أحد أصدقائي، أو أنّ ثمّة أمراً يتعلّق بالعمل. لا أحبّ الإجابةَ على الهاتف حين أكون مستغرقاً في القراءة، إلّا إن كانت المتّصلة أمّي، أو أحد إخوتي. لا أدري لماذا أجبتُ. كان المتّصل مسؤولاً مصرياً لا أعرفه. قال لي إنّ وزير الإعلام، صفوت الشريف، يرغب في أن أكون في عداد وفدٍ من الإعلاميين المصريين سيزور مدينة تولوز الفرنسية، ثمّ منطقة كوركو المجاورة للبرازيل، وسطَ الغابات الشاسعة لمنطقة لاغويان. كان هدف الرحلة، وفقَ ما فهمتُ من المتّصل، هو إطلاق القمر الصناعي العربي «نايل سات». لا أستطيع الآن أن أصِفَ لكَ، عزيزي القارئ، كم كان اعتزازي بالأمر كبيراً، وكم كان فرحي عارماً حتى إنّي كنتُ أنطُّ وأقفز قفزاً في المقهى وفي الشارع! ربّما هي مصر التي في خاطري وخيالي، أو ربّما هي الغربة التي ترفع مستوى الحنين العربي إلى أقصاه. والحقّ، انتابتْني مشاعرٌ كبيرة من الفخر والاعتزاز والحبّ، يصعب عليَّ الآن التعبير عنها، لكنّني، كلما تذكّرتها، تعود إليّ نضِرةً ندِيّة، كما لو أنّها حاصلةٌ الآن.

لم يكد المتّصل يُكمِل سؤالَه حتى سارعت إلى الإجابة: «نعم، أكيد، يشرّفني هذا، وهل ثمّة مناسبةٌ أكثر أهمِّية وجمالاً من مناسبةٍ كهذه أشارك فيها؟ أرجوك أن تشكر الوزير بالنيابة عنّي، وأن تُبلِغَه بأنّني أنتظر قدومَ الوفد إلى باريس، لنذهب معاً في هذه الرحلة الرائعة».

كنت آنذاك أعمل في إذاعة فرنسا الدولية، وفي صحيفة السفير اللبنانية، لكنّي كنت قد أضفت إليهما أيضاً فضائية LBC اللبنانية، حيث أصبحتُ مراسلاً لها في باريس، وموفداً من قِبَلِها، من حينٍ لآخر، إلى أفريقيا (أجريتُ للقناة أولَ لقاء مع الرئيس السوداني عمر حسن البشير). جهَّزت كلَّ شيء، مع المصوّر والصديق اللبناني اللطيف، طوني، وقرأتُ ما يلزم عن الأقمار الصناعية، وعن المناطق التي نقصدها، وها أنا مع الفريق، جاهزٌ للانطلاق فورَ وصول الوفد المصري.

لم تطُلْ رحلتنا إلى مدينة تولوز، حيث يجري تصنيعُ الأقمار الصناعية، وبينها قمر نايل سات. لكنْ،

حدثَ فيها أمرٌ مؤاتٍ لي، ومزعجٌ للزملاء المصريين؛ فقد فوجئتُ بشكل القمر؛ فهو عبارة عن كتلةٍ كبيرة مستديرة الشكل، فيها نتوءات تتدلّى منها أسلاك وأشياء أخرى، مغطاةٌ بشيء يُشبه الورق المعدني الذي نستخدمه عادة لحفظ المأكولات. طلبتُ أن أدخلَ لأشاهدَ اللمسات الأخيرة. قُبِل طلبي بسرعة، لكن بشرط أن أرتدي ثوباً أبيض يُشبه ثوب الأطبّاء، وأن تخضع الكاميرا، من قِبَلِهم، لعملية تنظيف دقيقة، كي لا يتسرّب منها أيّ غبار أو غير ذلك قد يلوّث القمر. بسرعة، أعددْتُ تقريري، من داخل المصنع، وقرْبَ القمر. اتَّصلت بزميلتي في «أل بي سي»، إيفا الهاشم. كانت هذه الصحافية والإنسانة الاستثنائية بحرفيّتها وعشقِها للمهنة، كالضابط، دقيقة المواعيد، صارمة مع الزملاء، كبيرة الفعالية في العمل، ولا أعتقد أنّي صادفتُ، من بَعدها، أحداً يضاهيها في احتراف تلك المهنة، ولا صادفتُ موظفاً تلفزيونياً أو صحافياً بسعة ثقافتِها وروحِها الإنسانية العالية. قلت لها: «اسمعي يا إيفا، أنهَيْتُ تقريري على عَجَل، فهل تعتقدين أنّ بإمكاننا تمريره في نشرة الأخبار الآن؟». كانت نشرة التاسعة ليلاً قد بدأتْ من 5 دقائق. لا أدري كيف وماذا فعَلَتْ إيفا حتى وفَّرَت لي كلّ إمكانيّات بثّ التقرير حالاً وعلى الفور. وما إن بلغت الدقيقة 15 بعد التاسعة، حتى كان تقريرنا على الهواء. سرعان ما انتشر التقرير كالنار في الهشيم. وكيف لا، وهذا هو القمر الصناعي المصري الأول؟ بثّته معظم وسائل الإعلام، نقلاً عن قناة «أل بي سي». لا بل إنّ التلفزات المصرية أخذتْه عنّا. جُنَّ جنون وزير الإعلام المصري. كيف يمكن لقناة لبنانية أن تسبق القنوات المصرية في ذلك. حقَّقتُ فعلاً سبقاً إعلامياً فريداً، وحصلتُ على تهنئة مصرية، بينما حصل بعضُ الزملاء المصريين على بعض التوبيخ.

في اليوم التالي قصدنا مدينة كورو الواقعة في لاغويان الفرنسية. هذه المدينة كانت حتى منتصف القرن الماضي قريةً صغيرة يسكنُها أهلها الأصليّون من قبائل غابات الأمازون الشهيرة. وفي تلك الغابات الشاسعة الممتدّة على مساحة 8 ملايين هكتار والتي تغطّي نحو 96 في المئة من المكان المجاور للبرازيل، 200 نوع من الحيوانات و700 نوع من الطيور. ما إن وصلنا إلى هناك، حتى استقبلتنا القرودُ الصغيرة، وبعض الحيوانات الغريبة التي تقفز من شجرة إلى أخرى، تعبيراً عن استئناسها ببني البشر، أو ربّما عن استغرابها منّا.

لم أعُد أذكر الآن، كم استغرقَت الرحلة بالطائرة، من باريس إلى تلك المنطقة الفرنسية خلف البحار، لكنّي أظنّ أنّ المدّة كانت بين 7 و9 ساعات. كنت مع مجموعة كبيرة من الإعلاميين المصريين والفرنسيين وعدد من مسؤولي البلدَيْن السياسيين والاقتصاديين والدبلوماسيين. شاءت المصادفة أن أجاور في الطائرة، مسؤولَ شمال أفريقيا والشرق الأوسط في الخارجية الفرنسية جان كلود كوسرون. رجلٌ واسع الثقافة، سريع البديهة، لطيف المعشر ومحبٌّ لدولنا العربية. لكنّ كوسرون قليل الكلام، كمعظم الدبلوماسيين الذين جاؤوا من عالم الاستخبارات إلى الدبلوماسية (على الرغم من أنّه عاش في لبنان ودول عربية فترةً طويلةً، وهو يُتقن العربية) فكانت الرحلة عبارة عن أحاديثَ قليلةٍ ونومٍ كثير، وحلمٍ جميل بأن نشاهد بأمّ العين إطلاقَ أول قمر صناعي عربي في الفضاء.

كانت السماء تمطر بغزارة فوق الغابات الشاسعة حين وصلنا. فارقُ الوقت بين العاصمة باريس وهذه المنطقة الفرنسة النائية، نحو 6 ساعات. زوّدتنا الشركةُ المصنِّعة للقمر بغطاءٍ بلاستيكيٍّ، كي نرتديه، فوق ملابسنا، وفيه غطاءٌ للرأس يقينا من المطر، كي نستمتع بالسير تحت الأشجار، من دون أن تتبلَّل ثيابُنا. وصلنا ظهراً. ارتَحنا من عناء السفر. تناولنا غداءً لذيذاً من الأسماك الطازجة الفاخرة واللحوم المحليّة الإنتاج. سرنا مسافاتٍ طويلةً في الغابات التي لا نرى عَبرَها إلّا الغابات، ومِن خلفها الغابات، ومِن أمامها الغابات. تحادثنا قليلاً مع السكّان المحليين، وهم قلَّة، وسألنا كثيراً أصحابَ الشركات عن القمر وأهمّيته.

كان عدد سكّان كورو، عندَ وصولنا إليها، قد وصل إلى حوالى 25 ألفاً، بينما لم يكن يتجاوز، قبل قدوم شركات الأقمار إلى القرية، 700 أو 800 شخص. كان التلامذة هنا يقطعون 4 ساعات يومياً، سَيْراً على الأقدام، ذهاباً وإياباً، لكي يصِلوا إلى مدارسهم، ويتعلّموا. لم يكن ثمَّة مستشفياتٌ ولا أماكن

تسلية، كان هناك مقرٌّ واحد للصليب الأحمر. أمّا اليوم، فقد صارت مدينةَ كبيرة، فيها مستشفياتٌ ومحالٌ تجارية، ودور سينما، وأنشطةٌ كثيرة، أغْنتها الجنسيَّات المتعدّدة التي قدِمت إلى المدينة للعمل في شركات الأقمار الصناعية أو في الجيش الفرنسي.

كانت كلّ تلك الأنشطة ضرورية أيضاً لِلْحَدّ من حالات الانتحار التي تكثر في تلك المنطقة بسبب الملل وتشابه ورتابة كلّ شيء. فقد كان السكّان الأصليّون يعتاشون من تجفيف السمك واللحوم والصيد، ولم يعرفوا البرّاد إلّا بعد وصول الشركات الأجنبية، فكان من تغيُّر نمطِ حياتهم أنّه أساء كثيراً إلى عاداتهم وتقاليدهم، وبدَّل من هناء عيشهم. ثمّ إنّ الغابات الشاسعة لا تقدّم إلّا منظراً رتيباً يبعث الملل في النفوس. مناظرها تتشابه على مسافات شاسعة، ولا تترك أُفقاً مفتوحاً؛ وتلك كلّها عواملُ تدفع ضعيفَ النفس إلى الانتحار.

فلْنَعُدْ، عزيزي القارئ، إلى الأهم...

ذهبنا عند السابعة ليلاً (أي الواحدة ظهراً في الشرق الأوسط) إلى الشركة المكلَّفة إطلاق القمر المصري. طلبوا منّا أن نلزَمَ الصمتَ ونجلس بهدوء أمام الشاشات الكبيرة التي سنرى عَبرَها أولاً، ثمّ عبْرَ الفضاء فوقها ثانياً، كيف سينطلق نايل سات إلى الفضاء، ويبقى فيه على الأقلّ 12 عاماً، أو على الأكثر نحو 20 عاماً.

كان معنا كبارُ مديري شركات «أريان سبايس» و«ماترا ماركوني» و«آلكاتيل»، وصفوت الشريف، وبقيَّة المسؤولين. شاهدْنا جميعاً مراحل صناعة القمر، عبرَ أفلامٍ عرضتْها «آيرو سبايس»، قبل أن نصل إلى قاعدة الإطلاق التي تأسّست عام 1980.

قال لنا المشرف على المشروع، في شركة «أريان سبايس»، إنّه مع اكتمال مراحل هذا القمر الذي «يُعدّ حدثاً عربياً وعالمياً، ستُسلَّم مفاتيح تشغيله إلى مصر، خلال أيّام قليلة، ريثما ينتهي تفحُّص بعض التفاصيل، وإنّ المهندسين المصريّين أبدوا قدرةً تقنيَّة عالية، وإنّ التقنيّات التي اكتسبتها الشركة، خلال عملها على مدى 18 عاماً، وإطلاقها ما لا يقلّ عن 145 قمراً، إضافة إلى 186 قمراً قيْدَ الإنشاء، أسهمت في رفع العمر الافتراضي لقمر نايل سات، من 12 عاماً إلى أكثر من 16 عاماً، الأمر الذي سيوفر لمصر أرباحاً عالية، ولا سيّما أنّ القاهرة أجّرت معظم أقنية القمر. أمّا اختيار منطقة لاغويانا الفرنسية النائية، والمحاذية للبرازيل، لإطلاق الأقمار الصناعية، فله علاقةٌ مباشرة بالموقع الجغرافي على الكرة الأرضية، وبالمناخ، حيث تضمن تلك العوامل دفعاً للأقمار، في اتّجاه الفضاء، لا يمكن توفيره في منطقة أخرى.

توزّعْنا على المقاعد. تبادلنا نظرات الاعتزاز والفرح، ارتسمت البسماتُ على وجوهنا. تمنّى علينا أحدُ المسؤولين عن البروتوكول ألّا نصفّق حين نرى القمر المصري قد انطلق بنجاح، لأنّهم سيطلقون قمراً يابانياً، مباشرةً بعد إطلاق القمر المصري؛ ومن الأفضل التصفيق بعد إطلاق القمرين، فقد يفشل أحدهما. أعتقد أنّنا صلّينا جميعاً لنجاح التجربة العربية، لكنّنا كنّا سنفرح أيضاً للقمر الياباني، ولو بنسبة أدنى. وعَدْنا المسؤولَ بأن نلتزم بما قال. لكن صدّقوني، ما إن بدأ القمر يتصاعد في الفضاء، وما إن صار المكان الذي نحن فيه يهتزّ ويرتعد، تحت وقْع محرّكات القمر، وما إن تأكّدنا من أنّه نجح، حتى هبَبْنا جميعاً وقوفاً نصفّق ونزغرد ونتبادل العناق والمصافحة، ناسين تماماً القمر الياباني... لم تنفع معنا كلّ تمنّيات المسؤولين الفرنسيين ودعواتهم الحازمة. كانت لحظات تاريخية نادرة ما زلت أذكرها حتى الساعة: صوت القمر، ارتفاعه نحو السماء، ضحكات المصريين وتصفيقهم وصياحهم.

فرح مصر... حزن الجزائر

يبدو أنّ لكلّ فرحٍ نقيضه في هذه الحياة، ولكلِّ حاضرٍ سعيدٍ ماضيه المأساوي. ما إن انتهت تلك

اللحظات التاريخية المجيدة، حتى قيل لنا إنّ في كورو معتقلاً قديماً يعود إلى زمن نابوليون، وكان يُنفى إليه المحكومون بالأشغال الشاقة، ونُفِيَ إليه الضابط الفرنسي اليهودي درايفوس الذي فجَّرتْ قصُّة اتّهامه، ثمّ تبرئته، قضيّة كبيرة، عبر التاريخ، في فرنسا، دفعَتْ الكاتب الكبير إميل زولا إلى كتابة مقاله الشهير «إنّي أتَّهم». ذهبنا إلى ما بقي من ذلك المعتقل الذي تغيّر مراراً. دخلنا إلى بعض غرف الاعتقال السابقة. كنتُ أبحثُ عمّا إن كان درايفوس كتب شيئاً على الجدران. لكنّي فوجئت ببعض الكتابات العربية بخطّ قديم. قشعريرةٌ سَرَتْ في جسدي. أيُعقَل أن يكون الفرنسيّون نَفوا إلى هنا معتقلين عرباً. وماذا فعل هؤلاء العرب كي يُنفَوا؟ وكيف كان يجري نفيُهم وتعذيبهم هنا؟

سألتُ كثيراً، وقرأتُ أكثر. اكتشفتُ أنّ هؤلاء كانوا أبطالاً ناهضوا الاحتلال الفرنسي لبلادهم الجزائر. يعود المعتقل إلى القرن السابع عشر. إلى هنا أُبعِدَ مناضلون جزائريون لم نعد نعرف عنهم سوى بعض أسمائهم. من تلك الأسماء بوعلالي بلقاسم، صوفي عبد القادر، لخضر بن طاهر. بعض كتابات هؤلاء لا تزال على الجدران شاهدة على مرورهم المرير في هذا المكان. بعضهم الآخر مات من البرد أو القيظ أو الجوع أو المرض. كانت كسرةُ الخبز وبعضُ الماء قوتَهم اليومي. وفي الأبواب الحديدِ طاقة مستديرة يمدّ عبرها المعتقَلُ رأسَه لكي يحلقوا شعره. جلستُ في ذاك المكان الذي يشكّل وصمةَ عارٍ في التاريخ الفرنسي، ووسام بطولة لأولئك الذين ناهضوا الاستعمار، أحاول أن أتخيّل كيف كانت أحوالهم في هذا المعتقل البعيد والرهيب. بماذا فكّروا؟ هل استطاعوا أن يكتبوا إلى أهلهم وذويهم؟ هل عرف أهلهم شيئاً عنهم؟ هل اعتقد أهلهم أنّهم ماتوا في الأسر فأقاموا لهم المآتم؟ لماذا لم يخرج كاتب عربي بحجم إميل زولا يحكي عن مأساتهم فيحرّك الرأي العامّ؟

لا شيء نغّص علينا فرحتنا بالقمر الصناعي، إلّا أحوال أولئك المناضلين الأبطال الذين نُفوا إلى هنا، لكنّهم زرعوا في بلادهم بذرة النضال والتحرّر. شعرتُ بغصّةٍ تنقض فرحي بالقمر المصري، لكنّي في الحالتين المصرية والجزائرية شعرت باعتزاز كبير.

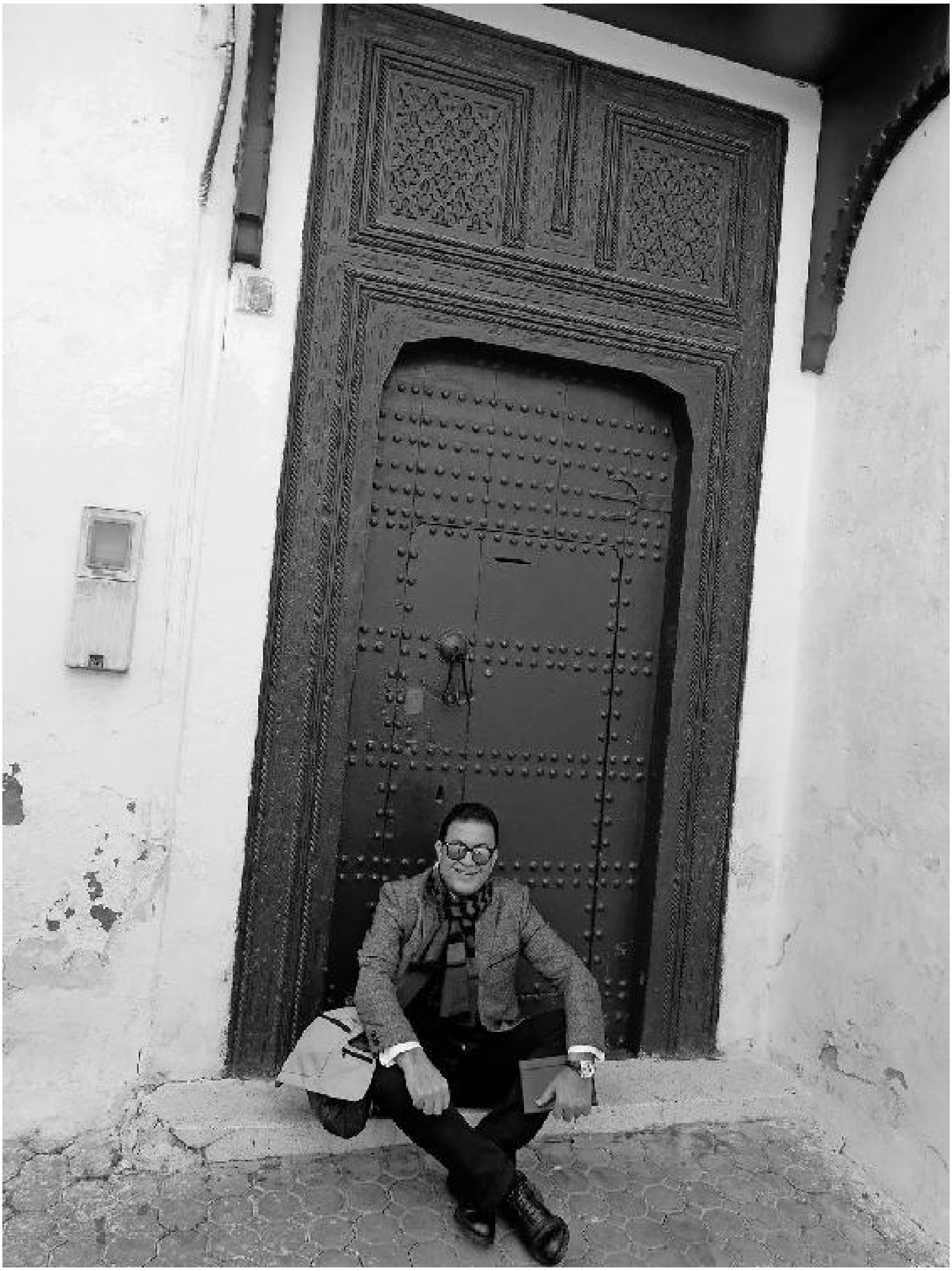

أبواب المغرب.

الصحراء غربية أم مغربية؟...
الجراد يأكل الجواب

أسراب من الجراد تنهش أوراق ما بقي من الشجيرة أمام مطار تندوف الجزائري. الحرارة تخطت في ذاك النهار 48 درجة مئوية. وحده وجه محمّد السالم زميلنا الصحافي الصحراوي يشعُّ بابتسامته العريضة تحت قبّعته الإسبانية من الجانب الآخر لزجاج المطار، ويومئ بيده مرحَّبا وموحياً بأنّه لم يستقبل منذ فترة طويلة زائراً... نحن في قلب الصحراء، وفي أكثر القضايا تعقيداً، وأسهلُها حلّاً، إنْ شاء المتنازعون؛ لكنّهم لا يشاؤون. كاد الجميع ينسى هذه القضيّة، لولا استقالة المبعوث الدولي جيمس بيكر من ملفّها والتذكير بها.

«لم أصدّق أنّك ستأتي»، هكذا بادرني محمّد، المسؤول حالياً عن برنامج سياسي في الإذاعة الصحراوية المحليّة، والذي يجاهد في «وزارة الإعلام»، أيْ في ذاك المبنى المتواضع المؤلّف مِن بضع غرفٍ إسمنتية مترامية ومتهالكة على الرمال، للاتصال بالصحافيين العرب والغربيين بُغية التذكير بالقضيّة المنسيّة، مذ توقُّف القتالُ بين جبهة «بوليساريو» والجيش المغربي، عام 1991. ابتسامة محمّد بأسنانها البيضاء تناقض الوجه الذي لوّحته الشمس حتى كاد يميل إلى السواد.

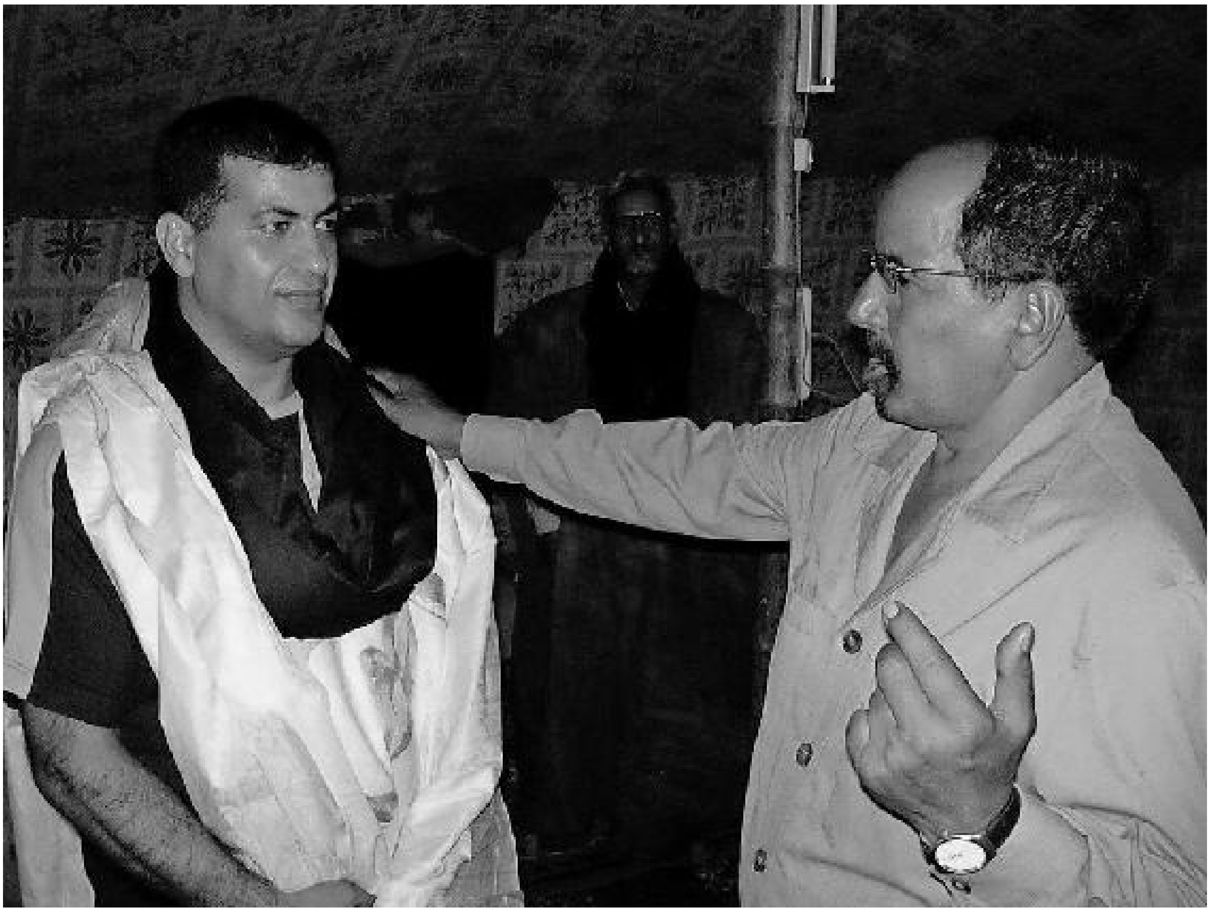

رئيس بوليساريو محمد عبد العزيز.

تمخر بنا السيّارة عباب الصحراء. سيّارة ذات دفع رباعي ضروريّةٌ لاجتياز تلك المسافة من المطار حتى المخيّمات. سِرْنا على الطرق الإسفلتية التي كانت قائمةً في بداية الرحلة، ثمّ أخذت تختفي شيئاً

فشيئاً، لتحلّ محلّها عواصف رملية تحجبُ الرؤية، وكأنّما رمال تلك الأرض الوعرة والقاحلة لم تعتد على الزوّار. يرتفع لهيب الرمال ليتخطى 50 درجة مئوية، ينبعث من محرّك السيّارة شيءٌ من الأنين، وبخارٌ يوحي بشدّة المعاناة. كيف يمكن لأهل هذه الأرض أن يعيشوا هنا؟ هل يُعقَل أنْ تكون الحرب التي قاربت في السابق العقد ونصف العقد، بينهم وبين الجيش الملكي المغربي، جرت من أجل الحصول على هذا القيظ والرمال الجرداء القاحلة الموحية بأنّ الطبيعة أيضاً يمكن أن تشنّ حرباً على البشر، وأن تمارِسَ الجَوْرَ بكلّ ضروبه؟ مَن لم يعتَدْ ركوب السيّارة بتعرّجاتها والتواءاتها فوق الرمال، فقد يُصاب بالغثَيان، أو يُنهِكُ جسدَه ورأسه بالاصطدام تارةً بجوانب السيّارة الداخلية، وطوراً بسقفها. أحمد الله أنّني اعتدتُ ذلك منذ سنوات طويلة، بسبب رحلاتي الكثيرة، إلى موريتانيا والساحل الأفريقي ومناطق صحراوية كثيرة لا يزال أهلُها يعشقونها. ها نحن الآن نحطّ الرِّحالَ بين الخيم وبعض البيوت الخالية إلّا من حصيرة أو سجّادة. فوق الحصير، تزمجر مجمرةٌ عليها إبريق الشاي، وبالقرب منها بعضُ الأقداح. ومن الخارج يتعالى ثغاءُ شاةٍ، أو صوت شاحنة تثير خلفها زوبعة من رمال. نحن في مخيّمات تندوف الجزائرية التي باتت منطقة مخيّمات البوليساريو المسمّاة هنا دولة.

إنّها الجغرافيا تحدّد معالم التاريخ. ومَن يبتغِ الوصولَ إلى مخيّمات الصحراويين في تندوف، فلا بدّ له من أن يمرّ بالجزائر. وللحصول على تأشيرَة من السفارة الجزائرية في باريس، يكفي أن تقول إنّك مِن قِبَلِ السفير الصحراوي في العاصمة الفرنسية، منعاً للكثير من الشكوك والأسئلة. نَصِلُ إلى مطار هواري بومدين في العاصمة الجزائرية. نظرةٌ من موظف الشرطة إلى جواز السفر، تليها نظرتان مشكّكتان إلى حامل الجواز. ثمّ تعارفٌ وترحيبٌ ومصافحة، فاستكمال الرحلة إلى مطار تندوف. الرحلة داخلية، لكن لا بدّ من التدقيق مجدَّدا في الجواز، والسؤال عن أسباب الزيارة.

يبتسم محمد سالم المتصالح مع نفسه ومحيطه إلى درجة لافتة، ويبادر إلى القول: «والله منذ زمن ننتظر زيارتك، وآمل ألّا تُخيفك هذه الحرارة المرتفعة والرمال الجرداء، بعد قليل سترى كم الناس طيّبون هنا، وكم هم متعلّقون بالصحراء وبأرض أجدادهم، والحياة هنا جيدة رغم صعوبة الطبيعة». يفتح السائق نافذةَ السيّارة، قليلاً، ويمسح الغبار عن المرآة الصغيرة، لتنقشع الرؤية وراءه. فجأةً، تهاجم السيَّارة حُمَمُ الرمال. يسارع إلى إغلاقها، ويعتذر بتهذيب شديد، ثمّ يلفّ وجهَه ورأسَه بغطاء. تتوقف السيّارة عند أول حاجز. لا يظهر من وجوه الواقفين عند الحاجز سوى العيون. وجوهٌ مقنَّعة لاتّقاء الرمال، لا لإخفائها عن عيون الزوّار. ترحيبٌ ثمّ استكمال الطريق خلْفَ بضعِ سيِّارات مليئةٍ بالركّاب ورؤوس الماعز وبعض الحاجيات الآتية على الأرجح من الجزائر.

قرأتُ كثيراً عن قضيّة الصحراء. استمعتُ إلى كلّ الآراء. قابلتُ مختلفَ المسؤولين، من الأمم المتحدة والمملكة المغربية والجزائر وأصحاب القضيّة... لكنّني بقيتُ، في واقع الأمر، حائراً في شعوري، فأنا بطبعي وحدويٌّ، لا أحبُّ الفرقةَ بين عربيٍّ وعربيّ، وأحلمُ كما الكثير من أبناء جيلي، بأن نرى هذا الوطن العربي موحَّداً ومرفَّهاً وحرًّا وديمقراطياً ينعم بثرواته وينهض بشعوبه. فكيف لي أن أتضامن مع أناس يقولون إنّ حلمَهم هو الانفصال عن المملكة، وزرعُ علَمهم على رمال جمهوريّتهم؟ لكنّني في المقابل، متعلّق بحقوق الإنسان، وحرّية الشعوب في تقرير مصيرها؛ فالناس هنا يقولون إنّهم كانوا مستعمَرين من قِبَل الإسبان، وإنّهم ناضلوا للاستقلال، ولم يكونوا يوماً تابعين للمملكة. أحببتُ المملكة المغربية كثيراً، عشتُ بين ناسها ولي فيها أصدقاء كثيرون، تعلّقت بتاريخها وحضارتها وأبواب مدنها وأسوارها العتيقة، وكنتُ أرى التاريخ يرْشَحُ من كلّ مدينة وقرية ودار. فماذا لو كانت المملكة على حقّ؟ وها أنا أجدُ أمامي هنا في الصحراء أناساً طيّبين مقتنعين بأحقيّة قضيّتهم، ويناضلون من أجلها، فهل هم فعلاً على خطأ؟ ثمّ ماذا لو كانوا ضحيّة الصراع المغربي الجزائري؟ ولماذا، أوَّلا، لم ينجح اتُّحاد المغرب العربي في الاتّحاد؟ ثمّ في حلّ هذه القضيّة، ثانياً؟ لعلّ الصحراويّين كانوا قبِلوا بالانضمام إلى كنف المملكة، كما فعل جزءٌ من أهلهم وناسهم، أو ربّما كانت عبقرية السياسة وعراقة الدبلوماسية المغاربية، وجدَتْ حلّاً إنسانياً وسياسياً لهذا الإسفين المغروس في

جسد المغرب.

شغلتني تلك الأسئلة طويلاً. كان لي صديق مغربي واسع الثقافة بسيط الحياة والطباع شريف الانتماء والنضال، يحفظ القرآن الكريم والأحاديث والتفاسير، ويحفظ معظم الشعر العربي بقديمه وحديثه، ويستطيع أن يتلو من ذاكرته آلاف الأبيات الشعرية في ليلة واحدة، تماماً كما كان ضليعاً في الثقافة الفرنسية، يحفظ القاموس الفرنسي عن ظهر قلب. هو الباهي محمّد، علّمني هذا الرجل الكثير عن المغرب. كان يكبرني بنحو 20 عاماً، لكنّنا كنّا نلتقي تقريباً كلّ أسبوع حول غداء، فيشرح لي الكثير عن قبائل وعشائر وناس ومناطق في المغرب. هو نفسه كان تلقّى عرضاً من الرئيس الجزائري هواري بومدين، ليكون رئيساً للصحراء، في مرحلة معيّنة، لكنّه رفض. شرح لي مراراً قضيَّة الصحراء، وتعقيدات العلاقة مع الرباط، وانقسام العائلات بين تندوف هنا، ومنطقة العيون الواقعة في المملكة. لكنّه، في كلّ مرّة، كان يمسح شفتيه الكبيرتين المتدليتين، بعد الأكل، ويمسح عرقه، حتى في فصل الشتاء الباريسي، ويقول لي: «يا أخي سامي، اذهب إلى هناك، وسوف تفهم أكثر ممّا أشرحه لك الآن، وإيّاك أن تكتبَ عن مكان، قبْلَ أن تذهب إليه، وتسيرَ في شوارعه وتُقيمَ بين ناسه».

وها أنا ذا، أخيراً، أعملُ بنصيحة صديقي الباهي محمّد (رحمه الله) وأزور ما نصحني بزيارته. لقد شرح لي كلّ شيء، إلّا شظف العيش هنا، فوق الرمال، وتحت الخيام شبه الخاوية، ووسط حرارة لا ترحم.

فرحة زميلنا الصحراوي محمّد السالم تكاد لا توصف. يبدو كمَن يريدنا أن نرى كلَّ شيء، في دقائق. يتدفّق حديثُه كنهرٍ يعزُّ وجودُه في الصحراء. يمزج بين العربية الصحيحة وبين بعض الكلمات المغربية والإسبانية. تنهمر علينا كلماتُه سريعاً كأنّها تهبط من عَلٍ. ينثرُ حماستَه علينا، نحن الواصلين لتوّنا مُثقَلين بتعب الرحلة. يشرح لنا أنّ مخيّم «27» الذي حلَلْنا به، يتّخذ اسمَه من يوم إعلان «الجمهورية العربية الصحراوية» غير المعترف بها رسمياً، من قِبل المغرب، والدول الكبرى، والدول العربية (باستثناء سوريا، زمنَ «جبهة الصمود والتصدّي»، وليبيا، واليمن الجنوبي، سابقاً).

فقر وجراد

يتدفّق محمّد كلاماً وحماسةً وشرحاً، فيسرحُ ناظري في كلِّ اتّجاه، كأنّني أريد أنِ أكتشف كلّ شيء دفعة واحدة، أو كأنّما عيني تحوّلت إلى كاميرا تريد التقاطَ كلِّ الصور، والاحتفاظَ بها لغدٍ أفضل أو للتاريخ. أرى أمامي بيوتاً من طين، أو قُلْ بقايا بيوت لم تترك خلفَها سوى بعض الجدران أو أنصاف الجدران البيضاء أو الصفراء. انتبه محمّد إلى المكان الذي تسمّرتْ فيه عيناي. لم أسأله. هو بادرني بالقول: «إنّ الأمطار التي سقطت قبل فترة، وبعد سنوات من الجفاف، هدمت هذه البيوت المتواضعة، لأنّها كانت مبنيَّة أصلاً من الطين والماء فقط، ومغطّاة بألواح الصفيح، ذلك أنّ المواطن الصحراوي لا يقوى على شراء الإسمنت والحديد والخشب».

«المكتوب يُقرأ من عنوانه» إذاً، كما يُقال. الفقر سيّد المكان والحاجة أمّ البلوى. سرعان ما فهمتُ أن لا رواتب هنا، ولا دخْلَ يأتي من الخارج، وإنّما الجميع يعملون مجّانا لقاءَ حصولِ كل عائلة من «البوليساريو» على خيمةٍ، كلَّ خمسة أعوام، وعلى كمّية من الماء كلّ عشرة أيّام، وعلى الغاز والسكّر والعدس والدقيق. أخبرني الطبيب عبد الله، في المستشفى المتواضع الذي بناه الصحراويون، من مساعدات جمعيات إسبانية، أنّ الكثير من الأطفال يموتون بسبب سوء التغذية، وكذلك تفقد بعض الأمّهات الحياة حين تتعسّر الولادة، بسبب النقص في الموادّ والتجهيزات الطبّية، فضلاً عن قتلى الأمراض المُعدية.

«لا بدّ من أنّك تعِبٌ يا أخي سامي من عناء السفر، نحن وفّرنا لك إقامةً مريحة، والجميع هنا بانتظارك، سأتركك ترتاح، وترتّب أوضاعك، وفي المساء نذهب في جولة على الإخوة هنا. وغداً، سيُقيمُ الرئيس محمد ولد عبد العزيز حفلَ عشاء، في خيمته، احتفاءً بك». لقد كنتُ حقاً بحاجة إلى

الراحة وإلى حمّام بارد، وإلى قسطٍ من النوم، حتى أستعيدَ كامل نشاطي. كنت أريد نشاطي كاملاً، كي أحفظ أكبرَ قدْرٍ من صوَر تلك الرحلة التي قد لا تتكرّر.

سنضعكم في قصر الضيافة، يقول محمّد سالم. القصر عبارة عن ثلاث غرف مبنيّة بالاسمنت ومكيّفة، وأمامها باحةٌ واسعة، وقنطرةٌ وعددٌ من الحرّاس، وطبّاخ توحي لكنتُه بأنّه على الأرجح من المعتقلين المغاربة عند البوليساريو. لعلّ قصر الضيافة هو بين البيوت والخيم النادرة المتمتّعة بالقليل من الكهرباء، وهذا بحدّ ذاته إنجازٌ كبير في تلك المخيّمات.

مرَّ الليل بهدوء. دخلَ نسيمٌ صباحيٍ منعشٌ، عند الساعات الأولى من الفجر. ما إن تسلّلتْ شمس الصباح إلى غرفتي، وأضاءت الرمالُ الذهبية، وعَلا ثغاءُ الماعز، حتى جاءني أحدُ الموظفين بطبقِ الفطور المؤلَّف من بعض الأجبان والألبان والبيض، وشيء من الحلوى، وإبريق من الشاي الشهير. طبقٌ فقيرٌ، لكنّه يعكس كرمَ الصحراويين وضيافتهم وأصالتهم، على الرغم من تواضع الحال. لم أتأخّر كثيراً في غسلِ وجهي، وتناوُلِ ما تيسّر، على عَجَل. وكانت مفاجأتي كبيرة حين عبرتُ الباب إلى الخارج، ورأيتُ أنّه لم يبقَ شيءٌ من الشجرتين اللتين كانتا أمام الباب. كان الجراد قد أتى على كلّ الأوراق الخضراء، لا بل أكل أيضاً قشورَ الجذع والأغصان. عجبتُ لحال الدنيا. أيُعقل أن تجتمع المصائبُ إلى هذا الحدّ، فتتكسّر نِصالُ الفقر على نصال الجراد؟ ما كان أخضرَ في المساء، أمامَ قصر الضيافة، بات هياكل عظميّة في الصباح. اجتاح الجرادُ المكان. كانت أسرابُه تحجب رؤيةَ السماء. كأنّما هذا القليل من مصادِر العيش هنا، ليس مقبولاً من طبيعة صبَّتْ كلّ جَوْرِها على هذا المكان.

يلمع من بعيد عمودٌ معدني. يشرح الموظف، أنّه تابعٌ لبعض المنشآت الجزائرية، فالصحراء الجائرة على السطح، تحتضن في جوفها ثروات معدنية كثيرة، وخصوصاً الفوسفات، وباتت الاكتشافات النفطية فيها تعِدُ بالكثير، فازدادت الأطماع.

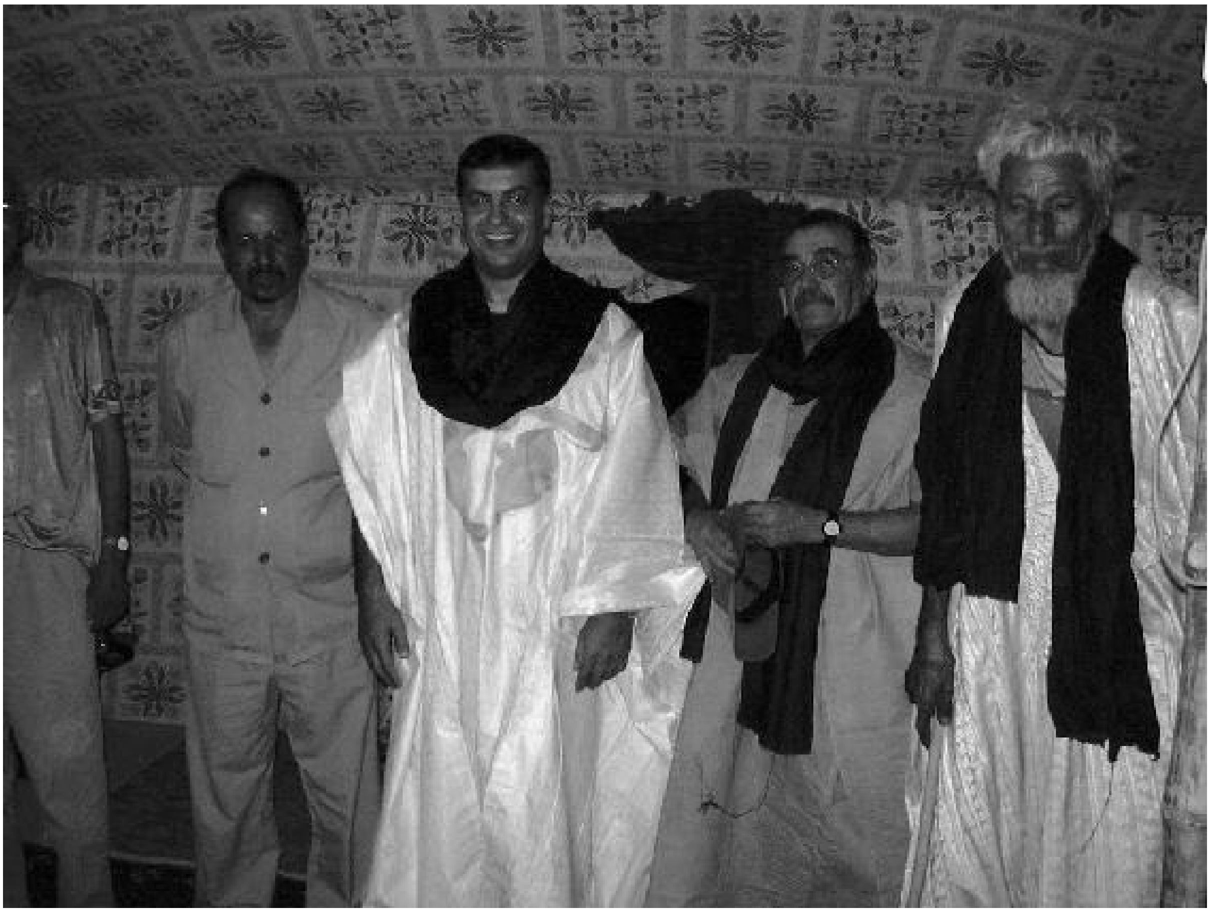

مع شاعر الصحراء وبعض المسؤولين.

ماذا تعني بوليساريو؟

تِرتاح الجغرافيا قليلاً في الفجر الصحراوي، فيُطِلُّ التاريخ برأسه: من هي جبهة بوليساريو؟ لماذا أُنشئتْ؟ وهل يحقّ لها أن تطالبَ بالاستقلال؟ أهي راغبة فعلاً في الانفصال الكامل عن المملكة المغربية، أم العرش على حق حين يقول إنّ الصحراويّين كانوا جزءاً من رعاياها، ولا بدّ من عودتهم إلى كنف الوطن الأمّ؟

يقول التاريخ إنّ اسم بوليساريو هو اختصار لـ«الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب». لكنّي، حين وصلت إلى هنا، لم أجِدْ ساقيةً حمراء ولا ذهباً يلمع. اللامع الوحيد هنا هو الرمال. بدأت بوليساريو نشاطَها العسكري ضدّ المستعمر الإسباني، عبر هجوم شنَّته على إحدى الحاميات الإسبانية في عام 1973. أعلنتْ مؤتمرها التأسيسي في العام نفسه، وسرعان ما حصلت على مساعداتٍ من ليبيا والجزائر. كانت المساعدات التي يقدّمها البلدان مرتبطةً بالعداء للمملكة المغربية، أكثر منها حبًّا بالصحراويين. وبعد الولي مصطفى، مؤسِّسِها، تولّى محمد عبد العزيز قيادتَها، منذ آب/ أغسطس 1976، ولا يزال حتى اليوم.

«ما رأيك في زيارةٍ للمتحف العسكري؟»، اقترح عليَّ المرافق الصحراوي المكلَّف بإطلاعنا على بعض المرافق الصحراوية ذات الصلة بالصراع.

مصفّحات مدمّرة أمام المتحف، تظهر من بعضها سباطانات المدافع المكسّرة، ومن بعضها الآخر تجويفات في حديدها، وبعضها الثالث أكله الصدأ. يوحي المنظر بمقبرة للحديد الصلب تبقى شاهدةً على تاريخ من الدماء التي أُهرِقَت من أجل اللاشيء.

داخل المتحف، مدافع من مختلف الأنواع موزّعة بشيء من الترتيب، أو بكثير من العشوائية، بحسب الزوايا. وبعض مظلّات عسكرية ممزقة وثياب عسكرية مكدَّس بعضها فوق بعض، وخزانتان زاخرتان بالبطاقات العسكرية: «هذه غنائمنا من الجيش المغربي»، يقول مسؤول المتحف الذي يجرجر قدميه بصندال عتيق، تماماً كما يجرجر خلفه تاريخاً من النزاع الذي كاد يأتي على كلّ شيء، من دون أن يُؤدّي إلى حلٍّ أو بداية حلّ.

ما يوضحه المتحف بصورته الحديدية الفجّة، يَظهر أيضاً بجانبه الإنساني، في ما بقي من تفاصيل وجه محمّد ولد دادي الذي كان ذات يوم قائداً للفيلق الميكانيكي السابق في جبهة بوليساريو. وجهٌ فاقدٌ لجزءٍ من عظامه، ذقن مشطوبةٌ من الوسط، ومقطّبة على عَجَل، بحيث إنّ الغرزات تركت في الوجه ندبةً ماثلةً بعد مرور أكثر من 20 عاماً على تلك المعركة الشرسة التي قادها، وانتهى فيها أسيراً عند الجيش المغربي.

الوجه مشوّه، وكذلك الجسد، انحناءاته كثيرة. إحدى اليدين تحمل جروح التاريخ، والقدم المصابة تكاد لا تحمل الجسد الواهن.

يبتسم هذا العسكري الذي قاد معارك كثيرة قبل أن يقع في الأسر، ويروي كيف تعرّف إلى وليده بعد خروجه من السجن المغربي، بينما ابنه لم يتعرّف إليه. لكنّه يضيف أنّه مستعدّ للقتال مرّة ثانية، إذا ما اقتضى الأمر.

هو ليس الوحيد الذي يُعرب عن الاستعداد للقتال، فهناك الصقر العسكري بامتياز محمّد الأمين بوهالي الذي يتولى منصب وزير الدفاع. يوحي هذا الرجل، بنظرته الثاقبة، الشبيهة بنظرات القيادي الأفغاني الراحل أحمد شاه مسعود، بأنّه على استعداد لخوض معركة في أيّ وقت، إنْ لم يحلّ السلام. يقول بوهالي: «إنّ الحرب لم تكُنْ، ولن تكون غايةً في حدّ ذاتها، ونحن لم نقُمْ بها إلا بُغيةَ السلام

والحصول على الاستقلال، لكنّنا لن نتخلى عن شيء من مطالبنا بالاستقلال، مهما طال الزمن. ومع ذلك فإنّنا حين يأتي السلام صريحاً وحقيقياً، نفتح له أبوابنا، وننتظر، شرط ألّا يطول الانتظار، لأنّ انتظارنا السابق لم يؤدِّ إلى شيء». لم يعرف هذا الرجل طوال حياته سوى الجيش والقتال والعسكر، وحين كان يغادر الصحراء، فإنّما لكي يذهب إلى ثكنات ومعسكرات الجيش في الجزائر الحليفة والجارة والراعية والداعمة.

كان الجيش الجزائري، ولا يزال، يقف خلف بوليساريو، لكنّه كان يثير بعض الشكوك في نفوس الصحراويين حين تلوح في الأفق تسويةٌ معيّنة بين الجزائر والرباط، ولا سيّما في عهد الملك الراحل الحسن الثاني. روى لي وزير الدفاع الجزائري السابق، والرجل القوي سابقاً، خالد نزار، كيف أنّه طرد وفدَ بوليساريو من مكتبه، ذاتَ مرّةٍ، حين جاءه مطالباً باستئناف القتال. قال للوفد: «إن كنتم تريدون ذلك، فقاتلوا على أرضكم، لا على الأرض الجزائرية».

حوار بلا نتائج

يقول التاريخ أيضاً إنّ الملك الراحل الحسن الثاني كان صاحب الفكرة العبقرية في قيادة شعبه، بمسيرة سلمية، في منتصف سبعينيّات القرن الماضي، إلى الصحراء. حمل المغاربة علَمَ بلادهم، واجتاحوا الصحراء؛ وبذلك كانت نهاية فلول الجيش الاستعماري الإسباني. لم يقبل الملك يوماً، ولم يقبل أيُّ حزبٍ مغربي عريق، فكرةَ استقلال الصحراء، وكلُّ مَن كان يجرؤ على الإعراب عن دعم بوليساريو، كان يُرمى به في غياهب السجون سنواتٍ طويلةً، كما كانت الحال مثلاً مع الناشط الشيوعي اليهودي المغربي إبراهام سرفاتي. ومع ذلك، فإنّ الملك الراحل فتح قصره وذراعيه لوفد بوليساريو الذي جاءه مفاوضاً بقيادة الرجل الثاني في الجبهة بشير مصطفى السيّد. كان هذا الأخير يحمل في شخصه شرعيتين: الأولى من شقيقه الولي مصطفى الذي كان القائد الأول لجبهة بوليساريو، وسقط قتيلاً على أرض موريتانيا، والذي ربّما كان قد أخطأ في مهاجمتها، حيث فقَدَ كلَّ من كان يدعمه فيها؛ والثانية أنّه ابن بوليساريو، ويمثل الجناح المعتدل فيها.

استقبل الملكُ الوفد الصحراوي بالكثير من الترحاب. قال لهم إنّهم أولاده، وبدأت سلسلة من المفاوضات المباشرة التي تخلّلها لقاءٌ تاريخي بين الحسن الثاني والرئيس الجزائري السابق، الشاذلي بن جديد. كان الاتصال الأول أيضاً بين الوفد الصحراوي والملك محمّد السادس إيجابياً أيضاً، ذلك أنّ وليّ العهد السابق والملك الحالي، كان هو الآخر راغباً في حلٍّ بعيداً عن الأمم المتحدة والجزائر.

يروي بشير مصطفى السيد كيف أنّ محمّد السادس أنَّبَ وزير داخليته السابق، إدريس البصري، أمام الوفد الصحراوي، حين سعى البصري إلى التعالي، ووجّه إلى الوفد بعض اللوم الخالي من اللباقات. تدخَّل الملك وقمَع البصريَّ، ولا سيّما حين همَّ الوفدُ الصحراوي بالمغادرة، قائلاً للملك: لو كنتم في ضيافتنا، لكنّا عاملناكم بطريقة مختلفة.

كان بشير مصطفى السيد يروي كلّ ذلك، قبيل أن نذهب إلى خيمة زعيم بوليساريو الحالي ورئيس الجمهورية الصحراوية المعلنة من طرف واحد، محمّد عبد العزيز. كان اللقاء في خيمته، موسَّعاً، فقد ضمّ بعض السياسيين وعدداً من الشعراء والنخب المثقفة.

يعبّر الصحراويون، في قرارة أنفسهم، عن رغبة في الاتّصال المباشر بالملك محمّد السادس، ويرون أنّ التفاوض المباشر هو خير الحلول، إذا ما كان الاستعداد فعلياً لدى الجميع، للوصول إلى حلّ، وليس للمجيء بحلول جاهزة.

كان الملك محمّد السادس قد بادر إلى المجاهرة بما كان يضمره والده الراحل الحسن الثاني من قبولٍ بحكم ذاتي، لا بل إنّه شكّل المجلس الاستشاري لشؤون الصحراء، بُغيةَ الإشراف على هذه القضيّة.

اعتبرت الرباط أنّ خطوتها هذه التي جاءت في خطاب رسمي ألقاه الملك محمّد السادس، من قلب منطقة العيون الصحراوية، خطوة متقدِّمة جدًّا باتّجاه السعي إلى الحلّ. لكنّ بوليساريو، ومِن خلفها الجزائر، رفضتا ذلك؛ فالاقتراح الملكي يُبقي الكثيرَ من شؤون الدفاع والسياسة الخارجية وبعض المرافق السيادية في يد العرش.

يدرك الصحراويون أنّ الاستقلال الكامل قد لا يتحقق، لكنّهم يريدون شيئاً قريباً جداً منه. ولا يتردّد مثلاً بشير مصطفى السيد في الحديث عن علَمِ اتّحاد المغرب العربي في الصحراء، بدلاً من العلَم المغربي.

نجح الملك محمّد السادس في طيّ الكثير من جروح الماضي؛ فقد أنهى عهد الاعتقالات السياسية، وفتحَ البلاد على نسمات الحرّيات الإعلامية والسياسية، ونشّط الأوضاع الاقتصادية، ولم يسجُن عشوائياً أو ينكّل بالسجناء، على الرغم ممّا تتعرّض له البلاد من عمليات إرهابية بين وقت وآخر. وبدا، منذ وصوله إلى العرش، قريباً من الناس وراغباً في إيجاد حلول للكثير من المشكلات، ولعلّ هذا بالضبط ما شجّع الصحراويين على إنعاش الأمل.

أطفال وغناء وشعر

تلفظ الشمس فوق مخيّمات تندوف حممَها الأخيرة. يتراجع الحَرُّ قليلاً، ينبعث ثغاء الماعز من بين الخيم. يعود العمّال إلى الحُفر التي حفروها قرب خيمهم، ويرمون عليها بعض الماء، ثمّ يُخرِجون من جوفها الطين، لبناء بعض البيوت التي تبقى تحت رحمة المطر القادم. غالباً ما يهدم المطر البيوت المتواضعة ليُعادَ بناؤها مجدَّدا. ينتشر الأطفال بأقدامهم الحافية بين المخيّمات. يضحكون ويبتسمون. بعضهم وُلِد مع آخر قرارٍ للأمم المتحدة دعت فيه الطرفين المغربي والصحراوي إلى التفاوض المباشر، والبعض الآخر وُلِد أثناء زيارة جيمس بيكر لخيم أهلهم، لكنّهم لا يعلمون عن صراع الكبار شيئاً، هم يحلمون ربّما ببعض الحلوى والألعاب. المفارقة الغريبة هي أنّ إسبانيا، أي المستعمر السابق، تعود إلى الصحراء بمساعداتها، وهي حالياً الأكثر إغداقاً لهذه المساعدات التي غالباً ما تأتي من الجمعيات الخيرية والمجتمع المدني. والمساعدات ضرورية هنا، ذلك لأنّ المستشفيات تفتقر إلى الكثير من الأدوية، ونسبة وفاة الأطفال كثيرة، وكذلك نسبة وفاة الأمّهات أثناء الولادة، وفق شهادة بعض الأطبّاء، وهم أصلاً يُعدّون على الأصابع، لا بل يُقال إنّ في كلّ المناطق الصحراوية التي تُقيم عليها جبهة بوليساريو جمهوريَّتها، هناك أربعة أطبّاء فقط.

كان الحسن الثاني قد حاول استخدامَ ورقة الإغراءات المادّية، فمنح منطقة العيون الخاضعة لنفوذه تسهيلاتٍ جمركية. وأقام فيها عدداً من المشاريع الاقتصادية والسياحية. عزّز حياة أهلها، ونجح في إقناع بعض قادة بوليساريو بالانشقاق والانضمام إليه؛ وهذا ما حصل فعلاً. عمليّات الجذب أثّرت إلى حدٍّ ما على الصحراويين، ولا سيّما أنّ بعض أهلهم يقيمون في العيون؛ إذ نجد مثلاً، أنّ والد زعيم بوليساريو (الذي يسمّونه هنا الرئيس) محمد عبد العزيز يُقيم في العيون الخاضعة لسلطة العرش المغربي، كما أن بعض قادة بوليساريو انشقوا وذهبوا إلى هناك، وفي مقدَّمهم مسؤول الأمن السابق في الجبهة، وأحد رجالها الأقوياء عمر حضرمي.

كلّ تلك التعقيدات لا تُلغي فرحَ الصحراويين، فما إن تهدأ قليلاً أصوات الأطفال ويأوون إلى فرُشهم، حتى ينبعث صوت القيثارات من داخل بعض الخيم، وتُقام بين الحين والآخر سهرات فنّية على المسرح الوحيد القائم في مخيّمات تندوف، وتبدأ النساء المتّشحات بالسواد بالغناء والرقص، يتقدّمْنَ ويتراجعنَ على الخشبة، كأنّهن في حركتهن تلك، يعبّرْن عن مدّ وجزْر ذاك الصراع المنسيّ.

تنتشر الخيم الصحراوية في تندوف، على مسافة واسعة. تتقارب في ما بينها، أو تباعدها الكثبان الرملية. بين الخيم، تبدو الحركة كخليّة نحلٍ، وخصوصاً حين تهبط الحرارة قليلاً، بحلول المساء.

المجتمع هنا متحرّر من قيود التقاليد الإسلامية أو العربية المتشدّدة. يعود هذا إمّا إلى الاتّجاهات اليسارية التي نشأتْ بوليساريو في كنفها، وإمّا إلى طباع أهل الصحراء المنفتحة؛ فلا عجب أن تحادثك النساء بحرّية وأن يشاركن في كلّ اللقاءات وأن يكون للمرأة دورٌ طليعيٌّ في قيادة المجتمع وفي العمل السياسي. وهنا كما معظم الصحراء تميل المرأة إلى شيء من السمنة الزائدة، وتتميّز بثيابها المزركشة وبسرعة بديهة لافتة وبطبعها المرح الذكيّ.

في الصحراء كثير من المثقفين. وقد استمتعت جداً خلال العشاء الذي أقامه لي زعيم بوليساريو بلقاء أحد أقدم شعراء الصحراء عندهم، وبعمق ثقافة الكثير من الحضور. إنّها ثقافةٌ أدبية ممزوجة بأخرى سياسية يتميّز بها عادة من يعملون في الثورات أو يناضلون لأجل قضيّة. قال لي زعيم الجبهة ونحن نفترش الأرض تحت خيمته، إنّ الهدنة القائمة مع المغرب ليست أبدية، وذلك أنّ «الثقة» التي بُنيت عبر السنوات الماضية مع المملكة تبدو في وضع حرج، لكنّ محمّد عبد العزيز كان في حينه لا يزال يأمل أن تتغيّر الأحوال بعد الانتخابات الأميركية ورحيل جورج بوش.

في نادي الغولف في الرباط مع الصديقين سعود الأطلسي وفيصل جلول.

تفاؤل قليل وتشاؤم يعود

زرتُ الصحراء مرّتين. في كلّ مرّة كنت أجد مشاعري تتناقض. لا الأمم المتحدة نجحت في إيجاد حلّ، ولا أطراف الصراع استطاعت التفاهم، على الرغم من كلّ المحاولات، وعلى الرغم من التفاؤل الذي بعثه وصولُ محمّد السادس إلى العرش.

منذ سبعينيّات القرن الماضي، تسعى الأمم المتحدة لإجراء استفتاء في الصحراء، ليقرِّر أهلُه ما إن كانوا يريدون الاستقلال، أم الانضمام إلى المملكة. جرى تلاعب كبير وتدخّلات كثيرة عبر السنين. لا

الاستفتاء تمّ، ولا المغرب والجزائر اتفقا، ولا إضافة أعداد من هنا أو هناك أقنعت الأطراف بإمكانية الاستفتاء. أمّا الدول الغربية فهي لم تكن أقلَّ تلاعباً من الأطراف الإقليمية، فهي تقول شيئاً في الأمم المتحدة، ثمّ تقول عكسه في الجزائر والمغرب. حين زرتُ الصحراء مثلاً، كان الرئيس الفرنسي جاك شيراك يتبنّى تماماً وجهةَ نظر المملكة، ويسمّي الصحراء «الأقاليم الجنوبية» للمملكة المغربية. وهذا تعبير يزعج الصحراويين في تندوف إزعاجاً شديداً، كما يثير الجزائر الداعمة بشدّة لقضية الصحراء، إمّا تضامناً معها، وإمّا كورقة في صراعها مع الجار المغربي. وهو صراع لا يعلم غيرُ الله سرَّ استمراره، ما دام البلدان قادرين على التكامل والتعاون، وعلى خلْقِ بيئة مغاربية رائدة.

حين زرتُ الصحراء في المرّة الأولى، كان التشاؤم سيّد الموقف عند الصحراويين. تمحوَرَ تشاؤمهم حيال المستقبل، بعد فشل خطة بيكر للاستفتاء على تقرير المصير. صحيحٌ، لم تكن تلك الخطة الأولى، ولا الأخيرة، التي تفشل، لكنّ الفشل هذه المرّة يعكس شيئاً من اليأس الدولي حيال إمكانِ حلِّ هذه القضيّة، وإجراء الاستفتاء. كانت جبهة بوليساريو الرافعة لواء الاستقلال، قد أجرتْ مع السلطات المغربية أكثرَ من لقاءٍ، بإشراف دولي (في هيوستن وجنيف ومدريد والجزائر والمغرب)، لا بل إنّ الملك الراحل، الحسن الثاني، كان قد استقبل في قصره، في مراكش، مسؤولي الجبهة، تماماً كما فعل الملك الحالي محمّد السادس، حين كان أميراً ووليًّا للعهد، لكنّ كلّ ذلك باء بالفشل.

أمّا سبب الفشل هذه المرّة فهو أنّ بيكر، المبعوث الشخصي من قبل الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان، قدَّم اقتراحاً متقدًّما عن الاقتراحات السابقة، فطرح فكرةَ حصول الصحراويين جميعاً (أي في المناطق الخاضعة لسلطة بوليساريو، أو السلطة المغربية) على نوع من الحكم الذاتي، لمدّة 5 سنوات، يُصار بعدها إلى إجراء الاستفتاء، ما دام الاستفتاء العتيد يصطدم بسؤال واحد: «من يحق له التصويت؟».

سؤال «من يحقّ له التصويت؟» هو العقدة المعلنة. بوليساريو ترفض مقولةَ الرباط بإضافة لوائح جديدة وترى أنّ هؤلاء الذين تسعى السلطات المغربية لإضافتهم، لم يندرجوا أصلاً في إحصاءات إسبانيا (المستعمِرة السابقة) بل هم مغربيّون، تريد الرباط تحويلَهم إلى صحراويين، بينما يقول العرش المغربي المدعوم من كلّ الأحزاب الموالية والمعارضة في المملكة، في هذه القضيّة الصحراوية، إنّ اللوائح المضافة تضمّ أسماء الذين هجّرتهم بوليساريو.

صقور وحمائم

حين سألتُ خلال رحلتي الأولى بعضَ قادةِ بوليساريو عن الرجل الثاني، سابقاً، في الجبهة، بشير مصطفى السيّد (شقيق الولي مصطفى السيّد الزعيم التاريخي للجبهة، الذي قُتِل في خلال هجومه على موريتانيا)، لم أشعر بأنّ سؤالي كان يلقى ترحيباً عند مضيفي. فهمتُ أنّ الرجل ابتعد، أو أُبعِد، على الرغم من أهمّيته التاريخية، بوصفه أحدَ القادة والمنظّرين للجبهة، وأبرزَ من حاور العرش المغربي.

ذهبتُ للقاء مصطفى السيّد في خيمته. كان مستلقِياً على فراش من الإسفنج، وحوْلَه عشرات الكتب. رحّب بكثير من الودّ، كما هي عادةُ الصحراويين جميعاً. سألتُه عن العلاقة مع العرش المغربي، وعن تعقيدات المرحلة، فراحَ يستعيد عبارةً ردّدها العاهل المغربي الراحل الحسن الثاني، حين استقبله مع عدد من قادة الجبهة، حيث قال لهم: «إنّي ربحتُ الأرضَ، ولكنّي لم أربح قلوب الصحراويين»، وذلك في إشارةٍ إلى المسيرة الخضراء الشهيرة التي قادها الملك لتحرير الصحراء، وأنهَتْ مرحلة الاستعمار الإسباني. قال لي بشير مصطفى السيّد الذي كان يتولّى سابقاً منصبَ «وزير خارجية الجمهورية الصحراوية» إنّ المفاوضات مع المغرب كادت فعلاً تصل إلى نتيجة.

أمّا محمد الأمين بوهالة الذي يتولّى منصب «وزير الدفاع»، فيبدو أكثرَ استعداداً للحرب، من أيّ وقتٍ مضى، ويؤكّد بكثير من الحزم والاندفاع، وربّما بكثيرٍ من المغامرة أيضاً، أنّ قوّاته متأهّبة لكلّ

الاحتمالات، ولو أنّ السلام لا يزال هو الهدف.

بينما كنتُ أزور الصحراويين في مخيّماتهم الفقيرة، شعرتُ بأنّ قيادتهم منقسمةٌ بين خيارين: ففيها «الصقور» الراغبون في استئناف الحرب مع المملكة، على أساس أنّ الهدنة لم تؤدِّ إلى شيء؛ وفيها «الحمائم» الأكثر واقعية، الذين يعرفون أنّ الوقت لا يلعب لمصلحة البوليساريو، وأنّ الواقعية السياسية لحلفاء الأمس، وبينهم الجزائر، قد جعلت من موازين القوى السياسية تميل أكثر إلى المملكة التي تحظى برعاية أوروبية (بفضل فرنسا) وحرارةٍ أميركية تفرضها عواملُ كثيرة، وبينها عامل «اللوبي اليهودي الأميركي المقرّب من المملكة»، وفْقَ ما يشير «رئيس البرلمان الصحراوي» محفوظ علي بيبا.

سألتُ الصقور عن قدراتهم العسكرية، بعدما تخلّتْ ليبيا عنهم، وتفكَّك حليفُهم السوفياتي، وشحّتْ المساعدات العسكرية الجزائرية، فسارعوا إلى القول: «على كلّ حال، لا نحن ولا المغرب جدّدنا أسلحتنا، وبالتالي فموازين القوى لا تزال على حالها، ونحن كنّا قد كبَّدْنا المملكة سابقاً خسائر فادحة».

في عام 1992 كان قد صدر عن الكونغرس الأميركي تحقيق يؤكّد أنّ الحرب بين بوليساريو والمغرب أدّت إلى مقتل ما يتراوح بين 6 آلاف و12 ألف شخص، إضافةً إلى آلاف الجرحى والمفقودين والمعوّقين (على الرغم من أنّ بوهالة يتحدّث عن رقم يفوق هذين الرقمين)، كما كانت تكلّف المملكة 250 مليون دولار سنوياً (من دون البنى التحتية ورواتب الجيش وغيرها) وتكلّف الجزائر ربعَ هذه القيمة.

أكّد لي «رئيس الوزراء» السابق في الصحراء الغربية، محمّد الأمين أحمد الليلي، أنّ الاتحاد السوفياتي لم يساعد البوليساريو أبداً، وكان يعيبُ عليها أنّها غير شيوعية، وأنّها لا تشكره في المناسبات العامّة، وفي القمم والمؤتمرات، كما كان يشير إلى أنّ ليبيا والجزائر كانتا تدفعان ثمن كلّ السلاح.

في الواقع، كان نجاح المملكة المغربية في إقامة «الحائط الرملي» الشهير والممتد على أكثر من 2 كلم قد حرَمَ المقاتلين الصحراويين من هامشٍ كبيرٍ من حرّية حركتهم، على الرغم من قيامهم بعمليات غير طبيعية وإحداث اختراقات «مذهلة»، على حدّ قول محمّد ودادي، قائد الفيلق الميكانيكي، سابقاً، الذي كان قد فقد نصف جسده في إحدى العمليات، فاعتقلته القوات المغربية جريحاً، وعالجته ثمّ سجنته، وبقي في السجن أكثر من 12 عاماً، قبل أن يُعادَ إلى الصحراء، في عملية تبادل للأسرى.

بين التشاؤم الكبير والتفاؤل القليل، وبين الانقسام بين صقور بوليساريو وحمائمها، كنتُ وأنا أزور المخيّمات الفقيرة في الصحراء، أسمع أيضاً كلاماً أكثر واقعيةً من السابق، عند بعض أصحاب القرار، ومفاده مثلاً أنّه «لا بد من تضحياتٍ، من الجانبين الصحراوي والمغربي» للوصول إلى حلّ؛ فالثروات الحالية والواعدة في المنطقة الشاسعة (مساحة الصحراء 266 ألف كلم) التي تبدأ بالاحتياطي الضخم من الفوسفات (10 مليارات طنّ) والثروة السمكية، لتصل إلى احتمالات اكتشافات نفطية، تجعل قبول المغرب بالتخلّي عن المنطقة لمصلحة الصحراويين أمراً مستحيلاً، يُضاف إلى ذلك أنّ قضيّة «استعادة الصحراء» هي أبرز القضايا القومية المغربية التي تُجمع عليها السلطة والأحزاب.

ومن الجهة الأخرى، تبدو الجزائر متمسّكة بموقفها الداعم للبوليساريو، لأنّها هي الأخرى تحبّذ قيامَ دويلةٍ صغيرة، بينها وبين المغرب، ولأنّها تريد ضمنياً معْبَراً إلى الأطلسي. ولذا، فإنّ قيادة الجيش الجزائري سارعتْ إلى تأكيد هذا الموقف مباشرةً، بعدما كان وزير الدفاع السابق واللواء المتقاعد خالد نزار قد أكّد استحالة قيام دولة صحراوية.

أفكارُ الحلول لم تنعدم، لكنَّ النوايا والمصالح هي سببُ التأخير في إيجاد حلٍّ منذ أكثر من 30 عاماً. من تلك الحلول مثلاً، احتمال إقامة كونفدرالية، أو التأسيس لشيء يشبه العلاقة القائمة بين كاتالونيا

وإسبانيا. ومن الأفكار أيضاً إمكانية اقتسام الصحراء. لكنّ الذين يحاولون تشبيه الصحراء بكاتالونيا، لا يعرفون ربّما أنّ ذلك الإقليم الإسباني الكاتالوني يغلي فوق برميل من بارود، لا أحد يعرف متى ينفجر. فأنا زرتُ كاتالونيا، وأعرف أنّ أناسها لم ولن يقبلوا بالبقاء تحت العلم الإسباني.

هناك من يقترح العودة إلى الحلّ الموريتاني. الصحراويون يعتبرون مثلاً، أنّ موريتانيا هي الأكثر قرباً لهم، من بين كل الدول المحيطة بهم. وهُم يذكُرون كيف أنّ الوالي مصطفى السيّد كان قد اقترح على الرئيس الموريتاني الراحل، مختار ولد داده، توحيدَ المنطقتين؛ ولكنّ مختار رفضَها خشيةً من المغرب آنذاك، ولأنّه كان متّفقا سرًّا مع الملك الحسن الثاني على اقتسام الصحراء، وفق ما يؤكّد مسؤولو بوليساريو.

حين أسألُ المسؤولين الصحراويين عن هذا الحلّ مع موريتانيا، يقولون: «على كلّ حال نحن وموريتانيا نشبه تماماً ما كانت عليه الحال بين اليمنين الشمالي والجنوبي»؛ وهذا ما يوحي بأنّ لديهم رغبةً فعلية في هذا الحلّ. لكنّهم، في قرارة أنفسهم، يعلمون بأنّ المغرب لن يقبل بهذا الحلّ، حتى لو قبلتْ به الجزائر، ويرون أنّ الأمرَ سيكون بحاجةٍ إلى ضغوط دولية هائلة.

أمّا الحلّ الآخر الذي يمكن أن يصبح قَيْد التداول، فيُشير إلى احتمال إيجادِ صيغةٍ توافقية تضمّ بوليساريو والمغرب والدول المهتمّة بالنفط والثروات، بحيث تُعطى الصحراء نوعاً من السيادة الموسّعة، مقابل تأجير مصادر الثروة لفترة طويلة للجار المغربي والشركات الكبيرة.

على الرغم من صعوبة كلّ هذه الحلول، من المؤكّد أنّ الشركات النفطية العالمية بدأت بالاهتمام عن قُرب، بثروات المنطقة؛ فبوليساريو فتحت المجال خصوصاً لشركات أسترالية وبريطانية، والجانب المغربي يتعاطى مع شركة «توتال» الفرنسية وشركة مك كير الأميركية. وإذا تبيَّن أنّ المنطقة غنيّة فعلاً بالنفط، فإنّ الحلول السياسية ستكون أسرع ممّا يتصوّر البعض.

وبانتظار ذلك، فإنّ شبح الحرب يبقى مخيِّما، كما أنّ عمر الأزمة قد يطول إلى أجَلٍ غير مسمّى؛ فمن خلال زياراتي المتكررة للمملكة، ومعرفتي بالصحراويين والجزائر، لا أعتقد أنَّ ثمّة رغبةً دولية وإقليمية في حلّ هذه القضيّة قريباً. والمصيبة هي أنّ ثمّة أناساً يغالبون الحياة تحت الخِيم في تندوف. ولا أحدَ غير الله يعرف حتّام يمكنُهم البقاء على هذه الحال. لكنّ بعضهم يغالب قسوةَ الحياة بالنكتة، فيقترح عليّ، وأنا أغادر تندوف، أن أتزوّج هنا، ذلك أنّ هذه أفضل وأرخص منطقة للزواج. يكفي الرجل أن يكون عنده خيمة وفراش تقدّمهما له بوليساريو، وكلّ يوم سيأتيه الحليب واللبن وبعض التمر، ليعيش حياةً متواضعة وكريمة. لا أدري إن كان الناس هنا سيصمدون طويلاً أمام إغراءات المغرب، لكنّي رأيتُ عندهم عزماً وطيداً على الصمود.

قال لي بعض الصحراويين الواقفين لوداعي عند تخوم المخيم: «عسى أن تعود يوماً حين نحصل على استقلالنا»، فقلتُ لهم: «عسى أن يعمَّ السلام، وأن يستطيع هؤلاء الأطفال العيش بفرح». أمّا رغبتي الشخصية، فهي أن أرى كلّ الوطن العربي موحَّدا، لا الصحراء والمغرب فقط، شريطةَ أن يشعر كلّ إنسان بأنّه على أرضه، له حقوقٌ وعليه واجبات. ربّما أحلم. ولكنّي سأستمرّ بالحلم.

في رحاب أميركا،
بلاد الأحلام والأوهام

لاس فيغاس مدينة الخطايا والمتعة

مرَّ عشرون عاماً على رحلاتي الأولى عبر العالم، قبل أن أقصد أميركا. كانت كما الزواج، يشدّني إليها شيء، وتنهاني عنها أشياء. لكنْ، لا بدّ منها. تماماً كالزواج، هي مثله قد تفتح لك أبواب السعادة، أو تدفعك إلى إعادة النظر في كلّ تاريخك. هي مثله، قد تتحوّل إلى قصّة عشق، أو توصلك إلى الطلاق الحتمي. هكذا ظننتُ. لذلك تردُّدت. لكنّ كلّ أوهامي سقطتْ، بمجرّد العبور إلى لاس فيغاس، ولم يبقَ غير الأحلام. كيف لا يحلم المرء في هذا العالم الساحر الأسطوري البهيّ! السعادةُ قرار. بهذا آمنتُ، وعلى هذا الأساس أعيش. نحاول أنا والوقت أن نكونَ عدوّين رحيمين، يقتل أحدنا الآخر بسعادة. ليس أفضل من لاس فيغاس لقتل الوقت، بحثاً عن سعادة قد تكون آنيّة، لكنّها لا تشبه شيئاً آخر.

كان شهر تموز/يوليو من عام 2017 يودّع أسبوعَه الثاني. الحرارة في بيروت عالية إلى حدّ القيظ. لا يوازيها سوى حرارةِ الحرائق في وطننا العربي، وحرارةِ النقاش في أميركا، بشأن الرئيس المثير للجدل ولكلّ الأحلام والأوهام، دونالد ترامب. لاس فيغاس هذه، كم تُشبِه ترامب، بصخبها وبما تثيره حولَها من صخب. هو يشبه كازينوهاتها التي لا تترك لمن يقترب منها خياراتٍ كثيرةً، فإمّا أن يُفلس ويعودَ خائباً، وإمّا أن تنقلب حياته رأساً على عقب.

أمام مبنى ترامب في لاس فيغاس.

لم أذهبْ إلى أميركا إلّا حينَ صار العرب يتردّدون في الذهاب إليها. صورة العرب تدهورت كثيراً في الغرب. صار كلّ عربيٍّ متَّهما بأنّه مسلمٌ، ومتَّهماً تالياً بأنّه إرهابي، بالقوّة أو بالفطرة. استند ترامب إلى هذا التدهور، فوعَدَ شعبَه بتحسين ظروفِ حياته، وطرْدِ المهاجرين وإقفالِ الأبواب أمام رعايا 7 دول إسلامية. لا نلومه. قدّمْنا له كلّ ذلك على طبق من ذهب.

أيُّ مجنونٍ إذاً، سوف يغامر في تلك السنة الملتهبة بالحروب، والمزروعة بالشكوك والقلق، ويسافر إلى أميركا؟ لا، بل أيّ مجنونٍ يفعل ذلك، فيما أميركا وكوريا الشمالية تتبادلان التهديدات. وماذا لو نفّذت إحداهما تهديداتها، ونحنُ في الطائرة، أو هبطنا للتوّ في أحد المطارات الأميركية؟ أيُّ مجنونٍ سوف يذهب في تلك الفترة، إلى أميركا، ليتعرَّف إليها، عن قرب، ويضيفها إلى كتاب أدب الرحلات؟

سألت نفسي مثل هذه الأسئلة، وأنا أعطي موظف شركة الطيران البريطانية، في بيروت، جوازَ سفري فيفاجئني بأنَّ عليَّ أن أضعَ الكمبيوتر في حقيبةِ الشحن، لا في الحقيبة التي يُسمَح بحملها باليد. سألتُ الموظفَ، وأنا المعتاد على الكتابة والقراءة طَوالَ الرحلة: يا رجل، وكيف سأكتب مقالي في الطائرة؟ وسألتُ نفسي: وكيف لي ألّا أكتبَ في رحلة سوف تستغرق أكثر من 20 ساعة، وتكون خاتمة رحلاتي لهذا الكتاب؟

لم يأبَه الموظف... لعلّه لم يسمع سؤالي، أصلاً. لعلّه سمع مثل هذا السؤال مئات المرّات، من ركّاب قبْلي، مذ قرَّرت الشركات العالمية معاملتَنا، نحن العرب، كالطاعون، بفضل ذاك الخليفة الحالم بفتح الغرب وغزو العالم، لإقامة خلافته بالسيف والدم والذبح والسبي، فأسهَم في تحويل المسلمين والعرب إلى هنود سُمر في الغرب، بدلاً من الهنود الحمر.

وفي سياق الكلام على الهنود، هل تعلم، عزيزي القارئ، أنّ الهنود كانوا في أصل لاس فيغاس مدينة القمار والميسر والعروض الهائلة والفنادق الساحرة والدعارة والجمال والمال؟

لا تستعجل الأمر، سأروي لك كلّ الرحلة، فهي تستحق أن تُروى، لأنّها غيّرتْ رأيي في الكثير ممّا كنت أعتقد. رسّخت اقتناعي بأنّ الكلام عن بلد، من بعيد، يختلف تماماً عن وصفه في ربوعه. رسّخت فكرتي أيضاً عن أنّ الشعب الأميركي أفضل من ساسته، لكنْ قبْل الدخول إلى أميركا، لا بدّ من بعض المقبّلات.

في مستهلّ حياتي الإعلامية، لم أكن متحمِّسا للذهاب إلى للولايات المتحدة. كنتُ أقربَ إلى أفكار اليسار ودولِه من الرأسمالية وأربابها. حكمتُ على أميركا من خلال سياستها الخارجية، لا من منظور جمالها وشعبها وما تثيره من أحلام في مخيّلة عوالمنا النامية الفقيرة. أحببْتُ الاتحاد السوفياتي وكوبا وفنزويلا والصين أكثر من أميركا. ربّما لذلك تأخُّرت في زيارتها. كانت تمثّل بالنسبة إليّ غطرسة وهيمنة وغروراً لا يُحتمَل. زاد الأمرَ بلَّة أنّ الدعم الأميركي الدائم لإسرائيل التي كانت تحتلّ بلدي، وتصول وتجول في جنوبه، وتجتاحه حين تشاء، والتي كانت أيضاً تجور بكلّ أنواع الظلم على الشعب الفلسطيني، لم يكن مقبولاً، أو مفهوماً، لا سياسياً ولا إنسانياً، من قِبَل دولةٍ تقدّم نفسَها على أنّها بلد الحرّيات الأول في العالم.

أمّا وقد علمتني الحياة الكثيرَ، وفهمتُ من خلال تجربتي الطويلة، في عالم الإعلام والسياسة، أنّ المصالح تغلب على المبادئ، ورأيتُ كيف أنّ السوفيات سارعوا إلى المساهمة في القضاء على نظامهم، وصارت أحلامهم أن يعيشوا بلبوسهم وسيّاراتهم ورفاهية العيش كما يعيش الغرب، فقد انكسرت عندي أحكام مسبقة كثيرة، وصرتُ أكثرَ تقبُّلاً لما كنت أرفضه سابقاً. المسافات تدفعنا إلى التفكير بأعصاب باردة، والتفكير عبر المسافات يجعل أحكامنا على الأمور أقلّ عاطفةً وأكثرَ عقلانيةً. أمّا زيارة الدول، والتعرّف إليها عن قرب، فهما السبيل الأنجع لسبْر أحاسيس الدول والمدن والقرى والناس.

ها أنا أتوجّه بقلبي المفتوح صوب أميركا. أريد أن أعرفها أكثرَ، وأن أعيشَ بين ناسها، وأقتربَ من تاريخها وحاضرها، وأنعَمَ ببعض مباهج الحياة وجمال الطبيعة فيها. أريد أن أحاورَها من داخلها، لا أن أحكم عليها من الخارج. لعلَّ ما في داخلها يناقض ما بدا منها في سياستها الخارجية، حيالَ منطقتنا، أو لعلّه يجمّله قليلاً.

هل أعود رأسماليَّ الفكر والتوجُّه؟ ضحكتُ وأنا أطرح على نفسي هذا السؤال. كنتُ جالساً في مطار هيثرو البريطاني، بانتظار إكمال الرحلة إلى لاس فيغاس الصاخبة، وكاليفورنيا الساحرة، ونيويورك الأسطورة. عرفتُ في حياتي الصحافية الكثيرَ من المُغريات، لكنّ قناعاتي لم تتغيّر، ربّما لأنّني أعتبر أنّ المغريات زائلة، فيما القناعات ترافقنا حتى القبر، فتترك ضمائرَنا أكثر راحةً وقلوبَنا أكثرَ صفاءً.

لاس فيغاس مدينة الخطيئة والرغبات

الرحلة طويلة جداً بين لندن ولاس فيغاس المسمّاة بحق Sin City (مدينة الخطيئة) أو City without Clocks (المدينة الخالية من الأجراس). كلّ شيء مباح هنا في هذه المدينة التي ابتلعت الكثير من أموال المافيات منذ أربعينيات القرن الماضي، أثناء تأسيسها. لكنّ للتأسيس قصَّة أخرى، قد تفاجئكم كما فاجأتني، تختلط فيها الأديان بالحروب، والمسيحية باليهودية وبالطائفة المورمونية. وهذه الأخيرة طائفةٌ غريبة تضمّ اليومَ أكثرَ من 15 مليون شخص في أميركا وعبر العالم. منها برز في الانتخابات الرئاسية الأخيرة، في عام 2017، المرشح ميت رومني، وحصل على الدعم المالي الكبير من رجال الأعمال واللوبيات اليهودية المقرّبة من إسرائيل.

انتابني مللٌ كبير في الطائرة، بين لندن ولاس فيغاس. كنتُ أقتل الملل بالقراءة أو بالكتابة بخطّ اليد، لا بالكمبيوتر، وهذا أمرٌ أزعجني لأنّي لم أعتد عليه. لم أتوقع أن تؤخذ منّا كلّ وسائل الكتابة الحديثة من كمبيوترات وهواتف محمولة كبيرة، في مطار هيثرو. لعلّهم اكتشفوا أشياء رهيبة عن الوسائل الحديثة للإرهابيين لم يُعلنْ عنها بعدُ. هكذا فكَّرت وأنا أحاول عبثاً النومَ لأقتل قليلاً من الساعات الإحدى عشرة الباقية بين لندن وفيغاس، محصوراً في الجوّ، مسمَّراً على مقعدي.

أهو شيء من سحر المدينة، أم هي أضواؤها، أم ضحكات الناس فيها، أم جمالها أم ترتيبها، أم ربّما، كلُّ هذه الأمور مجتمعةً، هي التي سرعان ما أنسْتني ملَلَ السفرِ، وأدْخلتني فوراً في رحابة المكان، بمجرّد ركوب سيّارة التاكسي، من المطار إلى الفندق، بعد إجراءات أمنية بسيطة جداً. الإجراءات الأمنية البسيطة، في مطار لاس فيغاس، مقصودةٌ على الأرجح. يُراد منها اجتذاب أكبر عددٍ من السيّاح، وكسب أكثر ما يمكن من مبالغ مالية. بالتأكيد ليس منّي.

مدينة الخطيئة. مدينة الشيطان. تتعدّد ألقاب لاس فيغاس، لكنّها بالتأكيد، مدينة المدن. جلب مؤسِّسوها إليها معالمَ أبرز مدن العالم. هذا برج إيفل الفرنسي تحوّل هنا إلى فندق جميل ومطاعم باسم باريس. إلى جانبه يقوم فندق نيويورك-نيويورك متوسِّطا عدداً من الأبراج المشابهة لأبراج نيويورك. بعدهما يشمخ نحو السماء فندقٌ ضخم باسم فيلادجيو، وفيه أبرزُ الماركات الإيطالية العالمية. يرتفع هذا الفندق على 36 طابقاً وإلى أكثر من 155 متراً، وفيه أكثر من 4 آلاف غرفة، ونحو 9 آلاف موظف، ويربح أكثر من مليار ونصف المليار دولار في العام الواحد. أمّا العرب الذين يبذّرون هنا ملايين الدولارات، على طاولات القمار، في الكازينوهات المنتشرة كالطحالب، فلهم فندقٌ باسم الأقصر، فهو يبدو على شكل هرم، وأمامه يربض تمثال أبي الهول.

المضحك المبكي في الحضور العربي في لاس فيغاس، هو أن تمرَّ بك امرأةٌ محجّبة، إلى جانب زوجها، وخلفهما مجموعة من الأولاد. هي تضع رأسها في الأرض خجلاً، وزوجها يبحلق بالفتيات العاريات اللواتي ينتشرنَ على الجادّة الساحرة، يعرضْنَ على السيّاح صورةً إلى جانبهنَّ، مقابل دولار واحد، أو أموراً أخرى مقابل مبالغ أكبر.

السيدة المسكينة التي تطأطئ رأسها خجلاً، أو خوفاً من زوجها الشهم، قد تجد أيضاً على الأرض صوراً إعلانيةً على أوراق صغيرة لفتيات الدعارة. هنَّ جميلات، لا بل ساحرات، لكنّهنّ يعرضْنَ خدماتهنَّ الجنسية مقابل مبالغ زهيدة، قد لا تتعدّى 30 دولاراً. ألهذا الحدّ انحدرَتْ صورةُ المرأة هنا؟

كنت أتساءل، وأنا أتابع سيرَ المرأة المحجّبة وسطَ المدينة الصاخبة بالكازينوهات والأضواء والدعارة وإعلانات حشيشة الكيف. ماذا بربّكم تفعل هنا؟ ولماذا يأتي بها زوجها؟ هل فعلاً يسمح الشرع بذلك؟ أم صار الشرع هو الآخر خاضعاً لكلّ التأويلات والخزعبلات؟

دعْكَ يا رجل من هذه الأسئلة، فأنت جئتَ إلى هنا كي تتسى ما هناك من دماء ودمار ودموع تسبَّبَ بها هؤلاء الذين يدّعون الدين، بينما الدين منهم براء.

إليك عزيزي القارئ بعض الأرقام عن لاس فيغاس:

• هي المدينة ال-31 في ترتيب أكبر المدن الأميركية، تضمّ نحو 596 ألف نسمة، أيْ ثلثي سكان نيفادا.

• تمتدّ على مساحة 340 كلم2 وتتوسّع بين فترة وأخرى كلما ازدادت المشاريع فيها.

• تستقبل كلّ عام أكثر من 40 مليون سائح، يأتي معظمهم من أميركا نفسها بسبب بعد المسافات الجويّة من دول العالم الأخرى.

• هي مدينة مرتفعة الحرارة معظم أيّام السنة ومشمسة 315 يوماً.

• فيها 150 ألف غرفة فندق.

• تشهد كلّ عام نحو 120 ألف زواج، وذلك بفضل سهولة الزواج فيها بحيث إنّ الأمر يقتصر على دقائق معدودات في إحدى الكنائس التي يصل عددها إلى 55 كنيسة. وفي كلّ عيد حبّ يتزوّج في المدينة 1500 شخص.

• في المدينة 1200 كازينو تقريباً بين كبير ومتوسّط وصغير، تدرُّ نحو تسعة مليارات دولار كلّ عام.

فارق الوقت بين الشرق الأوسط وأميركا يرهق جسد المسافر الذي حطّ لتوّه في أرض الأحلام. مع ذلك حاولتُ فورَ وصولي إلى لاس فيغاس أن أتعرّف ليلاً إلى المدينة. كان استقبال موظفي الفندق الضخم موحياً بالراحة. هنا الفنادق ضخمة في معظمها. أمرُّ من الاستقبال إلى الغرفة فأجتاز كلّ الكازينو وسلسلة المطاعم حتى كدت أخال نفسي خرجت إلى الشارع.

ارتحتُ دقائقَ قليلة في الغرفة الفسيحة الباعثة على راحة كبيرة. اغتسلتُ بماء بارد. بدّلت ملابسي ونزلت أتعرّف إلى المدينة سيراً على الأقدام. لا شيء يقرّبنا من المدن إلّا السير فيها.

كلّ شيء يوحي بالفرح. الفنادق الضخمة المختصرة لأسماء ومدن العالم. الإعلانات الكبيرة والمضاءة بعشرات الألوان للعروض المسائية ولكبار الفنانين والمبدعين والسحرة. ألعاب المياه والأضواء. الموسيقى الصادحة في كلّ الشوارع. الشباب والصبايا الحاملون مشروباتهم يتنزّهون ذهاباً وإياباً حول المياه. أريد لهذه المدينة أن تتحوّل إلى احتفال دائم، فاختُرع لها تاريخ وحاضر، بقي الحاضر مشعًّا مضيئاً، أمّا التاريخ فلا أثر له. حتى لتكاد تشعر بأنّ المدينة وُلدت من العدم، أو لم يكن قبلها شيء، وقد لا تترك بعدها شيئاً.

عدتُ متعَباً من السفر الطويل والسير القليل. ارتميتُ على السرير أغطُّ في نوم عميق، وأحلام جميلة. لم يطل هنائي كثيراً. لا أدري كم كانت الساعة بالضبط. صحوْتُ مذعوراً على صوت جرس إنذار الفندق. الجرس يرنّ حثيثاً. سيّدة تصيح على النزلاء عبر مكبّر الصوت أنْ «اخرجوا من الغرف

بسرعة صوب بهو الفندق». همَمْتُ بالخروج وأنا ألعن حظي. أيُعقل أن تلاحقني أجراس الإنذار إلى هنا؟ ألا تكفينا مصائب شرقنا الجريح حتى نلاقيها هنا؟ أيُعقل أن يكون رئيس كوريا الشمالية فعل شيئاً؟ ماذا لو أنّ إرهابياً جاء ينتقم من الميسر والأضواء والنساء ويقيم خلافته هنا؟

ما إن فتحتُ الباب حتى جاء صوت السيّدة نفسها، ولكن هذه المرّة بكثير من الهدوء، تعتذر من النزلاء، وتخبرنا بأنّ سبب الإنذار كان أنّ أحد الأشخاص أشعل سيجارته في إحدى الغرف. لعنتها ولعنت المدخّن وجرس الإنذار ثمّ ارتميتُ مجدَّدا على السرير أحاول استعادة هناءتي الموعودة. غريب أمر النوم، لا تدري إلى أين يأخذك في رحلة الأحلام والكوابيس. تصحو في مدينة تبعد عن بلادك عشرات الساعات بالطائرة، فتظنّ أنّك في بلدك، تبدو الأحلام أكثر أصالة من الواقع، هي تعيدك دائماً إلى حيث الجذور مهما طالت الغربة.

عند السابعة صباحاً استيقظتُ، على غير عادتي. طوال حياتي، لم أنهض من النوم في مثل هذه الساعة المبكّرة، إلّا لأحوال طارئة. أسهر طويلاً، وأصحو متأخِّرا. تخطفني القراءة الليلية حتى الفجر. لكن هنا، لا شيء يوحي بالقراءة. هذه مدينة اللهو والفرح بامتياز. أنا أصلاً جئت إلى هنا بعدما أنجزتُ كتابين، وسهرتُ عشرات الليالي في البحث والتدقيق والتأليف. سأنسى كلّ شيء بما في ذلك نفسي.

حمّام سريعٌ، ثمّ أرتدي ملابسي أسرع بعد، راغباً في الاستفادة من كلّ دقيقة. أجتاز الكازينو. أجد بعض الرجال والنساء الذين صادفتهم أثناء وصولي البارحة، لا يزالون خلف طاولات الميسر. هذا يبتسم لربح، وأولئك يبدون متعَبين أو أنهكتهم الخسارة، وبين هذه وذاك، امرأةٌ جالسة على طاولة القمار بالمَايوه. هي جالسة دونما خجل، ومِن دون أيّ انتباهٍ لما حولها. هي امرأة جميلة أكثر من المعتاد، وجريئة أكثر من اللزوم، تضع الأوراق النقدية تحت حمّالة الصدر وبطاقة الغرفة، وتلعب من دون أن تأبه بمن حولها. بعض الرجال ينظرون إليها إعجاباً، والبعض الآخر أنهكته الخسارة، أو أغشاه الربح، فما عادوا يرون غير الأرقام.

«صباح الخير يا سيدي، كيف حالك؟». هكذا يبدأ الصباح بابتسامة من نادلة المطعم. هو بالأحرى مطاعم كثيرة، في قاعة واحدة فسيحة توحي بأنّ المأكل الكثير والمتنوّع فيها يكفي جيشاً بأكمله. الطعام هنا لذيذ، يعكس كلّ المطابخ التي كوّنت المطبخ الأميركي، والناس هنا من الصباح الباكر يأكلون كمّيات كبيرة من الطعام.

تجاورني سيّدتان بدينتان، وإلى جانبهما رجل يوازيهما ضخامة أو يزيد. الجميع يأكل، بل يلتهِمُ الأكلَ، ويتلذّذ به. لا عقد هنا، ولا اهتمام بالأوزان والشحوم. لا داعي للشفط والنفخ وعمليات التجميل. هذا مجتمع متحرّر من كلّ العقد. غالباً ما ترى فوق الشحوم واللحوم والبطون المنتفخة أوشاماً مختلفة الأشكال والرسائل، هم يزيّنون سمنتهم بالأوشام أو بالثياب القصيرة والضيّقة. فرحون بأجسادٍ نسعى في شرقنا الجريح إلى نحتها بما يلزم وبما لا يلزم. هم يفرحون بسمنتهم ونحن نشذّب أجسادنا ونحزن... لا علاقة للجمال بالفرح. الفرح قرار.

تقول منظمة Trust for America’s Health إنّ 35 بالمئة من البالغين الأميركيين يعانون من السمنة الزائدة، وإنّ الأمرَ بات مقلقاً، ذلك أنّ الأميركي زاد وزنه 11 كيلوغراماً ممّا كان عليه في عام 1960. اللافت أنّ النسبة الأكبر هي بين السود ذوي الأصول الأفريقية (50 بالمئة) يليهم ذوو الأصول الإسبانية (43 بالمئة) ثمّ البيض (32 بالمئة). ثمّة من يربط السمنة الزائدة بالفقر أو التهميش. فالمنظمة الآنفة الذكر تشير إلى انخفاض السمنة في الأوساط الميسورة. هي أرقامٌ مقلقة فعلاً، إذا ما قورنت بمثيلاتها في الغرب. فمثلاً معدل السمنة الزائدة في فرنسا لا يزيد عن 11 بالمئة، أي ثلث ما هو في أميركا.

هذه الأرقام المقلقة لا تُلغي الابتسامات التي تعلو كلّ الوجوه هنا في لاس فيغاس. من موظف المطار الذي يسألني عن سبب زيارتي، ويتمنّى لي التوفيق والمتعة، مروراً بالسيّدة التي تنظف الغرفة،

وصولاً إلى أصحاب البطون المنتفخة والمؤخّرات الضخمة. الكلّ يبتسم.

مجتمع يضم كلّ الأوزان والألوان والأعراق. جميعهم أسهموا في تحويل الصحراء القاحلة هنا إلى واحدة من أجمل مدن المتعة في العالم. تذكّرت دبي. المبدأ نفسه، أبراج تناطح السحاب، وكلّ ما تحتها يجلب المال.

كلما قابلتُ الوجوه الباسمة هنا، قفزَتْ إلى مخيّلتي الوجوه العابسة أو الموحية بالقنوط والملل في باريس. هو الطقس ربّما. أو لعلّه الخليط الاجتماعي الناجح، أو هو الحلم الذي باعته أميركا للعالم، فاشتراه العالم من دون أن تصله فوائده.

كلّ شيء في هذه المدينة يوحي بالاحتفال. من يبتعد عن الكازينوهات، يمكنه أن يتمتّع ليلاً بأحد العروض المسرحية أو الغنائية الضخمة، وأبرزُها «سيرك الشمس» (Le Cirque du Soleil). هو تحفة فنّية باهرة بكلّ ما للكلمة من معنى. أسَّسه شابّ كندي يُدعى جيل لا ليبرتيه، وهو في مقتبل العمر. ترك الدراسة وعمل نافخاً للنار، في الشوارع وعلى الطرقات، تماماً كشريكه دانيال غوتييه. أسّس الشابّان، في ما بعد، عام 1984، ما بات يوصف اليوم بأكبر مسارح العالم. باع لا ليبرتيه حصّته عام 2015. اشتراها منه الأميركيون والصينيون، واحتفظ بـ-2 في المئة، لنفسه ولكندا. يقدّم السيرك الذي يعتمد على رياضيّين محترفين وفنّانين من مستوى عالٍ جداً نحو 20 عرضاً بينها 8 عروض دائمة ومستمرّة منذ سنوات في لاس فيغاس وأورلاندو والباقي في العالم. السيرك ساحرٌ أكثر ممّا قد يتصوّر المُشاهد، وكأنّ اللاعبين فيه ينتمون إلى فصيلة القرود الطائرة؛ فهُم يؤدّون رقصات وحركات بهلوانية لا يصدّقها العقل. يتعاركون مثلاً على خشبة المسرح التي تقف بكاملها حتى تلامس السقف. يرمون بأنفسهم من أعلاها أي من عشرات الأمتار صوب المياه تحت المسرح. ينبتون كالطحالب من كلّ سقف وشرفة وحائط في المسرح الغنيّ بالهندسة والأضواء والسينوغرافيا. يخصّص السيرك جزءاً من أرباحه الضخمة لمساعدة الناس وخصوصاً الشبّان الذين يعانون أوضاعاً صعبة. ويسهم السيرك أيضاً في عمليات التنمية وحماية البيئة ومحاربة الفقر في عدد لا بأس به من دول العالم.

المورمون واليهود وفيغاس

أخرج من السيرك مدهوشاً بما رأيت: ضخامة الإنتاج. الأضواء. مئات المبدعين والرياضيين الذين يقفزون من كلّ مكان وفوق كلّ شيء. الأزياء والماكياج والسينوغرافيا. أخرج بكثير من أوكسيجين العمل الفنّي الرائع. كلّ شيء جميل سوى البرد الشديد في قاعة المسرح. لا أدري لماذا كلّ المسارح والفنادق والكازينوهات والمطاعم في فيغاس ترفع إلى هذه الدرجة مستوى التبريد. لم أعتدْ في حياتي على المكيّفات. لا أحبّها إلّا للضرورة القصوى. لكن هنا، لا يمكن العيش من دونها. درجة الحرارة في الخارج قد تقارب الخمسين. هذه منطقة صحراوية بامتياز، تتوسّط مجموعةً من الهضاب السوداء، أو البنّية القاحلة. كلّ شيء فيها مُخترَع، بما في ذلك الأشجار الخضراء التي تزيّن المدينة.

يقول لنا التاريخ إنّه في هذا الوادي الصحراوي، كانت المياه وفيرة. كان نهر غزير يمرّ فينعش ما حوله، اشتُقّ اسم لاس فيغاس منه، بحيث يعني بالإسبانية «المروج» أو «الأودية الخصبة». يقول التاريخ أيضاً إنّ الرحّالة المكسيكي رافاييل ريفيرا هو مكتشف الوادي الخصب، حين كان ضمن قافلة تجارية ذاهبة إلى تلك المناطق البعيدة في عام 1829، لاكتشاف طريق تجارية بين المكسيك ولوس أنجلس. تنقُلُ الروايات أيضاً أنّ المنطقة كانت قائمة حول الأنهار والمستنقعات، في غابر الزمان. لكنّ المياه غارت، وتصحّرت الأرض، ثمّ خرج بعضُها مجدَّدا، في ما يُعرف اليوم بنهر كولورادو. والدليل على ذلك هو الآثار الزراعية والحيوانية التي وجدها علماء الآثار في تلك المنطقة، والتي يعود بعضها إلى أكثر من 10 آلاف سنة، أيْ إلى عهد الهنود الأصليّين أو المعروفين باسم الاميرانديان.

يكفي لزائر لاس فيغاس أن يستقلّ إحدى مروحيات الهليكوبتر التجارية الكثيرة هنا مقابل 400 دولار ليطوف فوق الجبال العارية ذات الأشكال الهندسية الطبيعية الخلّابة. يزيّنها قوس قزح من ألوان الطبيعة، يعبر حناياها نهر لا يزال جارياً هناك مخالفاً كلّ ما حوله من تصحّر.

لا ضرورة عزيزي القارئ للغرق بكلّ التاريخ. هو كما التاريخ في أيّ منطقة من العالم، شهد حروباً وغزوات وتناقض حضارات ومجازر وأطماعاً بالأرض والمياه والمأكول والزرع. لكنّ ما لفتني في تاريخ هذه المدينة هو قصّة الطائفتين المورمونية واليهودية.

المورمون في أصل فيغاس

إذا سألتَ في لاس فيغاس عن أجداد المدينة، فلا تُفاجأ إذا قيل لك إنّهم «الموروموون». كنت قد قرأتُ عنهم بعضَ الدراسات، خلال عملي الإعلامي، حول أميركا. قرأتُ أكثر حين ترشّح ميت رومني للمنافسة في الانتخابات الأخيرة عام 2016، وهو ينتمي إليهم. لكنّ حشريتي المعرفية توقفتْ عند هذا الحدّ.

اشتهر المورمون مع جوزيف سميث. تفيد الرواية المعروفة حتى الآن، أنّه حين كان في السابعة عشرة من عمره، ظهر له ملاكٌ اسمه موروني. أوحى له بأنّ ثمّة كتباً منقوشةً على ألواح من ذهب، كتبها أنبياء قدامى، قبل المسيح، وقبل الأنبياء والرسل. قال له إنّ الكتب مدفونة في هضبة واين كاونتي، في نيويورك. كشف له الملاك أنّه جاء يبلغه بمهمّة الكشف عن الكتب، والتبشير بها، فهي تروي خصوصاً كيف عاشت أقوام أميركية في الأزمنة الغابرة.

تقول الرواية إنّ جوزيف سميث الذي يعتبره المورمون بمثابة نبيّهم، وجد الكتب، أو ما بات يُعرَف باسم «كتاب مورمون» المقدّس. تقول الرواية أيضاً إنّ أتباعه عُرِفوا باسم «حركة قدّيسي الزمن الأخير». نُشر الكتاب في ربيع عام 1830 بعد ترجمته من لغته المقاربة للغة المصرية القديمة إلى اللغة الأميركية المعروفة.

يعتقد المورمون بأنّ المسيح ظهر في أميركا بعدما صُلب وقام. يقولون إنّ الله على شكل إنسان، ومن لحم ودم، وفي جسده روح أزليّة. هم يعتقدون أيضاً بأنّ الإنسان يمكن أن يصبح هو الآخر إلهاً. ينهون عن الخمرة والمنبّهات مثل القهوة والشاي والمشروبات الغازية. يتجنّبون كثيراً أكل اللحوم، إلّا في حالات الضرورة. ينهون عن تدخين التبغ، ويولون أهمِّية كبرى للقمح. لوحِقوا كثيراً بسبب تشريعهم لتعدّد الزوجات، وتشجيع العبودية، قبل أن يطوّروا مفاهيمهم، ويلغوا بعضها، مع أنّ بعضهم لا يزال يمارسها سرًّا.

يقول بعض المؤرّخين إنّ المورمون أرادوا لكتابهم أن يكون حركةً إصلاحية، وإنّهم يعتبرون أنّ المسيحية تعرّضت للتشويه، بعد المسيح، وأنّ النصّ الأصلي للكتاب المقدّس قد تعرّض للتشويه أيضاً. وهم في حركتهم تلك يستعيدون أيضاً نصوصاً من العهد القديم، محاولين بذلك أن يقرّبوا بين اليهودية والمسيحية، على أساس أنّ المسيح جاء أصلاً لحركة إصلاحية.

في كلّ الأحوال، ظهَرَ التقارب في السياسة، على نحو خاصّ، حيث حصل المرشح الرئاسي الأميركي ميت رومني على دعم مالي وسياسي كبير من متموّلي الجالية اليهودية الأميركية المؤيّدين لإسرائيل، ومِن بينهم مَن له مشاريع وكازينوهات في لاس فيغاس.

من هؤلاء مثلاً، رجل الأعمال اليهودي شلدون أدلسون الذي يُعدّ، بحسب مجلة فوربس، صاحبَ ثالث أكبر ثروة أميركية (25 مليار دولار). أقسم أدلسون على صرف 100 مليون دولار (فقط) لإسقاط باراك أوباما وتعزيز فرص فوز ميت رومني.

معظم ثروة أدلسون حصل عليه من لاس فيغاس والكازينوهات. هو يمتلك حاليا فندقين من أكبر

فنادق المدينة الأميركية الشهيرة هما Palazzo وVenezia وفيهما كبريات صالات ألعاب الميسر والقمار، واتّهمته حملة أوباما بأنّه حصل على جزء من ثرواته من الدعارة.

ربّما كانت هذه النظرة التاريخية القصيرة والمبسّطة لا تعطي المورمون حقهم في الشرح والإيضاح، فهُم باتوا طائفة معروفة ومهمّة، ولهم أتباع ومريدون وصلوا إلى اكثر من 15 مليوناً في أميركا ودول أخرى في العالم خصوصاً بعد انفتاحهم على السود. ما يهمّنا في الأمر هو أنّ المورمون كانوا أول الواصلين إلى لاس فيغاس وبنوا فيها حصناً منيعاً. لوحقوا وتعرّضوا للقتل. ووقعت اشتباكات كثيرة معهم، وانتفض الهنود ضدّهم، ولا سيّما بعدما انخفضت المحاصيل الزراعية، فهجروا المنطقة إلى مناطق أميركية أخرى، خلال الحرب التي عُرفت بـ«حرب اليوتا». ثمّ عادوا إليها بعدما استقرّت أوضاعهم، وكانوا في طليعة من بنى المدينة، ولهم فيها اليوم مئات الآلاف من الأتباع وكنائس خاصّة بهم.

كان هدف وصولهم إلى لاس فيغاس عام 1855 هو التبشير. فقد جاءها رئيس كنيستهم، بريغهام يونغ، على رأس حملة مؤلفة من 30 داعية، لإقناع هنود البايوت باعتناق الديانة المورمونية. وبعد رحيلهم عن المنطقة ودخول الجيش الأميركي إلى حصنهم الشهير، بُنيت سكّة حديدية، فصارت لاس فيغاس معبَراً لا بدّ منه، بين لوس أنجلس والبوكرك...

ليس التاريخ مهمًّا لِمَن يقصد لاس فيغاس. فالآتي إليها عليه نسيان التاريخ والجغرافيا والحاضر، وأن يرغب في تمضية بضع ليالٍ من اللهو والمتعة المفتوحة على كلّ شيء. كنت أفكّر بكلّ هذا وأنا عائد من مسرح الشمس إلى فندقي، في مدينة الأضواء والمتعة. كان سائقي أفريقي البشرة، نحيل الجسد لكنّه طريف الكلام سريع النكتة. سألني، وهو المعتاد على سيّاح آخر الليل: «هل استمتعتَ بلاس فيغاس؟»، قلت له: «أجَل». قال: «وهل حضرت حفلات التعرّي النسائية (striptease)؟»، تخابثتُ وسألته: «وماذا فيها بالضبط؟»، فقال: «إن لم ترَها فأنت لم تشاهد شيئاً في فيغاس، سأقودك إلى إحدى أشهر صالات العروض هنا، فيها نساء من كلّ الأجناس، رائعات الجمال، يرقصنَ أمام الزبائن شبه عاريات، وهنّ مستعدّات لكلّ شيء، وسوف أطلب من صاحب المكان أن يُدخِلكَ من دون أن تدفع شيئاً، وهنا أيضاً في لاس فيغاس رجال يقومون بعروض مماثلة لعروض النساء». ضحكت شاكراً، وقلتُ له: «أفضّل النوم باكراً الليلة، فغداً عندي رحلة طويلة إلى كاليفورنيا»، وسألتُه ثانيةً: «هل أنت أميركي؟»، فقال «نعم»، بلهجة المعتزّ بانتمائه الجديد.

ربّما لا تزال أميركا تقدّم لملايين الهاربين من الفقر والحروب في بلدانهم، جسراً إلى حلم قد يتحقق، فيصبح المهاجر نجماً كبيراً أو ثريًّا، وقد لا يتحقق، فترميه أقداره متسوًّلا في شوارع لوَس أنجلس ونيويورك اللتين سأزورهما ابتداءً من يوم غد.

ربّما سألتني عزيزي القارئ: «وهل جرَّبت حظكَ في الكازينو؟»، أو «هل شاهدتَ أشياء محرّمة في لاس فيغاس؟»، فمن حقّكَ أن تطرَحَ عليَّ هذا السؤال، ولكنّني لن أجيب... ههه، فأنا على يقين من أنّ كلاً منا يبحث عن حلمه، ولكلٍ منّا وسائله لتحقيق حلمه. المهمّ أن نستمرَّ في البحث عنه، لكي نعطي نكهةً ومعنى للحياة. يقول المثل الأميركي: «What happens in Vegas stays in Vegas» (ما يحصل في فيغاس يبقى في فيغاس). ربّما وجدت شيئاً من حلمي في هذه المدينة وربّما وجدتها كلّها كحلم اخترعه الناس وصدّقوه، أو اخترعته آلة الترويج فصدّقناه. لكنّ الأكيد أنّ لاس فيغاس لا تشبه إلّا لاس فيغاس.

كاليفورنيا هوليوود وديزني وشحّاذون وأثرياء

تقف السيدة ذات البشرة السوداء قُرب سيّارتها الرمادية أمام المطار. تلوّح لي بيدها من البعيد بأن أقترب. تلمع أسنانها البيضاء خلف ابتسامتها، فأطمئنّ إلى أنّ ما أفرحني في لاس فيغاس من ابتسامات الناس قد يستمرّ هنا. بادرتني السائقة الأربعينية العمر، الأفريقية الجذور، بالقول: «كيف حالك يا سيدي، عساك لم تنتظر طويلاً؟»، فأجبتُها بالشكر على السؤال، وبأنّ الرحلة القصيرة نسبياً بين لاس فيغاس وكاليفورنيا (نحو ساعة بالطائرة) مرّتْ سريعاً، وبأنّي لم أنتظر إلّا دقائق معدودات قبل أن أراها. ثمّ سألتها بدوري عمّا يمكنني فعله ومشاهدته في هذه الولاية الأميركية الشاسعة التي تمتد على مساحة 423970 كيلومتراً مربَّعا (أي نحو 42 مرة أكبر من مساحة لبنان)؟ فقالت: «هذا يتعلق بعدد الأيّام التي ستمضيها هنا، فالولاية مجموعة مدن ضخمة، وفيها كلّ المتناقضات، وتختصر الكثير من الحياة الأميركية».

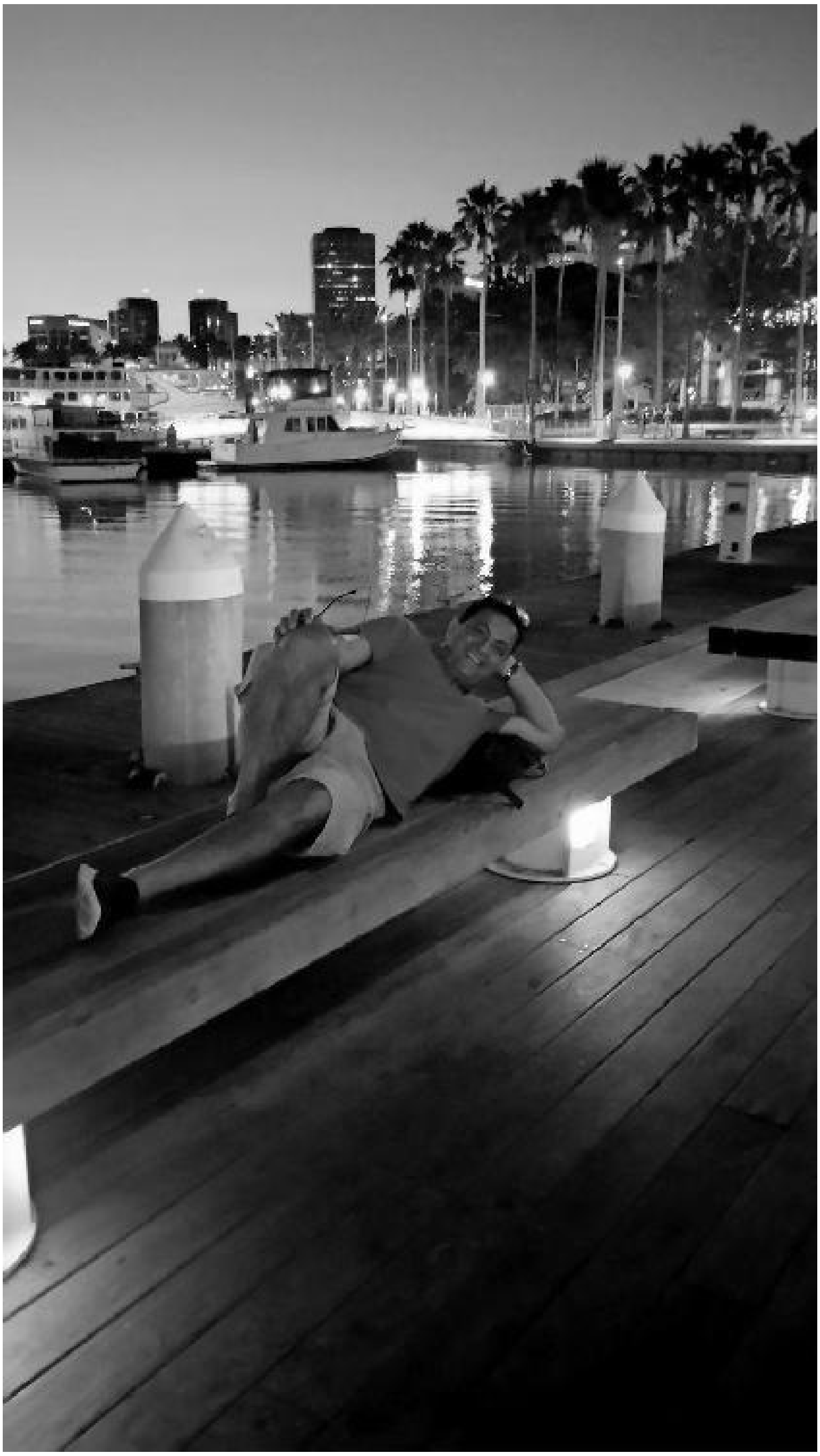

على شاطئ اللونغ بيتش في كاليفورنيا.

راحت السائقة اللطيفة تُكمِل شرحها، وأنا أراقب مداخل مدينة لوس أنجلس، أولى مدن كاليفورنيا، وأكثرها أهمِّية: شوارع واسعة جداً، بدءاً من المطار. مبانٍ متنوّعة الأشكال. جسورٌ وجسور وطرقات ثمّ جسور. أشجارٌ مبثوثةٌ في كلّ مكان. سائقو السيّارات مختلفو الألوان والأجناس من الأفريقي إلى الأشقر والأبيض والآسيوي. السرعة محدودة، لكنّ الواضح أنّ قلّة يلتزمونها. لم تجذبني العلاقة الأولى مع كاليفورنيا. شعرتُ بمثل ما يشعر شابٌّ تعرّف إلى صبيّة على الإنترنت، فتحادثا لفترة، وحين رآها فوجئ بأنّها أقلّ جمالاً ممّا ظنّ، وأدنى جاذبية ممّا توقّع. ومع ذلك، قلت في نفسي: «انتظر يا رجل، فهذه المدينة كالنساء تماماً، لن تكشف عن كلّ مكنوناتها من اللقاء الأول، اطمئنّ إليها واجعلها تطمئنّ إليك، فقد تكتشف الكثير من مكامن الجمال فيها».

عدّلت السيدة الأفريقية اللطيفة نظّارتها فوق أنفها، نظرت إليّ عبْر المرآة الصغيرة، ثمّ تابعت: «لا شكّ في أنّك ستزور هوليوود واستديوهات السينما العالمية «يونيفرسال»، ومنطقة «بيفرلي هيلز» الثريّة الراقية، وستذهب إلى البحر صوب سانتا مونيكا، أو لونغ بيتش، لكن حاول أيضاً أن تتعرّف إلى ناس LA (اختصار لوس أنجلس) ولا تحكم على المدينة قبل أن تزور القسم الأكبر منها، فتناقض الأمور والمشاهد فيها هائل». تمنّتْ لي إجازةً موفّقة بعدما سألتني، كما يسأل كلّ الأميركيين، عن الدولة التي جئت منها، وتمنّيت لها بقيةَ يومٍ سعيدة وممتعة. لكن قبل أن أودّعها، رفعَت نظّارتها عن عينيها، واستدارت بكل جسدها صوبي، وقالت بخبث محبّب: «لكن لا تقلق يا سيّدي إذا شعرت بارتجاج ليلاً، فنحن نتوقّع حدوث زلزال جديد هنا». صمتَتْ قليلاً. نظرتُ إليها بشيء من العتب المحبَّب أيضاً، وقلت: «ليتك أنهَيتِ الرحلةَ من دون هذا الخبر، فأنا منذ قرّرت المجيء إلى كاليفورنيا، أتردَّد لهذا السبب، وكنت أظنّ أنّكم لا تبالون به». سارعت إلى الاعتذار وقالت: «كان الله برفقتك، وأتمنّى لك أجمل الأيّام عندنا».

ترجّلت من السيّارة عند جادة واسعة. جررتُ خلفي حقيبتي الكبيرة. تحسَّست حقيبة اليد وما إن كان جواز سفري ومحفظة نقودي والكمبيوتر فيها، ثمّ دخلتُ بهوَ الفندق، وكدت أضيع فيه. لم أرَ في حياتي فندقاً عليكَ أن تصعد إلى الطابق السبعين (نعم السبعين) فيه، كي تجد مكتب الاستقبال. فكرتُ فوراً بالزلزال المحتمل. ابتسمتُ وحدي. قلتُ إنّ الفندق سيكون أولَ ما يتهدَّم في هذه المدينة، إذا وقعت أيُّ كارثة طبيعية. لكنَّ المنظرَ هائل. إطلالةٌ على كلّ لوس أنجلس، من الأعلى، كأنّي أنظر إليها من طائرةٍ مروحية (هليكوبتر). الفندق هو الأعلى في المدينة، لا يقاربه طولاً سوى مصرفَيْ «سيتي ناشونال بنك» و«يو أس بنك» وشركات تأمين ومحاسبة مشهورة. تذكرتُ التحذيرات الأميركية للبنانِ باحتمال فرض عقوبات مصرفية عليه، بذريعة «حزب الله». قلت: «لا بدّ من أنّ رجالاً يعملون الليلةَ، هنا، في هذه الأبراج القريبة، على فرْضِ قوانين جديدة». لم أُطِل التفكيرَ كثيراً، أريد الآن أن أعرف أميركا من الداخل، بعدما عرفتُ على مدى سنوات طويلة سياستَها الخارجية التي لم تُنصِف العرب، على الرغم من أنّ حلم الكثيرين من العرب، هو المجيء إليها للعيش فيها أو للدراسة أو لتحصيل ثروة.

منذ أيّامي الأولى في أميركا، تأكدتُ ممّا كنتُ أحدسه طويلاً. الشعب الأميركي شيءٌ، والسياسة الخارجية شيءٌ آخر. أميركا تشغل العالم بسياستها، والكثير من السياسة العالمية يتحرّك من البيت الأبيض، لكنّ الأميركيين اللطفاء عموماً، آخر ما يهمّهم هو السياسة الخارجية. لم أسمع طَوالَ رحلتي إلى الولايات المتحدة الأميركية أميركياً واحداً يحادثني أو يحادث صديقته أو أصحابه بالسياسة. كلّ الأحاديث تدور حول الحياة اليومية بشؤونها وشجونها، وعن الأحلام بالانتقال إلى ولاية أخرى، داخل أميركا، وبتحسين مستوى العيش أو تغييره؛ كما أنّ معظم البرامج التلفزيونية تركّز على ما هو داخليّ، لا بل على ما هو محلّيّ في كلّ ولاية.

ربّما تسأل عزيزي القارئ، لماذا حذَّرتْني السائقة الأفريقية من الزلازل؟ المصادفة غير السعيدة، على الأرجح، هي التي جعلت وصولي إلى أميركا يترافق مع تحذيراتٍ جديدةٍ، مِن جيولوجيين أميركيين، من احتمال تعرّض كاليفورنيا لأكبر زلزال في تاريخها. المعلومات مقلقة جداً للأميركيين،

فهي تذكَرهم بأسوأ أيّام أجدادهم قبل نحو مئة عام. تعود ذاكرتهم إلى عام 1906، حين تعرّضت كاليفورنيا، وخصوصاً سان فرانسيسكو، لزلزال بنحو 8 درجات، على مقياس ريختر. أعقبَته ثلاثة أيّام من الحرائق الهائلة التي لم تستطع كلّ الوسائل إطفاءها، فكانت النتيجة آلاف القتلى، ونحو 400 ألف مشرّد، وخسائر بملايين الدولارات. آنذاك دُمِّر 80 في المئة من سان فرانسيسكو. لا يزال شبح الزلازل والحرائق الهاجس الأكبر لدى الكاليفورنيين، على الرغم من كلّ الإجراءات الاحترازية التي تتّخذها السلطات. ثمّ إنّ بعض الحرائق قد تستمرّ حالياً أيضاً أيَّاما عدّة، قبْل أن يتمكّن الإطفائيون من إخمادها.

كان نصيبي في الفندق، غرفة في الطابق الخامس والثلاثين. قلت إنّ السقوطَ منه لن يختلف عن السقوط من الطابق السبعين، إذا وقع الزلزال. ابتسمتُ مجدَّدا، لكنّ جمالَ اللوحة الليليّة أنساني قبْحَ التشاؤم والقلق. بدَتْ لوس أنجلس في حلّتِها الليلية بهيَّة إلى أقصى حدّ. أضواءٌ بيضاء وصفراء تمتدُّ على مساحات شاسعة تضيء وجهَ المدينة. ترسم السيّارات بمصابيحها خطوطاً مستقيمة ومتعرّجة بين المباني والبيوت. تظهر بعض الأضواء الخضراء كشامات على خدّ لوس أنجلس. كلّ شيء يتلألأ في ليلتي الأولى، وأنا مستلقٍ على سريري في الطابق الخامس والثلاثين، كأنّي نائمٌ على غيمة، أنتظر حلماً جميلاً ينساب إليَّ حين تنعس جفوني كما لو أنّني في أحد الأفلام الساحرة التي صُنِعت هنا، على مقربة منّي، في هوليوود، ودغدغتْ مخيَّلة مئات ملايين المشاهدين عبر العالم. كان الفراش وثيراً، والغرفة جميلةً والإطلالةُ رائعةً. استسلمتُ لنوم عميق. لا أدري إن حلمت بشيء، أم لا. كلّ ما أعرفه هو أنّني نمتُ ملءَ جفوني، واستيقظت بكامل نشاطي وفرحي، عند السابعة صباحاً، على غير عادتي.

الفطور الصباحي في الطابق الـ69. ما إن صعدتُ إليه، حتى كانت أشعّة الشمس الأولى قد سبقتني إلى طاولتي. جلستُ مباشرة بمحاذاة الزجاج الكبير المُطل على المدينة. كأنّي أريد التأكد من أنّ جمالها الصباحي لا يختلف عن سحرها الليلي. يقال إنّ النساء أجمل في الليل، بسبب التبرّج وسحر السهر، وإنّهنّ في الصباح يفقدن كثيراً من جمالهن. لم يختلفْ رأيي في لوس أنجلس عن رأيي في المرأة. فلكلّ وقتٍ بهاؤه. للمرأة جمالُها الليلي وجمالها الصباحي، التبرّج لا يصنع جَمالاً، فهو كأضواء المدينة، يزيد الجمال، ويغلّفه بما يضيئه، ولا يصنعه.

أقفلتُ كلَّ هواتفي، بعد اطمئناني على أهلي. حملتُ حقيبة ظهرٍ خفيفة. في الحقيبة كاميرا صغيرة ودفتر وقلم لتسجيل الملاحظات. فيها أيضاً نظّارة شمسية، وذلك لأنّنا في أوج فصل الصيف، ثمّ إنّ الشمس تسطَعُ على كاليفورنيا أكثر من 300 يوم في العام. سألتُ موظفةَ الاستقبال عن الطريق الواجب سلوكه للوصول إلى وسط لوس أنجلس، فاقترحت إمّا التاكسي وإمّا الباص وإمّا المترو وإمّا السير على الأقدام.

يَلَذُّ لي السيرُ على القدمين في المدن. لم أعرف مدينة عن قرب إلّا حين كنتُ أسيرُ في شوارعها وأزقّتها وأحيائها. السير في شرايين المدن يجعلني أقربَ إلى وجوه الناس. القربُ من وجوههم يعكس لي الكثير ممّا في دواخلهم. قد تجِدُ مدناً وجوهُ الناس فيها قادرةٌ على فتح نوافذ الفرح على قلبك، وتجد مدناً أخرى فيها وجوه تنبذك وتنبذها، مهما اصطنعت من ابتسام. للمدن أرواح منثورة على أرواح ناسها. مهما اختلفَت الوجوه والأشكال والألوان، فإنّ لكلّ مدينة روحها المتناثرة في أرواح أهلها وساكنيها والعابرين فيها. للمدن ألوان وأشكال، ولكنّ الأهم أنّ للمدن روائح وأرواحاً تختلف من دولة إلى أخرى. للمدن أحاسيس تنساب إليك فتنساب إليها، أو تنفر منها.

لاس فيغاس كانت تضجّ بالأحاسيس الجميلة. بدت لي كامرأة مجنونة مغامرة مبدعة، تتطاير فوق أريج الفرح. كانت أيضاً حنوناً وحاضنةً، تلفُّ ذراعيها حولي، كأنّها تريد أن تُريني أجمل ما فيها، وتهمس لي بكلّ أسرارها التي تقال ولا تُقال. على عكسها تماماً بدتْ لي لوس أنجلس. شوارع كبيرةٌ ومبانٍ شاهقةٌ، قديمة وحديثة، لكنّها تفتقر إلى الروح. ما إن نزلتُ من الفندق أسيرُ صباحاً في شوارعها، حتى شعرت بشيء من النفور والقلق. لم أتوقّع أن يستقبلني في شوارعها هذا الكمُّ من

الفقراء والسكارى والحشاشين. هذا مرتم هنا بثيابه الممزقة، وذاك يمدُّ يدَه متسوَّلا وهو جالسٌ فوق أشيائه، كأنّه جالسٌ فوق كومةِ نفايات، وثالث يترنّح راقصاً خلْفَ مذياع يُرسل موسيقى صاخبة، وبين هذا وذاك تمرُّ، بين الفينة والفينة، سيّارات الإسعاف أو الإطفاء أو الإنقاذ وأصوات أبواقها تصمّ الآذان. أيُعقل أن تكون هذه لوس أنجلس؟

بدَتْ لي المدينة ورشةَ بناء كبيرة. هنا الطريق مقطوعة للحفريات. في الطريق المجاورة رجلٌ يحمل بيدقاً يومئ للسيّارات كي تسلكَ الطريق الأخرى لأن بُرجاً عالياً يُشيَّدُ هنا. لا شيء يوحي بالفرح في ساعات الصباح الأولى، لا شيء يوحي بالاطمئنان.

سِرتُ ساعاتٍ طويلةً أبحثُ عن شيء لا أعرفه. لا أعرف أصلاً عمّا كنتُ أبحث. هِمْتُ على وجهي أكتشف وسط المدينة. هنا شارع برودواي. هنا صحيفة لوس أنجلس تايمز. هنا مخازن كبرى للماركات العالمية بأسعار مخفوضة. هنا مقهى يجلس فيه شابٌ وشابّة اختفى جسداهما خلف الأوشام. هو نحيل الجسد، وهي برأس نصف حليق، يتدلّى من أنفها وأُذُنَيها حلقٌ وحُلِيٌّ وأشياءٌ كثيرة أخرى.

بدا لي وسطُ لوس أنجلس بمبانيه القديمة، وتلك التي تُشيَّد حالياً، كمدينة كانت ذات تاريخ جميل وجادّات وشوارع واسعة، ثمّ حصل شيءٌ ما، فاكفهرّ وجهُها. انحرفتُ قليلاً إلى اليسار، رحتُ أنتقل من شارع إلى آخر، فإذا بي أمام شركة مايكروسوفت العالمية للكمبيوتر، وعلى يسارها تماثيل لأبرز اللاعبين الرياضيين الأميركيين، وأمامها مركزٌ تجاريٌّ أنيق. رفعتُ ناظريّ إلى الأعلى، فبدَت لي الأبراج الجديدة مزدانةً بكثير من اللوحات الدعائية لكبريات الشركات والمصانع العالمية.

كلما كنت أغوص في قلب لوس أنجلس، كان التناقض يزداد: بين الفقراء المنتشرين في الشوارع، وبين الثراء الفاحش الذي تضخ معالمه الأبراج والشركات الكبيرة. بدَتْ المدينة كامرأة قاسية، نجحَتْ كثيراً في حياتها العملية، لكنّها نسيَتْ قلبَها. خفْتُ ألّا أُحِبَّها. ثمّة شيء ما كان يُبعِدني عنها، كلما اقتربت منها. جلستُ في أحد المقاهي أقرأ الدراسات التي جمعتُها عن أميركا، لكي تكون رحلتي جامعةً بين مشاهداتي وبين المعلومات والإحصائيات الموثوقة، فقرأت ما يلي:

بعض أرقام عن كاليفورنيا ولوس أنجلس

تحتلّ كاليفورنيا المرتبة السادسة على سلّم الاقتصاد العالمي، مكان فرنسا، وفْقَ مكتب التحليل الاقتصادي الأميركي (BEA) بمبلغ تخطّى 2500 مليار دولار في عام 2016. عددُ سكانها يقارب 40 مليوناً، وهي تؤمن 14 بالمئة من الناتج القومي الخام لكل أميركا.

• في كاليفورنيا ما يُعرف بـ-Silicon Valley الذي طارت له شهرةٌ عالمية هائلة، لكونه يضمّ أبرز الباحثين والشركات الكبرى عالمياً، في مجال المعلوماتية والتكنولوجيا الرفيعة الحديثة. ففيها مثلاً شركات أبل وفايسبوك وغوغل.

• تتمتع كاليفورنيا بموقع جغرافي متميّز، فهي تمتدّ حتى شواطئ المحيط الهادئ، وتجاور المكسيك، ما ضمن لها إقامة مصانع هائلة بيد عاملة رخيصة، كما ضمن لها أيضاً مصادر طبيعية كبيرة. تحت أرضها مخزون كبير من النفط والفضّة والنحاس والحديد.

• في كاليفورنيا أضخم إنتاج سينمائي عالمي في هوليوود، عبر «يونيفرسال ستوديو»، وأكبر مدينة ألعاب للأطفال «ديزني لاند».

• تستقبل كاليفورنيا سنوياً نحو 250 مليون سائح، بينهم أكثر من 47 مليوناً زاروا لوس أنجلس وحدها في عام 2016، ومنهم نحو 7 ملايين سائح أجنبي في لوس أنجلس.

إن كانت كلّ هذه الأرقام تجعل من مدن ولاية كاليفورنيا أغنى مدن العالم، فما الذي يبرّر هذا الفقر

المنتشر في الشوارع؟ كنت أطرح على نفسي هذا السؤال وغيره من الأسئلة، وأنا أواصل السير في قلب المدينة، باحثاً عن التعرّف إليها عن قُرب. كثيرٌ من مبانيها المتنوّعة ذات طراز معماري جميل، قديمه وحديثه. جادّاتها واسعة. تشعرُ بأنّ رئتيْ المدينة واسعتان. تتنفّس من كلّ مكان. الطرقات منظمة. جلستُ في أحد المقاهي الجميلة، وبجواره مطعمٌ فرنسي راق، وآخرُ يابانيٌّ يوحي بأنّ زوّاره لن يكونوا إلّا من الطبقة ذات الثراء الفاحش. قرأتُ في صحيفة لوس أنجلس تايمز أنّ نسبة الذين لا مأوى لهم في لوس أنجلس زادت في عام 2017 لتصل إلى 23 في المئة، أيْ إنّ نحو 60 ألف شخص ينامون في الشوارع. وثمّة تفسيراتٌ كثيرة لذلك؛ بعضُها يقول إنّ الدولة تقدّم كلّ الخدمات الصحّية والاجتماعية، وإنّ مَن ينام في الشارع، هو إمّا شخص دخل البلاد خِلسةً، بلا أوراق، وإمّا هو انحرف صوب السُّكْر والحشيشة والمخدّرات. وبعضها الآخر يقول إنّ أناساً عاديّين وموظفين سابقين ربّما وجدوا أنفسَهم، بين ليلة وضحاها، في الشارع بسبب الإفلاس أو البطالة أو التهميش الاجتماعي. تتعدّد التفسيرات، لكنّ النتيجة واحدة، وهي أنّ منظر هؤلاء المتسوّلين أو المتسكّعين الفقراء في الشوارع لا يليق ببلد بنى أسطورته على ما عُرف بالحلم الأميركي.

لكن هل هذه هي كاليفورنيا فعلاً؟

قطعاً، لا. ما إن عدتُ إلى الفندق، بعد يوم طويل من السير في قلب لوس أنجلس، متأرجحاً بين مشاهد الثراء الفاحش والفقر المدقِع، حتى عادت إليّ المدينة تتلألأ بأضوائها وتُعيد إبرازَ جمالها الليلي بألف لون وضوء. اتّصلت بصديقةٍ لي عاشت طويلاً في أميركا، وتعرفها عن قُرب. أخبرْتُها عمّا شاهدتُه، وقلت لها: «لم أستطِع التآلف بعدُ مع لوس أنجلس»، فأجابت: «إنّ كاليفورنيا ولاية متكتّمة، وقد تبدو فيها لوس أنجلس قاسية، لكن انتظرْ قبل أن تحكم على ظواهر الأمور. حاول أن تجول أكثر في المناطق الأخرى، لتكتشف روح المكان».

ارتميتُ على السرير مرهَقاً من السير الطويل في شوارع لوس أنجلس. عادتْ إلى مخيّلتي في الليلة نفسها صورةُ رجلٍ فقير يستند إلى برميل نفايات، على قارعة الطريق، ويُمسك بما بقي له من قوة، بسيجارته بين أصابعه السوداء بفعل الزمن والوسخ، يمجُّ السيجارة، ينظر إلى المارّة تارة، والى الأرض تارةً أخرى، ويبتسم. بدا لي كأنّه يضحك على الحياة، أو على المارّة. خِلتُه يقول إنّ كلّ هذا الثراء الفاحش حولي لا يساوي دخان سيجارتي، ويضحك.

في الصباح الباكر قرَّرت أن أبتعدَ قليلاً. اتّجهْتُ صوبَ المحيط الهادئ. قصدتُ الشاطئ الرحب والرائع، سانتا مونيكا. تصدح الموسيقى عن الجسر القائم فوق المياه، عند المدخل. هذا مغنٍّ أميركيٌّ جنوبيُّ اللكنةِ يذكّرني بأبطال أفلام الكاوبوي. ينقر على غيتاره ويصدح بصوته الجميل، فتقترب منه الفتيات بثيابهنّ البحرية التي تكشف أكثر ممّا تخفي من الأجساد، ويَرمينَ أمامه قطع النقود. يبتسمْنَ له، فيبادِلُهنَّ الابتسامةَ بأحسن منها، ويعلو الصوتُ ويزداد وقْع الأغنية. وهذا، في الجهة المقابلة، مغنٍّ مكسيكي ينفخ في آلته الموسيقية الشهيرة، فتخال أنّ تاريخ وحضارة المكسيك، من زمن السكّان الأصليّين إلى يومنا هذا، مختصرٌ في هذه النغمات. الفتيات والشبّان يفعَلون حياله تماماً ما فعلوا أمام المغنّي الأميركي. لا فرقَ هنا بين هذا وذاك، كلاهما صوتٌ جميل، والاثنان أميركيان. لم تكنْ أميركا لتقوم لولا هذا الخليط المتعدّد المصادر والمنابع والحضارات والثقافات. لا بأس إنْ كان هذا المكسيكي جاء ذات يوم عبْرَ طريق غير شرعي، ولا بأس أيضاً إنْ كان أحدُ أفراد عائلته أو رفاقه الذين كانوا معه، قُتل عند الحدود برصاص أحد الحرّاس؛ فالأهمّ من ذلك كله أنّه ما إن أصبح هنا، وحصل على أوراقه، حتى صار أميركياً كغيره. لأميركا قدراتٌ كبيرة على استيعاب المهاجرين إليها عبر التاريخ، واحتضانهم. لدى المهاجرين رغبةٌ عميقةٌ في أن يصبحوا أميركيين وأن يُحبّوا بلدهم الجديد ويفخروا بعلمه.

لا بَدَلَ دخول إلى بحر سانتا مونيكا ولا خوّات ولا ضرائب. المحيط مفتوح للجميع. الرمال الذهبية اللامعة تحت الشمس تستقبل الأجساد الراغبة في التمتع بالمياه الصافية والاسترخاء، دونما حاجةٍ إلى وسيط. تذكَّرت نهبَ الشواطئ عندنا في لبنان، وكيف سرق الساسةُ ورجالُ المال والأعمال كلَّ متنفَّسٍ للفقراء نحو الشاطئ، وكيف بنوا عليها أبراجاً وأقاموا فنادق ومطاعم، واحتكروا مساحات واسعة لبناء منتجعات سياحية تزيد في إفقار الراغبين في الهروب قليلاً من ثِقَلِ دمِ الساسةِ والسياسيين.

الطقس جميل والنهار مشمسٌ والناس عابقون بالفرح. يبدو أنّ ثمّة رابطاً بين الفرح والشمس. غالباً ما تكون الشعوب، في الدول ذات الحرارة المعتدلة أو المرتفعة، أكثر ميلاً إلى الفرح والنكتة، من الشعوب في الدول الباردة. لا يهمّ إنْ كان الإنسان فقيراً. الشمس تخفف بعضَ الفقر، وزرقة السماء والماء تُنزِلُ عن كاهله بعضَ شجون الحياة.

سانتا مونيكا جميلةٌ بشاطئها الممتدّ عشرات الكيلومترات النظيفة، وهادئةٌ ببيوتها المطلّة على البحر، والمستلقية بهناءٍ تحت أشجارٍ وارفة. لكنّني لا أقصدها إلّا بدافع الفضول والحشرية، ففي بلادنا هذه

الأيّام بحرٌ وشمس وأشجار وارفة. الفارق الوحيد هو أنّنا هنا ننزل إلى المياه باطمئنان، ومن دون أيّ قلق من أن تفاجئنا نفاياتٌ وقاذوراتٌ في المياه أو قنديل بحر أو علبة سردين أو زجاجة مرطّبات، بينما في بلادنا، ننزل إلى المياه من دون أن نكون مطمئنين إلى ما سيؤول إليه نهارُنا: هل ينتهي بنا في البيت أم في المستشفى.

هوليوود والسينما الحلم

في اليوم الثالث لزيارتي للوس أنجلس بدأت المدينة المتكتّمة تكشف أسرارها الجميلة والخبيئة. ركبت القطار متوجًّها نحو «يونيفرسال ستوديو». منذ نعومة أظفاري أحبُّ السينما. كنتُ أهربُ من البرامج السياسية إلى السينما. قدُّمت في فرنسا برنامجاً عن السينما والمسرح، إضافة إلى برامجي السياسية. شاركتُ في الكثير من المهرجانات السينمائية والمسرحية العالمية، إلّا هوليوود.. لا أدري لماذا كنت أتردَّد في المجيء إلى هنا. لكنّي بالمقابل، حضرتُ كلَّ ما تيسّر لي من أفلام. كنتُ أثناء إقامتي في باريس، أشاهدُ فيلمين، على الأقل، في الأسبوع. وحين أشارك في مهرجان، أشاهد ثلاثة أفلام في اليوم الواحد. تحتضن مكتبتي في المنزل نحو ألف فيلم من أبرز الأفلام العالمية، معظمها صُنع هنا في هذه المنطقة التي وصلت إليها للتوّ.

من هوليوود.

هي مدينة قائمة بذاتها وفيها مجسّمات شبه حقيقية لمدن عديدة. أتريد أن ترى نيويورك مثلاً؟ فهذا الباص السياحي يُدخِلنا الآن إلى مدينة فيها أبراجٌ ومقاهٍ وبيوتٌ ومحالّ تجارية وإعلانات تجارية وأضواء. أتريد تكساس؟ هذه مدينة فيها المقاعد والكراسي الشهيرة أمام البيوت، وفيها الشرفات التي كانت تُطِلّ منها الحسناوات يشاهدْنَ كيف أنّ بطل الفيلم يقتل المجرمين أمام البيوت. أتريد مدينة أوروبية؟ هذه بيوت قرميدية جميلة مبنيّة من الحجر الصلب وأشجار وارفة وحدائق غنّاء...

الفارق الوحيد بين هذه المدن هنا، وبين المدن الحقيقية، هو أننا هنا أمام بيوت مبنيّة من مواد الديكور، أيْ الخشب والفايبرغلاس وغيرها. لكنّ الزائر يحتاج إلى المزيد من التدقيق، قبْل أن يكتشف الفارق. هو عالم من الخيال بُنِيَ هنا ليشحذَ خيالات الناس عبر العالم. صورُ كبار النجوم العالميين منتشرةٌ بين مدن الخيال. بقايا الأفلام لا تزال في مكانها: هنا طائرة كاملة محطّمة جرى شراؤها وتفكيكها وتكسيرها ونثرها أمام البيوت وعليها لفيلم تحطّم الطائرة، وهنالك السيّارات نفسها التي كنّا نشاهدها في صبانا في الأفلام الهوليوودية الجميلة، وهذا رجل يخرج من بيتٍ شبه معزول حاملاً امرأة قتلها للتوّ ويرميها في صندوق سيّارته لتنتعش ذكرى المخرج السينمائي الفذّ، هيتشكوك.

ينقلنا عالم الخيال في منطقة «يونيفرسال ستوديو» إلى ما يُلهب الأحاسيس ويرفع مستوى الأدرينالين في الدم. ندخل في الباص السياحي إلى نفقٍ مظلم، وسرعانَ ما نجد أنفسنا داخل مدينة حقيقية، وإلى جانبنا سيّارات تتسابق وتتقاتل. إطلاق رصاص وقذائف، تشعرك بأنّ قطع السيّارات المتناثرة قد وقعتْ عليكِ فعلاً، فتنطلق صرخات الإعجاب من حناجر السيّاح. ينقلنا الباص إلى الأدغال فيهاجمنا ديناصور ينفث صوبنا حُممَ النار أو المياه، فتشعر بالحرارة تُلهب الأجساد، والمياه تبرّدها. ترتفع الصرخات مجدًّدا. تخرج من النفق حامداً الله أنّك لم تُصَبْ بأيّ أذىً، فتسمع صوت الدليل السياحي يقول: «ابتسم أنت في قلب فيلم جوراسيك بارك».

ندخل إلى عرض للحيل السينمائية. نفهم كيف يحترق جسد ممثّل في الفيلم بحِيلة، وكيف يُضرب ممثّلٌ آخر بعنفٍ كأنّه واقعٌ حقيقي، وكيف يطير رجل صوب الفضاء وكيف تُقطَع يدٌ وتنزف دماً... ونفهم أيضاً أن ليس كلّ شيء حِيَلاً سينمائية، بل فيه أيضاً عبقرية تقنيّات الكمبيوتر، التي تستطيع تحويل جسد الإنسان إلى جسد أيّ حيوان من الدبّ اللطيف «ويني» إلى السيّارة التي تتحوّل إلى مقاتل شرس «ترانسفورمز». لا شيءَ مستحيلاً هنا، لكنّ كلّ شيء ليس كمبيوتراً وتقنياتٍ، بل هو مجسّمات هائلة؛ فإلى المدن التي أقيمت هنا، في الاستوديوهات الهائلة، سيجد الزائر أيضاً أنّ الديناصور، في قلب الأدغال، ليس مجسَّما صغيراً وإنّما هو هيكل ضخم حقيقي للديناصور الحقيقي. كنتُ أصادف العشرات منها، وأنا أجولُ مع عددٍ آخر من السيّاح في مدينة الحلم الكبيرة.

في مدينة الحلم الكبيرة أيضاً سهراتٌ غنائية ومطاعم وقاعات ضخمة للعروض، وفيها بيوتٌ قديمة لا يزال الثلج متناثراً على سطوحها، وفي داخلها أناس يرتدون ثياب التاريخ ليجمّلوا الحاضر. نحن هنا في مدينة «هاري بوتر»، الفيلم الشهير المبنيّ على رواياتٍ حقّقت حتى الآن دخلاً بمئات ملايين الدولارت حين تحوّلت إلى فيلم سينمائي.

تُسهِم منطقة هوليوود، بما فيها من استديوهات سينمائية ضخمة، كديزني لاند وغيرها من المواقع السياحية، في توفير أرباح مالية ضخمة لمدينة لوس أنجلس وولاية كاليفورنيا عموماً. تزيد هذه الأرباح السنوية على 110 مليارات دولار. مطار لوس أنجلس صار خامس مطار في العالم. ليس بيع الأفلام وحده ما يدرُّ هذه الأرباح، بل السياحة أيضاً إلى مدن الحلم والوهم. فمثلاً، الداخلُ إلى «يونفرسال ستوديو» يُخيَّرُ بين أن يدفع 120 دولاراً لزيارة عادية أو نحو 400 دولار لزيارة VIP ليوم واحد. الصفوف طويلة حتى لتكاد زيارة موقع واحد تحتاج إلى الانتظار ما بين ساعة وساعتين. معظم السيّاح من المكسيك وكندا والمناطق الأميركية المجاورة واليابان.

صادفتُ بعض السيّاح العرب في منطقة «يونيفرسال ستوديو». صادفتُ بعضَهم الآخر في مطاعم

الهامبرغر الشهيرة «In-n-Out» التي تعجّ بمحبّي هذا النوع من الوجبات الأميركية السريعة. كان طريفاً أنّ الناس هنا يجالس بعضهم بعضاً حول الطاولات بسبب ازدحام المكان. والمطاعم قد تتّصل برجل شرطة لتنظيم صفوف الزبائن، لكنّ الطريف أيضاً أنّي رأيتُ سيَّدة محجَّبةً جالسة بجسدها الضخم تلتهم سندويشات الهامبرغر، فإذا برجل أميركي أسود يجالسها، كما يفعل ربّما كلّ يوم، فتسارع إلى تغطية وجهها بالحجاب وتخفض رأسها نحو الطاولة، وتأكل بخفَرٍ وحياء، من تحت حجاب هو أقرب إلى النقاب. أمّا الشابّ الجالس إلى جانبها، فلعلّه لم يفهم شيئاً. في المقابل، لم أرَ من الأثرياء العرب أحداً هنا، كان معظمهم في الضاحية الراقية والثريّة للوس أنجلس «بيفرلي هيلز» التي يسكن فيها أيضاً عدد لا بأس به من كبار نجوم العالم وأثريائه.

مدن الثراء واللهو والجمال

هنا، في بيفرلي هيلز، كلّ شيء يوحي بالثراء والفخامة. الماركات الأوروبية العالمية في المحالّ المنتشرة بإتقانٍ على جانبي الجادّات الأنيقة والنظيفة والمزيّنة بالأشجار. الورود تنتشر عند الزوايا وعلى الجوانب. السيّارات الفخمة من آخر الطُرُز والصرعات المبتكَرة في عالم السيّارات. شجر النخيل الذي تنبعث من معظمه أنغام الموسيقى. سيِّدات يابانيات يحملْنَ حقائبَ اليد من محالّ «لوي فيتون». وهذه عجوز يابانية ترتدي أرقى الملابس، وتحمل باقة من الورد، وأمامها مصوِّر يلاحقها، وخلْفَها رجلا أمن.

غريب فعلاً هذا التناقض الهائل بين منطقة راقية وثريّة تنتشر بيوتها القرميدية الرائعة بين غابات من الأشجار المشذبة بإتقان والجادّات النظيفة، وبين فقراء يتسوّلون أو يموتون من الجوع أو القهر أو الحشيشة والسكر في شوارع إحدى أغنى مدن العالم.

هنا في مدن الحلم الأميركية، قد يدفعك حلمُك إلى قمّة المجد، فتُفتح لك الأبوابُ، إنْ أنتَ أحسنتَ التعامل مع ظروف الحياة، وطوَّرت نفسك؛ وقد يدفعك اليأس إلى الموت على قارعة الطريق أو بسكّين مجرم. فنسبة الجريمة لا تزال مرتفعة جداً، هنا. تقول إحصائيات الأمم المتحدة، والبنك الدولي، والإحصائية التي نشرتها صحيفة «واشنطن بوست»، إنّ نسبة الجريمة في أميركا لا تزال تفوق بأربع مرّات نظيراتها في الدول الأوروبية. كادت الصحيفة نفسها تقول: «إنّ نسبة الجريمة في لوس أنجلس تشبه ما كان عليه الأمر في بريطانيا في عهد شيكسبير». كلّ يوم يُقتل شخص واحد على الأقل في لوس أنجلس التي تضمّ نحو 4 ملايين نسمة. على أن الجريمة فيها تبقى طبعاً أقلّ منها في شيكاغو التي شهِدَتْ، وفق صحيفة لوفيغارو الفرنسية، مقتل نحو 762 قتيلاً في عام 2016.

لا شكّ في أنّ هذه الأرقام مقلقة، ولذلك تنشط جمعيات كثيرة لوقف تشريع بيع الأسلحة الفردية في أميركا. وكذلك تنشط لجان صحافية من جهتها فتنشر أرقاماً عن عمليات قتلٍ تنفّذها الشرطة بحق أشخاص مُلاحقين، أو خلال فضّ مشكلات بين مسلّحين. وتقول هذه الأرقام إنّ نصف هؤلاء القتلى فقط كانوا يحملون سلاحاً. لكنّ الثابت أنّ كلّ هذه الأرقام لا تُلغي أنّ الكثير من الناس يعيشون حياةً مرفّهة، وأنّ المدن الأميركية الكبيرة لها سحرٌ خاصّ، وإلّا لَما اجتذبت إليها كلّ هذه الملايين من السيّاح سنوياً، ولما درّتْ كلّ هذه المليارات من الدولارات.

ديزني لاند سر الخيال

توجَّهت هذا الصباح صوب «ديزني لاند». كنت راغباً في التعرّف إلى مدينة الألعاب الشهيرة التي تأسّست في منطقة أناهايم في كاليفورنيا عام 1955 لتستقبل سنوياً نحو 18 مليون سائح...

الرحلة بالسيّارة بين وسط لوس أنجلس وديزني لاند تستغرق حوالى 40 دقيقة. سائقي هذه المرّة هندي. أمس كان صينيًّا، وقبله كانت أفريقية. أجناس البشر في أميركا متآلفة إلى حدٍّ لا بأس به. تنتشر

البيوت الجميلة على جانبي الطريق. معظمها من طابق واحد (لتخفيف انعكاسات الزلازل) يعلوها القرميد، وتصطفّ جنباً إلى جنب، كما يصطفّ الجنود صفوفاً صفوفاً. الطرقات بين البيوت أنيقةٌ وواسعة، والأشجار وارفة. السيّارات نظيفة وجديدة. بعض أصحاب البيوت يتنزهون مع كلابهم في الشارع الأنيق.

ما زلنا في لوس أنجلس، ولكن هذه المرّة في منطقة «أورانج كاونتي». غريبٌ أمرُ لوس أنجلس، كلما نظرتَ إليها من مكان، اختلف شكلُها ولونها وتقاسيم جمالها. إن نظرتَ إليها من علٍ، فستراها ممتدّة ببيوتها المتنوّعة على مساحات شاسعة. وإن قصدت وسطَها، فقد تقلقُكَ مظاهر الفقر والسكر، وإن اقتربتَ من أطرافها القريبة، فستسحرك أناقتها ونظافتها والأوكسيجين المنبعث من أرجائها وأشجارها وحدائقها.

أشتري بطاقة ديزني لاند، وأدخل إلى عالم الألعاب والأحلام. مئات الأشخاص ينتظرون في الصفوف الطويلة. الآلاف دخلوا قَبلي، منذ ساعات الصباح. هذه سيّدة تجرّ أولادها الأربعة. وهذا رجل متقدِّم في السن يركب عربةً طبّية. هنا مجموعةُ فتياتٍ يضعْنَ على رؤوسهنّ ما تضعه «ميني ماوس» حبيبة «ميكي ماوس» على رأسها. الكبار أكثر من الصغار في مدينة ألعاب الصغار. عرفَتْ أميركا كيف تبيع الحلم للجميع.

ليست ديزني لاند مدينةَ ألعاب عادية: تمتدُّ على مساحة 340 ألف متر مربّع، تلتقي فيها الغابات ذات الأشجار المتنوّعة، والأنهار الاصطناعية، والبواخر، ومجسّمات كبيرةٌ لخيم الهنود الحمر، مع كلّ شخصيّات عالم والت ديزني الساحر. يكاد الكبار قبل الصغار يصدّقون أنّ هذه الشخصيات (ميكي ماوس، سندريلا، بياض الثلج، الدبّ ويني، الأميرة النائمة، توينكلز، الخ...) حقيقية، لدقّة التقليد، وللقدرة الهائلة على مزج الطبيعة بالناس العاديّين، وبالشخصيّات المختَرَعة.

طوّرتْ ديزني لاند، عبر السنوات، تقنيّاتها العالية. دخلتُ إلى إحدى ألعاب الفضاء. جلستُ في مجسِّم لمركبَةٍ فضائية، بجوار عشرات السيّاح. أُطفِئت الأنوار. انطلَقتْ بنا العربةُ صوبَ الفضاء. كلّ التركيز الذهني ما عاد ينفع. يشعر السائح فعلاً بأنّه في الفضاء، وأنّه يشارك في حرب النجوم. يصرخ السيّاح حين تتساقط قطع الكواكب والنيازك عليهم، تكاد القلوبُ تتوقف أثناء الهبوط السريع للمركبة الفضائية من السماء بين الأبراج في اتّجاه الأرض... ثمّ يخرج من الشاشة مجسَّمٌ لشخصٍ من الفضاء يُحدّثنا كأنّه فعلاً من لحم ودم. بين هذا وذاك، الرجال الآليّون (Robots) يتحادثون في ما بينهم ليخلقوا عالَماً، قد يصبح فعلاً عالمنا في الغد.

أصعد مع السيّاح إلى مركبة أخرى، هذه المرّة في النهر. ندخل إلى ما يُسمّى «Small world». نعبر في النهر صوْبَ نفقٍ مظلم. سرعان ما يُضاء لنا العالَم. هنا مجسُّمات وتماثيلُ متحرّكة لفرقة راقصة من المكسيك. هنا جمالٌ من صحرائنا العربية، وأطفالٌ ملثّمون وبناتٌ محجّبات. هنالك فرق وأُناسٌ من الصين وأفريقيا وأميركا اللاتينية. ابتسم أنتَ في مدينة تُجسّد العالَم. نبتسم. لكنَّ صوتَ إنذارٍ ينطلق من هواتف الجميع. كلّ منّا يُخرج هاتفه من جيبه أو حقيبته. إنّها شرطة كاليفورنيا تنشر صورةً لطفلٍ اختفى. قُتلت أمّه، وهرب أبوه في سيّارة. يبدو أنّ الأبَ هو القاتل والخاطف. إنّها ليست القصّة الأولى ولا الأخيرة. غالباً ما يكون للخطف أسبابٌ عائلية، لكنّ بعضها يتعلق أيضاً بالخطف للتجارة، أو لبيع الأعضاء في المكسيك.

هذا يومي الأخير في كاليفورنيا. بدأتُ بالاندماج الفعلي في الحياة اليومية. ما عادتْ لوس أنجلس تقلقني. صرتُ أراها أكثرَ جمالاً ورحابةً. الناس لطفاء على الرغم من قَسوة البعض. الشوارع صارتْ أكثر اتّساعا، والبيوتُ أكثر جمالاً، والطبيعة الخلّابة أكثرَ بهاءً. لم أمشِ في عمري، على قدميّ، كما مشيْتُ هنا. ساعات طويلة قضيتها في متابعة حركة الناس، وتكريس كلّ حواسّي للطبيعة والمجتمع. لا شكّ في أنّي عرفتُ قليلاً، وما زلتُ بحاجةٍ لأن أعرف أكثر. لكنَّ أفضلَ ما عرفتُه هو أنّ كلّ الناس

يتحدّثون بكلّ شيء، بشؤونهم، بمشكلات حياتهم اليومية... لكنّهم أبداً لا يتحدّثون بالسياسة. وهُم حسناً يفعلون، ربّما لذلك هم أكثر حبًّا لدولتهم وأقلّ غرقاً بمشكلات العالم. هم يختلفون جذريًّا عن السياسة الخارجية لأميركا، فإن قلتَ لهم إنّك من لبنان، أو من الهند، أو من باريس، فلن يكون في الأمر أيّ اختلاف أو فرق عندهم، سيعبّرون عن دهشتهم، ويسألونك سؤالاً عابراً عن دولتك، ثمّ يسألون عمّا إن كنتَ هنا للسياحة أو العمل. وفي دقائق معدودة قد تعرف كلّ شيء عن حياتهم... الشعب صريح إلى حدّ العجَب، وبعيدٌ عن السياسة إلى حدّ التعجّب.

غداً في نيويورك...

نيويورك روح المدن المنيرة

وصلتُ إلى نيويورك فجراً. تصحو المدينة من نومها القصير. هي لا تنام عادةً إلّا في ما ندر. وهي لا تحزن عادة إلّا في ما ندر. لا تقلق عادةً إلّا حين يضربها الإرهاب، أو يهتزّ الاقتصاد أو تهزّها جريمة قتل... كانت بقايا رذاذ المطر لا تزال على الطرقات والمباني. بعضُها ينزلق على نوافذ السيّارات، أو فوق اللافتات الإعلانية الهائلة التي تُضيء ليلَ مدينة الأضواء. وبعضُها الآخر يرطّب وجوه الخارجين للتوّ من السهر، فتنعشها كي تصل ليلها بالنهار.

هذا ليس موسم المطر، الشتاء لا يمزح هنا. غالباً ما تتساقط الثلوج في الشتاء القاسي، وقد تحبس الناس في البيوت. هذه مجرّد زخّات صيفٍ تُعلِن اقترابَ الشتاء. نحن على مشارف وداع شهر أيلول/ سبتمبر لكنّ نيويورك لا تزال ترتدي ثوبَ الصيف. لا تزال مستلقيةً بثيابها المزركشة وأضوائها اللامعة في كلّ شارع وحيّ، وعلى كلّ مبنىً ومركزٍ تجاري وحانوت صغير، ولا يزال نهرُ هيدسون يعكس على زجاج ناطحات سحابها دفءَ الشمس.

القادم إلى مدينة الأحلام من إحدى الولايات الأميركية لا يخضع لأيّ تفتيش. فقد جرى تفتيشنا بدقة في مطار لوس أنجلس. مررنا بفحص سكانر لكلّ الجسد. أفرِغَتْ الحقائب. سُئِلنا عمّا إن كان في حقائبنا سجائر أو كحول أو أشياء أخرى، قَبل الصعود إلى الطائرة.

على الطريق، بين مطار نيويورك وقلب المدينة في تايمز سكوير، حيث الفندق، نشاهد بيوتاً ذات سطوح قرميدية رمادية. تخرج من سطح كل بيت مدخنة تذكّر بقسوة الشتاء. البيوت الجميلة القائمة بين أشجارٍ خضراء تتشابه قليلاً مع مداخل باريس، قرب المطار. هذه البيوت تذكّرني أيضاً ببيوت كاليفورنيا التي غادرتُها قبل فترة قصيرة. لكنْ، هنا سرعان ما تختفي البيوت الجميلة الهادئة لننزلقَ بالتاكسي إلى نفقٍ طويل، لا نكاد نخرج منه حتّى تتراءى لنا بناياتٌ عالية نبيذيُّة اللونِ، مرصوصةٌ بعضُها إلى جانبِ بعض. هي بنايات سكنية بدلات إيجارها باهظة جداً. ثمّ... فجأةً تجتاح ناظري ناطحات السحاب. الآن فقط عرفت من أين وُلدت فكرة أبراج دبي وكذلك الدوحة. الداخل إلى المدن الثلاث يشعر بالتشابه الكبير: من الماء إلى كتل الأسمنت العالية والزجاج اللامع والأشكال الهندسية المتنوّعة، لكن هنا في نيويورك المساحة أكثر اتساعاً ورحابةً، والأبراج أكثر عدداً وقِدَماً. المال يصنع العجائب... فهل يصنع السعادة؟

هذا كان سؤالي وأنا أتأمّل عجائب الناطحات وألوانها وأشكالها. هذا مثلاً برج «إمباير ستايت بيلدينغ» يرتفع إلى 380 متراً، يتألف من مئة طابق وطابقين، وفيه 73 مصعداً وأكثر من 6 آلاف نافذة. يتّسع وحده لأكثر من 24 ألف موظف. كان فور انتهاء تشييده، عام 1931 قد اعتُبِر كارثةً اقتصادية. إيجارات مكاتبه خيالية. بقي الجزء الأكبر من المكاتب خالياً. اضطرّ مموّلوه إلى اختراع حيلةٍ غريبة، بحيث يضيء الموظفون الأنوار ويطفئونها كي يوحوا للناس والعابرين بأنّ كلّ المكاتب باتت مشغولة. أمّا اليوم فإنّ البرج، وكلّ أبراج نيويورك، ما عادت تكفي. في المدينة أكثر من 800 برج من ناطحات السحاب، فضلاً عن البنايات العالية غير المُدرَجة في عِداد الناطحات. أعلى أبراجها هو «وورد ترايد سنتر» الذي يرتفع إلى أكثر من 541 متراً ويضمّ 104 طوابق. كان البرج الأعلى ارتفاعاً في النصف الغربي للكرة الأرضية، أمّا اليوم، فهناك أبراج في العالم أعلى منه وبينها «برج العرب» البالغ ارتفاعه 828 متراً. وقد أعيد تجديد برج التجارة العالمي، أو برج الحرّية، بأجمل ممّا كانت عليه حاله قبل 11 سبتمبر 2001.

أترجّل من التاكسي حيث لم أتبادل الكثير من الأحاديث مع السائق، لأنّه لا يتحدّث أيّ لغة من اللغات التي أعرفها، فهو من إحدى دول أوروبا الشرقية، ولغته تشبه الروسية قليلاً. كان يتمتم بضع كلمات بالإنكليزية لكي نتفاهم حول مقصدي، تماماً كالسائق الصيني في كاليفورنيا، الذي لم أفهم منه سوى أنّه

رافق ابنه إلى أميركا ليكمل تعليمه. على كلّ حال، لا حاجة للحديث مع السائق إلّا لحشرية المعرفة، فمع اختراع الخرائط الإلكترونية GPS وانتشارها مجّانا، عبر تطبيقات غوغل وغيرها، صارت مدينة كبيرة بحجم نيويورك، وذات شوارع بالغة التعقيد، كمن ينتقل في البيت من غرفة الجلوس إلى المطبخ. عذراً إذا قلتُ معقدة. هذا ما كنت أظنّه، قبل أن يشرح لي الدليل السياحي أنّ التنقّل في المدينة هو من أسهل الأمور، فمهندسوها اخترعوا طريقة عبقرية لشرايينها، بحيث إنّ الجادّات الواسعة تكون من الشمال إلى الجنوب، والطرقات من الشرق إلى الغرب، وتكون شارات الشوارع التي فيها مواقع أثرية باللون البنّي، أمّا شارات الشوارع العائدة إلى عهد الاستعمار، فباللون الأسود (ليتنا في دولنا العربية لونّا أيضاً شوارع الاستعمار بالأسود بدلاً من أن نمجّد المستعمرين، بمنحهم بعض أسماء شوارعنا وبيوتنا).

أترجّل من التاكسي صوب بهو الفندق الذي يتوسّط الشارع النيويوركي الشهير الذي لا ينام، والمتلألئ بالأضواء والإعلانات والأنشطة الفنّية والمسرحية. إنّه شارع تايمز سكوير الشهير في قلب مانهاتن. على بُعد أمتار منّي، أشاهد الآن شرطيًّا يحاول جاهداً إقناعَ ثلاث صبايا بأن يُراعينَ شيئاً من الحشمة، حيث إنهنّ عاريات سوى ممّا يستر الجزء السفلي، بينما صدورهن ملوَّنة فقط بألوان حمّالات الصدر. تبدأ مشاهد الحرّية القصوى منذُ ترجّلي من التاكسي. الله يسترنا من الباقي. ههه.

في شارع مانهاتن.

لا يمكن تسلّم غرفة الفندق إلّا عند الساعة الرابعة بعد الظهر، وتُسلَّم يوم المغادرة عند منتصف النهار. أبدأ بإجراءات بسيطة، ثمّ اقتراح من الموظف بأن أدفع إضافة قليلة لنقلي إلى جناح كبار الزوّار، ثمّ اقتراح آخر بأن أدفع قليلاً فأتسلّم الغرفة فوراً. ابتسمتُ. قلت إنّ نيويورك هي كما كلّ المدن السياحية والمالية والتجارية لا تعرف غير المال. كنتُ أعرفُ قبل وصولي إليها أنّ كلّ شيء ربّما يحتاج إلى شيء من النقاش. وهذا ما حصل فعلاً، فقد أخذتُ الغرفة الواسعة التي أريد، من دون أن أدفع أيّ مبلغ إضافي، لا بل مع ابتسامة وترحيب من مديرة الاستقبال. سرعان ما فهمتُ أنّ ظنّي بأنّ نيويورك لا تعرف غير المال لم يكن في محلّه، هذه من المدن النادرة في العالم التي لم تنعشها غير الثقافة والفنّ والمسرح، فأبدعَتْ وأفرحَتْ قاصديها والعابرين والمقيمين.

أرتاح لساعات قليلة وأنزل إلى الشارع. عشرات آلاف الناس، من كلّ الألوان والأجناس، يعبرونه ليلاً. بعضهم يفترش أرضه. بعضهم الآخر يحرّك كاميرته في كلّ اتجاه وصوب. كيفما أدرتَ آلةَ التصوير تلتقط صورةً تضجّ بالحياة. الإعلانات التجارية والمسرحية والفنّية والسينمائية والغنائية تتصدّر الواجهات وتتسلّق المباني. تحت المباني الثريّة تاريخاً ومالاً، والجميلة حداثةً، قد تجد بائع مشويّات «حلال»، قيل لي إنّ معظمهم عربٌ حصلوا على ترخيص ببيع المشاوي والمرطبات، على عربات صغيرة كتلك التي يمكن أن نشاهدها في القاهرة، أو في أيّ دولة أخرى. في الشارع أيضاً مئات مستخدمي الباصات والحافلات السياحية يقترحون على الناس شراء بطاقات للتنقل وزيارة المعالم السياحية التاريخية والحديثة. في الشارع كذلك رجال شرطة واقفون أو يسيرون ذهاباً وإياباً، أو يضعون الإصبع على الزناد، خلْفَ بلوكات اسمنتية حيث وقعت عملية إرهابية، قبل فترة قصيرة. لكنّ الشرطي لطيف رغم كلّ شيء، يبادل الناس أحاديثهم، يرشدهم إذا ضلّوا الطريق. لم ترفض إحدى الشرطيّات أن ألتقط إلى جانبها صورةً تؤرّخ لمروري في المدينة المتلألئة.

الثقافة تُنقذ المدينة والمال ينعشها

يقترب منّي أحد مستخدمي باصات النقل مبتسماً. أفريقيُّ البشرة، متوسّط القامة، يتصبّب جبينه عرَقاً. يقترح بطاقةَ نقلٍ تسمح لي أيضاً بزيارة أبرز المعالم السياحية، وجولتَيْن نهارية وليلية، لأكتشف كلّ أسرار نيويورك. اعتدتُ في رحلاتي الحذرَ من بائعي الطرقات. اعتدتُ في دولنا، وفي دولٍ كثيرة غيرها، أنّ هؤلاء غالباً ما يتشاطرون على الزبون لإيقاعه في الفخ، وحين يدفع يختفون. ثمّة ثقةٌ أجهل سببَها دفعتني لأن أقبَلَ عرْضَه. طرحتُ عليه بعض الأسئلة السريعة عن تفاصيل ما يقترح. كان يضع على سترته شارةَ الباصات، ويحمل في يده آلة تسجيل البطاقات. هو إذاً مستخدمٌ موثوقٌ فعلاً. لا يمكن أن يكون ممثلاً محترفاً بهذه الدقة. لا يمكن أن يكون مشابهاً لمحترفي المسارح المجاورة. اشتريتُ بطاقةً ليومين، شكرتُه، فبادلني الشكر مكرَّراً، لأنّي كنت آخر زبائن نهاره الطويل والمتعب، ولا ريب.

كان الليلُ النيويوركيّ ينزل ببهائه على المدينة. والمدينةُ تستقبل ليلَها بأنْ تمنعَه من أن يبقى ليلاً. هي تضيء كلّ شيء في حناياه. فلا تعرف أهو الليل الذي حلّ، أم الأضواء انتصرت على سواده، بأن منحته كلّ الألوان والأضواء.

كنت متعَباً قليلاً من رحلة الساعات الستّ. لكنَّ ليلَ نيويورك مُغرٍ. وقفتُ خلْفَ صفّ الناس، بانتظار انطلاق الحافلة. حملتُ كوباً من القهوة الأميركية، ووضعتُ بعضَ الأوراق وقلماً في جيبي، كي أسجّل ملاحظاتي، وانطلقتُ معهم صوب أماكنَ قرأتُ عنها الكثير، ولكنّي أشاهدها الآن عن قرب، للمرّة الأولى. وزّعوا علينا سمّاعات تخاطِبُ كلّ سائح بلغته. فيها أربع لغات: الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية. صعد الدليل السياحي إلى سطح الحافلة حيث توزّعنا على المقاعد. رحَّبَ بنا، بلكنته الأميركية، وقال إنّ الرحلة الليلية هي من أمتع ما يمكن مشاهدتُه في نيويورك. كلّ شيء إذاً يبشّر بأنّ أيّامي هنا ستكون حافلةً بمفاجآت كثيرة، وربما بسعادة وفيرة.

ما إن انطلقنا صوب شرايين نيويورك، حتى راح دليلنا السياحي الخمسيني العمر، وصاحب النكتة الحاضرة، يشرح لنا أنّه حين كان مراهقاً في مقتبل العمر، ما كان بإستطاعته، هو ورفاقه، التنزّه بحرّية وطمأنينة، في هذا الشارع. قال إنّ عصابات الإجرام كانت مقلقة هنا. لم يتغيّر شيءٌ من أحوال المدينة وأهلِها، إلّا حين جاءت شركة «ديزني» العملاقة، وأقامتْ مسارح ومراكز ثقافية هنا، فتحسّنت الأحوال، واجتذبَ الشارع مستثمرين، وصار الناس يقصدون المكان للتمتّع بالإنتاج الثقافي الوفير.

نقطع مسافةَ أمتارٍ قليلة، فيطلب منا الدليل السياحي المستدير الوجه والمنتفخ البطن قليلاً، أن ننظر إلى اليمين: نحن في منطقة برودواي الشهيرة. يشرح لنا أنّ في المكان ما لا يقلّ عن أربعين مسرحاً. أرى أمام المسارح طوابير طويلة من الناس. يراوح سعر بطاقة المسرح ما بين 50 و300 دولار أو أكثر. بعض العروض نفدَتْ بطاقاتها منذ أشهر، وصار بعض التجّار يبيعون البطاقة في الشوارع بأسعار خيالية. ثمّة عروض مستمرّة منذ سنوات، ولا تزال تجتذب آلاف الزوار. فرحتُ للأمر. أدركُ أنّ أيّامي في نيويورك ستكون حافلة بالثقافة والفنّ والمسرح والموسيقى. هذه مدينة عرفت كيف تعطي الثقافة أولويّة اهتماماتها، فكسِبَتْ مالاً وفيراً عبْر الثقافة، ولم تشترِ الثقافة بالمال، كما هي الحال للأسف في بعض دولنا.

تتوقف حافلتنا عند تقاطع طرقٍ وأبراج. تتجمّع حولنا عشرات سيّارات التاكسي الصفراء اللون، التي طالما شاهدتُها في الأفلام الأميركية التي صوِّر الكثير منها هنا في نيويورك. تشبه سيّارات التاكسي طوابير النمل. وكما تحمل النملة حبّة القمح على ظهرها، هنا تحمل السيّارات إعلاناتٍ كثيرةً للمسارح والعروض الفنّية والسينمائية، أو إعلاناتٍ قليلةً للشركات التجارية العملاقة.

نمرّ في شارع «سوهو» الشهير. يقول دليلنا السياحي إنّ الشارع القديم كان سيُهدَم ويُجرَف في عام 1960 كي تُقامَ مكانه بناياتٌ جديدةٌ وناطحاتُ سحاب، لكنّ الفنّانين أنقذوه. اشتروا البيوت القديمة ذات السقوف العالية، فحوَّلوا الشارع إلى أحد أبرز المقاصد السياحية والثقافية والفنّية. وهنا في الشارع غير البعيد، تقع استوديوهات «أندريكس» تيَمُّناً بعازف الروك والبلوز الأميركي الأفريقي الشهير جيمي هندريكس.

في نيويورك 420 مسرحاً. كلّ مقاعدها مشغولة طوال أيّام العام. خشبات مسارحها تنبض بكلّ ما عرفَتْه البشرية من إبداع فنّي عريق. حاولت الحصول على بطاقة لعرض «هاملتون» المستمرّ منذ فترة طويلة. وصل ثمن البطاقة إلى ألفَي دولار. الناسُ هنا والسيّاح يقصدون المسارح والمراكز الفنّية والثقافية كأنّها الجزء الأكثرُ حيويَّة في عاصمة الأضواء والأبراج. هذه أعلى نسبة، من حيث عدد المسارح، في العالم الغربي. ففي باريس مثلاً، المعروفة بعراقتها الثقافية، عدد المسرح 353 مسرحاً فقط.

اخترع الناس هنا وسيلةً للحصول على البطاقات بنصف ثمنها. عليك فقط أن تذهب إلى شبّاك التذاكر قبل العرض بربع ساعة فتحصل على هذا الثمن. هكذا فعلت، لا لأنّي أردت توفير نصف ثمن بطاقة عرض أحبّه بعنوان «شيكاغو»، بل لأنّي عدتُ من الجولة السياحية متأخّرا. كلّ مسرحية تُعرض في مسرح. والمسارح تتجاور تقريباً، في مانهاتن حول تايمز سكوير. الطابور طويل. فتيات من آسيا يلتقطن آخر الصور أمامي، قبل الدخول إلى المسرح، حيث التصوير ممنوع. يمرُّ بمحاذاة الطابور، رجلٌ أفريقيُّ الأصل، طاعنٌ في السن، فاقدٌ كلّ أسنانه، نحيل الجسد، يصيح بأعلى صوته: «قنّينة الماء بدولار واحد... قنّينة الماء المثلجة بدولار واحد». الرجلُ يثير الشفقة، لكنّه باعَ أمامي ما لا يقلّ عن عشرين قنّينة، ربّما يحصّل في يوم واحد أكثر ممّا يحصّل أيّ موظف في المدينة. تضجّ نيويورك بالحياة ولكن أيضاً بمصادر الثروة. لكنّ هذا لا يمنع وجود فقراء فيها يفترشون الأرصفة، أو شبّان وصبايا جعلت المخدّرات أجسادَهم نحيلةً منحنية ومهدَّدةً بالانهيار في أيّ لحظة.

في مقابل طابورنا المسرحي، ثلاثة رجال شرطة يعتلون ثلاثة أحصنة. يقفون عند تقاطع تايمز سكوير. يقف الناس أمامهم أو بينهم يلتقطون الصور، أمّا هُم فيبتسمون للجميع، ويصافحون من يودّ مصافحتهم. تريد شرطة نيويورك التقاربَ قدر الإمكان مع ناس المدينة، كي لا يبدو وجود رجالها علامةً نافرة في مشهد جميل.

أدخلُ إلى أحد مسارح برودواي. في المسرح طابقان. كان نصيبي في الطابق العلوي المشرِف على المسرح. على يميني شابٌّ وصبيَّةٌ من الصين، وعلى يساري فتاتان أميركيّتان بدينتان، تأكلان وتشربان. لا بدّ من أنّهما من خارج نيويورك، لأنّ الناس هنا أكثر نحافةً ممّا رأيته في كاليفورنيا ولوس أنجلس.

تُطفأ الأنوار. تُفتح الستارة. تُطِلُّ شابّةٌ شقراء، جميلة الجسد والوجه، باسمة للجميع. تقف بمايوه البحر وسط المسرح، وعلى رأسها قبّعة. تقول إنّ في هذا العرض، «شيكاغو»، قصصَ حبٍّ وخيانة وزواج ودعارة. يضحك الجميع. تُطِلّ شابّة سوداء البشرة بعدها، يصدح صوتها الجميل الصاخب العميق الدافئ متراقصاً على نغمات الفرقة الموسيقية الموزعة على درج خشبة المسرح، بقيادة سيّدة تسهم هي الأخرى في التمثيل، فيبدو عرض شيكاغو من بدايته متقَنَ الصياغة.

الراقصون متعدّدو الألوان، مختلفو الثياب، يجتمعون على الإبداع. هي قصص نساءٍ يقتُلنَ أزواجهنَّ، وكلّ واحدة منهنّ تقتل زوجَها لسببٍ مختلف. وهي قصّة محام لامع ينجح في تحويل الجانيات إلى ضحايا، ويُخرِجُهنَّ من السجن. معظم المغنّيات هنَّ من أصول أفَريقية. لا شكّ في أنّ مسارح برودواي الشهيرة قدّمت للعالم أجمل أصوات الجاز والبلوز والروك وغيرها، وأكثرها عراقةً، من خلال مبدعين سود البشرة، جاء أجدادهم للاستقرار في أميركا، قبل أكثر من مئتَيْ عام. بين المغنّيات السوداوات الجميلات الإطلالةِ والصوت، سيِّدة بيضاء. تؤدّي أحدَ الأدوار الرئيسة في عرض «شيكاغو». تغنّي بصوتها الأوبرالي الصدّاح، فتسحر الجميع. تتلاعب بصوتها، كما لو أنّه لعبةٌ بيدها. ترفعه إلى أعلى ما تريد، وتخفضه إلى أدنى ما تشاء. في الحالتين تسحرنا بصوتها، وتمايلِ جسدِها مع الصوت. لكن في آخر المسرحية، نكتشف أنّها... رجل. نصفّق طويلاً للفرقة التي تجتذب كلّ ليلةٍ مئاتِ المشاهدين. وهي مُحِقةٌ في اجتذابهم، فهنا لا مجال للمصادفة، كلّ شيء متقن: النصّ والتمثيل والشخصيات والأصوات والأغاني والموسيقى... فكيف لا يصبح برودواي علامة فارقة في المسرح العالمي؟ وكيف لا تستند نيويورك إلى كلّ هذه العراقة الثقافية، لتزيد حجم السيّاح ونسبة الأرباح؟

إلّيس (Ellis) جزيرة الحلم والعذاب

لن يفهم الزائرُ سرَّ أميركا إن لم يذهب إلى جزيرة «إلّيس». إلى هنا كانت الهجرات الأولى. وإلى هنا وصل الكثير من المهاجرين الذين أسهموا في بناء أميركا، وبينهم عرب من بلادنا. أستقِلّ الباص

الصباحي صوب نهر هادسون الجميل. كانت الشمس قد بدَّدتْ كلَ أسرار الليل النيويوركي. عمّال التنظيفات يجمعون آخر بقايا السهرات العامرة. كثيرٌ من الناس لا يزالون في الشوارع يختمون سهراتهم، وكثيرٌ منهم نزلوا الآن متوجّهين إلى أعمالهم، أو هم مثلي، يكملون جولتهم السياحية والمعرفية. نمرُّ في الشوارع والجادّات الطويلة. نجتازِ نيويورك من شارعٍ إلى شارع، بين ناطحات السحاب. يبدو لنا «برج التجارة العالمي» أكثرَ نصاعةً ممّا كان. ندخلُ إلى الباخرة في صفوف طويلة. التفتيش هنا دقيق. وكيف لا يكون دقيقاً، ونحن سنمرُّ إلى «تمثالِ الحرّية»، رمز أميركا؟ ثمّة قلقٌ واضح من عمليات إرهابية قد تقعُ هنا أيضاً... أبتسم. هل يُعقل فعلاً أن يكون هناك مجانين فكّروا يوماً بالقضاء على أميركا؟ هل ضرْبُ برجٍ هنا، أو عملية إجرامية هناك، سيلغي بلداً مشِعًّا ومتنوًّعا، ويشكّل حلمَ الملايين من الناس، قد يكونً مِن بينهم، لا بل بالتأكيد من بينهم، أبناءُ مَن يُعادون أميركا؟

أرشيف جزيرة أليس في نيويورك.

نعبر نهر هادسون. المياه صافية. الشمس ترفع حرارةَ المكان. نفترشُ سطح الباخرة. نبتعدُ شيئاً فشيئاً عن ناطحات السحاب التي تصغر أمام عيونِنا كلما ابتعدنا عنها، بينما تكبر الجزيرة التي أمامنا، فتبدو كبَيتٍ قرميدي كبير وهادئ يتوسّط حديقة من الأشجار الوارفة. أيُعقَل أنّ هذا المكان الجميل كان معبراً لملايين المهاجرين، على مدى أكثر من نصف قرن، نحوَ حلمهم الأميركي، بين عامي 1892 و1954؟ نعم، 12 مليون مهاجر عبَروا من هنا. ناموا هنا. ربّما تعذّبوا، ربّما لم يذوقوا طعمَ النوم، ربّما دغدغتهم أحلام الثروة، فنسوا رحلات العذاب الطويلة، بالبواخر، من بلاد نائية. كلّ شيء الآن يذكّر بالتاريخ. صوَرُ المهاجرين الأوائل، من أميركا نفسها، أو من أوروبا وآسيا وأفريقيا والشرق الأوسط. بين الصور وجدتُ أسماءً لسوريّين وفلسطينيّين. لم يكن لبنان موجوداً على خريطة الأسماء، كان المهاجرون الأوائل يأتون بوصْفِهم سوريّين أو عثمانيّين. تذكّرت بعض أجدادي الذين هاجروا إلى أميركا الشمالية أو إلى أميركا اللاتينية. حاولت أن أتخيّل رحلتهم. مرَّت صوَرُهم يجمعون المال، لسنوات طويلة، بُغية دفع ثمن الرحلة. تخيَّلت وجوهَهم التي لا أعرفها، تذرف الدموع، وهي تودّع الأهلَ في قريتنا الجبلية. آنذاك، كانت العلاقات العائلية ومحبّة الناس أعمق بكثير ممّا هي عليه الآن. لا شكّ في أنّهم بكَوْا، وأنّ أهل القرية بادلوهم دموع المحبّة. كان حظّهم جيِّدا لأنّهم لم يعودوا بعد رحلة الأسابيع، أو ربّما الأشهر الطويلة عبْرَ البحار. تخيَّلت بعضَهم لم يعْتد السفر، ربّما أصابه الدوار في الباخرة، ربّما أعياه المرض، أو قلّة الطعام، أو الغربة والبعد عن الأحبّة.

على جزيرة «إلّيس» المواجهة لتمثال الحرّية ولناطحات سحاب نيويورك، بقايا ملابس وأوانٍ مطبخية وبيانو وبعض الكراسي القديمة وأسرّة كان سعداء الحظ ينامون عليها. تحوّلت الجزيرة إلى متحف يزوره ملايين السيّاح سنوياً، يحاول بعضهم البحثَ عن أجداده أو أهله. الجزيرة التي تحوّلتْ خلال الحرب العالمية، إلى معتقل لأسرى الحرب، لا تزال شاهدةً على أناس مرّوا عبرها، فأثْروا، أو اشتهروا، وأناس أُعيدوا إلى بلادهم، أو ماتوا... من الفنّانين المشاهير الذين مرّوا بالجزيرة، تشارلي شابلن، ومارلون براندو، ومارلين ديتريش. ومن الساسة المشاهير، غولدا مئير رئيسة الوزراء الإسرائيلية السابقة التي كانت في الثامنة من عمرها حين وصلت مع أهلها إلى الجزيرة النيويوركية، قادمةً من روسيا. كان اسمها آنذاك غوالد مابوفيتش... لم ينفع كلّ عذاب تهجيرها وبحثها عن وطن، في أن ترحم لاحقاً مَن كان عندهم وطن، وجاءت تسرقه منهم. هذا يؤكّد مقولةً نفسانية شهيرة، بأنّ من يتعرّض للظلم، قد يصبح أشدّ ظلماً، إنْ لم يستخلِص العِبَر مِن تجربته.

لم يكن كلّ المهاجرين يُستقبَلون بالحسنى، على الجزيرة. كانوا يخضعون أوَّلا للتدقيق بالأسماء، وللفحص الصحّي والجسدي. تُفتح أبواب أميركا لجزء منهم، لا بأس به، ويُعاد منهم المرضى غير القادرين على العمل، ويعاد منهم أيضاً ذوو الميول الشيوعية. يُحكى عن عنصريةٍ كانت تُمارَس على الجزيرة ضدّ العربِ واليهود والإيطاليين والأفارقة. ويُحكى أيضاً عن عمليات فساد ودفع رشىً. يُحكى عن صدمة البعض عند وصولهم إلى الجزيرة. يقول أحد المهاجرين الذين كتبوا مذكراتهم: «قيل لنا إنّنا سنجد الذهب في أميركا مرمِيًّا على الطرقات، فوجدنا طرقاتٍ بلا إسفلت، وعملنا في الزفت».

على الرغم من ذلك، استقبلتْ أميركا ما لم تستقبلْه أيُّ دولةٍ أخرى في العالم: نحو 30 مليون مهاجر، بينهم 12 مليوناً مرّوا من هذه الجزيرة، وبينهم من حقّق أحلامَه فعلاً، وصار من الأثرياء، أو من المشاهير.

اليوم أصبحت الجزيرة متحفاً، يزورها ملايين السيّاح سنوياً. المكان جميل، والتاريخ آسرٌ، والبحث عن جدٍّ أو عمٍّ أو قريبٍ يستحق عناءَ التوقف ساعاتٍ في ذلك المكان الذي لا يزال فيه التاريخ ماثلاً بقوّة وقسوة على الأرجح.

المسرح إبداعٌ وثقافة ومال

أعود مساءً من جزيرة الأحلام والدموع. أقرأ الكثير عنها لأعرف أكثر. يمرُّ الباص من أمام أحياءٍ أقامها أبناء المهاجرين في مناطق جميلة من نيويورك. بعضهم حوَّلها إلى أماكن راقية، وآخرون جعلوها مسرحاً للتجارة غير المشروعة. هنا شارع اسمه «إيطاليا الصغيرة»، تنتشر على جانبيه المطاعم الإيطالية الراقية. بعض عازفي الأكورديون أو الغيتار يقفون أمام السيّاح الجالسين خارج المطاعم، حول الطاولات وتحت أشعّة الشمس. العشاق يتضاحكون. هذا رجل عجوز يُطعم زوجته ملعقة من حلوى تيراميسو ثمّ يمسح شفتيها بمنديل. هذا شابّ يحمل حقيبة ظهر ويمسك بيد حبيبته يجتازان الشارع وسط الأصوات الإيطالية العالية. ثمّة فرح يملأ المكان. يخال المرء نفسه في أحد أحياء روما.

أعرّج على شارع مجاور اسمه «المدينة الصينية». رائحةُ التوابل تجتاح السائح فور وصوله. الفواكه والخضار منتشرة أمام المحالّ الكثيرة. تجاورها محالّ لِتدليك القدمين أو الجسد. بينهما محالّ كثيرة لبيع الأقمشة والثياب بأسعار رخيصة. كلّ دقيقة يقترب منّي شاب أو صبيّة يقترحان عليَّ شيئاً لا أفهمه. يتكلّمان الإنكليزية، بلكنةٍ صينية فاقعة. أفهم من بعض الكلام والإشارات أنّ كل الذين «يداهمونني» في الحيّ الصيني يريدون بيعي ساعات من ماركات عالميات مشهورة لكنّها مقلدة، أو يريدون بيع حقائب يد نسائية مقلدة أيضاً. أحاول أن أعرف أكثر، تقترب منّي صبيَّةٌ نحيلة الجسد، عصبية المزاج، تفتح أمامي صورةً لكلّ ساعات العالم الغالية الثمن. تقترح أن تبيعني واحدة بمئة دولار. أجادلها وأساومها قليلاً فينزل السعر فوراً إلى ثمانين دولاراً. أوافق، فقط لأعرف أكثر، تطلب منّي الانتظار. تتحدّث عبر الهاتف. دقائق قليلة، وتصِلُ فتاةٌ أخرى حاملةً ساعتين بكيس بلاستيكي. حقاً، إنّ الساعتين نسخة طبق الأصل بالتمام والكَمال عن الساعة الأصلية. أشكرها، وأعتذر منها، وأكمل الطريق. كلّ دقيقةٍ يتكرّر المشهد. كأنّما كلّ الذين في الشارع الصيني يعملون علانيةً في تجارة عادية، وسرًّا في تجارة غير مشروعة.

أيُعقَلُ أن تكون الشرطة الأميركية على غير علم منها بكلّ هذه التجارة الجارية في وضح النهار؟ أم تُراها تترك التجّار يمارسون ذلك كلّه، لأسباب لاَ يعرفها إلّا الشرطة وحدها، وربّما لأنّها ستفيد منها لاحقاً؟ لم أهتمّ كثيراً بالبحث عن الجواب، ففي نيويورك لا يزال هناك أشياء أكثر جمالاً عليّ أن أشاهدها.

يبدأ الليل بالاقتراب من نيويورك. تضيء اللوحات الإعلانية كلّ الشوارع. تتلألأُ مانهاتن. يتبرّج شارع تايمز سكوير بكلّ الألوان. تغزوه الأجساد المتعدّدة الألوان والأشكال والأحجام. يلفتني تجمُّع كبير من السيّاح، حول ساحة قريبة من أحد مسارح برودواي. أقتربُ، فإذا بشرطيٍّ يجادل فتاةً جميلة عارية الصدر. لا أدري أهو يحاول ثنيَها، مع رفيقاتها، عن هذا العمل، أم لا. لكنّي بقيت أراها، كلّ ليلة، في ذلك المكان، تفعل ما تشاء. يبدو أنّ الشرطة هنا لا تريد إثارةَ أيّ ردّ فعل سلبي من الناس. شاهدتُ بأمّ العين رجلاً أسمر المحيّا، لعلّه أفريقي خلاسي، أو عربيٌّ شديد السمرة. كان يوجّه كلاماً قاسياً، علانيةً، وعلى الملأ، لرجلَيْ شرطة، وهما يتضاحكان. قيل لي لعلّه ثملٌ، ولعلّ الشرطة، في هذه الحالة، تتجنّب الصدام. لكنْ، كانت كلّ الكاميرات تصوّره، وفي الغد سيتلقّى دعوةً إلى مقرّ الشرطة للتحقيق. قيل لي أيضاً إنّ الشرطة اعتادت ذلك، وإنّ حرّية الكلام مسموحة، لكنّ الممنوع هو إلحاق الأذى بالآخرين، أو القيام بأيّ عمليات إجرامية أو إرهابية. تخيَّلت حالَ هذا الرجل الذي يكاد يشتم الشرطيّ، لو كان في دولة عربية، لكان، في أفضل الأحوال، سُجِنَ، وفي أسوئها اختفى.

الليلة سأشاهد عرض «علاء الدين». منذ ريعان طفولتي أقرأ قصّته أو أشاهد أفلامه. نجحت إمبراطورية ديزني في تحويله إلى أحد أشهر أفلامها. هنا حوَّلتْه إلى عرض غنائيٍّ راقصٍ من أجمل وأمتع ما تراه العين. وصَفتْه صحيفة «واشنطن بوست» بأنّه «عَرضٌ ساحر يخطف الألبابَ».

مسرح «أمستردام» في برودواي يرتفع إلى ثلاثة طوابق. اشتريتُ بطاقةً ودَلفْتُ إليه. المكان مليءٌ تماماً. قدَّرت أنّ فيه نحو ثلاثة آلاف مشاهد. حاولتُ أن أحسب الأرباح. يربح في الليلة الواحدة نصف

مليون دولار، تقريباً. إذاً، للمسرح فضلَ على المدينة، تماماً كما للمال فضل على المسرح. ضخامة الإنتاج تجعل العرض ساحراً. والعرض الساحر يرفع مستوى الأرباح.

تُفتحُ الستارة، فيطِلّ رجلٌ أسود ضخم الجثة، أوبرالي الصوت، خفيف الظلّ، سريعُ الحركات، جميلٌ بزيّه الأزرق اللمّاع. حاجباه طويلان. ضحكته تملأ المكان. إنّه الجنّيّ الذي سيخرج من مصباح علاء الدين، ليحقّق رغباته، فيتزوّج الأميرة.

الأزياء رائعة. الديكور يتحرّك، فيتحوّل تارة إلى مدينة، وطوراً إلى سوق يضجّ بالباعة والناس، وتارةً أخرى إلى غرفة الأميرة، وطوراً آخر إلى غرفة علاء الدين على السطوح، ويتحوّل أيضاً إلى ديوان اجتماعات الملك. الأغاني والموسيقى والأداء من روائع السمع والنظر. شخصيّات المسرحية مبدعة متجانسة ومتآلفة، لا تعرف من هو الأهم بينهم، على الرغم من تفوّق «الجنّي». يعلو التصفيق كلّ عشر دقائق. وبعد كلّ مقطع في هذا العرض، يهبُّ الناسُ عن مقاعدهم، فيصفّقون لكلّ هذا الإبداع.

رأيتُ أشياء كثيرة رائعة في نيويورك. سحرَتني أحياؤها وأبراجها وناسها وأضواؤها ولوحاتها الإعلانية. تمتعتُ بجمال الطبيعة من حولها، الممتدّة على مسافات شاسعة من الأشجار والغابات. تمتّعت بنهر هادسن. لكنّ أكثر ما سيبقى راسخاً في ذهني في نيويورك، هو أنّ الثقافة هنا أسهمتْ حقاً في صنع مجد المدينة، وأنّ الإبداع الفنّي يبقى سيّد المكان، في إحدى أكثر مدن العالم اجتذاباً للسيّاح. وأكثر ما تعلّمته، هو أنّ الدول لا تقوم من دون وعيٍ، ولا تستمرّ بلا ثقافة.

بين قريتي وباريس...
قصة حياة

يتسلّل أولُ شعاعٍ للشمس في قريتي الجبلية الجميلة، من قمّة الجبل المشْرِف على البيت الحجريّ العتيق، بيت أجدادي وأهلي. يضيءُ الشعاعُ شيئاً فشيئاً شجرَ السنديان، فيوقظ العصافير، ويكحّل وجهَ الصباح بنورِ الله، وهناءة الصوفي. ثمّ يصل إلى شرفة منزلنا، ينساب من بين الستائر، يدغدغ عيوننا، حتى نستيقظَ على أريج الحَبَقِ والقرنفل والجوري ورائحة القهوة...

أولُ مستقبلِي الشمس مقامُ «النبيّ أيّوب» الجالسُ بهناءة الإيمان، على أحد أعلى جبال قريتنا نيحا الشوف، يحميها. تحت مقام ذاك النبيّ الذي صبَر حتّى أكل الدود لحمَه، وفْقَ رواية العارفين، تنتشر أشجارُ الصنوبر النبيلة. كنّا، صغاراً، نقصدها عند الفجر، لجمع الأوراق الإبرية الشائكة، المنثورة كسجّادة تحت الشجر، نستخدمها لإشعال النار تحت الصاج. نوقدها فتحمرّ وجوهنا المنتفخة، بفعل الوهج، ونتمتّع برغيف الخبز المعجون من القمح الصافي وكرم الأرض وعرق الناس. وبعد الرغيف نصنع مناقيش الزعتر والحرّ والكشك والبطاطا والقاورما فيتحوّل طقس الخبز إلى احتفال.

ما إن يتسلّل شعاعُ الشمس، حتى تسمع عن الشرفات ومن البيوت الحجرية القرميدية الهانئة عباراتِ الترحيب والضيافة: «تفضّلوا، تعالوا اشربوا قهوة، تفضّلوا إلى الصبحية، ميّلوا صوبنا». لا حاجة لهواتف ولا لموعد. البيوت مفتوحة والقلوب مفتوحة، وما إن يصِل الضيفُ حتى تنتشر أمامه كلّ صنوف الضيافة من فاكهةٍ ومكسّرات وحلويات وقهوة وشاي ومشروب المتّة (الذي جاء به أجدادنا من أميركا الجنوبية، وهو يشبه الشاي الأخضر، وله فوائد كثيرة، ويقال له «شاي القدّيسين»).

يتبادل أهل قريتنا طقوس التضامن والتكافل في الأفراح والأتراح. لا يعوقهم عن المشاركة شيء، لا العمل ولا بعد المسافة ولا المرض. هذه طقوس ورثناها عن أجدادنا، ونفاخر بها، وهي كشعاع الشمس تدفئ القلوب، وتُشعِر كلَّ واحد منّا، في لحظات الفرح كما في لحظات الحزن، بأنّه ليس وحده.

كثيرٌ من أجدادنا وأهل قريتنا سافروا، في مطلع القرن الماضي؛ فمنهم من ذهب إلى البرازيل وكوبا (كأجدادي)، ومنهم من يمَّم وجهَه شطْرَ أفريقيا، وآخرون جعلوا وجهتَهم أميركا. وفي العصر الحديث سافر جُلُّهم إلى الخليج، وكان لإحدى عائلات قريتنا (آل غيث) فضلٌ في ذلك، ومن هذه العائلة اختير شيخٌ شجاعٌ، هو الشيخ بهجت، لمنصب شيخ العقل، لكنّه تنافر مع الزعيم الجبلي، وليد جنبلاط، فحاصره حتى انْفضَّ الناس من حوله، إلّا الشجعان منهم والمخلِصين).

لم يعُدْ إلى قريتنا قسمٌ كبير من الجيل القديم الذي هاجر إلى ما وراء البحار. لكنَّ أولادهم أسهموا في بناء منازل جميلة من الحجر والقرميد، شيّدوها بين الأشجار، ثمّ تمدَّدتْ في اتّجاه الجبال، تأكل من خضرة أشجارها، لكنّها لا تشوّه المكان، وذلك لأنّ معظم المنازل أنيقة ونظيفة تماماً كشوارع القرية وزواريبها وأزقتها.

كانت عمّتي تمتلك مع زوجها بيتاً متواضعاً، ولم يُنجبا أطفالاً، لكنّ أريجَ القرنفل والحبق والمردكوش كان يفوح بين أرجاء البيت، ويرتفع وصولاً إلى عريشة الدار. لا فرقَ بين بيوت غنيّة وأخرى فقيرة، فالوردُ زينة البيوت والقرية. كانت أمّي في منزلنا الحجري الجميل، تغازل كلّ صباح وردَ الدار، وترويها، فتبادلها الورود حبًّا بحبّ، فتتنوّع ألوانها وأحجامها، جامعةً ألوانَ قوس قزح.

ما إن تلملم الشمس بقايا أشعّتها من شوارع القرية وأزقّتها، حتى يعود الفلّاحون والمزارعون والصيّادون من الحقول، وعلى ظهور دوابّهم شيءٌ من غلال مزروعاتهم التي غالباً ما كانوا

يوزّعونها على الجيران وأهل القرية، ذلك لأنّ الكرَم هو من صفات أهل قريتنا، تميّزوا به، وما زال عنوان فخرهم. ما عاد في القرية اليوم كثير من المزارعين، اختار الناس أن يهجروا الأرض الكريمة الطيّبة، ليلتحقوا بوظائف عابرة ووهمية يخالون أنّها تضمن حياة أولادهم، وبقيَّة حياتهم، بعدما فقدت الزراعة (بسبب سوء ساسة لبنان ونهبهم وظلمهم وغبائهم) الكثير من قيمتها.

في قريتنا طبيب إنساني بامتياز هو الدكتور كمال مزهر. كان في شبابه يسارياً، آمَنَ بخدمة الناس وتعميم الطبابة ومجّانية التعليم. درس في أوروبا الشرقية، وصار كشجرة السنديان، راسخاً في قريتنا، معْلَماً من معالم الإنسانية الرائدة. لا يردُّ طلبَ مريض ولا محتاج. يصحو في منتصف الليل، أو عند الفجر، ويبقى متأهِّبا للاستجابة لأيّ طلبٍ وفي أيّ وقت. لا يخذل سائلاً، ولا ينهر يتيماً. والأهمّ من ذلك كلّه، أنّه منذ أكثر من أربعين عاماً، لا يتقاضى أيَّ أجرٍ من أبناء قريته. كان ولا يزال مقتنِعاً بأنَّ مهنة الطبّ هي مهنةٌ إنسانية قبل كلّ شيء آخر، فهي ليستْ تجارةً ولا احتيالاً ولا نصْباً، كما يفعل بعض الأطبّاء الـ«بلا ضمير»، في شرقنا، فلا يكترثون لحياة الناس، ولا يهمّهم إلّا المال. لا يزال الدكتور كمال يُقيم في منزل متواضع، وهو الذي كان قادراً على جمْع ثروةٍ كبيرة، لو أنّه سلكَ طريق انعدام الضمير... لكنّه ابن الأرض، وليس ذليل الكرام، خلافاً للواقفين ذلّاً على أبواب الساسة والزعماء. اكتفى بما يربحه في عيادته التي أقامها في قرية تجاور قريتنا، يذهب إليها مرّات قليلة في الأسبوع فقط، مكرِّسا جلّ وقته لأهل قريته.

يتنافس أهل القرية حين تحصل انتخابات بلدية. وقد يستعر التنافس، ويبلغ أقصاه، فتنقسم العائلات والحارات. وقد يحصل بينهم تفاهم ووفاق. لكن في كلّ الأحوال، تعود الأمور إلى مجاريها، لأنّ طباعَ الناس في قرانا مجبولة بالمحبّة والشهامة، لا بالحقد والضغينة. واليوم، لدينا مختاران من خيرة الشباب ورئيس بلدية أُعيد انتخابُه وسط تنافس كبير. الجميع يتنافسون فيخلقون في القرية حيوية رائعة، وتذهب بعض الوفود إلى صاحب القرار الأساسي في المختارة، يختار من يشاء، حتى ولو تناقض الأمر، أحياناً، مع رأي هذه العائلة أو تلك، من أهل القرية، لكن مهما كانت النتيجة، ومهما اشتدّ التنافس والغضب، فإنّهم جميعاً يخدمون القرية وأهلها بطيبة ابن الأرض.

في مثْلِ هذه الأيّام، نودّع في قريتنا مواسم العنب والتين، وتُنهي نساء القرية آخرَ مراحل صنْع المربّيات على أنواعها. (أتذكّر أمّي بحسرة كبيرة). في مثل هذه الأيّام أيضاً، يبدأ الناس بوضع المدافئ (الوجاق، بحسب التسمية الشائعة عندنا). يجمعون الحطب، يقطعونه، ويشذبونه، استعداداً لمواجهة صقيع الشتاء والثلوج. بعد أيّام يهجر القريةَ قسمٌ من أهلها إلى المدينة، أو إلى مدن أخرى خارج الوطن؛ وبعد أسابيع قليلة تحلّ أجواء المطر مكان أشعّة الشمس فوق الجبل، وبعد فترة قصيرة تحتلُّ الغيومُ مكان النجوم التي كنّا نراقبها ونلاعبها حتى لنَخال أنّنا نلتقطها بأيدينا، وبعد فترة، يختفي القمر خلف الجبل، وتتسلّل الثلوج أو تنهمر لتضيء وجهَ الجبل، وتلفّ أشجار السنديان والصنوبر بشالٍ ناصع البياض. بعد فترة، يعلو صوت ابنِ قريتنا، الفنّان الكبير الراحل المبدع، صاحب الصوت الصافي، وديع فرنسيس (وديع الصافي، وفق اسمه الفنّي) فنحمد الله أنّه رزقنا كلّ هذا الجمال وأبعدنا عن زحمة المدن وقرف الساسة والفساد والنهب.

عدنا إلى قريتنا بسبب الحرب الأهلية في لبنان. كنّا قبْل هذه الحرب المشؤومة، نُقيم في منطقة «سن الفيل» في بيروت، ثمّ في زحلة، ثمّ في بعلبك. كان عمل أبي في قطاع الأجهزة اللاسلكية، يتطلَّب حفظ كلّ شيفرات الأمن والتواصل بالألغاز. كان يحبّ اللغة العربية، ويتقن قواعدَها. كان كذلك محبًّا للصحف، يشتريها كلّ يوم، ويقرأ كلّ التفاصيل. أحبَّ كذلك اللغة الإنكليزية، وسعى لإتقانها. ولعلَّ الفضلَ الأول، في تعليمي اللغة العربية وقواعدها، يعود إليه. كان يكافئني كلما حفظتُ قاعدة لغوية، أو أجَدْتُ إعراب جملة. كان يشتري الصحف ويطلب منّي أن أقرأ له المقالات، وأنا جالسٌ إلى جانبه في السيّارة. علَّمَنا أبي في أفضل المدارس، وكان مع أمّي يصوّران لنا المستقبلَ بهيًّا زاهياً، إنْ نحن تعلّمْنا. لعلّه أراد أن أكون طبيباً، فهو منذ أن أنهيتُ دراستي، في مدارس الراهبات، ودخلت إلى

مدرسة المطران، حيث شعرتُ باعتزازه، حين أعلِنت نتائج امتحاني، قرّر أن يرسلني إلى أميركا، عند أحدِ أقاربه، كي أتعلَّم الطبّ.

جاءت الصحافة مصادَفةً. كان لي رفيقُ طفولةٍ يريد أن يصبح صحافياً، أمّا أنا فكنتُ ألومه على خياره، وأقول له إنّ الصحافة هوايةٌ كالموسيقى والغناء والمسرح والرسم والتمثيل، يمكنكَ أن تمارسها إلى جانب وظيفة ما. ربّما كنتُ أعتقد بذلك، لأنّ أهل قريتنا كانوا كما كلّ الناس، في هذا الشرق، يصنّفون المهن بين مهنٍ رفيعة وأخرى وضيعة. وعلى رأس هذه المهن يأتي الطبّ ثمّ الهندسة ثمّ المحاماة. ولا أظنّ أنّهم أحبّوا الصحافة أو عرفوا ماهيَّتها. حين كنت أقول لزوج عمّتي مثلاً، إنّي أحضّر أطروحةَ دكتوراه في الإعلام، في باريس، كان يسارع إلى سؤالي: «يعني ستكون دكتوراً؟» فأُجيبه بـ«نعم»، فيُردف سريعاً: «حين تعود إذاً سوف تُشرِف على صحّتي إن شاء الله». أضحك، ولا أُجيب. ثمّ يسألني عن أسماء العائلات الفرنسية في البناية التي أُقيم فيها، في باريس. ما زلت حتى اليوم أبتسم حين أذكره. رحمة الله عليه. كان رجلاً بسيطاً ومحبًّا للأرض والناس.

عندما عنُفَت الحرب، واستُشهد والدي بقذيفة إسرائيلية هوَتْ على منزلنا، فتشْتُ في لبنان عن جامعة تُجري امتحانات لقبول الطلاب فيها، يقيناً منّي بأنّ الجامعات التي تفرض على الطلاب المتقدّمين إليها امتحانات قبول، ستكون أفضل من غيرها، أثناء الحرب. دخلتُ كليَّة الإعلام. كان جيلنا مطبوعاً على حبّ القراءة والكتابة، وكنتُ أرسل مقالاتٍ إلى بعض الصحف، وبرعتُ في تعريف بعض مهرجانات الحركة اليسارية اللبنانية، على الرغم من ربيع العمر، ورحتُ أقدّم، مع صديق عزيز لي، برنامجاً إذاعياً يستضيف كبارَ الساسة في لبنان. لا أدري كيف كانوا يقتنعون بنا، لكنّهم كانوا يهتمّون ببرنامجنا. صديقي هذا صار سياسياً ولمع نجمُه في مجاله، وأنا قرَّرت، بعد حين، أن أسافر إلى فرنسا كي أكمل دراستي. غادرتُ لبنان، بعدما سقطت الشعارات السياسية الكبيرة في مزابل الطوائف والأحزاب والمذاهب.

باريس حبيبتي الأجنبية الأولى

كانت رحلتي الأولى إلى باريس محضَ مصادفة. اشتدّتْ وطأة الحرب في بيروت، وشعرت بسقوط القضايا وانهيار القيم. وقفتُ على شرفة منزلنا، ونظرتُ إلى العاصمة. طرحتُ سؤالاً واحداً، من فوق المدينة التي تحترق: «ألم تيأسوا بعد؟». لم أوجّه سؤالي إلى شخصٍ بعينه، أو إلى طرفٍ محدّد. أردتُ أن أسجِّل السؤال للتاريخ.

كانت العاصمة تحترق. الطوائف تنهش الطوائف، على مزابل الحاضر. الإيديولوجيات تقتل الإيديولوجيات فوق جثث التاريخ. القضايا تصبح عاهرات عند مفترقات الطرق. تسقط الجغرافيا في فخاخ التآمر، تسقط الأحلام في مجارير المدينة.

شانزيليزه ليلة رأس السنة.

«آه يا مدينتي الجميلة، كم أحببتكِ، وكم أكرهك». أتمتم على شرفة المنزل المطلّ على الطريق. تعبُر أمامي سيّارات قليلة، ومسرعة، خوفاً من رصاصة قنّاص، أو قذيفة طائشة. تعبُر مخيّلتي أسئلةٌ كثيرة. كلها مقلقة ومضرَّجة بالخوف واللامبالاة. لامبالاة العدم، حين ينتصف الطريق بين الموت والحياة. كلاهما جميل وكلاهما كريه.

تضيق المدينة بالليل الطويل. يمرُّ بائع الترمس، في منتصف الليل، عائداً كما كلّ يوم إلى منزله. يبدو غير آبهٍ برصاصات القنّاصة المتقطعة، في منتصف المسافة بين الليل والنهار. ربما يُؤْثر الموتَ على العودة من دون محصول لأولاده، هذا إن كان له أولاد، وإن كان أولاده بخير.

أتابع حركة بائع الترمس، حركة ثقيلة، لكنْ متواصلة، وإن ببطءٍ، على الرغم من استواء الطريق. تأكل المدينة فقراءها.

أقرّر الرحيل.

لم تكن باريس طارئةً على خيالي. كلّ قصص الأطفال في مدارس الراهبات حكت لنا عنها. كلّ أمثلة معلّماتنا وحكاياتهنّ، في مدارس طفولتي ومراهقتي، دارت حول جمالها وحضارة أهلها. لم أعرف جدَّنا أبا الطيّب المتنبّي إلّا متأخِّرا. لم أتعاطف مع عذرية حبّ جميل بثينة، وإباحية عمر بن أبي ربيعة إلّا في سنوات لاحقة. تعلّمتُ أنّ الشِعر الفرنسي أكثر رقيًّا، وأنّ أدب بلاد موليير وراسين وأراغون وكامو ودورا أكثر عمقاً وجمالاً. ظننتُ أنْ لا ثقافة في العالم، أكثر رقيًّا من الثقافة الفرنسية، ولا أدب يستحقّ هذا الاسم، إلّا الأدب الفرنسي. انتظرتُ أكثر من ربع قرن، لأكتشف أنّ الشاعر الفرنسي النبيل ألفونس دو لامارتين الذي التحف لاحقاً قضايا الفقراء والعبيد، الشاعر الذي عشق الشرق وهام بقُدسه، لم يكتفِ بالتغزّل بحبيبته، في قصيدته الشهيرة «البحيرة» التي حفظناها عن ظهر قلب، في المدارس الفرنسية الاتجاه، وإنّما أبدعَ نصوصاً كثيرة أخرى عن شرقنا. بين تلك النصوص، نصٌّ عن نبيّ الإسلام، بعنوان: «مَن أعظمُ منك يا محمّد»، جاء فيه، وفق الترجمة الراقية، للعلّامة الموريتاني المبدع، د. محمّد المختار ولد أباه: «فمن ذا الذي يتجاسَرُ أن يقارن محمَّدا بأيّ عظيم من عظماء التاريخ؟».

قلتُ في نفسي بعد ربعِ قرن: «ومن كان بيننا يجسر على القول، ونحن على مقاعد الدراسة عند الراهبات، إنّ ثمّة مدينةً في العالم أجمل من باريس؟». ضحكتُ وفي قلبي حبٌّ كبير لأولئك الراهبات اللواتي بفضلهِنّ اكتسبتُ ما فتح لي طريقاً إلى مستقبلٍ زاهٍ، ويسَّر لي سبيل الوصول إلى باريس.

آه يا باريس، ما أجملك في حنانك، وما أقساك في بردك، فأنتِ كطقسك، تارةً صافية، وأخرى راعدة، لكنّك في الحالتين تبقين الحبيبة الأجمل، بين مدن الغرب. هكذا كنت أحدّثها، كلما عدتُ إليها من سفر، أثناء دراستي في جامعاتها الراقية. وهكذا كنتُ ألاقيها، مع كلّ عودةٍ إليها، بعد مهمّةٍ صحافية إلى بؤر النار في العالم. وهكذا كنت أجدها، فاتحةً لي ذراعيها، مع كلّ عودة من مدينتي الأولى وحبّي الأول بيروت، حاملاً صور المدينة المحترقة بجَوْرِ أهلها عليها، وتقاتل الآخرين على أرضها. ومن بيروت، كنتُ أحمل ذكرى تَيْنِكَ العينين اللتين من أجلهما هاجرت إلى فرنسا.

كان يضحكني، وأنا طفلٌ، على مقاعد مدارس الراهبات، أنّ «الديك» هو رمز من رموز بلدي الجديد، فرنسا. تقفز إلى مخيّلتي، فجأةً، دجاجاتُ عمَّتي في قريتنا الجبلية. تلمعُ عيناي، وأنا أراقب الديكَ يجري خلف الدجاجات. لا أفهم لماذا ينقر الديكُ الدجاجةَ في رقبتها، كلّما اعتلاها ليمارس الجنس معها. تُهروِل الدجاجات هاربةً، يمنةً ويسرةً، بين العشب الأخضر اللامع، في حقل عمّتي. تستكين إحداهنّ، في كلّ مرّة، وتستسلم لسطوة الديك. توحي الدجاجة المسكينة، بأنّها تمارس الجنس مرغمةً، ثمّ تنفض ريشها وتهرب. فيركض الديك إلى دجاجة أخرى. غالباً ما ربطنا هذا الرمز الفرنسي بما كنّا نعتقد به عن إباحية الحياة الفرنسية. كان الأمر يغرينا، نحن الفتيان الصغار، في مدارس الراهبات،

فنحلم بالسفرِ يوماً إلى فرنسا لنصبح دِيَكة باريس. تقمعنا الراهبة إذا ما تضاحكنا، وتضربنا بعصاً سميكةٍ ومسطّحة (المِسْطَرة) على أيدينا، إن لم نفسّر لها سبب الضحك. وكيف نستطيع أن نفسِّر لها تلك الأفكار الشيطانية؟ ههه.

كنّا نخاطبها بالفرنسية، فهي اللغة الوحيدة التي يُسمَح لنا باستخدامها للتخاطب في ما بيننا، ومع معلماتنا، في مدارس الراهبات، فكيف إن كان المُخَاطَب بصرامة «الأخت متّى»؟ لم نكن نعرف اسمَها الكامل. مجرَّدُ ذكر اسمها على نحوه الراهن، كان كافياً لكي يدبَّ الرعبُ في أوصالِنا. نهرع أمامها إلى صفوفنا كالدجاج، وهي تلاحقنا بصوتها كديكٍ غاضب. والأدهى من ذلك كلّه، أنّه حتى في غمرَةِ خوفنا وهروبنا، كان ممنوعاً علينا أن نتكلّم بالعربية. مَن «يخطئ» ويتحدّث بلغة الضاد، كان عليه أن يأخذ مكعَّباً خشبياً صغيراً يضعه في جيبه اسمه «Signal». ويبقى المكعَّب معه، حتى يسمع تلميذاً آخر يتحدّث بالعربية، فيعطيه الـ«سينيال»، ومَن يستقرّ المكعَّب في جيبه، آخر النهار، يكُنْ نصيبه عقابَ الراهبة متّى. ومع ذلك، فتلك «الأخت الكبيرة» كما كنّا نسمّيها، كانت حنوناً، وتُحِبُّنا كأولادها الذين لم تُنجبْهم، فلا تتردّد في أخذ الواحد منّا إلى دَيْرها مع الراهبات ليشاركهنّ طعامهنّ. كنّا نبادلُها الحبَ والخوفَ بالإسراعِ نحوَها، وتقبيلِ الصليب الخشبي المتدلّي فوق ثيابها.

لم أرَ ديَكةً ولا راهبةً ولا أطفالاً حين وصلتُ إلى باريس. هجر الباريسيون كنائسهم منذ زمن طويل. هم يفاخرون بعلمانيّتهم المقاربة للإلحاد. غالباً ما كنت أرى قرب بيتي الباريسي، كلّ سبتٍ مساءً، أو كلّ أحدٍ ظُهراً، صفوفاً طويلة من الباريسيين أمام باب المسرح، بينما الكنيسة المجاورة خالية، إلّا من بعض المتقدّمين في السن. كانت الكنيسة تبدو كسيّدة هرمةٍ هجرها عشّاقها لتقدُّمِها في العمر.

وصلتُ إلى باريس، في المرّة الأولى، يومَ أحد. كان الطريق، من مطار شارل دوغول إلى قلب العاصمة، يمرُّ بين حقول القمح والذرة والخضار. تستلقي الأشكال الهندسية الجميلة في تلك الحقول الرائعة، غير آبهةٍ بشيء. تتراوح الألوان بين الأصفر والأخضر والبنّي والأحمر. أُنقِّل ناظريّ بين اليمين واليسار. كلّ شيء أنيق وهادئ. كلّ شيء يختزل عقوداً طويلة من السعادة. تجتاح مخيّلتي صورُ آخرِ القذائف المنفجرة قرب بيتي، في كورنيش المزرعة، في بيروت. أحاول أن أبعِد الصورَ القاتمة لأتمتّع بما أرى الآن. أراقب بشيء من الدهشة دواليب الهواء، من دون أن أعرف سرَّها. تنساب من مذياع التاكسي أغنيةٌ لذلك الفنّان الإنساني النبيل جورج براسينز. له أغنيةٌ كنّا نحفظها منذ مراهقتنا، تتحدّث عن العشاق الذين يتبادلون القبلات كالطيور على المقاعد العامّة (Les amoureux des bancs publics).
أتذكّر الديك. يغيِّر السائق محطة المذياع وينقلها إلى أخرى، تصدح بأغانٍ أفريقية الوقع. تناقضُ سحنتُه السمراءُ الدكناء تلكَ الصوَر التي حفظتُها من روايات طفولتي، في مدارس الراهبات، عن أهل باريس ذوي الشعر الأشقر والبشَرة البيضاء والعيون الزرق. لم يحدّثني سائقي الأفريقي، طوالَ الطريق. سألني فقط عن مقصدي. أستغربُ لهجتَه الفرنسية، فهي ليست تلك التي عهدتها في مدارس طفولتي. أفكِّر بأنّه تطبّع بالطباع الباردة لأهل باريس، لكنّ لهجته بقيت عصيّة على التطبيع.

ليس في الطريق ما يثير القلق. هنا لا قذائف، ولا رصاصات طائشة، ولا حاجز للمقيمين والطارئين. وحده ذاك الديك الحديدي الواقف مزهُوًّا فوق عمود وتحته حرف «O» للدلالة على اتجاه الغرب، وحرف «E» للإشارة إلى اتّجاه الشرق، يُعيدني إلى ابتسامات رفاقي في مدارس الراهبات. أدركتُ لاحقاً أنّ «الديك هو من أكثر الرموز شعبيةً في التاريخ الفرنسي». كان الرومان يرون فيه تجسيداً لأهل بلاد الغال (هكذا كان اسم الفرنسيين). وفي القرن السابع، راح الكتّاب يصِفون الملكَيْن لويس السابع وفيليب أوغوست بالديك. وفي عصر النهضة، بات الديك رمزاً لعددٍ من ملوك فرنسا، ثمّ غاب عن الألسن في عصر الأنوار، ليعودَ بقوّة، مع الثورة الفرنسية. لكنّ نابوليون استبدله بالنسر، ولويس-فيليب وضعه على العلم، وعلى أزرار الثياب العسكرية للحرس الوطني، قبل أن يصبح الديك شعارَ الجمهورية الفرنسية الثالثة. لماذا لم تحدّثنا الأخت متّى عن الديك؟ لعلّها كانت، في قرارة نفسها، تعتبره

أقلَ شأناَ وقيمةَ من عظمة فرنسا.

كان الغرور، في رأيِ بعضهم، والعنفوان والأرض في رأي آخرين، سببَ اتّخاذ الديك شعاراً. حين وصلتُ إلى الغرفة التيَ استأجرتُها في الدائرة 16 في باريس، وهي دائرة راقية بين الدوائر العشرين التي تقتسم العاصمة، حملقتْ بي السيّدة السبعينية العمر، كأنّها تتفحّص كلّ خليّة في جسدي وثيابي. اقتربَتْ منّي موحية بشيء من الاستعلاء، وقالت، كمَن يُلقي خطاباً: «تعرف شروط الإقامة هنا، لا ضجّة، ولا ضيوف، ولا إسراف في استخدام المياه، ويجب تسديد الإيجار قبل يوم من آخر كلّ شهر». أوحيتُ بالموافقة على كلّ ما تفوَّهت به. شكرتُها بلطف وابتسامة، وحملتُ حقيبتيَّ الثقيلتين أجرُّهما خلْفي صوْب الغرفة. وضعتُ المفتاح في الباب النظيف، وابتسمتُ. قلت: «يبدو أنّ النساء أيضاً ديَكةٌ في هذا البلد». لم تمضِ أشهرٌ قليلة حتى صرتُ رفيق النزهة اليومية لصاحبة الغرفة، وملاذَها كلّما ألمَّ بها مرضٌ، وسميرَها كلّما قرَعَ بابَ قلبِها مللٌ. رأيتُ فيها شيئاً من أمّي التي تركتْ دمعتها تخونُها، وهي تلوّح لي، مودِّعةً، ومتَّكئة على باب بيتنا الحجري الجميل؛ وهي رأتْ فيَّ أنيسَ وحشتِها.

قاربت الساعةُ التاسعةَ ليلاً. في ذاك اليوم المودِّع شهرَ آب/أغسطس لم تكن الشمس غابت تماماً بعدُ. لا يزال ضوء النهار ودفؤه يُرخِيان بهيبتِهما على باريس. هبطتُ الدرجَ الخشبي المغطّى بسجّادة حمراء من نوع «الموكيت»، مُثبَتةٍ عند كلّ درجةٍ بقضيبٍ أصفر يمنع انزلاق القدم صعوداً وهبوطاً. شكلُ الدرج وأناقةُ السجادة يبعثان الرغبة في استخدام الدرج، لا المصعد، للنزول من فوق إلى تحت. نزلتُ الهوَيْنا، متأثراً بخطاب صاحبة الغرفة، وأوامرها. «هنا، لا ضجيج». ولا أدري لماذا تذكَّرت أيضاً معلَّقةَ الأعشى:

تسمعُ للحَلي وسواساً إذا انصَرَفَتْ

كما استعانَ بريحٍ عِشرِقٌ زَجِلُ

ليست كمن يكره الجيران طلعتها

ولا تراها لسرّ الجار تختتلُ

تسمعُ للحَلي وسواساً إذا انصَرَفَتْ / كما استعانَ بريحٍ عِشرِقٌ زَجِلُ

ليست كمن يكره الجيران طلعتها / ولا تراها لسرّ الجار تختتلُ

ضحكتُ وأنا أتخيّل الفارق بين سيدة الأعشى وسيدتي الفرنسية. أقفلتُ البابَ خلفي برفقٍ، وربّما بكثير من المغالاة في الرفق، كي لا أثيرَ غضبَها، وخرجتُ أستنشق للمرّة الأولى روعةَ المدينةَ.

تمتدّ الدائرة السادسة عشرة من نهر «السين» حتى حدود الشانزليزيه. أنا إذاً بين معْلَمَين من أجمل معالم العاصمة. فرحتُ. استنشقتُ الهواء ملءَ رئتيَّ غيرَ آبهٍ بأنّ أشجار العاصمة لا تحميها من التلوّث. وكيف لا أفرح، وأنا تاركٌ خلْفي بيوتاً مدمَّرة، ونفوساً مدمَّرة، واقتتالاً شرساً بين رفاق الأمس في بيروت. اختلطَ الحابلُ بالنابل، في منتصف الثمانينيّات. قاتلَ الرفاقُ الرفاقَ. انهمرت القذائف على البيوت والأبرياء. لم يعُد القتلُ يأتي من الاقتتال الدموي الضروس بين شقّيْ العاصمة، بل صارت القضايا تنحسر شيئاً فشيئاً، لتضيع على مذابح جِهاتٍ ومصالح أكبر بكثير من لبنان وأهله.

حبٌّ فوق «السين»

كانت غرفتي في تلك الدائرة الفرنسية تقع على مقربة من ساحة «تروكاديرو». هكذا شاءت المصادفة، أولُ اسم ساحة يصادفني في فرنسا، يَرِثُ تاريخاً من الحروب وويلاتها. أخذَت الساحةُ اسمَها من انتصار الحملة العسكرية الفرنسية على ثوّار إسبانيا، في حصن تروكاديرو الشهير. أعقب الانتصارَ ترسيخُ الحكم المطلق للملك فرديناند السابع. الدماءُ وحْدَها هي التي تكتب التاريخ، وتصنع الساحات، وتبني مجد الطغاة. سرعان ما لفتَني قصر «شايو»، وعليه إعلانٌ لمعرض منحوتات أفريقية، دعماً

للمناضل-الأسطورة نلسون مانديلا. قرب المعرض، إعلانُ حقوق الانسان يرتفع بزهوٍ فوق صرح مجاور. التاريخ إذاً هنا، خليط من الدماء والثقافة والحرّية والفن. ممتاز. بَدَت رحلتي من مطْلعها أكثرَ جاذبية ممّا ظننت. قرَّرت أن أذهبَ إلى نهر «السين» القريب. أريد التأكدَ من صدْق رواياتٍ قرأتُها في مدارس الراهبات والإرساليات الأجنبية المسيحية عن جمال النهر وسعادة العابرين فوقه والمقيمين عند ضفتيه.

قارَبَ الليل منتصَفَه حين وصلتُ إلى النهر. بهرتْني مراكب السيّاح الضاجَّة ببهجة راكبيها. تَمخرُ المراكبُ الكبيرة عبابَ النهر. تخترقه فيزبد عند جانبيها. ينتشر ضوؤها فوق الماء. يمتزج الضوء بصوت الدليل السياحي وبعض موسيقى جاك بريل وشارل أزنافور وإديث بياف وجورج موستاكي وميشال ساردو وداليدا. يصل انعكاس الضوء إلى وجهي. أُغمِضُ عينيَّ قليلاً لأحجب شيئاً من قوّة الضوء. يُلوِّح السيّاح لي وللآخرين مثلي، عند ضفّة النهر، بالتحيّة من المركب. نردُّ التحيَّة بأحسن منها. أفكّر بنهر الموت في بيروت. كم من الجثث تجمَّعتْ في قعره، لأجل اللاشيء هناك، وكم من العشق يتجمَّع في قعرِ هذا النهر الفرنسي هنا. نقتل الحُبّ في أوطاننا، ونذهب للبحث عنه في أوطان الآخرين. أفكّر بتينك العينين اللتين لأجلهما جئت إلى فرنسا.

«أتحمل سجائر؟» تسأل الشقراء الفرنسية المغناج، بشيء من اللامبالاة. تفضحُ لكنتُها المنطقةَ التي جاءتْ منها. هي من منطقة «بروتانيو» الفرنسية، التي يحافظ أهلها على لغتهم وثقافتهم وهويّتهم الخاصّة. يحلم بعضهم حتى اليوم بالانفصال. تذكّرت إحدى معلماتِنا الفرنسيات، في لبنان، فقد كانت من تلك المنطقة، وكانت أكثر حناناً وحرارة من بقيّة الفرنسيات.

معظم فتيات منطقة «بروتانيو» شقراوات باسِمات. طباعُهُنَّ تناقضُ طِباعَ الباريسيات اللواتي، كجُلِّ أهل باريس، لا يبتسمْنَ إلّا في المناسبات السعيدة، أو حول مائدة وقنّينة نبيذ. هي حياة المدن لا رَيْب، لكن في عاصمة الفرح، الحياة والتأفّف صنوان. «BOF» كلمة، أو بالأحرى صوتٌ يسمعه الأجنبي القادِم حديثاً إلى باريس، فلا يفقه له معنىً لكنّه سرعان ما يُضطرّ لفهمه واستخدامه. في هذا الصوت ما يجمع الاستياء باللامبالاة. لكنْ، فيه أيضاً ما هو أكثر احتراماً من كلمات كثيرة أخرى يكرّرها الباريسيون، وتحمل دلالات عدّة على استيائهم، لكنّها لو تُرجِمتْ لصَدَمَت الواصِلَ حديثاً، وفي مقدَّمها كلمة «Merde» مثلاً (ومعناها: غائط).

أتأمّل الشقراءَ قليلاً عند حافة النهر. تكاد تختزل كلّ الصور الجميلة التي حفظتها من الروايات الفرنسية في مدارس الراهبات. أنظر قليلاً إلى عينيها اللتين يختلط فيهما فعلُ الكحول بلونهما الأخضر. أعتذر منها لكوني غيرَ مدخّن، ولا أحمل سيجارةً. يظهر بعض ثدييْها خلْفَ القميص الشفّاف المشقوق حتى منتصف البطن. أستعيد صورة دجاجات جدّتي. أبتسمُ، تبتسم لسببٍ آخر حتماً، وتعود إلى مكانها مع صحبها. يرتفع صوت جاك بريل. تقول الأغنية «دعيني أكُنْ ظلّاً لكلبكِ.. لا تتركيني». أكتشفُ، بعد سنوات، أنّ حُبَّ الباريسيين للكلاب والقطط الأليفة قد يوازي حبّهم لأولادهم. تضمُّ فرنسا أكثر من 18 مليون كلب. لا يتردّد بعض الفرنسيين في وسم كلابهم بالنياشين، في أعيادهم الوطنية. هل يجرؤ عربي على أن يقول لحبيبته «دعيني أكُنْ ظِلّاً لكلبك؟». قد يكون الحبّ عندنا أعمق من ذلك، لكنّه في باريس أصدق وأكثر صراحة. نحن نقتل الصراحة في أوطاننا.

بيروت-باريس تناقض الفرح والحزن

لا تفسير لاختلاط مشاعر الفرح بالحزن، في تلك الليلة الصيفية الجميلة، عند حافة نهر السين. ثمّة نقطة قائمةٌ بين الفرح والحزن، تشبه، إلى حدّ بعيد، المنطقةَ الفارغة في الفضاء. لحظة الصفاء هي، أو هي لحظة اللاشيء، أو لحظة كلّ شيء. ليس مهمًّا. الأهمّ أنّها لحظةٌ لا يشعر معها المرء بشيء من حوله، وكأنّما التقاء الأضداد يخلق العدم. لعلّ رغبةً في العدم كانت تدغدغني لأنسى بلداً مدمَّراً هَجَرْتُه، وأستقبلُ حُلُماً جميلاً حملتُه إلى باريس.

لم أحدّثْ أحداً في تلك الليلة سوى العجوز صاحبة الغرفة الواقفة عند حافة العمر، وهذه الحسناء الشقراء المقبِلة على وهج الحياة عند حافة «السين». لم أفعل شيئاً غير السير في باريس، والتمتّع بنهر السين، وبكلّ ما صادفني في طريقي من بشر وحجر. انتبهتُ لتربّع القمر في كبِدِ السماء. تذكّرت كيف يتربّع القمر فوق الجبل في قريتي. تراءت لي النجوم هناك قريبةً حتى إنّي كنت أخالُ وأنا فتىً غرٌّ،

أنّي قادر على التقاطِها بيدي. جلستُ عند حافة النهر، وتركت قدميَّ تتدلّيان حتى مائه، من دون ملامستها.

في طريق العودة من نهر السين، عند الثانية فجراً، كان متسوِّلٌ يرتشف آخر نقطة من قنّينة النبيذ. توحي سحنتُه بأنّه من أوروبا الشرقية. لم يكن الاتحاد السوفياتي قد تفكّك بعدُ، ولا بيريسترويكا ميخائيل غورباتشوف قد حطّتْ رحالها. يجلس على فراشٍ من الإسفنج، وحوله بعض القوت منثوراً بفوضى عارمة، وشيء من نبيذ، وربّما بَوْل، بجوار الفراش. هو لا يرى شيئاً من كلّ هذا، يكتفي بقول شعرٍ، بلكنة فرنسية مكسّرة. يضحك بصوتٍ عالٍ، ويلعن الحياة والناس والعاصمة. ليست مدنُ الحروبِ وحدَها تأكل أبناءها إذاً. شعرتُ بقشعريرةِ بردٍ، على الرغم من دفءِ ذلك اليوم الصيفي. أسرعتُ الخطى في طريق العودة. لم يكن ما شعرتُ به برداً، ربّما هكذا خُيِّل إليّ. خِفتُ أن تخبّئ لي الحياة هنا بعض صورها القاتمة. فكّرت بالعينين اللتين من أجلهما جئت إلى باريس.

ليست الحرّية في باريس مقصدي، ولا هي هدفي. بيروتنا الجريحة فيها من الحرّية ما يفيض. لا بل قُلْ فيها من الفوضى ما جعل للحرّية بيئةً خصبةً تنمو وتكبر فيها، على نحوٍ قَلَّ نظيره في العالم. كانت الراهبة في مدارسنا الابتدائية تقول: «إنّ الحرّية لا تعني فقط حرّيةَ الكلام والمعتقد والعادات الاجتماعية، وهي لا تعني مطلقاً الغرق في الفوضى، بل تعني أنّ حرّيّة الفرد تقفُ عند حرّية الآخرين». مرّتْ سنواتٌ كثيرة قبل أن أفهمَ وأتفهّم أن يُترَكَ متسوِّلٌ عربيدٌ في شوارع باريس، يغالب الليالي الطِّوال، ويتربّع فوق فوهات قطار الأنفاق (المترو) ليتدفّأ على حرارة البخار المنبعث منها، عبْر شبكتها الحديدية. لا أحد هنا يستطيع أن يُرغِمه على الذهاب إلى مأوى، أو إلى أحد المطاعم الخيرية، ما دام قادراً على التحرّك واتّخاذ القرار. أنام في ليلتي الأولى هانئاً. هذه هي المرّة الأولى، منذ سنوات طويلة، التي لم أسمع فيها أزيزَ الرصاص وأصوات القذائف.

تمضي ليلتي سريعاً. أو هكذا تخيَّلت. ينهمر المطر على باريس. تنزلق حبيباته على نافذة غرفتي المطلّة على نهر السين. تتساقط حبيباتٌ أخرى على مياه النهر، ثمّ ترتفع كأنّها تتمرّن على القفز فوقه، أو كأنّها في عرضٍ راقص. يغسِل المشهد الجميل شيئاً من ذكريات الحروب عندنا. تتوسّط شرطيّة السيرِ التقاطعَ تحتَ نافذتي. توقِفُ السيّارات ليعْبُر طلّاب المدارس. يحيّيها أحد الأطفال بعبارات عفريتية محبَّبة. تردّ بالابتسام، من دون أن تخفض يدها التي تدعو بها السيّارات للعبور.

بين نافذتي ونهر السين، شجرةُ كستناء. ربّما ليست كستناء، ولكنّني قرّرت أن أسمّيها بهذا الاسم لأنّها تشبه شجرة الكستناء. شجرةٌ وارفة تصِل إلى الطابق الثالث. تحجب عنّي بعضَ الرؤية أوراقُها الخضراء الآخذة بالاصفرار مع شهر أيلول/سبتمبر. تحضرني سيّدة الغناء عندنا، فيروز: «ورقو الأصفر شهر أيلول».

كلّ شهر تقريباً، تُرسل بلدية باريس عمَّالا يشذّبون أغصان شجرتي الباسقة. ما إن تسقط أطراف الأغصان إلى الأرض حتى يسارع عمّال آخرون إلى جمعها. لا يبرّر هذه النظافة والدقة في العمل، غيرُ الضرائب التي ندفعها جميعاً للبلدية. ضرائب تشذّب الشجر، وتنظّف الطرقات، وتضيء الشوارع، وتحافظ على الهندسة الراقية للمدينة، وتُثقِل كاهلَ المواطن. لا بأس، فهو يعيش من دون همٍّ ولا غمّ. تقفز إلى ذهني أرقامُ البطالة والجهل والأمّية في أوطاننا. لماذا تركنا التسلّط والفساد والدكتاتورية والمافيات تقتل الإنسان، بذريعة بناء الأوطان؟ أتذكّرُ أنّ نصفَ شعوبِ بعض دولنا يعيشون على حافة الفقر. أفكّر بأنّ العربي لا يقرأ أكثر من 6 دقائق في العام الواحد. تغيّر الحال لاحقاً مع شبكات التواصل الاجتماعي. لكنَّ القراءةَ تبقى سطحيةً وعابرةً. والذي يقرأ كتباً يكون استثناءً.

في باريس، من لا يقرأ هو الاستثناء. تنتشر الكتب في كلّ مكان. لا يزال تقليد الباعة أمام صناديقهم الخشبية عند الضفّة اليسرى لنهر السين، أحدَ معالم العاصمة. يتوزّع القرّاء في المقاهي والباصات. لا يتردّد الباريسي في قراءة كتاب، وهو ينتظر دورَه لإتمام معاملة، أو شراء الخبز، أو بطاقة سينما، أو في المصارف، والإدارات. تضمّ باريس أكثرَ من 374 مكتبة، وفيها 554 نقطة لبَيع الكتب. هنا، الكاتب يعيش من ريع كتابه، في بعض دولنا العربية، يموت الكاتب بسبب عبارات كتابه. هنا، الكتاب

خيرُ أنيسٍ وجليس؛ هناك، الكتاب قد يكون أسوأ الكوابيس.

لا يعكّر صفْوَ المشهد من نافذتي، سوى رجلٍ رثّ الثياب، ضخم الجثة، أحمر الوجنتين، بفعل الخمرة. يجتاز الطريق، فتصرخ به الشرطية، لكنّه لا يبالي.. ويعبُر. تصرخ به: إشارة المشاة حمراء. لا يأبه لها. يضحك ويعبُر. يشتمها فتغضّ الطرف. يشتمُها مرّة ثانية فتهدِّده. يصمتُ ثمّ يستأنف تمتمةً بكلامٍ، وحده. جسده ينحني مائلاً إلى الأرض. يرتفع معطفه قليلاً فوق قفاه الضخم. عيناه الغارقتان خلْفَ خطوط العمرِ تراقبان حبيبات المطر، وهي تصطدم بالشارع عند قدميه. ربّما لم يرَ السماء في حياته. لا ينظر أبداً إلى فوق. ربّما هو على هذه الحال، لأنّه لا ينظر إلى السماء. فكيف له أن يرى الله؟ لا تاريخ لهُ ولا حاضر. مستقبله آيلٌ إلى الموت بطريقة ستكون مذِلّة حتماً، أو مثيرةً للشفقة. ينهش من الخبز نهشاً. يشرب من قنّينة نبيذ بَخْسة الثمن. الخبز الفرنسي أحدُ أطايب المطبخ الفرنسي. يُعرَفُ باسم «باغيت» (عصا) لأنّ شكله يشبه العصا. من عاش في باريس ولم يتمتع بالباغيت وبنوعٍ واحدٍ، على الأقلّ، من أكثر من 360 نوعاً من الجبنة، وليس شرطاً أن يصاحب ذلك كأس نبيذ فاخر، فهو لن يعرف باريس. ينهش هذا الشقيّ (ويُقال له بالفرنسية: «كلوشار») من «الباغيت» بنهَم الجائع. يَدُبُّ ويسير. يترنَّح ويضحك. يقع وينهض. يقع ويقوم ثانية، ثمّ يرتمي على جانب الرصيفَ. تأتي سيّارة الشرطة لتأخذه إلى مكان دافئ وآمن، فيرفض. والقانون يجيز له الرفض.

أقفُ خلف نافذتي. تنزلق حبيبات المطر راسمةً خطوطاً كثيرة مستقيمة ومتعرِّجة على زجاجها. أمسح بعض البخار الذي تجمَّع على الزجاج. أرى هذا البائس مستلقِياً على الأرض ببطنه المنتفخ وحاضره الأجوف. أفكّر كيف ضيَّع تاريخه وكيف يقتل مستقبله. يضحك، فينزلق النبيذ من فمِه. يسيل على ثيابه الرثّة المتعفّنة. يعرِّج حول بطنه المتكوّر. يتجمّع قرب جثته الحيّة الميتة. تخيفني باريس. في أقلّ من 24 ساعة يصادفني شحّاذان. تركتُ بيروت في أوْج حربِها، ولم أرَ فيها شحَّاذا واحداً. ربّما قتلتهم الحرب، أو ربّما صاروا رفاقاً في بعض الأحزاب، يقتلون مَن أحسن إليهم ذات يوم. هل الموتُ تحت القصف أرحم، أم الموت تسَوُّلاً في باريس؟ لا بدّ من أنّ في العاصمة خيارات أخرى.

أفكر بتاريخ هذا الشحّاذ وحاضره. أتذكّر تاريخنا وحاضرنا. قبائلُ تنهضُ من تحت غبار التاريخ، تتقاتل على مزابل الحاضر. تترنّح وتسقط. مسلمون يقتلون مسلمين. يبسملون ويحمدلون ويذبحون ويضحكون. مسيحيون يهاجرون لأنّ الحاضر يقتلهم بأسنان التخلّف. أفكّر ببعض دولنا، وببعض القادة العرب. يحضرني اجتياح بيروت، وضَياع فلسطين، وحربِ السودان، وتناحر العرب على مقاعد جامعتهم... يحضرني هيكل عظمي اسمه إنسانٌ يتضوّر جوعاً في الصومال. تتراءى لي مخالبُ الأمم تنهش ما بقي من حلمنا العاري، ولحمنا العاري. أمسحُ الضباب عن نافذتي لأرى على نحوٍ أفضل. كيف سأرى على نحوٍ أفضل، وأنا القادم إلى مدينة غريبة أبحث فيها عن أملٍ وشيءٍ من دفء.

واقعنا يسير فيترنّح. يقوم فيسقط. قتلْنا تاريخَنا بمساوئ الحاضر. بماذا نمتاز عن الشحّاذ تحت نافذتي. فكّرت بأنّ الإنسان البعيد، مثلنا، عن وطنه وأهله وحرارة الناس والأقارب والأصدقاء، قد يموت على رصيف باريسي، من دون أن يبالي به أحد. أقلق، فتتراءى لي العينان اللتان لأجلهما جئت إلى فرنسا.

السوربون حلمي

ما إنْ حلَّ الخريف، حتى قصدتُ جامعة السوربونِ. هي حلُمُ الطفولة. كان مجرّد ذكرِ اسمِها يدغدغ مخيّلتي، ويفتح عينيْ أبي واسعتينِ، ويجعل ابتسامةَ فخْرِه تزيِّن مُحيّاه. ترجّلت من الباص قرب حديقة لوكسمبورغ. ما زال الوقت باكراً للقائي مع أستاذي المقبل. شيءٌ من القلق المجبول بالأمل يساورني. كان الروائيُّ اللبنانيُّ، الصديق، إلياس خوري، قد أوكل أمري إلى مترجمة روايته الأولى «الجبلِ الصغير». تمنّى عليها أن ترافقني إلى الجامعة، وأن ترشدني إلى ما عليَّ فعلُه للتسجيل في ذلك العالَم الغريب. كانت هي الأخرى، طالبةَ دكتوراه، وتعمل في إحدى دور النشرِ، وتترجم روايات الياسِ خوري، وأعتقد أنّها كانت تحضّر أطروحةً عن رواياته أيضاً. فتاةٌ مغربيةٌ متوسِّطة الجمال، عميقةُ الفكر، واسعة المعرفة والثقافة. كان لها الفضل الأكبرُ في تفتّح ذهني على الأدب المغاربي والفرنسي. غمرتني بمحبّةٍ لم أعهدْها، سوى بين أهلي ورفاق الدرب. ساعدتني في السير على طريق الثقافة والمعرفة. هي والصديق الصحراوي، المغاربي النبيل، الكاتب والسياسي الراحل الباهي محمّد، فتحا لي أفقاً واسعاً على المغرب العربي، من باريس. اكتشفتُ كم نحن المشارقة غافلون عن ذاك العالم الواسع، من وطننا العربي الزاخر بالتاريخ والحضارة والثقافة والفنّ والإبداع والمعرفة والعلم والمحبّة. كنت كلَّ يوم جمعة، ألتقي الباهي محمّد، حول مائدة الغداء، يأتي حاملاً أكداساً من الكتب، وتاريخاً من المعرفة، يلقيها عليَّ في كلّ جلسة. لا يناقض شكلَه البدويَّ سوى أناقةِ معرفته وعمقِ علمِه في شتّى مجالات المعرفة. منه تعلّمتُ، في باريس، تفاصيلَ وخفايا كثيرة عن المغرب وأهله وسياسته وحضارته... كان الباهي محمّد يحفظ جلّ الأدب الفرنسي، والقاموس الفرنسي-العربي كاملاً، وكان يحفظ أيضاً القرآنَ الكريم ومعلّقات الشعر العربي، ومعظم أدبنا. مِنه أيقنتُ أنّ العربيَّ قادرٌ على أن يفخرَ بتاريخه وحضارته، وأن يعشق حضارةَ الآخرين وثقافتهم. صرتُ أشعر بأنّني، أنا العربي، أكثر عروبةً في باريس، منّي في بيروت، وأنا الباريسي أكثر انفتاحاً على حضارات العالم. فهمتُ أنّ تلاقحَ الحضارات والثقافات نعمةٌ، وأنّ الاقتتال في ما بينها نقمةٌ تولّد الحقدَ والإرهاب والدماء والدموع.

كان الوقت باكراً بعدُ للِقاء أستاذي في السوربون، اقتَرَحَتْ عليّ صديقتي ومرشدتي المغربية أن ندخل إلى حديقة لوكسمبورغ. أدهشتني أناقةُ أشجارها وشجيراتها المنتشرة حول البحيرة النظيفة الهادئة. بدَتْ كلّ نبتة فيها كأنّما لامستها يدُ فنّان، ودغدغَتها مخيُّلة حبيب، وراقصتْها أناملُ عاشق. تتعدّد حول البحيرة أشكالُ الشجر، وألوانه وقاماته. تتمدّد حولها قامات الفرنسيين والفرنسيات في مطلع الخريف الذي يُضفي رونقاً خيالياً، بأوراقه المتساقطة على العشاق.

سِرنا طويلاً في الحديقة المجاورة لجامعة السوربون ومجلس الشيوخ. كان النهار يفيض بشيء من سعادةٍ تدخل مباشرة إلى الرئتين. عبَرْنا الطريق نزولاً صوْب الجامعة العريقة. ينتصب أمامنا صرحٌ تاريخي وحضاري جميل. ينفتح بابٌ عالٍ بين عمودين يوحِيان بأنّهما من عهد الرومان، ولكنّهما ليسا كذلك. أخذت الجامعة اسمَها من روبير دو سوربون، راهبِ الملك لويس التاسع، وكاتم أسراره الحميمة. صارت أحدَ أهمّ صروح المعرفة المتعدّدة، من آداب وفنون وعلوم وطبّ... وغيرها. باتت منارةً للعلم والثقافة والسياحة، قرب الحيّ اللاتيني العريق. هنا إذاً سأتعلّم.

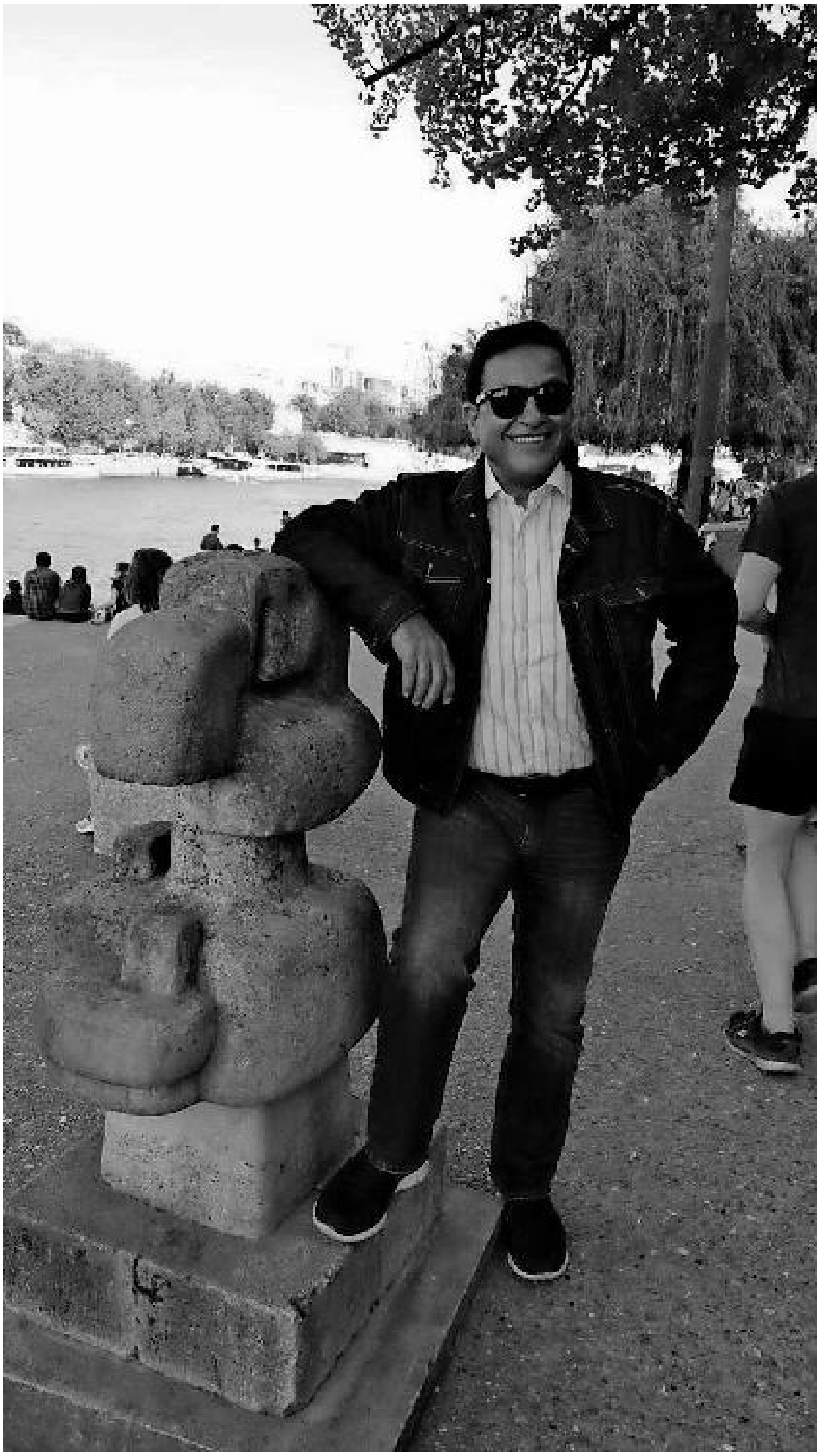

لا شيء يناقض فخامة الشكل الهندسي الخارجي، سوى بساطة الداخل الذي يُشبه كثيراً أيَّ جامعة عادية في لبنان، وفي غيره. كانت ماري-بيير الفرنسية الشقراء، تنتظرنا في بهو الجامعة. هي صديقة مرشدتي المغربية. كلّفتها بالاستحصال على الأوراق الإدارية، قبل الدخول على البروفسور. أرافقُ الشابّة الفرنسية إلى المكتب المتوسّط ممرّ الطابق الثاني. يسارع الأستاذ الجالس خلْفَ مكتبِه إلى الطلب إلينا أن نجلس قبالته. لا ابتسامة، ولا ترحيب، ولا مجاملة. يسألني من أيّ جامعة جئت، وما هو عنوان بحثي. قبل أن أكمِل الشرح، قطع حديثي مُعلّقًا: «لكن في بيروت الغربية مستوى اللغة الفرنسية ليس جيداً، وأنت تتكلّم الفرنسية بطلاقة...» الرسالة واضحة. شرحت له أين تعلمتُ، وأنّ الفرنسية كانت لغتي الأولى في مدارس الراهبات. أوضحتُ له أنّ كتبه الثلاثة عن الإعلام أحفظها عن ظهر قلب. انفرجَتْ أساريرُه. أرجَعَ كرسيَّه قليلاً إلى الوراء، أسنَدَ ظهره إلى الحائط، أعادَ النظر إلى طلبي، رفع نظّارته عن عينيه، تفحَّص شكلي، ثمّ سألني: «ما الذي لفَتَكَ في كتبي؟» فهمتُ أنّ وراء السؤال تشكيكاً، فرحتُ أشرَحُ من دون استفاضة. أرضى شرحي غرورَه، ولعلّه أثبت له أنّي صادق. الفرنسيون مطبوعون على الصدق، حتى لو كان جارحاً. ابتسم قليلاً. أخذ قلمَه ووقَّع على قبولي في الجامعة. ما إن خرجنا من عنده، حتّى مالت الصديقة الفرنسية صوبي وقبَّلتْني ورفعَتْ طلبَ القبول عالياً تعبيراً عن الفرح. كانت تلك أولَ قبلة فرنسية حميمة منذ وصولي. تذكّرت ديكَ عمّتي ودجاجاتها. بدَتْ لي باريس أكثر جمالاً وإثارةً. لكنّي عدت أفكّر بتيْنِكَ العينين اللتين لأجلهما جئتُ إلى هنا، ولأجلهما قرَّرت إكمال دراساتي العليا. تذكّرت كذلك قبلةَ أمي ويدَها المصابة بشظيّة قذيفة. كانت كلّما دخلتْ إلى المطبخ لتطهو لنا، يعتصِرُ الألمُ أحشائي ويملأ الحزن قلبي. وكيف لهذا القلب الكبير الذي تملكه أن يقفز فوق الألم والحزن وبقايا الشظيّة والجراح، لتطهو لنا بكلّ هذا الحبّ، ولتغمرنا بكلّ ذاك الدفء، وهي المحتاجة أكثر منّا جميعاً إلى الحبّ والدفء؟

لم يُفقِدْني بردُ باريس، ولا برودة العلاقات بين أهلِها، شيئاً من حبّنا الشرقي، وتآلف أهلِنا في قرانا، على الرغم من الحروب التي تنهش الوطن، عند أطراف القرى والجبال، أو تلك التي شوّهت رونقَ الطبيعة بلون الدم الطائفيّ النازفِ لأجل اللاشيء؛ ففي باريس يكاد الحبّ ينحصر بين العاشقين. أمّا العلاقات بين الأولاد وأهلهم، فهي موسمية ترتفع حرارتُها حول مائدة عيد الميلاد، ثمّ تتقهقر لتخبو في معظم فصول العام. هنا يتقلّب الحُب كتقلُّبات الطبيعة، لكنّه في كلّ أحواله، يبقى صادقاً. فالفرنسي، سواء كان باريسياً أو ريفياً، يفعل ما يقول. يحبّ حين يريد، ويهجر الحبيب حين يشاء، لكنّه في الحالتين يبقى متصالحاً مع نفسه. في بلادنا، يقول الحبيب ما لا يفعل، أو يفعل عكس ما يقول... لعلّ باريس علّمتني أن أُحِبّ بصوتٍ عالٍ، وأن أحزن بصمت. أن أشاركَ الناسَ فرحي وأغالبَ حزني وألمي، إنْ مرِضتُ، وحيداً. لكنّي، في كلّ الحالات، كنتُ أتصالح مع نفسي. تمرُّ الفصول والسنوات، تمرُّ المشاعر والقصص، تصفَرُّ أوراقُ الشجر وتتساقط، يعودُ الشجر إلى اخضراره وتزهر الورود فتفرح الوريقات ويلتمع لونها الأخضر. يتقلّب وجه باريس، لكنّه يبقى جميلاً. أو هكذا كنتُ أريده أن يكون.

العازف الروسي والسائق الجزائري

على عادته، كلّ صباح، يصدح صوتُه بالغناء. ما إنْ تدقُّ الساعةُ التاسعةَ صباحاً حتى يجتاحَ صوتُه طوابق البناية. يجتاحها بقوّته وصفائه. صاحب صوت الـ«آلتو» شابٌّ روسيٌّ في مقتبل العمر، يجاورني في شقتي الباريسية منذ ثلاث سنوات. قبْله كان نباح كلبِ جارتي الأرستقراطية الفرنسية العجوز، يملأ المكان. وجدوها جثّة باردة كصقيع الشتاء الفرنسي، في أوْج بردِ الشتاء. لم تنفعْها كلّ النياشين التي طالما زيَّنت صدرَها في الاحتفالات الرسمية. ماتتْ وحيدةً، فَبكى كلبُها. أو هكذا أوحى بصوته المتهدّج قُربَ الجثمان. غالباً ما يموت الكلب حزناً، بعد موت سيّده. الوفاء في غريزته. فقدَ البشرُ الوفاءَ، وجنحوا إلى الغرائز. صدق جدُّنا المتنبي:

فلما صار وُدُّ الناس خِبًّا / جُزيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ

وصرتُ أشكّ في من أصطفيه / لعلْمِيَ أنّه بعض الأنام

لم أسألْها يوماً عن قصّة نياشينها والأوسمة. مرّة واحدة قالتْ بحسرةِ العارفِ بدُنوّ الأجلِ وقُربِ الرحيل: «لم يبقَ من تاريخي غير ما يزيّن صدري». لعلّها كانت طبيبةً في الحرب العالمية الثانية، أو كانت مجرّد ممرّضة أو مقاوِمة. ليس للأمر أهمّية. بقيت منتصبةَ القامة، وهي تودّع الأربعةَ والثمانين حولاً. تتوكّأ على عكّازها، وتنظر إلى الأعلى، كأنّها تتحدّى الزمن. لا يناقضُ عنفوانَها سوى ضعفِها، ووهَنِ الجسدِ حين تمرض. كان أنينُها يدفعني إلى طرْق بابها. تفتحُ وتبتسم، على الرغم من الألم، وتدعوني للدخول. تشدُّ الشالَ الصوفيَّ على كتفَيْها وتتكوَّر على نفسها. أقترحُ عليها الذهابَ إلى طبيبها، فترجوني ألّا أفعل. تقول لي: «ابقَ معي قليلاً، لو سمحتَ. حدّثني، فأصبح أفضل». كانت فعلاً، تصبح أفضل. تبتسم مِن فوق الألم، وتسألني سؤالها السرمدي: «متي سأفرح بعروسكَ يا أميري الشرقي؟». تشرب شيئاً مِن زهوراتنا المشرقية. تُغمضُ عينيْها كمن يتلذّذ بما يشرب. تُعيد فتحهما، وتشكرني بكلماتِ حنانٍ قلَّ سماعُها، وسطَ برودة الناس هنا. أشعر بأنّها تعافَتْ قليلاً. أُحدّثها عن آخر رحلةٍ لي. تبتسم. تتثاقلُ عيناها تعباً ومرضاً. أساعدها لتستلقي على سريرها. أضعُ أدويتها وكوب ماءٍ قربَها، وأغلق بابها. ماتت جارتي الأرستقراطية الجميلة الطيّبة، وأنا على سفر. ربّما لم تشأ أن أراها تموت. كنت السببَ الوحيدَ لفرحها. لعلّها لم تُرِدْ أن تكون السبب الأخير لحزني. هكذا يموت الناس في عواصم الغرب. هنا، كلّ شيء متوفر إلّا بعض إنسانية تُدفئُ العجوز في ليالي الشتاء. أفكّر بمرض أمّي، ينقبض قلبي، وتكاد عيناي تدمعان. أستمع إلى الشيخ عبد الباسط. أغفو، ربّما هرباً من فكرة أن تموتَ أمّي.

دعوتُ جاري الروسي لشرب قهوة الصباح. اعتَذَرَ عن صوته العالي. ابتسمتُ، وقلت: لا بأس، فصوتك أقلّ إزعاجاً من نباح الكلب. ضحكنا. في بيتي آلات موسيقية عدّة. راح يتفحّصها الواحدة بعد الأخرى. أخبرته عن جارتي المرحومة، فشاركني بعض حزني. كنتُ أريد أن أُخبره عن أمّي المريضة، ولكنْ لم أشأ أن أعكّر صباحه. تركتُه يحدّثني عن جديده. تلمع عيناه حين يروي حبَّه لباريس. هو لم يخترْها لدراسة الموسيقى والغناء الأوبرالي فقط، ففي بلاده أهمّ معاهد الموسيقى في العالَم. اختارها لأنّ جدّته الفرنسية زرعتْ في قلبه شوقاً لمدينة الأنوار، لم يقْوَ يوماً على مقاومته. تلتمع عيناه أكثر فأكثر، حين يتحدّث عن فلاديمير بوتين. يستوي في جلسته. يضعُ كوب القهوة على المنضدة. يوحي بأنّه يستعدّ لإلقاء خطاب. نعم رئيسُنا أعاد لنا مجدنا وتحدّى العالم. فلاديمير وضعَ الأطلسي كلّه أمام خيارين: إمّا يقبل الندّية لا التبعية، وإمّا فليتحمّل وزرَ المواجهة. الرفيق فلاديمير رفع شأن المواطن الروسي، وحسّن اقتصادَه. وافقتُه الرأيَ، لكنّي سألته: «ما دمتَ تُحبّ فلاديميرك إلى هذا الحدّ، فلماذا جئت تعيش في ربوع الأطلسي؟». ضحك بصوته الآلتو، وقال: «إنّها جدّتي اللعينة، زرعت سوسةَ باريس في قلبي، وحين جئتُ إلى هنا، تعلّقتُ بهذه المدينة، بأكثر ممّا كنتُ أتوقّع. ثمّة شيءٌ غريبٌ وخَفِيٌّ يدفعُك إلى التعلق بها. لا تفسير له. ثمّ هل أفضل من باريس لمزاولة الموسيقى والتمتّع بها؟». حقًّا، ثمّة شيءٌ يحملك على التعلق بها، ولا تُدرِك سرَّه.

ينهمرُ مطرٌ خفيف على باريس. تتناغم الحبيبات على النافذة، كأنّها نغمات معزوفة للموسيقي الرائع إريك ساتي. أستمتع بالنغمتين، المطر وساتي. يحثُّ المشاةُ الخطى. يتشبّث الأولاد بأذيال أمّهاتهم، تحت المظلّات الواقية. يتجمّع بعض المشاة حول طاولات المقاهي على الأرصفة. تلتمع وريقات الأشجار كأنّها خارجة للتوّ من حمّام مغربي. تبدو المدينة النظيفة أصلاً أكثرَ رونقاً بعد حمّامها الأول، في هذا الربيع. يلمع القرميد الأسود فوق السطوح. لا مجال للسير على الأقدام، على الرغم من سحر السير تحت المطر. يتوقف التاكسي. يلعن المطرَ وزحمةَ السير. الزحمةُ التي تزعجه هي عبارة عن خمس سيّارات تدافعت بسبب المطر. فكّرت بزحمة السير في بيروت، وفي القاهرة، وضحكت. فهمتُ من لكنته الفرنسية المفخّمة الأحرف، ومن سحنتِه السمراء، أنّه مغاربيٌ الأصل. علّمني السفرُ أن أميِّز

بين عشرات اللهجات. سألتُه: «أنتَ جزائريٌّ أليس كذلك؟» سارع قبل أن أنهي سؤالي: «لا، أنا قبائلي». هو من أمازيغ الجزائر، من منطقة القبائل الكبرى. أهل الشرق يعرفونهم باسم «البربر»، وهم لا يُحبّون هذه التسمية. أعرفُ حساسيةَ السؤال الثاني، لكني تعمَّدت طرحَه: «يا أخي، أنتَ جزائريٌّ، وتحمل جنسية بلدك، فلماذا تقول إنّك أمازيغي، ولست جزائرياً». سمعتُ منه ما أسمعُه منذ سنوات. نقمةٌ على العرب. ونقمةٌ على التهميش في بلاده. ونقمةٌ على السلطة. ورغبةٌ في التمايز. يشعر الأمازيغي المتعصّب لأمازيغيته، أنّ في هذا التمايز ما يجعله أقربَ إلى الغرب الذي يعيش فيه. ربّما كان الغربُ يعزّز مثل هذا الشعور، لكنَّ الأكيد أنّ هذا الوطن العربي، ما عاد يعرف كيف يحتضن أهله. الأمازيغ يريدون دولة. الأكراد يريدون دولة. جنوب السودان انسلخ عن السودان، بخيراته الطبيعية والنفطية. جنوب اليمن آيلٌ إلى الانفصال. شبح الفدراليات والتقسيم يخيّم على ليبيا والعراق وسوريا واليمن. جزيرة مايوت انسلخت عن جزر القمر، والتحقت بفرنسا... وهلمَّ جرًّا. تتّسع باريس للجميع، لكنّ في ضواحيها كثيراً من أبناء المغرب العربي، وبين هؤلاء من صار أكثر أمازيغيةً ممّا كان عليه شأنُ أهله، وصار أكثر تطرًّفا، مناقضاً بذلك تَسامحَ أهله، وصار أكثر توقاً للعودة إلى التشدّد الإسلامي ممّا لو أنّه كان في بلاده، وبين أهله.

هل ستبقى باريس موئلاً لقاصديها من المغرب، أم تزيد تهميشهم فيزدادون تطرًّفا؟ هل يحبّونها فعلاً، لتبادلهم الحبّ؟ وهل تحبُّهم فعلاً ليبادلوها الحبّ؟ فكرتُ بمثالين فيها، روائي جزائري فذّ، اسمه عزوز بغاغ، أنصفته باريس فصار وزيراً، وشاب جزائري فقيرٌ أغضبته العنصرية، اسمه خالد قلقال، فصار إرهابياً، وقتلته شرطة باريس. في فرنسا سبعة ملايين مسلم. هل تُنصِفهم باريس أم تنبذهم؟ ترجَّلت من التاكسي، وأنا أتساءل: لماذا يعتزُّ الروسي ببلاده، ونحن نخجل بأوطاننا؟ فكّرت باعتزاز العينين اللتين لأجلهما جئتُ إلى باريس.

صديقي المغربي صار إنساناً في باريس

كان محمّد، المهاجر المغربي إلى فرنسا، يعمل بكلّ المهن الوضيعة. كان يأكل يوماً حتى التخمة إذا عمِل، أو ينام طاوياً عاصبَ البطن، من الجوع، إذا عزّ العمل. أمضى ستّ سنوات هارباً من الشرطة الفرنسية، خوفاً من اعتقاله، لأنّه لا يملك أوراقاً ثبوتية. هو يُحسَبُ في عِدادِ فئةٍ من المهاجرين يُسمَّون «المهاجرين غير الشرعيين».

كان الفقر سبب رحلته غير الشرعية، من المغرب إلى فرنسا. لم يبقَ لوالده المريض الذي أمضى جلّ حياته عاملاً بسيطاً على الأراضي الفرنسية، سوى راتب تقاعد بالكاد يكفيه لسدّ رمقِه، وبلسمة أمراضِ زوجتِه. يحلم أبو محمّد، إذا تحسّنت صحّةُ زوجتِه قليلاً، بأن يعود إلى المملكة المغربية، ليموت هناك.

لمحمّد تسعةُ أصابع فقط. قطع إصبعه العاشر حين أطبق الباب على يده أثناء عمله في محلّ لبيع الخضار. ولأنّه يعمل خفْيةً، فإنّ صاحبَ المحلّ تخلّى عنه، وتركه يذهب إلى المستشفى وحدَه. اخترع محمّد اسماً وهمياً في المستشفى. اضطرَّ لأن يؤجّل العملية الجراحية إلى اليوم التالي، بعد اكتشاف هويّته الحقيقية. أمضى الليل يصرخ من الألم، وتترنّح حياته بين الإغماءة تارةً والعودةِ إلى الحياة تارةً أخرى. عاد في اليوم التالي إلى المستشفى، وكان حظّه أقلّ تُعساً من غيره، حيث وقع على أطبّاء دفعتهم إنسانيتهم للاهتمام به وإنقاذ ما بقي من يده. عولج إصبعُه ونُقِل إلى السجن.

بقي محمّد بعد قطع إصبعه يبحث عن عمل شهوراً طويلة. نام في الطرقات. منعَه عنفوانُ الشباب من الرجوع إلى والديه، متسوَّلا أو ضعيفاً أو عاطلاً عن العمل. كان يوهم أهلَه بأنّه يعمل، ولكن براتب قليل، وكان يذهبُ كلَّ أحدٍ إلى سوق الخضار العربي، في منطقة باريس، يحمل الصناديق ويغسل الخضار في الصقيع الباريسي ليأخذ في نهاية النهار قوت اليوم التالي.

بعد 4 سنوات من العمل في مختلف المهن، جمع محمّد ألفي يورو. أوكل قضيّته إلى محامية يهودية. قيل له إنّ المحامين اليهود أكثر سطوةً من المحامين العرب. تقدّم بدعوى يؤكّد فيها أنّ صحّة والديه تتطلّب أن يكون معهما، وأنّه لا بدّ من الحصول على الأوراق. استدان ألف يورو آخر لاستكمال الدعوى. دغدغته أفكار جميلة كثيرة. وصار ينتظر الأوراق الثبوتية، ويضاعف عمله بشغف كبير ويضاعف أحلامه. قال إنّه سيشتري لأمّه برَّادا جديداً وغسّالة جديدة وسيشتري لوالده العجوز ثياباً تليق بعمره، وإنّه سيأخذهما برحلة إلى الحجّ، ليحقّقا حلماً مستمرًّا منذ 30 عاماً. بعد انتظار طويل جاءه الجواب مقتصراً على جملة واحدة: «يجب أن تغادر الأراضي الفرنسية في أقصى سرعة، وإلّا فستتعرّض للملاحقة والسجن».

عاد محمّد يعمل سرًّا ويهرب من أنظار الشرطة، وينام ويأكل كيفما اتفق لمدّة عامين كاملين. الغريب أنّ اليأس لم ينَلْ من سني شبابه، بل كان يستمدّ من الضعف قوَّة، ويخلق من اليأس أملاً بأنّه لا بدّ أن يسوّي وضعه يوماً ما. امتدّت له يدُ المساعدة، بعد 6 سنوات من التشرّد. قال له صديق مصري إنه يستطيع الاعتماد على محام إيطالي إذا ذهب وعاش في روما 6 أشهر، ويمكنه الحصول على أوراق هويّة إيطالية، وهو الذي لا يعرف من الإيطالية شيئاً ومن إيطاليا إلّا الاسم.

ركب القطار وهو مدرك أنّ الشرطةَ قد تقبض عليه في أيّ لحظة، بين باريس وروما. فرِح حين شاهد من نافذة مقصورة القطار المناظر الطبيعية الخلّابة بين الدولتين، أغمض عينيه يحلم بكلّ شيء جميل. قال إنّه سيأخذ والديه برحلةٍ إلى إيطاليا، إنْ هو وُفِّقَ في تسوية أوراقه.

تعرَّفت إلى محمّد بعد 5 سنوات من التشرّد في فرنسا، أي قبل عام من رحلته إلى إيطاليا، كان يعمل في ورشةٍ مع مجموعة من المهاجرين المصريين، ولم أرَه مذّاك. منذ يومين، كنت في أحد مقاهي باريس أقرأ عناوين الصحف، عن ثورة مصر، سمعتُ شابًّا يناديني باسمي، التفتُّ ورائي، وإذا بي أرى محمّد ضاحكاً وسعيداً ويقول: «أستاذ سامي، أنا صرت إنساناً، الحمد لله، صرت إنساناً». أخرج

من جيبه بطاقة هويّة، وعانقني. لقد حصل على الهويّة الإيطالية. لم أسألْه كيف، لكنّي فرحتُ من كلّ قلبي.

ثمّة من لا يزال في بلادنا يسأل لماذا يثور الشباب على حكّامهم الفاسدين الذين سرقوا أموالهم وشرّدوهم متسوّلين في بقاع الأرض. لا شكّ في أنّ حظي في فرنسا كان أفضل بكثير من حظ محمّد. لكنّنا نحن الاثنين غريبان عن وطنينا، لأنّنا لم نجد فيهما بعض دفء.

مع أدونيس في مقهى باريسي.

عدت إلى لبنان فما وجدتُ أهلي

حين هوَتْ القذيفة على منزلنا الجبلي الحجري الجميل، انهارتْ حجارته فوق جسد أبي الممزق بالشظايا. نزف الدم من القلب والأطراف، حملتُه بين يديّ، نظر إليَّ بحنانِ الأب المدرك أنّه يودّع كلّ شيء. أغمضهما فأسدل ستار الفرح على حياة عائلتنا الهانئة. وضعَ مقتلُ أبي الجميل الأنيق المرح خاتمةً محزنةً لقصّة حُبٍ جمعتْه وأمّي، صاحبة العينين الخضراوين، والقلب الكبير الذي نجا بأعجوبة من شظايا مماثلة مزّقت جسدها وحبَّها، لكنّها بقيت على قيد الحياة.

كانت عينا أبي تلمعان فرحاً، حين كان يحدّثني عن مستقبلي العلمي، وكيف سيرسلُني إلى باريس لأكمِل دراستي. وكنت أحلم بأن أعود إليه حاملاً شهاداتي وأحلامي لأضعها عند قدميه. عدتُ بالشهادات والأحلام وبحبّي لباريس ووضعت كلّ شيء عند... قبره.

عدتُ أرافق أمّي في سنوات مرضها وموتها البطيء. رحلَتْ لتنضمّ إلى أبي، وفي قلبها قصّة حبٍّ كبيرةٌ، وغصّة أكبر. ربّما لأجلهما أحببت باريس التي فتحت لي أفقاً علمياً ومهنياً كبيراً. ربّما بهما كنتُ أفكر كلّما تقدّمت خطوة صوب النجاح. ولعلّ باريس أحبّتني أيضاً بقدر ما أحببْتها. لعلها رأت في قلبي عينيْ أبي وقلب أمي. صار عندي وطنان، لبنان وباريس.

جيبوتي العربية قاعدة أجنبية

حين غادرتُ لبنان للدراسة والعمل في فرنسا، في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، كنتُ راغباً في الابتعاد عن هموم الوطن وسياسته. ثمّة شيءٌ ما كان يقول لي إنّ كلّ ما عشته فيه، وأنا في مقتبل العمر، من أحلام بتغيير النظام، وإلغاء الطائفية، والوصول إلى المواطنة الصحيحة، بدلاً من الطوائف والقبائل والمذاهب وتجّار السياسة والأحزاب الوهمية والزعامات البائدة الرجعية، كان مجرَّد وهم. فموروث البلد جعل الكثير من ناسه يسيرون كقطعان من غنم خلف زعماء طوائفهم، وإن سعوا لتغييرً المسار عبر أحزاب يحسَبونها منفتحة وثورية، سرعان ما يعودون للسقوط في مستنقع الطوائف والمذاهب عند كل مفترق.

ربّما هجرت لبنان وبي قرف من كلّ شيء. هجرته خائباً، حزيناً على حاله وحالماً بحياة أجمل في فرنسا، لكنّي تركت فيه أمّي التي وقفت عند باب بيتنا باكية لرحيلي، وتركت فيه إخوتي ورفاقاً أحببْتهم وتعلقت بهم، وتركت فيه أرضاً وشجراً وتربة وهواءً، وبيوتنا الحجرية العتيقة، وشوارع في عاصمة راسخة في قلبي ووجداني... قرَّرت أن أعود إليه كلما استطعت، لكنّي عزمت على الابتعاد عن سياسته وسياسيّيه، والاهتمام بمناطق أخرى في العالم، وخاصّة أفريقيا وأوروبا والمغرب، حيث صرت أقرأ عنها وأذهب إليها أُغطّي أحداثها وحروبها من خلال عملي الصحافي.

لم أكن قد عرفت السياسة بعد حين استقلّت جيبوتي، عام 1977، وانضمّت إلى جامعة الدول العربية في العام نفسه. أذكر فقط أنّ لبنان اهتزّ في ذاك العام على وقع اغتيال قائد الحركة الوطنية ورئيس الحزب التقدّمي الاشتراكي كمال جنبلاط. أذكر أيضاً أنّ لبنان كان قد بلغ العام الثالث من حربه الأهلية التي لا يعلم غير الله لماذا وكيف بدأت ولا لماذا وكيف انتهت. كلّ ما نعلمه أنّها قتلت وشرّدت وأعاقت مئات آلاف اللبنانيين ومعظمهم أبرياء وقضت على كلّ أحلامنا، أو لنقُلْ أوهامنا.

لا أدري لماذا وكيف انتبهت إلى جيبوتي لاحقاً. ربّما بعد حرب الخليج الأولى. آنذاك كانت تصلنا أخبار القواعد العسكرية وتحرُّكِها من البحر الأحمر، وكان اسم جيبوتي يُذكر بين الحين والآخر، تماماً كما ذُكر مراراً، خلال المجاعة والحرب في الصومال، وخلال الاقتتال الحدودي بين دول القرن الأفريقي.

كنت أقرأ صحيفة فرنسية، وأنا أتمتّع بصباح ربيعي في مقهى عند ساحة تروكاديرو الباريسية المطلة على برج إيفل. ورد تقرير عن جيبوتي وعن اتفاق سلام بين السلطة والمعارضة وبين القبائل فيها. ما إن أنهيتُ قراءة التقرير حتى قرّرت الذهاب إليها، واكتشاف جغرافيتها وتاريخها وحاضرها وناسها.

دولة يغسل البحر أقدامها

تقع جيبوتي بين إريتريا وإثيوبيا والصومال والبحر الأحمر. وصلتُ إليها ليلاً، بعد رحلة طويلة من فرنسا مروراً بالإمارات. لم أرَ في الليل شيئاً يُذكر. قرأتُ أنّ الفجر والغروب هما من أكثر الأمور متعةً وروعةً لزائر هذا البلد الأفريقي الصغير. نمتُ باكراً، واستيقظتُ نحو الخامسة والنصف صباحاً، على غير عادتي في التأخّر بالنهوض من النوم. فتحتُ الستائر، فكانت نافذتي تطِلُّ على المسبح، ومِن حوله عشبٌ اصطناعي أخضر. رفعتُ ناظريَّ قليلاً لأرى ما يُدهِشُ النظرَ ويمتّع الروح. مساحاتٌ واسعةٌ تمتدّ على مئاتٍ بل آلاف الكيلومترات من الأراضي البركانية العذراء. أشعّة الشمس الأولى تُضيءُ شيئاً فشيئاً، كلَّ الهضاب والتلال ذاتِ اللون القاتم. دخانُ بعض البراكين لا يزال يتصاعد من الفوهات المتعدّدة. يبدو المكانُ كأنّه مجموعةٌ من مدافئ الشتاء في المنازل الجبلية، تنفثُ دخانَها نحو السماء. مساحاتٌ أرضيةٌ تمتدُّ على مدى النظر، تحمل آثار حروقها البركانية. وبين الحقول السوداء أو

الرمادية أو البنّية، تلمع مياه البحيرات العديدة، ويظهر خليج تاجورا. أمّا المساحة الصغيرة الباقية فهي لبيوتٍ قليلة العدد، ومناظر طبيعية هائلة وقاحلة، لكنّها آسِرةٌ جداً. لا يخفّف من قسوة الجغرافيا سوى شجر النخيل.

لعنة الجغرافيا رمت جيبوتي في براثن الاستعمار والحروب، مرّات كثيرةً، عبر التاريخ. حين زُرتُها في أواخر القرن الماضي، كان عددُ سكّانها لا يزيد عن 883 ألف نسمة، وكان إسماعيل عمر غله يتولّى رئاستها منذ عام 1999، خلَفاً لقريبه حسن غوليد أبتديون. ينتمي الرئيس إلى قبائل العيسى، وهو من مواليد إثيوبيا التي تركت أثرها عليه، في شكل وجهِه ولونه. بدا لي الرئيس يتمتع بذكاء حادّ وسرعة بديهة، وكان ودوداً إلى أقصى حدّ.

يُقالُ إنّ اسم جيبوتي جاء تيمُّنا بالصيّادين على أرضها، وبالصيد الذي كان مصدرَ رزقها. ففي الأصل، كان اسمها، وفقَ ما أكّده لي الرئيس نفسه، «جيب-حوتي» والحوت تعني السمك. وقد انضمّت إلى جامعة الدوِل العربية في عام استقلالها. إلّا أنّ كثيراً من العرب لا يعرفون عنها شيئاً، حتى إنّهم لا يعرفون أصلاً أنّها عربية. تقول المراجع إنّ الإسلام وصل إليها في وقتٍ مبكرٍ جداً. فمع هجرة الطلائع الأولى إلى الحبشة، مرّ أصحابُ الرسول بمدينة تجوران الواقعة شمالاً، وبمدينة زيلع، وكذلك بمدن أخرى كبربرة ومصوع الإريترية، حيث زرعوا البذور الأولى للدين الحنيف. إن صدَقَتْ هذه المراجعُ يكونُ الإسلام قد وصل إلى جيبوتي قبل وصوله إلى المدينة المنوّرة. تُفيدُ مراجعُ أخرى، بأنّ وصولَ الإسلام إلى هنا تزامن مع عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفّان، بينما تذكُرُ وثائقُ متعدّدة، أنّه وصل في عهد الدولة الأموية، حين لجأ إليها بعض أهل البيت، هرباً من الاضطهاد. كلّ التاريخ قابِلٌ للتأويل، لكنّ الحقيقة الثابتة هي أنّ الناس هنا مسلمون وفرِحون بإسلامهم وطقوسهم، لكنّهم يحتفلون أيضاً، كلّ عام، بعيد رسمي آخر، هو عيد ميلاد السيد المسيح، في بيئة متسامحة وبسيطة.

كما أنّ الإسلام عريق في جيبوتي، كذلك هو التاريخ العربي. كانت القبائل العربية تجتاز البحر الأحمر إلى القرن الأفريقي، للتجارة، فحملتْ معها الثقافة والعادات والفنون وأصناف الطعام المختلفة. لكنّ الاستعمار الفرنسي الذي ربضَ على قلب جيبوتي نحو 120 عاماً، قضى أو كاد يقضي على كلّ الموروث العربي الذي يتجدّد الآن، من خلال التداخل مع العرب، وإعادة ربط العلاقات التاريخية. لا بل قد نجد حماسةً ثورية واستقلاليةً عند شاعر جيبوتيّ بقامة عبد الوارث آدم، تفوقُ تلك التي يتمتّع بها شعراء العرب الآخرون، فهو يقول في إحدى قصائده:

لقومٍ إلى الأمجاد قد وثبوا

باعوا الإله نفوساً فاشترى عددا

من النجوم إلى الرحمن قد ذهبوا

فأشرقت أشمس العدل التي احتجبت

واستبشرت ولقد اجتاحها الطربُ

أيا جيبوتي عيشي حرَّة فلقد

أبى الرجال سوى عزٍّ له طلبوا

هو كالكثير من شعراء القرن الأفريقي لا يضيرهم أن يكتبوا بلغاتهم المحلية، مثل العفرية، أو الصومالية، أو السواحلية، لكنّهم غالباً ما يتغنّون بانتمائهم العربي. عجبتُ كثيراً في الواقع، حين وصلتُ إلى جيبوتي، كيف أنّ الكثير من أدبائها ومثقفيها ومبدعيها متعلقون بالعرب، بينما العرب لا يعرفون عنهم الكثير، أو يظنّون أنّ الثقافة هنا غريبةٌ عن التراث العربي. لذا، على الأرجح، لا نرى كثيراً من الملحقيّات الثقافية في السفارات العربية هنا. هذا إن كان ثمّة سفارات. سمعتُ من المثقفين

الجيبوتيين عتباً مجبولاً بالحبّ، ولكن بالألم أيضاً، لأنّهم مبعَدون عن معظم المهرجانات والفعاليات الثقافية في الوطن العربي. فلا نعْجَبْ إذاً من أن يقول الأديب والشاعر الجيبوتيّ آدن حسن آدن: «صحيحٌ أنّي من القرن الأفريقي، لكن صدّقني يا أخي سامي، إنّ الجزيرة العربية والحجاز والأردن والإمارات وأسوان وبيروت وبغداد ودمشق في قلبي ووجداني وفي أدبي وشعري وخيالي».

سعى المستعمر الفرنسي إلى قطع صلة الرحم لجيبوتي بكلّ العمق العربي. أطلق عليها اسم: «الصومال الفرنسية»، ثمّ ضيّق الاسم إلى مجاله العرقي والإثني، فسمّاها، خبثاً «بلاد العفر والعيسى»، بُغْيةَ زرع بذور الشقاق والفتن بين هاتين القبيلتين اللتين تنازعتا، ولا تزالان تتنازعان السلطة، في هذا البلد اللطيف.

القبائل سيّدة الحكم

تنقسم جيبوتي في تركيبتها السكّانية إلى ثلاثة أعراق أو قوميات: الصومالية، والعفرية، وذات الأصول اليمنية. من هذه التقسيمات تتفرّع بطون قبائلية أخرى؛ فمثلاً، تنقسم العرقية الصومالية إلى العيسى والكيدبوشي والإسحق. كذلك، تنقسم قومية العفر إلى بطون. ولهذه القوميات أو الأعراق امتداداتٌ في الدول المجاورة، مثل الصومال وإثيوبيا وإريتريا. وكما في كلّ الدول ذات القوميات والأعراق المتنافرة، أو التي دُقّتْ بينها أسافين الفتن، بدعم وتحريضٍ خارجيَّيْن، عرفت جيبوتي منذ مطلع تسعينيات القرن الماضي، حرباً مسلحةً بين السلطةِ ممثَّلة برئيسٍ ينتمي إلى قبائل العيسى، ومعارضةٍ تنتمي خصوصاً إلى قبائل العفر، وتعبِّر عن تطلعاتهم. وقد شهِدتِ البلادُ التطورات التالية:

1991: اندلاع القتال بين السلطة وجبهة استعادة الوحدة والديمقراطية التي سيطرت على ثلثي مناطق الشمال.

1994: توقيع أول اتفاق سلام بين السلطة والمعارضة العفرية.

2001: اتفاق سلام شامل اشترط خصوصاً:

1. نزع سلاح مقاتلي جبهة استعادة الوحدة والديمقراطية.
2. إعادة دمج مقاتليها في الحياة المدنية والعسكرية.
3. إدخال التعدّدية السياسية إلى البلاد.

وكالمعتاد، بعد دقِّ أسافين الفتن بين القبائل والأعراق والقوميات، فإنّ المستفيدَ من ذلك طرفٌ أو أطرافٌ خارجية؛ فبعدما عملت السلطات المحليّة في جيبوتي على شقّ صفوف المعارضة، دخلتْ أميركا بقواعدها العسكرية، لتنهي عملياً أيَّ وجودٍ حقيقي لهذه المعارضة، خصوصاً بعد وفاة قائدِها التاريخي والكاريزمي أحمد ديني. ثمّ كرّت سبحةُ القواعد الأجنبية. لم يكن مفاجئاً أنّي، خلال رحلتي إلى هذه البلاد الوادعة، قرب البحر، وذات الحرارة المرتفعة جداً، كنتُ أرى الكثيرَ من جنود القواعد الفرنسية أو الأميركية، يسهرون حتى الصباح، في علب الليل، والمطاعم والمقاهي التي انتشرت كالطحالب، ناسفةً كلّ التقاليد والموروثات الاجتماعية في البلد الإسلامي.

جيبوتي هبة المرفأ والميناء

لا أدري هل كان بالإمكان قيام دولة فعلية اسمها جيبوتي، لو لم تكن على شاطئ هذا البحر. فكما أنّ مصر قامت بفضل النيل، وصارت هِبتَه، فإنّ جيبوتي قامت وازدهرت بفضل مرفئها ومينائها. كان المرفأ والميناء في البداية، صغيرَيْن جداً، يتّسعان لبعض البواخر الصغيرة، ومراكب الصيّادينٍ الكثيرة. لكن، في السنوات القليلة الماضية، جرت توسعتهما. وها أنا أشاهد أمامي الآن، شركاتٍ عربية

من إمارة دبي، لا تزال تعمل هنا، لجعل الميناء شرياناً حيوياً اقتصادياً هائلاً، بين البحر الأحمر وباب المندب والمحيط الهندي. من هنا بالضبط، صار يمرُّ الكثيرُ من نفط الخليج، والكثيرُ من التجارة من وإلى إثيوبيا وإريتريا والكثير من دول القرن الأفريقي والعالم. اكتسب البحر الأحمر وموانئه في العقود الأخيرة أهمِّية كبرى، لا في التجارة والملاحة الدوليتين، فقط، بل في الأمن الإقليمي والمصالح الدولية أيضاً. فلا عجب أن نلمس اهتماماً متعاظماً للقواعد العسكرية الغربية، ولشبكة العلاقات الإسرائيلية مع الدول المطلّة على هذا البحر.

سألتُ مديرَ إدارة الميناء النفطي، محمّد حسن عبد الله، عن أهمّية ما أرى أمامي، فقال: «إنّ الله بحمده جادَ علينا بنعم كثيرةٍ، ومن هذه النعَم الميناء النفطي والميناء العام. وهو كما ترى، واجهةٌ رئيسةٌ للقرن الأفريقي والحبشة وأواسط أفريقيا. لم يعدْ مثلاً، باستطاعة دولةٍ صديقة كالحبشة (إثيوبيا) الحصولُ على النفط، من دون هذا الميناء، ولا يسعنا إلّا أن نشكر إخواننا العرب، وخصوصاً دولة الإمارات العربية، ورئيسها الحكيم والوفيّ الشيخ زايد [كان لا يزال على قيد الحياة] لمساعدتنا في توسِعة وتطوير المرفأ والميناء، بحيث أصبح الوحيد القادر على احتواء ثلاثة أصناف من الوقود تُخزَّن في الوقت نفسه، أي البترول والمواد الكيميائية والغاز». فهمتُ أنّ هذه الثروة البحرية، عبر الميناء والمرفأ، تؤدّي خدماتٍ لأكثر من 300 مليون شخص في القرن الأفريقي، وتدرّ بالتالي أرباحاً مفيدةً جداً للدولة الصغيرة.

التحرّر والقواعد والنخيل

عرفَت السلطات الجيبوتية كيف تستغلُّ هذه الجغرافيا الفريدة لمصلحتها. حرّرت الكثير من قوانين الاقتصاد. شجعت الاستثمارات الأجنبية. ربطت عملتَها بالدولار الأميركي. سهّلت الحياة الاجتماعية للعاملين على أرضها، والعاملين في القواعد الأجنبية. منحت المرأةَ المسلمة دوراً كبيراً في الإدارات والوظائف والحياة الاجتماعية. حين كنتُ أعبرُ الشوارع في العاصمة، محاولاً اكتشاف كلّ التفاصيل، في البلد الذي أزوره للمرّة الأولى، لاحظتُ سطوةَ المرأة الشرطية في الشارع، ورأيتُ الكثيرَ من النساء المحجّبات أو شبه المحجّبات، بائعاتٍ في محالّ الخضار، والأدوات المنزلية والإلكترونية. وحين أصابني ألمٌ في الرأس، بسبب ارتفاع الحرارة، كان نصيبي طبيبة جيبوتية متخصّصة. انتظرتُ عندها ربعَ ساعةٍ حتى حان دوري، وكان المنتظرون في عيادتِها من الرجال والنساء على السواء. كذلك في الجمارك والإدارة والمرفأ وغيرها، المرأة الجيبوتية حاضرة في كلّ مكان.

لباس الناس في جيبوتي لا يزال تقليدياً ومنسجماً مع الموروثات الإسلامية الأفريقية، لكنّ الإسلام الأفريقي يبقى أكثر انفتاحاً منه في الكثير من الدول العربية والإسلامية. لا ضَيْرَ هنا في محادثة سيّدة في الشارع، لكن إيّاك أن تلتقط لها صوراً من دون إذنها. سيُلقى القبض عليك بتهمة القيام بفعل غير أخلاقي. الزراعة تتطوُّر، بينما الصناعة تكاد تنعدم، لولا النخيل. لا شيء يناقض منظرَ القواعد والسفن الحربية والطائرات المقاتلة الحديثة، سوى شجر النخيل. كأنّ هذا الشجر الذي ارتبط تاريخياً بالجزيرة، وبالتراث العربي، وخصوصاً الخليجي، لا يزال هنا شاهداً على تراثٍ كاد يضيع مرّات عديدة. قصدتُ معهدَ علوم الطبيعة، باحثاً عن كيفية الاحتفاظ بالنخيل، وعن أهمّيته وسطَ كلّ هذه القواعد. قال لي د. نبيل محمّد، مدير المعهد، إنّ الانفتاح على الخارج طوَّر كثيراً زراعةَ النخيل. صار لدى جيبوتي ما لا يقلُّ عن عشرة أصناف من النخيل، تجودُ بأفضل أنواع البلح والتمور، على المستوى العالمي، وتُصدَّر إلى الكثير من دول الجوار والعالم.

القواعد العسكرية الفرنسية هي الأقدم في جيبوتي. ففرنسا كانت هنا قبل نحو 90 عاماً. اضطرّت جيبوتي لتجديد اتفاقية القواعد العسكرية، في عام استقلالها 1977. برَّرتْ ذلك آنذاك، بحاجتها إلى المساعدة في ضمان استقرارها الداخلي، في منطقة مضطربة تعيش حروباً كثيرةً بين الدول المتجاورة. أمّا مبرّر إنشاء القواعد الأميركية، فكان محاربة الإرهاب في تلك المنطقة الحيوية

والحسّاسة.

حين سألت الرئيس الجيبوتي عن مصلحة بلاده في وجود تلك القواعد، وهل استشار مسبقاً أشقاءه في جامعة الدول العربية، للسماح للأميركيين بإقامة قواعده، استنفَرَ كلّ حواسّه. أبدى شيئاً من الامتعاض، ثمّ ضحك وقال: «يا أخي، القواعد موجودة في معظم الدول العربية، هل هناك دولةٌ واحدةٌ من هذه الدول الكبيرة أو الصغيرة، استشارنا أو استشار أشقّاءه قبل إعطاء الإذن؟ نحن جزء من هذا العالم، وكلّ العالم قرّر مساندة أميركا في محاربة الإرهاب، نحن انطلقنا من المبدأ نفسه، وهذا أيضاً في مصلحة استقرار بلدنا».

لفتَني أنّ الرئيس عمر غلة كان أكثر حزماً وحسماً، حين سألتُه عن احتمال إقامة علاقات مع إسرائيل. سارع إلى القول، قبل أن أكمل سؤالي: «يا أخي سامي، كيف تطرح مثل هذا السؤال؟ نحن كبلد عربي وإسلامي وأفريقي، ليست لنا حالياً أيّ علاقة مع إسرائيل، ولا نريد إقامة أيّ علاقة معها في المستقبل، فهم محتلّون لأرضنا العربية، ولن نصافحَهم قبل أن يتحرّر الوطن العربي من العصابات الصهيونية التي لا نعرف لها أصلاً، فبعضُها جاء من روسيا، وبعضها الآخر من حيث لا أحد يعلم». فهمْتُ من الرئيس أنّ إغراءاتٍ كثيرةً عُرِضتْ على جيبوتي، ومنها استثمارات ومصالح، مقابل إقامة علاقات مع إسرائيل. لكنَّ ذلك لم يكن من ضمن الاستراتيجية الجيبوتية، آنذاك، خلافاً للكثير من الدول العربية التي ذهبت إلى إسرائيل بعد مؤتمر مدريد واتفاق أوسلو.

رحت أجولُ في العاصمة الوادعة. أُلقي السلامَ على ناسها الطيّبين، فيردّون السلام بالعربية أو الفرنسية. ركبتُ إحدى عربات «التوك توك»، وهي كثيرة هنا، تَجوبُ الشوارع والأزقّة. مررْتُ بالسوق المركزي، حيث الفواكه الاستوائية ورائحة البخور تُضفي على المكان رونقاً خاصًّا. يوحي السوقُ بأنّه خارجٌ للتوّ من التاريخ: الحوانيتُ الصغيرة كما هي الحال في اليمن أو الصومال، الثيابُ التقليدية للباعة. ابتساماتُ الجالسين أمام أو وسط المحالّ يرحّبون بي، بلُغةٍ عربية. بين الحوانيت، مكتباتٌ صغيرة وقديمةٌ فيها الكثير من الكتبِ التي توحي بأنّ أجيالاً كثيرة مرّت عليها. جلستُ إلى طاولةٍ في أحد المطاعم. كانت الحرارة مرتفعةً والعرقُ يتصبّب منّي. لم تنفعْ مروحةُ تحريك الهواء في تلطيف الحرارة. لكنّي أحببت أن أتغدّى هناك، بين الناس والمارّة والتاريخ الذي لا يناقضه إلّا مرور عسكريَّيْن من العاملين في القواعد العسكرية. المأكولات متعدّدة، تكاد تختصر نكهات مطاعم عالمية كثيرة، من الهندي إلى الخليجي واليمني والصومالي، إلى البرتغالي والفرنسي والبريطاني. فالمطبخ الجيبوتي يجمع وحدَه باقةً لذيذة من دول كثيرة.

ذهبتُ نحوَ بحيرةِ عسل. لم أرَ في حياتي مشهداً ساحراً كهذا المشهد: بحيرةٌ قائمةٌ بين عددٍ من البراكين الخامدة التي لا تزال تنفثُ دخانَها صوب السماء. تنخفض البحيرة ما بين 150 و570 متراً عن سطح البحر. هي ثالث أكثر نقطةٍ انخفاضاً عن سطح البحر، في العالم؛ وهي الأولى على المستوى الأفريقي. لا يناقض لمَعانَ مياهها سوى سوادِ حجارةِ البراكين من حولها. أخذني بعض الأصدقاء إلى خليج تاجورا. تحفةٌ طبيعية نادرة. تلمع في داخله جزيرة خضراء اللون. رأيت فيه بأمّ العين، تحت المياه الصافية، كثيراً من أنواع السمك. طلبتُ أن نغطسَ تحت الماء، لنرى أكثر. في ذلك اليوم، نصحوني بعدم الغطس إنْ لم أكن محترفاً. قال لي المسؤول عن المكان: «من المحتمَل اليوم أن تكون هناكَ أسماك القرش، لكنّك تستطيع أن ترى من هنا الدلافين والحيتان، وإذا أردت مناظر بحرية رائعة، فتعالَ معي إلى هذه الناحية، انظر هنا». نظرتُ، فبهرتْني أنواعُ المرجان والشعب المرجانية ونجوم البحر وحيوانات وأعشاب لم أرَ مثيلاً لها في حياتي. ثمّ عرّجنا على بحيرة آبّيه الساحرة. يرتفع في وسطِها جبلان بركانيّان. تسبح في مياهها، وعند سفوح الجبلين، أنواعٌ كثيرةٌ من البجع والنورس، وأخرى لا أعرف أسماءها، لكنّها بيضاء، تسبح وتمرح بأعداد كبيرة.

اليومَ، وأنا أكتب هذه الذكريات، أقرأ أنّ وزارة الخارجية الفرنسية تحذّر على موقعها، مواطنيها من الذهاب إلى جيبوتي بسبب الخطر. أقرأ كذلك تقارير غربية عن تمدُّد الإرهاب إلى هناك. فُجّر مطعم

معروف وسط العاصمة في عام 2014. اهتزّ التاريخ والجغرافيا. شَدّدت القبضة الأمنية. تضاءل عدد السيّاح. عادت لعنة الجغرافيا إلى الدولة الصغيرة الوادعة. عادت بقوة، ولكن من بوابة الإرهاب العابر لحدود القرن الأفريقي، ولا يهمّه أكان البلدُ مسلماً مسالماً ومعتدلاً أم مسيحيًّا أم لا دين له. حزنت على جيبوتي التي لم يبقَ فيها شيء صامد سوى القواعد، وهي تضطرّ لمسايرة دول الخليج، في الكثير من القرارات حيال دول عربية لا تعرف عنها الكثير، لكي يستمرّ الدعم المالي الخليجي لها. الدولة التي تحرّرت عام 1977 من الاستعمار، تعيش اليوم من قواعد الاستعمار التي تحمي مرافئها والموانئ. أنسأل بعدُ، لماذا تأخّرنا؟

سويسرا: بحثاً عن بنت هوى صارت نائبة وقاضية

في كثير من المساءات الباريسية الممطرة، كنت أشتري كتاباً من مكتبة في منطقة سان جيرمان، وأمضي ساعات طويلة مستمتِعاً بالقراءة على وقع صوت حبيبات المطر المنهمرة على الواجهات الزجاجية للمقهى. هذه الليلة لفتَني كتابٌ فرنسي بعنوان: «شمسٌ في آخر الليل». لم أكن توَّاقا لقراءة كتاب سياسي أو تاريخي أو فكري، بعد يوم طويل من معالجة الأخبار السياسية في الإذاعة الفرنسية التي كنت أعمل فيها. فكرتُ أنّ هذا الكتاب سيكون ممتعاً ومسلّيا، وسيسمح لي، بين وقت وآخر، بمراقبة هطل المطر وتفاعل الناس معه.

ما إن قرأتُ الصفحات الأولى حتى فهمت أنّ الكتاب يروي قصّة سيّدة سويسرية، رمتْها أقدارها في أتون الدعارة في فرنسا، ثمّ أنقذتْ نفسَها وأعادتْ ترميمَ جسدِها وعقلِها، وكافحت حتى صارت نائبة في البرلمان السويسري.

قرَّرت أن أبحث عنها لأروي سيرتَها عبر التلفزيون والإذاعة، ذلك أنّ قضيّة الاتجار بالبشر كانت قد أصبحت واحدة من القضايا العالمية، العابرة للقارّات، ولا سيّما بعد تفكُّك الاتحاد السوفياتي.

كان لا بدّ إذاً، من الذهاب إلى جنيف حيث تقيم صاحبة القصّة والكتاب. لا بدّ من الاستماع إليها، بعد سنوات على مأساتها الإنسانية في فرنسا. لكن كيف السبيل للعثور عليها؟ لعلّها تختبئ خلف اسم مستعار؟ لعلها ما عادت تريد الكلام بأكثر ممّا كتبت؟ كانت لي صديقةٌ فرنسية تعمل في صحافة التحقيقات الاستقصائية، في القناة السادسة في باريس. اتُّصلت بها طالباً منها العَونَ في البحث عن رقم هاتف السيدة. طلبَتْ أن أمهلَها نصفَ ساعة فقط. لم يمضِ نصف الوقت المحدّد، حتى رنّ هاتفي لتبلغني بأنّها وجدتْ كل الأرقام ومكان الإقامة.

رحلة القطار مغرية بين باريس وجنيف. والسيّارة أكثر إغراءً، لكنّها تستغرق أكثر من 5 ساعات، والسرعة في أيّام الثلج محدّدة. أمّا الطائرة التي لا تستغرق رحلتها أكثر من ساعة واحدة، فهي تحرمنا من متعة اللوحات الطبيعية الخلابة. اخترتُ القطار، بلا تردّد. لا أظنّ أنّ ثمّة طريقاً واحداً في هذا العالم يجمع كلّ هذا الجمال ويثير كلّ هذه الدهشة، إلّا هنا. تبدأ الرحلة بمناظر الغابات الخلابة الممتدة على مسافات طويلة. تجتاز السهول التي لا تزال تحتفظ ببقايا الحصاد المبلّل في الجانب الفرنسي. وفي السهول خيول تصهل فرحاً، أو من البرد. فيها أيضاً أبقارٌ وأغنامٌ متعدّدة الألوان والأحجام، ترعى غير آبهةٍ بالمطر الذي كان خفيفاً في ذاك اليوم، فساعد في إذابة ما بقي من ثلوج الأيّام السابقة. حول السهول وبين الغابات، تتعدّد القرى الصغيرة أو المنازل المنفردة كصوفي فوق هضبة، جميعها قرميدية السطح، تبثّ دخان المدافئ من فوق السطوح، ليعانق الدخان غيوم السماء.

ما إن عبَرَ القطارُ إلى سويسرا حتى دخل المشهد في إطار الخيال. أُجاور الحقول، وأرافقُ الأشجارَ المكلّلة بالثلوج، فأجد نفسي أمام جبلٍ أُفرغ الجانب السفليّ منه ليصبح نفقاً. أفكّر بعبقرية المهندسين التي حفرت تحت الجبل أنفاقاً تمتدّ على عشرات الكيلومترات لكنّ الجبل يبقى واقفاً بعنفوانه وحاملاً على ظهره آلاف الأطنان من الأشجار والحجارة والثلوج. أخرج من النفق فإذا بي أحاذي جسراً مفتوحاً تزيّنه قناطر حديدية تطلّ على وادٍ سحيق. في أسفل الوادي نهر يجري ببطء حاملاً كتلاً ثلجية كأنّها أسطول بحري من صنيعة الخالق لا البشر. تنتشر البيوت الجميلة الهانئة بقرميدها أو حجارتها أو أخشابها والوادعة والموحية بطمأنينة الروح فوق الهضاب والروابي والجبال. تبدو الطبيعة هنا، كأنّها خُلِقَت لكي تهدي للناس الفرحَ وراحةَ البال. أفكّر بدولنا وتعاسة الناس، وكفاحهم اليومي للحصول على

لقمة الخبز. لا شيء يصنع الفرق بين هنا وهناك، إلّا أنّه هناك ينتشر وحوش الفساد، واستعبادُ الناس، وهنا يخترعون كل يومٍ سبباً لرفاهية البشر.

ها أنا في جنيف. مدينةٌ تشبه لوحةَ الموناليزا. تضحك لكَ إن كنتَ فرِحاً، أو تصمت بحزنٍ إذا أصابكَ مكروه. هادئةٌ حتى مشارف الملل، وادعةٌ إلى أقصى الجمال. توحي كأنّها امرأةٌ ساحرةُ الجمال. قرَّرت الاستلقاء إلى جانب الماء. والماء هنا يصعد نحو السماء، من بحيرةٍ تتوسّط المدينة، والمدينة توحي بالثراء. فعلى جانبَيْ البحيرة فنادقُ فخمةٌ، ومحالُّ الساعات السويسرية الثمينة والمجوهرات.

كان الطقس بارداً، والمدينة تحمل آثارَ الثلج الذي انهمَرَ عليها قبل أيّام. وكان الجسر الفاصل بين الشارع العام والمطعم الذي يتوسّط البحيرة مزيَّنا بجليد الماء المتدلّي من الأشجار، أو من حافات الجسر. مررتُ بمحاذاة كلّ هذا الجمال، لأصِلَ إلى الفندق الكبير المُطِلّ على البحيرة والمدينة. كان موظفُ الاستقبال بانتظاري، فما إن أعطيتُه جواز السفر حتى ارتسمتْ ابتسامةٌ على محيّاه، واستمهلني لينادي المدير العام. جاء المدير مرحِّبا، هو الآخر، ولكن بحرارةٍ تناقض تماماً الصقيع القارس في الخارج. قال: «أهلاً بك سيّدي العزيز، نحن حجزنا لك جناحاً بأكمله، بحيث تستطيع النومِ والراحة، وإن شئتَ أن تصوِّر فيه حلقةً تلفزيونية، فسنؤمّن لكَ كلّ ما تريد، واسمح لنا بأن نقدّم لك كلَّ هذا بسعرٍ رمزيّ تماماً، وذلك لأنّنا سعداء بأن تكون تلفزتكم عندنا». كنتُ آنذاك أقدّم برنامج «زيارة خاصّةٌ» على شاشة الجزيرة، وكانت القناة القطَرية تشغل الناس وتملأ المدن العربية والغربية على السواء. قلتُ: «أشكر حسن استقبالكم يا سيّدي، ولكن اعذرني، فنحن لن نضع في البرنامج أيّ صورة للفندق، ولا أيّ دعاية، ثمّ إنّ القناة تتكفّل بدفع كلّ شيء، فلا حاجة لأيّ هديّة، تكفيني حرارةُ استقبالكم وترحيبكم». سارعَ إلى القول: «لا، لا، لمْ نقدّم لك هذه الهديّة طمَعاً بدعاية، وإنّما ترحيباً بكم، وكلّ شيء سيكون مجَّانا». عجبْتُ لهذا الكرم غير المعهود عادةً، في الغرب، واعتذرت عن قبول العرض. لكنّني قلتُ له: «سأكتفي من كرمكم بتسهيلات التصوير، أمّا الباقي فأفضِّلُ أن أدفع ثمنه». الغربيون لا يجادلون كثيراً. شكرني وتمنّى لي التوفيق، وقال إنّه جاهزٌ لأيّ خدمة، وفي أيّ وقت، وإنّه سيعطي تعليماته كي يكون كلّ شيء على أحسن ما يُرام.

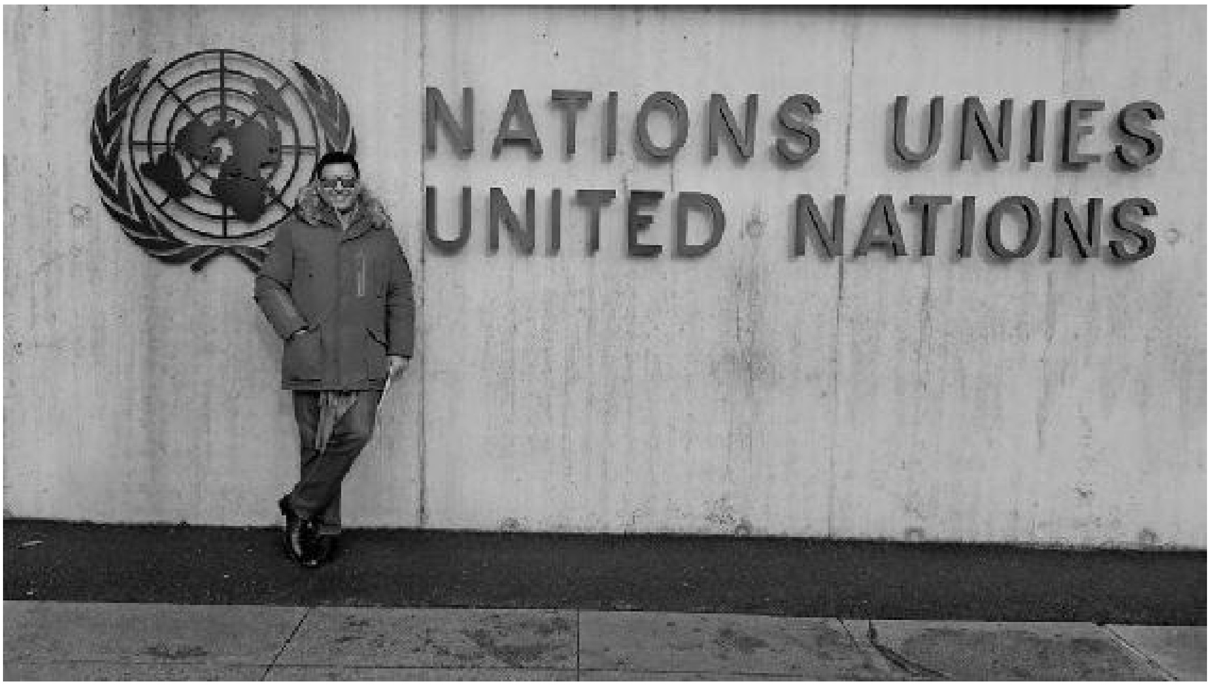

ارتحتُ قليلاً، وقرَّرت أن أكتشف المدينة الساحرة ليلاً. استأجرتُ سيَّارة تاكسي، وطلبتُ من السائق أن يَجولَ بي في أرجاء جنيف. ابتسمَ وقال: «الجولة لن تستغرقَ أكثر من ربع ساعة، فالمدينة صغيرة، لكنّي أنصحك، بعد أن ترى البحيرة من كلّ جوانبها، وبما أنّ الطقس باردٌ، أن تذهبَ للعشاء في أحد

مطاعم جنيف القديمة». وافقتُ فوراً بعدما متّعتُ ناظريَّ بأضواء المدينة المنعكسة على سطح الماء، وبعدما نام النَّوْرسُ والبطّ الأبيضُ عند حافة البحيرة، أو هكذا خُيّل إليّ.

كان أحد المسؤولين السياسيين اللبنانيين قد نصحني بمطعم شهير في المدينة القديمة يقدّم الطبقين السويسريين التقليديين الشهيرين «الراكلات والفوندو». كنتُ دائماً أفكّر لو أنّه ذوّاقة في السياسة، كما هو ذوّاقة في الأكل والثقافة والفنّ، لكُنّا تجنّبْنا الكثيرَ من ويلات الحرب في لبنان. لكن لا بأس، فعلى الأقل نصحني بشيء مفيد ولذيذ. قصدتُ المطعم. وجدتُ أمامه مدافع قديمة تعود إلى عصر الحروب. ضحكتُ. قلت لعلّ السياسي يتذكّر في هذا المكان ويلات الحروب التي كان هو جزءاً منها. عجِبتُ أيضاً لوجود مدافع قديمة في المكان. فسويسرا مشهورةٌ عالمياً بحيادها، وإن زرْتَها، فلن ترى سلاحاً ظاهراً، ولا جيشاً مدجَّجا، ولا شرطةً تحمل سلاحاً. كلّ سويسري مدرَّب على القتال، والسلاح مخفيٌّ في كثير من الأماكن، وكلّ سويسري خفير، بحيث إن رأى أيَّ شيء مشبوهٍ، يبلّغ عنه فوراً، حرصاً على وطنه. أجْرَت سويسرا إصلاحاتٍ كثيرة قلّصتْ بموجبها عديدَ جيشِها، وميزانية دفاعِها، لكنّها سمحتْ بالتعاون مع دول الجِوار، للتدرُّب، بعدما رفضَتْ زمناً طويلاً أن تنخرطَ في أيّ مشاريع عسكرية خارج الحدود، حِفاظاً على حيادها.

جنيف سحر الطبيعة ولكن...

تستلقي جنيف عند الجانب الغربي لبحيرة ليمان الشهيرة، تشتركُ مع فرنسا بحدود طولها 104 كلم، مقابل 4.5 كلم فقط، مع باقي سويسرا. هي أكبر ثاني مدينة سويسرية بعد زوريخ، والأكثر جذباً للسيّاح، وللمؤتمرات أيضاً، بفضل مقرّ الأمم المتحدة وأكثر من 300 منظمة دولية، وغير حكومية، ومنها منظمة الصليب الأحمر الدولي. وبذلك أصبحت جنيف، كنيويورك، أبرزَ مدن العالم في مجال التعاون الدولي والمؤتمرات العالمية والمفاوضات السياسية أو النفطية أو الاقتصادية؛ وفيها تركّزتْ ثرواتٌ عالمية هائلة، بفضل سرّية المصارف. تضمّ سويسرا 27 في المئة من شركات العالم «الأوف شور»، ونحو 200 ألف شركة «هولدينغ»، فهي تُعدّ المركز المالي السادس في العالم، على الرغم من كونها لا تعدّ أكثر من 400 ألف نسمة، في أفضل الأحوال. للعرب، طبعاً، مقرٌّ ماليّ وسياحيّ مهمٌ في جنيف؛ يكفي أن نذكر، على سبيل المثال، اللبناني فيليب جبر، الذي يدير وحدَه، 5.5 مليارات دولار في المدينة.

كلّ هذه الثروات لم تجعل جنيف في مصاف باريس في الحيوية. كنت قبل وصولي إليها، أعتقد أنّها كالعاصمة الفرنسية، تسهر حتى الصباح، وأنّ مطاعمها ومقاهيها تبقى ساهرةً حتى طلوع الفجر. ولكن سرعان ما خاب ظنّي، فالمدينة تفقُد الكثير من حيويتها، بمجرّد هبوط الليل، وتكاد تبدو في نظر مَن اعتاد على العواصم العالميةِ الضاجّة بالحياة والازدحام والأضواء وأماكن السهر، مدينةً عادية جداً؛ حتى إنّها تكاد توحي بأنّها أُقيمتْ خِصِّيصا للذين قطعوا شوطاً طويلاً في الحياة، ويريدون شيئاً من الهدوء والراحة.

أخيراً التقيتها... فبكت

كانت الساعة قد شارفت على الواحدة ظهراً. هذه هي السيدة نيكول كاستيوني، تترجّل من سيّارتها. تسبقها ابتسامتها وأناقةُ لباسها. سيّدة ناضجة أربعينية العمر (مواليد تموز 1958) وجهُها هادئ، عيناها جميلتان، شعرها متوسّط الطول، ترتسم على محيّاها بعض ملامح القلق، لكن لا شيء في شكلها الخارجي يوحي بماضيها المعقد.

مصيبة السيدة نيكول بدأت بسبب الحبّ. تعرَّفتْ في باريس إلى رجلٍ قدّم نفسه على أنّه فارس الأحلام. اهتمَّ بتفاصيل لقاءاتهما الأولى. أغدقَ عليها الهدايا. حاورَها بالثقافة والفنّ. دعاها إلى مرافقته

في رحلة. كانت في ربيع حياتها، وكلّ شيء يضحك لها، ويعِدُ بأنّ الآتي سيكون ساحراً. لم يترك الغرامُ الجامح أيّ مكان للقلق، ولا حتى لمجرّد سؤال عابر أو متشكِّك. سلّمت حياتها للرجل الذي ظنّت أنّه رجل حياتها. صدّقت كلّ ما قال لها. انبهرت بثرائه وكرمه وحبّه للفرح واللهو والسفر والثقافة والفن. هي ليست غبيَّة، ولا ساذجة، لكنّها صدَّقتْ أو قرّرتْ أن تصدّق، أو أنّ الغرام سدّ كلّ منافذ النظر. حينما نُحِبّ، يُفقِدنا الحبّ، في بعض المرّات، أو ربّما في أغلبها، القدرةَ على الانتباه إلى أماكن الخلل.

سارت حياتهما كنهرٍ رقراق لأسابيع قليلة. ثمّ بعد فترة، اقترحَ عليها تعاطي المخدّرات، بُغْية رفع مستوى الرغبة الجنسيّة والفرح بما يفعلان. صدَّقت. تناولتْ أولَ جرعة. كانت مغامراتُ الشباب ونشوةُ اللحظة كافيين لعدم طرح الأسئلة. لكنّ نشوةً عابرة كهذه، سرعان ما تنتهي بكارثة. لم يشذَّ شخصٌ واحد مِمَّن تعاطوا المخدّرات الثقيلة، عن هذه القاعدة. مهما اعتقد أنّه سينجو، فإنّه عاجلاً أو آجلاً، ينزلق إلى أتون الجحيم. كانت بداية الأتون، بالنسبة إلى السيدة نيكول، أنّ حبيبها «الشهم» جاءها يوماً باكياً، يقول إنّه فقَدَ كلّ ماله، ولم يعد يملك حتى ما يشتري به قوتَ يومهما، ولا مخدّراتهما. فوجئتْ السيدة، لكنّها صارتْ، هي الأخرى، بحاجة إلى مخدّرات. اقترح عليها أن تمضي ليلةً مع رجلٍ ثريّ، مقابلَ حفنةٍ من المال. تردّدت. صرخت. رفضت. لكنْ، لم يكن أمامها حيلة سوى ذلك. وهذا ما ظنّتْ، في تلك اللحظات الصعبة، أنّه الحلّ. قبلَتْ المهمّة. ثمّ قبلت مثلها ثانيةً، ثمّ ثالثةً فرابعة... كانت في المرّات الأولى تذهب إلى الفنادق الفخمة أو إلى المنازل الثريّة لزبائنها. لكنَّ حالَها صارت تتقهقر أسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد شهر، حتى وجدتْ نفسَها بنت شارع، تقفُ عند الأرصفة، تنتظر زبائنها، وما عادت تدري كم عدد الذين مرّوا بها، ومرّتْ بهم، في اليوم الواحد؛ تحوّل حبيبها فجأةً إلى «قوّاد» يجمع المال، ويعطيها المخدّرات، أو يضربها، أو يُهينها، حتى أصيبت بمرض خطير.

لم تستطِع مقاومةَ المرض. تدهورتْ حالتها الصحّية كثيراً، وهي التي كانت، حتى الأمس القريب، أميرةً جميلة، مدلَّلةً، ومرغوبة من حبيبها، ثمّ من الآخرين. اتَّصلتْ بأهلها في سويسرا، ونجحت في الهرب من الوحش الذي كان ذاتَ يوم حبيبَها. أدخلها أهلُها مستشفىً سويسرياً، حيث خضعت للعلاج من بقايا المخدّرات في جسمها، واستغرق العلاج أشهراً طويلة. بعد نحو عام من الصراع بين الموت والحياة، وبين الصراخ طلباً للمخدّرات والحقن المهدِّئة، شُفِيَتْ. قرّرتْ أن تطوّي الصفحة نهائياً. دخلت إلى إحدى الشركات موظفةً عادية. ما تتقاضاه اليومَ من تعبِ شهرٍ كامل، لا يساوي بدلَ ساعةٍ واحدة مع رجل ثريّ. لكنّها اختارتْ أن تستعيد نفْسَها وكرامتها وحياتَها. انتمَتْ إلى نقابة الموظفين. ثمّ انتسبتْ إلى أحد الأحزاب اليسارية في سويسرا. ترشّحت إلى الانتخابات النيابية. لم تكذب. أخبرَتْ قصَّتها، لأنّ الكذبَ في السياسة، في سويسرا، يعرِّض النائبَ أو السياسيَّ لتجريده من كلّ صلاحياته. صارتْ نائبةً. أحبَّها الناس. كان أولُ اقتراحِ قانون طرحتْه هو حماية بناتِ الهوى في الشوارع من القوّادين. نالتْ شهرةً كبيرة لم تحلُمْ بها. عَملَتْ كذلك في الإخراج. ثمّ أكملت دراستَها، وأصبحت قاضية.

روَتْ كلّ ذلك في كتابها، لكنّني الآن أتمشّى معها على ضفّة البحيرة الجميلة. تضعُ نظّارتها، وتروي لي تفاصيلَ كثيرة وجديدة لم تذكرها في الكتاب. نتوقفُ عند ساعةِ جنيف الكبيرة، المصنوعة من الورود. نجلس على المقعد الحديدي، تحت الأشجار، قُبالة البحيرة. تُكمِل الحديثَ، وتتعمّق في تفاصيلِ الذكريات والألم. ترفعُ النظّارة قليلاً. تمسح دموعها. تعتذر. أحاولُ أن أغيِّر مجرى الحديث قليلاً. أسألها عن مكان الرجل في حياتها اليوم. تروي لي كيف تعرَّفتْ إلى جارها في المصعد، وكيف أحبّها وتزوّجها، على الرغم من ماضيها، وأنجبت منه ابنتين. أخبرتني كيف صارت حياتُها هانئةً مع رجل حقيقي يفيض حبًّا. سألتُها لماذا كتبتْ مذكّراتها القاسية، وبكلّ هذه التفاصيل. قالت: «لا أريد أن أكذبَ على أحد، ولا أريد لابنتيّ أن تكبُرا وأن تعرفا، من مصدر آخر، ما عشته. أرغبُ في أن تكون قصّتي رادعة للتي قد تختار مثلي، طريقَ الخطأ، وأرغب كذلك في حماية مَن عاشوا ويعيشون ما تعرَّضت

له». سألتها: «هل تستطيعين نسيان تلك اللحظات السوداء». رفعَتْ نظَارتها. التفتَتْ إليّ. سكتَتْ قليلاً كمن يريد البوحَ بسرٍّ عظيم، ثمّ قالت: «تعرف يا سامي، نحن لا ننسى، ولا يمكن أن ننسى، لكنّنا نعرف كيف نخترع، كلّ يوم، لحظات فرح جديدة. الآن سعادتي تكمن في خدمة الناس من خلال منصبي النيابي، وفرحي متعلق بابنتيَّ وزوجي، وقد عدْتُ أؤمنُ بالحبّ، بعدما فقدْتُ ثقتي بكلّ شيء، وكلّ الناس، هذا يكفيني». حينما نهضنا لنكمل سيرَنا، تأبَّطتْ ذراعي، كأنّنا نعرف بعضنا بعضاً منذ زمن طويل، وكان البرد قد بدأ يتسلّل إلى عظامنا، ثمّ قالت: «لا أدري لماذا أخبرتُكَ بكلّ هذا، اليوم». صمتْنا، وأكملنا الطريق، بانتظار أن نسجّل معها حلقة في اليوم التالي.

كانت تلك رحلتي الأولى إلى جنيف، بقيَتْ راسخةً في ذاكرتي، وحاضرةً في كلّ الرحلات الأخرى التي قمت بها إلى سويسرا. عدْتُ إلى زيارة هذه البلاد الجميلة، مرّات عدّة، كانت إحداها لِلقاء مبدع ليبي صار رمزاً كبيراً للأدب السويسري، هو الروائي الفذّ إبراهيم الكوني، الذي سحرني بدقة وصفِهِ للصحراء، في أكثر من خمسين رواية وكتاباً، ونال أهمّ الجوائز السويسرية. وكانت آخرها الزيارة التي غطّيت فيها المفاوضات السورية السورية في العام الخامس للحرب. وبين الزيارتين، زيارةٌ قصدتُ فيها سويسرا برفقة امرأةٍ أحببْتها، فكان الطريق أجمل واللوحات الطبيعية أروع... ثمّة حبٌّ قاتل، ولا ريْب، ولكنّ الحبَّ، عموماً، باعثٌ على الحياة.

من ثلج باريس إلى الدار البيضاء
فجبلة السورية

وصلت إلى باريس صباح اليوم (منتصف شهر شباط/فبراير 2018) في طريقي إلى الدار البيضاء بالمملكة المغربية للمشاركة في معرض الكتاب العريق. كانت هذه آخر رحلاتي قبل أن أسلّم كتابي هذا إلى دار النشر. جذبني إلى عاصمة الأنوار اليوم ثلجها الذي ندر هطله في العقود الماضية. لا تحتاج باريس إلى فستان عرسها الأبيض كي تبدو عروساً فاتنة. ثمّة مدن حباها الله بطبيعة خلّابة ووهبها ساسة ومهندسين عرفوا كيف يبنون بيوتها وشوارعها وجسورها وتماثيلها. في باريس، شيّدوا للمدينة المتاحف والمسارح ودور الأزياء والمحالّ المنظمة المرتبة فأصبحت ثاني أكثر عواصم العالم جذباً للسيّاح بعد إسبانيا، بحيث تستقبل سنوياً أكثر من 32 مليون سائح. عرف الساسة والمثقفون المبدعون في باريس كيف يصنعون من الثقافة والإبداع فيها عوامل جذب. تعلّم الشعب الفرنسي كيف يحفظ لمبدعيه جميلهم، فترى أمام المؤسسات وفوق الجسور وفي الحدائق العامة الخضراء تماثيل الكتّاب والمفكّرين والفلاسفة والمبدعين، لا تماثيل ساسة أو رؤساء أو حكّام كما هي الحال في وطننا العربي. التمجيد هنا يكون لكاتب بحجم فيكتور هوغو أو موليير أو روسو وغيرهم أو يكون لجنود مجهولين قاوموا الاحتلال ولم تُلصَق بهم تهمة الإرهاب، بل صاروا أوسمة على صدور الناس والطبيعة والجمال.

يعلن قائد الطائرة استعداده للهبوط في باريس. أنظر من النافذة صوب السهول الشاسعة والغابات الكثيفة والبيوت القرميدية، فإذا هي مكللة بتاج من ثلج ناصع، كأنّما الله رمى على المدينة وطبيعتها شالاً من صفاء اللون والروح. أشعر بشيء من قشعريرة البرد بمجرّد النظر، لكنّ الدخان المتصاعد من مدافئ البيوت القرميدية العتيقة يعيد إليّ الدفء والفرح.

جلست خلال رحلتي من بيروت بجوار شاب لبناني وزوجته. يبدوان سعيدين بالرحلة من ثلاثين أعوامهما. تعارفنا سريعاً ففهمت أنّهما ذاهبان إلى باريس لقضاء إجازتهما الأولى بعدما بلغ مولودهما الستة أشهر. يبدوان لطيفين لكن على غرار كلّ اللبنانيين هذه الأيّام، يشكوان من قرف السياسة ومن الفساد والقهر ومن بلوغ التلوّث درجة مضاعفة السرطان 3 مرات. تمنّينا نحن الثلاثة ألّا يصوّت اللبنانيون قريباً لمن يقتلهم.

على يساري كان رجل دمشقي سبعيني العمر يبتسم لي. سألته عن وجهته فقال كندا. هو يعيش هناك منذ 20 عاماً. لكنّه لم يقطع زياراته لسوريا برغم كلّ ما حصل. يخشى أن لا يعود المهاجرون السوريّون بسبب الحرب. يبدو قلقاً على وطنه وحزيناً على ما آلت إليه أوضاعه... كان جالساً شبه متعب على كرسيّه. يتكئ قليلاً على عكّازه الخشبي الأسود. سألته إن كان مريضاً أو بحاجة لأيّ مساعدة. ابتسم شاكراً وقال: «لا أحتاج إلى شيء الحمد لله، أعاني فقط بعض الألم في ظهري، وحضرتك تعرف المجتمعات الغربية حين يرون معك عكّازا في المطار أو وسائل النقل العام يهرعون لمساعدتك وفتح الطريق لك». سألته هل يفكر بالعودة للعيش في سوريا. برقت مقلتاه بما يشبه الدمع، وقال: «يا حسرتي على سوريا. أنا ابن دمشق، أحمل بلدي في قلبي ودمي وشراييني وأبحث كلّ يوم عن بصيص أمل كي أعود... لن تجد يا أخي سامي سوريًّا واحداً يحب أن يعيش في غير سوريا، لكن لعنة الله على من أوصلنا إلى هنا. إنّها مؤامرة لتدمير بلدنا الغالي». ثمّ صمت ونام طيلة الرحلة وأنا أنظر إلى شعره الأبيض وجسده المتعب فوق السمنة الزائدة، وأدعو له أن يستطيع العودة يوماً ما ويسهم في إعادة بناء النفوس قبل الحجر.

خرجت من المطار متحمًّسا لرؤية ثلج باريس. مذ كنت طالباً هنا قبل أكثر من ربع قرن لم أرَ هذه

الكثافة من الحلّة البيضاء. ركبت سيّارة تاكسي. كان السائق عشريني العمر. يبدو من أبناء الضواحي الفرنسية. قلت له مقصدي، ثمّ أضفت: «رائعة باريس بهذا الثلج». سوّى قليلاً المرآة الأمامية كي يستطيع رؤيتي جيداً. ثمّ قال: «ليست رائعة ولا جميلة، نحن لسنا معتادين على الثلج هنا، ولا نعرف كيف نسير في الشوارع، وكثير من الناس أمس لم يصلوا إلى بيوتهم». ضحكت وقلت له: «يا سيّدي العزيز، أنتم الفرنسيّين دائمو التأفّف، وهبكم الله أجمل ما عنده ولا تعرفون التمتّع بهذه النعمة». ابتسم على غير عادة الباريسيين في مثل هذه الحوارات وقال: «ربّما معك حق، فأنتم في بلادكم تعيشون حروباً، ونحن هنا إذا نزل المطر نتأفّف وإذا ارتفعت الحرارة نتأفّف». ثمّ ضحكنا وما عدنا حكينا شيئاً حتى وصلت إلى المنزل...

تعبت قليلاً من رحلة الفجر. تتازعني شعوران. هل أنام قليلاً ثمّ أصحو بعد الظهر للتمتّع بجمال الثلج في باريس وحول برج إيفل الشهير؟ أم أذهب الآن للسير والتمتّع بالشمس التي اخترقت الغيوم وجاءت بدفئها المناقض تماماً للثلوج؟ كان راديو السيّارة قبل ترجّلي منها ينذر بمزيد من الثلج الليلة. فاخترت أن أنتهز فرصة الشمس المؤقتة وأن أحمل كاميرتي لأنقل بعضاً ممّا رأيت.

وما رأيته كان بهيًّا وباعثاً على الراحة والفرح. لكن لم أتمتّع طويلاً بما أرى من بهاء المدينة تحت شال الثلج، ذلك أنّ رحلتي إلى المملكة المغربية هذه المرّة ستكون عند الفجر.

استيقظت عند الفجر لأرى الشوارع تحت بيتي الباريسي مغطّاة كلياً باللون الأبيض. تذكّرت قريتي الجبلية اللبنانية. هي أيضاً تلبس الثوب الأبيض في مثل هذه الأيّام. حافظت الطبيعة على وحدة الجغرافيا، فينهمر ثلجها على المدن العريقة والجبال النائية، وتشرق شمسها فوق الفقراء والأغنياء، بينما قتل البشر الانسجام مع الطبيعة وفي ما بينهم، فاخترعوا صراع الحضارات وأقاموا الجدران العازلة...

لم أتوقع أن تتأخر طائرتي في مطار أورلي الفرنسي 7 ساعات. حال الثلج دون إقلاعها. لم أتأفّف، فأنا معتاد في رحلاتي عبر العالم، أن أتوقع كلّ شيء، وأن أحضر نفسي لكلّ طارئ. أحمل في حقيبتي كتباً متنوّعة وكمبيوتري، فأقرأ وأكتب بمتعة كبيرة مهما طال الانتظار. لكنّ تأخري اليوم سمح لي بقراءة كلّ الأخبار العاجلة عن إسقاط طائرة إسرائيلية بصواريخ سوريّة. غريب هذا العالم كم يتشابه في وحشيته وكم يبتعد عن المحبّة والتسامح. تذكّرت رحلتي الأولى إلى باريس وأنا تارك خلفي بلدي الممزّق بفعل الاجتياح الإسرائيلي والحرب الأهلية، وها أنا بعد أكثر من 30 عاماً، أقرأ الأخبار نفسها عن حروب ودمار وهمجية.

ها أنا أجلس في صالة الانتظار مع الذاهبين إلى المملكة المغربية، وفي جواري يجلس الذاهبون عبر طائرة «العال» الإسرائيلية إلى إسرائيل أو إلى فلسطين المحتلة. كلما تقدّم بنا العمر، نزداد تباغضاً وتناحراً. أفكّر بأنّ في جواري ربّما مَن يقصف بلدي. وربّما بين الركاب من أسهم بقتل أهلي في عام 1982، ويسهم بقتل وظلم الشعب الفلسطيني. لكن قد يكون بينهم أيضاً من يدعو إلى السلام ويناهض المستعمرات والاحتلال والجور. هل خُلقنا فعلاً لكي ننتهي في مزاد صراع الحضارات والثقافات والأديان؟ أليس في هذا العالم عقلاء يعرفون كيف يصنعون السلام، فتعود الأرض لمن سُلخت منه، ويتّسع المكان للجميع؟ هل ننتظر قروناً أخرى مقبلة حتى نقرّر أنّ على هذه الأرض ما يستحق الحياة لا فقط الموت أو الشهادة أو الانتحار.

وصلت إلى المملكة المغربية في ساعة متقدّمة من الليل. قرّرت أن أنام كي أرتاح من تعب الرحلة. تابعت قليلاً قضيّة إسقاط الطائرة الإسرائيلية لاعتقادي بأنّها تؤرّخ لتغيير بعض موازين القوى، وقد تدفع إسرائيل إلى التفكير يوماً ما بسلام حقيقي بدل غرور التفوّق. شربت قليلاً من الشاي المغربي بالنعناع ونمت حتى الصباح.

ها أنا أفعل الآن ما كنت أقوم به قبل سنوات مع كلّ زيارة للدار البيضاء. أسير في جادة «أنفا» الزاخرة بالمطاعم والمقاهي والمتاجر وبعض الأشجار. كانت الشمس ترسل أشعّة دفئها الصباحي فيرتفع بعض البخار من واجهات المحالّ التجارية ونوافذ البيوت والجدران البيضاء. كلّ شيء ينبئ بيوم جميل في العاصمة الاقتصادية للمملكة العريقة بحضارتها وجمالها وتاريخها، والأصيلة بمحبّة ناسها وتعلّقهم بالقضايا العربية وفي مقدّمها فلسطين...

أسير هنا حاملاً حقيبة صغيرة على ظهري، وكتاباً عن العلاقات الأميركية المغربية، أتأمّل تفاصيل المدينة كمن يريد التقاط كلّ تفصيل لتخزينه في ذاكرتي... أشعر بشيء من السعادة التي تدخل أوكسيجيناً كثيراً إلى الرئتين وتُفرح القلب، لسبب لا يعرفه إلّا مَن أحبّ مدن العالم وهام في شوارعها حاملاً في قلبه محبّة الناس ورغبة في الاكتشاف والمعرفة... هذه ربّما المرّة العشرون التي أزور فيها الدار البيضاء، ولكنّي في كلّ مرّة أشعر بأنّي أكتشفها من جديد كعاشق التقى بحبيبته بعد فراق طويل...

كنت أهيم سعيداً في المدينة حين سمعت شخصاً ينادي «أستاذ سامي، أستاذ سامي» لم أصدّق ما سمعت. صحيح أنّي اعتدت في المغرب وغيره من العواصم أن ألتقي بأناس يعرفونني من خلال التلفزة، لكنّي تحديداً في هذا الصباح المشمس كنت شبه مقنّع الوجه خلف نظّارة شمسية سميكة وأوحي في ملبوسي وشكلي بأنّي مغربي بسيط يسير في شوارع مدينته.

سمعت المنادي مرّة ثانية يذكر اسمي. التفتّ إلى الخلف، فإذا برجل باسم المحيّا قطع الستين من العمر، يسوّي نظّارته الطبيّة ويسألني: «ألست الأستاذ سامي كليب؟»، ابتسمت فوق تعجّبي وقلت: «بلى». قال: «والله أنا أتابعك منذ فترة طويلة وأحبّ برامجك». أخذ نفساً عميقاً ثمّ تابع: «أنا سوري الأصل مغربي الجنسية. كنت مع ابنة أخي نشرب القهوة معاً هنا في المقهى خلفنا حين لمحتك. ألديك قليل من الوقت لمشاركتنا قهوتنا، هذا سيسعدني».

رحّبت به وشكرته على متابعة برنامجي، وقبلت دعوته بكثير من السعادة. كيف لا أقبلها من رجل عبّر عن كلّ هذه المحبّة دفعة واحدة؟ كيف لا أقبلها من رجل سوري يقيم هنا منذ عقود؟ لا شكّ في أنّ عنده قصّة فريدة رمته في هذه البلاد البعيدة.

جلسنا نحن الثلاثة إلى طاولة المقهى القائم عند حافة الجادة الجميلة. سمعت واحدة من أجمل قصص حياتي قد تصلح يوماً ما رواية أو فيلماً سينمائياً، أو بكل بساطة، يمكن أن تصبح نموذجاً يُحتذى لقصّة نجاح في هذه الحياة المعقدة، فتبعث الفرح عند من عاشها وتغري من يرغب في أن يحذو حذوها...

اسمه هاني يوسف. ترعرع في عائلة بسيطة في منطقة جبلة السورية. قاده حلم الشباب لأن يركب باخرة لنقل النفط قاصداً فرنسا. لم يكن في جيبه أكثر من 90 دولاراً بسبب تواضع الحال. توجّه إلى مدينة ليون الفرنسية لدراسة الهندسة. عمل في مهن متواضعة. باع الصحف على أرصفة المدينة الفرنسية. عمل نادلاً في المقاهي والمطاعم حتى حصل على إجازة في الهندسة المعمارية. تعرّف إلى فتاة مغربية أحبّها فأغرته بلادها وقرّرا العيش في المملكة. لا يحق للأجنبي العمل في المغرب بدون إذن خاصّ أو بدون جنسية. عمل في إحدى البلديّات موظّفا بسيطاً. لكنّ صدف الحياة وربّما إرادة النجاح أو رضى الله والوالدين قدّمت له المجد على طبق من ذهب...

اختارته البلدية للعمل على مشروع في مدينة مغربية جاء منها وزير الداخلية ذو النفوذ الكبير آنذاك إدريس البصري. تشاء الصدف أنّ الملك الراحل الحسن الثاني رأى المشروع وأعجب به فطلب أن يلتقي بمن وقف خلفه. حضر الشاب هاني يوسف وراح يشرح بالفرنسية. طلب منه الملك أن يتحدّث بالعربية ففعل. حين سمع لكنته الغريبة سأله: «أنت لست مغربياً؟» قال: «لا، أنا سوري». رحّب به الحسن الثاني لكنّه قال له: «تعرف أنّك بحاجة لأن تكون مغربياً كي تعمل على مثل هذه المشاريع». أجابه الشابّ السوري: «والله يا سيدي أنا طلبت الجنسية منذ سنوات وأنتظر الحصول عليها». نظر الملك إلى وزير داخليته طالباً منه أن يمنحه الجنسية في أسرع وقت. هذا ما حصل فعلاً. منذ تلك اللحظة، فُتحت أبواب المجد أمامه. راح يعمل على مشاريع هندسية ناجحة جداً، وترقّى في الوظائف حتى صار ربّما أول مغربي من أصل أجنبي يصل إلى منصب «حاكم». صارت له شهرة كبيرة. حصل على تكريم نادر من غرفة الهندسة المغربية. حصل كذلك على تكريم من العرش وصارت له صلات قويّة مع كبار القوم...

روايته غنيّة جداً. وفيها تفاصيل كثيرة، فهو مهندس لامع، وحاكم سابق، وشاعر له ديوان جميل، وأديب رفيع، لكنّ الأهمّ من كلّ هذا أنّي حين رأيت بساطته وتواضعه، فهمت أنّه رجل من طينة باتت نادرة في أيّامنا...

سألته ونحن نتجاذب أطراف الحديث الممتع عمّا إن كان راغباً في العودة يوماً إلى بلاده والمشاركة في إعادة إعمارها نظراً لخبرته الطويلة في المشاريع الهندسية المهمّة وبناء المدن، فسارع إلى القول: «هذا حلمي، أنا أحلم فعلاً بأن أسهم في إعادة بناء بلدي الأصل وأن أمدّ جسور المحبّة بين وطنين أحببتهما وتعلّقت بهما... والله أنا أحزن شديد الحزن على سوريا، وأتابع أخبارها لحظة بلحظة، وكلّي أمل بأن تعود أجمل».

اتفقنا على أن نلتقي بعد يومين لنكمل حديثنا. ذهبنا إلى شاطئ البحر نتناول الغداء. ثمّ سرنا في الشوارع والأحياء والأسواق القديمة في الدار البيضاء. توقفنا تحت باب مسجد وبيت قديمين وعريقين عند باب منطقة «الحبوس» في المدينة العتيقة. قلت له: «تعرف يا أخي هاني، هنا كما في دمشق، تحت كلّ حجر قرونٌ من الحضارة والثقافة والإبداع، وقرون من الغزو والبرابرة الذين جاؤوا يدمّرون كلّ شيء، لكنّ روح المدن لا تموت، بل تعرف كيف تجدّد أجسادها وتركل الغزاة، أليس القدر هو الذي شاء أن يكون مكتبك في المغرب في الغرفة نفسها التي سكن فيها القائد الفرنسي ليوتي؟» صمت. نظر صوب قبّة المسجد. لمحت في عينيه دمعتين...

هائم في بلاد الغرب أبحث عن وطني والله عن الحب والإيمان والكفر

انهمرت حبيبات البرد على رأسي. تركتها تذوب وتنزلق على وجهي. لم أمسح منها شيئاً. ثمّة شعور بحرّية استثنائية حين تمطر السماء على رأسي في تلك المدن والأرياف البعيدة الرائعة. يشتدّ وقع الحبيبات على الأرض. تنزل وتذوب. ثمّ تنزل ولا تذوب. تكسو الإسفلت باللون الأبيض ثمّ يستعيد الإسفلت لونه. يتعاقبان كالموت والحياة، كالفرح والحزن، كالانتصار والانكسار. ثمّ يعود اللون الأسود. تكبر الحبيبات. أسرع كما الكثير غيري للاختباء تحت أيّ شرفة من شرفات تلك البيوت الهائنة بين الجبل والبحر. تسرع حسناء محاولة اجتياز الطريق. تطلّ الشمس المخادعة من بين غيمتين. ينزلق منها شعاع. يقع على الشعر الأشقر الذهبي فيلمع. يبدو الشعاع كمن يطلق آخر محاولات الدفء على الطبيعة الغارقة بنعيم الشتاء هنا. يا الله! لماذا تضفي كلّ هذا الرونق على هذي البلاد المكلّلة بالجمال والمزنّرة بروعة ما صنعت، وتترك بلادنا غارقة في بحر الدماء والاقتتال والجهل. هم هنا ينعمون بما أبدعتَ ويجمّلونه، وهناك يتفنّنون بقتل ما صنعتَ ويذبحونه. لستَ أنتَ من يفرّق بين صنيعه، لعلك يئست من جهلنا فتركتنا ندفع ثمن أكلنا التفاحة مرّة ثانية...

يتوقف سقوط البرَد قليلاً... أتحسّس شعري فأشعر ببعض الحبيبات رافضة الذوبان. أسير فتسقط. أتأمّلها في هلاكها النهائي على الإسفلت. يموت الأبيض فينا لينتعش السواد. صارت بلادنا مآتم خلف مآتم. أسمع أنين البرد يتكسّر تحت حذائي الشتوي، تماماً كما تكسّرت كرامات كثيرة في أوطاننا بفعلنا وفعل الآخرين بنا. أهل الجهالة عندنا يصفون هذه البلاد الرائعة هنا ببلاد الكفر. فالناس هنا ما عادوا يذهبون إلى الكنائس كلّ أحد، وما عادوا يؤمّون الصلاة خمس مرّات في النهار. لكنّك يا إلهي لا شكّ أكثر جمالاً ومحبّة وتسامحاً في قلوب الكثير ممّن هم هنا. لا يمكن أن تكون هذه بلاد كفر وأنتَ الذي تنثر فيها وعليها كلّ هذا الجمال... الثلج الجميل هنا، تماماً كشمس شاطئ ريو في البرازيل، يذكّرنا بروعة صنيعك. هناك على ذاك البحر الحافظ أجمل قصص الحبّ يذهب الناس مساءً إلى قدمي تمثال السيّد المسيح لملاقاة ربّهم والابتهال إليه وهم شبه عراة. لعلّ إيمانهم العاري هناك أكثر عمقاً من إيمان أولئك الذين غطّوا أجسادهم وقلوبهم بالأسود والجهل والدماء هناك.

تصحو السماء قليلاً. يرتاح المطر. يسرع العابرون الخطى صوب مقاصدهم. يحلو لي أن أتوقّف وسط الطريق. لا رغبة عندي في التقدّم أو التراجع. أكاد أناجي الزمن أن يتوقف هنيهة. تركت هاتفي في بيروت. جئت لأنسى. تراكمت القصص فوق القصص. ففي بلاد «الكفر» مساحةٌ بعدُ للفرح، وفيها أطبّاء لا يزالون يذهبون كلّ عام إلى فلسطين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وبلسمة جراح شعب منسيّ. وفي بلاد «الكفر» لا يزال ثمّة من يترجم أدبنا وشعرنا فيحفظه حيث نسيناه وأهملناه. وفي بلاد «الكفر» أرى كثيرين يجمعون ما تيسّر لهم لمساعدة لاجئي بلادنا. وما أكثرهم بذلّهم هذه الأيّام. وفي بلاد «الكفر» يضحك الناس ويفرحون ويتمتّعون بكلّ الفصول، ونحن اخترعنا ربيعاً أغرقناه بالدم والفتن وعدنا إلى خريف الجهل.

ها نحن يا ربّنا في بلاد منشأ الأديان السماوية، في مهد التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، نتفنّن في اختراع أبشع طرق المذابح. ها نحن نزيّن لأنفسنا انتصارات وهمية باسم الدين والدين براء. نراكم الجثث على الجثث فنحيل جمال ما صنعتَ إلى مقابر للبشر والحجر والضمائر.

عذراً يا إلهي إن جئت إلى بلاد «الكفر» لأقترب منك أكثر. فهنا لن تلهيني عنك دماء ولا جهل ولا قتل ودمار. وهنا سأرى الطبيعة التي أبدعتها لا تزال أجمل وأهدأ ضاجّة بالحياة والفرح... فأتصالح مع نفسي ومعك.

سأسير في الشوارع بين البيوت القرميدية السطوح. سأتأمّل تصاعد الدخان من مدافئها. سأسمع صوت الثلج يتكسّر تحت قدمي. سأتنفّس ملء الرئتين وأنا أمرّ تحت الأشجار الحبلى أو المكلّلة بالثلوج. فلتتساقط حبيبات البرد على رأسي. لا بأس. هنا أشعر ببعض حرّية وفرح وأخزّن كثيراً من الأوكسجين قبل أن أعود إلى بلاد صدّرت إلى هنا الحرف في غابر التاريخ وتبحث الآن عن دولة تقبل أن تصدّر إليها نفاياتها وإرهابييها...

أنت وحدك يا إلهي تعرف أين الإيمان الحقيقي وأين الكفر. فبعض البراقع واللحى يخفي خلفه كفراً أكثر من صدر امرأة عارية عند البحر أو حسناء تقبّل حبيبها فوق الثلج...

يقيني بك يزداد هنا بمجرّد أن أفتح نافذة غرفتي وأرى كلّ شيء أبيض كقلب صوفي ما عرف غيرك.

عصفورٌ غيّر حياتي

كنت مع أبناء أعمامي نصحو قبل الفجر قاصدين صيد العصافير. ليس من عادتي الاستيقاظ باكراً فأنا من نمط يؤثر العمل ليلاً حتى لو كان الصبح أجمل. لكن في مراهقتنا ومطالع شبابنا كانت رحلة الصيد جاذبة لنا، ممتعة وبسيطة، لكنّها تَعِد بالكثير. كنّا نمضي طيلة اليوم الذي يسبق رحلة الصيد بشراء الخرطوش وتحضير الملابس، وعدم نسيان عدّة تنظيف البنادق ولا تلك السلاسل الصغيرة التي نعلق بها العصافير الشهيدة. أقول شهيدة لأنّها فعلاً كانت بريئة وفي مقتبل أعمارها، لكنّنا كنّا نتلذّذ بصيدها وإقامة المأدبة بها وحولها.

يأتي ابن عمّي، وهو الأكثر حماسة للصيد، باكراً إلى منزلنا القروي العتيق. يدلف من خلف المطبخ عابراً الحديقة، ويطرق خفيفاً على نافذة غرفة نومنا أنا وإخواني. في تلك الصباحات فقط أكون قد سبقت الجميع إلى ارتداء ثياب الصيد والتزنّر بجعب الخرطوش وتحضير بعض سندويتشات اللبنة والزعتر، ووضع قليل من الملح في أحد جيوبي. كان هذا كافياً لقضاء يوم ممتع... لنا طبعاً لا للعصافير.

كان هذا القليل في جعبتنا يكفي. ففي جبالنا الخضراء الغنّاء، تهدينا الأرض كلّ ما شئنا. نقطف البندورة (الطماطم) والخيار أو نقتلع البصل والبطاطا والثوم من أرضنا أو من أرض جارنا، لا بأس فالكلّ يرحّب. نوقد ناراً في أعالي الجبل قرب عين ماء صافية، ونكون قد نتفنا ريش العصافير التي اصطدناها ونظّفناها وباتت جاهزة للشيّ. نأكل ما طاب لنا، ثمّ نقطف بعض تفّاح وعنب وتين، ويهدينا جارنا الشيخ المزارع قليلاً من العسل، فتكتمل مائدتنا بكلّ ما لذّ وطاب.

قبل الغداء العظيم، كنّا نجوب الجبال سيراً على الأقدام. نقطع من جبل إلى جبل. ننزل إلى الوادي ثمّ نصعد إلى القمّة. نلاحق العصافير كيفما ذهبت وطارت وغطّت. نتسلّل خلفها. ننصب لها الفخاخ الدائرية فتتساقط بخرطوش بنادقنا، وغالباً ما تكون الخرطوشة أكبر من العصفور. لم تكن معنا كلاب لجمع ما سقط، بل كنّا نُدخل أيادينا الطريّة تحت الشوك وبين شجيرات الوزال أو جبّ الطيّون الذي يلتصق بأيدينا، فنضحك ونلتقط العصفور الشهيد ونعلّقه بـ«المشكّ» ونكمل صوب عصفور آخر.

كنّا في سيرنا في تلك الجبال الرائعة، نتبع خطى أجدادنا وأسلاف أجدادنا الذين رسموا الطرقات بأقدامهم الصلبة حين كانوا يزرعون هذه الأرض الطيّبة بالقمح والحبوب والخضار والفواكه. يعملون طيلة الربيع والصيف، ويتسامرون في الشتاء حول مواقد النار الدافئة والقلوب الدافئة وأخبار وقصص تجعل لياليهم تحت مصابيح الزيت أكثر سعادة وهناءً من فايسبوك وتويتر وواتساب وكلّ تلك الوسائل التي نسمّيها وسائل التواصل الاجتماعي وهي التي قتلت فينا سرّ التواصل الروحي...

إذا التقينا في سيرنا بمجموعة أخرى من الصيّادين القادمين من قريتنا أو من القرى المجاورة، نسارع

إلى تبادل التحيّات الصباحية الحميمة. نشعر فعلاً بسعادة اللقاء، فنجلس جميعاً نتحادث ونضحك أو نسخر ممّن لم يقتل عصفوراً واحداً، ثمّ نتقاسم ما لدينا من مأكول ومشروب، ويتقاسم المدخّنون ما لديهم من سجائر على عادة أهل القرى المتواضعي الحال والكبار النفوس والمعروفين بعادات الكرم ولو قلّ المال...

بقينا على هذه الحال سنوات طويلة. نفرح بما نصطاد، ونجوب قريتنا حاملين ما بقي معنا من شهداء العصافير لكي يرى أهلنا بطولة ما فعلنا. لكنّ الكارثة الإنسانية وقعت في واحد من تلك الأيّام الجميلة... كنت ألاحق آخر العصافيرِ في ذلك الصباح الربيعي قبل أن نعود إلى القرية. توقّف على رأس غصن شجرة، فبان جسده كاملاً أمامي حتى كدت أرى عينيه. صوّبت بندقيتي صوبه، مسحت عرقي وأطلقت. هوى كجلمود حجر صغير. ركضت للقبض عليه وتعليقه فلم أجده. بحثت تحت الشجرة فوجدت قطرة دم على إحدى وريقات جبّ تحتها. بحثت داخل الجب فلم أجد شيئاً. نظرت إلى يميني فإذا بجسده الصغير يرتجف خوفاً تحت حجر رغم دفء الصباح الربيعي. اقتربت منه، ازداد ارتجافاً أو هكذا خُيّل إليّ. نظرت إلى عينه اليسرى فكانت كمن ينشد الرفق أو الرحمة، أو هكذا خُيّل إليّ.

مددت يدي صوبه فتراجع حتى اصطدم بما خلفه. أخذته بيدي. نظرت إليه مرّة ثانية، ثمّ هرولت نزولاً صوب قريتنا. رميت كلّ ما في يدي في مطبخ البيت. وذهبت أبحث عن دواء لبلسمة جراحه. بقيت إلى جانبه طيلة اليوم، لم يشأ الأكل في البداية. لامست ريشه برفق، فشرب قليلاً من المياه، ثمّ هدأ جسمه وما عاد يرجف. قدّمت له بعض حبيبات القنبز فنقرها. وضعته في علبة ونمت إلى جانبه. حملته صباحاً صوب الجبل، وأعدت إطلاقه.. طار، ثمّ حط على رأس الشجرة. ابتسمت له، ورفعت يدي مودًّعا ومعتذراً. ابتسم، أو هكذا خُيِّل إليّ. وأقسمت أن لا أصطاد أبداً وأن لا آكل عصافير بعد اليوم. حافظت على القسم.

أكتب الآن هذه القصة وأنا أفكّر، ماذا يفعل مطلق الرصاص لو نظر إلى عينَيْ ضحيّته وهو لا يزال على قيد الحياة... ربّما ما عاد فينا أيّ مكان للرحمة. ربّما هذا هو بالضبط ما يُراد له أن يكون عصر التواصل الاجتماعي وهو في الحقيقة عصر التقاتل القبلي...

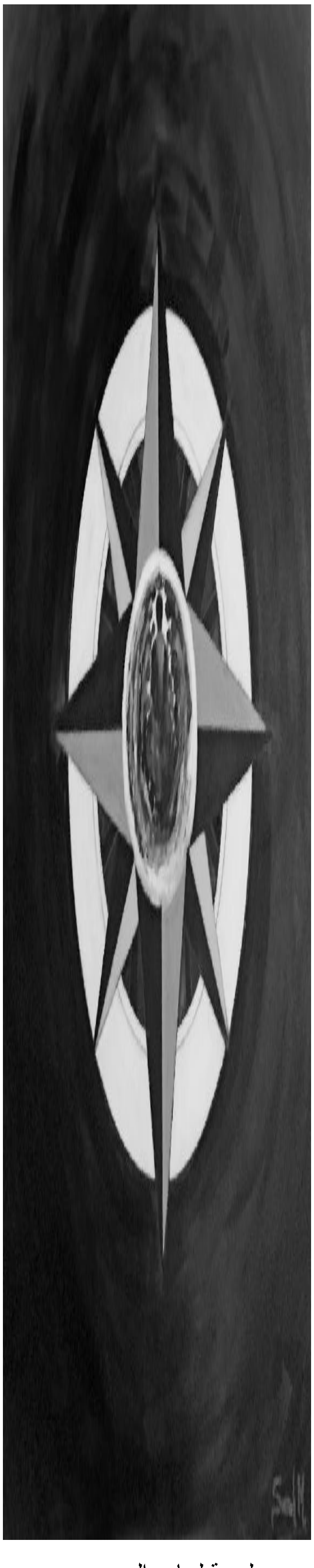

لوحة لساره الموسوي.

خاتمة

لعلك يا عزيزي القارئ تتساءل الآن، وأنت تطوي آخر صفحة من هذا الكتاب، لماذا لم أُكمِل الحديث عن رحلاتي إلى دول أخرى في العالم، أو لعلّك اكتفيتَ بما قرأتَ. أمّا أنا، فأشكر الله أنّي عشتُ حتى أضعَ شيئاً من قلبي وروحي وعقلي وذكرياتي على هذه الصفحات التي أعتبرها أفضل ما فعلتُ في حياتي. كنت أفكّر دائماً بأنّ الحروب التي غطّيتها بوصفي صحافياً، أو مئات الطائرات التي ركبتها خلال رحلاتي، أو المناطق النائية والخطيرة التي قصدتها، قد تقتلني قبل أن أنجح في الكتابة عنها. لكنّني الآن، وأنا جالسٌ إلى جهاز الكمبيوتر، أضعُ اللمسات الأخيرة على هذه المشاعر والصور التي حوّلتها إلى كلمات، أشعر باكتمال مهمّتي في نقل صورٍ حقيقية عن الدول التي زرتها، وفي التعبير عن مشاعري، كما كانت إبَّان زيارتي لها.

ما زلتُ، كما كنتُ طفلاً، أحِبُّ السفرَ، وأحلُم برحلات واكتشافات جديدة، وآمل أن أكون نقلتُ شيئاً من حلمي إلى قلوبكم، وزرعْتُ شيئاً من الفرح الذي عشتُه، وأنا أتنقلُ من دولة إلى أخرى، ومن مطارٍ إلى آخر، حاملاً بعض أوراقٍ، وحقيبةً صغيرة، وكثيراً من التّوْقِ إلى المعرفة وحب الاطّلاع، وانفتاحاً واسعاً على الناس والحضارات والثقافات. لقد تعلّمت أنّ الإنسانَ هو حقاً أخو الإنسان، وأنّ ما فرَّقنا هو جهلُنا، وأن لا فرق عندي لو صلَّيت في مسجد أو في كنيسة أو في معبد بوذي، ما دام الله في قلبي، والحبُّ يسكنني. وتعلَّمت أنّه لن يجمعنا شيءٌ إلّا إذا تعارفنا أكثر، وتسامحنا أكثر، وعرفنا كيف نستفيد من خيرات هذا الكون وجماله.

إلى اللقاء في كتاب آخر، قد أُكمِل فيه ما قصَّرتُ عنه هنا، في هذا الكتاب. فإنْ لم أستطِع، لظروف قاهرة، فليَكن هذا الكتابُ نواةً لرحّالة آخر يُكمِل طريقَ الفرحِ والاكتشافات اللامتناهي.